في إقامة وحضور
مجالس العزاء



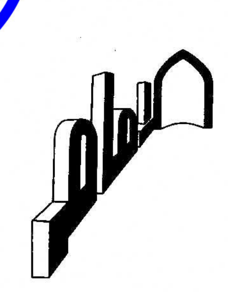
الوصايا العشر

عباس بن نخي



في إقامة وحضور مجالس العزاء

عباس بن نخي



الإهداء:

قَد تجِدُ في العُلَماءِ مَن تَعمَّقَ وتَبحَّر، فأحصىٰ المَسَائل، وٱستقصىٰ الأطْراف، وجمَع الأشْتَات، وأحَاطَ بشَاذِّهَا ومَقِيسِهَا، حتىٰ حمَلَ الأُصولَ وٱحْتَضَنَ الفُرُوع، وصَارَ من جَهَابذَة أهْل النَّظَر والاجتِهَاد... ولٰكن قَلَّ فيهِم العَامِلُون.

فإن وَقَعْتَ علىٰ عَالِم عَامِل، ومجْتَهد عَادِل، وفَقِيه زاهِدٍ مجُاهِد... فَيَنْدُر أن يَكُونَ عَارِفاً مُسْتَنِيراً، خَاضَ العُبَاب وتحرَّىٰ اللُّبَاب، وغَاصَ علىٰ الأسرار وٱستجلىٰ الغَوامِض في الأغْوَار، حتىٰ بلَغ الأعماقَ والتَقَطَ الشَّذَرات من الإشَارَات، وعَادَ بأفلَح التِّجَارات.

فإن حَظِيتَ بعَارِفٍ كَامِل... فَقَلَّ أن يكُونَ مُنْقَطِعاً إلىٰ «آلِ محمَّد» عليهم السلام، يَسْتَشْعِر محْض العُبُوديَّة لِسَادَة الأرضِ والسَّماء، ويَعيش مُطلَق الوَلَاء، ويُمارِس تمامَ الاقتِدَاء.

كَما قَد تجِدُ من الرِّجَال البَاسِل المِقْدَام، والفَارِس الضِرغَام، ومَن بلَغَ في الشَّجَاعَة طَلَب الشَّهَادة... ولٰكن قَلَّ أن يكُونَ المجَاهِدُ الضَّارِبُ بالسَّيْفِ والطَّاعِنُ بالرُّمح، مُبارِزاً بالقَلَم ورَامياً باليَراع! ونَدُرَ أن يَكُونَ ٱبنُ سَاحَاتِ الوَغىٰ، بَطَلَ مَيادِين الصِّراع العَلمِيّ والنِّزَاع الفِكْرِيّ والمواجَهَة العقَائديَّة!

أُهدِي كِتَابي هـذا، إلى «الفَاضِل الدَرْبندِي» ﷺ...

الذي اجتَمَعَت كُلُّ تِلكَ الخصَائِصِ والصِّفَات في شَخْصِه والتَقَت في نَفْسِه لِتَصُوغَ رُوحَه وتُصْطَنَع على عَين الرِّعَاية الإلهيَّة والعِنَاية الخاصَّة المهدَويَّة، فكَأنه اقتَدَى بإمَامِه «أميرالمؤمنين» عليه السلام وحَاكَاه، وإن في شَذْرَة وبَصِيصٍ من خِصَالِه ودَرَجَة دُنيا من كَمالِه وجَلَالِه، فكَانَ جَامع النقَائِض والأضْدَاد، وملتقى المتعَارِضِ والأنداد، وإنْ في حَدِّه الذي لَا يُقَاس بطَبيعَة الحَال بـ «مَوْلَاه».

جَمَعَ رضْوَان الله عَلَيْه العِلْمَ والعَمَل، وصَبَّهما في الطَّاعَة والوَلَاء فبلَغَ أعلى سَنَام الإيمان، وصَارَ في ذُروَة العِرفَان، وقَد أنكَرَ المنكَر، وأظهَر عِلْمَه وتَصَدَّى للغَاوين المبتَدِعين، وانبرى للضُّلَّال المنحَرِفين، كَما نهَض بالدِّفَاع حِين حَانَ حِينُه وجَاهَدَ الغُزَاة الكَافِرين عندَما دهموا بلَاد المسْلمين.

كَان خَادِماً مُخلِصاً لـ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، بَكَّاءً جَزُوعاً، قَائماً بوَاجِب العَزَاء ونَاهِضاً بنَفْسِه بالشَّعَائر الحسَينيَّة، نَاهِيكَ بالدَّعْوَة لها وتَرْوِيجهَا، وكَما عبَّر «الآغا بزُرك الطَّهرَاني» كَانَ: "كَثير الحبِّ لـ «أبي عَبدِالله الحسين» عليه السلام، أثَّرت عَلَيه وَاقِعَة «الطَّفِّ» بشَكْلٍ خَاصٍّ، فكَانَ من أجْلِهَا ثَائراً مَوْتُوراً، كَثير التَّوَجُّع والبُكَاء واللَّطْم والنَّوْح".

سَبَر الفِقْه وبلَغ الفقَاهَة والاجتهاد، وبرَعَ في القَوَاعِد وأتقَنَ الأُصول، وأجَادَ المعقُول وأحكَمَ المنْقُول، وحَفِظَ الحدِيث، وأحْسَنَ الدِّرَاية والرِّجَال، وكَانَ عَالماً بالهيئَة والإكسِير، وغَيرهَا من العُلُوم. هـذا إلى جَانِب تَقْوَاه وعَدَالَته، وزُهْدِه ووَرَعه، ثم غَيْرته وحَمِيَّته، فجُرأته وأنفَتِه وشَجَاعَته. اختَصَّه الله ونُخْبةً من العُلَماءِ بزَعَامة «السيِّد محمَّد المجَاهِد الطبَاطَبَائيِّ الحائري» ﷺ، بفَضِيلَة جِهَادِ «الرُّوس» الذين غَزَوا «إيران» عَام ١٢٤٠هـ. كَما كَان (في الجبهَة الداخِليَّة وعلى الصَّعِيد الفِكْرِيِّ العَقَائدي) أوَّل من تَصَدَّى لفِتْنَة «البَابيَّة» في «كَربَلَاء»... فَضَيَّقُوا عَلَيه، وآذَوْه وحَاصَرُوه، فاصْطَلَمته البَلَايا، وحَطَّت عَلَيه الأهْوَال والرَّزَايا، فَلَمْ يَتَوانَ ولم يَهَن، حتى كَبَسُوا عَلَيه دَارَه، ودَهَموه في بَيْته، وحَاوَلُوا الإجْهَاز عَلَيه واغتِيَاله، فدَافَعَ عن نَفْسِه بما أُوتي، ولَم يَسْتَسْلِم، فَنَالُوا منه وأثخَنُوه بالجِراح.

وهـٰذا الإهـداء يَتَوَجَّه إلىٰ شَخْصِه الكَـرِيم ﷺ، وقَد عَـرفْتَ فَضْلَه وعِلْمَه، وجهَادَه وتَضْحِيتَه، ومكَانته ومَنـزِلَته، ثُم إلىٰ كِتَابه النفِيس، وسِفْره العَزِيز: «أسرار الشَّهَادة»، أو «إكسِير العِبَادَات، في أسرار الشَّهَادات». رَاجِياً منه القبُول... وأن يَذكُرني عِندَ ربِّه، وهو في بَرزَخِه، قد دَخَلَ في الذِمَار، وصَارَ يرفُلُ بنَعِيم الجِوَار.

* * *

الوَصَايا العَشر

المقدمة:

هٰذه مَجْمُوعَة نَصَائح كُنتُ أَخُصُّ بها أبنَائي، ومَن في حُكْمِهم من إخوَة أعزَّاء يَعْمَلُون مَعَنَا في حُسَينيَّتنا، أُلقِيهَا عَلَيهم بين فَيْنَة وأُخرىٰ، مُستَغِلّاً المنَاسَبَة ومُتَحيِّناً الفُرصَة، كُلَّما حَضَر "مَوْسِم العَزَاء" وسَنَحَ سَبَبٌ ووَقَعَت حَادِثة، أنتَهَزْتُها لأجْعَلَها مَدْخَلاً لِبيَان آداب حُضُور المجَالِس الحسَينيَّة وأُصول إقامتهَا.

ولَعَلِّي كُنتُ أُكثر علىٰ بَعْضِهم وأُطِيل، وأَخْتَصِر علىٰ آخَرينَ وأقتَصِر علىٰ اللّازِم الوَاجِب لِسَيْر العَمَل ونَجَاحِه في مجمُوعه، دُونَ رُقيِّ شَخْصِ الآخَر وتَكَامُلِ مَعْرِفَتِه بأهميَّة العَمَل وخَطَرِ الخِدْمَة، ذلك حَسَبَ مَا أَجِدُ في الأفرادِ من قَبُول وألْمَسُ من رَغبَة وطَلَب. مُنطَلِقاً من حِيطَة ـ طَالما لَزِمَتني ـ أن أكُونَ في مَقَام الوَعْظ، وحَذَرِ أن أنصِبَ نَفْسِي نَاصِحاً ومُرشداً... لٰكنه الدَّوْر الذي تَصَدَّيتُ لَه ومَا يَقْتَضي، والحال ومَا يَسْمَح، فهٰذه عُصَارة نحْوٍ من ثَلاثين عَاماً قَضَيْتُها مُقِيماً للمَآتم، وأكثر منهَا مُلتزماً بالحضُور والمشَارَكَة، ثم مُطَالعَاتٍ وتجاربَ وخِبْرات، ومُصَاحَبة صُلَحَاء وعُلَماء وعُرفَاء، وَقَفُوا علىٰ بعضِ أسرار العَزَاء، وأدركُوا شَيئاً من عَظَمَة إحيَاء ذِكْرىٰ «سيِّدِ الشُّهَدَاء».

وقَد طَلَبَ إليَّ بعضُ الإخوَة الكِرام تَـدْوِينهَا وتَسْجِيلهَا، وهكذا نَشْرهَا، لِتَعُمَّ الفَائدَة عن نِطَاقِهَا المحْدُود، المغْلَق في تِلك الجلَسَات الخاصَّة والمشَافَهَات الشَّخْصِيَّة، والخرُوج بها إلىٰ فَضَاءٍ عَام في كِتَاب مَبذولٍ للجَمِيع، وفي مُتَنَاوَل مَن يُريد... وقَد لاقىٰ ذلك رَغْبَة منِّي سَابقَةً، وأمَلاً متقدِّماً، ووَافَقَ تَشْخِيصي لِخَطَر الموضُوع ولُزُوم تَنَاوُله وطَرْحِه، وضَرورة مُعَالجته في إصدَار خَاصٍّ، فالموضُوع ـ في حُدُود اَستِقْرائي وتَتَبُّعي ـ غَير مَطْرُوق ولَا مَسْبُوق، فكَأنَّ هذا العَمَل قَد تَعيَّنَ ووَجَب.

وكُنتُ قد أعدَدْتُ، في خِضَمِّ الحمْلَة التغْرِيبيَّة والهجْمَة التَّشكِيكيَّة التي عَانَتْ منهَا الشَّعَائر الحسَينيَّة في مَطْلع التِّسعينيَّات، علىٰ أيدِي أدْعِيَاء التَّجدِيد من السِّياسِيين الشِّيعَة، كَما فَعَلَ من قَبلُ صَاحِب "التَّنْزِيه" غَفرَ الله لَه... أعدَدْتُ دِراسَة مُفَصَّلَة، وكَتَبْتُ بحْثاً مطَوَّلاً في مَوضُوع الشَّعَائر الحسَينيَّة، لكن لما وَجَدْته خَالِياً من جَدِيد، عَاجِزاً عن إضَافَة مَزيد، مُكَرِّراً لما في نُظَرائه من الكُتُب والدِّراسَات، اَنصَرفْتُ عن إتمامِه وإنجَازِه، وعَدَلْتُ عَن نَشْرِه، وهَا أنا أعْمَـد إلىٰ هذا العَمَل، وقَد كَانَ مُجرَّد جُزْء من فَصْل في ذلك الأوَّل، فَصَارَ نَوَاةً لهذا الذي بين يَدَيْك، بعدَ أن أضَفْتُ إليه، وفَرَّعتُ وفَصَّلْتُ فيه، وزِدْتُ عَلَيه.

ونظَراً لحذَري، الذي سَبَقَت الإشَارة إليه، من دَوْر المرشدِ ومَوْقع النَّاصِح والوَاعِظ، وأُنساً منِّي وتَعَلُّقاً ببعضِ الأعمال الخالِدَة لِعُظمائنا، وإحْدَاها ‹مِرآة الرَّشَاد› لفَقيدِ العِلْم والتقىٰ آية الله العظمىٰ «الشيخ عَبدالله المامَقَاني» ﷺ، وهو كِتَابٌ علىٰ صِغَر حَجْمِه (بالنِّسبَة لأخِيه ‹مِرآة الكَمال›) وإيجازِه، إلَّا أنني نهِلْتُ منه واَستَفَدْتُ، وتأثَّرتُ به وتَعلَّقتُ حتىٰ عَشِقْته... رأيتُ ـ هُنا ـ أن أُجَارِيه، وأقتَبِس من نهْجِه (ونهْج غيره من كُتُب المواعِظ والأخْلَاق)، فأجْعَل الصِّياغَة علىٰ نَحْوِ مخاطَبة اَبني العَزِيز «عبدالزَّهرَاء»، فَلَا حَرَجَ من نُصْحِه ووَعْظِه، ولَا غَضَاضَةَ في تَوْجِيهِه وإرشَادِه، بل أمْرِه ونَهيِه، ومُلَاحَقَته في اَلتِزَام النصَائح، ومُتَابعَته علىٰ تَنفيذهَا والتَّقيُّد بها.

وقَد جَعَلْتُها عَشْراً، تَيَمُّناً بِوَصَايا نَبيِّ الله «موسىٰ» ؛، ثم لِتَكُونَ مَع "الفَجْر" و "الشَّفْع والوتْر" أربَعةَ عَشَر، يُشِيرون إلىٰ الذِين يُشَكِّلُون أعمِدَة الوُجُود، وأركَان التوحيد، ووِعَاء الإرادة الإلهيَّة.

وبعدُ، فأنا أغتَنِمُ الفُرْصَة، لأتقَدَّم إلىٰ الذين عَمِلُوا مَعي في هـٰذا الحقْل المقدَّس طِيلَة مَسِيرتي، صِغَاراً وكبَاراً، وفيهِم مَن أخَذَ بيَدِي، من حَيث يَدْرِي أو لا يَدْرِي! فأسدَىٰ إليَّ جَميلاً وطوَّقَني بمَعْرُوف وهو يُعِينني علىٰ حَالي، بقَوْل عَفويٍّ طَرَقَ مَسَامعَ قَلبي، ووَقَع علىٰ جُرحي، بلْسَماً يدَاوي الأمراض ويُطَبِّب مَا أمكَنَه من آفات، أو سُلُوكٍ سَجَّل المفَارقَة في نَفْسي وأنا أُقارِنه بضَحَالَة مَا لَدَيَّ وقلِيل مَا عِندِي!

ومما لَا بُدَّ لي من بَيَانِه هُنَا، وأجعَله دِيبَاجَة لِوَصَايَاي، هُو أنني قُمْتُ بالاستِدلَال وبيَان خَلْفيَّة بَعضِ الوَصَايا وشَرْح الوَجْه فيها، بينما ألقيتُ غيرَهـا علىٰ نَحْوِ ما اختَلَج بالخلَد، وانقَدَح في الذهْن، وتَلَقيته عن تجربة ممتدَّة، وبَلَغْته بخِبرة وممارَسَة طَوِيلَة... فمَن آنسَ منهَا رُشْداً ووَجَدَ فيها سَدَاداً فليَأخُذ بها، وإلَّا فَليَدَعْها ولَا يُحاجِّني فيهَا، إذ هي نصَائحُ وإرشَاداتٌ مُوَجَّهة بالخُصُوص لِوَلَدي «عبدالزَّهرَاء» وإخْوَانه، ولمن في حُكْمِهِم، ممن يحقُّ لي أن أُرشدَهُم، ويُرِيدُون ذلك ويَطلُبونه.

❁ ❁ ❁

الوصية الأُولى:

خطر المجلس الحسيني وأهميته

إعلَم بُنيَّ، أنَّ حِفْظَ الدين وبقَاء الإسلام، ووُصُوله إلينا سَالماً من التَّحْرِيف نَقِيّاً من الدَّسّ والزيْف، أصِيلاً في نَهْجِه، مُعَافَىً في فِكْره ومَفَاهيمه، ثم الأمَل في بقَائه والرَّجَاء أن يَبلُغ الأجيَال القَادِمَة التي ستَخْلُفنا... يُعزىٰ لأمرَيْن، ويكْمُن ويَعُود إلىٰ السرِّ فيهما:

الأول: شَعَائر عَزَاء «سَيِّد الشُّهَداء» عليه السلام.

الثاني: الحوْزَة العِلميَّة والمرجعِيَّة الشِّيعيَّة.

قَدِّم هذا وأخِّر ذاك، فَلَا غَضَاضَة... هذا بعد الفَراغ من الدَّوْر الغَيبيِّ الذي يَكْتَنِفُ الأمر، والرِّعَاية الخَفِيَّة التي تَحوطُه علىٰ يَدِ مَوْلَانا «الحجَّة بن الحسَن» عليه السلام، فنَحنُ هُنا نعرِض للأسبَاب الطَّبِيعِيَّة والعِلَل الظَّاهِريَّة التي هي الأُخْرىٰ جُودٌ من يُمْن وُجُوده.

من هُنا لَا تَرىٰ سِهَام الأعداء، المعْلَنة والخَفِيَّة، تَتَوَجَّه إلىٰ شَيءٍ من مَعَالم دِيننا تَوَجُّهها إلىٰ هذين الركْنَيْن الركينَيْن، لِعلْمِهم بخَطَرها ودَوْرِها، ولَا تَرىٰ نَصْبَهُم وعَدَاءَهُم يَنصَبُّ علىٰ شَيء، انصِبَابه علىٰ هذين الأصْلَيْن الأصيلَيْن. ولَعلَّ المعركَة السرِيَّة والحربَ الخَفِيَّة أشَدُّ ضَرَاوةً وأقسىٰ وَقْعاً وأحمىٰ وَطيساً من المعْلَنَة التي تُرىٰ وتُشْهَد.

فأنتَ بإحْيَائك الشَّعَائر الحسَينيَّة، وانْخراطِك في هذا الميدَان، إنما تَصْطَفُّ في أخْطَر مَوْقع، وتَتَصدَّىٰ لأعظَم عَمَل وتُلامِس جَوْهَر الحقيقة، وتَنتَظِم في صُلْب القَضِيَّة... إذ أغلَب المَيَادِين والجبَهَات التي يَنْشَغِل فيهَا النَّاس ويَخوضُون، ومنهُم مُؤمنُون مُلتَزِمُون (يحْسَبُون أنهم يجاهِدُون!) هي جَبَهات وَهميَّة، ومَيادِين كَاذِبة، وإن كَانَ لِبعْضِهَا نَصيبٌ من الحقِّ والحِقيقَة، فهِي تَفتَقِد الأرجَحِيَّة التي اعتَمَدْتَها، والأولَوِيَّة التي انصرَفْتَ أنتَ إليهَا، وأكرمَكَ الله سُبحَانه وتعالىٰ وبَصَّرك بإدْراكِهَا والانْشِغَال بها.

فَلَو تَأمَّلتَ لَوَجَدْتَ أنَّ العِلَّة الحقِيقيَّة لخلْقِك، والسببَ الأصليَّ لِوُجُودك في هذه الحيَاة الدُّنيَا، هُو النُّهُوض بهذا الدَوْر الأعظَم، أي: إقَامَة العَزَاء على سِبْط «رسُول الله» و«سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وإحياء ذِكْره وأمره... فما جَاءَ في الذِّكْرِ الحكِيم من قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات)، يَعْني، كَما وَرَدَ عَنْهُم عليهم السلام، (وعَن غَيرهم): "إلَّا ليَعْرِفُون". (١)

وهو مَا صرَّح به الحدِيثُ القُدْسيُّ: "كُنتُ كَنزاً مَخفِياً فأحْبَبْتُ أن أُعْرَف، فخَلَقْتُ الخلْق لِكَيْ أُعْرَف". (٢)

وفي أصْل «زَيد الزرَّاد» من (الأُصُول الأربَعمِئة) عنه، عن «أبي عَبدالله» عليه السلام قال: "قَال «أبوجَعفَر» عليه السلام: يَا بُنيَّ، إعرِف مَنَازِلَ شِيعَة «عَليٍّ» على قَدْر رِوَايتِهم ومَعرفَتِهم، فَإنَّ المعرِفَة هي الدِّرَاية للرِّوَاية، وبالدِّرَايات للرِّوَايات يَعْلُو المؤمن إلىٰ أقصىٰ دَرَجَة الإيمان. إني نَظَرتُ في كِتَاب لـ «عَليٍّ» عليه السلام فَوَجَدْتُ فيه: إنَّ زِنَة كُلِّ امرِئ وقَدْره مَعْرِفَتُه، إنَّ الله عزَّ وجَلَّ يُحاسِبُ العِبَاد علىٰ قَدْر ما آتاهُم من العُقُول في دارِ الدُنيا". (٣)

والطَّريق إلىٰ تحقِيق تِلك الغَاية السَّامِية وبلُوغهَا منْحَصِرٌ في العِلْم والعَمَل، فالفَضْل والسَبْق فيهما...

(١) (عِلَلُ الشَّرايع) لـ «الشيخ الصَّدُوق»: الباب ٩، ح١ـ ٩، خرَج «الإمـام» عليه السلام علىٰ أصحَابه فَقَال: أيها النَّاس، إنَّ الله ما خَلَقَ العِبَادَ إلَّا ليَعرفُوه... قَال رَجُلٌ: يَا «ابن رَسُول الله» بأبي أنتَ وأُمِّي فما مَعرِفة الله؟ قَال: مَعرفة أهْل كُلِّ زَمَان إمَامَهم الذي تجبُ عليهِم طَاعَته.

(٢) (الكَلمات المكْنونة) لـ «الفَيْض الكَاشاني»: ٣٣.

(٣) (الأُصول الستَّة عَشَر) أصل «زيْد الزرَّاد»: ٣ ـ ٤.

أمَّا العِلْم فَسَبِيلُه مَعرُوف، ويَكَاد يكُون مَحصُوراً أو قُلْ مُتعَيِّناً، تَتَلَقَّاه من الحوْزات العِلمِيَّة، على الطريقَة التقْلِيدِيَّة التي مضىٰ عَلَيهَا عُلَماؤُنا وعُظَماؤُنا، والنَّهْج المبَارَك الذي حَفِظَ تُراثنا، أو تَتَثَقَّف من رشَحَاتِهِم وتكْتَسِب من فَضْل مَا يَبْذلُون هُنا وهُناك، أمَّا العَمَل فطَرِيقُ العِبَادَة والطَّاعَة والتربيَة، والسَّيْر والسُّلُوك مُشْرَع على مِصْراعَيْه.

وهذا الميدَان، الاشتِغَال بإحْيَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة، هو أتمُّ مِصْدَاق وأجلىٰ عُنوَان، ومَجمَع العِلْم والعَمَل، فـ «الحسَين» سَفِينَة النَّجَاة وبَابُ الرَّحمة... إنه البَابُ الذي فَتَحَه الله والمدْخَلُ الذي جَعَلَه، والسَّبيل الذي شَقَّه لِلمَعْرِفة، إنَّ خِدْمَة «سَيِّد الشُّهَدَاء» هي التي تَأخُذ بيَدِك لتُحقِّق غَاية خَلْقِك وتَنتَهي بِكَ إلىٰ النُّهُوضِ بما يَقْرُب من الاقتداء بإمَام زَمَانك ويُقَرِّبك إليه، إذ «المولىٰ» عليه السلام منصَرِفٌ يَوْمَه كُلَّه في إقَامَة العَزَاء، مَشْغُولٌ في جُلِّ وَقْته بالبكَاء! سَمِعْتُ هذا مبَاشرة وأخَذْته مُشَافَهَة من فَقِيه عَالم وعَارِف كَامِل، هو آية الله العظمىٰ «الشيخ الوَحيد الخُراسَاني» دَام ظِلُّه، الذي يَقُول: "إنَّ «إمامَ الزَّمَان» عليه السلام يَشْهَدُ مَنْظَر «الطَّفِّ» في كُلِّ صَبيحَة وغُرُوب، هذه هي حَيَاة «وَلِيِّ العَصْر»! إنَّ قَميصَ جَدِّه «سَيِّدُ الشُّهَداء» مُعَلَّقٌ في صَدْر الدَّار التي يَقْطُنهَا، بحَيْث يَشْهَد فيهَا كُلَّ يَوْم مَنْظَر القَمِيص! وهذا القَمِيص سيبقىٰ علىٰ تِلك الحَال حتىٰ يَرىٰ (المولىٰ) تَجَدُّدَ الدِّمَاء عَلَيه، ونبُوعهَا منه... فيعْلَم أنَّ سَاعةَ ظهُوره قَد حَانت"! ويُضِيف «الشيخ»: "لَا شَكَّ أنَّ «إمامَ الزمان» عليه السلام جَوَّالٌ في زِيَارة أوليَاءِ الله، ولَا حِجَابَ أمَامَه دُونَهم، فهُوَ علىٰ قَبر «أميرالمؤمنين» عليه السلام يرىٰ ذلك المنْظَر، وفي «البَقِيع» (يشْهَد) تِلكَ المنَاظِر، وفي «كَربَلَاء» كَذلك، وكُلُّها تَتَجَسَّدُ أمَامَه لِيَراهَا، هكذا تَقضي هذه الرُّوح القُدْسِيَّة حَياتها". [١]

ولَا تَسَل عن الآفَاق والأبعَادِ التَّكْوِينيَّة التي تَجْرِي علىٰ يَدَيه عليه السلام، وكَيفَ عَسَاهُ أن يُدبِّر الأمر ويحفَظ الأرضَ أن تَسِيخ بأهْلِها وهُو يَقْضِي وَقته في البكَاء؟! وتَتَوَهَّم التعَارُض عندَ انشِغَالِه بهذا عَن ذاك! فهُو إمَام "الزَّمَان" والوَقْت والحيْث والمكَان، وكُلُّ شَيءٍ رَهْن إرادَته وطَوْع إشَارته، بَل لَو شَاءَ لقَلَبَ طِبَاع الأشيَاء، كَما ذكَر «البَهَائيُّ» في رُبَاعِيَّاته:

---

(١) (مقتطَفَات وَلَائيَّة) محَاضَرات لـ «الشيخ الوَحيد» ترجمهَا المؤلف، ص٥٥.

ذُو ٱقتِدَارٍ إن يَشَأْ قَلْبَ الطِّبَاعْ
صَيَّرَ الإظلَامَ طَبْعاً للشُعَاعْ
وٱرتَدَىٰ الإمكَانُ بُرْدَ الإمتِنَاعْ
قُدرةٌ مَوْهُوبَةٌ مِن ذِي الجلَال

علَيكَ بُنيَّ أن تُلْقي بنَفْسِكَ علىٰ هـٰذه الأعتَاب مخلِصاً مُنادِياً أن: تَلافَني يَا سيِّدي ومَوْلاي وأدرِكني، لتَشمَلَكَ الرَّحمَة الرَّحيميَّة، ويَعمَّكَ كَرَمه وتَنَال عِنَايته بَعدَ جُودِه ولُطْفِه، فتُكْتَب لكَ النَّجاة... إنَّ سِرَّ البلُوغ يكْمُن في الطَّاعَة بَعد الخضُوع والأدَب، وكُلَّما رَأوا مِنكَ ذلك، أعْطَوْك ومَنَحُوك ووَهبُوك، فٱزدَدْتَ وٱرتقَيْت، وكُلَّما تكَبَّر المرءُ وتجبَّر، وقَاسَ بعَقْلِه الوَاهي وتردَّىٰ في هَوَاهُ وتَغَطْرَس، أعرَضُوا عَنه وتَركُوه لحال سَبيلِه، يتَخَبَّط في تيهِه.

إنَّ ذِرْوة المعْرِفَة وغَايتهَا، وقمَّة العَمَل وأقصَاه، يَكُون في مَا يحقِّق وَعْدَ «النبيِّ» الأعظَم ﷺ الذي قَطَعَه في حَدِيثه مع ٱبنَتِه «الزَّهْرَاء» عليها السلام، لما أطْلَعهَا علىٰ خَبَر ٱستِشْهَاد وَلَدِهَا وعَزيزهَا «الحسَين» عليه السلام، ومَا سَيَجْري علىٰ أهلِه وعيَالِه وأصْحَابه...

بكَتْ «فاطمة» بكَاءً شَديداً، وقَالَت: يَا أبتِ متىٰ يكُون ذلك؟

قَال: في زَمانٍ خَالٍ منِّي ومنكِ ومن «عَليٍّ».

فٱشتَدَّ بكَاؤهَا وقَالَت:

يَا أبتِ فمَن يَبكي عَلَيه؟ ومَن يَلتَزِم بإقَامة العَزَاء لَه؟

فقَال «النَّبيُّ» الأعظَم ﷺ : يا «فَاطِمَة» إنَّ نَسَاء أُمَّتي يَبكُون علىٰ نسَاءِ أهل بَيْتي، ورجَالهم يَبكُونَ علىٰ رِجَال أهْل بيْتي، ويُجَدِّدُون العَزَاء جِيلاً بعْدَ جِيل، في كُلِّ سَنَة. فإذا كَان يَوْم القِيَامَة تَشفَعين أنتِ للنِّسَاء، وأنا أشْفَعُ للرِّجَال، وكُلُّ مَن بكىٰ منهُم علىٰ مُصَاب «الحسَين» أخَذْنا بيَدِه وأدْخَلنَاه الجنَّة.

يَا «فَاطِمَة»! كُلُّ عَيْن بَاكِية يَوْم القِيَامة، إلَّا عَينٌ بَكَتْ علىٰ مُصَابِ «الحسَين» فإنها ضَاحِكة مُسْتَبشِرة بنَعِيم الجنَّة.[1]

---

(١) «العوالم، الإمام الحسين» لـ «الشيخ عبدالله البحراني» ص٥٣٤.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَستَشْعِر، وأنتَ تَدْخُل المأتم أو الحُسَينيَّة، الرُّوحَ التي تحكُم هذي الرِّحَاب المقدَّسَة، والمعنىٰ الذي يَكتَنِف هذا الفَضَاء الملكُوتي، فهذا المكَان لَيسَ كغَيْره من الدُّور والبيُوت.

واحْذَر أن يأخُذكَ تَواضُع الأثاثِ وبَخْسُ المتاع، أو نَوعيَّة الحضُور ومَنزلَتهم في عُرف المجتَمع ونظْرة النَّاس، إلىٰ غَير ما يَنبَغي من التَّوْقير والتَّعظِيم والإجْلَال، ويجبُ من إيلَاء المقَام حَقَّه وحُرْمته... فهذه الجدْرَان والسَّقْف، والنوَافِذ والأبواب، وهذا السجَّاد وهذه الوَسَائد والفُرُش لَيسَت كَمَثِيلَاتها، وهذه الأعوَاد التي صُنعَ منها المنبر لَيسَت كَغَيْرها، لَقد تعلَّق بها الخيْر وحَلَّت فيها البركَة وغرِقَت في الرَّحمة، ولَعَلَّها أدركَت ذلك بِسَابِق عَهْد منهَا وإرادَة! نَعَم، فالجمادُ يَشْعُر ويُدرِك ويختَار ويُريد، ولكن بنِسْبة ودَرَجَة، ومن حَيْثِ وبكَيفيَّة تُنَاسِبُ شَأنه وطَبيعَته، فمِنه مَا أرادَ أن يكُونَ كُرسيّاً يتربَّع عَلَيه طَاغِيَة، أو عَصاً يُجلَدُ بها مظلُوم، أو منْضَدَة تَصِير مَائدَة خمْر أو مَيْسِر، أو جَزْلاً يَضْرِم النَّار ببَاب «فَاطِمَة»، أو قَوْساً يَرمي مُعَسْكَر «سَيِّد الشُّهَدَاء» عَاشِر «عَاشُوراء»... ومنه مَا اختَارَ أن يُكون عَمُوداً في خِبَاء مَولاتنا «زَينَب» عليها السلام، أو مِنبراً يَرقَاهُ رَاثٍ يَندُبُ «الحسَين» عليه السلام.

ولَو ظَهَرَت الأُمور علىٰ حَقَائقهَا، لَرَأيتَ المكَان (الحسَينيَّة المتوَاضِعَة) أفخَم من أرفَه الدُور وأوْسَعهَا، وأعظَم من أبذَخ القُصُور وأرْحَبهَا، بَلْ لَو انكَشَف لَكَ الغِطَاء وتجلَّت لكَ الصوَر لرأيتَ أنك في وَاحِدَة من قصُور الجنة، ودُور الفردَوْس الأعلىٰ.

وقَد سَمِعْتُ من عُلَماء أجِلَّاء وخُطَبَاء أتقِيَاء، كَما لمستُ بالحسِّ ورَأيتُ بالأثر مَا يُصَحِّح قَوْلاً ويُمضي رأياً يذهَب إلىٰ أنَّ: مجلِس «الحسَين» كَقُبَّة «الحسَين» عليه السلام أو كَحَرَمه المنيف، في الخَطَر والفَضْل والحُرمَة[1]، لَا علىٰ نَحْوِ التَّطَابق بطَبيعة الحَال، ولكن بشَيء يحكي ذلك القُدْس وشَمَّة تُشير إلىٰ ذاك الجلَال.

وبَعد بيَان جَانب من عَظمَة المأتم والمجْلِس، وفَضْل الموْضع الذي يُقَام فيه عَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وحُرمَة الحُسَينيَّات، ومَع عِلْمي بأنكَ وَاقفٌ علىٰ جَانِب من الأمر وعَارِفٌ بعضَ عَظَمَته، إلَّا أنني أرغَبُ في بَسْطِ القَوْل ومَزيدٍ من التَّفْصِيل في هذا البَاب...

---

(١) ممن ذكَر ذلك «الشيخ جَعفَر التُستَري» في (الخَصَائص) ص٢٤٦.

فإنَّ عُمْدَةَ مَا أُريدُ هُو أن تَستَحْضِرَ وأنتَ تَدْخُل المجْلِس، الدَّوْرَ والموْقِعَ التكْوِيني الذي صِرتَ فِيه، وصَارَ يتَجَلّى ويتَحَقّق بهذه الممارَسَة الملَكُوتيَّة التي تَقُومُ بها.

لِذَا سَأسرُد لكَ مَزيداً من الأحَادِيث الشَّريفَة التي تُشِير إلىٰ خَطَر الأمر وعَظَمتِه، وتكْشِف الجَانبَ التَّكْوينيَّ والغَيْبيَّ الذي يحفُّ هذه الممارَسَة، أُوصيك أن تُلْحِقَ ما تَنتَخِب منهَا وتجعَله في "الأربعِين" من محفُوظَاتك، وقَد قَسَّمْتُهَا لَكَ من قَبلُ عَشَرات: عَشرة في العَقَائد، وثَانية في العِبَادات والأخْلَاق، وثَالِثة في آداب الأُخوَّة والعِشْرة، ورابعَة تجعَلها خَاصَّة بـ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، زِيارته وعَزائه...

* حَدِيث "الأربَعْمِئة" عن «أميرالمؤمنين» عليه السلام:

إنَّ الله تَبَارك وتَعَالىٰ اطَّلَع إلىٰ الأرضِ فاختَارنَا، واختَارَ لَنَا شِيعَةً يَنْصُرُوننا، ويَفْرَحُونَ لِفَرَحنَا، ويحزنُون لحزننا، ويَبذُلُونَ أموَالهم وأنفُسَهُم فينا، أُولئك مِنَّا وإلينَا.[١]

* حَدِيث «مَسْمَع كُرْدِين»:

قَال «أبو عَبدِالله» عليه السلام: يَا «مَسْمَع» أنتَ من أهلِ «العِرَاق»، أما تَأتي قبرَ «الحُسَين»؟ قُلتُ: لَا، أنَا رَجُلٌ مَشهُورٌ من أهْل «البَصْرة»، وعندَنا من يَتبعُ هَوَىٰ هذا الخَلِيفَة، وأعْدَاؤُنا كَثيرة من أهْل القَبَائل، من النُّصَّاب وغَيرهم، ولَسْتُ آمنهم أن يَرْفَعُوا علَيَّ عِند ولد «سُلَيمان».

قَال عليه السلام: أفما تَذْكُر مَا صُنعَ به؟ قُلتُ: بلىٰ.

قَال عليه السلام: فتَجْزَع؟ قُلْتُ: إي والله وأستَعْبِر لذَلك، حتىٰ يَرىٰ أهْلي أثرَ ذلك علَيَّ، فأمتَنع من الطَّعَام حتىٰ يَستَبين ذلك في وَجْهِي.

قَال: رَحِمَ الله دَمعَتك، أما إنَّك من الذِين يُعَدُّون في أهْل الجزَع لَنَا، والذِين يَفرَحُون لِفَرَحِنا، ويحزنُون لحُزننا، ويَخافُونَ لخوْفنا، ويَأمنُون إذا أمِنَّا، أمَا إنَّك سَتَرىٰ عند مَوتك حُضُور آبَائي لَك، ووَصيَّتهُم مَلَك الموْتِ بك، ومَا يَلْقونَكَ به من البِشَارة مَا تَقَرُّ به عَيْنُك قَبلَ الموْت، فمَلَك الموْت أرقُّ عَلَيكَ وأشَدُّ رَحمة لَكَ من الأُم الشَّفِيقَة علىٰ وَلَدِها.

---

(١) «الخِصَال» لـ «الشيخ الصَّدُوق»: ج٢ ص١٦٥ ـ ١٦٩.

قَال: ثُم اَستَعْبَر واَستَعْبَرتُ مَعَه، فقَال عليه السلام:

الحمْدُ لله الذي فضَّلَنَا على خَلْقِه بالرَّحمة، وخَصَّنا «أهلَ البيت» بالرَّحمة. يَا «مَسْمَع» إنَّ الأرضَ والسَّماء لَتَبكي مُنذُ قُتِل «أميرالمؤمنين» رَحمةً لَنَا، ومَا بكىٰ لَنَا من الملَائكَة أكثر، ومَا رقَأتْ دُمُوعُ الملائكَة منذُ قُتِلنا، ومَا بكىٰ أحَدٌ رَحمةً لَنَا ولما لَقِينا إلَّا رَحِمَه الله قَبلَ أن تخرُج الدَّمعَةُ من عَيْنِه، فإذَا سَالَت دُمُوعُه علىٰ خَدِّه فلَوْ أنَّ قَطْرة من دُمُوعه سَقطَت في جَهَنَّم لأطْفَأت حَرَّها حتىٰ لَا يُوجَد لها حَرٌّ. وإنَّ الموجَعَ قَلْبُه لَنَا لَيَفْرَح يَوْمَ يَرانَا عند مَوْته فرْحةً لَا تَزَال تِلكَ الفَرْحَة في قَلْبه حتىٰ يَرِدَ عَلَينَا الحَوْض، وإنَّ «الكَوْثَر» لَيَفْرَحُ بمُحِبِّنا إذا وَرَدَ عَلَيه، حتىٰ إنه لَيُذيقه من ضُرُوب الطعَام مَا لَا يَشْتَهِي أن يَصْدُر عنه.

يا «مَسْمَع» من شَرِبَ منه شَرْبَة لم يَظْمَأ بَعدَها أبداً، ولم يَشْقَ بَعْدَها أبداً، وهُو في بَرْد الكَافُور ورِيح المِسْك وطَعْم الزنجَبيل، أحلىٰ من العَسَل، وألْيَنَ من الزُّبْد، وأصفىٰ من الدَّمْع، وأذكىٰ من العَنْبَر، يخرُجُ من "تَسْنِيم"، ويَمرُّ بأنهَارِ الجِنَان، تَجرِي علىٰ رَضْراضِ الدُّرِ والياقُوت... يَوجَدُ رِيحُهُ من مَسِيرة ألفِ عِام، قدَحَانه من الذَّهَب والفِضَّة وألْوَان الجوْهَر، يَفُوحُ في وَجْه الشَّارِب منه كُلُّ فَائِحَة، يَقُول الشَّارِبُ مِنه: لَيتَني تُرِكْتُ هٰهنا، لَا أبغي بهٰذا بدَلاً، ولَا عَنه تَحوِيلاً.

أما إنَّك يا «كُرْدِين» ممن تُروىٰ منه، ومَا مِن عَيْنٍ بَكَت لَنَا إلَّا نُعِّمَت بالنَّظَر إلىٰ «الكَوثَر»، وسُقِيَت منه... وإنَّ علىٰ «الكَوثَر» «أميرالمؤمنين» عليه السلام وفي يَدِه عَصاً من عَوْسَج، يَحطِمُ بها أعدَاءَنا، فيقُولُ الرَّجُل منهُم: إني أشهَدُ الشَّهادتَيْن!

فيقُول: اَنطَلِق إلىٰ إمامِك "فُلَان" فاَسأله أن يَشْفَع لَك.

فيقُول: يَتَبرَّأ منِّي إمَامي الذي تَذْكُره!

فيقُول: اَرْجعْ ورَاءَك فَقُل للذي كُنْتَ تَتَوَلَّاه وتقَدِّمه علىٰ الخَلْق فاَسأله ـ إذ كَان عِنْدَكَ خَيْر الخلْق ـ أن يَشْفَع لَك، فإنَّ خَيرَ الخلْق حَقِيقٌ أن لَا يُرَدَّ إذا شَفَع.

فيقُول: إني أهْلَك عَطَشاً؟

فيقُول: زَادَكَ الله ظَمأً، وزَادَكَ الله عَطَشاً.

قُلتُ: جُعِلتُ فِدَاك وكَيفَ يَقْدِر علىٰ الدُّنوِّ من الحوْضِ ولم يَقْدِر عَلَيه غَيرُه؟

قَال: وَرِعَ عن أشيَاءَ قَبيحَة، وكَفَّ عن شَتْمِنا إذا ذُكِرنَا، وتَركَ أشْيَاءَ اجتَرأ عَلَيهَا غيرُه، ولَيْسَ ذلك لحُبِّنَا، ولاَ لهوَىً منه، ولكن ذلك لِشِدَّة اجتِهَادِه في عِبَادَتِه وتَدَيُّنه، ولما قد شَغَلَ به نفْسه عن ذِكْر النَّاس، فأمَّا قَلْبُه فمُنَافِق، ودينُه النَّصْب باتبَاع أهْلِ النَّصْب وولاَية الماضِين، وتَقْدِمَةً لهما على كُلِّ أحَد.(١)

* حَدِيث «الفُضَيْل بن يَسَار»:

أنَّ «الصَّادِق» عليه السلام سَأله: أتجلِسُون وتحدِّثُون؟

قَالَ: نَعم، جُعِلتُ فِدَاك. قَال عليه السلام: إنَّ تلكَ المجَالِس أُحِبُّها، فأَحْيُوا أمرَنَا، فَرَحِمَ الله من أحْيَا أمرنا. يَا «فُضَيْل»، من ذَكَرنا أو ذُكِرْنا عندَه، فخَرَجَ من عَيْنه مِثل جَنَاحِ الذبَاب، غَفَرَ اللهُ لَه ذُنوبه.(٢)

* حَدِيث «الريَّان بن شَبيب» قَال:

دَخَلْتُ على «الرِّضا» عليه السلام في أوَّل يَوْم من المحرَّم، فقَال لي:

يَا «ابن شَبيب»، إنَّ المحرَّم هو الشَّهرُ الذي كَانَ أهْلُ الجَاهِليَّة فيما مضى يُحرِّمون فيه الظُّلْم والقِتَال لحُرْمته، فما عرفَت هذه الأمة حُرْمة شَهْرِها، ولاَ حُرْمَة نبيِّها صلى الله عليه وآله، إذ قَتَلُوا في هذا الشَّهْر ذُرِّيته، وسَبَوْا نِسَاءَه، وانتَهَبوا ثِقْلَه، فَلاَ غفرَ الله لهم ذلك أبداً.

يَا «ابنَ شَبيب»، إن كُنْتَ بَاكِياً لِشيءٍ، فابْكِ لـ «الحُسَين» عليه السلام، فإنَّه ذُبِحَ كما يُذْبَح الكَبْش، وقُتِلَ معَه من أهْل بَيْتِه ثمانيَة عَشَرَ رَجُلاً مَا لهم في الأرضِ شَبِيه، ولقَد بَكَت السَّماوَات السَّبعُ والأرضُون لِقتْلِه.

إلى أن قَال عليه السلام: يَا «ابنَ شَبيب»... إن بَكَيتَ على «الحسَين» عليه السلام حتى تَصيرَ دُموعُك على خدَّيْك، غَفَرَ الله كُلَّ ذنْب أذنَبته، صَغِيراً كَانَ أو كَبيراً، قَلِيلاً كَانَ أو كَثيراً.

يا «ابنَ شَبيب»... إن سَرَّكَ أن تلقى الله عَزَّ وجَلَّ ولاَ ذنْبَ عَلَيك، فزُرِ «الحسَين» عليه السلام.

يا «ابنَ شَبيب»... إن سَرَّكَ أن تَسكُن الغُرَفَ المبنيَّة في الجنَّة مع «النبيِّ وآله» عليهم السلام فالعَن قَتَلَة «الحسَين» عليه السلام.

---

(١) (كَامل الزِّيَارات) لـ «ابن قُولَويه القُمِّي» ص١٠١ ح٦.

(٢) (قُرب الإسناد) لـ «الدَّيْلَمي» ص١٨.

يَـا «اْبنَ شَبيب»... إن سَرَّكَ أن يَكُـونَ لكَ من الثَّـوَاب مثلَ مَـا لمن اْستُـشْهِـدَ مع «الـحُسَين» عليه السلام، فَقُل متىٰ ذكَرته: يا لَيتَني كُنْتُ مَعَهُم فأفوزَ فَوْزاً عَظِيماً.

يا «اْبنَ شَبيب»... إن سَرَّكَ أن تَكُون معَنَا في الدَّرَجَات العلىٰ من الجِنَان، فاْحْزَن لِحُزننـا، واْفرَح لِفَـرَحِنـا، وعَلَيكَ بولاَيتِـنا، فَلَـوْ أنَّ رجُلاً أحَبَّ حَجَراً لَحَشَرَهُ الله معه يَوْمَ القِيَامة.(١)

* حَديث «مُعَاوِيَة بن وَهَب» في الجزَع:

أنَّ «أبا عَبدالله جَعَفر بن محمَّد الصَّادِق» عليه السلام قَال: كُلُّ الجزَعِ والبُكَاءِ مَكْرُوهٌ، ما خَلاَ الجزَع والبُكَاء لِقتْل «الحسَين» عليه السلام .(٢)

* حَدِيث «الطريحي» عن «الصَّادِق» عليه السلام قَال:

رَحِمَ الله شِيعَتَنا، إنهم أُوذُوا فينَا ولم نُؤْذَ فيهِم، شِيعَتُنا مِنَّا، خُلِقُوا من فَاضِل طِينتِنَا، وعُجِنُوا بنُورِ وِلاَيتنا، رَضُوا بنَا أئمَّةً ورَضينا بهم شِيعَة، يُصِيبُهم مُصَابنا، وتُبكِيهِم أوْصَابنا، ويُحزِنُهم حُزننا، ويُسرُّهُم سرُورنا.

ونَحْنُ أيضاً نتَأَلَّم لتَأَلُّمِهِم ونَطَّلع علىٰ أحْوَالهم، فَهُم معَنَا لاَ يُفَارِقُونا ولاَ نُفَارِقهُم، لأنَّ مَرْجع العَبْد إلىٰ سَيِّدِه ومُعَوَّله علىٰ مَوْلاَه، فهُم يَهْجُرون مَن عَادَانا، ويجهَرُون بمَدْح مَن وَالاَنا، ويُباعِدُون من آذانا.

اللهُمَّ أحْيِ شِيعَتَنَا في دَوْلتِنَا وأبقِهِم في مُلْكِنا، اللهُمَّ إنَّ شِيعَتَنا منَّا ومُضَافِين إلينَا، فمَن ذكَرَ مُصَابنا وبكىٰ لأجْلنا أو تَباكىٰ، اْستحىٰ اللهُ أن يُعذِّبه بالنَّار.(٣)

* حَدِيث «مُعاوِية بن وَهَب» في "الصَّرخَة"، قَال:

اْستَأذنتُ علىٰ «أبي عَبدالله» عليه السلام فَقِيلَ لِي: اْدخُل.

فَدَخَلْتُ فوَجدْتُه في مُصَلاَّه، فجَلَسْتُ حتىٰ قضىٰ صَلاَته، فسَمِعته يُنَاجي ربَّه وهُو يقُول: يَا مَن خَصَّنا بالكَرامة، وخَصَّنا بالوَصيَّة، ووَعَدنا الشفَاعَة، وأعطَانا عِلْمَ ما مضىٰ

(١) (عُيون أخبار الرِّضَا) ج١ ص٢٩٩ ح٥٨.
(٢) (أمالي الطوسي) ج١ ص١٦٢.
(٣) (منتخَب الطريحي) ص٢٦٨.

ومَا بَقِي، وجَعَلَ أفئِدَةً من النَّاسِ تَهْوِي إلينَا، اغفِر لي ولإخْوَاني ولزُوَّار قَبْر «أبي عبدالله الحسَين» صلَوَاتُ الله عَلَيه، الـذين أنفَقُوا أمْوَالَهُم، وأشْخَصُوا أبدَانهُم، رَغْبةً في بِرِّنا ورَجَاءً لما عِندك في صِلَتِنا، وسُرُوراً أدخَلُوه علىٰ نبيِّك صلَوَاتك عَلَيه وآله، وإجَابةً منهُم لأمْرِنا، وغَيْظاً أدخَلُوه علىٰ عَدوِّنا، أرادُوا بذلك رِضَاك، فكَافِهم عنَّا بالرضْوَان، واكْلأهُم بالليْل والنهَار، واخلُف علىٰ أهالِيهم وأوْلادِهم الذينَ خَلَفُوا بأحْسَن الخلَف، واصْحَبهُم واكْفِهم شرَّ كُلِّ جبَّارٍ عَنِيد، وكُلِّ ضَعِيفٍ من خَلْقِك أو شَدِيد، وشرَّ شَيَاطِين الجنِّ والإنس، وأعطِهِم أفضَلَ مَا أمَّلُوا مِنكَ في غُربتِهم عن أوْطَانِهم، ومَا آثَرُونَا به علىٰ أبنائهم وأبدَانهم وأهالِيهم وقَراباتِهم.

اللهُمَّ إنَّ أعدَاءَنا عَابوا عَلَيهم خُرُوجَهُم، فَلَمْ يَنْهَهُم ذلك عن الشُّخُوصِ إلينَا، خِلافاً منهُم علىٰ مَن خَالَفَنا.

فارْحَم تِلكَ الوُجُوه التي قَد غَيَّرَتها الشَّمْس، وارحَم تلكَ الخدُود التي تَقَلَّبت علىٰ حُفْرة «أبي عبدِالله» عليه السلام، وارحَمْ تلك الأعيُن التي جَرَت دمُوعُها رَحمةً لَنا، وارْحَم تلك القُلُوب التي جَزَعَت واحتَرقَت لَنا، وارْحَم الصَّرْخَة التي كَانت لَنا، اللهُمَّ إني أستَودِعُك تِلكَ الأنفُس، وتلكَ الأبدان، حتىٰ تُوَافيهم علىٰ الحوْض يَوْمَ العَطَش.

فما زالَ (صلَوَاتُ الله عَلَيه) وهو سَاجِدٌ يدْعُو الله بهذا الدعَاء، فلما انصَرَفَ قُلتُ: جُعِلتُ فِدَاك، لَو أنَّ هذا الذي سَمِعْتُ مِنكَ كانَ لِمَن لَا يَعرِف الله، لظَنَنتُ أنَّ النارَ لَا تَطْعَمُ منه شَيئاً، والله لقَد تمنَّيتُ أني كُنتُ زُرته (أي «سيِّد الشَّهداء» عليه السلام) ولم أحُجَّ.

فَقَال لي: مَا أقربَكَ منه، فما الذي يَمنعَكَ من زِيَارته؟!

ثم قَال: يَا «معَاوِية» لَا تَدَع ذلك.

قُلت: لم أدرِ أنَّ الأمر يبلُغ هذا كُلَّه.

قَال: يا «مُعَاوِية» مَن يَدعُو لِزُوَّاره في السَّماء أكثر ممن يَدعُو لهم في الأرض.

يا «مُعَاوِية» لَا تَدَعْهُ، فمَن تَركَه رَأىٰ من الحسْرَة مَا يتمنىٰ أنَّ قَبْره كَان عندَه، أما تُحِبُّ أن يَرَىٰ الله شَخْصَك وسَوَادك في مَن يَدْعُو له «رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله و«عليٌّ» و«فَاطِمَة» و«الأئمة» عليهم السلام؟!

أمَا تحبُّ أن تَكُونَ غَداً ممن ينقَلِبُ بالمغْفِرة لما مضىٰ ويُغْفَر له ذُنوب سَبعينَ سَنَة؟!
أمَا تحبُّ أن تَكُونَ غَداً ممن تُصَافِحه الملَائكَة؟!
أمَا تحبُّ أن تَكُونَ غَداً في مَن يخرُج ولَيسَ لَه ذنْبٌ فيُتبَعُ به؟!
أمَا تحبُّ أن تكُونَ غداً ممن تُصَافح «رسُول الله» ﷺ؟![1]

* حَدِيث «أبي بَصِير»:

قَال: كُنْتُ عند «أبي عَبدالله» عليه السلام أحْدِّثه، فَدَخَلَ عَلَيه أبنه فقَال لَه: مَرْحَباً، وضَمَّه وقَبَّلَه، وقَال: حَقَّر الله مَن حَقَّرَكُم، وانْتَقَم ممَّن وَتَركُم، وخَذَلَ اللهُ مَن خَذَلَكُم، ولَعَن الله من قَتَلَكُم، وكَان الله لَكُم وَلِيّاً وحَافِظاً ونَاصِراً، فَقَد طَالَ بُكَاء النِّسَاءِ وبُكَاء الأنبِيَاء والصِّدِّيقين والشُّهَداء ومَلَائكَة السَّماء.

ثُم بكىٰ وقَال: يَا «أبا بَصِير» إذا نَظَرْتُ إلىٰ وُلدِ «الحسَين»، أتاني مَا لَا أملِكه بما أتىٰ إلىٰ أبيهم وإليهِم.

يَا «أبا بَصِير» إنَّ «فَاطِمَة» عليها السلام لَتبكِيه وتَشْهَقُ، فتَزفرُ جهَنَّمُ زَفْرةً لَوْلا أنَّ الخزَنَة يَسْمَعُون بُكَاءَها، وقد أستعدُّوا لذلك مَخافَةَ أن يخرُجَ منها عنُقٌ، أو يَشْرُدَ دُخانُها فيَحْرِقَ أهلَ الأرض! فيَكْبحُونها مَا دَامَت («الزَّهْراء» عليها السلام) باكِية، ويَزْجُرُونها ويُوثقُون من أبوابها مَخَافَة علىٰ أهْل الأرض، فَلَا تَسْكُن حتىٰ يَسْكُن صَوْتُ «فاطِمَة».

وإنَّ البِحَار تكَادُ أن تَنْفَتِقَ فيَدْخُل بَعضُها علىٰ بَعض، وما منهَا قَطْرَةٌ إلَّا بها مَلَك مُوكَّل، فإذا سَمِعَ الملَكُ صَوْتها أطفَأ نَارَها بأجنِحَته، وحَبَسَ بعضَها علىٰ بعض مَخَافةً علىٰ الدنيَا ومَا فيهَا ومَن علىٰ الأرض، فَلَا تَزالُ الملَائكَة مُشْفِقين، يَبكُونَه لِبُكَائهَا، ويَدْعُون الله ويتَضرَّعُون إليه، ويتَضرَّعُ أهلُ العَرْش ومَن حَوْله، وتَرتَفعُ أصْواتٌ من الملَائكة بالتَّقديس لله مَخَافةً علىٰ أهْل الأرض، ولَوْ أنَّ صَوْتاً من أصواتِهم يَصِلُ إلىٰ الأرض لَصعَق أهلُ الأرض، وتقَطَّعَت الجِبال وزلزِلَت الأرضُ بأهْلِها.

قُلتُ: جُعِلْتُ فِدَاك إنَّ هـذا الأمر عَظيم.

---

(١) (ثواب الأعمال) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص٣٥.

قَال: غَيْره أعْظَم منه مما لم تَسْمَعْه، ثم قَالَ لي: يَا «أبا بَصِير» أما تحبُّ أن تَكُونَ في مَن يُسْعِدُ «فَاطِمَة» عليها السلام؟ فبَكيتُ حِين قَالها فَما قدَرْت علىٰ المنطِق، ومَا قَدَرْتُ علىٰ كَلَامي من البكَاء. ثم قَامَ إلىٰ المصلَّى يَدْعُو، فخَرَجْتُ من عِنْدِه علىٰ تلك الحَال، فما انْتفَعْتُ بطَعَام ومَا جَاءَني النوْم، وأصبَحْتُ صَائماً وَجِلاً حتىٰ أتيته، فلما رأيته قد سَكَنَ سَكَنْتُ، وحمدْتُ الله حيثُ لم تنزل بي عُقُوبة.(١)

هكذا تقَع يَا بُنيَّ في مَوقِعكَ المرسُوم لكَ أوَّل خَلْقِك، وتَتَمَوْضَع في مَوْضِعِكَ وتتَّخِذ دَوْرك التاريخي المفرُوض، وتخطُّ مَوْقفك الشرعي الذي أرادَهُ الله لك، وخَلَقَكَ من أجْلِه، وتكُونَ محلَّ إجَابة دُعاءِ «الزَّهرَاء» عليها السلام، ومُعينها وسَلْوَاهَا!

وعَلَيكَ بُنيَّ أن تبقىٰ وَجِلاً أن أدَّيْت الحقَّ وقُمتَ بالدَّوْر ونهضتَ بها عَلَيك أم لاَ؟ هَل تَراجَع هامشُ التقْصِير وانْخَفَضَ مَنسُوبُ التفْرِيط تِجَاه هذا الخطِير، أم ما زِلْتَ مُنشَغِلاً بِشُؤونك الخاصَّة، لَاهِياً بعَيْشِك، مُفرِّطاً بوَاجِبِكَ تِجَاه سَادَتِك وأوْلِيَاءِ نِعْمَتِك؟

ولَا يَستَخِفَنَّك الغَوْغَاء بِسَفَاهَاتِهم والدَّهْماء بأباطِيلِهم، وهُم يُسَوِّلُون لكَ بأنَّك أكثرتَ وأفرَطْتَ، أن جَعَلْتَ النوْحَ سِيرتك، والرثَاء شِعَارك ودِثَارك، ويُمْلُونَ لكَ أن اكتَفِ بعَشرة «عَاشُوراء»، وإن شِئْتَ ألحقْتَ «الأربعين»(٢)، ثم انْصَرِف إلىٰ حَيَاتك وعِشْ أيامَك، أو انْشَغِل بِغَيْر هذا من مَعَالم دِينك، وانْشُط في سِوَاه من أسبَاب نُصْرته وطُرُق نَشْره وتَرويجه... إياكَ بُنيَّ وهؤلاء، يُغوُونك ويُثْنونك عَن دِينك، فقَبْلَ قَوْل «الشيخ الوَحِيد» في فِعْل «الحُجَّة» عليه السلام، هذا «السيِّد ابن طَاوُوس» رحمه الله، يَذكُر في (اللُّهُوف) أنَّ «السجَّاد» عليه السلام قضىٰ حَياته في البُكَاء، وأنه بكىٰ علىٰ «أبيه» أربَعين سَنَة، صَائماً نهارَه قَائماً لَيلَه، فإذا حَضَرَ الإفطَار جَاءَ غُلَامُه بِطَعَامِه وشَرابه فيَضَعه بين يَدَيْه فيقُول: كُلْ يا مَوْلَاي.

(١) (كامل الزيارات) لـ «جعفر بن محمد بن قولويه القمي» ص١٦٩ - ١٧١.

(٢) من غَريب مَا عَمَدَ إليه أعدَاء الشَّعَائر مُؤخَّراً، إصرارٌ علىٰ كَسْر الأحزان قبل الأربَعين، وكِفَاحٌ بأية وَسيلَة، ولَوْ بإعلَان السَّابع من صَفَر (وفَاة «الحسَن» عليه السلام) يَوْمَ ميلادٍ لـ «الكَاظِم» عليه السلام، والحَال أن رِوَاية «الإمام العَسْكَري» عليه السلام تُشير إلىٰ أنَّ الميلَاد الميمُون كَانَ في «الأبواء» في العَشرة الأخيرة من ذي الحِجَّة (راجع معالجة «الشيخ عبدالحسين النيشابوري» للأمر في كِتَابه (تَقْوِيم الشِّيعَة) ص٨٦). ولَعَمْري، إن كَان لفِعلِهم من ثَمَرة و "فائِدَة" فهي تَقلِيل وَهْج ذِكْرىٰ وَفَاة «النبيِّ» صلى الله عليه وآله (٢٨ صفر) بضَمٍّ وَفاة سِبْطه «الحسَن» إليهَا!

فيَقُولُ عليه السلام: قُتِلَ «ٱبنُ رَسُول الله» جَائعاً، قُتِلَ «ٱبنُ رَسُولِ الله» عَطْشَاناً، فَلَا يَزالُ يُكَرِّر ذلك ويَبكِي حتىٰ يَبُلَّ طَعَامَه بدُمُوعه، ويَمْزُج شَرَابه بدُمُوعه، فلَمْ يَزلْ كَذلك حتىٰ لحِقَ بالله عزَّ وجَل.(١)

ولربَّما غرَّكَ بعضُهم وأوْغلَ في شَيْطَنَتِه وجَاءَكَ بعُنوان دِينيٍّ، يَدْعُوكَ للاْنشِغَال في حَقْل آخَر من النشَاطِ الاجتِماعيّ، وجَبْهَة ثانيَة تَطْلُبُ وتُزيِّن لكَ دَوْراً مُغايِراً في خِدمَة الدين ونُصْرة المذهَب!... فَخُذ حِذْرك وٱلزَم حِيطَتَك، فلَا شَيءَ فَوْق خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، ولَا طَاعَة وعَبادَة تَفُوقُ العَمَلَ والسَّعْيَ والبَذْل في هذا السَّبيل. هُنَاكَ مَشَاريعُ عَمَل تَنْطَلِقُ من مُعطَيات كُلِّ عَصْر، وأنشِطَة دِينيَّة يجرِي تَفعِيلهَا في حَياة المجتَمَعات الشِّيعيَّة في مختلَف البُلدَان، تَسْتَمِدُّ من الحَاجَات الطَّارِئَة التي يَعيشُهَا الإنسَان أو المجتَمع، وتَبني حُجِّيتها من خَطَر الأحْدَاث المستَجِدَّة والوَقَائع العَارِضَة التي لَا يُمكِن إنكَارها ولا تجاهُل خَطرَها، ولكنك إذا دقَّقتَ النظَر، ستَجِدُ أن وَراءَها دعَوَات مُنَظَّمَة، وأنَّ خَلْفَهَا آلياتٌ و "مَكِينَاتٌ" إعلاميَّة تُزيِّنهَا وتُعظِّمهَا... تخلُق عَقْلاً جمعِياً يَقودُ الطَّائِفَة ويَسُوق أبنَاءَهَا إلىٰ غَيْر مَا أرادَه «المولىٰ» لهم، وتَوَجِّههم إلىٰ غَير الوُجْهَة التي تَنْسَجِم وتَتَوَافَق والهَدَف الأصلي والفَلسَفَة والحِكْمَة من خَلقِهم، والدَّوْر والتكليف الإلهي الذي أُنيطَ بهم... لِذَا تَراهَا مهْما بلَغَت من قُوَّة في الاْحتِجَاج، وأثبتَت لِنفْسِها من مَوْقع ومَكَانة في الوُجْدَان الديني، سَوَاء للأفراد أو للمُجْتَمعَات، فَهِيَ لَا تَعْدُو أن تَكُون "متَغَيِّرات" تخضَع للزَّمَان والمكَان، وتُدِيرُها الأحْدَاث والوَقَائع والمستَجِدَّات، التي لَا تَلبَث أن تَزُول، سَوَاء بٱنكِشَاف زَيفهَا وبيَان خَوَائها، أو بٱنتِهَاء أمَدِهَا ونَفَادِ وَقُودهَا وٱستِهْلَاك دَوْرِهَا.

فَهَلُمَّ بُنيَّ إلىٰ الأصْل الثَّابِت، والعَمَل الذي لَن يَبلِيه زَمَانٌ ولَن يخلُقه حَدَث ولَن يُغيِّره مَكَان، مَا زالَ يتَجَدَّد ويَفيض... تَعَالَ إلىٰ مَن صَدَق فيه القائل:

وعلىٰ ٱفتِتَانِ الوَاصِفين بِوَصْفِه ❁ يفنىٰ الزَّمَانُ وفيه مَا لَمْ يوصَفِ

❁ ❁ ❁

(١) «اللهُوف في قتلىٰ الطفُوف» لـ «السيِّد ٱبن طَاووس» ص١٢١.

الوصية الثانية:

النـيَّـة والإخلاص

إعْلَم بُنيَّ أنَّ هـذه العِبادَة الخطِيرة والطَّاعَة العَظِيمَة لها طَرِيقان وتَقَعُ من سَبيلَيْن: مَشْهُورٌ معروفٌ يتَّخِذه عامَّة المؤمنين، وخَفِيٌّ مَحجُوبٌ يَسْلُكة الخاصَّة. والأمرُ فيها أشْبَه شَيء بزِيَارة «المولىٰ» عليه السلام...

ففي زيَارة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام التي تَتَحقَّق بالحضُور، ويترتَّب الأثر الشَّرعيُّ عَلَيهَا والأجْرُ الموعُودُ والثَّوابُ المدَّخَر لها، بمُجَرَّد الشُّخُوص في حَرَمه الشريف، لِيَدْخُل المرءُ ويُحسَب في عِدَاد زُوَّاره... يَصْدُرُ الإذْن فيهَا وتَأتي الرُّخْصَةُ لها من شَرْط وَاحِدٍ هُو الوَلَاء.

كُلُّ المَوَالين مَدْعُوون للزيَارة، ومَن يُلبِّي مُرَحَّبٌ به ومَأجُور.

وهُنَاك زيَارة أُخرىٰ، تَتَّفِق في الشَّكْل والصُّورة، وتَخْتَلِف في المضْمُون والجوْهَر، وتَتَفَاوَتُ في الدَّرجَة والمقْدَار، يَصْدُر الإذن فيهَا وتَكُون الرُّخْصَة لها من بُطْنَان العَرْش ومَعَاقِد العِزِّ والأمر، رُخْصَة خَاصَّة تَقْتَرن بدَرَجَة العِلْم والمعْرِفَة، ومَرتَبَة الخضُوع والطَّاعَة للمَزُور عليه السلام، فيحظىٰ الزائر ويُفْتَح له بابَ الفَهْم: "بلَذِيذِ مُناجَاتهم"، حتىٰ يَدْخُل بزِيَارته وينتهي لِيَكُون في "جملَة العارِفين بهم وبحَقِّهم"...

كَذلك الأمرُ في شَعَائِر عَزَاء «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام...

فَإنَّ مَحض الأنجِذَاب لهذه الشَّعِيرة ومُجرَّد الإقبَال عَلَيهَا، ومَا يَنْتَهي إلىٰ الفَوْز بحُضُور المجَالِس الحسَينيَّة والمشَارَكَة في المواكِب وعُمُوم الشَّعَائر، ولَو بالوُقوف للتَّفرُّج الذي يَزيدُ العَدَد ويُكَثِّر السَوَاد، إذا صَدَق عَلَيه الدُّخُول في جُملَة المعزِّين، ومَا يكُون به تَعظِيم الشَّعِيرة، بَحَيْث يَقَعُ مُرادُ الشَّارع المقدَّس من أصْلِ الحثِّ والنَّدْب علىٰ إحْيَاء وَاقِعَة الطَّفِّ وذكرىٰ «عَاشُوراء»، وعُمُوم إحْيَاء أمرِ «أهل البيت» عليهم السلام... إذا سَاهَمَ أمرؤٌ في وُقُوع الشَّعِيرة وتَحقُّقها في الخَارج، بأيِّ شَكْلٍ كَان، وبأية نِيَّة كَانت (حتىٰ قِيل: ولَو رياءً!)، أصْبَحَ ممن "أحْيَا أمرَهُم" عليهم السلام، ودَخَل في جُملَة مَن أقَامَ العَزَاء عَلَيهِم، فجُزِيَ خَيراً وحَظِيَ بالأجْرِ والثَّوَاب.

وفي هذا، أي في التركيز علىٰ الأجْتِماع والحِرْص علىٰ إظهَار الأمرِ علىٰ هَيْئة الشَّعِيرة، وإيلَائه هذا القَدْر من الخَطَر، سِرٌّ خَفِيٌّ يعصىٰ علىٰ كَثِيرين، أتركه لمقَامِه، وكَذا فيه (في المقابِل) حِكَمٌ وعِلَلٌ ظَاهِرة لَا تخفىٰ...

هنَاكَ جُملَة من العِبَادات في الإسلَام شُرِّعَت علىٰ نَحْو الشَّعِيرة والطَّقْس الجماعِي، بمعنىٰ أن تحكُمهَا في أدائهَا وتَنهَض بها "جماعَة"، ويَشَكِّل الأجتماع والكثرة العدَدِيَّة دَوْراً أساسِيّاً في تَكَامُلها، وتحقِيق الهدَف المنظُور من وَرائها والمرادِ الأصليِّ من تَشْرِيعِها... لِذَا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ۝٣٢﴾ (الحج)، فصَلَاةُ الجماعَة والجمُعَة والعِيد والأستِسْقَاء والآيات كُلُّها شَعَائر، و«الصَّفَا» و«المرْوَة»، وعُمُوم مَنَاسِك الحجِّ وطُقُوسه، شَعَائر... مَا يَكْشِف حِرْصَ الشَّارع المقَدَّس علىٰ إضْفَاءِ سِماتٍ تحكُم ظَاهِر المجتَمَع الإسلَامي، وصُوَرٍ تَرْسمُ شَكْلَه، وطُقُوس يتَحقَّق بها المحِيط ويَتَكَوَّن الفَضَاء الذي يَنبَغي أن يَعيش فيه الأفراد وتَزدَهر الأفكَار، وكَأنَّ بعضَ المفَاهِيم والمعَاني تعصىٰ علىٰ النَّاس ويَعْجَزون عن بُلُوغها منْفَرِدين، أو هِي قَاصِرةٌ عن الوُصُول إليهِم والتَّأثير فيهِم وهُم آحَاد، لذَا كَانت تَفتَقِر في نُضْجِها وأداءِ رِسَالَتها إلىٰ هذا الفضَاء والجوِّ العَام، فكَانَ الأداء الجماعيُّ القَنْطَرة التي تَنقُل المؤمن إلىٰ الرِّحاب التي يُريدُها الله لَه، ويَبلُغ بها الخير المدَّخَر فيهَا، أو مَا يُريدُه سُبحَانه لِتلك الشَّعِيرة من الظهُور والبرُوز لِسرٍّ خَفِيٍّ فيها.

وهـذا ـ من زاوِيَة مُعيَّنة ـ أمرٌ طَبيعي، ويَكَادُ يَكُون سَارِياً في جميع المدَارِس الفِكْرِيَّة والمنَاهج العقَائديَّة... فالقَضَايا العَظِيمَة الخطِيرة في حَيَاة الأُمم، تفتَقِر في بقائها وأدائها لِرسالَتها من خِلَال تحوُّلها إلىٰ عِبْرة وقيمَة، تَفْتَقِـر إلىٰ التَّفَاعُل العَام المتَمَثِّل في المدِّ الجماهِيري والزَّخم الشَّعْبي، فهُو الذي يَصْنَع حَاضِنَة البقَاء ويُؤمِّن طَرِيق الاْستِمرار، ثم وَسيلَة الإعلَام وسَبيل الإبلَاغ. وهي في الكَوَارِث العَامَّـة والخطُوب العَظِيمَة، سَوَاء في البُطُولَات والاْنتِصَارات، أو في الظُّلامَات والفَجَائع التي تَحِلُّ بالأُمم، وتُسَجِّل تَاريخ الشُّعوب، وتَرفدُ تكَوُّن الحضَارَات... تمثِّل أدَاة الإحْياء ووَسيلَة التَخلِيد.

وفي فَاجِعَة «الطفِّ» ومُصِيبَة كَربَلَاء «الحسَين» عليه السلام، هي الصَّرخَة التي طَالما جَاهَدَ الظَلَمَة في جَحْدِها وكَتْمِها، والنُّور الذي عَمِلَ شَيَاطين الإنس والجنِّ وسَعَوا سَعْيَهم ونَاصَبُوا جُهْدَهُم علىٰ إطْفَائه.

ثـم اْعلَم أنَّ هـٰذه، أي الحَركَـة ضِمْن المجْمُـوع، والتَكَـامُل أو العِبَـادة عِـبْر النَّهْج الشَّعَائري، هي طَبيعَة الناس وطَبيعَة الحركَة...

هُنَاكَ مَقصُودٌ بعيدٌ غير مَرْئي، وسرٌّ خَفِي مَطْوِيٌّ في بعضِ العِبَادات، كَالحجِّ مثَلاً، لَا يتَحَقَّق ولَا يُبلَغ إلَّا بشَعِيرِيَّتهَـا، أي بهـٰذا الحضُـور العَام والـزَخْم الجماهِيريِّ والحشْد والكَثَـافَة العَدَدِيَّة، ولَو كُتِبَ ذلك السرُّ في عِبادَة خَفِيَّة، يَنْهَضُ بها المؤمن منْفَرِداً ويَقُومُ بها وَحِيداً، مُنفَـصِلاً وبَعيداً عن النَّاس، أو لَا يكُون قِـوَامُها في الجماعَة والاْحْتِشَاد، ولَا في الإظهَـار والإعْلَان والإشهَار، كَالصَّوْم ونَـوَافل الصَّلَوَات والغُسْل والطَّهَارات ومَـا إلىٰ ذلك... لَمَا أدركَهَا إلَّا الخوَاصُّ ومَا نَالها إلَّا الأوْحَدِيُّ من النَّاس.

ودُونَ جَزْم بالفَلْسَفَة وتحدِيدٍ للحِكْمَة، وعلىٰ نَحْوِ الاْحْتمال كَجُزْءِ العِلَّة لَا العِلَّة التَّامَّة... يَظْهَرُ أنَّ مُرادَ الشَّارع المقدَّس من حَشْدِ النَّاس وتَعْبئة الجمُوع لإقَامَة عِبَادة جماعيَّة، يَنْطَوي علىٰ أهدَافٍ وحِكَم مُتَعَدِّدة.

لَا بُدَّ أن يَحْتَشِد النَّـاس، ويكثر السَّوَاد، ويَزدَاد العَدَد، فـيُخْلَق الفَضَاء وتَنْبَعِث الأجْوَاء التي يَتَـوَخَّاهَا الشَّارع المقدَّس لِتَحقِيق أمْره وإرشَاد عِبَادِه إلىٰ أوْلِيَائه... كَما أشَارَ مَوْلَانا «البَاقِر» عليه السلام، الذي أوْصىٰ أن تَنْدُبه النَوَادِب في «منىٰ»، في مَوْسم الحَج.

نَعَم بُنيَّ... إنَّ العَزيزَ الحكِيم يُريدُ أن يَوَجِّهنا من الحجِّ والعِيدِ والجُمُعَة والجماعَة، ومن كُلِّ حَشْدٍ يجتَمع فيه النَّاس، وعبَادَة يَلْتَقُون فيهَا وعَلَيْها، يُوَجِّهنا ويُرشدنَا ويَأخُذنا إلىٰ «وَليِّه» الذي نَصَبَه علىٰ الخلْق، فَتَجاهَلُوه بظُلْمِهم، وتَقَاعَسُوا عن حَقِّه بإعْرَاضِهم، فلَيْسَ "التَفَثُ" في قَوْله تَعالىٰ: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ۝﴾ (الحج)، لَيسَ هُوَ أَخْذُ الشَّارِب وتَقلِيم الأظافِر وطَرْحُ الإحْرَام والاْغتِسَال من الأدرانِ والتضَمُّخ بالطِّيب، فَحَسْب، بل هُوَ لُقيَا «الإمام»، كَما قَال «أبوحمزة الثمالي» ﵀ في تَفْسِير الآيَة: دَخَلْتُ علىٰ «أبي جَعفَر البَاقِر» ؏ وهو جَالِسٌ علىٰ البَاب الذي يلي المسْجِد (الحرَام) وهُو يَنْظُر إلىٰ الناس يَطُوفُون، فقَال يا «أبا حمزة»:

بما أُمِرَ هٰؤلَاء؟ فلم أدْرِ ما أرُدُّ علَيه.

فقَال: إنَّما أمِرُوا أن يَطُوفُوا بهٰذه الأحْجَار، ثم يأتونَا فيُعلِمُونا وِلَايتهم.[١]

وفي مَسْألة الشَّعَائر الحسَينيَّة، وقَضِيَّة السرِّ في تَشْرِيعها والحِكْمَة الظاهِرَة من سَنِّها، قَوْلٌ بَلِيغ وبَيَانٌ شريف لِعَلَمٍ من أعلَامنا الأفذَاذ، أودُّ أن تَأنَسَ بالاْتصَال به ومُراجَعتِه، ومُداومَة النَّظَر في آثارِه، وتاجها (الغدير)، لِتَنْهَل من عَيْنٍ صَافِيَة، ثم لِتُوفي هٰذا العالِمَ الربَّانيَّ بعضَ حَقِّه وتُقدِّر عظَيم خِدمتِه المذهَب ونُصْرته الوِلاية...

يقول «العلَّامة الشيخ عبدالحسين الأميني» ﵃:

[لأئمَّةِ الدين صلَوات الله عليهم فِكْرَةٌ صالحة صُرِفَت في هٰذه الناحِيَة، وهي كَدُستُور فيها تعالِيم وإرشَادَات إلىٰ مِنهَاج الخِدمَة للمُجتَمع، وتَنوِيرِ أفكَارِ المثقَّفين وتَوْجيهها إلىٰ طُرق النَّشْرِ والدعَاية، ودُروسٌ في تَوْطيد أُسسِ المذهَب، وكيفيَّة اْحتلَال رُوحيَّات البلَاد وقلُوب العِبَاد، وبَرنامَج في صَرْف مالِ الله، وتَلْوِيحٌ إلىٰ أهمِّ مَوارِده. تُعْرِبُ عن هٰذه الفِكْرة المشكُورة إيصَاءُ «الإمامُ الباقر» اْبنه «الإمامَ الصادِق» ؈ بقَوْله: "يا «جَعفَر» أوْقف لي من مَالي كَذَا وكَذَا، النوادِبُ تَندُبني عَشْر سِنين بمنىٰ أيام منىٰ".[٢]

(١) (وَسَائل الشِّيعَة) لـ «الحرِّ العَامِلي» باب ٢ من أبواب المزار ح ٧ـ٩.

(٢) (الكَافي) ج٢ ص٢٢.

وفي تَعْيِينِه عليه السلام ظَرْفَ النُّدْبَة من الزَّمَان والمكَان، لأنهما المجتَمَع الوَحيد لِزُرافَات المسلمين من أدنى البِلَاد وأقَاصِيها، من كُلِّ فجٍّ عَمِيق، ولَيْسَ لهم مُجتَمَعٌ يُضَاهِيه في الكثرة، دَلالَة وَاضِحَة على أنَّ الغَاية من ذلك إسماعُ الملأ الدِّيني مآثر الفَقِيد، فَقِيد بَيتِ الوَحْي، حتى تَنْعَطِفَ عَلَيه القُلُوب، وتحنَّ إليه الأفئدَة، ويَكُونوا على أَمم[1] من أَمْرِه، وبمقرُبَة من اعْتِنَاق مَذهَبه، فيَحْدُوهُم ذلك بِتكْرار الندْبَة في كلِّ سَنَة إلى الالْتِحَاق به، والبخُوع لحقِّه، والقَوْل بإمامته، والتَّحَلِّي بمَكَارِم أخْلَاقِه، والأخْذِ بتَعَاليمِه المُنْجِيَة، وعلى هذا الأساس الدينيِّ القَوِيم أُسِّسَت المآتم والمواكِبُ الحسينيَّة، ليسَ إلَّا}.[2]

هذا هو الصَّعيد الأوَّل، الذي يحقِّقُ الشَّعِيرة الحسَينيَّة...

الحشْدُ والتجَمُّع الذي يُكَثِّر السوَاد ويبعَثُ ما يطْرحُ السؤال، ليأتي جَوَابه بما يَنْشُر ظُلَامة «أهل البيت» عليهم السلام ويُعرِّف الناسَ حَقَّهُم ومَقَامهُم.

وهناكَ صَعِيدٌ آخَر وسَبيل ثَانٍ في أدَاءِ الشَّعِيرة... سَبيلُ الخوَاصِّ الذي يَقِفُ فيه المؤمن على مَائدَة عَامِرة وُضِعَت للقَانع والمعْتَر، دَسِيعَة زاخِرَة بما لَذَّ وطَابَ من أزكى ألوان الطعَام، تَتنوَّع علَيها الأطْبَاقُ وتمتلئ الجِفَان من خَيْر زَادٍ وأفضَلِ غذَاء.

في مجلِسِ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، وفي رِحَابِ شَعَائر عَزَائه المختَلِفَة والمتنوِّعَة، يُنزل الله تَبَارِكَ وتَعَالى مَائدَة مَلَكُوتيَّة من السَّماء، بل من مَعْدِن الجنَان وجنْسِ ما يُورِثُ الخلُود في النعِيم الأبدي، ويُفرِد بسَاطاً زاخِراً من ألوان العلُوم والمعارِف، وأطبَاقاً عامِرة بفنُون التربية وضُرُوب الأخلَاق، تمكِّنُ المؤمنَ وتَفسَحُ للمُتلَقِّي أن يَرقى ويَعرُجَ ما شاءَت همَّته ووَافق عَزمُه، وأنَّى أرَادَ شَوْقُه وبلَغَ شَغَفُه، فَلَا بُخْلَ هُنا ولَا مَنْع، بل عَطَاءٌ غيرُ مجْذُوذ ونَوالٌ غيرُ ممنُوع ورِزْقٌ غير مَحْظُور، يَستَمِدُّ من خِزانة الأسرار الإلهيَّة، ويَغْترِف من مَعدِن الخيرات والبركَاتِ الربَّانية، الذي بلَغ مقام عَبْدِ الله المطْلَق، فصَارَ وَليَّه الأعظَم الذي تَظْهَر فيه أسماء الله الحسنى وصِفَاته العُليَا، بل هو اسم الله الأعظَم وكَلِمَته التامَّة التي ليسَ بَعدَها شَيءٌ إلَّا ذاتُ الباري عزَّ وجلَّ التي لَا تُدرِكها الأبصَار ولَا تحيطُ بها الأوْهَام والأفكَار.

---

(١) أمَم، بفتح الهمزة، أي قريب متيسّر، في المتناول.

(٢) انظر: (الغدير) ج٢ ص٢١ ـ ٢٢.

في هذه الرِّحَاب يَا بُنيَّ يُمكِنك، وقَد ركبتَ سَفِينة النَّجَاة، أن تَتَّصِل بالسَّماء، وتَلْتَقي الأنبيَاء والأَوْليَاء، وتَطَّلع على الغَيْب، وتَنْهَل من مَعْدِن العِلْم، وتحْضر وتُشَاهِد حتى تَعْرِفَ بالوُجْدَان، ولَعَلَّه بالحسِّ والعيَان، مَا يَرْقى بكَ ويَرْقى، حتى تبلُغَ القِمَّة والذُروَة، وتُدْرِكَ أقصى مَا كُتِبَ لكَ ويُمكِنك في سُلَّم الرُّشْد ومَسِيرة الكَمال.

هُنَا تأتمُّ حَقاً بإمام زَمانك «الحجَّة بن الحسَن» عليه السلام وتَلتقي بما هُوَ مُنشَغِلٌ به ومنْصَرِفٌ إليه، كَما يَأمل الحاجُّ في كُلِّ «مَوْسم» ويَرجُو لُقْيَاه في «الموْقف»، يَتَوافَقُ كُلُّ رَاثٍ ونَادِبٍ وبَاكٍ وجَازع، معَه في انصِرافه لهذا الشَّأن والانشِغَال به لَيْلَه ونهاره...

فانظُر مَاذا تَغْترف وتَنهَل، وماذا يُمكِنُك أن تَصْنَع!

***

أوَّلُ ما يُراد مِنكَ هو الخلُوص في النيَّة...

ولاَ أكْتُمكَ سِراً، وأُهوِّن لكَ الخطْبَ وأُيسِّر الأمْر، فهُنا مُعْضِلَة عَوِيصَة في دُنيا التَّربية ومُشكِلَة مُعَقَّدة في عَالم أو عِلْم الأخلاَق، تَترَكَّب من الجمْع بين تكلِيفيْن مُتَضادَّين أو مُتعَارضَيْن (في ظَاهِرهما)، يَذهَبُ الأوَّل إلى الخفَاء ويهتِفُ بالكِتمان، ويتَطَلَّب الآخَرُ الظهُور ويُنَادِي بالإعلَان! مَا يُربك عَمَلِيَّة ضَبْطِ النيَّة ويُدْخِلهَا في مَأزَق حَقِيقي.

فإخْلَاصُ النيَّة وتَنْزِيه القَصْد يَكُون في غَاية العُسْر ومنتهى الصُّعُوبة إذا شَابهُ الإعْلَانُ واقتَرنَ بآفة الظهُور والبرُوز وصَاحَبَتْه الشُّهْرة، وهذه وتلك من لَوَازم هذا الميدَان ومُقتَضَياته، ذلك لِطَبيعة العَمَل في الشَّعَائر، سَوَاءٌ إقَامَة وتَشْيِيداً، أو حُضُوراً ومُشَاركَة. فظهُور النَّاهِض أو العَامِل بها، ووُقُوفه في مَوْقع الشُّهْرة والإشَارة، هو أمْرٌ من صُلْبِها ويَدْخُلُ في صَمِيمِهَا... وبتَعبِير آخَر، هي عِبَادة قِوَامُها أن تَكُونَ "تحتَ الأضْوَاء"، وحَيثُ تتوجَّه نَحْوك الأنظَار ويُشَار إليك بالبَنَان.

وهو عَكْسُ التكْلِيف الأوَّل (الأصلي) الذي يُلزِمنَا بالخفَاء ويُطَالِبنا بالابتِعَاد عن مَواضِع الشُّهْرة واجتِنَاب مَواطِنهَا، نَاهِيكَ بتَسلُّق عَنَاوِين الظُّهُور والسَّعْي لها، وطَلَب السُّمْعَة وتحرِّي مَظَانِّها... إنها بُنيَّ مَزَالقُ الرِّجَال ومَهَاوِي الأشدَّاء ومَصَارع الأبطَال، التي يحذَرهَا الأتقِياء ويَتَجَنَّبها العُظَماء، فكَيفَ بكَ، وأنتَ بعدُ في أوَّل الطريق وبدَاية المسير؟

لَقَد أَوْدَعَ اللهُ مُخَّ هٰذه العِبَادَة وأخفىٰ جَوْهَر هٰذه القُربَة العَظِيمَة في الحضُور وَسَط الجمُوع، وممارَسَتِها علىٰ نَحْوِ الشَّعِيرة العَامَّة والأداء العَلَني، فأنتَ مهما سَعَيْت للتفاعُل مع سِيرة ومُصيبَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام في خَلْوَتك، لَن تحظىٰ بأكثر من زَفَرات وعَبَرات، وسَتَفْقِد الجزَعَ والصَّيْحَةَ والحرقَة في البكَاء، وجُلَّ ما أرادَهُ «المولىٰ» عليه السلام مِنك، فَلَا مَنَاصَ من الحضُور والدُّخُول في الجمُوع، ولَا بُدَّ من إقَامَة العَزَاء وإحيَائه بين النَّاس، فهُو ما يُذْكي العَبْرة ويهيِّجها ويُثير الأحْزان ويُشْعِلُها، وينقُلك إلىٰ حَيْث يَنْبغي أن تَكُون من التفَاعُل والجزَع بُكَاءً ولَطْماً وصَيْحَة وصَرْخَة.

وهُنا سرٌّ في التكَامُل والرُّقي، كَما هُو - في المقَابل - مَدْخَلٌ للأهْواء ومَنْفَذٌ للشَيْطَان.

لِذَا، ٱسْعَ بُنيَّ مَا ٱستطَعْتَ وٱحْرِص مَا أمكَنَك علىٰ ٱختِيَار مَواضِع ومَواقعَ وأدْوَاراً يَقِلُّ فيها الظهُور ونطَاقُه، وعِشْ في هٰذي الرِّحَاب التي رَزقَكَ الله ووُفِّقْتَ لها، مَغمُوراً مَا أمكَنَك، مجْهُولاً مَا وَسِعَك (وأنتَ بين النَّاسِ ومَعَهُم)، فمَخْدُومُك عليه السلام عَالِمٌ نَاظِر، لَا يخفىٰ عَلَيه سَعْيُك ولَا يَغيبُ عنه جُهْدُك، وهو الذي سَيُوفيكَ أجْرَك.

فما لَكَ وللنَّاس؟ ومَا نَفْعُ القَوْل فِيكَ، ثَناءً ومَدْحَاً، أو ذَمّاً وقَدْحاً، أو ٱستِخْفَافاً وإهمَالاً وإنكَاراً وتجَاهُلاً؟ بل لَعَلَّ هٰذا أنفع لَكَ وأسْلَم، في دُنيَاك وأُخْراك، وقَد سُئِل عَالِمٌ رآه أحَدُ طَلَبته في المنَام، بَعدَ وَفاته، عن الأجْر الذي تَلقَّاه علىٰ كِتَاب عَظِيم أَلَّفه؟ فقَال: مَا أبقىٰ لي الثَّنَاءُ عليه في الدُّنيا أجْراً في الأُخرىٰ!

ولٰكن، في المقَابِل، لَا تجعَل من هٰذا الأمر هَاجِساً وعُقدَة، تُفَرِّط بسَبَبِها وتُضَيِّع مَا يَسْنَح لكَ من فُرَصٍ للخِدْمَة والكَسْب والٱغْتِراف من هٰذا المعِين المتدَفِّق. بَل عِشْهُ بتِلْقَائيَّة، وقَابِلْه دُون تَشَنُّج وتَعسُّف، ولَا تَتَعَاطَاهُ وكَأنه يُلَاحِقُك ويُطَارِدك، فتَفِرَّ منه وتهرب، وتجعَل من هٰذا همَّك المزعج، وقَضِيَّة تُورِثك القَلَق والٱضطِراب، فتَنْشَغِل بها عن غَرَضك الأصلي وهدَفك الأساس... بَل عِشْ أجْوَاء العِبَادَة وٱنشَغِل بها، وٱنصَرِف في نِيَّتك وعَزْمك لإقَامة العَزَاء وتَشييدِ الشَّعِيرة، فإذا ٱقتَضَت مِنكَ برُوزاً في مَكَان، وظهُوراً في مَوْقع، وأداءً يُسَلِّط عَلَيكَ الأضْوَاء ويُوَجِّه الأنظَار، وهُو مَوْقعٌ ودَوْرٌ لَا يَنهَض به غَيرُك، وفي صَمِيم مَا أُنيطَ بك، ومن مَسؤوليَّتِك، فبَادِر، ولَا تَتَوانَ ولَا تَتَلكَّأ.

لَا تَتَهَرَّب من أوّل الأمر وبدَايته، كَما أرىٰ من بَعْضِ المؤمنين العَامِلين، المنشَغلين في هٰذا الحقْل بإخْلَاص...فتَتَجنَّب مَظَانَّ الظهُور وتَنْسَحِب من مَواقع الأضْواء، إذا عَلِمْتَ أنكَ الأكثر كِفَاية وقُدْرة، ورأيتَ أنكَ الأفضَل علىٰ أدَائه وإنجَازه.

إنه خَيْطٌ رَفيع وحِجَابٌ رَقيقٌ بينَ أن تَنْهَضَ بِما يَكُون فيه الظُّهُور والشُّهْرة حُبّاً في الشَّعِيرة الحُسَينيَّة وأداءً للتكْليف وإفْرَاغاً للذمَّة، فتَأتي تِلكَ التَوابع من تِلقَائهَا وتلْحَق بِلَا قَصْدٍ منكَ ولَا سَعْي ولَا طَلَب، ثم لَا تُورث عُجْباً ولَا زَهْواً، ولَا تخلِّف غُروراً وكِبْراً... وبين حُبِّ الظُّهُور، والٱبتِلَاء بِعشْق الأضْواء والشُّهْرة والصِّيت والسُّمْعَة، والسُّقُوط في الرِّيَاء.

لِذَا، عَلَيكَ بُنيَّ الحذَر من أُمورٍ سَأُبيِّنهَا لكَ وأعرِضهَا عَلَيكَ، والعَمَل والٱلتزَام والتقيُّد بأُخرىٰ تَنفَعك، سَتُحَصِّنك من الأخْطَار المحْدِقَة بهٰذه الشَّعِيرة العَظِيمَة، أو ستنتَقل بكَ إلىٰ طريق تَقِلُّ فيهَا... وهي نَصَائح تَكْشِف أسراراً وخَفَايا، وتحكي دَقَائق يَغْفُل عنهَا أغلَبُ النَّاسِ ويَتِيه غيرُ الأكْيَاس، وتتَأكَّد ويُغلَّظ الأمرُ فيهَا في ظِلِّ غِيَاب أجْوَاء التقْريع والملَامَة، بل المنَاصَحَة الوَاجِبَة بين المؤمنين، وتَبادُل كَشْف العُيُوب والأخطَاء التي يقعُون فيها، من ثِمَار العَمَل بـ "المؤمن مِرآة أخيه"، بَل حكَمَت غُربَة الثقَافَة التربويَّة الحقِيقيَّة، وفَشَتْ أجْواءُ التَّملُّق والنِّفَاق وكَيْل المدِيح وٱنتِظَار الردِّ والمقَابلَة بالمثْل!

إذا ٱضْطَرّكَ الظَّرْفُ يَوْماً وألزَمكَ المقتَضي مرَّة وحَكَمَكَ التكْليف في حَالٍ من الأحْوال، فصِرْتَ - من الحسَينيَّة ومجلِسِ العَزَاء - محَطّاً للأنظَار ومَوْقعاً للإشَارة ولربَّما محَلّاً للإطْراء والإشَادة، ومَا يَسْتَتْبع ذلك من الشُّهْرة وٱكْتِسَاب الشَّأن والعُنوان، فٱحْذَرْ أن تَرسِّخ ذلك و "تُوثِّقه" بالصُّوَر والتسْجيلَات، ومَا يُدْخِلك في الإعلَان ووَسَائل الإعلَام.

إنَّ لِكُلِّ عَصْرٍ آفتُه ودَاؤه، ولكُلِّ عَمَل شَيْطَانه وإغراؤه، ولكُلِّ شَيْطَان وَسَائل إغْواء وحَبائل تَزيين وٱستِدراج، كَما للسَّير والسُّلوك، وللتكَامُل طَريقَته في الٱمتِحَان والٱبتلَاء... ويَبدو لي أنَّ آفَة عَصْرنا ودَاءَ حُقْبَتِنَا التي نَعيش، ووَسيلَة الإغْوَاء وحِيلَة الشَّيْطَان في عمَلِنَا هٰذا، هُو الإعْلَام! ذلك بَعْدَ أن تَطوَّرت أدوَات الشُّهْرة ووَسَائل "النُّجُوميَّة"، مَا فتَحَ البابَ علىٰ مِصْراعَيْه، وجَعَلَ الأمرَ في مُتنَاوَل كُلِّ شَارِدٍ ووَارِد، وفي الأقلِّ، جَعَلَه في طمُوحِه ومن آمالِه ومَرْجُوِّ أُمنياته.

فالقَنَوَات الفضائيَّة التلفزيُونيَّة، ودُنيا الصَّحَافَة، وعُمُوم النَّشْر المقرُوء، ومَوَاقع شَبكَة الإنترنت والتَّوَاصُل السَّهْل مع الجماهِير... صَارَت مَبذُولة للقَاصي والدَّاني، ومَيْسُورَة لكُلِّ مَن هَبَّ ودَبَّ، علىٰ مَرمىٰ عَصاً من كلِّ فتىً مِسْكِين وشَابٍّ لَا نَصيبَ له من العِلْم ولَا حَظَّ من الفَهْم، ولَا بضَاعَة في الدِّين، ولَا مَتَاعَ في الخِبْرة والتجْربَة، أو كَهْلٍ أخْرَق ٱستَولىٰ عَلَيه الطَّمَعُ وتمكَّن الحُمْق وهيْمَنَت البَلَادَة، وهُو يَرىٰ أشخَاصاً مَغمُورِين لَا يَملِكُون من مقَوِّمَات التفوُّق والنَّجَاح أدنَاهَا، صَارُوا نُجُوماً متلألئة في سَماءِ الدِّين وعَالَم "المؤمنين الملتزمين"! وغَدَوا أعْلَاماً يُشَار إليهِم في المجَالِس الخَاصَّة والمحَافِل العَامَّة، وصَارَت لهم مَكَانتهم، وإنْ في نِطَاق العَوَام ودوَائر غَيْر العُلَماء، كَما إنهم أثرَوا وصَارُوا يَلْبَسُون أفخَر الثِّيَاب ويَركَبُون أحْدَث وأرْفَه السَّيَّارات ويَسْكُنون أبذَخ البيُوت وأوْسَع الدُّور؟!... فيتَسَاءَل ذاك المسْكِين وهذا الأخْرَق: لم لَا أكُون مثلَ هؤلَاء؟!

وفي جُعْبَة الشَّيْطَان من الإغْوَاءَات مَا يَكْفِي، ومن التَسْوِيلَات مَا يَفِيض، كَمَقُولَات الطمُوح والتَّطَلُّعات المباحَة، بَل المطْلُوبة (لخِدمَة الدين والمذهَب!)، ومُسَوِّغات الإبدَاع والمَلَكَة والموْهبة والفَنِّ والقُدْرة والطَّاقَة التي يَجِبُ أن تُسْتَثْمَر ولَا تُهْدَر أو تُكْبَت وتُخنَق في نِطَاق محَدُود من مجَلِس صَغِير، أو حتىٰ كبير، لكنه لَا يُبَثُّ في التلفِزيون ولَا يُعمَّم في الفضَائيَّات ومَواقع الإنترنت، ولَا يَصْنَع "نَجْماً"!

وقَد سَمِعْتُ أحَدَ المنشِدين الحُسَينيين (الروادِيد) النَّاشِئين يحدِّث رِفَاقه عن عَلَمٍ في عَالَم الإنشَاد، ويخَاطِبهُم كَأنه يَنْصَحُهُم ويَشَجِّعهُم، وفي الحَقِيقَة كَان يحدِّث نَفْسَه، أو تحدِّثه نفسُه! ويقُول:

بماذا يتفَوَّق هذا "الرادود" عَلَيك؟! (وراحَ يُعَدِّد أسبَاب التفوُّق وعلَل التفْضِيل بدَهَاءٍ لَا أظُنُّه إلَّا من تَلْقِين «الشَّيطَان الرَّجِيم»!): لَا هُو سَلِيل عَائلَة عِلمِيَّة تَفتقِدهَا أنتَ، ولَا هوَ من أهْل العِلْم والفَضِيلَة حتىٰ يحظىٰ بقَصَبِ السَّبق، ولَا هُو مُتَّقٍ زَاهِد أو مُرتَاضٍ عَابِد حتىٰ تُعزَىٰ شَعبيَّته ويُحمَل حُبُّ الناس لَه ونَجَاحُه لمدَدٍ غَيْبيٍّ وتَوفيق إلهي... إنه مجرَّد جَمال الصَوْت الذي نَملِكه جميعاً، ثم إتقَان الأداء وحُسْن ٱخْتيار القَصَائد، فإذا أجَدْتَ أنتَ هذا وذاك، صِرْتَ مِثلَه، ولرُبَّما تفوَّقتَ عَليه!

إنها طَامَّة كُبرىٰ ومُصيبَة عظمىٰ أن يَقْحَمَ شابٌّ هـٰذه السَّاحَة المقدَّسة ويَلِجَ مَيْدَان خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام بمِثْل هـٰذه النيَّة السَاقِطَة والقَصْد الهابِط، ليَكُونَ مَا يَحْدُوه ويَتَطَلَّع إليه في مَآله من هـٰذا المسِير (كَما كَانَ يَذكُر من صُوَر ومَظَاهِر حَظِيَ بها المتفوِّق) أن تَتَلقَّاه الجماهِير وتُواجِهه وهي تُصَوِّب إليه كَاميرات هَوَاتفهَا النقَّالَة، فإذا فَرغ من "وَصْلَته"، طَلَبَت التِقَاط الصُّوَر مَعَه، وتَستَقبِله جموعُ الزائرين في العَتَبَات المقدَّسَة، بالصَّلَوات وشَقِّ الطَّريق والافْسَاح لَه لاَستلَام الضرِيح الشرِيف!

لقَد جَاءَنا هـٰذا من الإعلَام، من أدواتِ الشُّهْرة السَّهْلَة المبذُولَة في عَصْرِنا، ولَعَلَّ ٱبتِلَاء السَّابقين من العَامِلين في هـٰذا الحقْل كَانَ مُختَلِفاً في طَرِيقَته مُتَفَاوِتاً في أدوَاته مع مَا نزَلَ بنا نَحْنُ اليَوم. نَعم، الشُّهْرة آفة كُلِّ نفْس ودَاءُ كُلِّ زَمَان وعَصْر، ولـٰكن عندَمَا تَكُون بَعيدَة المنَال، قَصِيَّة التَّحَقُّق، إلّا للأوْحَدِيِّ المتميِّز الذي يَفرِض نَفْسَه بعِلْمِه أو شَجَاعَته أو أية أُكرُومَة وفَضِيلَة عَظِيمَة يَتَمتَّع بها، ييأسُ الطَّامع العَابِر منهَا، ويُعْرِض الباحِثُ الصَّغِير عنهَا، وتَراهُ يَقَع أو يُلَاحِق غَيرها. أما في هـٰذا الزَّمَان، فقَد صَارَت أمَلَ كلِّ غِرٍّ وفتىٰ، ومَطْمَحَ كلِّ شَيْخ وصَبِي، ولَا حَوْلَ ولَا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العَظيم...

وقَد ذكَرتُ الإنشَاد والمنشِدِين (الرواديد) كشَاهِد، وإلَّا فإنَّ الخطَر يتَهدَّد كُلَّ العَامِلين في الأنـماطِ والأدْوار الأُخرىٰ من الشَّعَائر، كَالخطَبَاء والكُتَّاب والشُّعَراء، إلىٰ أصْحَاب المجَالِس ومَن يَتَصَدَّىٰ لإدارة المواكِب والحسَينيَّات، وحتىٰ تَنْظِيم حَلَقَات اللَّطْم وما إلىٰ ذلك، وهـٰذا من طَبيعَة كُلِّ عَمَل يُمْكِن أن يَأخُذَ شَكْلاً ٱستِعْراضيّاً، تختَلِطُ فيه النيَّة بين الإظهَار قُرْبةً إلىٰ الله تعالىٰ، أو خِدْمَةً لهدَفٍ شَخْصِيٍّ، بل لمرَض نَفْسيٍّ خَفِي.

لِذَا عَلَيكَ بُنيَّ الحذَر أن يَستَزِلَّك الشَيطَانُ ويَسْتَخِفَّك بالعَنَاوِين التي ذكَرتُها لك، فيُوَسْوِس لكَ بأنَّ الطَّاقَات والملَكَات والإبدَاع والموَاهب التي تَتَمتَّع بها تَقتَضي الظُّهُور والإعلَان والشُّهْرَة، وأنك إذا طَارَدْتَ وسَعَيْتَ لهـٰذه الأهدَاف، فأنتَ في سَبيل الله تسعىٰ ولخدْمَة «مَوْلَاك» تَعمَل! إياكَ بُنيَّ والاَغْترار بهـٰذه التَّسْوِيلَات... ولأن تَفْقِد فُرْصَتَكَ في الشُّهْرَة والظهُور إذا كُنْتَ ـ حَقّاً ـ أهْلاً لها ومحلاً، خَيرٌ لكَ ألفَ مَرَّة من أن تَسْقُط في هـٰذه الحفْرة، فَلَا تهلَك أنتَ فحَسْب، بل تُفْسِدَ عمَل الحسَينيَّة أيضاً!

لقَد بَذَلْتُ كُلَّ جَهْدِي خِلَال هذه السنين لأُنزِّه أداءَ المجْلِس والحسَينيَّة التي أُدير والشَّعَائر التي تُحييهَا وتَنْهَض بها، عن هذه الأمرَاضِ والآفَات، وسَعَيتُ سَعْياً مُضنِياً لِسَدِّ الأبوَاب والذرَائع أمَام أيَّة تأوِيلَات تَلتَفُّ على هذه الحالَة وتحَاوِل أن تُصادِرهَا أو تُزيحهَا عن مَوقع الحِدَّة والشِّدَّة والصَّرامَة إلى الرَّخَاوَة والتهَاوُن والتَّسَامُح، ودَفَعْتُ في هذا السَّبيل ثمَناً من دُنيَاي، وأحْيَاناً من حَجْم الدَّوْر الذي يُمكِن أن تَنْهض به الحسَينيَّة، والمَوْقع الذي يُمْكِن أن تَتبوَّأه وتَضْطَلع به في الحيَاة العَامَّة، لَسْتُ آسفاً عَليه ولا نَادِماً على فَوْته، بَل أنا فَرِحٌ مَسرُور، ومُباهٍ ومُفَاخِر، ثَمَنٌ كَانَ - ومَا زالَ - مُتَاحاً من أسبَاب الشُّهْرة وإذاعَة الصِّيت وبُلُوغ الآفاقِ العَامَّة، فمَنَّ عليَّ «مولاي» وكَفَّ عنِّي بأسَ الشيطَان وأنجَاني (في مَا أرجُو وأتمنى) من هذه المهلَكَة، قَانعاً بحَجْمي الصَّغِير ودَوْري الضَّئيل...

وإنما أذكُر هذا وأُعْلِنُه لتَعْلَم بُنيَّ الإرث الذي أتركُه بين يَدَيْك وأُخلِّفه لك، وتَقِفَ على حَقيقَته التي يتَضَاءَل أمامهَا المال والعَقَار ومختَلف الممتَلَكَات الماديَّة... فَلَا تُفرِّط فيه ولَا تُضَيِّعه وتهدِره. واستِطْراداً على هذا، فإني لَا أزعُم - بما ذكَرتُ آنفاً - القَضَاءَ على شَهْوة الشُّهْرة في نَفْسي، وهَزيمَة السَّعْي للصِيت، وقهْر طلَب السُّمْعَة، وإطفَاء حُبِّ الأضْواء... فهذه وتلك - قَاتلَهَا الله - مَا زالَت متَأجِّجَة في النَّفْس، مُضْطَرِمة في الرُّوح، كَوْنها من الشَّهَوات التي لَا تَكَادُ تنطَفِئ إلَّا مع النَّزع وعند الاحْتِضَار (لَيسَتْ كَشَهْوَة الفَرْج التي تخْمُد أو تخبُو عند الكِبَر، والبَطْن التي تَزُول عندَ المرَض)، مَا زَالَت تُغرِي وتَغوي، وتغَالِب وتُصَارع... إنَّما أردتُ أن أُبيِّن ضَرُورة تَنزِيه هذا العَمَل الإلهي والنشَاط المقدَّس بالخصُوص، والسُّمُوّ بإحْيَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة عن هذه الآفة الخطِيرة، والأخْذ بنَهْج يَقْطَع الطَّريقَ على رَوَافِدِهَا ويحْجُز ويَسُدُّ مَدَاخِلها ومَنَافِذهَا. فالمؤمن قَد يَكُون مُصَاباً بِدَاء ومرَض في رُوحِه، وآفة وابتِلَاء في سُلُوكه، كَالنَّظَر إلى الأجنبيَّة - على سبيل المثَال - ولكنه لَن يُعْدَم الوُسْعَ والجِدَة والقُدْرة على صَرْفها وإبعَادِهَا عن نِطَاقَات مُعَيَّنة لخصُوصيَّتهَا وعَظِيم خَطَرها، فيَعُفَّ عن المؤمنات ويتَنزَّه عن المحْصَنَات.

بنيَّ «عبدالزَّهراء»، جَعَلَك الله عَبْداً وَاقِعيّاً لـ «الزَّهْراء» عليها السلام في حَيَاتِك، وعَتِيقاً من النَّار بشَفَاعتِهَا في آخِرتك...

قَد يَقْتَضِي إحْيَاءُ الشَّعِيرة، والإسْهَامُ في أَلَقِها، سَوَاءً في نَفْسِك أو في نُفُوسِ الحضُور والنُظَّارة، أن تَتَقَدَّم الموكبَ وتحمِلُ الراية مثلاً، أو تَتَوَسَّطَ حَلْقَة اللَّطْم وتَهتِفَ وتُنَادي بما يُثير المشَاعِرَ ويهيِّج العَزَاء، وقَد يَلزَم أثناء القِرَاءَة أن تَعْلُو منكَ الصَّرْخَة والنيَاحَة مع بُلُوغ الرثَاء مَبْلَغه ووُصُول الإنشَاد ذُرْوته، وقَد أحْكَمْتَ نيَّتك من الإخْلَاص وأحسَنْتَ تَنزيه نَفْسك عن السُّمْعة والرِّيَاء... فَلَا تَتَوانَ ولَا تَتَرَدَّد، وأنتَقِل بفِكْرِك ونَظَرِكَ إلىٰ أُفق الحُسَينيَّة وفضَائهَا، بل إلىٰ السماءِ، حيث تُطِلُّ عَلَيكَ «الزهراء» عليها السلام، ووَجِّه الخِطَاب إليهَا، وكَأن لَا أحَدَ حَوْلَك ولَيْسَ في المجْلِس سِوَاهَا، اللهُمَّ إلَّا خُدَّامهَا من الموَالين المخْلِصِين والملَائك المحْدِقين الذين يُعَينُونك ويُسْعِفُونك في نَجَاح المحْفِل وأَلَقِ المشْهَد، لَا صَحَافَة ولَا إعْلَام، ولَا صُوَر ولَا تَسْجِيلَات، إلَّا متَلَقِّيَان عن اليَمين وعن الشمال قَعِيد.

بُنيَّ، لَعَلَّكَ أدركْتَ في صِغَرك وعَايشْتَ، إبَّان إقَامتِنا في «قُم» المقدَّسَة، وحَضَرتَ جَانباً من رَحىٰ المعركَة الضَّارِيَة التي أحتَدَمَت بين الأحْزَابِ والجماعَات الإسلَاميَّة العَامِلَة في السَّاحَة العِراقيَّة آنذاك، وشَهِدْتَ تَدَاعِيات المنافَسَة المخْجِلَة والصرَاع الحادِّ والعِراك علىٰ تَبَنِّي الأعمال الجِهَادِيَّة ونسْبَتهَا إليهَا، فالمفَاخَرَة والمطَالَبة بالمكَاسِب والعَوائد المترَتِّبة علىٰ هذا البذْل والعَطَاء، والسَّعْي إلىٰ الجنْي والحصَاد من غَرْس الدِّمَاء!

كَانَ المؤمنُون قَبْل الإعلَان عن الجِهَاد، ودُخُولهم مَرحَلَة المواجَهَة العَلَنِيَّة مع النِّظَام «الصدَّامي»، في رَاحَة من هذا الأبتلَاء وسَلَامة في دِينِهم، كَانُوا يجاهِدُون النِّظَام الجَائر، يكيلُونَ لَه الضربَات ويُوجِعُونه، علىٰ قلَّتِهم وضَعْفِهم، بمُختلَف الوَسَائل، وكلُّهَا سريَّة، يتَنكَّر لها أصحَابُها، ويخفي كلُّ مَن ينفِّذها أية علَاقة أو صِلَة لَه بها...

وكَان لهذا التَّخَفِّي والكِتْمان فِعْله وأثره السِّحْرِي، لَا في التوْفيق والتَسْدِيد ونَجَاح العَمَل والبركَة فيه، ثم النَّجَاة أو التقْليل من أخْطَار الملَاحَقَة الأمنيَّة والتصْفِيَة الجسَديَّة التي كَانت تَتَهدَّد المجَاهِدِين العَامِلين، لَيْسَ هذا فَحَسْب، بَل كَانَ لَه أثره الكَبير في رُوحيَّاتهم ونَفْسِيَّاتهم... أثَرٌ تجلىٰ في مَا صَارُوا فيه من سُمُوٍّ وتَعَالٍ علىٰ حُطَام الدنيَا، وتَرفُّع عن القَليل العَارِض في سَبيل الكَثير البَاقي، جَاءَ من النزَاهَة والإخْلَاص، والشُّعُور بالقُربة والأنقِطَاع إلىٰ الله عزَّ وجلَّ...

عمَلِيَّاتٌ جِهَادِيَّة تحدِّد مآل الأُمور، وقَضَايا خَطِيرة مؤثِّرة في مَصير الشُّعُوب وأحْوَال البلَاد والعِبَاد، والأنظِمَة الحَاكِمَة هنَا وهنَاك، قَامَ بها رِجَالٌ لم يَعْرِفهُم أحَدٌ في حِينهَا (ولَعَلَّهم مَجْهُولُون حتىٰ الآن)، وسَيَبقون مَخْفِيين مجهُولين حتىٰ علىٰ صَفَحاتِ التارِيخ وتَفَحُّصَات وتَحقِيقَات البَاحِثين، ولَرُبَّما أرادَتهُم بَعض الدُّوَل ورمَزَت إليهم بتِمثَال الجنديِّ المجهُول، فهُم المِصْدَاق الأتمُّ لـ "الشَهَادَة" إذا أطلَقْتَهَا كَنَوْع، وتجنَّبتَ الإشَارة إلىٰ أشخَاصِ الشُّهَدَاء وأسمائِهم، فبتَكْريمِه تُكْرِمهم.

وإنَّما كَانوا وصَارُوا عُظَماء بهذا الخفَاء...

ومَا تَراهُ من جَنْي السِّياسِيين وحَصَادهم جهُودَ غَيْرهم، وتمتُّعِهم بالمنَاصِب والمقَامات والإمرة والظُّهُور والشهْرة، هو من سُنَن الحيَاةِ وطَبيعَة الدُّنيا الدَّنيَّة التي لَا يَنْبغي للرَّوْحَاني المتألِّه والكَيِّسِ الفَطِن أن يَأسىٰ علىٰ شَيءٍ فَاتَه منهَا وزُوِيَ عنه، بَل حَقَّ أن يَفرَحَ بما أُجِّل عَنه وأُخِّر عَلَيه وادُّخِرَ لَه في أُخرَاه.

أن لَا يُمْتدَح المرءُ ولَا يثْنىٰ عَلَيْه ولَا يُطْرىٰ ويُبَجَّل، بَل ولَا يُشَار إليه، نَاهِيكَ بأن يحظىٰ بمَكَاسِبَ وغنَائم من أموَال ورئَاسَاتٍ وشُهْرة وأضْواء... علىٰ الرُّغْم من أنه البَطَل الحقِيقي، والمفصَل الوَاقِعي المحرِّك للسَّاحَة، و "هو"، دُونَ غَيْرِه من الوَاجِهَات السيَاسيَّة لِتَنْظِيمه وحِزْبه: القُطْبُ والمحْوَر والمرتكز والأسَاس.

أن يَقُومَ تَنْظِيمٌ يَقُودُه "هو" بعَمَليَّاتٍ جهَادِيَّة يُوَجِّه من خِلَالها أتبَاعُه ورِفَاقه ضَرَباتٍ ماحِقَة قَاصِمَة، تَقْلِبُ الوَضْعَ السيَاسيَّ والأمنيَّ في مَدِينَة أو بلَد، وتَضْطَرِب السلُطَاتُ وتَتَخبَّط فَلَا تَعْلَم من أين تَأتيهَا الضربَات، وتَقِفُ عَاجِزَة لَا تَستَطيع مَنْعَها ولَا سَبِيلَ لِردْعِهَا ولَا حِيلَة، و "هو" مَغْمُورٌ مجهُول، لَا يَعْرِفه الناس، ولَا يذْكُره أحَدٌ...

هذا الوَاقع وما يتَخَلَّله من شُعُور ويُصَاحِبه من حَال، ويُواكِبه - لَا محَالة - من عَطَاء ونتَائج وثَمَرات، إذا تَنزَّه عن الزَّهْوِ والغُرُور والآفَاتِ الأُخرىٰ (فهُو أيضاً لَا يخلُو، ولَه أخطَاره وأمرَاضُه الفَتَّاكَة)... هو الذي يحقِّق الظَّفَر الحقيقي، ويَنْتَقِل بالمرء إلىٰ الفَلَاح والنَّجَاح وَفْق الميزَان الإلهي، ويَنقله إلىٰ الفَضَاء الملَكُوتي المطلُوب، والآفَاق السماوِيَّة المرجُوَّة، ويَنتَهي به إلىٰ الحضْرَة المؤْعُودَة المأمُولَة من القُرب والفَوْز.

وهكذا الأمرُ في حَقْلِك ومَيْدانك، خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وإحْيَاء ذِكرىٰ فَاجِعَة «كَربلَاء»، وهو أقدَسُ مَيدَان، وفيه أشرف جِهَادٍ وأعظَم طَاعَة وأسمىٰ عبَادَة، يَنطَبقُ المثال الذي ذكَرتُه ويتكرَّر المشْهَدُ الذي سُقْتُه وصَوَّرته: أن تَقِفَ "أنتَ" خَلْفَ هَيئة حُسَينيَّة، تُدِيرهَا وتُنظِّمهَا وتخدِمهَا، أو تَبْذل من مَالِك وتَصرِف علَيهَا وتَنْهَض بمُستَلْزَمَاتها، فتُقيم العَزَاء علىٰ أكْمَل وَجْه، وتَقُوم بإحْياء الذكْرىٰ كَما هو حَقُّها ووَاجبها، وتَبلُغ بذلك حَدّاً، تَضِجُّ فيه الأملاكُ في السَّماوَات فتَقْلِبهَا من فَجْعَتِهَا، وتحسِنُ عَمَلَها وتجيده وتُتْقِنه حتىٰ يَغْدُو حَدِيثَ محَافِل المؤمنين في الأرضِ ونَادِرَة مجَالِسِهم ونَوَاديهم، شُكْراً وثَنَاءً ودُعَاءً، وأُسْوَة صَالحة واْقتِداءً... ثُم لَا تُذكَر "أنتَ" باْسم ولَا رَسْم، ولَا يُشَار إليك من قَريبٍ أو بَعيد، ولَا يُنوِّه أحَدٌ بدَوْرك ولَا يشيد بشَخْصِك، وتمضي، أو يَمْضِي الحدَث، وأنتَ مغمُورٌ مجهُول، غارِقٌ في خَفَائك، مُستَتِر بحِجَاب نزاهَتِك وإخلَاصِك.

هذا هو مَا يجعَلك ويُصَنِّفك في "خُدَّام الحسَين" ويَنسِبكَ إلىٰ هذه الثُلَّة والجماعَة ويُدْخِلك حَقّاً فيهَا، وهُو مَا يَأخُذ بيَدِكَ في مَراقِي الخِدْمَة الحقيقيَّة، ويُدْرِجُك في مَصَافِّ النُّخْبَة المنتَجَبَة والطَّلِيعَة الرَّائدَة التي تمهِّد للظُّهور الشريف، بما تَقْطَعه في طَرِيق رِثَاء وبكَاء «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وإحْياء ذِكْره وأمْرِه، وإقَامة شَعَائر عَزَائه.

اْبحَث بُنيَّ عن هذا الشُّعُور وتحرَّ تلكَ الحَال واْطْلُبها...

إنه شُعورٌ يَبني الأفذَاذ ويخلُق الأبطالَ الحقِيقيين، لَا الزَّائفين الوَهْمِيين من السِّياسيين، ويَصنَع الرِّجَالَ المنتَظِرين، لَا العَابثِين المخْدُوعين أو المخَادِعين، ولَا الضَّالِّين أو المضلِّين... وحَالٌ تعْرُج بأهلِهَا وتَأخُذهُم في مَراقي الكَمال وتُدْرِجُهم في مَصَافِّ حَوَاريي الأنبيَاء وأصْحَابِ الأوْلياء، فأُولئك العُظَمَاء هم أهْلُ العَزَاء وأصْحَابُ المآتم في عالمِهم، والمؤمنون علىٰ طَرِيقهِم وهَدْيهم، وفيهِم مَن يَقْرُبُ من مَقَاماتهم ويَدْنُو من درَجَاتِهم.

هذا هُو العَمَل، ومَا سِوَاه تَسْوِيفٌ، مَغْبونٌ مَن يَقَعَ فيه...

وأخْتِمُ مَقَالَتي ونَصِيحَتي في هذا البَاب بمِسْك أذفَر، ونُورٍ باهِر أزهَر... طَائفَة من غُرَر أحَاديث ورِوَايات سَادَة الزَّمَان والمكَان، قُطْب رَحىٰ الوجُود وعَالم الإمكَان، أهل بيت الوَحْي والنبوَّة عليهم السلام.

* عن «أبي عَبدِالله الصَّادِق» عليه السلام قَال: إنْ اسْتَطَعْتَ أن لَا تُعرَف فافْعَل، ومَا عَلَيْكَ أن لَا يُثني عَلَيْكَ الناس، ومَا عَلَيْكَ أن تكُونَ مَذمُوماً عِند الناس إذا كُنتَ محمُوداً عِند الله؟ ثم قَال: قَال أبي «عليُّ بن أبي طَالب» عليه السلام: لَا خَيْرَ في العَيْش إلَّا لِرَجُلَين، رَجُلٌ يَزْدَادُ كلَّ يَوْم خَيْراً، ورَجُلٌ يَتَدَارك السيِّئَة بالتَّوبَة. وأنَّى لَه بالتَّوْبَة؟ والله لَوْ سَجَدَ حتىٰ يَنقَطع عنُقُه، مَا قَبِلَ اللهُ تَبَارك وتَعالىٰ منه إلَّا بولَايَتنا «أهل البيت». ألَا ومَن عَرفَ حَقَّنا ورَجَا الثَّواب فينَا، ورَضيَ بقُوْته نِصْفَ مُدٍّ في كُلِّ يَوْم، ومَا سَتَر عَوْرته وأكَنَّ رأسَه، وهُم والله في ذلك خَائفُون وَجِلُون، ودُّوا أنه حَظُّهم من الدُّنيا، وكَذلك وَصَفَهم الله تَعَالىٰ فقَال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾. ثم قَال عليه السلام: ما الذي أتوا؟ أتوا والله الطاعَة مع المحَبَّة والوِلَاية وهُم في ذلك خائفُون، ليسَ خَوْفُهم خَوْفَ شَكٍّ، ولٰكنهم خَافُوا أن يَكُونُوا مقَصِّرين في محَبَّتنا وطَاعَتنا.(١)

* وعن «أميرالمؤمنين» عليه السلام في بَعْضِ خُطَبِه: وذلك زَمَانٌ لَا يَنْجُو فيه إلَّا كُلُّ مُؤمن نُوَمَة، إن شَهِدَ لم يُعرَف، وإن غَابَ لم يُفتَقَد. أُولئكَ مَصَابيحُ الهدىٰ، وأعْلَامُ السُّرىٰ، لَيْسُوا بالمَسَاييح ولَا المذَاييع البُذُر. أُولئك يَفْتَح الله لهم أبوَابَ رَحمته، ويَكْشِف عنهُم ضَرَّاء نَقمَتِه، أيها النَّاسُ سَيَأتي عَلَيكُم زَمانٌ يُكفأُ فيه الإسلَام كَما يُكفأ الإناء بما فيه.(٢)

قَال «السيِّد الرَّضِي» رحمه الله: قَوله عليه السلام: "كُلُّ مُؤمن نُوَمَة"، أرادَ الخامِل الذِّكْر القَليل الشَّرِّ، والمَسَاييح جمعُ مِسْيَاح، وهو الذي إذا سَمع لَغَيره بفَاحِشَة أذاعَهَا، ونَوَّه بها، والبُذُر جمع بَذُور، وهو الذي يكثر سَفَهُه، ويَلغُو مَنْطِقُه.

* وعن «أبي عبدالله الصَّادِق» عليه السلام، أنه قَال: خَبرٌ تَدْرِيه خَيرٌ من عَشْرٍ تَرويه، إنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقيقة، ولكُلِّ صَوَاب نُوراً. ثُم قَال: إنَّا والله لَا نعُدُّ الرَّجُلَ من شِيعَتِنَا فَقِيهاً حتىٰ يُلْحَنَ لَه، فيَعْرِف اللَّحْن. إنَّ «أميرالمؤمنين» عليه السلام قَالَ على منبر «الكُوفَة»: إنَّ من وَرَائكم فِتَناً مُظْلِمَة، عَمْياء مُنكَسِفَة، لَا ينْجُو منها إلَّا النُّوَمَة.

---

(١) «الكَافي الشريف» لـ «الشيخ الكُليني» ج ٢ ص ٤٥٦.

(٢) «نهج البَلَاغة» الخطبة ١٤٩.

قِيل: يا «أميرالمؤمنين» ومَا النُّوَمَة؟ قَال عليه السلام: الذي يَعْرِفُ الناسَ ولَا يعْرفُونَه.

وٱعلَمُوا أنَّ الأرضَ لَا تخلُـو من حُجَّة لله عزَّ وجَلَّ، ولـٰكن الله سَيُعْمِي خَلْقَه عنهَا بظُلْمهم وجَوْرهم، وإسرافِهم علىٰ أنفُسِهم، ولَو خَلَتِ الأرضُ سَاعَة وَاحِدَة من حُجَّة الله لَسَاخَت بأهلِها، ولـٰكن «الحجَّة» يَعْرِف الناسَ ولَا يَعْرِفُونه، كمَا كَانَ «يوسُف» يَعْرِف النَّاسَ، وهُم لَه مُنْكِرُون.[1]

* وفي (غَيْبَة النعماني) أيضاً بإسنادِه أنه دخَلَ علىٰ «الصَّادِق» عليه السلام بعضُ أصْحَابه، فقَال لَه: جُعِلْتُ فِدَاك، إني والله أحبُّك وأحِبُّ مَن يُحبُّك يَا سَيِّدي، مَا أكـثَر شِيعَتكُم!

فقَال عليه السلام له: ٱذكُرهُم. فقَال: كَثير. فقَال عليه السلام: تُحصِيهم؟ فقَال: هُم أكثر من ذلك.

فقَال «أبو عبدالله» عليه السلام: أمَا لَوْ كَمُلَت العُدَّة الموصُوفَة، ثَلَاثمئة وبِضْعَة عَشَر، كَان الذي يُريدُون. ولـٰكن شِيعَتنا مَن لَا يَعْدُو صَوتُه سَمْعَه، وشَحْناؤُه بدَنه، ولَا يَمْدَحُ بنَا غالياً، ولَا يُخاصِم بنَا وَالياً، ولَا يُجالِسُ لَنا عَائباً، ولَا يُحدِّثُ لنا ثَالِباً، ولَا يُحِبُّ لَنا مُبغِضاً، ولَا يُبغِضُ لَنا مُحبّاً.

فقُلْتُ: فكَيفَ أصنَعُ بهـٰذه الشِّيعَة المخْتَلِفة الذين يَقُولُون إنهم يَتَشيَّعُون؟

فَقَال عليه السلام: فيهم التمْييز، وفيهم التمْحِيص، وفيهم التبدِيل، يأتي عَلَيهم سِنُون تَفنيهم، وسَيْفٌ يقتُلهُم، وٱخْتِلَافٌ يُبدِّدهُم، إنَّما شيعَتنا من لَا يَهِرُّ هرِيرَ الكَلْب، ولَا يَطْمَعُ طَمَعَ الغُراب، ولَا يَسأل النَّاس بكَفِّه وإن مَاتَ جُوعاً.

قُلتُ: جُعِلْتُ فدَاك، فأينَ أطْلُبُ هـٰؤلَاء الموصُوفين بهـٰذه الصِّفَة؟

فقَال عليه السلام: ٱطلُبْهم في أطرَافِ الأرض، أُولئكَ الخشِنُ عَيْشُهم، المنتَقِلَة دَارُهُم، الذين إن شَهِدُوا لم يُعرَفُوا، وإن غَابوا لم يُفتَقَدُوا، وإن مرِضُوا لم يُعادُوا، وإن خَطَبوا لم يُزَوَّجُوا، وإن مَاتُوا لم يُشهَدُوا، أُولئكَ الذين في أموالهم يَتَواسُون، وإن رأوا مُؤمناً أكْرَمُوه، وإن رأوا مُنافِقاً هجَرُوه، وعند الموتِ لَا يَجْزَعُون، وفي قبُورِهم يَتَزاورُون، ولَا تختلِفُ أهْواؤهم وإن ٱختلَفَت بهم البلْدَان.[2]

---

(١) (الغَيْبَة) لـ «محمد بن إبراهيم النعماني» ص ١٤٤.

(٢) المصدر السابق ص٢٠٣.

* وفي حَدِيث لـ «أَبي جَعفَر البَاقِر» عليه السلام عن أَحْوالِ آخِرِ الزَّمَان، يَسْأله «جَابِر»:
يَا «أبن رسُول الله»، مَا أَفضَلُ مَا يَسْتَعمِله المؤمن في ذلك الزَّمَان؟
قَال عليه السلام: حِفْظُ اللسَان ولُزُوم البيْت.(١)

كُن بُنيَّ من هؤلَاء، من "النُّوَمَة"، الذين إن شَهِدُوا لم يُعرَفُوا، وإن غَابوا لم يُفتَقَدُوا... فـ «الإمام» عليه السلام لم يُحَسِّن بهذا الخطَاب العَظِيم حُسْنَ الآخْتِفَاء من الناس إلَّا لعِلَّة، ولَا ذَمَّ وقَبَّحَ الآشتِهَار بينَهم إلَّا لحِكْمَة... فآطلُبها لِتعْمَلَ بها، ولَاحِقْها عسىٰ أن تُدرِكها فتحظىٰ وتتحلىٰ بها.

ولَوْ تَأَمَّلت جيِّداً في قَوْل «النبيِّ» صلى الله عليه وآله: "إنَّمَا الأعمال بالنيَّات"، وألحقْتَ به قَوله صلى الله عليه وآله: "نِيَّة المؤمن خَيرٌ من عَمَلِه"(٢)، لَوَقفْتَ علىٰ حَقيقَة خَطِيرة وعَلمْتَ أنَّ العَمَل، كُلَّ العَمَل، يَبدأ ويَكُون هُنا، فإذا آنقَدَحَت شَرارة النِّيَّة بالإخْلَاص، وأُحْكِمَ عَقْدُ العَزْم بالصِّدْق، فَقَدْ تَمَّ العَمَلُ وكَمُل، وتحقَّق وأُنجِز، هنا (في رِحَابِ النيَّة) تُمضي بُنيَّ «عَبدَالزَّهراء» العَمَل وتُنَفِّذه، وتُنجزه كَأحْسَن مَا يكُون...

فآعلَم أين تَقِف، ومن أيِّ بابٍ دَخَلْتَ، وإلىٰ أين أنتَ مَاضٍ؟

* * *

---

(١) (كمال الدين) لـ «الشيخ الصدوق» ج٢ ص ٢٠٣.
(٢) (الهداية) لـ «الشيخ الصدوق» ص٦٢.

الوصية الثالثة:

البذل والإنفاق

إعْلَم بنيَّ أنَّ أوَّل أبواب الفَلَاح ومَدَاخِل ركُوب سَفِينَة النَّجَاة في إقَامَة المأتم والعَزَاء على «سيِّد الشهداء» عليه السلام والإسهَام في إحْيَاء ذِكْراه، هو البذْل والإنفَاق...

وهُو من الجبَهَات الأصليَّة التي تحتَدِم فيها المعركَة ويَشْتَدُّ الصِّراع، فجُنُودُ «إبليس» يُسوِّلُون للنَّاس ويَخُصُّون أوْلِيَاءَهُم، كَمَا يتَسوَّلُون على أبوَاب الآخَرين بمَا يُزيِّنون لهم، ويجهَدُون في ثَنْيِهم وإن كَانُوا من أعدَائِهم! فيقعُدُون لهم على هذا الصِّراطِ المستَقِيم بمَرْصَد، ليُثْنوهُم ويَصْرفوهُم وهُم يهيِّجُون فيهِم غَريزَة الشحِّ، ويَسْتَجْدُون من مَكَامِن الهوىٰ وغَرائز النَّفْس، وقَد ﴿أُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ١٢٨﴾ (النساء)، بمُختَلِف الأسَاليب وشَتَّى العَنَاوِين ومنهَا مَا يُلْبَسُ بالحِكْمة والمرجِّحَات الشرعيَّة، وطَالمَا رَأينا أبواقَهُم تَنفُخ وطُبُولهم تَقْرع لِرَجْع هذا الهُراء، وشَهِدْنا ثَعابينهم تَنْفُث هذي السُّمُوم، وهُم يَعقِدُون المقَارنَات ويُقَدِّمون الأوْلَويَّات، أنَّ هنَاكَ مَوَاردَ أفضَلُ للإنفَاق في سَبيل الله، كَتَزْويج العُزَّاب، وإعَانة الفُقَراء، وإطعَام الجِيَاع، وأنَّ جُلَّ رُوَّاد الحسَينيَّات، ولَا سيَّمَا في بلَادنا، هُم من غَيْر الفُقَراء، وأنَّ مَا يُبذَل لَا حَاجَة إليه ويَدْخُل في الزيادَة والإسراف... وهكذا.

ولَا أُريدُ الوقُوفَ علىٰ تهافُتِ هـٰذه المزَاعِـم وبُطْلَان هـٰذه التَسْوِيلَات الجوْفَاء، التي تُغـرِّر وتَسْتَغْفِل، فيكْفِيكَ النظَرُ في أحْوال مُطلِقيهَا ومُحاسَبتِهِم علىٰ سُلُوكِهِم وفعْلِهم في مَيادِين ومَوَاقعَ أُخرىٰ، سَوَاءٌ شَخصِيَّة كَانت أو عَامَّة، لِتَجِـدَ أن القَضِيَّة هي عُقدَةٌ دَعَتْهم لمناهَضَة المجَالِس الحسَينيَّة، لَا حُرْمَة الإسْرافِ ولَا الأولَوِيَّات التي يَعْرُضُون، وأنَّ مَا يُؤلمُهُم هُو أَلَقُ الشَّعَائر ورَوَاجُها وإقبالُ المؤمنين عليَهَا، مقَابِلَ كَسَادِ أحزابهم السِّيَاسيَّة وفشَل تجمُّعاتهم الشخْصِيَّة! فيرفَعُ أحدُهُم عَقيرتَه ويُنادِي بالنكِير علىٰ بعضِ مَوارد البذْلِ في مآتم «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، وأنها من مَظَاهِرِ الإسْراف والصَّرفِ غير الشَّرعي، والحال أنه غارِقٌ في التَّرَف، ينَاهِزُ الأمراءَ في البَطَر والسَّرَف، ويتَفَوَّق علىٰ رجَال المال والأعمال في مَسْكَنه ومَركَبه! كَمَا لَا يُمانع آخَر من مَوائد عَامِرة وحَفَلَاتٍ بَاذِخَة تُقَام لمناسَبَاتٍ تَافِهَة كتَكرِيم شَخْصِيَّات تَنْتَحِل المجْدَ زُوراً، والاَحتِفَاء برُموز ضَلَالٍ، وتَعظِيم أعْلَام غِواية، تُصْرَف فيها مَا شَاءَ الشيطَانُ من أمْوَال وتُهدَر، للحَمِيَّـة العَائليَّة والمصْلَحَة السِّيَاسيَّة والنَّزعَةِ الحزبيَّة والدِّعَاية الشَّخصِيَّة، ثم تَرىٰ التَّعِسَ يَسْتَنكِر "سُفْرة" (مَائدَة) تُبسَطُ ووَليمَة تُقَام بِاَسم مَوْلَاتنا «أُم البنين» عليها السلام، تَنهَضُ بها اَمرأة مُؤمنَة بلَغَت مُرادَها فأوْفَت نذْرَها!

إنهم يَعيشُـونَ في قصُور باذِخَة، ويستكثرون أن يُجدَّد أثاثُ الحسَينيَّة ومَتَاعُهَا، ويُزَخْرِفُون بيُوتَهم ويَنقُشُون دُورَهم، فإذا بذَلَ مؤمنٌ لتزيين الحسَينيَّة أو تَوْسعَتهَا، أو لِصُنع منْبر ثَمِين أو لِشِراء مَصَابيحَ مُعلَّقَة أو ثُريَّات كَبيرة مُتلأْلِئة، تُضْفي علىٰ المكَان مَا يَليقُ به، وتُظْهِره بشَكْل يُناسِبُ عظَمَة الدَّوْر وكَرامَة المحْفِل... تَراهُم يهوِّلُون ويَستَنكِرُون!

والحقِيقَة أنَّ أعْدَاء الشَّعَائر وخُصُوم المجَالِسِ الحسَينيَّة من الحِزْبيين السِّياسِيين أو من الضُّلَّال المنحَرِفين يَعلَمُون جيِّداً أن المُكْنَة الماليَّة وسِعَة ذَاتِ اليَدِ عُنْصُرٌ أسَاسٌ في نَماءِ العَمَل ذِي البُعْدِ الاَجْتِماعي، القَائم علىٰ الحضُور والاَمتِدَاد الجماهيري، وهُو عَامِلٌ خَطِيرٌ في نَجَاحِه وتَطْوِيره، وأنَّ "الميزانية" المفتوحَة التي يَتَمتَّع بها هـٰذا النَشاط المقدَّس، سَوَاء من الدَّفْع المباشر والتبرُّعَات النقْدِيَّة والإسْهَامات العَينيَّة، أو من عَوَائِد الأوْقافِ المخصَّصَة... سَيُؤدِّي إلىٰ نَمائه وتَطْوِيره، وفي الأقلِّ، سَيُورِث ثَباته واَستِحْكَامه ويُخلِّفُ العَجْزَ عن إلغَائه وتَغيِيره، فمَا دَامَت النَّاسُ تَدْفَع وتَبذِل، فإنَّ الشَّعَائر ستبقىٰ في أَلَقِهَا ووَهْجِهَا...

والقَوْمُ لَا يُرِيدُونَ ذلك، ويَعْمَلُون لِخِلَافِه... لِذَا تَراهُم يَعْمَدُون إلى تلك العَنَاوِين المخَادِعَة التي تُوارِي ضَلَالهم وتُغَطِّي أَصْلَ حَنَقِهِم وعَدَائهم، وتُخفي نهَاية قَصْدِهِم وغَاية مَرامِهِم، أي تَعطِيل الشَّعَائر الحسَينيَّة وإلغَاءَهَا.

لَقَد لمستُ هذا يا بُنيَّ بالوُجْدَان ورأيته بالعَيَان... إنَّهم يُنَاصِبُون الشَّعائر الحسَينيَّة العَدَاء، ولَا شَيءَ أثقَلَ عَلَيهم في الفِكْرِ الإمَاميِّ الجعفَريِّ الاثني عَشَري، وفي عمُوم مَعَالم دِيننا وأُصُول مَذهَبنَا من البرَاءَة من أعْدَاء الله، وإحْيَاء هذه الشَّعَائر الإلهيَّة العظيمَة. إنَّني أعرفُ أشخَاصاً وجماعَاتٍ من الشِّيعَة، نَاهيكَ بالأعداءِ والمخَالِفين، يَعدُّون الأمر قَضِيَّتهُم الأُولى وجَبْهَتهم الأسَاس! وقَد خُضْتُ معَهُم معَارِكَ ودَخَلْتُ صِرَاعَاتٍ مُباشِرة، ورأيتُ بالحسِّ والوُجْدَان، كَمَا عَرفْتُ - من قَبْلُ - بالدَّليل والبُرهَان، كَم كَادُوا كَيْدَهُم وسَعَوْا سَعْيَهم ونَاصَبُوا جُهْدَهم، بمُخْتَلِف الأشكَال والصُّوَر، وتحتَ شتى الذَّرَائع والحِيَل، ليُفسِدُوا هذا الأمر ويُثنُوا المؤمنين ويَصْرِفُوهم عنه.

ولَو دقَّقْتَ النَّظَر لَرأيتَ المنهَجَ الشَّيطانيَّ في هذه الحرْب، وكَيفَ أنَّهم يأتونَ ويتَقَدَّمُون وَفْقَ سِيَاسَة التدَرُّج والخطْوة تِلْو الخطْوَة، كَمَا جَاء التحْذِير الإلهي في قَوْله تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ (البقرة)، وقَوْله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾(البقرة)... هؤلَاء بُنيَّ هُم جُنودُ الشَّيْطَان، يَأتونَ على طَرِيقَته ويَمْضُون بوَسيلَته ويحارِبُون بأسَالِيبه، لَا يَأتي أحَدُهُم المؤمنَ الملتَزِم فيأمُره بمُوَاقعَة أجنبيَّة وارتكَاب الزِّنا، أو بسَرِقَة مَالِ أخِيه، أو بتَرك الصَّلَاة، لكنه يُسَوِّل له التسْوِيفَ بها وتَأخيرهَا عن أوَّل وَقْتهَا، كَمَا يغويه بالنَّظَر الحرَام (مجرَّد نظَر!)، ويهوِّن له الخطْبَ في مَالِ الشُّبهَة ويُسَوِّغ الالتِفَاف والمراوَغَة إلى مَخْرَج مُبيح! وهكذا لَا يَدْعُوه إلى تَركِ الشَّعَائر، بل يُشكِّكُه فيهَا ويُطَالِبه بالتَّخلي عن وَاحِدَة منهَا، أو عَن جُزء من وَاحِدَة!

هذا مَا دَارَت عَلَيه رَحى المعرَكَة منذ كَانت الشَّعَائر الحسَينيَّة، من أيام «المتوكِّل العباسي» لعَنَه الله الذي كَانَ يَقْطَع أيدِي زُوَّار «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، ثم صَارَ يَقتلهُم، وهكذا الذين سَبَقُوه، والذين خَلَفوه، إلى أيامنا وعَصْرِنا الحاضِر...

ومن ذلك مَا جَرىٰ في «البَصْرة» إبَّان الحُكْم العُثْماني، حِين قَامَت مَعْرَكَة سَقَطَ فيهَا شُهَدَاء بسَبَب مَنْع الوَالي خرُوج مَسيرة المواكِب الحسينيَّة يَوْم «عَاشُوراء»، وكَانت السُّلُطَات العُثْمانيَّة قَد اعترضَتْ علىٰ "مفْرَدَة جُزئيَّة" وَاحِدَة فَحَسْب، هي وُجُود حِصَان (يرمُز لفَرَس «الحُسَين» ؑ، «ذي الجنَاح») في الطَّلِيعَة، أمامَ المسيرَة الكُبرىٰ، وطلَبَتْ من القَائِم علىٰ الموكَب أن يُنَحِّيه جَانِباً ويُخرِجه من الموكَب، وإلَّا فلَن يُسْمَح للمَسِيرة أن تَنْطَلِق!... رَفَض القَائِم علىٰ المواكِب الأمْر، وتمسَّكَ الوَالي بقَراره، ولم يَتَراجَع أيٌّ مِنْهُمَا عن مَوْقفِه، حتىٰ نَشَبَت مَعْرَكَة قَاسِيَة سَقَطَ فيها قتلىٰ وجَرحىٰ من الطَّرفَيْن، ثم انطَلَقَت المسِيرة علىٰ رَغْم السُّلُطَات، يتَقَدَّمها "الحِصَان"، كمَا أرادَ المؤمنُون، وأصَرَّ رَاعِي الموكب.

وبَعد إتمام المرَاسِم وانقِضَاء الوَاقِعَة، عَادَ بعْضُ المؤمنين وعَاتبُوا الرَّجُلَ ولَامُوه علىٰ تَشدُّدِه وإصْراره علىٰ بَقَاء الحِصَان في مُقدِّمَة المسيرَة، وتَسَاءَلُوا: مَاذا يَسُوءُ المواكِبَ ومَسِيرة العَزَاء إذا لم يَكُن فيهَا «ذُو الجنَاح»؟ ومَا ضَرَّ الشَّعِيرة الكُبرىٰ من إبعَادِ الحِصَان والمضيِّ ببَقِيَّة "الجوقَات" من حَمَلَة الرَّايات واللطَّامَة والضَّارِبين بالزنجِير والدَّمَّامات والقَامَات؟ فقَال قَائد المواكِب الحسَينيَّة في جَوَابهم:

إنهم يَأتونَنا خُطْوَة فخُطْوَة... لَو كُنَّا قبِلْنا وأذعَنَّا لِطَلَبِهم هذا العَام، لجاؤونَا من قَابِل بشَيء آخَر وطَلَبٍ جَدِيد كَمَنْع الرايات التي تُرفَع أمَام المواكِب، وشَيءٍ ثالِثٍ في الذي يَلِيه، وهكذا حتىٰ يَقضُوا علىٰ ظَاهِرَة المواكِبِ ويُنهُوهَا تماماً، ويَحْسِروا العَزَاء عن الطرُقَات والميادِين العَامَّة ويَحصُرُوه دَاخِل الحسَينيَّات. عِنْدها سَينتقِلُون إلىٰ شَعِيرة أُخرىٰ ويَعْمَلُونَ عَلَيها بالتدَرُّج والطَّرِيقَة نَفْسهَا! حتىٰ يُنهُوا الشَّعَائر من رَأسِهَا ويَقْضُوا عَلَيهَا تماماً... فإذا فعَلُوا، سَتَراهُم يَزعُمُون بأن لَا شَيءَ حَصَلَ في مِثْل هذا اليَوْم! فيأتي «عَاشُوراء» ويَمُرُّ علىٰ النَاسِ وأغلَبُهم في غَفْلَة لَا يَدْرُون مَا جَرىٰ ولَا يَشْعُرُون بالفَاجعَة، ويُصْبحُ الحالُ في «عَاشُوراء» مثله في «الغدير»، لَا يَعْرِفه إلَّا القِلَّة، ولَا يحتَفِي به إلَّا النُّخْبَة. حتىٰ يصِلَ الأمرُ إلىٰ جَعْلِ «عَاشُورَاء» يَوْمَ فَرَح وسُرُور! واتِّخاذه عِيداً يَصُومه المسلِمُون شُكْراً، وسَيَجِدُون من التلفِيقَاتِ «الأُمويَّة» والذرائع الناصِبيَّة مَا يحقِّق غايتهُم ويخدَع غيرهُم، فيُقَال نَحْنُ أولىٰ بـ«موسىٰ» من اليهُود، الذين يَصُومُونَه احتفاءً بظَفَرِه علىٰ «فِرْعَوْن»!

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَتفهَّم وتَقِف بفِطْنة وذكَاءٍ علىٰ خَطَر الموضُوع، وتَعِي القضِيَّة وحَجْمَها، وتُدْرِكَ أبعَاد المعركَة وأدوَاتها، وأن لَا تَغْفَل لحظَة عن رَحَاهَا التي تَدُور بِضَرَاوَة وقَسْوَة، وإنْ لم تَظْهَر للعِيَان، وكَانت مُتوَارِيَة عن المَوَاجَهَة المباشِرَة مُسْتَتِرة بالحِيَل وتَعْمَل بكِتْمَان، ولَا تُستَغْفَل بَأيِّ عُنْوَان وشِعَار يُسَوِّل ويُسَوِّف، ويَسْتَدرجك إلىٰ حَيث يُرِيدُون... ومن ذلك اَستِهدَافهم الركْن المالي، ومَصَادِر تَموين وتَموِيل الشَّعَائر الحسَينيَّة، الذي يَلِجُونه بعَناوِين مُتنوِّعَة ويَتَوَغَّلُونَ فيه تحتَ ذَرائعَ مختَلِفَة. يُثيرُونَ الإشكَالَات التي تُشَكِّك النَاسَ في البذْل للحُسينيَّات، ويَسُوقُون الذرائع التي تَصْرِفهم عن الإنفَاق في سبيل الشَّعَائر، وهي ذَرائع خَطِيرة مهمَا بَدَتْ وَاهيَة سَخِيفة، وإشكَالَات لَا يجُوز أن تُترك وتُهمَل مَهما كَانت سَاقِطَة وظَاهِرة البُطلَان... وهُم لَا يُوفِّرُون ولَا يتَجَاوَزُون عن أيِّ مَوْقع يُمكِنهُم الإضْرار به، وأيِّ ثَغْر يَسْتَطِيعُونَ تطْويعه وإرغامه، وأية شَمْعَة يُمكِنهم إطفاؤها!

ولكَ أن تَتأمَّل - علىٰ سَبيل المثَال - في مَا كُنَّا نوَاجَه به في حُسَينيَّتنا القَدِيمَة حين كُنَّا نُقيم شَعِيرة "المشَاعِل" لَيْلَة تَاسُوعَاء، وتُفكِّر في أسَالِيبهم الملتَوِيَة وطرُقِهم الشَيْطَانيَّة التي سَعَوا كُلَّ جُهْدِهُم ليُوقفُوا من خِلَالها هذه الشَّعِيرة، ويَمْنَعُوا تَأسِيسَهَا في هذا البلَد... هذا يَندُب إجْراءَات الأمْن والسَّلَامَة ويُظهِر الخَوْفَ والخشْيَة من الحرَائق، وذاكَ يَشْكُو التلَوُّث بالأدْخِنَة ويَبْكي البيئَة والنظَافَة ومَا كَانَت تخلِّفه المشَاعِل من بَقَايا النِّفْطِ والخَيْش المحْتَرِقَة، وثَالِث يُثير شُبهَة البدْعَة ويُشَكِّك في معنىٰ الشَّعِيرة وفَلْسَفتِها ودَوْرها اليوم، وقَد كَانت في مَا مضىٰ تتقَدَّم المواكِبَ والهيئاتِ الحسَينيَّة كأدَاة إنَارة ووَسيلَة إضَاءَة؟ (والحال أنَّ الفلْسَفَة والعِلَّة لَا تَنْحَصِر بهذا، بل حتىٰ لَو كَانت كَذلك، فَهِي لَا تقِفُ عِندَه ولَا تتوَقَّف عَلَيه ولَا يَتَلَاشىٰ المعلُول بأنتِفَائها، إذ يَدْخُل الأمرُ في الإشْهَار والإعْلَام، والإثَارة والتشْوِيق، وكُلُّها عَنَاوِين متَحَقِّقة في زَمَاننا). ورَابع يتنحىٰ بي جَانباً ويُسرُّ إليَّ، كَحَرِيصٍ لَا يُريدُ الإشَاعَة والتَّخرِيب والإفسَاد! يتَسَاءَل عن مَردُود هذا العَمَل ومحصُوله، ومَوْقِعه في خِدْمة القضِيَّة الحسَينيَّة؟ وكَيفَ أنه يُمثِّل صُورة مُعلَنَة من الهدْر، بل هُو شَكْلٌ جَليٌّ مباشر لحرْق المال وإتلَافِه!... أن تَشْتَري من حُرِّ مَالِك، أو من أموَال شَرعيَّة، خَيْشاً ونفْطاً، ثم تُشْعِل فيها النَّار وتحرقهَا، تُوقد بها مَشَاعِل يَدُور بها حمَلَتُها ويَستعرِضُون؟!

والمفَارقَة أنه كَان إلىٰ جِوَار مُحدِّثي "النَّاصِح" هـٰذا، رجُلٌ يُشْعِل لَفَّافَة ويُـدَخِّن سِيجَارة، مَشْهَدٌ لم يَسْتَوْقف صَاحِبي ولاَ أثاره! ولاَ سَأل الغَافِلُ - أو المغرِض - نَفْسَه يَوْماً، وهو ممن يُشَارِكُ الأحزَاب السِّيَاسيَّة ويَعْمَل في حملَاتها الإعلَاميَّة في مَواسِم الأنتِخَابات، عن الهدْر والإسراف وحَرْق الأموَال التي تُصْرف علىٰ مُلْصَقَات لشِعَارات سِيَاسيَّة (لَا يَلْبثُون أن يَنكُصُوا عنهَا)، وصُوَر زُعَماء ورُمُوز ومُرشَّحِين (لَا يطُولُ أن تَنتهي صَلَاحيَّتهم ويُستَهْلَكُون، فينقَلِبُون عَليهم!)، تَظْهَر بأحْجَام جِدَاريَّة، ولَافِتَـات تملأُ الطُرقَات وتغطِّي المبَاني؟... فهُو يَرىٰ ذلك من ضَرورَات العَمَل ولَوَازم وطَبيعَة النشَاطِ الأجتِماعيِّ والسِّيَاسي، وحَقٌّ لَه، فالمشَاريع الكَبيرة والأفكَار العَظيمَة تَفتَقِر إلىٰ الإعلَام وتحتَاج إلىٰ الإعلَان، وفي سِيَاق ذلك لَا يُسْأل عن قُبَّعَات مُلَوَّنَة، أو قُمُصٍ مَطبُوعَة، وبالُونَاتٍ (مَنفُوخَات) تُطْلَق في الهوَاء (لَا تَعُود لتُستَرجَع!)، وألعَابٍ نَارِيَّة تَشْتَعِل وتُفَرقع... لِذَا فصَاحِبي لَا يَسْأَلُ عن مَصِير مئَاتِ آلَاف الدنانير التي طبَعَت صُوَراً ومنْشُوراتٍ، تلقىٰ بعدَ أيام في القُمامَة وتُلْحَق بالنُّفَايات؟ ولعَلَّهم صَرفوا عَليهَا من بيتِ المال واقتطَعُوهَا من الأخمَاس والزكَوَات؟! ولـٰكنه يستكثر غَالُوناً من الوَقُود وحُزَماً من الخيْش تحترق لتُهيِّج النَّاس وتُثِير الأجْواء وهي تُذكِّر النُظَّارة بمُعَسْكَر «الحسَين»، والنيران المضْرمَة في الخندَق وَرَاءَه، التي أمر بها «المولىٰ» عليه السلام تحسُّباً لهجُوم مُباغِت من الأشرار! كَأداةٍ صَغيرة ووَسيلَة أُخرىٰ تَصُبُّ في خِدْمَة أعظَم قَضِيَّة في الوُجُود، وتهتِفُ بأسم أشْرف الكَائنات.

وبعد هـٰذه التَسْوِيلَات الجوْفَاء الخرقَاء أو الأُخرىٰ الإضلَاليَّة الخَبِيثَة التي تُغرِّر وتَأمر الناس بالبُخْل وتَدْعُو للإمسَاكِ والإحْجَام عن البذْل في سَبِيل «سيِّد الشهَدَاء» عليه السلام...

هُناكَ عُنصُر الشَّهْوَة وعَامِل الهوىٰ الذي يَسْتَلُّ من الشحِّ ويَنبع من الحِرْص والبُخْل، وجَـذْره في النفَاق الذي أنـزلَ اللهُ سُبْحَانه وتعـالىٰ فيـه: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ (الأحزاب)، مُقَابِل الإيمان الذي أثنىٰ الله علىٰ كَرَم أَهْلِه ومَدَحَهم للإيثَار، والخلَاص من الشُحِّ الذي نَجَـوْا منه، وذلك في قوله تعـالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحشر)...

وقَد يَغفُلُ المؤمنُ الموفَّقُ ويَحسَبُ الأمرَ هيِّناً يَسِيراً، لمَا يَراهُ في نَفْسِه من مُطَاوَعَة ويجِدْه من سُهُولَة في البذْل والعَطَاء... إعْلَم بُنيَّ أنَّ هذه نِعْمَة عظِيمَة حُرِمَ منهَا كَثيرُون، وتَوفيقٌ خَطيرٌ زالَ حتىٰ عن مُؤمنين مُلتَزِمين! إذ الأمر يَمسُّ نَزْعَةً متأصِّلَة، مَا أوْهَم بَعْضَهُم أنها فِطْرة جُبِلَ الإنسانُ عَلَيهَا، وهي لَيْسَت كَذلك، لكنها كَامِنَة في النَّفس، قَويَّة مُسْتَقِرَّة ثابتَة، يَصْعُب على غيرِ المفْلِحِين مُقَاوَمتُها ويَعْسُر علىٰ أيِّ كانَ مخالَفتها ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾﴾ (التغابن)، فكَم مُؤمن مخلِص، لَا ينقُصه إيمانٌ ولَا يَفُوته ٱلتزام، ولَا يَعيبه خُلُق ولَا يَشينُه سُلُوك، اللهمَّ إلَّا البُخْل والشُّحُّ، تأصَّل فيه وٱستَحْكَم، وتمكَّنَ منه وتَغَلَّب، فَلَئن تُجهز علَيه فتنتزع رُوحَه وتزْهق نَفَسَه أهوَن عَلَيه من إخْراج دِينَارٍ من جَيْبه وصَرف دِرْهَم علىٰ غَيْره! لَا كَرَماً يَعرف ولَا ثَواباً يُلَاحِق ويَطْلُب. يَمرُّ عَلَيه اليَوْم والشَّهْر والعَام تِلْو العَام، حتىٰ يبلُغ أرذَلَ العُمْر، ولم يُسَاهِم مرَّة ويَبذُل من مَالِه في حُسَينيَّة، ولم يُشَارِك يوماً في إقامة مأتم علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام! فإذا سُئل، أو حَاسبَتْه يَقظَة ضَمِير وعَاتبتْهُ نَفْسٌ لَوَّامة، رَدَّ بأنَّ الناسَ تَبذِل وتَصْرِف، ولم نَرَ حُسينيَّة تَعَطَّلَت لِنَقْصٍ ولَا مأتماً توقَّفَ لحاجَة! فإن رأىٰ إلحاحاً من ضَمِيره وإصراراً من نفْسِه، قهَرَها بالجَحْد والكُفْر، ورَاحَ في إنكَار مَشْرُوعيَّة الشَّعَائر، وإسْقَاطِ وَاقِعِه المتخَلِّف المرِير، بل المرِيض، علىٰ الصَّرفِ بِلَا طَائل ومَا يَدْخُل في الهدْر والإسراف!

وبعد، بُنيَّ...

إنَّ قِصَّة الرَّجُل الذي كَان يَلْتَزِم إقامَة عَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام في كُلِّ عَام، والذي أعْسَرَ في إحْدىٰ السِّنين أو أفلَس، وهو علىٰ أعتَابِ الموْسِم، قَد قَرُب محرَّم الحرَام وأزِف، وهو عَاجزٌ لَا يُمكِنه أن يَنْصِبَ المأتم ولَا أن يَنْهض بالٱستِعدَادات اللَّازِمَة وَفْقَ عَادتِه التي جَرىٰ عَلَيهَا وٱلتزَمهَا سِنينَ متَمادِيَة، حَائرٌ في أمْرِه لَا يدْرِي مَا يَصْنَع؟ فلَم يجِد حِيلَة ولَا سَبيلاً يخرجه من عَجْزِه وفَقْره، إلَّا أن يَعرِضَ ٱبنه كَرِقٍّ ويبيعه كعَبْد!... وتمضي القِصَّة المشهُورة التي يتَدَاوَلها الخطَبَاء ويُكَرِّرونها علىٰ المَنَابر، لِتبلُغ مَا ٱنكَشَف للمُؤمن الصَالح بعدَ ذلك وبَان، من أنَّ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام هو الذي ٱبتَاع ٱبنَه، أو أمرَ بشِرائه من سُوق النخَّاسِين، لِيعْتِقه أو في الحقِيقَة لِيُعيده إلىٰ أبيه...

إنَّ هٰذه الحكَاية لَيْسَت وَهْماً أو من نَسْج الخيَال، ولاَ مجرَّد قِصَّة تُروىٰ، نَاهِيكَ بأن تكُون أُسطُورة أو تَراجيديَا من الفُلكْلُور الشَّعبي... إنها قِصَّة تحكِي حَقِيقَة، ورِوَاية تُصَوِّر فِكْرة كُلَّها حَقٌّ وصِدْق، فَشَارِي مثل هٰذا "البَيع" لاَ يُمكِن أن يَكُونَ غير الله عَزَّ وجَلَّ، علىٰ يَدِ وَليِّه وخَلِيفَته في أرْضِه. وأمثَال هٰذه "الصَّفقَات" الإلهيَّة تَأتي علىٰ دَرجَات ومَرَاتب، قِمَّتُها وذُرْوَتها القُصْوىٰ، لَمَّا اشترىٰ اللهُ مُبَاشَرةً، تُكُون في وَليِّ الله الأعظَم مَوْلاَنا «أميرالمؤمنين» عليه السلام، الذي أنزَل الله في "بَيْعِه": ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ (البقرة)، كما يُمكِن لبَعْضِ شِيعَته الأبرار وأتبَاعِه الأخيَار أن يَبلُغُوا مَقَام: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (التوبة)... وهٰذا البَيْعُ الذي أقدَم عَليه صَاحِبُ المأتم في سَبِيل تأمِين تكْلِفَة إقَامَة العَزَاء وإحْيَاء شَعِيرَة «عَاشُوراء»، بِنَحْوٍ بلَغَ أقصىٰ الجُود وغَاية الموجُود ومَا يُمكِن أن يَكُونَ من بَذْلٍ وعَطَاء وإنفَاق، وَاقِعٌ - بلاَ رَيْب - مَوقْعَ الرِّضَا والتقدِير من سَادَتِه وأوليَائه، فيأتي رَدُّهم عليهم السلام متَوافِقاً وبِمَا هُم أهْله من الإحْسَان ورَدِّ الجمِيل.

من هُنا انطَلِق، وعلىٰ هٰذا الأسَاس شَيِّد بُنَيَّ بُنيانَك وارفَع جِدَارك...

إنَّ البَذْلَ والإنفَاق في الشَّعَائِر الحسَينيَّة يُمكِن أن يَكُون دَاخِلاً في عَنَاوِين عَدِيدَة، ومُنْطَوِياً ومَشمُولاً بعُمُومَات كَثيرة نَدَبَ إليها الشَّارع المقَدَّس وحَثَّ عَليهَا، فالمنبر الحسَينيُّ هو من أبرَزِ أدَوَات تَرويج الدِّين ونَشْرِ المذهَب، وأحَدِ أهَمِّ وَسَائل الدَّعْوَة والتَّبليغ، والثَّغْر الثاني (بعد، أو مَع الحوْزَة العِلمِيَّة) في الدِّفَاع عن العَقِيدَة ونُصْرة الحق، وهي عَناوِين شَرعيَّة، والبذْلُ في سَبيلهَا يَدُور بين الوُجُوب والاسْتِحْبَاب، وهٰكذا الأمرُ في بقِيَّة أنماطِ الشَّعَائر وصُوَرِهَا، كُلُّها مما يُستَحَبُّ البَذْلُ لها والإنفَاق عَلَيهَا، ومنهَا عُنوَان الاجتماع للعِلْم أو للدُّعَاء، أو للتزَاوُر وتَفَقُّد الأحْوَال، وعُنوَان استِحْبَاب الإطْعَام وإكرَام المؤمنين، وهُو لاَ يَختَصُّ بالفَقِير والجائع، بل يتَحقَّق حتىٰ في مَيسُور الحال والمقتَدِر.

إنَّ العَنَاوِين بُنَيَّ كَثيرة... ولكَ أن تُنوِّع في نيَّتِكَ وتُعدِّد من قَصْدِك، ولكنِّي أنصَحُكَ أن تحْرِصَ علىٰ قَصْدِ "صِلَة آل محمَّد"، وتجعَلَ من "الصِّلَة" مَدْخَلاً لما تَأتي به في هٰذا الميدَان ومَا تَقُوم به من الإنفَاقِ في هٰذا السَّبيل.

فَقَد رأيتُ جُملَة من الأعمال الوَلَائيَّة والممارسَاتِ والعِبَادَاتِ العَظِيمَة تُذْكَرُ في أحَادِيث «المعصُومين» عليهم السلام بهذا العُنوان، أي "الصِّلَة"، وإن ارتكزَ الأمرُ وتأكَّد في الصِّلَة ببَذْلِ المال، ولكنِّي رأيتُ انطِبَاق العُنوَان وتحقُّقه في أعمال أُخْرىٰ وَجَدْتها تَدْخُل فيه، ورأيتُ من الفَضْل والأجْرِ فيهَا، وهكذا من غَفْلَة المؤمنين عَنهَا، حتىٰ لتَحْسَبهَا مجهُولَة بينهُم، أو هي مَنْسِيَّة... مَا جَعَلَني أحْرِصُ عَلَيهَا وأتمسَّكُ بها وأجْعَلها مَدْخَلي وعُنوان عَمَلي في كَثير من الموَارِد، فأنا أُدخِلُ الصَّدَقَة للفَقِير ـ علىٰ سَبيلِ المثَال ـ في هذا، لا في قَضَاءِ حَاجَتِه ورفْع عَوَزِه، أي أبذُل له وأصِلُه لِكَوْنه من رَعيَّة «صَاحِب الزَّمَان» ومن مَوَالي إمَامي عليه السلام، وهكذا مَا أفعَل في نِطَاق آداب العِشْرة، حتىٰ البِشْرُ في وَجْه المؤمن وإدخَالِ السُّرور عَلَيه بأية وَسيلَة، أقصِدُ بها صِلَة «الإمَام»، عَبْر الإحْسَانِ لمواليه وبِرِّ شيعَتِه.

ومن الأحَاديثِ التي تُشِير إلىٰ هذا، مَا جَاءَ في رِوَايـة «المفيد» عن «الجبَاعيِّ»، عن «حَمران بن أعْين»، قَال: زُرْتُ «الحسَينَ» عليه السلام، فلَمَّا قَدِمْت قَالَ لي «أبوجعفَر البَاقِر» عليه السلام: أبشِر يَا «حَمران»، فمَن زارَ قُبُورِ شُهَدَاء «آل محمَّد» عليهم السلام يُريدُ بذَلك صِلَة نبِيِّه، خَرَجَ من ذُنُوبه كَيَوْم وَلَدَته أُمُّه.(١)

وعن «القاسِم بن محمَّد»، عن «أبي حمزة»، عن «أبي جعفَر الباقِر» عليه السلام، قَال: إذا كَانَ يَوْمُ القِيَامَـة جَـمَعَ اللهُ الأوَّلين والآخِرين فيُنَادِي مُنَادٍ: مَن كَانت لهُ عِندَ «رَسُولِ الله» يَدٌ فليَقُمْ. فيقُوم عُنُق من الناس، فيقُول: مَا كَانت أيديكُم عندَ «رَسُولِ الله» صلى الله عليه وآله؟ فيقُولُون: كنَّا نَصِلُ أهْلَ بَيْتِه من بَعْدِه. فيُقَال لهم: اذهَبُوا فَطُوفُوا في النَّاسِ، فمَن كَانت له عندَكُم يَدٌ فخُذوا بِيَدِه فأدْخِلُوه في الجنَّة.(٢)

وعن «محمَّد بن علي الصَّيْرفي»، عن «عيسىٰ بن عبدالله العلَوي»، عن «أبيه»، عن «جدِّه»، عن «علي بن أبي طالب» عليه السلام، قَال: قَال «رسُول الله» صلى الله عليه وآله: من اصطَنَع إلىٰ أحَدٍ من أهلِ بيتي يَداً، كَافيته يَوْم القيامَة.(٣)

(١) (أمالي الطوسي) ج٢ ص٨٢.

(٢) انظر (المحَاسِن) لـ «البرقي» ج١ ص٦٢.

(٣) المصدر السابق.

أمَا الصِّلَة المباشِرة بالمال، فَقَد جَاءَ فيهَا كَثيرٌ من الأحَادِيث أذكُرُ لكَ منهَا:

رَوَىٰ «محمَّد بن الفَضْل بن إبراهيم»، عن «عُرْمَان بن مَعْقِل»، عن «أبي عبدالله الصَّادِق» ﷺ، قَال: سَمِعتُه يقُول: لَا تَدَعُوا صِلَة «آل محمَّد» من أموَالِكُم ، مَن كَانَ غَنِيّاً فعلىٰ قَدْر غِنَاه ، ومَن كَانَ فَقِيراً فعلىٰ قَدْر فَقْره ، فمَن أرادَ أن يَقْضِي الله لَه أهمَّ الحوَائج إليه فليَصِلْ «آل محمَّد» وشيعَتهم بأحْوَج مَا يَكُون إليه من مَاله.(١)

وعنه ﷺ: مَن لم يَقْدِر علىٰ صِلَتنا فليَصِل صَالحي مَوَالينا يُكْتَب لَه ثَوَاب صِلَتِنا، ومَن لم يَقْدِر علىٰ زيارتنا فَلْيَزُر صَالحِي مَوَالينا يُكْتَب لَه ثَوَاب زِيَارتنا.(٢)

تَأمَّل بُنيَّ وتَدبَّر... إنَّ الكَرِيم أو الشَّريف النَّجِيب والعَزِيز الأبِيَّ ذَا الأنفَة من سَائِر النَّاس، إذا أكرَمَه كَرِيمٌ أو أحسَنَ إليه مُحسِنٌ أو وَصَلَه بهِبَة وعَطِيَّة أو هَدِيَّة أو اصطَنَع لَه مَعْرُوفاً، تَراهُ لَا يكَادُ يُطِيق إلَّا أن يَرُدَّ المعرُوف إلىٰ مَن أسدَاه إليه، ويُجازِي الإحْسَانَ بمِثْله أو أحْسَنَ منه، فإن عَجَزَ أحَدُهُم ولم يَسَعْه الردُّ والمقابلَة، مَلَكَه المُحْسِن وأسَرَه، كمَا في بيتِ «أبي الطيِّب المتنبي» الشهير:

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ
وإن أنتَ أكْرَمتَ اللَّئيمَ تَمَرَّدا

فمَا بالُكَ بمَعْدِن الجُود والكَرَم، ومَنْبت الشَّرفِ وأصْلِ النَّجَابَة؟ كيفَ عَسَاهُم أن يُقَابِلُوكَ ويَردُّوا "صِلَتك"؟ ولكَ أن تَسْمُو مَا شِئْت وتَرقىٰ أنىٰ قدَرْتَ وتتكَامَل مَا اسْتَطَعْتَ، فَلَا تَرْجُو ولَا تَطْلُب لِصِلَتك أجْراً ومُقَابلاً، اللهُمَّ إلَّا رِضَاهُم عَنكَ وإدْخَالك في جُملَة العَارِفين بهم وبحَقِّهم. ولسَان حَالك:

تَبكِيكَ عَيْنِي لَا لأجْلِ مَثُوبَة
لكنمَا عَيْني لأجْلِكَ بَاكِيَة
تَبْتَلُّ مِنْكُم كَربَلَا بِدَم
ولَا تَبتَلُّ منِّي بالدُّمُوع الجَارِية؟

(١) (بشَارة المصطَفى) لـ «الطَبري الإمامي» ص٢٤.

(٢) انظر (كَامِل الزيَارَات) ص٣١٦.

إنَّ هذا العُنوَان المقَدَّس (صِلَة الإمَام) هُو الوَسِيلَة والقَنْطَرة التي تَرْبطُ بين أعْظَم قَضِيَّتَيْن يجبُ أن تَعيشَهُما، وتَحيَا لهما، فهُوَ يجمَعُ به بينَ عَزَاءِ «سيِّدِ الشُّهَدَاء» عليه السلام وبين الوَلَاءِ والارتباطِ بإمَام الزَّمَان «الحجَّة بن الحسَن» عليه السلام، فيكُون المؤمنُ العَامِلُ بهذا العُنوَان الجامع: "حُسَيْنِيّاً - مَهْدَوِيّاً" ... فأنتَ حينَ تَبذل لإقامَة المأتم على «الحسَين» عليه السلام بنِيَّةِ صِلَة إمَام زَمَانِك، تَكُون قَد حقَّقتَ غايَة خَلْقِك ومَا ادَّخرَكَ اللهُ له، وهو إقَامَة العَزاءِ على «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وعَمِلْتَ - في الوقْتِ نَفْسِه - بتكْليفِكَ تِجَاهِ إمَامِ زَمانِك «المهديِّ المنتظَر» عليه السلام، لا تَنقَطع عنه وتَعِيش وَلاءَه أوْقَاتَك وحَرَكَاتِك كُلَّها.

ومما أُوصِيكَ به بُنيَّ...

أن تُحرز الحِليَّة والإباحَة في كَسْبِكَ ومَعَاشِك، فتقُوم بتَطْهِير أموَالِكَ عبْر إخْراج الخُمْس والزكَاة وسَائر الحقُوق الشرعيَّة، وأخطَرَهَا حَقُّ الناس ومَا لهم في ذِمَّتك، وعَلَيكَ أن تَتَذَكَّر دَائماً قَضِيَّة "دِرْهَم شُطَيْطَة" واجْعَلْها نَصْبَ عَينَيْك، نِبْراساً هَادِياً وقُدْوة صَالِحَة، تَتَدَبَّر فيها وتَتَفَكَّر لتَفْهَم حَقِيقَة مَا يُريدُه مِنكَ «إمامُك»...[1]

(١) روى «عثمان بن سعيد»، عن «أبي علي بن راشد»، قال: اجتمَعَت العِصَابة (أي الشيعة) بـ «نيسابور» في أيام «أبي عبدالله» عليه السلام فتذاكَروا ما هُم فيه من الانتظار للفرَج، وقالوا: نحنُ نحمِل في كلِّ سَنَة إلى مَوْلانا ما يجبُ عَلَينَا، وقد كثرت الكذَّابة ومَن يدَّعي هذا الأمر، فينبغي لَنا أن نَختَارَ رجُلاً ثِقَة نبعثه إلى «الإمام»، ليتعرَّف لَنَا الأمر. فاختارُوا رجُلاً يُعرَف بـ «أبي جعفر محمد بن إبراهيم النيسابوري» ودفَعُوا إليه ما وَجَبَ عَلَيهم في السنَةِ من مَال وثياب، وكَانت الدنانير (ذهب) ثَلاثين ألفَ دينار، والدَّرَاهم (فضَّة) خمسين ألف دِرْهَم، والثياب ألفي شُقَّة، وأثوابٌ مُقَارِبَات ومُرتَفِعَات (متَفَاوِتَة القِيمَة).

وجَاءَت عجُوزٌ من عجَائز الشيعَة الفاضِلَات اسمُهَا «شُطَيْطَة» ومعهَا دِرْهَم ودانِقان، وشُقَّة من غَزْلها، خَامٌ تُساوي أربعَة دَراهم، وقَالَت: ما يَستَحِقُّ عليَّ في مَالي غير هذا، فادفعه إلى مَوْلاي. فقَال: يَا امرأة استَحي من «أبي عبدالله» عليه السلام أن أحمِلَ إليه دِرهماً وشُقَّة بطَانة. فقَالَت: ألَا تفعَل؟! إنَّ الله لا يَستَحي من الحقِّ، هذا الذي يُستَحَقُّ (أي في ذمَّتها)، فاحمِل يا فُلَان فلئن ألقى الله عَزَّ وجَلَّ ومَا لَهُ قِبَلي حَقٌّ قَلَّ أم كَثُر، أحبُّ إليَّ من أن ألقَاهُ وفي رقبتي لـ «جعفَر بن محمَّد» عليه السلام حَقٌّ.

قَال: فعوَّجتُ الدرهَم، وطرَحْتُه في كِيس فيه أربعَمِئة دِرهَم لرَجُل يُعرفُ بخَلَفِ «ابن موسى اللؤلؤي»، وطَرَحْتُ الشُقَّة في رزمَة فيها ثَلَاثُون ثَوباً لأخَوَيْن بلْخِيين يُعرَفان بـ «ابني نُوح بن إسماعيل»، وجَاءَت الشيعَةُ بالجزْء الذي فيه المسائل، وكَانَ سَبعين وَرَقة، وكُل مَسألة تحتها بيَاضٌ، وقد أخَذُوا كُلَّ وَرَقتَيْن فحَزمُوها بحَزَائم ثَلَاثة، وخَتَمُوا على كلِّ حِزَام بخَاتم، وقَالُوا: تحمِل هذا الجزْء مَعَك وتمضي إلى «الإمام»، فتدفَع ◄

الجزءَ إليه، وتُبيِّته عِندَه لَيْلَة، وعُدْ عَليه وخُذْه منه، فإن وَجَدْتَ الخاتم بحَالِه لم يُكْسَر ولم يتَشَعَّب، فأكْسِر منهَا خَتْمه وأنظُر الجوَاب، فإن أجَابَ ولم يَكْسِر الخوَاتيم فهُو «الإمَام»، فأدفعهُ إليه، وإلّا فردَّ أموَالَنا عَلَينا.

قَال «أبوجَعفَر»: فَسِرْتُ حتىٰ وَصَلتُ إلىٰ «الكُوفَة»، وبَدأتُ بزيَارة «أميرالمؤمنين» صَلَوات الله عَلَيه، ووَجَدْتُ علىٰ باب المسجد شَيْخاً مُسِنّاً قد سَقَط حَاجِبَاهُ علىٰ عَينَيْه من الكِبَر، وقد تَشَنَّج وَجْهُه، مؤتَزراً بِبُرْد، مُتَّشِحاً بآخَر، وحَوْلَه جماعَة يَسْألونه عن الحَلَال والحَرَام، وهو يُفتيهم علىٰ مذهَب «أميرالمؤمنين» ﷺ، فسَألتُ مَن حَضَرَ عنه، فَقَالُوا: «أبوحَمزة الثُمالي». فسَلَّمْتُ عليه، وجَلَسْتُ إليه، فَسَألَني عن أمرِي، فعرَّفته الحَال، فَفَرِحَ بي وجَذَبَني إليْه، وقبَّل بين عَيْنيَّ وقال: لَوْ تجدُب الدنيا مَا وَصَلَ إلىٰ هـٰؤلاء حُقُوقهم، وإنك سَتَصِلُ بحُرْمتهِم إلىٰ جِوَارِهم. فسُرِرْتُ بكَلَامه، وكَانَ ذلك أوّل فَائدَة لَقيتهَا بـ «العِرَاق». وجَلَسْتُ معهُم أتحدَّث إذ فتَحَ عَيْنَيْه، ونظَر إلىٰ البرية، وقَال: هَل تَرَوْنَ مَا أرىٰ؟ فقُلْنا: وأيُّ شيءٍ رَأيت؟ قَال: أرىٰ شَخْصاً علىٰ ناقَة. فنظَرنا إلىٰ المَوْضِع فرأينَا رَجُلاً علىٰ جمل، فأقبَل، فأناخَ البعير وسَلَّمَ علينا وجَلَس، فَسَأله الشيخ: من أينَ أقبلْتَ؟ قَال: من «يثرب». قَال: ما وَرَاءَك؟ قَال: مَاتَ «جَعفر بن محمَّد» ﷺ. فأنقطَعَ ظَهري نِصْفَين، وقُلتُ لنَفْسي: إلىٰ أينَ أمضِي؟! فقَال لَه «أبوحمزة»: إلىٰ مَن أوْصىٰ؟ قَال: إلىٰ ثَلَاثة، أوّلهم «المنصُور»، وإلىٰ أبنِه «عَبدالله»، وإلىٰ أبنِه «موسىٰ». فضَحِكَ «أبوحمزة»، والتفتَ إليَّ وقَال: لَا تَغتَمَّ فقَد عَرفتُ «الإمام». فقلتُ: وكَيف أيُّها الشيْخ؟! فقَال: أمَّا وَصيَّته إلىٰ «أبي جَعفَر المنصور» فسَتْرٌ علىٰ «الإمام»، وأما وَصيَّته إلىٰ أبنَيْه الأكْبر والأصْغر فقد بَيَّنَ عن عَوَارِ الأكبر، ونَصَّ علىٰ الأصغَر. فقُلْتُ: ومَا فِقهُ ذلك؟ فقَالَ: قَوْل «النبي» ﷺ: "الإمَامَـة في أكْبر وُلدِكَ يا «عَلي»، مَا لم يَكُن ذَا عَاهَة "، فَلَما رَأيناه قَد أوْصىٰ إلىٰ الأكبر والأصغَر، عَلِمْنا أنه قَد بيَّن عن عَوار كَبيره، ونصَّ علىٰ صَغيره، فَسِرْ إلىٰ «موسىٰ»، فإنَّه صَاحِب الأمر.

قَالَ «أبوجَعفَر»: فَودَّعتُ «أميرالمؤمنين»، ووَدَّعتُ «أبا حمزة»، وسَرتُ إلىٰ «المدينَة»، وجَعَلْتُ رَحْلي في بعضِ الخانات، وقَصَدْتُ مَسْجدَ «رسُول الله» ﷺ وزُرته، وصَلَّيْت، ثم خَرَجْتُ وسَألتُ أهلَ «المدينة»: إلىٰ مَن أوْصىٰ «جَعفَر بن محمَّد»؟ فقَالُوا: إلىٰ أبنِه «الأفطَح عَبدالله» فقُلتُ: هل يُفتي؟ قالُوا: نَعم. فقَصَدْتُه وجئتُ إلىٰ بَاب داره، فوَجَدْتُ علَيهَا من الغُلمان مَا لم يُوجَد علىٰ بَاب دَار أمير البلَد، فَأنكَرْت! ثُم قلتُ: «الإمام» لَا يُقَال لَه لِمَ وكَيف. فأستَأذنتُ، فدَخَلَ الغُلَام، وخرَجَ وقال: من أين أنت؟ فأنكرتُ وقُلتُ: والله ما هـٰذا بصَاحِبي (إذ المرتَكَز في الذهن الشيعي أنَّ «الإمام» يَعلَم الغيْب). ثم قُلت: لَعلَّه من التَّقِيَّة، فَقُلتُ: قُل: فُلَان الخرَاسَاني، فدَخَلَ وأذِنَ لي، فدَخَلْتُ، فإذا به جالِسٌ في الدَّسْتِ علىٰ مِنَصَّة عَظِيمة، وبين يدَيْه غِلْمان قِيام، فقُلتُ في نفسي: ذا أعظَم، «الإمام» يقعُد في الدَّسْت؟ ثم قُلتُ: هـٰذا أيضاً من الفضُول الذي لا يُحتَاجُ إليه، يَفعَلُ «الإمام» مايَشَاء. فسَلَّمتُ عَلَيه، فأدنَاني وصَافَحَني، وأجْلَسَني بالقُربِ منه، وسَألني فأحفىٰ، ثم قَال: في أيِّ شيءٍ جئت؟ قُلتُ: في مَسَائل أسأل عنهَا، وأُريدُ الحجَّ. فقَالَ لي: إسأل عَما تريد. فقُلتُ: كَم في المئتين من الزكَاة؟ قال: خَمسَةُ دَراهِم. قُلت: كَم في المئة؟ قَال: دِرهمان ونصْف. فقُلت: حَسَنٌ يا مَولَاي، أُعيذُكَ بالله، مَا تَقُولُ في رَجُل قَالَ لامرأته: أنتِ طَالِق عَدَد نُجُوم السماء؟ قَال: يَكْفيه من رأس الجوزاء، ثَلَاثة! فقُلتُ: الرجُلُ لا يحسِن شيئاً. فقُمتُ وقُلتُ: أنا أعُود إلىٰ سيِّدنا غداً. فقَالَ: إن كَانَ لكَ حَاجَة فإنَّا لَا نقصِّر. فأنصرَفْتُ من عَندِه، وجئتُ إلىٰ ضَريح «النبيِّ» ﷺ فأنكَبَبْتُ علىٰ قَبره، وشَكَوْتُ خَيْبَة سَفَري، وقُلتُ: يا «رسُول الله»، بأبي أنتَ وأُمي، إلىٰ مَن أمضي في هـٰذه المسَائل التي مَعي؟ إلىٰ اليهُود، أم إلىٰ النصَارىٰ، أم إلىٰ المجُوس، أم إلىٰ فقَهَاءِ النوَاصِب؟ إلىٰ أين يا «رسُولَ الله»؟

فـ «المؤلىٰ» لَا يَقْبَلُ إلَّا الطَّاهِر من المال، الخالِص في القَصْد والنيَّة، فاحْرِصْ علىٰ ذلك أشَدَّ الحِرْص، ولَا سِيَّما في الأدوَات التي تَبْتَاعُهَا لبَعْضِ الشَّعَائِر التي تَنْطَوِي علىٰ خَطَر، كَالسُّيُوف والقَامَات التي تُستَعْمَل في التطْبِير، والزنَاجِير المدبَّبَة الصَّقِيلَة بالمَوَاسِي، وعُمُوم وَسَائل وأدَوات الإدْمَاء، أو الحَطَب والجزْل الذي تُوقَد منه النيران التي تُقحَم والجَمْر الذي يُدَاسُ بالأقدَام أوّل صَفَر، ذِكرىٰ دُخُولِ السبَايا «الشَّام»، المعرُوف بـ "عَاشُوراء الثانيَة"، فَلَا بُدَّ أن يَكُون ذلك كُلُّه من حِلٍّ، فَلَا يُؤذي أحَداً ولَا يَضرُّ ناهِضاً بشَعِيرة.

فما زلْتُ أبكِي وأستَغيثُ به، فإذا أنا بإنسَان يحركني، فَرَفَعْتُ رَأسي من فَوْق القَبْر، فَرَأيتُ عَبْداً أسوَدَ عَليه قَـمِيصٌ خَلِق، وعلىٰ رأسِه عِمامَة خَلِق فقَال لي: يَا «أبا جَعفَر النيسَابوري»، يَقُول لكَ مَولَاك «موسىٰ بن جعفر» عليه السلام: لَا إلىٰ اليهُود، ولَا إلىٰ النصَارىٰ، ولَا إلىٰ المجُوس، ولَا إلىٰ أعدَائنا من النوَاصب، إليَّ، فأنا حُجَّة الله، قد أجَبْتُك عما في الجزو، وبجَميع مَا تحتَاجُ إليه منذ أمس، فجِئني به، وبدِرْهَم «شُطَيْطَة» الذي فيه دِرْهَمٌ ودَانِقان، الذي في كيس أربعمئة دِرْهَم «اللؤلؤي»، وشُقَّتها التي في رزمة الأخوَيْن «البلخِيَّين»!!

قَال: فَطَارَ عَقْلِي، وجئتُ إلىٰ رَحْلِي، ففتَحْتُ وأخَذْتُ الجزوَ والكِيس والرزْمَة، فجئتُ إليه فوَجَدْته في دَار خَراب، وبَابه مَهْجُور مَا عَلَيه أحَد، وإذا بذلك الغُلَام قَائمٌ علىٰ الباب، فَلما رآني دَخَلَ بين يَدَي، ودخَلْتُ معَه، فإذا بسَيِّدنا عليه السلام جَالسٌ علىٰ الحصِير، وتحته شَاذكونه (ضربٌ من الفرش) يمانيَّة، فلَما رآني ضَحِك وقَال: لَا تقْنَط، ولَمَ تَفْزَع؟ لَا إلىٰ اليهُود، ولَا إلىٰ النصَارىٰ، ولَا إلىٰ المجُوس، أنا حُجَّة الله ووَليه، ألم يُعرِّفك «أبوحمزة» علىٰ بابِ مَسْجِدِ الكُوفَة جَزْيَ أمري؟! قال: فأزادَ ذلك في بَصِيرتي، وتحقَّقْتُ أمره.

ثم قال لي: هَاتِ الكِيس. فدَفعتُه إليه، فحلَّه وأدخَل يَدَه فيه، وأخْرَج منه درْهَمَ «شُطَيْطَة»، وقال لي: هـٰذا دِرْهَمها؟ فقلْتُ: نعم. فأخَذَ الرزْمَة وحلَّها وأخرَجَ منها شُقَّة قُطْن مَقْصورَة، طُولها خمسَة وعشرون ذِراعاً وقال لي: إقرأ عليها السلَام كثيراً، وقُلْ لها: قد جَعَلتُ شُقَّتك في أكفَاني، وبعثتُ إليك بهـٰذه من أكْفَاننا، من قُطْن قريَتِنا «صريا»، قَريَة «فَاطِمَة» عليها السلام (إما ابنة «الكَاظِم» عليه السلام أو أُخته، وقد وَهَبهَا «الإمام» قَرْيَة هي «صَيْدَا» كما في بعض النصُوص)، وبَذْر قُطْن كَانت تَزْرَعه بيَدِها الشَّرِيفَة لأكفَان وَلَدِها، وغَزْل أُختي «حَكِيمَة» عليها السلام وقُصَارة يَدِه لكَفَنه، فاْجعَليهَا في كَفَنك. ثُم قَال: يَا «معتب» جئني بكِيس نَفقَة مؤناتنا، فجَاءَ به، فَطرَح دِرْهماً فيه، وأخرَجَ منه أربعين درهماً، وقال: أقْرِئها منِّي السَّلَام، وقُلْ لها: ستَعِيشينَ تِسْعَ عَشرة لَيلَة من دُخُول «أبي جَعفر»، ووُصُول هـٰذا الكَفَن وهـٰذه الدرَاهِم، فأنفِقي منها سِتَّة عَشَر دِرهماً، واْجعَلي أربَعَة وعشرين صَدَقة عنْكِ، وما يَلْزَم عَلَيْكِ، وأنا أتولىٰ الصَّلَاة عليكِ. فإذا رأيتَني (يخاطِبُ عليه السلام الرَّاوي) فاْكتُم، فإنَّ ذلك أبقىٰ لنفْسك. وفكّك هـٰذه الخواتيم وانْظُر هل أجَبناكَ أم لَا؟ قبلَ أن تجيء بدَراهمهم كَما أوْصُوك، فإنَّكَ رَسُول!

لَقَد تَعمَّدتُ بُنيَّ أن أسردَ القِصَّة كَاملَة لتَقِفَ وتَعيش ثَقَافة الشِّيعَة في مَعْرفَة «الإمَام»، وتَقِيس وتُقَارِنَ بين ذلك ومَا يجري في عَصْرنا من أدْعِيَاء الفَقَاهَة ومُنْتَحِلي المرجعيَّة والنِّيابة، وتعرِفَ كَيف حَلَّت المصيبةُ في دِيننا!

وقد نَقَلْتُ القِصَّة عن «الثاقِب في المناقِب» لـ «ابن حمزة الطوسي» ص٤٣٩، وتجدهَا في مَصَادِر أُخرىٰ. ■

وفي أُفقٍ أعلىٰ ومن فَضَاءٍ أكثر رَحَابة، وعَالَم أكثر قُرباً ومُلَامَسَةً للحَقِيقَة... إعْلَم بُنيَّ أنَّ تأسِيسَ المجْلِس وقيَام الشَّعِيرة، وإنْ شِئْت، بمَعنىً أدقّ، نَجَاحهَا وألَقهَا، غير مَنُوط (في العُمُق والجوْهَر) بما تَبْذُل من مَالٍ وتُهيِّئ من إمكَانيَّاتٍ وتَنهَضُ بمَسَاعٍ وجُهُود، بل الأمر، كُلُّ الأمر، في النيَّة والخلُوص فيهَا، وإنَّما البَذلُ والإنفَاق، والجهْد والسَّعْي، عَمَلٌ بالأسبَاب الظَّاهِريَّة، ثم سَبيلٌ لِبركَة أموَالك وتَزكية نَفْسك... فإذا رَأىٰ «المولىٰ» عليه السلام الخيْر وقَدَّر الصَّلَاح في إظْهَار المجْلِس عَامِراً ناجِحاً متَألِّقاً، كَان، وإلَّا أخْفَاهُ وأبقَاهُ عندَه، محْفلاً للمَلَائكَة ومَأتماً للعَرشيِّين، فيَستَخِفُّ به أهلُ الأرضِ لِصِغَره وتَوَاضُعه، ولَا يَلتَفِتُون لِمَا خَفِيَ عنهُم من شَأنه ومَقَامه وعَظَمَته! (وهذا مما سأُفصِّلُ فيه في وَصِيَّة أُخرىٰ).

عَلَيكَ أنتَ أن تَقُومَ بوَاجِبك علىٰ أكْمَل وَجْه، من تَهيئَة المتَاع وتَوْفير الوَسَائل والأسبَاب، لِتُقَام الشَّعِيرة ويَنجَحَ المجْلِس ويُقْبَل، ومن أهمِّ الأُمور وأخْطَرِهَا، كمَا عَرفت، أن تَلتَمِسَ لمصاريف المأتم من حُرِّ مالِك وأطهَره.

أُوصِيكَ بُنيَّ أن تَفرزَ وتخصِّص مِقدَاراً مُعيَّناً وثَابتاً من دَخْلِك الشَّهْري، أو مَردُود نَشَاطِكَ التِّجَارِيِّ من كُلِّ صَفْقَة، كَحِصَّة مَنذُورَة مَوْقُوفة للصَّرف والبَذْل علىٰ إقَامة المآتم وإحيَاء الشعَائر الحسَينيَّة... فتُعيِّن نِسْبَة تَعْزلها جَانِباً، في صُنْدُوق أو حِسَاب مَصْرفي تخصِّصه للبَذْل والإنفَاق علىٰ الحسَينيَّة وشُؤونها، فَيَكُون ارتبَاطُكَ بالحسَينيَّة واتصَالك بالشَّعَائر علىٰ مَدَار العَام، وتَنتَقِل - بهذا - في إحْيَائكَ لهَا من نِطَاق العَوَام الذين لَا يَعرِفُون الأمر إلَّا في مَوْسِمِه المحْدُود وأيامه المعدُودَة، إلىٰ الخواصِّ الذينَ جَعَلُوه قَضِيَّتهم الثابتة التي يَعيشُونها حَياتهم وأيامهم كُلَّها.

وحبَّذا أن تُعَمَّمَ الحالَة والعَادة المباركَة التي تُعرَف في «البحرين» وبَعضِ البلَاد الأُخرىٰ بـ "الشيل"، إذ يخصِّصُون في كُلِّ بَيت، صُندُوقاً يُودِعُونَ (يشِيلون) فيه مَا تَيَسَّر لهم من مَال، يَقتَطِعُونه من مَدَاخيلهم، يَوفِّرونه لِيُبـذَل أيام الموْسم وفي عَشْرة «عَاشُوراء»، تماماً كَما يَفعَل أغلَبُ النَّاس مع الصَّدَقَات فيُخَصِّصُون صَنَادِيق أو حَصَّالَاتٍ لها، عَلَينا أن نَجْعَل إلىٰ جِوَارِها صُندُوقاً أكبر حَجْماً، ثَابتاً، لَا من تِلْك التي تُستَعْمَل لمرَّة ثم تُكْسَر لإخْرَاج محُتَوَاهَا، بل صُندُوق ثَابت يُفْتَح بَابه، يَكُون بَركَة وحِرْزاً للبيت وأمَاناً لأهْلِه.

وإن اَستَطَعْتَ أن تجْعَلَ للحُسَينيَّة وَقْفاً خاصّاً، بل أوْقَافاً يُصرَف رَيْعُها (من إيجَار عَقَارٍ أو مَردُود تِجَـارَة) على إحْيَاءِ الشَّعَائر وإقَامَة المأتم، فَبِهَا ونعْمَ، وهُو خَيرُ مَا تَفْعَل... يُطْلِق يدَكَ في الصَّرف ويُعينك على البذْل، مَا يُوسِّع في النشَاط، ويُشَجِّع العَامِلين عَلَيه والنَّاهِضِين به، ويُذْكِي إحْيَاء الشَّعِيرة. ولكَوْن المالِ المبذُول في الحسَينيَّة يَرْجعُ في مُلكِيَّتِه الشَّرْعية إلى «الإمَام» مبَاشَرة، سَوَاء بِنَذْرٍ أو من وَقْف، فَائدَة عَظِيمَة وسرٌّ آخَر سَأتعرَّضُ لَه في مَبْحَث "شَعِيرة الإطعَام".

وهنَاكَ مَن يُشْرِك «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام أو أخَاهُ «أبي الفَضْل العَبَّاسِ» عليه السلام أو بعض شُهَدَاء «كَربلَاء» عليهم السلام من «الأصْحَاب» في تجارته! فيفْرِض (خَارِج الأوراق الرَّسْمِيَّة) أنَّ لَه شَرِيكاً يُقَاسِمه الخسَائر والأربَاح، أو يُفْرِد لَهُ نِسْبَة محدَّدة منهَا، تماماً كَشَريكٍ شَرعيٍّ قَانوني، ويُلزِم نَفْسَه بذلك ويتقَيَّد به وكأنه مُثَبتٌ قانونياً... ثم يَصْرف مَردُود التِّجَارة ومَدخُول الكَسْب على مَراسم العَزَاء وطُقُوس الشَّعَائر باَسْم مَن نوَاهُ شَرِيكاً. وأنا أعرِف أحَد المؤمنين عَدَّ «أبا الفَضْل العبَّاس» عليه السلام شَريكاً له في تجَارته وسَجَّل ذلك في دَفَاتِره الخاصَّة، وقد صَارَ ببركة هذه الشراكَة من أكْبر تجَّار السجَّاد في «طهران»، وكَان يَصْرِف بأسْم «العبَّاس» عليه السلام ويُقِيم أكثر من ثَلَاثين مأتماً رئيساً عَامِراً في مختَلِف بلَاد الشِّيعَة، حتى تُوُفِّي، فَلَم يُدْخِل أبنَاؤه "حِصَّة «أبي الفَضْل العبَّاس» عليه السلام" في ميراثهم من تَرِكَته، ومَا زَالُوا على طَريقته، يَبذُلُون ويَصْرِفُون على المآتم من ذلك المال.

وآخِر مَا أقولُه لَك وأُوصِيكَ به في هذا البَاب، من وَحْي تجربَتي الخاصَّة وخِبرَتي المتوَاضعَة، ومَا سَمِعْتُ وبلَغَني من غَيْري من أصْحَاب المآتم وخُدَّام الحسينيَّات، أنَّ الصَّرْفَ والبَذل في هذا الطريق سُرعَان مَا يَعُود مُضَاعَفاً، ولن يَلْبث الباذِلُ أن يُوَفَّ مَا أنفَق ولَا يُظْلَم فتيلاً، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ (البقرة) . حتى أكَادُ أقُول: من زَعَمَ وادَّعى أنه أنفَقَ على مَأتم «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام شَيئاً ولم يخلَفه فهُو كَاذِب!

بَقِي أن أُنبِّهك إلى خَطَر التَّصرُّف في الأموَال الشَّرعيَّة، من أوْقَاف حُسَينيَّة أو نُذُور أو تَبرُّعَات، ممَا يَصِلك ويَقَع في تَصرُّفك ووِلَايتك.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَلتَزِمَ الحدُودَ وتَتَقيَّد بالضَّوابِط الشَّرعيَّة، فَلَا تَتَجَاوَز الموارِد المخصَّصَة والوُجُوه المحَدَّدة لِصَرف الأموَال التي تَصِلُكَ وتُصْبح في حَوْزَتك، سَوَاء في صِيَغ الأوْقَاف والنذُور، أو في وُجُوه التبرُّعَات التي يُقَدِّمها المؤمنُون للحُسَينيَّة. فهُناك وُجُوهٌ محَدَّدَة ومَصَارِف يُعيِّنهَا الوَاقِفُ والنَاذِر أو البَاذِل، لَا يجُوز تجاوُزها بتَاتاً ولَا تَغْييرهَا إلَّا لحاكِم الشَّرع، تحتَ شَرائط خَاصَّة وظُروف مُعيَّنة. فالمال المخَصَّص للصَّرْف على أثاث الحسَينيَّة ومَتَاعهَا، لَا يجُوزُ صَرفُه على الخطِيبِ والقَارِئ والرادُود، والمال الموقُوفُ على الطعَام والشَّراب الذي يُقَدَّم لِرُوَّاد الحسَينيَّة، لَا يجُوزُ الصَّرْف منه على العِمارة والصِّيَانَة والخدْمَة، والنَّذْر الذي تحقَّقَ شَرْطُه فوَجَبَ الوَفَاء به، لَا يجُوز تخطِّي وَجْهه...

وهكذا الأمر في العَنَاوِين والموَارِد الأُخْرى كَالهبَاتِ النقْدِيَّة أو الهدَايا العَيْنِيَّة المخَصَّصَة لخُرُوج مَوكب على سَبِيل المثال، أو لإخْرَاج شَبِيه الطِّفل الرَّضيع، أو لهيئَة اللَّطْم، أو للتطْبير، لَا يجُوز الخلْطُ فيها والتدَاخُل في مَصَارِفها... فالشُّمُوع المقدَّمة لتُجْعَل وتُشْعَل في الأواني (الصواني) التي تحمَل في مَوكب زِفَافِ «القاسِم» عليه السلام، لَا يجُوز أن تُدَّخَر وتُوَفَّر لتُشْعَل لَيلَة الحادِي عَشَر من المحرَّم في مَراسِم لَيْلَة الغُربَة والوَحْشَة التي تُطْفَأ فيهَا الأضْوَاء حُزْناً ومُوَاسَاة، وهكذا الذبيحَة المنذُورة لِلَيلَة «العبَّاسِ» أو «عَليِّ الأكْبَر» أو «الأصْحَاب» عليهم السلام يجبُ أن تَقَدَّم في وَقْتِهَا ومَوْرِدهَا، فما تَبرَّع به صَاحِبه أو نَذَره أو أوْقَفه ليُصرَف في يَوْم أو لَيلَة مُعيَّنة دُونَ غَيرها، لَا يجُوز نقْلُه إلى لَيلَةٍ أُخْرى.

من هُنا فأنا أنصَحُكَ وأُشير عَلَيكَ بخُطْوَة شَرعيَّة تُؤمِّن لكَ المرُونة وتُطْلِق يَدَكَ في الحركَة، هي الاشتراطُ على البَاذِل والمصَالحَة معَه ليُخوِّلك ويجيزك التصرُّف في المالِ الذي يُقدِّمه بما تَراه وتُقدِّره مَصْلَحَة للمَأتم، مُقَابِل أن تَتَعهَّد له ببَذل الجهْد لِتَحقِيق رَغبته في وَجْه الصَّرْف الذي يحبِّذُه ويُرجِّحُه، فعندَمَا يُقَدِّم أحدُهُم للحُسَينيَّة مَالاً ليُصرَف في الطَّعَام، أو وَجْهٍ محُدَّد من الطَّعَام، كَشِراء الأرز أو الذبَائح أو بَعضِ لَوَازِم الطَّبخ، يُمكنُكَ أخْذ الرُّخْصَة والإجَازة من البَاذِل، ليُطْلِق يَدَكَ في التَّصَرُّف، كأن تَوَجَّه تبرُّعَه لمصْرَف آخَر إذا كَانت الحسَينيَّة مُكْتَفِيَة مما يُريدُ هو، فإن سَمَحَ لكَ وأجَازكَ، فبهَا، وإلَّا فأنتَ بين أن تَرفُض تَسَلُّم المال وتُوجِّهه إلى حُسَينيَّة أُخرى، أو أن تَتَقيَّد بالوَجْه الذي حَدَّده الباذِل.

هـٰذا في غَيْر الأوقَافِ التي لَا سَبيلَ إلىٰ مُعَالجة حَالها، وهـٰكذا النذُور (الوَاجِبَة شَرعاً، إذ أغلَبُ الناسِ لَا يُجرُون صِيغَة النذْر!).

عمُوماً اَسْعَ بُنيَّ لِـتَجَنُّب أموَال النَّـاس، والعَمَل علىٰ تَـأمين حَاجَاتِ الحسَينيَّة وتَوفير لَوَازِم المجْلِس من حُـرِّ مَالِك، أو أموَال الأهْل والأصْحَاب الذين تُحرز رِضَاهُم وتَضْمَن منهُم العَفْوَ والسَّماح في مَـا قَد يَقَع من أخْطَاء... ولـٰكن دُونَ تَـعَسُّف في هـٰذا وتَشَـدُّد، يَحْرِم الآخَـرِينَ ويَقْطَع عَلَيهم طَرِيقَ المساهَمة، فَالفَوْز والـشَّرَف والرَّحْـمَة. ووَجْه الجمْع وطَرِيق الخلَاصِ هو قَبضُ المال مع وكَالَة وإجَازَة مُبيحَة وصَرِيحة للتصَرُّف فيه بمُطْلَق مَا فيه الخير للمَـأتم والصَّلَاح للحُسينيَّة، دُونَ تَحدِيدٍ مُلْزِم يُوقعكَ في العُسْرِ والحرَج، ويُربك تَنظِيمك وإدَارتك، فتكُون في حِلٍّ، وسَلَامة من دينك، وبَراءَة في ذِمَّتك.

❁ ❁ ❁

الوصية الرابعة:

آداب المجلس الحسيني

هُناكَ آدَابٌ كَثيرةٌ عَلَيكَ - بُنيَّ - مُراعَاتها والتِزامها عند حُضُورك مجالِس العَزَاء.

والآدابُ شَأنها شَأنُ الزيَارة والنيَّة وغير ذلك ممَا يتَعَلّق بالشَّعَائر الحسَينيَّة، جملَةٌ منها عَامَّة تُلزِم كُلَّ حَاضِر، وأُخرىٰ للخوَاص النَّاظِرين إلىٰ المرتَبة التي أشَرْتُ إليهَا آنِفاً، السَّاعِين إلىٰ دَرَجَة الكَمال في مَعْرِفَة «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام والارتباطِ به... وقد جمعتُها هُنا تحتَ عُنوَان وَاحدٍ في هـٰذا الفَصْل، ولكَ - علىٰ قَدْر همَّتِك - أن تميِّز بين النِّطَاقَيْن أو لَا تَفْعَل، فتُنزلها كُلَّها مَنزِلَة الوَاجِبَاتِ والآداب الملزِمَة.

الطَّهَارة

عندَمَا تَقْصِدُ مجلِس العَزَاء، عَلَيكَ أن تخرُج من بَيتكَ وأنتَ علىٰ طَهَارة، قَد أسبَغْتَ الوُضُوء وجَدَّدته... وأنتَ في سِعَة ومَندُوحَة للنيَّة التي تَأتي بها وُضُوءك، تجعَله للكَوْن علىٰ الطَّهَارة، أو خُصُوص زيَارة «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، فتَتَوَجَّه وأنتَ علىٰ بَابِ دَارِك أو حِين تَصِل الحسَينيَّة وتُسلِّم علىٰ «المولىٰ»، أو بنيَّة الدُّعَاء والذِّكْر، وتجعَل وِرْدك إذا مَشيتَ أو ركبتَ سَيَّارتك: " صلىٰ الله عليك يا أبا عبدالله "، أو " لَعَنَ الله قَاتِليك ".

وإنما تعرَّضْتُ لهذا التفصِيل في نيَّة الوُضُوء لأُشير إليك بُنيَّ وأُنبِّهك لأمْرٍ خَطِير، هو التقيُّد بالأحكَام الشرعيَّة والتزام الحدُود الفِقْهيَّة التي تُصَنِّف أيَّ عمَل تَقُوم به، فتُدْرِجه في الوَاجِب أو المحرَّم أو المكْرُوه أو المستَحَبِّ، أو في المبَاح. فالفُقَهاءُ حدَّدُوا للوُضُوء، كَوْنه عِبَادَة مقرِّبة، تَوَقَّفوا في اَستِحْبَابها لِنَفْسِها، حَدَّدُوا غاياتٍ، لَا يَصِحُّ الاَبتِدَاع فيها والجعْل والوَضْع، والقَوْل بلَا دَليل. فقَالُوا:

الوُضُوءُ إمَا شَرْطٌ في صِحَّة فِعْل كالصَّلَاة أو الطَّواف، أو شَرطٌ في كَماله كَقِراءة القُرآن، أو شَرطٌ في جَوَازه كَمَسِّ كِتابة القُرآن، أو رَافعٌ لِكَراهَته كالأكْل في حَالِ الجنَابة، أو شَرْطٌ في تحقُّق أمْر كالوُضُوء للكَوْن على الطَّهَارة. وذكَروا عنَاوين (مُستَقَاة من الأحَادِيث الشريفَة ومُنتَزَعة من الأدلَّة الشرعيَّة الأُخرىٰ) لاَستِحْبَاب الوُضُوء، هي:

الأوَّل: الصَّلَوات المندُوبَة، وهو شَرطٌ في صِحَّتها أيضاً.

الثاني: الطَّوَافُ المندُوب، وهو مَا لَا يكُون جُزءاً من حَجٍّ أو عُمْرة ولو مَندُوبَيْن، وليسَ شَرطاً في صِحَّته، نعَم هو شَرطٌ في صِحَّة صَلَاته.

الثالث: التهيُّؤ للصَّلَاة في أوَّل وَقْتِها، أو أوَّل زَمان إمكانها إذا لم يُمكِنُ إتيانها في أوَّل الوَقْت، ويُعْتَبر أن يَكُونَ قريباً من الوَقْت أو زَمان الإمكَان بحَيث يَصْدُق عليه التهيُّؤ.

الرَّابع والخامِس: دُخُولُ المسَاجِد، ودُخُول المشَاهِد المشرَّفة.

السَّادس: مَنَاسِك الحجِّ مما عَدَا الصَّلَاة والطَّواف.

السَّابع والثامن: صَلَاة الأموَات، وزيارَة أهلِ القُبور.

التاسع: قِراءَةُ القُرآن أو كَتْبه أو لَمْسُ حَوَاشِيه أو حملُه.

العاشر: الدُّعَاءُ وطَلَبُ الحاجَة من الله تعالىٰ.

الحَادِي عَشَر: زيارةُ «الأئمَّة» عليهم السلام ولَوْ من بَعِيد.

الثَّاني عَشَر: سَجْدَة الشُّكْرِ أو التِّلَاوَة.

الثَالِث عَشَر: الأذانُ والإقَامَة، والأظهَر شَرطيَّته في الإقَامة.

الرَّابع عَشَر والخامِس عَشَر: دُخُولُ الزَّوْج على الزَّوْجَة لَيلَة الزِّفَافِ بالنِّسْبَة إلىٰ كُلٍّ منهما، ووُرُود المسافِر علىٰ أهْلِه، فيُستَحَبُّ قَبْلَه.

السَّادِس عَشَر والسَّابع عَشَر: النَّوْم، ومُقارَبة الحامِل.
الثامِن عَشَر: جُلُوسُ القَاضِي في مَجلِس القَضَاء.
التاسِع عَشَر: الكَوْن علىٰ الطَّهَارة.
العِشرُون: مَسُّ كتابة القُرآن الكَرِيم في صُورَة عَدَم وُجُوبه، وهو شَرطٌ في جَوازِه.[١]

وليسَ منهَا - كَما تَرىٰ - خُصُوصُ الحضُور في مجالِس عَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام ودخُول الحسَينيَّات، أو الأنصِراف للخِدْمَة والعَمَل فيهَا، كعُنوان مُستَقِل... لِذَا عَلَيكَ أن تختَارَ مَا يُلْحِق عمَلك وقيَامك بالوُضُوء تهيؤاً لدُخُول المجْلِس بإحْدَىٰ هٰذه، وأجْلَاهَا: أستِحْبَابِ الكَوْن علىٰ الطَّهَارة، وأكثرها مُناسَبَة زِيَارة «الإمام» عليه السلام...

هٰذا، وإن حَلَّق الأمرُ في الحقيقَة - بل في أدنىٰ مَراتبها - في أُفق أرْحَب، وجَاءَ من سَماء أعلىٰ وحَضْرة أرفَع، ولٰكننا مُقيَّدُون في بُلُوغ مَا نُريدُ من قَضِيَّة «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وفي تَعَاطِينَا معَهَا عمَلاً وتَعظِيماً وإحْيَاءً، مُقَيَّدُون بالأحْكَام الفِقْهيَّة، مُلْتَزِمُون بالحدُود الشَّرعيَّة، لَا نَبتَدِعُ في ذلك كَما لَا نُسوِّف، ولَا نُغَالِي كَما لَا نُفرِّط.

وإن ذَهَبَ بَعضُ الأعَاظِم إلىٰ أنفِرَاد «المولىٰ» وتميُّز وَاقِعَته وأختِصَاص شَعَائر إحيائهَا بما يَستَثنيه ويجعَله فَوْقَ الموازِين الفِقْهيَّة المتَعَارَفَة. فلـ «الشيخ محمَّد حسَين كَاشف الغطَاء» قدس سره كَلِمةٌ جَاءَ فيهَا:

إنَّ فَاجِعَة الطَّفِّ قَضِيَّةٌ هي الوَحِيدَة من نَوْعِهَا واليتيمَة في بَابِها، خَرجَت عن جميع القَوامِيس والنَّوَامِيس، ولَا يَنْطَبق عَلَيهَا حُكْمٌ من أحْكَام الشرائع السَّماوِيَّة ولَا الأرضيَّة ولَا الدينيَّة ولَا المَدَنيَّة، ولَا يَنفُذُ في فُولَاذِهَا الحديديِّ "لماذا" و"لأن"![٢]

وهي فِكْرة خَطِيرة وكَلِمة عَظِيمَة من «سَماحَة الشيخ» رحمه الله، تجدُها في الوُجْدَان الذي لَا يحتَاج إلىٰ بُرهَان من كلِّ مَن عَرفَ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام ووَقَفَ علىٰ شَيءٍ من مَقَامِه أو جَانِبٍ من قَضِيَّتِه... لٰكنهَا تبقىٰ في نِطَاق الأدَب وإطَار الإنشَاء، لَا الإفتَاءِ وتَحمُّلِ التبِعَات! والتأسِيس لِقضِيَّة بهٰذا الحجْم يحتَاج لأكثر من ذلك.

(١) «العُروَة الوُثقىٰ» لـ «السيِّد اليزدي الطَبَاطَبائي» ج١ ص٣٦١.
(٢) «جنَّة المأوىٰ» ص٣٢٠.

لِذَا، لَا تَفْتَح هـٰذا البَاب، ولَا تُقْدِم علىٰ مَا لم تَتَثبَّت من شَرعيَّته وتَقِفَ علىٰ جَوَازِه وإباحَتِه، وإيَّاكَ أن تَكُونَ رَائداً في مُحدَثَات أنماطِ العَزَاء ومُسْتَجِدَّات طُرُق الإحْيَاء، بَل اْترُكْهَا لِغَيْرِك (دُونَ مُوَاجَهَة مِنْكَ أو مُعارَضَة)، فإذا آنستَ من الحوْزَات العِلمِيَّة قَبُولاً وإمضَاءً، فلَم تُسَجِّل علَيهَا اْعتِراضاً، تَبِعْتَ مجمُوع الطَّائِفَة والتَحَقْتَ بمَا تَنهَض به الفِرقَة الناجيَة. وكمِثَال أذكُر "التَّصفِيق" في مُناسَبَاتِ واْحتِفَالَاتِ المَوَاليد، وبَعْضِ أنماطِ وطُرُق و"أطْوَار" إنشَادِ الرثَاءِ أو المدَائح التي تَرُوجُ بين فَتْرة أو أُخرىٰ، من المحْدَثَة في كَيفيَّتها، ولَرُبَّمَا صَاحَبَ بَعضَها آلَاتٍ مُوسيقِيَّة، أو ألحاناً لأغَانٍ يتَدَاولها أهْلُها في مجالِس اللَّهْوِ والطَّرَب، فلَا تُبَادِر أنتَ للاْلتِحَاق بَرَكْبِهم، وتجنَّب العَمَل بها ومُتَابعَتِها، بَلْ تمهَّل حتىٰ تَرىٰ مَوقف الحوْزَة والمرجعِيَّة، ولَا تَتَحمَّل أنتَ إصْرَ أو عِبءَ إدرَاجِها في العُرف وإلحاقِها بمَنظُومَة الشَّعَائر، مَا يُخرجها من نَشَازها ويُزِيل عنها قُبْحَها... وهـٰذا ممَا سأُفصِّلُه لك لَاحِقاً، إنمَا جَاءَ ذِكْره هُنا بمُنَاسَبَة التقيُّد الشرعيِّ والاْلتِزَام والتفَقُّه.

وأدعُوكَ بُنيَّ أن تحرِصَ علىٰ هـٰذا وتتمسَّكَ فيه وتَتَشَدَّد، فالتَّهَاوُن أو التراخي في هـٰذه الأُمور مَزلَقٌ يَفتَحُ بَابَ الاْنحِرَاف ويَنتَهِي إلىٰ مَا لَا يُعْرَف مُنتَهَاهُ ولَا يُحمَد عُقْبَاه، والصُّوفيَّة المنْحَرِفة بِبَابِك، بَدَأ بعضُهُم بهـٰذا، سَنُّوا لأنفُسِهم وأحْدَثُوا "طَرِيقَة" تجاوَزُوا فيهَا الأُصول الفِقهيَّة، واْنظُر أين اْنتَهُوا من نَبْذِ "الشَّريعَة".

إننا نَمْضي علىٰ هُدَىً وفي فِقْهِنا سِعَة، لَا نَحْتَاجُ لِتَحَايلٍ وتَكَلُّف، ولَا أن نَلْوِي أعْنَاق الأحْكَام ونُؤَوِّل الأدِلَّة ونَتَعسَّف.

إنَّ جميع أشكَال وصُوَر الشَّعَائر الحسَينيَّة مَشْرُوعَة، ولَا يُعْوِزُها الدَّلِيل الشَّرعي أو يَعُوقهَا فيُحَرِّمهَا ويَحظُرهَا، بل كُلُّها مُستَحبَّة مَنْدُوبَة، فإن تنزَّلنا كَانت مُبَاحَة بلَا إشكَال، لَا شَيءَ منهَا يَفتَقِد المستَنَد الفِقهِي أو يُعْوِزُه الغِطَاء الشَّرعي، فَلَا دَاعِي لِفكْرة أراهَا رَاجَت هـٰذه الأيام في أوْسَاطِ بعضِ المَوَالين المخلِصِين، وهي حَقٌّ، لـٰكنهم يَسُوِّقونها في غَير مَوْرِدها، لِتَواضُع عِلمِهم وقُصُور وَعْيِهم، وغَفْلَتِهم عن تَبِعات بَعِيدَة، وتَوَالي قَرِيبَة قد تكُون فَاسِدَة... تَرَاهُم يُروِّجُون لِكُلِّ طَقْس مُحدَث ويَنْسَاقونَ مع كُلِّ مَوْجَة طَارِئة، فإذا سُئلُوا عن مَشْروعيَّة مَا يَقُومُون به والوَجْه في مَا يفعَلُون؟ قَالُوا:

" هـٰذا من مَقُولَـة العِشْق لَا الفِقْه " !

فالحقُّ أنَّ الفِقْه يُسْعِفُ " العِشْق " ويخدِمه، ولَا تَعَارض، ولـٰكن يجب أن نَتَسَلَّح بالعِلْم والدرَاية، ونتفقَّه في دِينِنَا، لنُحْسِنَ الدِّفَاعَ عن عَقِيدَتِنا، ونَـذُودَ عن هـٰذه العِبَادَة العَظِيمَة ونُوفيهَا حَقَّها علىٰ هـٰذا الصَّعِيد (أي عُمْق خَلْفِيَّتها العقَائدِيَّة، وصَلَابة أدلَّتها ومَتَانتها الفقهيَّة)، كمَا نفعَل في الأداءِ والعَمَل، ونحْنُ نمارِسها وننهَض بها.

إذا خَرجْتَ ـ بُنيَّ ـ من بيتِك مُيمِّماً شَطْر الحسَينيَّة، قَاصِداً مجلِس العَزَاء، فكُن علىٰ وُضوء وطَهَارة، فإذا عرَض لكَ نَاقِض قبلَ دُخُولِ المـأتم، جَدِّد وُضوءَك، واْحرِص أن تكُونَ خِلَالِ هـٰذه العِبَادَة العَظِيمَـة واْمتِدَادها علىٰ طَهَارة... فالطَّهَارة الظَّاهِرِيَّة (الشرعيَّة الحكْمِيَّة) هي السبيلُ إلىٰ الطَّهَارة البَاطِنيَّـة الرُّوحِيَّة، وهـي البابُ التي تَفتَحُ وتأخُذك إلىٰ مَا يَنتظِركَ في هـٰذا المحْفِل القُدْسِيِّ حيث تختَلط بصَفْوَة العِبَاد وتُصَاحِبُ نُخْبَة الخلْق من الموالين الموفَّقِين، وتُشَارِكُ الملَائكة وسُكَّان الملكُـوتِ الأعلىٰ، فتَعِيشُ وَاحِـدَة من أكـثر مَوَاقع ومَواقِف وحَالَات القُرب إلىٰ الله سُبحَانَه وتَعالىٰ ومَظَانِّ تحصيل رِضَاه، حتىٰ تُدْرِكَ السَّكِينَة، وتَصِير في الطُّمَـأنينة، وتَغْرقَ في الرَّحمة، فتَبلُغَ السَّنَـام الأعلىٰ والمقَام الأرفع، وتَدْخُلَ في الكَهْفِ الحصِين وجملَة العَارفين.

لِباس العَزاء

أمَا لِباسُكَ وهيئتُك، فيَنبغي أن تُناسِبَ الحال والمقَام...

فعَشرة المحرَّم و«عَاشُوراء»، تختِلفُ عن بَقِيَّة مُناسبَات الوَفيات، وهي عن سَائِر الأيام والمجَالِس المستَمِرَّة علىٰ مَدَىٰ العَام.

فالحضُور في سَائر الأيام وإحْيَاء المجالِس المعتَادَة علىٰ مَدَار العَام (العَوَايد)، يكُون كَمَا هو الحال في قَصْدِ المسَاجِد والمشَاهِد المشرَّفَة، والتهَيُّؤ لمخْتَلف العِبَادَات، من اْتِّخاذِ الزينَة، عَمَلاً بقَـوْله تَعَـالىٰ: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُـذُواْ زِينَتَكُمْ عِـندَ كُلِّ مَـسْجِدٍ ﴿٣١﴾﴾ (الأعـراف)، بما يُنَـاسِب الشَّأن والمقْـدِرَة، من مَلَابِسَ فَاخِـرة وثيَاب مُعطَّرة، وهَيئَـة يَحُفُّها مَا يَـجْمَع التوَاضُعَ والـوَقَار، ومَـا يَسْتَحِقُّه المقَام من التعْظِيم والإجْلَال، ثـم الأُنس، أُنس العَاشِق بلِقَاءِ مَعْشُوقه، والعَامِل العَابد بتَحْقِيق مُنَاه وبُلُوغ مَقصُوده.

وعَلَيكَ تـوَخِّي القَصْدَ والاعتِدَال في ذلك، ومُراعَاة حَال الحضُور، فَلَا يكُون في ثيابكَ وهيئتك مَا يُميِّزك عن سِواك، ويجعَلك متفوِّقاً على غَيْرك من المؤمنين، كَما لَا يَكُون فيهَا مَا يَزْري بالمكَان ويَستَخِفُّ به، أو يهين المحْفِل والمقَام لَا سَمَحَ الله، فاللباسُ احْترامٌ للآخَر، وضَرْبٌ من تَقدِيرِ المقَابِل. فقَد لَاحَظْتُ، في السِّنين الأخِيرة، أنَّ بعضَ المؤمنين لَا يأخُذ زينـته عند هـذه العِبَادة، ولَا يحْرِص أن يَكُونَ بكَامِلِ هَيئَتِه وزِيِّه، على عكْسِ مَا يُرى منه عَنْدَ الحضُور في مَقرِّ عَمَلِه مثلاً، أو دَوَاوِين ومجَالِس بعْضِ الشَّخْصِيَّات، من الأمراء والحكَّام والأعيان والوُجَهَاء، وكَأنه يهوِّن من خَطْب الحسَينيَّة ويَسْتَخِفُّ بمَجْلِس ومَأتم «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام... والعُمْدَة في هـذا وذَاك، حُكْم العُرف، والنظْرة إلى كَوْنك أوْلَيتَ المكَانَ والمقَام احترامه الكَامِل، أم تهاونتَ في ذلك ولم تفعَل؟

هـذا في سَائر الأيام والمجَالِس التي تُقَامُ على مَدَارِ العَام (العَوَايد)...

أمَا في المناسَبَات الخاصَّة والمجَالِس التي تُعقَد لِذِكْرى وَفيَاتِ «الأئمة الأطهار» عليهم السلام، فإنَّ الأمر يختَلِف، إذ عَلَيكَ أن تتَّشِحَ بالسَّوَاد، وتَظهَر كَالمصَاب، وتَقْدُم المجْلِس أو تَنهَض بالمأتم وتُقِيمه على هَيئَةِ أرْبابِ العَزَاء، وتَتْرك الطِيبَ والتجَمُّل ومَا إلى ذلك من مَظَاهِر وصُوَر الزينَة والاحْتِفَاء.

أمَـا إذا حَلَّ المحَرَّم وجَاءَت ذِكْرى مُصَابِ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وتجدَّدَت فَاجِعَة «كَربَلَاء»، فقَد بَدَأ "الموسم"، وقامَت الأحْزَان وتألَّق الرثَاء وطَابتِ النَدْبَة، وشَرعَت الشَّعَائر وانطَلَقَت، وانْقطَعَ إلى العَمَلِ مَن نَذَر نَفْسَه وأوقَفَها على هـذا الميدَان، وعَكَفَ على وَاجِبه الأوَّل ومُهمَّتِه الأخْطَر... ولَا شَيءَ يُنَاسِبُ الحدَثَ والدَّوْرَ الذي تَنهَضُ به في إحْيَاء الشَّعَائر من لُبْس ثِيَاب الحِدَاد. لِذَا عَلَيكَ أن تَرتَدِي السَّوَاد من أوَّل مُحَرَّم الحرام، وتبقى متَّشِحاً به حتى العِشْرِينَ من صَفَر (الأربعين)، ولكَ أن تُلْحِق بـ "المْوسم" بَقيَّة شَهْر صَفَر، لتُدْرِك وَفَاة «النبيِّ الأعظَم» صلى الله عليه وآله في الثامن والعِشْرِين منه، ثم تَختِم أحْزَانك في شَهْر رَبيع الأوَّل بعدَ ذِكْرى «وَفاة الإمام العَسْكَرِيّ» عليه السلام، فإذا كَانَ يَوْم التَّاسع منه جَعَلْتَه عيدَك (من أسْمائه: يَوْم نَزْع السَّوَاد)، وعَمِلْتَ بمَا تَعَارَفَ عَلَيْه خُلَّص الشِّيعَة من اتِّخَاذِه يَوْماً لِفَكِّ الأحْزَان، ودُخُول السُّرُور على مَولَاتنا «سيِّدَة النِّسَاء» عليها السلام.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَقْلِبَ هَيئَتك ومَظْهرِكَ مَع أوَّل هِلَال «المحَرَّم»، فتُحَاكِي مَا يجرِي في السماوات من إعْلَانِ الحِدَاد، والنَّفْخ في صُور المصَائِب والرَّزايا، ورَفْع الأذان بتَجْدِيد الأحْزَان، وحَيَّ على العَزَاء. وتُوافِقَ أشْرف الكَائنَاتِ من مُؤمنين سُعَدَاء ومَلَائكَة وأوْلِيَاء وأنبياء، وعلىٰ رأسِهِم «رَسُول الله» و«أميرالمؤمنين» وذُرِّيته النُّجَبَاء، وأُمِّهِم «فاطِمَة الزَّهْراء» وصَاحِبة العَزاء عَليهم جميعاً الصَّلَوَات... فتتَّشِحَ بالسَّوَاد، وتَتْرُك العِطْر والطِّيب، وهكذا الزينَة، بمُخْتلِفِ أشكَالها وأنواعِها، كَتهذِيب اللحْيَة، وقَصِّ شَعْر الرأسِ وإصْلَاحِه، حتىٰ تجعَلَ أو يُصْبحَ مَظْهَركَ ومَرآكَ مُنقَلِباً، وبَاعِثاً علىٰ انقِلَابِ كُلِّ من يَراك، فإن لم يَفْعَل ويُوَافِقك أو يجَارِيكَ، كَفَّ عن اللَّغْوِ واللَّهْو، وأمسَكَ عن المزَاح، وأخَذتَهُ إلىٰ حَيْث يَنْبَغي من خُصُوصيَّة الزَّمَان وحُرْمتِه، وأجْوَاء عَظَمَة الوَاقِعَة وخَطَر الحدَث، وفَرضْت علَيه وعلىٰ مُحيطِكَ الأحْزان، فكُنتَ داعِياً إلىٰ «أهل البيت» عليهم السلام بزيِّك وهيئتِك، ومُحْيِياً لأمرِهم بمَظْهَرك ومَنْظَرك.

فإذا كانَ يَوم «تَاسُوعَاء» وبعده «عَاشُوراء»، كانَ ذلك يَوْم مُصيبتك وجَزَعك الأكْبَر، وخرُوجك أشْعَثَ أغْبَر، حَافي القدَمَيْن، حَاسِر الرأس، مَا يَبعَث الوَحْشَة والكآبة في مَن يُقَابِلك، ويجدِّد الحزْن والانكِدَار لمن يَراك... وتجعَل هَيئتك كَمَن شَقَّ جَيْبَه، تحلُّ أزرار قمِيصِك أو ثَوْبك وتَفكُّها من عُراهَا، وتَرفَع الأردَان وتكْشُط منه الأكمام، ثم تُلَطِّخ رأسَكَ ونَاصِيَتك وبعضَ وَجْهكَ بشَيءٍ من الطِّين، وتحْرِص علىٰ أن لَا تَنتَعِل، وتبقىٰ حَافِياً يَوْمَكَ كلَّه، كَمَن أخَذَه الجزَع وغَلَبه فذَهِل عن كُلِّ شَيء.

وهنا وَقفَة مع لُبْس السَّوَاد يُثيرهَا خُصُوم الشَّعَائر الحسَينيَّة من "الحدَاثِيين" والسِّيَاسِيِّين والمَصْلَحِيِّين، ومن المهزُومين في نَفْسيَّاتهم، المحْرَجِينَ من تَعْرِيفِ هُوِيَّتهم، وإن ظَهَروا بعُنْوَان المتشرِّع ونَادَوْا بالتفقُّه، فهي "كَلِمةُ حَقٍّ يُرادُ بها بَاطِل"، ولَوْ تَدبَّروا لَرأوا أنَّ استِدْلَالهم واحْتِجَاجهُم بالأحَادِيث الشريفَة إنَّما يخدُمُ - في الوَاقع - قَضِيَّة الشَّعَائر ويؤكِّد خطَرها! فمِمَا لَا يخفىٰ أنَّ الأحَادِيث التي تنهىٰ عن لُبْس السَّوَاد، سَوَاء مُطلَقاً أو في حَالِ الصَّلَاة، محْمُولٌ نَهْيُها علىٰ الكَرَاهَة، وهي هُنا، ليسَت الكَراهَة المصطَلَحَة (مَا يُثاب علىٰ تَركه ولَا يُعاقَب علىٰ فِعْله)، بل هي من بَابِ الإرشَاد، أي أقلُّ أفرادِ العَمَل ثَواباً.

وقد عَدَّ المرحُوم «آية الله العظمىٰ الميرزا جَوَاد التبريزي» قدس سره تلكَ الرِّوَايات، في (رسَالَة مختصَرة في لُبْس السَّوَاد)، عَدَّها في طائفتَيْن، الأُولىٰ من قَبِيل: "لَا تُصَلِّ في الثَّوْبِ الأسوَد، فأمَّا الخفُّ أو الكِسَاء أو العمامَة فَلَا بَأس"، قَالَ بضَعْف سَنَدِها، وأنها لَا تَصْلُح للاَستِدْلَال، والثانية من قبيل: "لَا تَلْبَس السَّوَاد فإنَّه لِباسُ فِرْعَوْن"، أنزلَهَا علىٰ مُؤدَّىٰ روَاية «السكُوني»: "لَا تَلْبَسُوا لِباسَ أعْدَائي..."، فذَهَبَ إلىٰ الاَلتِزَام بمَضْمُونها، وقَال: إنَّ اللِّبَاسَ إذا اَختصَّ به أعدَاء الدين فلَا يجُوزُ لُبْسُه، مثل القُبَّعَة التي يختَصُّ بلُبْسِها اليهُود، ولٰكن لِبَاس السَّوَاد لم يَثبُت اَختِصَاص لُبْسه بأعْدَاء الدين.

عُمُوماً، فإنَّ فقهاءَنا العِظَام سَواء المعَاصِرين أو الماضِين، قَالُوا باَستِثنَاء لُبْس السَّوَادِ في عَزَاءِ «الحسين» عليه السلام من الكَراهَة، كما ذكَرَ «المحَقِّق البَحْرَاني» قدس سره، بعدَ سَرْده الأحَادِيث النَاهِيَة: "أقول: لَا يَبعُد اَستِثْنَاء لُبْس السَّوَاد في مأتم «الحسَين» عليه السلام من هٰذه الأخبَار، لمَا اَستَفَاضَت به الأخْبَارُ من الأمر بإظهَار شَعَائِر الأحْزَان، ويُؤيِّدُه مَا رَوَاهُ «المجلسي» قدس سره عن «البرقي» في كِتَابِ (المحَاسِن)، أنه روَىٰ عن «عمر بن زَيْن العَابِدين» عليه السلام أنه قَال: "لما قُتِلَ جدِّي «الحسَين» المظلُوم الشَّهِيد لَبِسَ نِسَاءُ «بني هَاشِم» في مأتَمه ثِيَابَ السَّواد ولم يُغيِّرنها في حَرٍّ أو بَرْد، وكانَ الإمام «زينُ العَابدين» عليه السلام يصْنَع لهنَّ الطَّعَام في المأتم". [1]

العُمْدَة، أن تُظْهِر الجزَعَ والحزْنَ والحِدَاد في مَرآك ومَظهَرك، ولُبْسُ الثوب الأسوَد، في عُرْف الناس، هو من أجلىٰ مصَادِيقه وأتمِّ أفرادِه، وهو عُرفٌ مُتَسَالَم عَلَيه في مختَلِف المجتَمَعَات وسَائر البِلَاد.

وفي الحدِيث الشريف أنَّ الملَك الذي جَاءَ إلىٰ «رَسُولَ الله» صلى الله عليه وآله وأخبَره بقَتْل سِبْطِه الشَّهيد «الحسَين بن علي» عليهما السلام كَان ملَك البحَار، وذلك أنَّ ملَكاً من مَلَائكَة الفِردَوْس، نَزَل علىٰ البِحَار فنَشَر أجنِحَتَه علَيهَا، ثم صَاحَ صَيْحَة وقَال: يا أهلَ البِحَار! البُسُوا أثوابَ الحزْن، فإنَّ فرْخَ «الرَّسُول» صلى الله عليه وآله مَذبُوح، ثم حمَلَ من تُربته في أجنِحَتِه إلىٰ السماوَات فلَم يَلْقَ ملَكاً إلَّا شَمَّها، وصَارَ عِنده لها أثر، ولعَنَ قتَلَتَه وأشْيَاعَهم وأتباعَهم. [2]

---

(١) (الحدَائق الناضِرة) لـ «الشيخ يُوسف البَحراني» ج٧ ص١١٨.

(٢) (كَامِل الزِّيارات) ص١٤٣.

تُرىٰ كَيف هَي "أثوابُ الحزْن" التي يَدْعُو الحدِيثُ الشريفُ ـ بنَحْوٍ ـ إلىٰ لُبْسِهَا؟ مَا هُو شَكْلُها ولَوْنها، ومَا هي طَرِيقَة ٱرتدَائها؟... هـٰذا مَا يسعىٰ عُشَّاق «الحسَين» عليه السلام إليه ويحَاوِلَون أن يَمتَثِلُوه، وهو في عُرْفنَا وعُرف غَيْرنـا السَّوَاد، دَرَجَ النَّـاسُ علىٰ هـٰذا منذُ عهُود، ومَضَوْا عليه في شتىٰ البلَاد وسَائر الشُّعُوب، إذا أحزَنَهم خَطْبٌ ونَزلَت بهم مُصِيبَة وفقَدُوا عَزيزاً فأعْلَنُوا الحِدَاد، تَراهُم لَبِسُوا السَّوَاد في جَنازته وعَزَائه، ونَحْنُ عَزيزُنا وفقيدُنا الذي مَا نَسْمَع بقَتيل أو شَهِيد إلَّا ندَبْناه، هو «سيِّد الشُّهَدَاء الحسَين» عليه السلام.

وبَعد لِبَاسِكَ الشَّخْصِي، وهَيئَة إخْوَانك العَامِلين مَعَك في إدَارة المأتم... علَيكَ بُنيَّ أن تَعمَد إلىٰ كِسْوَة الحسَينيَّة، وأن تُجلِّل جُدْرانها وتَسْتُرها بأنماطِ وجُنَادِيِّ السَّوَاد، وهـٰكذا مِنْبرها وفَرْشهَا وأثاثهَا، وكُلَّ مَا يَظْهَر للعَيَان ويَرَاهُ الحضُورُ من مَتَاعِهَا، وأن تُبَالغَ في هـٰذا وتُؤكِّد، حتىٰ إذا دَخَلَ الدَّاخِل ووَلَجَ الحُسَيْنيَّة ٱستَشْعَرَ أجْوَاء المصِيبَة ولَفَّه فَضَاؤهَا، فٱنقَبَضَ قَلْبُه وتَكَدَّر خَاطِره، وهَجَمَتْ عَلَيه الأحْزَان وجَثَمَت علىٰ صَدْره، فيتَهيَّأ لٱستِقْبَال المرَاثي والبُكَاء، ويَسْتَعِدُّ للنُدْبَة والجزَع، والقِيَام بمَا يُمكِنُه من وَاجِب العَزَاء.

وممَا يَنْبَغي الٱلتِفَاتُ إليه في أمرِ اللِّبَاس في المآتم، مَظَاهِر مُحدَثَة تَسرَّبت إلينا مُؤخراً، منها نتَاج خَلْطٍ وإغرَاق، وأُخرىٰ من تَهاوُنٍ وتفرِيط... فبعضُ الشَّباب يَحضُر المأتم مُرتَدِياً مَلَابس الرِّيَاضَة أو ثِياب الرَّاحَة، بل النَّوْم! أو سَراويل قَصِيرة تُظْهِر سَاقَيْه، وأُخرىٰ ضيِّقة تحكِي العَوْرة أو تَكْشِفَ جَانِباً من الظَّهر وثِيَابه الداخِليَّة حِينَ يَنْحَني أو يَجلِس علىٰ الأرض! أو ثِياباً مُلوَّنة، فيَحْضُر بقَمِيصٍ ذِي لَوْن زاهٍ يَرمُز إلىٰ البَهْجَة كالأحمر! عَلَيْكَ بُنيَّ التَنبِيه إلىٰ ذلك، بِطُرُق لَطِيفَة ووَسَائل لَا تُحْرِج أو تجرَح. كَما لُوحِظَ مَن يَدْخُل المجلِس أو دائرة اللطْم وهو يَعْتَمِر قبَّعَات ذَات أشكَالٍ وتَصَاميم لَا تُنَاسِبُ المجْلِسَ وخَفَره وصَوْنه ومنْعَته، لِذَا عَليكَ أن تَتنبَّه لهـٰذه الأُمور وتُلَاحِظَهَا، وتُوعزَ إلىٰ أحَدِ كِبَار السِّنِّ أو شَيَبةِ المجلِسِ أن يَتَدَخَّلَ ليُنبِّه الشَّبَاب ويَمْنَعَ هـٰذه الظَّاهِرة. ومَا أردتُه من الأسَاليب اللَّطِيفَة، لَا يَعنِي التهاوُن والتراخِي والسَّماحَ بهـٰذه المظَاهِر، بَل يَعني الٱنطِلَاق من الرأفَة والمحبَّة، والحِرص علىٰ المؤمن، حتىٰ لَا يَنْجَرَّ الأمرُ إلىٰ إحْراجِه وهتْكِه، أو إلىٰ إصْرارٍ منه وعنَاد، إنَّما تَدْفَعه إلىٰ الٱمتِنَاع من تِلْقَائه، وتَرك هـٰذا المظْهَر بالتي هي أحْسَن.

كما عَلَيكَ أن تَتَنبَّه لِظَاهِرة أُخرىٰ مُقَابِلَة، وهي أنَّ بَعض المعزِّين المخْلِصِين صَارَ يَعْتَمِر (في سِيَاق الاْتشَاح بالسَّواد) قَلَنْسُوَة (طَاقِيَّة) أو كُوفيَّة رأس (غترة وشماغ) سَوداء اللَّوْن... وفي هٰذا مَحذُور، هُو عُرْفٌ جَرىٰ أن يَختصَّ ذلك بالسَّادَة زادَ الله في شَرفِهِم وعزِّهم، وكَأنه أصْبَحَ عَلَامَة لهم وشعَاراً، نعَم، لَا بأسَ من اتخَاذ الشَّال الأسوَد، يُطَوِّق به المؤمنُ عُنُقَه، ويَتَهَدَّل علىٰ العَاتِقَيْن، أمَّا غِطَاءُ الرأس، والنِّطَاق (حِزَام الظَّهر) الأسوَد أو الأخْضَر فاْحذَر أن تَقَع فيه، فقَد لَاحَظْتُ أنَّ بعضَهُم يأنسُ من عَدِّه "سيِّداً" حِينَ يُنَادِيه ويُخَاطِبه مَن لَا يَعْرِفه، انتزَاعاً واعْتِماداً علىٰ زيِّه!

إعلَم بُنيَّ حَفِظَكَ الله، أنكَ مَرسُومٌ، ولَعلَّك منذُور بنَحْوٍ، خَادِماً للسَّادَة الأشراف من ذُرِّيَّة «رسول الله» ﷺ، بعد أن كُنتَ ـ إن شَاءَ الله ـ عَبْداً لمولَاتِكَ «الزَّهْراء» عليها السلام، لَا تُصَعِّر خَدَّكَ لأحَدٍ منهُم، ولَا تتكَبَّر علىٰ صَغِيرهم، ولَا تَسْتَنكِف خِدْمَتَهم كَأجِير، عَلَيكَ أن تَتَوَدَّدَ إليهم وتُظْهِر الرَّحمة والمحبَّة، بل الخضُوعَ والمذلَّة لهم... فتَسْمُو وتَرقىٰ، وتحلِّق في سَماءِ وِلَاية أجْدَادِهم، ولَرُبَّما أحَبُّوك وقَرَّبوك أكثر مما أحبُّوا أبناً لهم من العُصَاة أو من الجهلَة، وَقَّرتَه أنتَ وكرَّمتَه وخدَمْتَه، كَرامَة لِنَسَبه وقَرابته من «رَسُول الله» ﷺ. وفي حَذَرِك وحِرْصكَ علىٰ تجنُّب زيِّهم والاْحتراز عن لُبْس مَا اْختَصُّوا به، ضَرْبٌ من هٰذا التوْقير والاْحترام الذي ستلقىٰ جَزَاءه وتُوفَّى أجْره في الدُّنيا قَبل الآخِرة.

الدخُول والجلوس

فإذا وَصَلْتَ المجلِسَ، فاْدخُل بأدَبٍ ووَقَار، وتَوجَّه أوَّل الأمر لاْستِلَام المنبر وتَقْبِيلِه، هٰذا إذا كَانَ وَضعُ المجْلِس وكَثافَة الحضُور تَسْمَحُ بذلك (من حَيث إمكَانيَّة الحركَة، والمجيء والذَّهَاب دُونَ الإخْلَال بالنَّظْم وإزعَاج مَن سَبَقَك واْتخذَ مَكَانه قَبْلَك)، وإلَّا اْنتظَرتَ حتىٰ الفَراغ واْنصِراف الجمُوع، لِتَذهَب وتَتبرَّك بالمنبر وتُقَبِّله.

إعلَم بُنيَّ أنَّ مكَانَ جُلوسكَ في الحسَينيَّة ضَرْبٌ من القَدَر والقِسْمَة! وكأنَّ يَداً من الغَيْبِ تَصْرف كُلَّ شَخصٍ وتَأخُذه إلىٰ مكَان مُعيَّن مُعَدٍّ وتحدِّد لَه مَوْضعَ جُلوسه، فحَيثما قَادَتك رِجْلَاك، قِرَّ واْستَقِر، واْتخِذْه مَجلِساً لك، ولَا تتخطىٰ الرِّقَابَ وتُزَاحِم النَّاس وتُؤذِي الجلَّاس لِتقْتَرِبَ من المنبر أو الصَّدْر، أو تَلْتَمِسَ مَوْضِعاً "يَلِيقُ" بِشَأنِك!

وكَما جرَتِ العَادَة، فإنَّ المجلِسَ يَمتَلِئُ أوَّل مَا يَمتَلِئ، ويتَّخِذُ رُوَّاده مَواضِعَهم فيه من مُحيطِه، أي مَواضِع الاتكاءِ على الجُدرَان، أرْضيَّة كَانت أو من على مَقَاعِد، فإذا بكَّرتَ وسَبَقْتَ في الحضُور، وحَظيتَ بمَوْضع هُنَاك، ثُم ازدَحَمَ المجلِسُ واكتَظَّ، فافْسَح مَا أمكَنَك للآخَرين، وإيَّاك أنْ تبقىٰ مُتَّكِئاً أو مُستَوِياً علىٰ مَقْعَد، وقَد دَخَلَ المجلِسَ سَيِّدٌ من وُلدِ «فَاطِمَة» عليها السلام، يفْتَرِش الأرضَ أو يَتوسَّط القاعَةَ دُون أن يتَّكِئ! بَادِر إلىٰ إخْلَاءِ مَكَانِكَ ودَعْوته إليه، وإظْهَار تَكْرِيمِه واحْتِرامه. وهٰكذا الأمرُ مع عُلَماء الدِّين الكِرَام، والمرضىٰ، والشَّيبَة من كِبَارِ السِّن... احْرِص بُنيَّ علىٰ إفسَاح المكَان لهٰؤلاء، وقدِّمهُم وآثِرهُم بمَكَانِك، إنْ كَان في صَدْر المجلِس، أو في المَوَاضِع المريحَة، حيث يَتَّكِئُ الجالِس، أو يَسْتَنِد فيُريح ظَهْره. ومما يُؤسَفُ له أنَّ بَعضَ المؤمنين يحتَلُّ المقَاعِدَ أو مَواضِع الاتكَاء، هو ومَن يَصْحَبُهم من أطفَالٍ أو فِتْيان، فإذا دَخَلَ عَالِمٌ جَلِيلٌ أو شَيْخٌ كبير، لم يُكَلِّف أنْ يُخلي له مكَانَ أحَدِ الأطفَال، ناهِيكَ بأن يُؤثره علىٰ نَفْسِه!

هٰذا إذا كُنتَ من الحضُور، ومن عمُوم رُوَّاد المجْلِس... أمَا إذا كُنتَ مُقِيمَ المأتم ومُتَولِّي الحسينيَّة، فعلَيكَ حين الأمر بهٰذا المعروف مُلَاحَظة أنَّ الحقَّ الاعتِبَاري يُكتَسَبُ بطَريقَته العُرفيَّة، فمَن سَبَقَ إلىٰ المكان صَارَ حَقَّه، لِذَا فإنَّ إخْلَاءَه وإفسَاحَ المجَالِ لهٰؤلاء (السيِّد والعَالِم والشَّيْخ المُسِن والمريض)، يَكُونُ بالطَّلَب والرَّجَاء، وبالتذكِير بالأجْر والثَّوَاب، والدَّعْوَة للإيثَار، لَا إكْرَاهاً ولَا قَهْراً. وانتَبِه إلىٰ حَالَة تَدْخُل في "المأخُوذ حَيَاءً كالمأخُوذ غَصْباً"، فبعضُهُم تَراه يَنْهَر الصِّغَار والفِتْيَان، وحتىٰ الشَّبَاب، ويَزْجُرهُم أو يَأمُرهُم أمراً أنْ: أخْلِ مَكَانَكَ لهٰذا الشَّيخِ أو العَالِم! وناهيكَ عن الإشْكَالِ الشرعيِّ في هٰذا العَمَل من حَيث تجاوُز حقِّ مَن سَبَق، فمَا يُدْرِيكَ، لَعَلَّ صَاحِب المجلِس الحقيقي (أي «سيِّد الشهداء» عليه السلام)، يحبُّ هٰذا الشَّخْصَ أو يحبُّ إكرامَه أكثر من ذَاك، وإن كَان أصْغَر سِنّاً؟

وهناكَ عُرْفٌ قديمٌ اندَرَس، مَا أجمَل أن يُعَادَ إحْيَاؤُه، أو أن يجري السَّعْي وتَتَجَدَّد الحركَة - في الأقلِّ - إلىٰ ذلك... وهو تخصِيصُ رُكْنٍ أو زاوِية في كُلِّ حُسَيْنِيَّة للسَّادَة الأشراف، وإن تَعَسَّر هٰذا في مجلِس الرِّجَال، فلَا تُفَرِّطَ به في مجلِس النِّسَاء، وأمُرْ أنْ يُخصَّص مَوْضِعٌ للعَلَوِيات المكَرَّمات، لَا يجلِسُ فيه غيرهُن، ولَا يُزاحمهُنَّ فيه أحَد.

وهُنا مَوْقفٌ مُتَقَدِّم عَالٍ وأداءٌ متَفوِّق رَاقٍ في دُنيَا الوَلاءِ وعَالَم السَّيْرِ والسُّلُوك في طَرِيقِ عِشْق «آل محمَّد»، لَا ينبغي أن يَتَهاوَن تجاهَه عَاقِلٌ أو يُفرِّط فيه كيِّسٌ فَطِن، أداءٌ مُرتكَزُه التأدُّبُ والخضُوعُ لـ «أهْلِ البَيْتِ» عليهم السلام ولكُلِّ مَن ومَا يَتعَلَّق فيهم وبهم، فبَعْدَ حُبِّهم وبُغْض مخَالِفيهم، وتَولِّيهم والتبرِّي من أعْدَائهم... هُناكَ أداءٌ في السُّلُوك ومُفْرَداتٌ في الطَّرِيقَة تَكْتَنُّ، في ظَاهِرِهَا بدَرَجَة بَسيطَة وفي عُمْقِها بدرجَاتٍ عاليَة كَبيرة ومَراحِلَ مُتقدِّمَة عَظِيمَة، تَكْتَنُّ وتختَزِن الرِّضا الكَامِل بهم، والتأدُّب التَّامَّ مَعَهُم، والخضُوع المطلَق لِتَعَاليمهم والتَّسْلِيم الشَّامِل لِمَعارِفِهم وفَضَائلهم ومجَالِسِهم وكُلِّ مُتَعَلَّقاتهم!

أداءٌ من قَبيل إكْرَام ذُرِيَّة «رَسُولِ الله» صلى الله عليه وآله، ممَا وَرَدَ في الفِقه بعُنوَان وُجُوبُ إكْرَام الهاشِمِي، عَالِماً كانَ أو لم يَكُن، فالشَّرفُ للنَّجَابة وللنَسَب الرَّفيع، والكَرامَة للرَّحِم والقَرَابة من العِتْرة الطَّاهِرة، أمَا عُنْوَان العِلْم والفَضْل والتقىٰ والوَرَع، فهي أسْبَابٌ مُلحَقَة وعلَلٌ إضَافيَّة، تُوجِبُ الزيادَة وتَقْتَضي المزيد.

إنَّ في هٰذا الأدَاء (أي إكْرام السَّادَة العَلَويين، وهٰكذا في مُفرَدَاتٍ أُخرىٰ من قَبِيلِه، لَرُبَّمَا سَنحَتِ الفُرْصَة وتمكَّنتُ من كَشْفِهَا لكَ في مَوارِدها، إذا آنَ أوانها) رسَالَة عظيمَة عَلَيكَ ٱلتزامها، وبَلَاغٌ خَطِيرٌ يجبُ ٱمتِثَالُه، رِسَالَة تمدُّك بالعَوْن والقُدْرة وتُزوِّدك بالطِلَّسْم الذي سَيَفتَحُ لكَ مغَالِيق أبوَابِ الفيُوضَات الوَلَائية، وتُعطِيكَ كَلِمة السرِّ التي تأخُذك إلىٰ رِحَاب الفتُوحَاتِ الربَّانية... فَلَا تُحرمَنَّ بُنيَّ، ولَا تَكُن مَغبُوناً، وتَسْقُط في ٱمتِحَان الكِبر، وتَخفِق في قَهْر النَّفْسِ وإرغَامِها. وللخَلَاص والعَوْن من سَطْوَة الآفاتِ النفسِيَّة وغلَبَة الكِبْر ٱستَحْضِر بُنيَّ وٱطْلُب المدَد من نُورِ أحَادِيثهم في البَاب، ومنها:

قَال «رَسُول الله» صلى الله عليه وآله: إنَّ مَن صنَعَ إلىٰ أحَدٍ من أهْل بَيتي يَداً، كَافأته يَوْم القِيَامَة.(١)

وقَال صلى الله عليه وآله: إني شَافعٌ يَوْمَ القيامَة لأربعَة أصْنَاف، ولو جَاءُوا بذُنُوب أهْل الدُّنيا: رَجُلٌ نَصَرَ ذُرِّيَّتي، ورَجُل بَذَل مَاله لِذُرِّيَتي عِند الضِّيق، ورَجُلٌ أحَبَّ ذُرِّيتي بالقَلْبِ واللِّسَان، ورَجُلٌ سعىٰ في حَوائج ذُرِّيتي إذا طُرِدُوا وشُرِّدُوا.(٢)

(١) «الكَافي الشريف» لـ «الشيخ الكُليني» ج٤ ص٦٠ حديث٨.

(٢) «المصدر السابق» حديث٩.

وقَالَ «الصَّادِق» عليه السلام: إذا كَانَ يَوْمَ القِيَامَة نَادىٰ مُنَادٍ: أيها الخَلَائق أنصِتُوا فإنَّ محمَّداً يُكَلِّمكُم. فيُنْصِتُ الخلَائقُ، فيَقُومُ «النبيُّ» صلى الله عليه وآله فيقُول: يَا مَعْشَر الخَلَائق! مَن كَانت لَه عِندي يَداً أو مِنَّة أو مَعْرُوفاً فَلْيَقُم حتىٰ أُكَافِيه. فيقُولُونَ: بآبَائِنَا وأُمَّهاتِنا، وأيُّ مِنَّة وأيُّ مَعْرُوف لنا؟ بل اليَدُ والمِنَّة والمعرُوف لله ولرَسُوله علىٰ جميع الخَلَائق. فيقُولُ صلى الله عليه وآله: بلىٰ، مَن آوىٰ أحَداً من أهْلِ بَيْتي، أو بَرَّهُم، أو كَسَاهُم من عُرْيٍ، أو أشْبَع جَائعَهُم، فَلْيَقُم حتىٰ أُكَافيه. فيقُوم أناسٌ قَد فعَلُوا ذلك. فيأتي النِّدَاءُ من عِندِ الله عزَّ وجَل: يَا «محمَّد»! يا حَبيبي! قد جَعَلْتُ مُكَافَأتهم إليكَ فأَسْكِنْهُم من الجنَّة حَيْثُ شِئت، فيُسْكِنهُم في الوَسيلَة، حيث لَا يُحجَبُونَ عن «محمَّد» و«أهْلِ بيته» صَلَوَات الله علَيهم.[1]

وهذا الأمر بُنيَّ من الأبتِلَاءَات الخفِيَّة، التي يَصْرَع الشَّيْطَانُ جُلَّ المؤمنين ويهزِمهم فيها، تَحتَ عُنْوَان فِسْق هذا السيِّد، وجَهْل ذَاك، وعَدَم اسْتِحْقَاقه الاحْتِرَامَ وافتِقَادِه أهليَّة التبْجِيل، ومَا إلىٰ ذلك. ولَوْ تَدَبَّرتَ لَوَجَدْتَ أنَّ عُمْق الاعْتِراض، يَكْمُن هُنَاك، في أغْوَار النَّفْسِ ودَفَائنها، ويَنْشَأ من الحسَدِ والكِبْر والغُرُور... شَيءٌ من قَبيل مَا ابْتُلي به «عبدالله بن الزبير» والعِيَاذُ بالله، الذي تَركَ الصَّلَاة علىٰ «النَّبيِّ» صلى الله عليه وآله في خُطْبَة الجمُعَة، فلَمَّا سُئِلَ عن ذلك قَال: حتىٰ لَا يَشْمَخَ «بنُو هَاشِم» بأنوفهم! وأغلَبُ مَن يَرفُض هذه العِبَادَة (الخضُوع والتذلُّل للسَّادة الأشراف) ويُشَكِّك في مَشرُوعيَّتها، يَنْطَلِق - في الحقيقة - من "إنِّيَّاتٍ" لِسَانُ حالها: مَن يكُون هذا حتىٰ أُقدِّمه وأخضَع لَه وأذِل؟ ولماذا يُفَضَّل ويُقَدَّم علىٰ غَيْره بلَا مُرجِّح عَقْلِيٍّ أو شَرْعيٍّ من تَقْوىً وخُلُق أو عِلْم وفَضْل؟ والنَّسَبُ قَدَرٌ لَا فَضْل لَه فيه، ونَصِيبٌ لم يأتِه من سَعْي ولَا كَسْب؟

ولَا سِيَّما حينَ يَعيش المرءُ المفَارقَة، ويُدرِك في وُجْدَانه أنَّ هذا الرَّجُل، المنظُورُ تَبجِيلَه والمرادُ إكْرامه، لَوْ خُلِّيَ عن نَسَبِه الشَّرِيف وجُرِّدَ عن عُنوَان السِّيَادة، مَا كَانَ يَسْتَحِق أيَّ تَوْقير، ولَا كَانَ أهلاً لأقلِّ احترام! فكَيفَ بالتَّقْدِيم والتَّفْضِيل، وكَيفَ للنَّفْسِ أن تخضَعَ هُنا وتُطَاوع مَا يَعْسُر علَيهَا ويَصْعُب؟!

(١) «من لا يحضره الفقيه» لـ «الشيخ الصَّدُوق» ج٢ ص٦٠.

إنها إرادَة الله تَعَالىٰ، أن يُفَضِّل هـٰذا البيْت، الذي تحمَّل ـ علىٰ مَدَىٰ التارِيخ ـ رسَالَة الوَلَاء، ودَفَعَ ثمَن إبلَاغ الدين، حتىٰ إنَّ عُنوان "الشِّيعي" في بَعضِ العُصُور أنطبَق مع "العَلَوي"، أي أنَّ الناسَ كلَّهم أنصرَفُوا عن التشيُّع وتَركُوا مذهَب «أهل البيت» عليهم السلام، وبقيَ أوْلَادُهُم وذُرِّيَّتهم يتَحَمَّلُون السُّجُونَ والمطَارَدَة والتشريـد والتنكِيلَ والقَتْلَ والتَّهْجِير، حتىٰ وَصَلَ إلينا الدِّين، وبلَغَنا المذهَب الحق.

ولَا يخفىٰ علَيكَ بُنيَّ أنَّ سُقُوط شَرط العِلْم أو التغَاضِي عن مَسْأَلة الألتزام الشَّرعيِّ في إكْرام فُروع الدَّوْحَة الهاشِميَّة المباركَة من ذَراري «الأئمَّة» عليهم السلام، لَا يَعْني سُقُوط شَرط الإيمان والولَاء، وأنَّ إكْرام غير المُلتَزِم، لَا يَعْني إكْرام المخالِفين المعانِدِين منْهُم (أتبَاع المذَاهب المنحَرِفة الباطِلَة)... ففي الحديث الشريف، قُلتُ لـ «أبي الحسن الرِّضَا» عليه السلام: أخبرني عمَّن عَانَدَكَ ولم يَعْرِف حقَّك من وُلْدِ «فاطمة»، هو وسَائر الناسِ سَوَاءٌ في العِقَاب؟ فقَال: كان «عليُّ بن الحسين» عليه السلام يقُول: عَلَيهم ضِعْفَا العِقَاب[1]. وسُئل «الرِّضَا» عليه السلام: الجاحِدُ منكُم ومن غيْرِكُم سَوَاء؟ فقَال: الجاحِدُ مِنَّا لَهُ ذَنْبَان والمحْسِنُ له حَسَنتَان.[2]

وهـٰكذا الحالُ مع المبتدِعين، المنتَسِبين إلىٰ التَّشَيُّع، الضُّلَّال الذين يُحَارِبُون مَذهَبَ آبائهم ويَتنكَّرون لِدين أجْدَادِهم، فلَا حُبٌّ هنا ولَا كَرامة، فمِن هـٰؤلَاء مَن يُسَوِّغ للجرَائم التي أقترَفَها أعدَاء «آل محمَّد»، ويُنكِر مَصَائبَ وظُلَامات «أهْلِ البيْت» عليهم السلام ويُنَاصِب فضَائلَهم العَدَاء، ويجاهِد ويُكَافِح لِجَحْدِ كَراماتهم وبَخْسِهم مَقَامَاتهم التي رتَّبهُم الله فيها، ويسعىٰ لمحَارَبَة شَعَائر عزائهم والتَّشْكِيك في مَا جَرىٰ علَيهم، وهو بَعْدُ "سيِّدٌ" يَنْتَحِل التشَيُّع ويَدَّعي الوَلَاء لـ «أهْل البيت» عليهم السلام ويَنتَسِب في الظَّاهِر إلىٰ المذهَب الحقِّ!

وفي الحديث الشريف: عن «أبي عبدالله» عليه السلام: قَال: قَالَ «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله: إذا رأيتُم أهلَ الرَّيْب والبِدَع من بَعْدِي فأظهِرُوا البراءَة منهُم وأكْثِرُوا من سَبِّهم والقَوْل فيهم والوَقِيعَة، وباهِتُوهُم، كَيْلَا يَطْمَعُوا في الفَسَاد في الإسلَام، ويحذَرْهُم النَاسُ ولَا يَتَعَلَّمُونَ من بَدَعِهِم، يَكتُبُ الله لَكُم بذلك الحسَنَات، ويَرفَعُ لكُم به الدرجَات في الآخرة.[3]

(١) (أُصول الكافي) لـ «الشيخ الكُليني» ج١ ص٣٧٧.
(٢) (أُصول الكافي) ج١ ص٣٧٨.
(٣) (المصدر السابق) ج٢ ص٣٧٥.

فإذا خَصَّصْتَ مَوْضِعاً للسَّادَة الأشراف في حُسَينيتك، وآثرتَ العلَوِيَّات المكرَّمات بركْن خاصٍّ في مجلِسك... تكُون قد سَاهمتَ في نَشْر هـذه الثَّقَافَة الرَّاقية، وأمرتَ ـ صَامِتاً، مِصْدَاقاً للحَدِيث الشريف: "كُونُوا دُعَاةً لَنَا بغير أَلسِنَتِكُم" ـ بهـذا المعرُوف الخفيِّ، ودَعَوْتَ للعَمَل بهـذه الطَّاعَة الخاصَّة، التي هي من أعمال وصِفَات خُلَّص المؤمنين وسِمات نُخْبتهم، ممَا لَا يُوفَّق لَه إلَّا الصَّفْوَة، من العُلَماء والعُرفَاء، أو البُسَطَاء الأطْهَار، الماضين علىٰ فِطرتهم، ولم يتَلَوَّث نَقَاؤُهُم.

بُنيَّ! إعلَم أنَّ جَوْهَر هـذه الحركَة الإيمانيَّة والسُّلُوك الوَلَائي الممتَاز، وسرَّ إصراري وتأكِيدي عَلَيك، وإطَالَتي الوَقْفَة عليَه، بعد ٱستِحْقَاقه الذاتي، ومَا يَكْتنُه في جَوْهَره من مُسَوِّغات ودَوافع تَدْعُو لَه وتحثُّ علَيه، والرِّسَالَة العَظِيمَة التي يحمِلهَا في إظهَار الوَلَاء... هو لَفْتُ أنظَار أوْلياءِ العَزَاء وأرْبابه الأصلِيين، أي «آل محمد» عليهم السلام.

فأنتَ بُنيَّ في مجلِسكَ، علَيكَ أن تَعْمَد إلىٰ مَا يَلْفِت أنظَارهُم، ويحقِّق رِضَاهُم، ويُوجب عَطْفهم عَلَيك ورأفتهم وعنَايتهم بِك، فيُولُونك منها مَا هُم أهلُه من الجود والكَرَم... فإنَّ إكْرام ذراريهم، وتَبجِيل المنسُوبين إليهم، وتَوقير السيِّدات العَلَوِيَّات (علىٰ الخصُوص)، يبلُغُ ـ ولَا شَكَّ ـ مَولَاتنا «الزهراء» عليها السلام، كَيفَ لَا، ومَا يَشْجُر بين الضرائر من بَنَاتها يَبلُغها؟ ممَا أشَارَ إليه الحدِيثُ الشَّرِيف الذي ينـهىٰ عن الجمْع بين فَاطِمِيَّتَيْن... قَال الرَّاوِي: سَمِعتُ «أبا عبدالله» عليه السلام يقول: لَا يَحِلُّ لأحَدٍ أن يجمَع بين ثنتين من وُلْدِ فاطمة عليها السلام، إنَّ ذلك يبلُغها فيَشُقُّ عليها. قَال: قُلتُ: يبلُغها؟ قَال: إي والله!...[١]

إنَّ إكرامَك العَلَوِيَّات يبلُغ «فاطمة» فيُرضيها... فإذا كان مَدْخَلُ رِضَاهَا عَنكَ وسَبَبُ التفَاتها إليك هُو المجلِس الذي أقَمتَه لِفِلْذَة كَبدِها وأكْرَمتَ فيه ذُرِّيتها، فهـذا يَعني شُمُوله باللُّطْفِ والعِنَاية، ووُقَوعه في القبُول والرِّضا، وذَاك المنىٰ لو أنَّ ذلك يحصل.

بعد مَسْألَة المكَان ومَوْضع الجلُوس وتحدِيده، هناكَ آدابٌ لِطَرِيقَة الجلُوس، وكيفيَّة الاْسْتِوَاء وهَيئَة الاْستِقْرَار في المجْلِس الحُسَيني...

---

(١) (عِلل الشرايع) لـ «الشيخ الصَّدُوق» باب ٣٧٥ ص٥٩٠.

إعلَم بُنيَّ أنكَ - أثنَاء حُضُورك ومَكْثِكَ في المجْلِسِ الحسَيْني - في عِبَادَةٍ عَظِيمَة... لَسْتَ في مجلِس عَادِيٍّ أو دِيوَان أجتِماعي، لِذَا عَلَيكَ أن تَلتَزِم آداباً مُعيَّنة وتَتقَيَّد بِرُسُوم وضَوَابِطَ تحفَظ حُرمَةَ المجلِس، وتجعَلك ممن أوْلىٰ المكَانَ حَقَّه والمقَام عَظمَته، فتَخْرُج بالنَّصِيبِ الأوْفَرِ والحظِّ الأوْفىٰ. والجلُوسُ أنوَاعٌ وكَيْفيَّاتٌ مختَلِفَة...

بعد الفَراغِ من الأمتِنَاع عن مُزاحمَة النـاس، والتِزَام مَسَافَة بينك وبين من يُجاوِرك، فَلَا تُلَاصِقه فتُزعجه أو تُؤذيه... الأصْلُ والمطْلُوب، وأنسَب مَا أرَاه، أن تَكُون جِلْسَتك أقرَب إلىٰ الجُثُوِّ، وهو أن تَثني سَاقَيْك أسْفَل مِنك، وتجلسَ عَلَيهِما، وعلىٰ كَعْبَي قَدَمَيْك، كَجِلْسَة المصَلِّي حَال التَّشَهُّد والتَّسْلِيم. (وإن كَانَ الجُثُوُّ - في اللُّغَة - هو أن يجلِس المرءُ علىٰ رُكْبَتَيْه، ويُقيم علىٰ أطْرَاف أصَابِعِه، لِلْخُصُومَة ونَحْوِهَا، كما في المَعَاجِم). فإن أستَطَعْتَ ذلك، ولم تَعْيَ وتَرْهَق، فهو غَايَة التأدُّب والاحْترام، وإلَّا عَدَلْتَ إلىٰ التربُّع، وهو جمعُ السَّاقَيْن، ووَضْع إحدَاهمَا تحت الأُخرىٰ. ولكَ أن تَقعُد القُرفُصَاء، وهي الجلُوس علىٰ الإليتَيْن وإلصَاقُ الفخِذَين بالبَطْن والإطْبَاق علَيهِمَا وضَمُّهمَا باليَدَين. ولَا سيَّمَا إذا أزدَحَم المكَان وضَاقَ المجلِسُ بأهلِه ورُوَّاده، فإنَّ التَّقَرفُص يُفْسِحُ للآخَرِين ويُخلي لهم مكَاناً أوْسَع، وفيه من التَّوَاضُع مَا يُنَاسِب المقَام ويُوافق الأدبَ المطلُوب.

أمَا إذا كَانَ مَوْضع جُلُوسك في مُحِيطِ المجلِس عنـدَ جُدْرانه، أو عِنـد إحْدَىٰ الأُسطُوَانَات، حَيث تَكُون مُسنِداً ظَهْرك، فعَلَيْكَ بمَزِيدٍ من التنبُّه واليَقَظَة، فالجِلسَة المريحَة المسْتَرخِيَة تُغْوِي الجالِس وتُنسيه خَفَر المكَان وحُرْمة المقَام، فلَرُبَّمَا أخَذَه ذلك إلىٰ الأتكَاء ومَا يَميلُ بجِسْمِه، ويجعَله أشْبَه بالـمُستَلقي أو المضْطَجِع أو المنكَفِئ، يَنْحَني بجِسْمِه حيثُ يتَّكِئ، فكَأَنَّه لَيْسَ في مجلِس عَظِيم ومَقَام خَطِير.

ومما يَنبَغي التَّنبُّه لَهُ والحذَر منه، الأمتِنَاع أيضاً عمَّا يُسَمَّى بالأستِئْجَاز، من أسْتَأْجَزَ علىٰ الوِسَادَة: تحنَّى عَلَيهَا ولم يتَّكِئ، والإجَازُ: أعْتِمادُ الجالِس بِصَدْرِه علىٰ وِسَادَة ونَحْوهَا، دُونَ أتكَاءٍ علىٰ يَمِين ولَا شِمال... فهُنَاكَ مَن يجعَل الوِسَادة في حُضْنِه، ويُريح عَلَيهَا سَاعِدَيْه، وهو من الصُّوَر القبيحَة والأوْضاع المشِينَة المرفُوضَة في الحسَينيَّة، فهي تُظْهِر الجالِس مُستَخِفّاً بالمجلِس مُسْتَهزِئاً بالحضُور!

بل أنا نَاهِيكَ، إن ٱستَوَيْتَ علىٰ مَقْعَد في الحسَينيَّة، من مُجرَّد الأرتفاق، أي الأتكاء علىٰ مِرفَق اليَد، أو إراحَتها علىٰ المخَدَّة أو الذِّرَاع الجانبيَّة للمِقْعَد... إذْ عليْكَ أن تَبْسُطَ سَاعِدَيْكَ وراحَتَيْكَ علىٰ فَخِذَيك، وتجلِسَ بكلِّ أدَبٍ ووَقَار، بمَا يَنُمُّ عن ٱحْترامك وتَعْظيمِك للمكَان، وكأنَّك في حَضْرة أعْظَم سُلْطَان.

وقد رَأيتُ ـ من أعْجَب مَا رأيت ـ في بَعضِ المجالِس ذَاتِ المَقَاعِد المرصُوصَة في محُيط قَاعَة الحسَينيَّة، أو الموْضُوعَة والمنظَّمة في صُفُوف في وَسَطِهَا حتىٰ تَعُمَّ المجلِس بأسْرِه، كما هو الحال في حُسَينيَّات «لُبنَان» و«الشَّام» (إذ يَدْخُلُون المجْلِس بأحْذِيتهم!)... رأيتُ مَن يجلِس ويَسْتَوي علىٰ مقعَده وهو يَضَع أو يُريح رِجْلاً علىٰ أُخرىٰ، وكأنه في مَقهىً أو ٱستراحَة! فإذا "تأدَّب" (كما يَظنُّ نفْسه يَفعَل!) مَدَّ سَاقيه، ثم وَضَعَ قَدَماً وأرْخَاهَا فوْقَ أُخرىٰ! ورأيتُ في مجَالِسنَا مَن يُسنِدَ قدَمَيْه علىٰ دَعَامة المنضَدَة التي أمامه، المعَدَّة لِوَضْع الشَّاي والضِّيَافَة، وكَأنه يَسْتَجِمُّ في دارِه أو يَستَريحُ في خَلْوَته!... وهٰذه بُنيَّ صُوَرٌ سلْبيَّة مَرفُوضَة، يَنبَغي بيَان قُبْحِها ومُكَافحَتها.

السماع والإنصات

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَعْكِفَ نَظَرك علىٰ المنبر، وتَتَوَجَّه إلىٰ الخَطِيب وتَصْرِفَ كُلَّ ٱنتبَاهِكَ لمَا يَقُول، وتُلَاحِقه وتُتَابِعه، وتُومِئ لَه برَأسِكَ إذا حَانَتْ مِنهُ التِفَاتَةٌ إليْك، كَمَن يُجيبُ قَوْلَه بالقَبُول، فتُشَجِّعه علىٰ المزيد. لَا تَنْشَغِل عنه بأيةِ حَرَكَة في المجْلِس، ولَا بِشَيْءٍ من الحدِيثِ الجانِبِيِّ مع أحَد، وإن كَانَ مُختصَراً مُقتَضباً، وبخَفِيضِ صَوْتٍ لَا يُزْعج الحضُور ولَا يَصْرِف ٱنتبَاههُم... ولَا تَنْشَغِل عن الخطِيبِ حتىٰ بالذِّكْر والتَّسْبيح!

فمِن الملَاحَظ أنَّ بَعضَ المؤمنين، يَرىٰ تَوَاضُع مُسْتَوىٰ الخطِيب، ويَشْعُر بٱسْتِغْنَائِه عن المعْلُومَاتِ التي يُلْقِيها، كَوْنها مُكَرَّرة مَعْرُوفَة لَدَيْه، أو لَا تُجاري مُسْتَوَاهُ العِلْمِيَّ ودَرَجَة ثَقَافَتِه، أو من حِرْصٍ علىٰ الظَّفَر بأكثر من عِبَادَة في آن، وٱستِغْلَال الوَقْت بأقصىٰ حَدٍّ... يَعْمَدُ للٱنشِغَالِ بالذِّكْر، فيُخْرج سُبْحَته، ويَبدَأ بتِلَاوَة الأوْرَادِ والأذْكَار! وهٰذا مَرفُوضٌ محظُور، وإن كَانَ همْهَمةً ونَبْساً، اللهُمَّ إلَّا أن يكُون ذِكْراً باطِنيّاً، لَا تتَحَرَّكُ به الشَّفَتَان، ولَا يُقَلَّبُ فيه خَرَزُ السُّبْحَة، ولَا يُؤتىٰ بِشَيءٍ يلْفِتُ النَّظَر ويَصْرِفه عن الخطِيبِ والمنبَر.

فالاْنشِغَالُ بتِلَاوَة الأذكَار، والأحَادِيثِ الجانبيَّة التي تَدُورُ بَيْنَ بَعْضِ الحضُور أحْيَاناً، يُوحي بهَوَان الخطِيب، والاْستِخْفَافِ بمَا يُلقِي، ويحْمِل رِسَالَة إلىٰ بَقِيَّة الجمْع مَفَادُها: أنَّ مَا أنشَغِلُ به خَيرٌ من هَدْرِ الوَقْتِ في الإنصَاتِ لهٰذا الحدِيث (غَيْرِ المجْدِي)! ويتأكَّد كُلُّ ذلك ويُغَلَّظ فيه الأمر، إذا كَانَ مَوْضِع جُلُوسكَ في الصَّدْر، أو إلىٰ جِوَارِ المنبر، حَيْث تَتَوَجَّه الأنظَار، فتَكُون كُلُّ حَركَة مِنك أو سَكْنة علىٰ مَرأىٰ الحضُور ومُلَاحَظَتِهم، علَيكَ أن تُضَاعِفَ من دَرَجَة الاْلتِزَام بجِلْسَتِك وتَزِيد في تَقيُّدك، فلَا تَتثاءَب أو تَتَمَطَّى، ولَا تُغيِّر وَضْعك كُلَّ حِين، ولَا تُبَالغ في الحركَة، ولَا تكثر من الحِكَاك، ولَا تَلْهُو بشَيءٍ تحمِلُه في يَدِك، كَعَلَّاقَة مفَاتيح، ولَا تَلْعَب بِسُبْحَة (بعد حَظْر التَّسْبيح!) تُدِيرها وتُقَلِّبها حتىٰ يُسْمَع صَوْتُ تَسَاقُطِ خَرَزها وتَتَابع نَظْمه في لحَظَاتِ سُكُون الأجْواء وقَرار المجْلس! ولَا تَقُم بأية حَرَكَة تَنِمُّ عن السَّأم والضَّجَر والملَل... لَا أزعُم بُنيَّ أنكَ في صَلَاة، ولٰكن أعلَم أنَّ الملَاكَ وَاحِدٌ، وهو أنْ لَا تأتِ بمَا يخِلُّ بهيئَتك ويَنقُلك من حَاضِرٍ في مَأتم إلىٰ جَالِس في ديوَان أو مقهىٰ! فحِكَاك الظَّهْر ـ مثلاً ـ ومَا يُصَاحِبه من مُبالَغة في لَيِّ الذِّرَاع لبُلُوغ مَوْضِع، يُخرِج عن الهيئة المفرُوضَة!... كُلُّ هٰذا وذاك ممَا يُوهن المجْلس ويُضْعِفه، ويَمسُّ حُرْمته ويَنَالُ من الجلَال الذي يَجِبُ أن يَكُونَ عَلَيه، وأنتَ في دَوْر مَن يُريدُ إحْيَاء الشعيرة وتعظيمها.

بُنيَّ، إيَّاك أن تَسْتَعمِل الهاتف الجوَّال بأيِّ نَحْوٍ خِلَال المجْلس، ولَوْ بمُجَرَّد النَّظَر فيه واْستِعْراضِ محُتَوَياته، نَاهِيكَ بأن تُجِيبَ عن الرسَائل النَّصِيَّة، مُتَذرِّعاً بأنكَ تَقرأ أو تَكْتُبُ، ولَا تتَحَدَّث فتُصْدِر صَوْتاً أو تُزْعِجُ أحَداً أو تُخِلُّ بنَظْم المجْلس.

وإيَّاكَ أن تَصْحَبَ وتَحمِلَ معَكَ في المجْلِسِ كِتَاباً تُطَالِع فيه أثنَاء رُقيِّ المنبر، حتىٰ لَو كَانَ نَشْرة دينيَّة من التي تُوَزَّع علىٰ أبوابِ الحسينيَّات في عَشَرة «عاشُوراء». ففي هٰذا قُبْحٌ لَا يَقِلُّ عن ذاك، وتَعَدٍّ خَطِير يُشْعِرُ الحضُورَ بِهَوَان الخطِيب ويَحمِلِ اْزدراءً ويَعْني اْستخْفَافاً بالقِراءَة التي يَتْلُو والمحَاضَرة التي يُلْقِي. حتىٰ لَوْ كَانَ مُصْحَفاً شَرِيفاً تَتْلُو منه آيَاتٍ من القُرآن الكَرِيم، كَمَا يُلَاحَظ في بَعضِ المجَالِس الرَّمضَانيَّة، إذ تجِد أنَّ بعضَ الحضُور لم يُتِمَّ ويُكْمِل مَا خَصَّصَ من خَتمَتِه في يَوْمه ولَيلَته، فيَسْتَغِلُّ وَقْتَ حُضُوره في المجْلِس، ويَعْمَد إلىٰ قِراءَة القُرآن!

علَيكَ أن تبقىٰ مُسْتَمِراً مُوَاظِباً علىٰ عَقْدِ المقَارنَة، بين حُضُورِكَ في المجَالِس الاجتِمَاعِيَّة، أو دَوَاوِين الأمراء والحكَّام، وكَيفَ سَيَكُون فِعْلُك وتَصرُّفك هنَاك في حَضْرتهم! وبينَ حُضُورِكَ في مجلِسِ «الحسين» عليه السلام، وكَيفَ عَسَاكَ تُولي المكَانَ احْتِرامَه وتَبْجِيلَه؟ فلَا تجعَل مجالِس الدنيَا، ودَواوينَ ذَوِي الجاهِ والمال، ومحَافِلَ أهْل السُّلْطَة والنفُوذ والنقُود، أعظَمَ خَطْباً عندَكَ وأجَلَّ خَطَراً لدَيْكَ من مَجلِسٍ يحفِلُ بالمؤمنين الموَالينَ وتَحضُره الملَائكَة، ولَرُبَّمَا شرَّفه وَليُّ الأمر الحقيقي «الحجَّة بن الحسَن» عليه السلام! لِذَا تَلْزَم الحيطَة ويجِب الحذَر في أقصىٰ درَجَاته، وكأنَّ «المولىٰ» الذي عَقَدْنَا له المأتم، ومَخدُومنا الأعظَم «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام حَاضِرٌ نَاظِرٌ، يَرقُبُ ويُسَجِّل، والآثار تَترَتَّب علىٰ مَا يَرىٰ منَّا ويَشْهَد.

أمَا مَا أعُدُّه في الفَظَائع والموبقَات في هذا الباب، فَهُوَ إجْراءُ المكَالمات الهاتفيَّة، والاتصَال أثناء القِراءَة، ممَا فَشَا مُؤخَّراً وشَاع!... وهو ممَا يَدْخُلُ في الجرأةِ والإهَانة. وقد تجِد بَعْضَهُم من الوَقَاحَة أن يَرُدَّ علىٰ اتصَال هَاتِفيٍّ يأتيه أثنَاء القِراءَة، فيَختَلِط الحديثُ علىٰ المتَّصِل به بَسَبَبِ مُكَبِّراتِ الصَّوْت في المجْلِس، لِيَرفَع هذا من نَبْرته، فَتَتَوَجَّه إليه الأنظَارُ باستِنكَار، وهو لَا يُبَالي ولَا يَكْترِث! ثم تكْتَشِف أنَّ الاتصَال لم يكُن لمسألة خَطِيرة أو أمر مُلحٍّ عَاجِل، إنَّمَا لتَافِهٍ يحتَمِل التَّأجِيل، بل هو ممَا لَا طَائل منه ولَا حَاجَة فيه أصْلاً!

وهكذا مَا لُوحِظَ في الأيام الأخِيرة، مع ظُهُور الهواتف النقَّالَة ذاتِ القُدْرة علىٰ الاتصَال بشبكَة الإنترنت، فتجِد الشَّاب وهو في المجْلِس الحسينيِّ (ولَا سيَّمَا في المجالِس الكَبيرة المترامِيَة الأطْراف)، متَّصِلاً بالإنترنت (شابِكاً)، مُتَوَاصِلاً مع آخَرين في الخارج، سَوَاء في مَوَاقع إلكترونيَّة أو شَبكَات تَوَاصُل، لَاهِياً عن المجْلِس وأجوائه!

في المقابِل، هناكَ أداةٌ يعِينُ الخطِيبَ ويُسْعِفه في قِراءَته ويُشْعِره بالحضُور ويَدْفَعه إلىٰ مَزيدٍ من العَطَاء، مَا يُضْفِي علىٰ المجْلِس الألق وسِماتِ النَّجَاح، ويُخرِجه من الرتَابة والجمُود، إن صَحَّ التعبير، إلىٰ الحِراك الإيجابي... كالتَّفَاعُل مع الأبياتِ التي يُنشِدُها الرَّاثي، فإن كُنْتَ تحفَظهَا، قَفَّيْتَ معَه، وإلَّا أعَنْتَه بترديدِ الأنين، وجَوَابِ الحنِين الذي يَبثُّه الرثَاء ويَبعَثه الإنشَاد، وهكذا إذا كَانت خِطَابته علىٰ نَحْوِ إثارة السُّؤال، وطَرِيقَة مَن يَطْلُب الإجَابة من مُستَمِعِيه، أجَبتَه وأعَنْتَه.

إنَّ حُسْنَ السَّماع والإنصَات للمَجْلِس والإصْغَاء للخَطِيب فيه خَيْرٌ كَثِيرٌ للمُسْتَمع، وفَوَائدُ جَمَّة للحُضُور، ولكن مَا يَدْفَعني ويَبعَث فيَّ الحِرْصَ علىٰ تأكِيدِه، هو حِفْظ هَيْبَة المجْلِس ووَقَاره، أكثر من ٱستِفَادَة المسْتَمع، التي أجْعَلُها في المرتَبة التَالِيَة، فنَحْنُ نُقِيمُ شَعِيرة تُحيِي ذِكْرىٰ، وجُلُّ همِّنا وحِرْصنا أن يتحَقَّق الإحْيَاء، وهٰذا يَقْتَضِي هَيئةً عَلَيْنا بلُوغها وإصَابتها، وشَكْلاً وظَاهِراً يجبُ إبرازُه والحِفَاظ علَيه.

نَظْمُ المجْلِسِ وهَيْبَتُه

إنَّ أيَّ سُلُوك يَنتَهي إلىٰ الإخْلَالِ بِشَكْل المجلِس ويَمَسُّ تبلْوُره وظُهُوره كَشَعِيرة مُقَدَّسة، هو مَرفُوضٌ ممنُوع... من هُنَا، يجبُ أن يكُونَ المجلِسُ الحسينيُّ مَنَظَّماً ومنْضَبطاً، وأن يَكُونَ مَهيباً، حتىٰ يبلُغ الصُّورة التي تُحقِّق الإحْيَاء، ويُمَثِّل الشَّعِيرِيَّة... يَتَميَّزُ عن غيْره، وتَحكُم ضَوَابِطُه، وتَتَبَلْوَر صُورتُه، ويتَشَخَّصُ ويَنْفَرد بمَزَاياهُ وخَصَائِصُه، فيرتَسِم كَحَدَثٍ يختلِفُ عن غيْره من المجَالِس والمحَافِل، ٱجتماعيَّة كَانت أو دِينيَّة.

هُنَاكَ آليَّاتٌ عَلَيْكَ العَمَل بها، وشَرائط تجِب مُراعَاتها، تَقْطَع بها الطَّرِيقَ علىٰ تَكَوُّن الصُّورة المخلَّة والوَضْع المهين أو المشِين، وتمضي بالمجْلِس نَحْوَ مَا يُحقِّق هيْبته، ويُبْرِز وُجُوده، ويُبَلْوِره عِبَادَة من أعظَم شَعَائر الله...

ضَبْط الحركة داخِل الحسينيَّة:

أُمورٌ من قَبيل ضَبْط الحركَة داخِل الحسينيَّة ـ أثنَاءَ القِراءَة ـ وتَقْلِيلها وحَصْرِها في أضْيَق نِطَاق، بل قَطْعِها تماماً... فلَا تَسْمَحَ أن يَتَجَوَّلَ أحَدٌ في الحسينيَّة ويَتَردَّد في قاعتها جيئَة وذِهَاباً أثناءَ القِراءَة والإنشَاد. لَيْسَ لِشَخْصٍ أن يُشَتِّتَ ٱنتِبَاه الحضُور ويَصْرِف تَركِيزَهُم وتَوَجُّههم لمَا يُلْقِيه الخَطِيب، ويُرْبك ٱنتِظَام المجلِس ووَقاره، بحَركَتِه دَاخِل الحُسينيَّة، فيقُوم وَسَطَ المجلِس، أثنَاءَ القِراءَة، ويتَوَجَّه إلىٰ الخارج ليَقْضِي حَاجَة مثلاً، أو يَرُدَّ علىٰ مكَالمة هاتِفِيَّة جَاءَته، أو لأيِّ غَرَضٍ وأمْرٍ لِيْسَ مُلِحّاً وطَارِئاً حَقّاً، لا يحْتَمِل التأجيل ولَا يُطِيق الٱنتِظَار... إنَّ أمثَالَ هٰؤلَاء، الذين لَا يُرِيدُون الٱلتِزَام، ويَصْعُب عَلَيهم التقَيُّد والٱنضِبَاط علىٰ مَدَىٰ قراءَة المجْلِس وفَتْرة رُقِيِّ المنبر، أو يَتَوَقَّعُون ويَرتَقِبُون مَا يَقْطَع وُجُودَهُم في الحسينيَّة ويخلُّ بجلْسَتهم وٱستِقْرارِهم في أمَاكِنِهم التي ٱتخذُوهَا...

عليْهِم أن يتنحَّوا جَانِباً من البدَاية، قَبْلَ الشُّرُوع في القِرَاءَة، ويختَارُوا لأنفُسِهِم مَواضِعَ قَرِيبَة من أبوابِ الحُسينيَّة ومَخَارِجها، حتىٰ لَا تُشَكِّل حَركَتُهم، حينَ يُرِيدُون الخرُوجَ، إربَاكاً في نَظْم المجْلِس، ومَسّاً بهيْبتِه. وهـٰكذا الأمرُ في الأطفَال ومَن يَستَصْحِبهم، الذين يَشُقُّ علَيهم اللبْث والقَرار في مكَان وَاحِدٍ لِفَترة طَويلَة، ولَا سيَّمَا إذا كَانوا ممن بَكَّرَ في التوَافُد علىٰ الحسينيَّة وحَضَرَ قبلَ ميعَادِ رُقيِّ المنبر بفَتْرة طَويلَة.

حُضُور الأطفَال في الحسينيَّة:

إعلَم بُنيَّ أنَّ من أصْعَب مَا سَتُلَاقي وتُعَاني في حِفْظِ نَظْم المجلِس وإدَارته هو حُضُور الأطفَال! ذلك أنهُم عُنْصُرٌ غير منْضَبِطٍ ولَا يُمكِنُ التَّحَكُّم في سُلُوكه وحَركَته، وإن أمكَنَ ضَبْطُه في مَوارِد وأماكِن وبدَرَجَة، فهوَ سَيُفْلِت ويعصىٰ في أُخرىٰ! إنَّ حركَة الأطفَال أمرٌ مُزْعج فِعْلاً، وسَبَبٌ للفَوْضىٰ، وربَّمَا لإفسَادِ المجْلِس والإخْلَالِ بالشَّعِيرة، هـٰذا في مجالِس الرِّجَال، أمَا النِّسَاء، فحَدِّث ولَا حَرَج! وهُنَاك سُؤالٌ عَسيرٌ يتَوَجَّه إلىٰ الأُمهَاتِ المؤمنَات، عن كَيفِيَّة ضَبْطِهنَّ الأطفَال وتمكُّنِهنَّ من إسْكَاتِهم ومَنعِهم من الحركة وإثَارة الفَوْضىٰ، في الأعْراسِ والمحَافِلِ العَامَّة الأُخرىٰ، مقَابِل عَجْزِهنَّ وتهاوُنهنَّ في الحسينيَّات؟!

هـٰكذا ظَهَرَت فِكْرة جَمْع الأطفَال وحَصْرهم في رُكْنٍ مُنعَزِل، وتَنظِيم بَرامجَ، ثم "مجالِسَ" لهم خَاصَّة!... وهـٰذا مما عَلَيكَ الحـذَر منه والتنبُّه إليه، واليقَظَة أن تَقَعَ فرِيسَة له، فإلىٰ جانِب حَسَنِي النيَّة وخَيِّري القَصْد في هـٰذا التوجُّه، هنَاكَ خُبَثَاء أشقِياء من أعدَاءِ الشَّعَائر الحسينيَّة، من دُعَاة "الإصْلَاح" والانقِلَاب المبطَّن علىٰ المذهَب، فهُم، بعدَ اليَأسِ من هـٰذا الجِيل الذي تغَذَّىٰ من الموروُث الأصيل للوَلَاء ومَعَانِيه، وإفلَاسِهِم ممن نَشَأ علىٰ مفَاهِيمه ومَظَاهِره وشَعَائره، عَمَدُوا إلىٰ استراتيجِيَّة وخِطَّة جَدِيدَة بعيدة المدَىٰ، تَقُوم علىٰ تَنْشِئة جِيلٍ جَدَيد، يَترَبَّى ويتَغَذَّىٰ علىٰ مَا يُريدُون، وفي الأقلِّ، يَنْفَصِلُون بهم ويُبعِدُونهم عن أجْوَاء الحُسينيَّات! حتىٰ أقَامَ بَعْضُهم مجَالِس حُسينيَّة للأطْفَال خَاصَّة! ومع الأسَفِ، اغْتَرَّ بَعْضُ السُذَّج ببريق العُنْوَان، وجَذَبَه زُخرُف الشِّعَار، وانطَلَت علَيه الحِيلَة، فصَارَ يُرسل ابنَه (إذ تُعْقَد هـٰذه المجالِس عصْراً) ليَتَغَذَّىٰ من فَاسِدِ أفكَارِهم، بدَعْوَىٰ تَفرُّغه هو للعَزَاء مَسَاءً!

وهي بِدْعَة مُحدَثَة، فيها لَبْسٌ شَيْطَانيٌّ وتَغريرٌ إبليسيٌّ خَطِير!

لَا يَنبَغي للمُؤمن الكَيِّس الفَطِن أن يُخدَع عن وَعْيِه، فتَأخُذه الوَهْلَة الأُولىٰ من هَامِش الحقِّ الذي يَكْتَنِفُ هٰذه الفِكْرة البرَّاقة، ولَا أن يُستَدرَج بِظَاهِرِ الصِّيغَة العَمَلِيَّة التي تُنَادِي بها هٰذه المقُولَة، وقد تحسَّسَ من قَبْلُ وعَاشَ المعَاناة من أسْبَابِها، فيَحْسَبُ الخيْرَ فيها، ويَرىٰ عِلَاج المشْكِلَة في وُجْهَتها وأُطرُوحَتها.

إنَّ البيئَة عُنْصُرٌ أسَاسٌ في التربيَة والتَنْشِئَة، والفَضَاءُ الذي يَعِيشُه الطِّفلُ في الحسينيَّة، والأجْوَاءُ التي يَنْغَمِر فيها، هي رَافِدٌ عَظِيمٌ في بنَاءِ شَخْصِيَّته الفِكْرِيَّة وصَقْل هُويَّته العقَائديَّة، وسَوْقه وهَدْيه إلىٰ مُستَقْبَله الدينيِّ المأمُول... لقَد نَشَأنا جميعاً، ونَشَأتَ أنتَ بُنيَّ وتَرعْرَعْتَ منذُ نعُومَة أظْفارك في هٰذه الأجَوَاء، تَسْمَعُ خِطَاباً لَا تفْقَهه، وتَرىٰ مَشَاهِدَ لَا تُدْرِك مَعَانِيها، وتَحضُر أحْدَاثاً، وتمارِسهَا، من بُكَاءٍ ولَطْم وجَزَع وصَيْحَة، دُونَ أن يُقَدِّم لكَ أحَدٌ تفسِيراً وتَعْلِيلاً لها، أو أن تَقِفَ علىٰ عِلَّة وفَلْسَفَة وقراءَة عِلميَّة، نَاهِيكَ بأن تُدرِك عُمْقَها وتكْشِفَ شَيئاً من أسْرَارِها، اللهُمَّ إلَّا عَنَاوِين عَامَّة تَدُورُ في نِطَاق: قَتَلُوا «الحسين» مَظْلُوماً، و«العبَّاس» بَطَلٌ ضِرْغَام، و«زَينَب» سُبِيَت إلىٰ «الشَّام»، ونَحْنُ شيعَة، وهٰذه هُوِيَّتنا وإحْيَاءُ «عَاشُورَاء» من مَعَالِمِ دِيننا ومميِّزات مَذْهَبنا... هٰذا مَا كُنتَ وكُنَّا نَعْرِفه من الحسينيَّة، ومَا يَرسَخُ في الأذهَان ويَسْتَقِرُّ في الوُجْدَان.

ولَا تحسَبنَّ هٰذا هَيِّناً يَسِيراً، بل هو عِندَ الله عَظِيم!

إنَّ لِكُلِّ مَذْهَب ومَدرَسَة شِعَاراً وعَلَامَة، وفي الأحَادِيثِ الشَّرِيفَة إشاراتٌ وتوجيهاتٌ إلىٰ هٰذا المفروض البديهي، علىٰ نَحْوِ تحديد العَلَامة ورَسْم الشِّعَار، كَالرِوَايات التي تَذْكُر "عَلَامَات المؤمن"، والعَلَامَات شَيءٌ آخر غير الصِّفَات، وإن أُطلِقَ عَليهَا العُنوَان نَفْسُه أحيَاناً. فَعَن «أبي محمَّدٍ الحسَن العسكَرِيِّ» عليه السلام أنه قَال: عَلَامَاتُ المؤمن خمَس: صَلَاةُ إحْدَىٰ وخمسين ، وزِيَارةُ الأربَعِين ، والتَّخَتُّمُ في اليَمِين، وتَعْفِيرُ الجبِين، والجهْرُ بِبِسْمِ الله الرَّحمٰن الرَّحيم. (١)

(١) (رَوْضَة الوَاعِظِين) لـ «الفتَّال النيسابوري» ص١٩٥.

ولَكَ أن تَقِفَ علىٰ خَطَر المَوْضُوع، من أُصُول وقَوَاعِدَ يَعْمَل بها المخَالِفُون والنُّصَّاب، فالأشياءُ - هُنا - تُعْرَفُ بأضْدَادِهَا، كإصْرَارهم في الصَّلَاةِ علىٰ «النَّبيِّ» بالبَتْراء، وعَدَم ذِكْر «آله» الأطْهَار، علىٰ الرَّغْم من تَمام الدَّلِيلِ عِندَهُم، ومَا ذلك إلَّا لأنه أصْبَحَ من عَلَامَات التَّشَيُّع أو الرَّفْض، كمَا يَحْلُو لهم أن يُطلِقُوا عَلَيْنَا، وقد التمَسَ بَعض عُلَمائهم المخْرَج بَأن يَذْكُر المصَلِّي علىٰ «النَّبِيِّ» «الآل» مَعَهُ مرَّة ويترك ذلكَ أُخرىٰ، أي لَا يَلْتَزِم به علىٰ الدوَام كمَا يَفْعَلُ الشِّيعَة، لإظهَارِ الفَرْق والتمييز وعَدَم الخلْط! وقَد صَرَّح جُملَة من عُلَمائهم (منهم «الغزَّالي») وقَالُوا، مَا مُؤدَّاه، إنَّ إظْهَار الفَرَح والسُّرور بـ «عَاشُورَاء» سُنَّةٌ أُموِيَّة وبِدْعَة يَزِيدِيَّة يجبُ الاجتِنَاب عَنهَا، وفي المقَابِل يَتَحَفَّظُون ويَتَوَقَّفُون، بل يُحَرِّمُون قِرَاءَة رِوَاية مقتَل «سيِّدِ الشُّهَدَاء» عليه السلام، لأنَّ ذلكَ يَنْجَرُّ إلىٰ إثَارة الشُّكُوك في الصَّحَابة، وفي ذلك نَيْلٌ من إحْدَىٰ عَلَامَاتِ أَهْلِ السُّنَة والجماعَة، أي تَنْزِيهِ الصَّحَابةِ وحُرْمَة مَسِّهم! وذَكَرَ «الزمخشَرِيُّ» في تَفسِير قَوْله تعَالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾، أنه يجوز بمقتضىٰ هذه الآية أن يصلىٰ علىٰ آحَادِ المسلِمين، ولكن لمَا اتخذَتِ الرَّافِضَة ذلك في أئمَّتِهم، مَنَعْنَاه! وقَالَ مُصَنِّفُ ‹الهدَاية› - من الحنَفِيَّة - إنَّ المشرُوعَ (هو) التَّخَتُّمُ باليَمِين، لكن لَمَّا اتخذَتهُ الرَّافِضَة عَادَة، جَعَلْنا التَّخَتُّم في اليَسَار! وأمثالُ ذلك كَثير.[1]

فانظُر إلىٰ أهميَّة أمْرِ "الشِّعَار" وخَطَرِه، وعُمْقِ مَا يتَمَسَّكُ به أربابُ المذاهِبِ الأُخرىٰ، وإن ظَهَر لهم فَسَادُه وثبَتَ بُطْلَانه، وقَامَ الدليلُ علىٰ خَطَئِه، لكنهم يَغَارُونَ علىٰ مَذهبهم ويَتَعَصَّبُونَ لِباطِلِهم... بينَمَا بعضُ المؤمنين يَضْعُفُون ويَهِنُون وهُم الأعلَوْن دَلِيلاً وحُجَّة، ولَيسَ في مَذْهَب التشَيُّع ومَدرَسَة «أهلِ البَيْتِ» أدنىٰ عَيْب وأقَل مَطْعَن، ولَا شَائبَة تَنالُ من عَلَاماتِه وشَعَائِره، ولكن لعَمْري، إنهم كَمَا قَال «أميرالمؤمنين» عليه السلام: صَاحِبُكُم يُطيعُ الله وأنتُم تَعْصُونَه، وصَاحِبُ أهْل «الشَّام» يَعْصِي الله وهُم يُطِيعُونَه!

---

(١) عن ‹شرح منهَاج الكَرامة› للمُحقِّق «السيِّد علي الميلاني» ج١ ص٣١٠. وللمزيد راجع الجزء العاشر من ‹الغدير› لـ «العلَّامة الأميني»، و‹نهج الحق› لـ «العلَّامة الحلي»، و‹إحقاق الحق› لـ «الشهيد الثالث القاضي سيد نورالله المرعشي التستري»، فقد ذُكِرَتْ هناكَ مَوارِد العِنَاد في فَتَاوىٰ القَوْم وأحكَامهم، التي ارتكَزَت علىٰ منطَلَق ما اتُّخِذ شِعَاراً وصَارَ عَلَامة تميِّز المذاهب عن بَعضِها. فتأمَّل في قُبح إصرار بعض الشيعَة علىٰ تمييع هُوِيَّة المذهَب الحق، وتَدبَّر كَم يُجْرِم مَن يَعْمَد لِطَمْس مَعَالِمه وتَشْويه عَلَاماته والتنكُّر لشِعَاراته؟!

ولعلَّ البَحْثَ في هذا كالبَحْثِ في البَديهي، ولكنه غَدَا نَظَرِيّاً يفتَقِر إلىٰ الدَّليل والبرهَان لِفَرْط الغَفْلَة، أو من كثرة التشْكِيك والوَسْوَسة! لقَد أمَر الإسلَام بأنَّ يُعلَّم الطِّفْل الصَّلَاة وهو ابن سَبْع، ويُضْرَب عَلَيهَا وهو ابنُ تِسْع! وأمرَ «الصادق» عليه السلام أن نُعلِّمَ أولَادنا الحدِيثَ قبل أن تَسْبِقهُم إلينا «المرْجئَة»! وأن نُعَلِّمهُم شِعْر «العَبْدِي»!...[1]

---

(١) هو «أبومحمد سُفيَان بن مُصْعَب العَبْدي الكُوفي»، تَرْجَم له «العلَّامَة الأميني» في (الغدير) فكتَبَ رحمه الله:

من شعَراء «أهل البيت» عليهم السلام، المقبُولين عندَهُم لِصِدْق نيَّته وانقِطَاعه إليهم، وقد ضَمَّنَ شِعْره غير يَسِير من مناقب مَولَانا «أميرالمؤمنين» الشَّهيرَة، وأكثرَ من مَدْحِه ومَدْح ذُرِيَّته الأطيَبين وأطَاب، وتَفَجَّعَ علىٰ مَصَائبِهِم ورثَاهُم علىٰ ما انتَابهُم من المحَن، ولم نَجِد في غير «آل الله» له شِعْراً.

عَدَّه «شيخ الطايفة» في (رجَاله) من أصحَاب «الإمام الصَّادِق»، ولم تَكُ صُحبته مجرَّد أُلفَة معه، أو محْض اختِلَاف إليه، أو أن عَصْراً وَاحِداً جمعهما، لكنه حَظيَ بزُلْفَة عنده، مُنبَعِثَةٍ عن صَمِيم الوُدِّ وخَالِص الوَلَاء، وإيمان لا تَشُوبه أيُّ شَائبة. حتىٰ أمرَ «الإمام» عليه السلام شيعته بتَعلِيم شِعْره أولادَهُم، كما رواه «الكشّي» في (رجَاله) ص٢٥٤ بإسنَادِه عن «سماعَة» قال: قالَ «أبوعبدالله الصادق» عليه السلام: "يا مَعْشَر الشيعَة علِّموا أولادكُم شِعْر «العبدِي» فإنَّه علىٰ دين الله" . ويَنِمُّ عن صِدْق لهجَته، واستِقَامة طَرِيقَته في شِعْره، وسَلَامة مَعَانيه عن أيِّ مَغْمَز، أمْرُ «الإمام» عليه السلام إياه بنَظْم ما تَنُوحُ به النِّسَاءُ في المأتم.

وكانَ يأخُذ الحديثَ عن «الإمام الصادِق» عليه السلام في منَاقِب «العترة الطَّاهِرة»، فينْظِمه في الحَال، ثم يَعْرِضه علَيه، كما رَواه «ابن عيَّاش» في (مقتَضَب الأثر) عن «أبان بن عمَر» خَتَن (أي صِهْر) «آل ميثم» قال: كنتُ عند «أبي عبدالله» عليه السلام فدَخَل عليه «سُفيان بن مُصعَب العَبدِي» قَال: جعلَني الله فِدَاك، ما تقُولُ في قَوْله تَعَالىٰ ذِكْره: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾؟ قال: هُم الأوْصِيَاءُ من «آل محمَّد»، الاثني عَشَر، لا يَعرِفُ الله إلَّا من عَرَفهم وعَرَفُوه. قال: فما الأعْراف جُعِلْتُ فِدَاك؟ قال: كَثَائب من مِسْك عَلَيها «رسُولُ الله» و«الأوْصِياء»، يَعرِفُون كُلَّاً بسيماهُم. فقَال «سُفيان»: أفلَا أقولُ في ذلك شَيئاً؟ فقال من قَصِيدَة:

وأنتم وُلاة الحَشْر والنشْرِ والجَزاء * وأنتم لِيَوْم المَفْزع الهَوْل مَفْزَع
وأنتُم علىٰ الأعْراف وهي كَثَائبٌ * من المِسْك ريَّاهَا بِكُم يتضَوَّع
ثمانيَة بالعَرْش إذ يَحْمِلُونه * ومن بَعدِهم في الأرض هَادُونَ أربَع

والقَارئ إذا ضَمَّ بعضَ ما ذكْرنا من حَديث المترجَم له إلىٰ الآخر، يقِفُ علىٰ رتْبة عَظيمة له من الدين، يقْصُر دُون شَأْوِها الوَصْف بـ "الثِّقة" ، ويُشَاهَد لَهُ في طَيَّات الحديث والتأريخ حُسْنُ حَالٍ وصِحَّة مَذْهَب تفُوق شُؤون (يُرادأُصُول ومنَابع أو قِمَم) الحِسَان، فلَا مَجَالَ للتَّوقُّف في ثِقَته كما فَعَلَه «العلَّامة الحلِّي»، ولا لِعَدِّه من الحِسَان، كما فعلَه غَيره، ولا يبقىٰ لِنسْبته إلىٰ الطيَّارة (أي الغُلُوِّ والارتفَاع في المذهَب) وَزْنٌ كما رآه «أبوعمر» و«الكشِّي» في شِعْره، ولم نجِد في شِعْره البالغ إلينَا إلَّا المذهَبَ الصَّحِيح، والوَلَاء المحْض لِعِتْرة الوَحْي، والتشَيُّع الخالِصَ عن كلِّ شائبة سُوء. ويزيدُكَ ثِقةً به واعتماداً علَيه، رِوَاية مثل «أبي داود» (وهو) «المنشد سُلَيمان بن سُفيان المستَرِق» المتَسَالَم علىٰ ثِقَته عنه، و«أبو دَاود» هو شيْخُ الأثبات (جمع الثَّبْت) الأجِلَّة، نُظَراء «الحسَن بن محْبُوب»، و«محمَّد بن الحسين بن أبي الخطَّاب»، و«علي بن الحسين بن فضَّال». ◄

وإنَّ إفرَادَ مثل «الحسين بن محمَّد بن عليّ الأزدي الكُوفي» المُجْمَع على ثقته وجَلَالَته، (إفرَادُه) تأليفاً في أخبَار المترجَم لَه وشِعْره، وقد عَدَّه «النجاشي» في (فهرسته) ص٤٩ من كُتُبِه، (إنَّ هذا) يُؤذِن بمَوْقفِه الشَّامخ عند أعَاظِم المذهَب، ويُنْبئُ عن إكْبارِهم محَلَّه من العِلْم والدين.

إنَّ الوَاقِفَ على شِعْرِ «العبدي» وما فيه من الجَوْدَة، والجزالة، والسهُولَة، والعُذُوبة، والفَخَامة، والحَلَاوة، والمتَانة، يَشْهَد بنبُوغه في الشِّعْر، و تَضَلُّعِه في فنُونه، ويَعتَرفُ لَه بالتَّقَدُّم والبرُوز، ويَرَىٰ ثَنَاءَ «الحميَري» سيِّد الشُّعَراء، علَيه بأنه "أشعَرُ الناس" (جَاءَ) من أهْله (ووَقَع) في محَلِّه...

روَىٰ «أبوالفرَج» في (الأغاني) ج٧ ص٢٢ عن «أبي داود المسترق سليمان بن سفيان»: إنَّ «السيِّد» و«العبْدِي» اْجتمعا فأنشَدَ «السيِّد»:

إنِّـــي أدِيــــنُ بـــما دَانَ «الــــــوَصيُّ» بـــــه
يَـــوْمَ «الخـــريـبَـــة» مـن قَـتْلِ المحلِّـيِـنَـــا
وبـــــالَّـــــذِي دانَ يَــــوْمَ «الـنَهْـــرَوان» بـه
وشَــــارَكَـتْ كَـفُّه كَــفِّـي بـ «صِفِّـيـنـــا»

فقَالَ لَه «العَبْدِي»: أخْطَأت، لو شَارَكَت كَفُّكَ كَفَّهُ كُنْتَ مِثْلَه، ولكن قُل: تابعَت كفُّه كَفِّي، لتكُونَ تَابعاً لا شَريكاً! فكَانَ «السيِّد» بعد ذلك يَقُول: أنا أشْعَرُ الناس إلَّا «العَبْدِي».

وإنما أطَلْتُ بُنيَّ في هذا الهامِش وأسْهَبْت، لسَببَيْن: الأول: الدِّفَاع عن هذا الموالي المظلُوم، فلَعَمْري كلَّما أخلَص عَارِفٌ في وَلائه، وأحْسَنَ عَرْض فضَائل ومَقَامَات «أهل البيت» قُذِفَ ورُمِيَ بالغُلُو! (وهذا ما لحِق «الحافظ رَجَب البرسي» كَذَلك! وقد أنبرىٰ المرحُوم «العَلَّامة الأميني» للدِّفَاع عنه في (الغدير).)

الثاني: أن أستَشْهِدَ لكَ وأنا أنقل حِكَاية شِعْر «العَبدي» مع «أُم فرْوَة»، ففي القِصَّة حِكْمَة ورسَالَةٌ تفيدُكَ في إحْيَاء الشَّعَائر! إذ اْستَنْشَد «الإمامُ الصادق» عليه السلام «العَبْدِيَّ» شعْره كما في رِوَاية (رَوْضَة الكَافي) بإسنَادِه عن «أبي داود المسترق» قَال: دخَلْتُ على «أبي عبدالله» عليه السلام فقَال: قُولُوا لـ «أُم فروة» (اْبنة «الإمام» عليه السلام): تجِيء فتَسْمَع ما صُنِعَ بجَدِّها. قال: فجَاءَت، فقعَدَت خَلْفَ السِّتْر، ثم قَال: أنشِدْنا.

قال: فقُلْتُ: «فرْوُ» جُودي بدَمعِكِ المسكُوب..........

قال: فصَاحَت، وصِحْنَ النِّسَاء، فقَال «أبوعبدالله» عليه السلام: الباب الباب. (أي اْحفظُوا الباب)! فاْجتَمَع أهلُ «المدينة» على الباب. (فكَم تُرَاهَا بلَغَت صَيْحَة العَلَويَّات وكيف كَانَت، حتىٰ جمعَت أهلَ «المدينة»)؟!

قَالَ: فبَعَثَ إليهم «أبوعبدالله»: صَبيٌّ لنا غُشِيَ عليه، فصِحْنَ النسَاء.

يَذْكُر «المولىٰ محمد صالح المازندراني» في (شَرْح أصول الكافي) ج١٢ ص٢٨٧ في شرح هذا الحديث:

قوله: عن [«سُفيَان بن مُصْعَب العَبْدي»] شَاعرٌ كُوفيٌّ من أصحَاب «الإمام الصادق» عليه السلام، وفي رِوَاية قال له عليه السلام: قُلْ شِعْراً تنُوح به النِّسَاء، وفي أُخرىٰ قَال عليه السلام: يا مَعشَر الشِّيعَة علِّمُوا أوْلادكُم شِعْر «العَبْدي» فإنه علىٰ دِين الله. [فقال: قولُوا لـ «أُم فروة»] قال «الأمين الأُستَرابادي»: «أُم فروة»: من بناتِ «الصادق» عليه السلام كما صَرَّح به في (إعْلَام الوَرَىٰ) وغيره، [«فَرْوُ» جُودي] أي يا «فَرْوَة»، فحُذِفَ حَرْف النِّدَاء والهاءُ للترخيم، [الباب الباب] أي أغلِقُوا الباب أو اْحْفَظُوه [فبعَثَ إليهم «أبو عبدالله» عليه السلام: صَبِيٌّ لَنَا غُشِيَ عَلَيه، فَصِحْنَ النساء] النِّسَاء بَدَل من الضَّمِير، قيل: هذا القَوْل إما للتَّقِيَّة، أو لبيَان الوَاقع في تلك السَّاعَة من صَيْحَتِهن، أو المراد بالصَّبيِّ مَن صَارَ شَهيداً في «كَرْبَلا» في حِجْرِ «الحسين» عليه السلام بِسَهْم العدوِّ. ■

كُلُّ ذلك لِتَرسيخ المَبادِئ الحقَّة ونَقْشِها في صَفْحَة وُجْدَان الطِّفْل، لِيَنْشأ عَلَيها ويَتَمَسَّكَ بها... ولَا يُنْظَر إلىٰ تَشكِيكَاتِ بَعضِهم ومَا يُثِيرُونه من شُبُهَات شَيْطَانِيَّة، من أنَّ المفرُوضَ أن نُعَلِّم الأطْفَالَ أهْدَافَ «الحسَين» ونُوَضِّحَ لهم فَلْسَفَة نهضَتِه وعُمْق حَرَكَتِه! لَا أنْ نَصْرِفهُم إلىٰ اللَّطْم والبكَاء (ومن الغريب أنهم لَا يَردُّون علىٰ مَسْألة التلقِين والغَرْس التي يأمرُ بها الإسلَام في أمْرِ الصَّلَاة، ولَا تَثُور ثَائِرتُهم وتَذْكُو همَّتُهم إلَّا في الشَّعَائر الحسينيَّة!). إنهُم ـ في الحقِيقَة ـ لَا يعْرِفُونَ فَلْسَفَة لـ «عَاشُوراء» ولَا يَمْلِكُون فِكْراً دِينيّاً يَصْلُح أن يُقدَّم للطِّفْل، قَدْر مَا يُبيِّتُون من نِيَّات شَرٍّ وسُوء، يُرِيدُون إبعَادَه بها عن فَضَاءِ الحسينيَّة وأجْوَاء الشَّعَائر، وفَصْلِه عن بِيئَتِه وحَاضِنَتِه، فينفَرِدُونَ به مع أفكَارِهم الشَّاذَّة وآرائِهم المنحَرِفَة... لذَلك أسَّسُوا مجَالِس الأطْفَال. وإن عِشْتَ أراكَ الدَّهْر عجَباً... فَلَا تَسْتَبعِد أن يخرُجَ لَنَا هٰؤلَاء المبتَدِعَة يَوْماً بفِكْرة: مَسَاجِدَ خَاصَّة للأطفَال!؟

بُنيَّ! دَعْ الطفْل يَنْخَرِط في هٰذه الأجْوَاء المبارَكَة، واُترُكْه يَغْتَرِف من هٰذا الفَضَاء الملَكُوتي، الذي قَد لَا يُرىٰ منه شَيءٌ ولَا يُحَس، ولٰكن آثاره تَنفُذ في الرُّوح وتَنْطَبع في النَّفْس وتَنْتَقِش، لَيكْبُر عَلَيها الطفْل ويَترَعْرع الفتىٰ ويَنْشَأ الشاب.

ولكَ أن تُعَالِج أمرَ الفوضىٰ التي يُثيرُونها والإزعَاج الذي يُسبِّبُونَه بتَوْظِيفِهم في أنشِطَة الحُسينيَّة ولِجَانِ الخدَمَاتِ فيها، كَالضِّيَافَة والنظَافَة ومَا إلىٰ ذلك ممَا يَستَطِيعُونَه ويُنَاسِب أعمارهُم، فيُسَجَّلُون في "الخدَّام" ويحظَوْن بالشَّرفِ، وتكُون قَد ربَطْتَهُم بالعَزَاء وأحكَمْتَ عِلَاقَتهم بشَعَائِرِه، كمَا تَكُون قَد قلَّلتَ من سَلبِيَّاتهم، وخَفَّفْتَ من ضَوْضَائِهم والإزعَاجِ الذي يُحْدِثُون... وعلىٰ أيِّ حَال، إياكَ أن تمنَعْهُم أو تَدْفعهم للإحْجَام عن الحضُور.

مَواضِع النداء برفْع الصلَوات:

ممَا يجبُ أن تحْرِصَ عَلَيه، مَواضِع النِّدَاءِ بالصَّلَوَات... فَلَا يَكُون الأمرُ تِكْراراً وإكْثَاراً يُفقِد المنبر اتساقه والمجْلِسَ تَراتبَه، ولَا إغْراقاً يُلْغي مَسْحَة العَزَاء، ويخِلُّ بأجْوَاء الحزْن والأسىٰ، ويَقْطَع البُكَاء، (بخِلَاف الأمرِ وتَرجِيح إكْثَارِه في احْتِفَالَات المَوالِيد ومُنَاسَبَاتِ الأعيَاد)، ولَا يَنَال من اَستِرسَال الخطِيب ومُضِيِّه في محَاضَرته، إذا كَانَ في مَوْعظَة، أو بيَان مَطْلَب عِلْميٍّ، من نَشْرِ فَضِيلَة أو إثبَات عَقِيدَة صَحِيحَة أو دَفْع إشْكَال وردِّ شُبهَة.

ٱحْذَر بُنيَّ أن يَكُونَ النِّدَاءُ بالصَّلَوات بَعِيداً عن الحِكْمَة والكَيَاسَة، بل الذَّوْق السَّلِيم والحسِّ المرهَفِ السَّوِيِّ، فيرفَع أحَدُهُم صَوتَه بالصَّلَوَات ويَدْعُو الناس إليهَا في مَوْضِع النَّعْيِ والرثَاء والبُكَاء، من مُنْطَلَق أنَّ الخطِيبَ ذكَر ٱسمَ «النَّبِيِّ» ﷺ، فتحقَّقَ سَبَبُ الاَستِحْباب! وقد شَهدْتُ وسَمِعْتُ مرَّة مُؤمناً غَافِلاً أربَكَ المجْلِس وأزرىٰ بالشَّعِيرة وهو يَرْفَعُ صَوْته بالصَّلَوَات علىٰ «محمَّد وآل محمَّد»، والخطِيب يَتْلُو المصرع! يَذْكُر أنَّ مَولاَتنا «زينب الكبرىٰ» عليها السلام حين نَادَت: "يا جَدَّاه يا مُحمَّداه، هـٰذا حُسَينُك بالعَرَاء"، وآخَر حين أنشَدَ القَارِئ: يا «رَسُول الله» لَو عَايَـنْتَهم، وهُمُ مَا بينَ قَتْل وسِبَا... فَصَاحَ المؤمن ونَادىٰ بالصَّلَوَات! وقطَعَ إجْهَاش الحضُور بالبُكَاء، وٱستِرسَالهم في أجْوَاءِ المصِيبَة والرثاء، ولَعَلَّه أفسَدَ المجْلِسَ ونقلَه إلىٰ الاَنزِعَاج، أو التَّبَسُّم والإضْحَاك!

وكَذَا علَيكَ الحذَر من بعضِ مَن يَستَغِلَّ النِّدَاء بالصَّلَوَات، ويُوَظِّفه لأغْراضٍ مُعيَّنة، فيُنَادِي ويَدْعُو بها لِسَلَامة أحَدِ العُلَماءِ أو الشَّخْصِيَّات، لِذَا عَليكَ أن تَضْبطَ هـٰذا الأمر عن التَّطَفُّل وتحَصِّنَه عن الاَستِغْلَال، وكَذَا عَلَيكَ ـ في المقَابِل ـ أن لاَ تجعَلْه حَكْراً علىٰ شَخْصٍ وَاحِد بعَيْنِه، فكَثيرٌ من المؤمنين يَرغَبُون بهـٰذِه الخِدْمَة، لِذَا ٱحْرِص أن تُفْسِحَ لمن أراد، بعدَ التَّثبُّتِ من الأمرِ وضَبْطِ أدَائه.

إنَّ رَفْعَ الأصْواتِ بالصَّلَوَات علىٰ «محمَّدٍ وآل مُحمَّد» هو شِعَار الشِّيعَة الكِرام، وميزَة مجَالِسهم وزِينَة محَافِلهم... ولـٰكن لِكُلِّ شَيءٍ حَدُّه ولكُلِّ أمْرٍ مَوْضِعُه، فإذا تخَطَّاه وتجَاوَزَه ٱنقَلَب إلىٰ ضِدِّه. إنَّ ضَبْط الأداء علىٰ هـٰذا الصَّعِيدِ وغيره من الأصعِدَة الأُخرىٰ المشَابهة له، هو الـذي يُصَنِّف المجْلِس ويُدْرِجه في الطَّبَقَة التي يَسْتَحِق، أو التي تَرْجُو وتَأمل وتَتَطَلَّع... فهُنَاكَ مجَلِسٌ حُسَينيٌّ يُوسَمُ بأنه مجلِسٌ عُلَمائي، وآخَرُ وَلَائي، وهُنَاكَ مجَالِسُ العَوَام، التي من سِماتها الخَلْطُ في مَسألة الصَّلَوَات هـٰذه، والإكْثَار منها في غَيْر مَوْردها.

التجمُّع خارج قاعة الحسينيَّة:

ومما يُلَاحَظُ أنَّ بعضَ المؤمنين من رُوَّاد الحسينيَّـات، لَا يَدْخُلُون قَاعَة الحسينيَّة أصْلاً، ولَا يُشَارِكُونَ في حُضُور وسماع القِرَاءَة!؟ وإنْ تَوَفَّرت أمَاكِن للجُلُوس، ولم تمتَلِئ القَاعَة عن آخِرِهَا، وكانت مَا تَزالُ تَستَوْعب مَزِيداً من الروَّاد؟

تَرَاهُم يتجَمَّعُونَ في فِنَاء الحُسَينيَّة، أو على أبوابها الخَارجيَّة، أو في المطبَخ ومَقَرَّاتِ بَعْضِ اللجَان، وكَأنهم "يتَعَالَوْن" أو يَحْسِبُونَ أنفُسَهم "أكبَر" من الأشتِراك مع "عَامَّة" المؤمنين!؟ وهي ظَاهِرة مُؤلمة ومَرفُوضَة، رأيتُها تَتَكَرَّر في كَثير من الحسَينيَّات، وهؤلاء غَالِباً مَا يَكُونُونَ من العَامِلين في الحُسَينيَّة، أو من الجماعَة المشَارِكَة في إدَارتها، أو من أصْدِقائهم ومَعَارِفهم... إنها ظَاهِرة مَرَضِيَّة مُشِينَة علَيكَ أن لَا تَسْمَحَ بها في حُسَينيَّتك، واْسْعَ أن تكَافِحها وتمنَعها، فتَفْتَح البابَ وتكُونَ رائداً لِبَقِيَّة المجَالِس والحسَينيَّات أن يَقْتَدُوا بكَ ويَحْذُوا حَذْوَك، ويَتخَلَّصُوا من هذا المظْهَر، فمَن لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ يَشْغَلُه ووَاجِبٌ يصْرِفُه وعُذْر يَعْذِره، عَلَيه أن يَكُونَ دَاخِلَ قَاعَة الحسَينيَّة ويَشْتَرِكَ في العَزَاء، ويَكُونَ ممن شَهِدَ المجْلِس وحَضَرَ السَّماع وشَارَكَ في البُكَاءِ والنُّدْبَة والرثَاء.

لَا تَسْمَح بُنيَّ أن يَخِفَّ شَأنُ المجْلِس وخَطْبُه، بل اْسعَ واْجْتَهِد أن تعطى القِرَاءَة الحُسَينيَّة الهيْبَة التي تَلِيقُ بها، وتَأخُذَ المكَانَة والخَطَرَ الذي تَسْتَحِق، وكَأنها الصَّلَاة، لَيْسَ لأحَدٍ أن يتَخَلَّفَ عنها، وعلى الجميع أن يَلتَحِقَ بها... فإذا قُضِيَت، وتمَّ المجْلِس، وأخَذَ الرثَاء والبكَاء وَطَره، اْنتَشَر مَن أرادَ وذهَبَ لِشَأنه، سَوَاء دَاخِل الحسَينيَّة أو خَارِجها، وبقيَ "اللطَّامة"، ومَن أرادَ الاْستِمرار في إحْيَاء باقي العَزَاء والمضيِّ في الشَّعِيرة التَالِيَة.

ولَا تُصْغِ بُنيَّ إلى تَسْوِيلَاتِ بعضِهم، من أنها ظَاهِرَة مُتأصِّلَة، وأمرٌ سَابِقٌ نَشَأتْ عَلَيه الحسَينيَّات وتَعَاهَدَه رُوَّادُها، لَا يُمكِن مَنعه وتَغيِيره... فهُناك سُنَنٌ حَسَنَة تجِبُ المحَافظَة علَيهَا، وبدَعٌ سَيِّئَة علَينَا نَبْذُها والتخلُّص منها.

توزيع الحضُور في المجلس:

وعلَيكَ بُنيَّ أن تَتَنبَّه إلى كَيفيَّة تَوْزِيع الحضُورِ واْنتِشَارِهم في قَاعَة الحسَينيَّة وأرجَائِها، بمَا يحفَظ هَيْبَة المجْلِس ويُعزِّز صُورة الشَّعِيرة، وذلك حَسْبَ عَدَدِهم وكَثَافَتهم... فإذا كَان العَدَدُ قَلِيلاً والحضُورُ محْدُوداً، لَا تَترُكهُم مَشَتَّتين في أرْجَاء القَاعَة، بل عَلَيكَ أن تجمَعَهم وتَحشِدَهُم إلى جِوَار المنبر، قَرِيباً من الخطِيب، فهذا مما يُريحه ويُعِينه على إلقَائِه، ويُعينهم على التركيز والاْنصِرَاف إليه، وكَذا يُضْفي على المكَانِ الوَقَار المطلُوب ويخلَعَ على المجْلِس الصُورة المناسِبَة الموافِقَة لِتَعظِيم الشَّعِيرة وإحْيَائها.

أمَا إذا اْكتَظَّ المجْلِسُ واْزدَحَم، فعلَيكَ أن تُراقِبَ تَوْزيعَ الحضُور واْنتِشَارَهُم، واْمتِلَاءَ الأمَاكِن في زَوَايا قَاعَة الحسَينيَّة وأنحَائها، ومَلْءَ الشَّواغِر مَا اْستَطَعْت، بمَا يَمْنَع التردُّد والحركَة - بعدَ ذلك - ويحدُّها، ويَحفَظ نَظْم المجْلِس واْستِقْراره، ممَا ذكَرتُ وبيَّنتُ لكَ خطَره آنِفاً، فإذا تَمَّ ذلك وكَان فيها، وإلَّا اْنتَظَرْتَ حتىٰ آخِر الوَقت حِين يَرقىٰ الخطِيبُ المنبر، فتَطْلُبَ إليه، إمَّا بِسَابِق تَوافُق بينكُمَا أن يَلْحَظَ هو الأمرَ ويُقَدِّره، أو بإشَارة مِنْكَ تَتَعَاهَدَان علَيهَا، أن يُنادِي بمَا صَارَ يُعْرف بـ "القِيَام"، وهو أن يَأتي علىٰ ذِكْرِ مَوْلَانا «صَاحِبِ العَصْرِ» عليه السلام بلَقَبِه الذي يُستَحَبُّ معَه القِيَام (أي "القَائِم")، سَواءً بالسَّلَام علَيه أو بإنشَادِ شَيء من الشِّعْر في مَدْحِه أو اْستِنْهَاضِه ممَا يتَضَمَّن ذلك اللفْظ، فيَنْهَضُ الحُضُور قِيَاماً، فتَدْعُوهُم لِرَصِّ الصُفُوف، والتَّقَدُّم والحركَة باْتجاه المنبر، أو حَيثُمَا يَنبَغي لملءِ الفَرَاغَات الموجُودَة في المجْلِس وسَدِّ الفرَج في القَاعَة.

فإذا اْمتَلأت قَاعَة الحُسَينيَّة عن آخِرهَا ولم يَعُدْ فيها مَوْضِعٌ ومجلِس لأحَد، علَيكَ أن تمنع الدُّخُول، ولَا تَسْمَحَ لمتأخِّرٍ في القُدُوم أن يتخَطَّى الرِّقَاب، ويتوغَّل إلىٰ حَيثُ يُرِيد، مُزعِجاً مَن سبَقَه ومُؤذِياً الحضُور المستَقِر!

الطُرَف وتَلطِيف الأجْوَاء:

ومِمَا يُوهن المجْلِس ويخِلُّ بوَقَارِه، مَا قَد يَصْدُر من الخطِيب في بَعضِ الأحْيَان من فِعْل أو قَوْل وتَعلِيق يَدْخُل في اللَّطِيفَة أو الطُرفَة، إمَا عَفْواً لخَطَأ كانَ منه وسَبْق لِسَانٍ وَقَع فيه، أو عَمْداً يُلقِيه كَتَفَكُّهٍ لتَلْطِيف أجْوَاء المجْلِس وكَسْرِ الرتَابة ودَفْعِ الملل، أو لنَفْي الجمُود الذي يَصْحَب المطَالِب العِلْميَّة المعمَّقَة، عِندَمَا يَلْحَظه علىٰ الحضُور ويَلْمِسه منهم... فيعْمَد إلىٰ كَلِمة أو طُرفة ترَطِّب الأجْوَاء وتُزيحُ الجفَاف، مَا قَد يَبعَث علىٰ الضَّحِك أو يحقِّق أسبَابه. فإذا كَانَ ذلك، لِيَكُن ضَحْكُك في أقصَاهُ اْبتِسَاماً، دُونَ صَوْت، نَاهِيكَ بضَحِكٍ وقَهْقَهَة، فإذا غَلَبكَ المْوقف واْضطُرِرْت، غطَّيتَ فَمَكَ وقهَرْتَ صَوتك. وعَلَيكَ المضيَّ سَريعاً عن الطُرْفة وتجاوُزها، وعَدَم التوقُّف عِندَها والإطَالَة في أجْوَائها، ممَا تَراهُ من بعضِ الحضُور، تَعلِيقاً علىٰ مَا بَدَر من الخطِيب، فيحَدِّث جَارَه ويُعَلِّق علىٰ مَا كَان، أو حتىٰ قد يتَفَاعَل مع القَارِئ ويخَاطِبه وهُو علىٰ المنبر!

إحدَاثُ الفوضىٰ:

ومِمَا يَجِبُ أن تُوَازِن فيه الأمرَ وتُعْمِل الحِكْمَةَ بأقصىٰ دَرَجَاتها، مَا إذا صَدَر عن أحَدِ الحضُور فِعْلٌ أو حَركة مُثِيرة أو قَوْل بِرفيع صَوْتٍ أو عَيْط وصِيَاح، مَا أوْقَع في المجْلِس خَلَلاً مَا. عَلَيكَ أن تَنظُر وتُقَرِّر سَرِيعاً في عِلَاج الأمر ومُوَاجَهتِه، والأصْل - إذا كَان الصَّوْتُ أو الحركَة محْدُودَة في فِعْل وَاحِد - أن تتجَاهَله مَا ٱستَطَعْت، وتُعرِض عَنه حتىٰ لَا يتفَاقَم ويَسْتَشْري، سَواء كَانت الحركَة أو الضَجَّة من خَطَأٍ أو عَمْد، فبعضُ النَّاس يُرِيدُونَ لَفْتَ الأنظَار، وآخَرُونَ في غَفْلَة عن خَفَرِ المقَام ويجهلُون خَطَره... ولكن هذا لَا يَعني أن تَفقِدَ الزِمَام وتَتَلكَّأ في السيْطَرة والإدارة، فإذا رَأيتَ أنَّ الضجَّة غير محدُودة ولَا محْصُورة، وأنَّ الفَاعِل مَاضٍ في صَخَبِه وجَلَبَته، مُصرّاً علىٰ لَفْتِ الأنظَار وإثارة الفوضىٰ، علَيكَ أن تكُون حَاسِماً في تَدَخُّلك، بمَا يلُمُّ ويجمَع القَضِيَّة ويُنهي المشكِلَة ويُطفِئ الإثارة، فتَتَوجَّه إليه وتخرِجَه من القَاعَة، بل من الحسينيَّة، وتتَفَاهَم معه هُناك، بَعِيداً عن أيِّ إخلَالٍ بالنَّظْم وتَشْتِيتٍ للجَمْع وذهَابٍ بالشَّعِيرة إلىٰ مَا يُضعِف وَقْعَها ويُفْسِد صُورتها.

وِجْهة الجلوس:

ومن عناوين نَظْم المجلِس هو وِجْهَته، ومَا عَلَيكَ أن تَلْحَظه في هندَسَة الحسَينيَّة وتَصِميم المجْلِس وتَرتيبه، أن تَكُونَ جِلْسَة الحضُور إذا ٱستَقْبَلُوا المنبر وجَعَلُوا الخطِيبَ أو المنْشِدَ أمامَهم، تكُون تجَاهِ «كَربَلَاء». كمَا يتَوَجَّه المصلُّون إلىٰ «مكَّة» مُيمِّمين شَطْر الكَعبَة المشَرَّفة، فإنَّ الجالِسَ في رِثاء «سيِّد الشهداء» عليه السلام يتَوَجَّه تِلقَاء قَبره الشريف ويَلتَمِسَ حَرَمَه المنيع، كَمَا يَفْعَل الزائر من بَعِيد. وفي هذا، وحَقِيقَة القِبْلَة والوِجْهَة التي يجبُ أن يَصْرِف المؤمن لها وَجْهَه، نكَاتٌ تَعرَّض لها بعضُ العُلَماء العُرفاء، لَا أُريد تَناولها هنا حتىٰ لَا يَطُول البَحْثُ ويتَشَعَّب ويخرج عن صُلْبِه. ولعلَّ في لِسَانِ الدَّاعِي بـ "النُّدْبَة" : "أينَ وَجْهُ الله الذي يتَوَجَّهُ إليه الأوْلياء" إشَارة... فتَأمَّل وٱفْهَم!

وهُناكَ بُنيَّ آدابٌ عَامَّة في سُنَن محُرَّم الحرَام وطُقُوس العَزَاء، ولَا تختَصُّ بالمجْلِس، لكنها تَتَأكَّد وتَتَشَدَّد عند الحضُور في الحسَيْنِيَّة، غَدَت - مع شَدِيدِ الأسف - غَائِبَة وأصبَحَت غَرِيبة، فٱسْعَ مَا ٱستَطَعت في إحْيَائها والحثِّ علىٰ العَمَل بها والتزامها...

آدَابٌ من قَبِيلِ تَركِ الجدِيد، فلَا يَلْبَسُ المؤمن الموَالي جَدِيدَ الثيَاب، ولَا يَبتَاع ويُجدِّد أثاثَ دَارِه ومَتَاعه، ويَمتَنع عن تَنَاول المكَسَّرات (القُلُوبَات أو الكَرَزَات أو البزُورَات، حَسَب اللَّهجَاتِ الدَارجَة)، ومَضْغ العِلْكَة والكُنْدُر واللُّبَان، ومَا إلىٰ ذلك من سُلُوكيَّاتٍ كُنَّا نَعُدُّها في مَا مضىٰ من الكَبَائر طِيلَة شَهرَي مُحرَّم وصَفَر! وقَد فرَّطْنَا فيها وتَنَاسَيْناها حتىٰ مَا عَادَ هٰذا الجيل يَعْرِفها، وتَراهُ يَسْتَغْرِب ويَسْتَهجِن النَّهْيَ عَنْها والدَّعْوَة إلىٰ تَركها، ويَسْألك عن الفَتْوىٰ والحكم الشَّرعي! وأنتَ لَا تَزْعُم - في هٰذا - الحرمَة الشرعيَّة، إنَّما تنهىٰ عن سُلُوكٍ لَا يُناسِب وَقارَ المجْلِس وأجْوَاءَ المصِيبَة، فَلَا يَصِحُّ أن يتَسَكَّع أحَدُهُم في الحسَينيَّة وهو يُقَشِّر اللُّبَّ ويُكَسِّر الفُسْتُق، ويَمْضُغ العِلْكَة! فهٰذا السُّلُوكُ من شَأن أجْوَاء التَسْلِيَة والترفيه وأمَاكِن السِّيَاحَة والترويح، لَا دُورِ العِبَادَة وأيام العَزَاء.

وهناكَ حَيثِيَّاتٌ أُخْرىٰ في مَسْألة نَظْم المجْلِس، طَارِئَة أو خَاصَّة بمَكَان مَا دُونَ بَقِيَّة الحسَينيَّات والبِلَاد، تكُون وَليدَة السَّاعَة وٱبنَة الحدَث، علَيكَ بُنيَّ التنبُّه لها ومُلَاحقتها ومعَالجتها من هٰذا الأصْل والمنطَلَق الذي عَرفْت.

التحية والسلَام

تختَلِفُ آدابُ التَّحِيَّة والسَّلَام في المجَالِسِ الحسَينيَّة بٱختِلَاف الحَالَات والظُّرُوف والشَّرائط، والأمر لَيْسَ علىٰ إطْلَاقه.

إنَّ العَادَة جَرَت في الحوْزَات العِلْمِيَّة وحَلْقَات العِلْم علىٰ أنَّ الطَّالِبَ الذي يتَأخَّر ويَلتَحِق بالدَّرس بعَد شُروع الأُستَاذ، لَا يُلقي علىٰ الحضُور التَّحِيَّة والسَّلَام إذا جَاء، بل يَلِج - كأنه يتَوَغَّل - ويأخُذ مكَانَه في الحلْقَة صَامِتاً. كَذلك الأمرُ في الدَّاخِل إلىٰ المجلِس الحسَينيِّ مُتَأخِّراً، بعدَ شُروعه ورُقيِّ المنبر وبدْء الخطِيب في قِراءَتِه... علَيْه أن يَدْخُل بهدُوء وسُكُون، لَا يَقْطَع ٱسْتِرْسَال القَارِئ، ولَا يخِلَّ بٱنتِبَاه الحضُور وٱنشِدَادِهم، ولَا يَصْدُر منه مَا يَصْرِفهم عن متَابعَتِه، ويَأخُذ مكَانه دُون أن يُثِيرَ ضَجَّة أو يُسَبِّبَ إربَاكاً.

لَا أن يَدْخُل الحسَينيَّة رَافِعاً صَوتَه بالسَّلَام بمَا يَقْطَع علىٰ الخطِيبِ قِراءَته ويُشَتِّتَ علىٰ الحضُور تَركيزهُم وٱنتِبَاهَهُم، ولَوْ لِفتْرة محْدُودَة... وتَرَىٰ بَعضَهُم يجهَر بصَوته ويَرفَع يدَه ويَمُدُّ ذِراعَه، مُشِيراً للجَمِيع بالسَّلَام، وكَأنه نَجْمٌ طَالَ ٱنتِظَاره، ها قَد وَصَل!

ثم لَا يَكْتَفي إذا جَلَسَ في مَكَانِه واْستَقَرَّ، حتىٰ يَبدَأ بتَفَقُّد مَن حَوْلَه، يُصْبِّحهم أو يُمَسِّيهم بالخَيْر، ويَسْتَخبر أحْوَالهم ويَسْتَعلِم عن صِحَّتهم؟ وكأنه ليْسَ في مَجلِسٍ حُسَيني، ولَا هي عِبَادَة عَظِيمَة خَطِيرة قد دَخَل في نُسُكِها وأخَذَ في مُمارَسَتِها، ولَا هـٰذا الذي يَعْلُو المنبر وَاعِظٌ مبَجَّل ورَاثٍ مُحتَرم لـ «سيِّد الشهداء» عليه السلام؟!

أمَّا أثناء وُرُود الحضُور وتَقَاطُر الروَّاد إلىٰ المجْلِس، قَبْل رُقيِّ المنبر والشُّرُوع في القِرَاءَة، فَلَا بَأس بالسَّلَام وتَبَادُل التَّحِيَّات... لـٰكن علَيكَ التَّمييز بين الأيام والمنَاسَبَات، فلَيْسَت الأيامُ الخاصَّة، وهي أيام المصِيبَة، مِثْل غَيْرها من سَائِر الأيام، فَفِي مُنَاسَبَات الجزَع وأيام المصَاب وذُرْوَة العَزَاء، علَيكَ أن تتجَنَّب التَّرحِيبَ والمصَافَحَة والمعانَقَة، وأشدُّها عَشَرة «عَاشُوراء»، وهـٰكذا في وَفَيَاتِ «الأئمة» الأطهار عليهم السلام.

وعلَيكَ كَذلك، في هـٰذه الأيام الحزِينَة التي يُعْلَن فيها العَزَاء والحِدَاد، تجنُّب أن تُصَبِّحَ أو تُمَسِّي أحَداً بالخيْر، وَفْقَ مَا جَرَت عَليه العَادَةُ بعدَ أن يتَّخِذَ الدَاخِل مكَانه في المجْلِس في سَائر الأيام... فأيُّ خَيْرٍ في يوْم قُتِلَ فيه حُجَّة الله وقُرَّة عَيْن «حَبيبِ الله» صلى الله عليه وآله؟ وأيُّ خَيْرٍ والعَالَـم يَعيشُ ذِكرىٰ فَاجِعَة صَدَّعَت الأكْوَان، وهَزَّت الزَّمَان والمكَان، وضَعْضَعَت العَرْشَ وزلْزلَت الفَرْش؟ وطَوَت العَوَالِم كُلَّها وجمعَتْها وضَمَّتها، لِتَنْشُرها في قَالِب الحزْن والغَمِّ والأكْدَار، وتَعْرِضَها في إطَار اللَّوْعَة والحَسْرة والأسىٰ، حَدَثٌ فجَعَ سَادَاتَنا ومَوَالينَا «أهلَ البيت» عليهم السلام وأوْرثَهُم الكَرْبَ والبَلَاءَ إلىٰ يَوْم الأنقِضَاء...

من هنا، عَلَيكَ أن تجسِّد، في سُلُوكِكَ وتَعَامُلِكَ مع الآخَرين (ومنه تَحِيَّتهم والسَّلَام عَلَيهم)، هـٰذا الحَدَث الجلَل وتَعكِس هـٰذا الخَطْبِ الفَظِيع، وتَعِيش ذِكْرىٰ المحْنَة والمصِيبَة، وتَنْفَعِل بالرَّزيَّة الفَادِحَة، مَا يَصْرِفك عن الترحِيب وتَبَادُل التَّحِيَّات والسُّؤَال عن صِحَّة الأهْل والأحْبَاب، وتَفقُّد أحْوَال الأصْدِقَاء والأصْحَاب، ممَا هُوَ شَأن هَانئ البَال وسَعِيد الخَاطِر، لَا المصَاب المحِدِّ، والجازِع المكْرُوب.

والصَّحِيح بُنيَّ أن تَسْتَبْدِلَ التَّحِيَّة والسَّلَام في هـٰذه الأيام بتَبَادُل التَّعَازِي، كَمَا وَرَدَ النَّصُّ في رِوَاية «عَلْقَمَة» عن «أبي جَعْفَر الباقِر» عليه السلام في حَدِيث زيَارة «سَيِّد الشهَدَاء» عليه السلام يَوْم «عَاشُورَاء» من قُرْب وبُعْد، الذي يتَضَمَّن بعضَ الآداب والسُّنَن، قَال:

ثم لِيَنـدُب «الحسَيْن» ويَبكِيه ويَأمر مَن في دَارِه ممـن لَا يَتَّقِيه بالبُـكَاءِ عَلَـيه، ويُقيم في دَارِه المصيبَةَ بإظْهَارِ الجزَع عَلَيه، وليُعَزِّ بعضُهُـم بعْضاً بمُصَابهم بـ «الحسَين» عليه السلام، وأنا ضَامِنٌ لهم إذا فَعَلُوا ذلك علىٰ الله عزَّ وجلَّ جميع ذلك، يَعني ثَـوَابَ ألفَي حِجَّة وألفَي عُمْرة وألفَي غَزْوَة.

قُلتُ: أنتَ الضَّامِنُ لهم ذلك والزَّعيم؟

قَال: أنا الضَّامِنُ والزَّعيم لـمَن فَعَلَ ذلك.

قُلتُ: وكَيفَ يُعزِّي بَعضُنا بَعْضاً؟

قَال يَقُولُـون: أعْظَم الله أُجُورنـا وأُجُوركُم بمُصَـابنا بـ «الحسَين» عليه السلام وجَعَلَنا وإيَّاكُم من الطَّالِبين بثَأره مَع وَلِيِّه «الإمام المهدِي» من «آلِ محمَّد».

وإن ٱسْتَطَعتَ أن لَا تَنْتَشِر يَوْمَك في حَاجَـة فٱفْعَل، فإنَّه يَوْم نَحْسٍ لَا تقـضىٰ فيه حَاجَـة مُؤمن، وإن قُضِيَت لم يُبـارَك لَه فيها ولم يَـرَ فيها رُشْداً، ولَا يَدَّخِـرَنَّ أحَدُكُـم لمنزله فيه شَيئـاً، فمَن ٱدَّخَر في ذلك اليَوْم شَيئاً لم يُبَارَك لَـه في ما ٱدَّخَر، ولم يُبَارَك له في أهْلِه، فـإذا فـعَلُـوا ذلك كَتَبَ الله لهم ثَـوابَ ألف حِجَّـة وألـف عُمْـرة وألف غَـزْوة كُلُّهـا مع «رَسُـولِ الله» صلى الله عليه وآله، وكَانَ لَه أجْرَ وثَوَابَ كُلِّ نَبيٍّ ورَسُول ووَصيٍّ وصِدِّيقٍ وشَهيدٍ مَاتَ أو قُتِل منذُ خَلْقَ الله الدُّنيا إلىٰ أن تَقُوم السَّاعَة.(١)

هـٰذا في عَشَرة «عَاشُـوراء» وفي «الأربَعِين» ووَفَاةِ «النَّبِي» صلى الله عليه وآله ووَفَاة «الزَّهْـراء» عليها السلام، ووَفَيَـات «الأئـمَّة الأطهَار» عليهم السلام، إذ يُمْـكِنُك أن تُعَظِّم الأجْر لأخِيكَ المؤمن بمُصِيبَة فَقْد «الإمام» عليه السلام، وتَستَعِيضَ بذَلك عـن التحِيَّة والسَّلَام، وتَبادُل الأخبَارِ وتَفقُّد الأحْوَال، مما يُتَعَارَف في سَائِر الأيـام...أمَا في المجَالِس الحُسينيَّة التي تُقَامُ في سَائِر الأيام وطَوَال العَام (سَوَاء في "العَوَايد"، أو في المجَالِس والحُسَينيَّات التي تُقِيم المأتم يَومِيّاً علىٰ مَدَار السَّنة، حتىٰ في الأعْيَاد الثَّلَاثة)، فلَا بَـأسَ من تَبادُل الـتَّحِيَّـات والتَّبَسُّم والبِشْـر في الـوُجُـوه والتَّواصُل والتَّعَاهُد المعتَادِ بين المؤمنين.

---

(١) (كامل الزيارات) لـ «ٱبن قولويه» ص٣٢٧.

وعَلَيكَ التَّنبُّه إلىٰ أنَّ بَعضَ المؤمنين الغَافِلين عن هٰذه الآدابِ الراقِيَة والأعْراف الخَاصَّة، إذا دَخَلَ المجْلِسَ أيام العَزَاء الكُبرىٰ، أو أثنَاء القِراءة في سَائِر الأيام، وألقىٰ السَّلَام العَام علىٰ الحضُور، فليَكْتَفِ وَاحِدٌ فقَط بالرَدِّ علىٰ سَلَامه، بما يُسْقِط التكْلِيف عن البقِيَّة في الوُجُوب الكفَائي، لَا أن يتطَوَّع الحضُور ويَتَلَقَّونه من كُلِّ جهَة بِرَد! أمَا إذا جَاوَرك أحَدُهُم فأبتُليتَ بمَن يهشُّ في وَجْهكَ ويَبِشُّ ويَتَبَسَّم لكَ ويُلَاطِفك ويُمَسِّيك بالخير لَيلَة السَّابع أو العَاشِر من المحَرَّم مثَلاً، وأنتَ في شُغل عن جَهَالَته أو غَفْلَتِه، تُريد أن تَسْتَحْضِر المصِيبَة في نَفْسِكَ وتَعيش الشَّعِيرة في مَظْهَرِك! فَلَا تردَّ عليه تحِيَّته، بَل قَابِله بالآداب الصَّحِيحَة، ونبِّههُ لخطَئِه وأيقِظْه من غَفلَته وقدِّم له نَصِيحَة غير مباشرة، وأنتَ تَردُّ عليه وتَتَوَجَّه إليه بالدُّعَاء بتعظِيم أجْرِه بمُصَابه بـ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، فتحظىٰ بأجْرٍ إضافيٍّ لتَعلِيمه وتَنبِيهه وإخْرَاجه من غَفلَته.

توقير الحضور وتعظيم رُوَّاد الحسَينيَّة

إعْلَم بُنيَّ! أنَّ المؤمنين الحضُور في مَجلِس العَزَاء من روَّاد الحُسَينِيَّة التي شَيَّدْتَ والمجْلِس الذي أفتَتَحْت وأقَمْت، هُم ضُيُوف «الحسَين» عليه السلام، بَلْ هُم وَفْد الله سُبحَانه وتَعَالىٰ الذي أنتجَبَه وأنتَخَبَه وأصْطَفَاه لِيُحْيِي به هٰذه الشَّعِيرة العظمىٰ... ومَحْضُ القَصْدِ والسَّعْي والحُضُور، كَاشِفٌ عن تَوفيق ورَحْمة وسَعَادَة، ودَلِيلٌ علىٰ نُبْل وشَرفٍ ونَجَابة، والمراتِبُ ـ بعدَ ذلك ـ عند الله عزَّ وجَلَّ، هو العَالم بالأسرار والخفَايا ومَكْنُونَات النُّفُوس، من خُلُوص النيَّات ونَزَاهَة المقَاصِد، ودَرَجَات الفَهْم والأدَب، وحُدُود التَّشَرُّع والألتِزَام، ونطَاقَات الوَعْي والبَصِيرة، وسُطُوح العِلْم والمعَرِفَة، مما يُرتِّب المقَامَات ويُقَسِّم المنازِل ويَنهَض بالتفَاضُل بين المؤمنين ويُدْرِجهُم في طَبَقَات...

كلُّ ذلك عِلْمُه ـ الحقيقي ـ عِند الله، ولَيْسَ لَنَا نَحْن إلَّا الظَّاهِر الذي يَجمَعُ الجميع.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَعْرِفَ حُرْمَة المؤمن وعَظِيم شَأنه وخَطَره، فكَيف بالَّذي قَصَدَ مأتم «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وأرادَ مجلِس عَزَائه، وكَان ممن تُحيَا به شَعَائره؟ لَقَد وَجَدْتُ غَفْلَة عن هٰذا المفهُوم، ولَاحَظْتُ غِياباً لرِسَالَته، وسَجَّلْتُ إهمالاً للعَمَل به وتجاهُلاً مُؤلماً له!

فالمؤمن (أي الموالي لـ «آلِ محمَّد» عليهم السلام) هو الـصَّدَفَـة التي تحْمِل وتَضُمُّ جَوْهَرة الحبِّ ودُرَّة البُغْض، فقَلْبٌ يَنْطَوِي علىٰ حُبِّ «آل محمَّد» عليهم السلام وبُغْـضِ أعْدَائهم هُو عَرْشُ الله جَلَّ وعَلَا، إذ هُوَ أقـصىٰ العَمَل وغَاية الـخَلْق وتَمام العِبَادة ونَهاية الفَلَاح والسَّعَادَة، وقمَّة الرِّضَا الإلهي، ولَـمُؤمنٌ فَاسِقٌ مُبْتَلىً بالمعَاصِي والذنُـوب (إن بَقِيَ علىٰ وَلَائه لـ «آل محمَّد» وبَراءته من أعدَائهم) هو خَيرٌ من ألف مُخَالِفٍ عَابِد، ومُعَانِد زاهِد، ونَاصِبٍ مُجاهِد، وأُمويٍّ جَاحِد يَقْضِي عُمُره في العِلْم والعَمَل، ويَصْرِف حَياته في الطَّاعَة والعِبَادة، ويَعِيش لِقَضِيَّة كَبيرة وأهدَاف عَظِيمَة وغَايات نَبِيلَة...

فالقِيمَة عِنْدَنا هي للمُعْتَـقَد ومَا تَنْطَوِي عَلَيه القُلُوب والنُّفُوس، ثم يأتي العَمَل. ومَن يَحمِل في قَلْبِه حُبَّ «آل محمَّد» عليهم السلام وبُغْض أعْدَائهم، هُوَ على الفِطْرة، وهو المؤمن حَقّاً (وشَرْعاً، الـذي تَحْرُم غِيْبَتُه وتجِبُ نُصْرته)، وهو أخُو الإسلَام ووَليُّ الإيمان، وإن جَهِل وعصىٰ، بل وإن فَسَق، مَا دَامَ علىٰ الإيمان والقَوْل بالحَقِّ!

ففي الحدِيث الشَّريف عن «يعقُوب بن ميثَم التمار» مَولىٰ «عليِّ بن الحسَين» عليه السلام، قَال: دَخلْتُ علىٰ «أبي جَعفر» عليه السلام، فقُلْتُ له: جُعِلْتُ فِدَاك يا «ٱبن رَسُول الله»، إني وَجَدْتُ في كُتُبِ أبي أنَّ «عَلِياً» عليه السلام قَالَ لأبي «ميثم»:

أحْبِبْ حَبِيبَ «آل محمَّد» وإن كَان فَاسِقاً زانياً، وٱبغِض مُبغِض «آل محمَّد» وإن كَان صَوَّاماً قوَّاماً، فإني سَمِعْتُ «رسُولَ الله» صلى الله عليه وآله وهو يَقُول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، ثـم التَـفَتَ إليَّ وقَـال: هُـمْ والله أنتَ وشيعَتُكَ يـا «علي»، وميعَادُك وميعَادُهم الحوْض غداً، غُرّاً محجَّلِين، مكْتَحِلين مُتوَّجين.(١)

وعن «عبدالله بن أبي يعفور» قَال: قُلْتُ لـ «أبي عبدالله» عليه السلام: إني أُخالِطُ النـاسَ فيكثُر عجَبي من أقـوَام لَا يتولَّوْنَكم ويقُولُون فُلَاناً وفُلَانـاً، لهم أمَانةٌ وصِدْقٌ ووفَاء، وقَوْمٌ يتَولَّوْنَكُم ولَيْسَ لهم تِلك الأمانَة ولَا الوَفاء ولَا الصِّدْق؟ قَال: فٱستَوىٰ «أبو عبدالله» عليه السلام جَالِساً، فأقبلَ عليَّ كالغَضْبان ثم قَال:

(١) «الأمالي» لـ «الشيخ الطوسي» ص٤٠٥.

لَا دِينَ لمن دَانَ الله بوِلَاية إمامٍ جائرٍ لَيْسَ من الله، ولَا عَتَبَ على من دَانَ الله بوِلَاية إمام عادلٍ من الله.

قلتُ: لَا دِينَ لأُولئك، ولَا عَتَبَ على هٰؤلَاء؟

قَالَ: نعم، لَا دِينَ لأُولَئكَ ولَا عتَبَ على هٰؤلَاء!

ثم قَال: ألَا تَسْمَع لِقَوْل الله عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، يَعني ظُلُماتِ الذنُوب إلى نُور التوْبَة والمغْفِرة بوِلَايتهم كلَّ إمام عَادل من الله، وقَال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، إنَّما عنى بهٰذا أنهُم كَانوا على نُورِ الإسْلَام، فلَمَّا أن تَوَلَّوْا كُلَّ إمام جَائِرٍ لَيْسَ من الله، خَرَجُوا بوِلَايتهم إيَّاه من نُور الإسلَام إلى ظُلُمات الكُفْر، فأوْجَبَ الله لهم النَّار معَ الكُفَّار، فأُولئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُم فيها خَالِدُون.[1]

هٰذا هُوَ المَدَار والمرتَكَز، وهٰذه هي القَاعِدة والمنطَلَق... في الحُرْمة والكَرَامَة، فاْعلَم بُنيَّ مَن تحتَرِم ومَن تُكْرِم، وفي المقَابل مَن تَزْدَري وبمَن تَستَخِفَّ إن فعَلْتَ، فلَا تُوليه أدنى اْهتِمام، ولَا تُعيره أيَّ التِفَات، وبالتَّالي تحدِّد مَوْقفَك ونهْجَكَ في الموَالَاة والنُصْرَة، وتَعرف مَن الذي يَسْتحقُّ أن تَهتَمَّ لأمرِهِ وتَغتَمَّ لمصِيبتِه، وتَفْزَعَ لإعَانتِه ونُصْرته، وقَبْل هٰذا كُلِّه، مَن هوَ المؤمن حَقّاً ومَن هُوَ غير المؤمن.

وقَالَ «رَسُولُ الله» ﷺ لـ «عليٍّ» عليه السلام: يا «علي»، شِيعَتُك هُمُ الفَائزُون يَوْم القِيَامَة، فمَن أهَانَ وَاحِداً منهُم فقَد أهَانَك، ومن أهَانَك فَقَد أهَانَني، ومن أهَانَني أدْخَلَه اللهُ نَارَ جَنَّهمَ وبِئْسَ المصِير.

يا «علي»! أنتَ منِّي وأنا مِنْك، رُوحُكَ من رُوحي، وطِينَتُكَ من طِينَتي، وشيعَتُكَ خُلِقُوا من فَضْل طِينَتِنا، فمَن أحَبَّهُم فقَد أحَبَّنا، ومَن أبغَضَهُم فقد أبغَضَنا، ومَن عادَاهُم فقَد عَادَانا، ومَن وَدَّهُم فقَد وَدَّنا.

---

(١) (تفسير العيَّاشي) ج١ ص٣١٧.

يا «علي»! شِيعَتُك مَغْفُورٌ لهم، علىٰ مَا كَانُوا من ذُنوبٍ وعُيوب.

يا «علي»! أنا الشَّفِيعُ لِشيعَتِكَ غَداً إذا قُمْتُ المقامَ المحْمُود، فبشِّرهُم بذَلك.

يا «علي»! شِيعَتُك شِيعَة الله، وأنصَارك أنصَارُ الله، وأوْليَاؤكَ أوليَاءُ الله، وحِزبُك حِزْبُ الله، سَعِدَ مَن تَولَّاكَ، وشَقِيَ مَن عَادَاك.

يا «علي» ! لكَ كنزٌ في الجنَّة، وأنت ذُو قَرْنَيْها.(١)

وقَالَ «رَسُولُ الله» ﷺ : إنَّ الله تَباركَ وتَعالىٰ يَبعَثُ أُناساً وُجُوهُهم من نُور علىٰ كُرسيٍّ من نُور، علَيْهم ثيَابٌ من نُورٍ في ظِلِّ العَرْش، بمَنزِلَة الأنبيَاء ولَيْسُوا بالأنبِيَاء، بمَنزِلة الشُّهَدَاء ولَيْسُوا بالشُّهَدَاء، فقَالَ رَجُلٌ: أنا منهُم يا «رسولَ الله»؟ قَال: لَا.

قَالَ الآخر: أنا منهُم يا «رَسُولَ الله»؟ قَالَ: لَا. قِيلَ: مَن هُم يا «رَسُولَ الله»؟

قَالَ: فوَضَعَ يَدَه علىٰ رَأسِ «عليٍّ» عليه السلام وقَال: هذا وشيعَته.(٢)

وقَالَ «رَسُولُ الله» ﷺ : مَن أحبَّنَا «أهلَ البيت» فَلْيَحْمَد الله علىٰ أوَّل النِّعَم. قِيلَ: ومَا أوَّل النِّعَم؟ قَال: طِيبُ الوِلَادة، ولَا يُحبُّنا إلَّا مَن طَابت وِلَادته.(٣)

وقَال ﷺ : لَا تَسْتَخِفُّوا بفُقَراء شِيعَة «عليٍّ» وعتْرته من بَعْدِه، فإنَّ الرَّجُل منهُم لَيَشْفَعُ في مثْل «رَبيعة» و«مُضر».(٤)

وعن «أبي عبدالله» عليه السلام قَال: قَالَ «رَسُولُ الله» ﷺ : لَقَد أسرىٰ ربِّي بي، فأوْحىٰ إليَّ من وَرَاءِ الحِجَاب مَا أَوْحىٰ، وشَافهَنِي إلىٰ أن قَالَ لي: يا «محمَّد» مَن أذلَّ لي وَليّاً فقَد أرْصَدَني بالمحَارِبَة، ومَن حَارَبَني حَارَبْتُه. قُلْتُ: يَا رَبِّ ومَن وَلِيُّك هذا فقَد عَلِمْتُ أنه مَن حَارَبَكَ حَاربتَه؟ فقَالَ: ذلك مَن أخَذْتُ ميثَاقَه لكَ ولوَصِيِّكَ ولوَرَثتكُمَا بالوِلَاية.(٥)

هذه بُنيَّ بَعضُ صِفَات الشِّيعَة، وبعضُ مَقَامَاتهم ودَرَجَاتهم في عَالَم الحقِيقَة، عِند الله وأوْليائه، حَيثُ يَنبَغي أن يَعِيشَ المؤمن ويَنْطَلِقَ في تَعَامُلِه...

---

(١) «الأمالي» لـ «الشيخ الصدوق» ص٦٦.

(٢) المصدر السابق ص١٤٧.

(٣) «المحاسن» لـ «البرقي» ص١٣٨.

(٤) «الأمالي» لـ «الطوسي» ج١ ص٤٦.

(٥) «الكافي» لـ «الشيخ الكُليني» ج٢ ص٣٥٣.

فاعلَم يَا «عَبدَالزَّهْراء» مع مَن تَتعَامَل، ومَن هُم هٰؤلاء الذين يَقصِدُون الحسَينيَّة ويَؤمُّونَ المأتم، واضبط عَمَلَك وتَعَامُلك وتَعَاطِيكَ، واعرف حُدُودك، ونَظِّم إدارتك للمَجلِس على هٰذا الأسَاس. إنَّك تَتعَامَل مع الأطْهَار النُّجَبَاء، المفلِحِين السُّعَدَاء، طَيِّبي المولد، ذَوِي الوُجُوه البَيْضَاء، المضِيئَة النيِّرة، أحْبَاب الله وأحْبَاب أوْليائه، ومُحِبِّي «الأئمَّة الأطْهَار» ﷺ، أُناسٌ أجَلُّ خَطَراً وأعْظَم حُرْمة على الله من مَلائكته، مَلعُونٌ من آذى أو استَخَفَّ بوَاحِدٍ مِنهُم، ولو كَانَ أشعَثَ أغبَر، فَقيراً مُدْقِعاً... فهُم أهلُ الجنَّة والشَّفَاعَة، وجيران «آل محمَّد» في الفِرْدَوس الأعلى.

فكَيفَ إذا اجْتَمَع مَعَ عُنْوَان الوِلاَءِ والإيمان والعَقِيدَةِ الصَّحِيحَة، عَمَلٌ والتِزَام، وأعْظَم أنواع العَمَل وأجلى مَصَادِيق التديُّن: السَّعْي إلى مجلِس «سَيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ؟ فيَدْخُل الناهِضُ به في مَن أحْيَا أمرَهُم، وحَزِنَ لحُزنهم، ووَاسَاهُم في مُصَابهم؟

فالحَذَر الحَذَر أن تُؤذيَ مُؤمناً أو تُزعِجَه، ولَو بنَظْرة يَرى فيها تحقِيراً أو يَشْعُر منها انتِقَاصاً أو استِخْفَافاً، ناهِيكَ بقَوْل أو فِعْل... فأنتَ تأبى هٰذا لِضَيْفِك الذِي وَفَدَ إليكَ وحَلَّ بِدَارك، فلَا تَرْضَهُ لِضَيْفِ «سيِّد الشُّهداء» ﷺ، ومَن جَاءَ يَتَعبَّد الله سُبْحَانه وتَعالى بإحْيَاء ذِكْر «أهل البيت» ﷺ وتَعظِيم شَعَائرهم.

وإنما أُنبِّهك وأُحَذِّرك، لأنَّ المحَافِل المزدَحمة بالحضُور والنَوادِي المُكْتَظَّة بالجمُوع، التي يكثُر فيها الاحْتِكَاكُ بالنَّاس، ولَا سِيَّما لِمَن يَنهَضُ بدَوْر الإدَارة وضَبْط النَّظْم، ومَا يَقْتَضِيه من حَسْمٍ في بَعض المَوَاضِع وشِدَّة في بَعضِ الأحيَان، يَلْزَمه انزِعَاجُ بَعْضِهم، ويَصْحَبه زلَلٌ وشَطَح قد يُورِثُ أذى آخَرِين.

وممَا يَلْحَق الضِّيقَ والأذى برُوَّاد الحسَينيَّات التَّمييزُ الذي يَنْطَلِقُ من الطَّبقَة الاجتماعيَّة، فيُوقَّرُ الغَنِيُّ لِمَالِه، وربَّما بعُنْوان "شَرعيٍّ" يَسْتَمِدُّ من إسْهَامَاتِه في الخير وبَذْله في سَبيل المجَالِس، ويُهْمَلُ الفقِير أو يُزدَرى لِضِيق ذاتِ يَدِه! وقَد يَنطَلِق التمْييز من الجنسيَّة والنِّسْبَة إلى الأوْطَان، فيُحتَرم المواطِن ويحتفى بأهْلِ البَلَد، ولَا يُلْتَفَت إلى الغَرِيب أو يُستَخَفُّ به، وإن لم يكُن ذلك من مُنطَلَق قَوْميٍّ عُنْصُري، بل اجْتِماعيٍّ لِطَبيعَة الأعْمالِ التي يَنْهَضُ بها "الأجَانب"، فهم في الأعمِّ من العُمَّال الكَادِحين.

علَيكَ أن تُشعِرَ الحضُور، جميعَ الحضُور، صَغيرَهم قبلَ كَبيرِهم، وفَقيرَهم قَبْل غَنيِّهم، ووَضيعَهم (في عُرْف النَّاسِ) قَبْل شَريفِهم، والغَريبَ الوَافِد قَبْل المَواطِن وأبن البَلَد... أنهم أعِزَّة هنا مُكرَّمُون. لَا تُفرِّقْ بَينَهُم ولَا تُفَاضِل، اللهُمَّ إلَّا حَيثُ ميَّزَ الشَّارعُ المقدَّسُ وفَاضَل، فخَلَع علىٰ بعضِ المؤمنين عَنَاوين إضَافِيَّة لِحَقَتْهم من شَرفِ العِلْم والنَّسَبِ الهاشِمِي، وأُخْرىٰ تَلْزَم من الرَّحْمة بكِبَر العُمُر والشَّفَقَة بِذَوِي العَاهَة، ومَا إلىٰ ذلكَ ممَا يَقتَضي أن يُولىٰ مَزيداً من العِنَاية والرِّعَاية.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تحسِّسَ رُوَّاد الحسَينيَّة بأنكَ خَادِمٌ... لَا خَادِمُ «سيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ، بل خَادِمٌ لمحِبِّيه ومُعزِّيه، تُظْهِر الرَّحْمة لهم، وتجسِّد الذلَّـة أمَامَهم! فإن حَانَتْ منكَ حَرَكَةٌ في غير محلِّها، أو صَدَر مَا لم يَنْبَغِ، فَلَا تَترك مَن وَقَعَ عَلَيه الضَّررُ وأَصَابه الغُرْمُ حتىٰ تَعْتذِر إليه، وتُقَبِّل رأسَه وتَسْتَميحَه العُذْر، فيبرئُك الذمَّة، ويَرْضىٰ عَنك.

إنَّكَ لَا تَعْلَم يا بُنيَّ... قد يكُونُ في هـٰذا المجْلِس مَن يستسقىٰ به الغَمام، وهو في لِبَاسِ العَـوَام! فإن لم يَكُن، فهُو ـ كمَا أسْلَفْتُ لكَ ـ ضَيْفُ «الحسَين»، وكفىٰ بهـٰذا حُرْمَة ومنعَة وكَرامَة. فَلَا تُفَرِّق بينَهُم، ولَا تُقَدِّم أحَداً وتُؤثره بِحُسْن المعَامَلَة ومَزِيد الأحْتِرام والتوقير، اللهُمَّ إلَّا لمن قَدَّمَهُ ورَجَّحَه الشَّرع بمَا ندَبَ إليه.

بُنيَّ، كَان في حُسَينيَّتنا القَديمَة في «شَرق» قَاعَتَان، وَاحِدَة صَغيرة مُخَصَّصَة للأعْيَان والوُجَهَاء، وأُخْرىٰ كَبِيرة، هي القَاعَة الرئيسَة التي فيها المنبَر، وهي التي يَجلِسُ فيها بَقِيَّة النَّاسِ، وفَيهِم عُـمَّالٌ وفُقَرَاء... ومَا زِلْتُ أتذَكَّر أنَّ «وَالِدي» ﷺ، كَان يَأخُذ بيَدِي، وأنا طِفْلٌ صَغِير، يُخرِجني من القَاعَة الصَّغِيرة (المخْتَصَر) ويُدْخِلني ـ مع رُقِيِّ المنبر والشرُوع في القِراءَة ـ القَاعَة الرئيسَة، ويُسرُّ لي بأنَّ «الحسَين» ﷺ يَنْظُر إلىٰ هـٰؤلَاء ويُسَجِّلُ أسماء الحاضِرين هُنا، لَا أُولئِكَ الجالِسينَ في القَاعَة التي كُنَّا فيها!

ودَعْني أُنبِّهك وأُرشِدك إلىٰ وَاحِدَة من مَوارِد الآداب ومَواقع الخِدْمَة (لَعلَّها من الموارِد الخفِيَّة) التي تَغِيبُ عن أغلَبِ النَّاس ويُفَرِّطون بها، يُمكِنُك أن تَبلُغ من خِلَالها مَراتِب عَظِيمَة وتحصِّلَ خَيراً كَثِيراً، وهي تجْمَع بين تَـوقير قَاصِدِي الحسَينِيَّة وأحْتِرام المعَزِّين الوَافِدين إلىٰ المجْلِس، وبين ضَبْطِ النَّظْم في المجْلِس وتَرتيبه ونَظَافَته...

وهو من الأسرَار التي سَتَجْني مِنها كَثيراً، إنَّما عَلَيكَ أن تَأتي به بنِيَّة التَذَلُّل للمُؤمنين، وتَقْصِد الخضُوع لِضُيُوف «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

إنه في حِفْظِ أحْذِية ونعَال رُوَّاد المجْلِسِ وحُضَّار الحَسينيَّة!

تَصَوَّر بُنيَّ إنَّ هذه المفْرَدَة التي تَبْدُو جُزئيَّة وعَارِضَة، يُهمِلُها أغْلَبُ أصْحَاب الحُسَينيَّات والقَائمين علىٰ المجَالِس... كَم تَنْطَوِي علىٰ خَيْر وتَفْتَح من أبوَاب؟ حتىٰ أكَادُ أجْزِم أنكَ ستَلْمَسُ الآثَارَ وتَشْعُر بحُلُول البركَات فَوْر العَمَل بها! ذلكَ حِين تَتَعَامَل مَعَ رُوَّاد الحَسَينيَّة بِطَرِيقَة زُوَّار العَتَبَاتِ المقدَّسَة، فتُخَصِّص لأحْذِيتهم أمَاكِنَ ومَواضِع (أرفُف وخَزَائن) كَافِية، لَا مجرَّد خِزَانَة صَغِيرة (وكَأنها من بَاب رَفْع العَتَب!) سَرِيعاً مَا تمتَلِىء، لِتُترك بَقِيَّة الأحْذِية مُلْقَاة هُنا وهُناك، ومُكَدَّسَة علىٰ بَعضِها، حتىٰ تَعِيق الدَّاخِل والخَارِج، وتُرْبك انصِرافَ الجمْع عند فَضِّ المجْلِس.

ولَا تكتفِ بهذا، بل وكِّل مَن يُنظِّم الأحذِية ويَصُفُّها ويرتِّبها، فإذا خرَجَ المعزُّون وَجَدُوها مُعَدَّة للانتعال، حاضِرة تحت أقدامهم، رَصَصْتها علىٰ عكْس وِجْهَة الباب، فلَا يعاني أحَدٌ عند الخروج وانفِضَاض المجلس، ولَا يحار في البحث عن نعالِه، ولَا يُعِيق مَن خَلْفه. وإذا كَان المجْلِسُ كَبيراً والحضُور كَثيراً، واستَطَعْتَ أن تُخَصِّص مكَاناً وتُعِدَّ مَوْضِعاً لهذا الأمر (كشوانية)، فبِها ونعْم.

هل تَعْلَم بُنيَّ مَن الذين يَقُومُون بتَرتيب أحْذِية الزوَّار في حَرَم الإمام «الرِّضا» عليه السلام؟ ومَا هي درَجَاتهم ورتَبهم الاجتماعيَّة؟ انظُر بُنيَّ إلىٰ الناهِضِين برِعَاية وضيَافَة زُوَّار «الحسَيْن»، قَاصِدِي حَرَمه في «كَربلَاء» سَيْراً علىٰ الأقدَام في مُنَاسَبَاتِ «الأربعين» وفي النِّصفِ من شَعْبَان، انظُر كَيفَ يَتَفَانونَ ويَتَفَنَّنُون في تَقدِيم الخِدْمَة ويُبدِعُون في إظهَار الحبِّ والمودَّة والرَّحْمَة، وتجْسِيد قَوْل الله تعالىٰ: ﴿يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ (المائدة)، وهُم يتَذلَّلون للزوَّار المُشَاة، يُجْلِسُونهم علىٰ مَقَاعِد وَثِيرة، ويَنزعُون عَنهُم أحْذِيَتهم لِيُرِيحُوا أقدَامَهُم في أوْعِيَة وطُسُوت الميَاه السَاخِنَة، ثم يُدلِكُونها لِيُخَفِّفوا من آلَامِ السَيْر ومَشَقَّة قَطْع المسَافَات الطوِيلَة.

أنظُر بُنيَّ إلىٰ هٰؤلَاءِ المؤمنين السُّعَدَاء وفيهِم أصْحَاب المقَامَات من أعلىٰ الرتَب الأجْتِماعيَّة كالوزَراء والنُوَّاب، والعِلميَّة كَأسَاتِذة الجامِعَات ونُخَب الأطبَّاء والمهندِسِين، وتجِد أحَدَهُم ينتَظِر الرُّخْصَة وصُدُور الإذْن، ووُصُول دَوْرَه لخِدْمَة "الكشوَانيَّات" في حَرَم الإمَام «الرِّضَا» عليه السلام، سِنينَ مُتمادِيَة!... وتَعلَّم منهُم دَرسَ العِشْق والوَلاَء، وخُذ من عمَلِهم العِبْرة واتَّخذ طَريقتهم قُدْوة وأُسْوَة، فهٰذه والله هي العِزَّة الحقِيقيَّة، والمجْدُ والشَّرف الذي لَيْسَ وَراءَه مَجدٌ وفَخْرٌ وشَرف، أن تكُونَ تحتَ أقدَام زُوَّار ومُعَزي «آل محمد»...

أنْ تخفِضَ لهم جَنَاحَ الذلِّ من الرَّحْمة، زُوَّاراً كَانوا أو من المعزِّين الوَافِدين إلىٰ مجالِسهِم، والنَّاهِضِينَ ـ بأيِّ نَحْوٍ ـ بإحْيَاء شَعَائر مُصَابهم... هٰذا هُو السَّبِيل الذي يَقُودك لِتَطْويع النَّفْس ونَفْي الكِبْر والتهْذِيب المطلُوب الذي يَسْتَتْبع إخْرَاجك من ظُلُماتِ الجهْل والهوىٰ، ورَفْع الحُجُب عَنك، ثم فَتْح الأبواب أمامك، ويَسْمَح أن تَقِفَ، ولرُبَّما تَلِج، بمَنِّهم وكَرَمهم وعَطْفِهم علَيكَ ورَحْمتهم بِك، آفاق قُرْبهم ومَعْرِفتِهم عليهم السلام، وتَطَّلع علىٰ بعضِ أسرارهم، وتَدْخُل، كما تَقْرأ في نهاية "الجامِعَة الكَبيرة"، بعدَ ذِكْر كُلِّ تلك الصِّفَاتِ وتَعدِيد كُلِّ تِلك الآلاَء ونَشْر كُلِّ تِلك الفَضَائل، تجعَل دُعَاءَكَ وتختَصِر طَلِبتك في أن تَدْخُل في "جُملَة العَارِفين بهم وبحَقِّهم، وفي زُمرة المرحُومين بشَفَاعتهم".

بُنيَّ، إذا دخَلتَ في هٰذا وحَقَّقتَ في نَفْسِكَ ذلك، وصِرتَ تخدم روَّاد الحسينيَّة وتخضَع للمُعزِّين الوَافِدِين إلىٰ المجْلِس، ومَا عُدْت تَشْعُر بالهوَان والصَّغَار، أو أنكَ تخَوضُ مَعركَة تكَافحُ فيها نفسَك وتجاهِد هَواك وتُغَالِب أنفَتك وتُكَابِدُ في ذلك وتُعاني، وأنتَ تَصُفُّ النِّعَال لمن هُو أقلُّ مِنكَ شَأناً، وتخضَع وتَتَذَلَّل لمن تَتَفَوَّق عليه (وَفْق الموازين الظَّاهِرِيَّة المعْمُول بها) عِلماً أو دِيناً... بل صِرْتَ تَشْعُر ـ حقّاً ـ أنكَ أقلُّ الحضُور، وأنَّ مَا تَقُوم به هو أدنىٰ الوَاجِبُ تجاههم، بل إنَّ لهم الفَضْلَ علَيكَ والمِنَّة أن أفسَحُوا لك، وكَانُوا سَبَباً في تمكِينك من هٰذه الخِدْمَة، فتُدْرِك وتَنكَشِفَ لكَ حَقِيقَة أنك الأقلُّ والأحْقَر... عندَها تَكُون قد أفلَحْت! وتَكُون الأبواب قد فُتِحَت لك، وأنك صِرْتَ تَسْتَشْرف رِحَابَ المعرِفَة، وتَقِف علىٰ ضِفَاف المجْدِ والعِزِّ والشَّرف الحقيقي، فتحَيَّن واغتَنِم، وتحرَّ وانْشُد الخطوات التَالِيَة في هٰذا السَّبِيل (مما هُو خَارج نِطَاق هٰذه الرِّسَالَة).

تأجيل مجالِس العَزاء لِسَائر الأموات

من السُّنَن الحسَنَة المغيَّبة، والآداب المحبَّبة المضَيَّعة... عُرْفٌ يجْري في أغلَب بلَاد الشِّيعَة، يَذهَبُ إلىٰ تأجِيل مجالِس وَفياتهم الخَاصَّة، وتَأخِير مَا يَلْزَم من إعلَان الحِداد وتَلَقِّي العَزاء في أمواتهم والترحُّم علَيهم، حتىٰ يفرُغُوا من مُناسَبة وَفاة أحَدِ «الأئمة» عليهم السلام، أو ذِكرىٰ «عاشُوراء» والنهُوض بوَاجِب العَزَاء في مُصَابِ «الحسَين» عليه السلام.

وهو عُرفٌ مَا زَالَوا يَعْمَلُون به ويَلتَزِمُونه في بلَاد «القَطِيف» و«الإحسَاء» و«البحرَين» وبعض منَاطِق «الهند» و«باكِستَان» و«العِراق» و«إيران»، تَراهُم يُؤخِّرُون فَوَاتحهم وعَزَاء مَوْتاهُم إلىٰ مَا بعد مُناسَبَة وذِكْرىٰ وَفَاة «الإمام المعصُوم» عليه السلام إذا تَعارَضتَا، بل إذا تخلَّلت المناسَبَة أحَدَ أيام حِدَادِهم الثَلَاثة وقطَعَتها، أعلَنُوا إيقَافَ وتَعطِيل الفَاتحة ذلك اليوْم، ثم عَادُوا من بَعدِها ليَسْتَأنِفُوها علىٰ مَيِّتِهم، ويأخُذُون في تلقِّي العَزاء من جَديد! وهكذا إذا صَادَف أن تُوفِّي قَرِيبٌ لهم في العَشَرة الأُوَل من المحَرَّم، أجَّلُوا مجلِس الترحُّم والفَاتحة عَلَيه وأخَّرُوا تَلَقِّي العَزاء فيه إلىٰ مَا بعد انقِضَاء «عَاشُوراء»، بل الثالِث عَشَر من المحَرَّم (ذِكْرىٰ الدفن)... جَاعِلين هذه الأيام حَكْراً علىٰ مُصَاب «سيِّد الشُّهدَاء» عليه السلام، ووَقْفاً علىٰ تَعظِيم شَعَائره وإحْياءِ ذِكْراه.

وهي عَادَة كَرِيمَة وفَضِيلَة عظيمة، تُظْهِر المودَّة، وتجسِّد الوَلَاء، وتكْشف عُمْق الارتباط بين الشيعَة وبين «أئمَّتهم»، وهي رِسَالَة صَامِتة يُبلِّغها الفِعْلُ والعَمَل، قَبلَ الزَّعْم والقَوْل، تَضِجُّ إلىٰ العَالَم وتُعْلِن للقَريب والبعِيد أنَّ «الإمام» عندنا أعزُّ من الأهْل والوَلَد، وأغلىٰ من الرَّحِم والقَرابة، وأننا نعُضُّ علىٰ جِراحِنا ونكْتُم آلَامنا في مُصَابنا، بل نَنْسَاهَا ونهوِّن الخطْبَ فيها، لِنَنهَضَ بواجِبِ العَزَاء في مَصَائب سَادتنا «أهل البيت» عليهم السلام.

ولَا تجعَل بُنيَّ من القَوْل إنَّ الفَاتحَة التي تُقَام علىٰ الميِّت فيها ذِكْرٌ وقراءَةٌ وعَزَاء علىٰ «الحسَين» عليه السلام، ورثَاء، مَا لَا يخرجها عن المأتم الحسَينيِّ ولَا يجعَلها مختَلِفَة في شَيء، اللهُمَّ إلَّا تِلَاوَة خَتَمات القُرآن، وأيُّ ضَيْرٍ في هذا؟... لَا تجعَل من هذه المقُولَة التي يُكَرِّرها العَوام، ويُردِّدها غير العَارِفِين، مُسَوِّغاً يبعَثُ فيكَ التراخي عن هذا الأمر والتسَاهُل فيه، فالعُمدَة في عُنوان عَقْدِ المجلِس، والسَّبَب والباعِث.

وعلىٰ الرَّغْم من عِلمِي بالعُسْر والحرَج المصَاحِب لهٰذا الأمر، وصُعُوبة مخالَفة هٰذا العُرف، وتَداخُل العَوامل الاَجْتِماعيَّة والأطرَاف العَائليَّة في مَنْع تحقُّقه... إلَّا أنَّه من المظَاهِر التي علَيكَ أن تسعىٰ لإحْيَائها وتجاهِد لبَعْثِها مَا اَستَطَعْت.

كيفَ لَا ونَحْنُ نَرىٰ بعضَ العَوَائل يَعْمَدُون إلىٰ "كَسْر " الفَاتحة في يوم السبت؟! من مُنطَلَق لَا يخلُو من تَطَيُّر، كَوْن يَوم السبت "عوَّادٌ" كما يَزعُمُون، فيَقطَعُون عَزَاءَهُم بمَيِّتهِم ويختِمُون حِدَادَهم إذا تخلَّله يَوْمُ سَبْتٍ، ويُؤجِّلُونَه فلَا يبتَدِئُون به... ألَيْسَ من الأولىٰ أن نُرسِّخ عُرفاً وَلَائياً، ونَعمَد إلىٰ أدَبٍ حُسَينيٍّ عَظِيم؟

لِذَا علَيكَ أن تمنَعَ إقَامَة الفَوَاتح في حُسَينيَّتِك أيام وَفيَات «الأئمَّة» عليهم السلام، وتَعتَذِر لمن يَسْألك ذلك، وتَنصَحه بالتَّأجِيل، لِتقْطَع ظَاهِرة مَقِيتَة تَفَشَّت في حُسينيَّاتنا، هي أن يَدْخُل الوَارِد إلىٰ الحسَينيَّة في الخَامِسِ والعِشْرِين من شَوَّال ـ علىٰ سَبيل المثَال ـ قَاصِداً عَزَاء «الإمام الصادِق» عليه السلام، وإذا به يجِد أنه عَزاء آل فُلَان!

وها أنا مُوصِيكَ بُنيَّ وعَاهِدٌ إليك من الآن: إذا وَافَاني أجَلي في ذِكْرىٰ وَفَاة أحَد «الأئمَّة الأطهَار» عليهم السلام، أو في عَشَرة «عَاشُوراء»، فَلَا تُقِم الفَاتحة علىٰ رُوحي ولَا تعقِد مجلِس الترحُّم عليَّ إلَّا بعد فَراغِك من إقَامة المأتَم علىٰ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، وإنجَازِك وَاجِبك الأوَّل والأعظَم، وأدَاء حَقِّه.

الحِجَاب ومنع الاَختلَاط

إعلَم بُنيِّ أنَّ هُناكَ ذُنوباً تلحَقُك تبِعَتُها وإن لم تَرتكِبْها وتَجْتَرِحها، وتَنالُكَ جَرِيرتُها وإن لم تَقْتَرِفها وتَقَعْ فيها!...

إنها الذنُوب الاَجتِماعيَّة، والخطَايا العامَّة التي تَستَغْرِق فتَشْمَل العِبَاد وتَعُمُّ البلَاد، فتُشَكِّل أزَماتٍ وفِتَناً، من التي حَذَّر الله سُبحَانه وتَعَالىٰ منها في قَوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال)، لَا تختَصُّ عقُوبتُها بمَن وَقَعُوا فيها واَقترَفُوها، ولَا تَستَثني الذين لم يَظْلِمُوا... ذُنوبٌ أسَاسُها تَولِّي الظَّلَمَة، والركُون إلىٰ مَن أنكَر الوِلَاية الإلهيَّة، والتراخِي عن نُصْرة حقِّ «آل محمَّد» والدفَاع عنهُم عليهم السلام، وتَتَدَرَّج لتَبلُغ الاَستِخْفاف بأحْكَام الشريعَة، وهَتْك حُدُود الله.

ومنها حِجَابُ النسَاء، ومَا يَترَتَّب ويَتوَقَّف علَيه ويَنتَهي إليه من الحيَاءِ والعِفَّة.

إنَّ التَّراخِيَ والميُوعَة في الحِجَاب، وفَتْح بَابِ الأختِلَاط بين النِّسَاءِ والرِّجَال، يُورِث التسَيُّبَ والفَسَاد الأخلَاقيَّ في كُلِّ المجْتَمَع، وهو ممَا يَعُمُّ البَلَاءُ فيه الجمَيع، الملْتَزِم المتَمَسِّك، والمقصِّر المتهَاوِن علىٰ السَّوَاء. بَعْدَ أن يَأتي علىٰ وَاحِدَة من أعْظَم خِصَال المؤمن وكَمالَاته، هي الغَيْرَة، وأُخرىٰ من أعْظَم صِفَاتِ المؤمنَة وسَجَايَاهَا، هي الحيَاء! من فَرْطِ تجاهُل النِّدَاءَاتِ والتحْذِيرات القُرآنيَّة التي تَذْهَبُ في الأمر إلىٰ مَا يَتَصَوَّره بَعْضُهُم، أو صَوَّره، إغْرَاقاً وإفْرَاطاً (فتَعَسَّف في تَوْجِيهِه، وتَكَلَّف في تأوِيله، لِيُسوِّغ لِوَاقِعه المريض ويَلتمِسَ لنَفْسِه مَا يُبقيه في نِظَام الدين!)، وهي تتَحَسَّس من صَوْت الخلَاخِل ورنينها في أرجُل النِّسَاء، وإن كُنَّ مُحجَّبات مُستَّرات، لَا يَظهَر منهُنَّ شَيء ولَا يَنكَشِفُ من جَمالهِنَّ وحُسْنِهِنَّ أدنَاه! فأمرَ الله سُبحَانه وتَعالىٰ أن ﴿لَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴿٣١﴾﴾ (النور)، فلَرُبَّمَا أثَارَ صَوْتُ الخلَاخِل وجرْسها الذي يَضرِب حين تمشي المرأة، أثارَ صُورة في ذِهْن الرَّجل إذا سَمِعَه، فيَحْكي شَكْل سَاقَيْها أو يَعكِس شَيئاً يُمكِن لتفكِير الرَّجُل أن يَنتَقِل إليه، فيتَصَوَّر مَا يهيِّج شَهْوَته! نَاهِيكَ بصَوْت المرأة المبَاشِر، تَخَضَّعَت فيه وألَانَت القَوْل أم سَمِعَه الرَّجُلُ تخضُّعاً وليناً، سَواءً لِطَبيعَتِه، أو لِسُقْم السَّامع ومَرض نفسِيَّته ولَوْث رُوحيَّته... إنَّ هذا الحَسْم والصَّرامة في طَبيعَة العِلَاقة بين الجنسَين ودرَجَة التَّحَسُّس من الأتصَال بينَهما، يُوجِبُ فَصْلاً كَامِلاً في الحياةِ الأجتماعِيَّة ومَنْعاً للتدَاخُل في النِّطَاقَاتِ العامَّة، من محَافِل وتجمُّعَات، ومنها المجَالِس والحسَينيَّات.

إنَّ التَّهَاوُن في الحِجَاب، والتَّسَاهُل في مَنْع الأختِلَاط، يَسْلُبُ النِّسَاءَ حَياءَهُن، ويَسْتَدْرِجهُنَّ إلىٰ الجرأة والوَقَاحَة، مَا يُورِثهُنَّ وينتَهي بهنَّ إلىٰ الإخْلَال بالعِفَّة، كما يَمَسُّ قُدْس المحَافِل الدينيَّة والتَّجَمُّعات الإيمانيَّة، ويَنالُ من حُرمَتها وخَفَرها!

لقَد حدَّثني عَالم عارِف، بَرَأيٍ سَدِيدٍ وَصلَ إليه، لَا أدري أفي مكَاشَفَة بلَغَه وأدركَه، أم من رُؤية رُوحيَّة آستَنبطَه، وتحليل عِلْميٍّ أخلَاقيٍّ آستَلَّه، عَلَّل فيه وأرجَع، في جملَة العِلل والأسبَاب التي سَلَّطَت ومَكَّنت الحكْمَ البعثيَّ في «العِراق»، وحَرَمَت المؤمنين من زِيَارة «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وحظَرَت إقَامة المجَالِس الحسَينيَّة لِثلَاثة عُقُود عِجَاف...

أرجَعْه وعَـزَاه إلىٰ تهـاوُن النِّسَـاءِ في حِجَابهن، وهَتكِهنَّ حُرمة العَتَبـات المقدَّسة بدُخُولهنَّ غير المنضَبِط وتَراخِيهنَّ في السَّتر والعَفاف في تِلكَ الرِّحَاب. فكأنَّ «المولىٰ» غَضِبَ لهـٰذا وأعرَضَ عن نُصرَتنا، ولم يَعُد رَاغِباً في هـٰذه الزيَارات وتلْكُم " الزَائرات "، فخَلَّى بينَنا وبين الظَّالم، يَفتِك بِنَا ويجرِّعنَا الحرُوبَ والوَيلَات!

لَا تَستَغرِب من هـٰذا بُنيَّ ولَا تَستَبعِده، بل كُن في غَاية الحيطَة والحذَر أن تَقَعَ وتُسَاهِم في مثل هـٰذه الفِتنَة فتُبتَلى، مهمَا أحْسَنتَ حِجَابَ نسَائِكَ وحِفْظَهُن، بل ألزمْتهنَّ الخُدُور. فأنتَ في مُجتَمَع، وقد تَلْحَقُك جَرِيرة غَيرك، وتُصَاب بتَبِعَة أدَاءٍ اجتماعيٍّ عامٍّ فَاسِد، لَا يَدَ لكَ فيه ولَا دَخْل، وأنتَ منه بَراء! ولكِنَّك لم تُنكِره ولم تَسْعَ لِقَطْع دَابِره.

فالحذَر بُنيَّ من هـٰذا المزلَق الخطِير، إياكَ والتَّراخي في هـٰذا الأمر الشَّرعيِّ والاجتِماعي، والتَهَاون في مَسْألة حِجَاب النِّسَاء والفَصْل بينهن وبين الرِّجَال في مَراسِم وشَعَائر العَزَاء الحسَيْني... فلَسْتُ أخَافُ عَلَيكَ الإثـم من هـٰذا فحَسْب، بل أكثر مَا أخشَاهُ هو العُقُوبة الدُنيويَّة والأثر الوَضْعِي الذي قد يَبلُغ الحرمَان من نِعمَة إقَامة الشَّعَائر، وخَسَارة التَّصَدِّي والنُّهوض بالعَزَاء وتَشْييد المأتم! فكَمَا أنَّ أجْرَ الشُّكرِ الزيَادة والفَضْل والمزيد، فإنَّ جَزَاء كُفرَان النِّعْمَة يكُون حِرمَانها، وذلك هو الخُسران المبين.

وعلىٰ الرَّغْم من أنَّ مجلِس «الحسَين» عليه السلام هو محفِل كُلِّ عَاشِق، ودار كُلِّ مُحِبٍّ مُوالٍ، مُلتَزِماً مُتديِّناً كان أو لم يَكُن، عابِداً مُخلِصاً كانَ أو عَاصِياً مُرائياً، بل حتىٰ لو كَان مُتجَاهِراً بفِسْقِه مَعرُوفاً بمَعْصِيته، فالحسَينيَّة داره، ولَيْسَ لكَ أن تَصُدَّ أحَداً وتمنَعه عن مَأتم «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وتحرِمه رِفْدَه لِوَفْدِه... ولـٰكن هـٰذا شَيءٌ آخَر غير حِفْظِ حُرْمَة المجْلِس وضَبْطِ أدَائه وَفْق الشُّروط والضَّوَابط الشرعيَّة. فلِشَارِب الخمْر والمرابي وكلِّ عَاصٍ أن يَرِدَ المجلِس ويتَشرَّف، ولـٰكن عَلَيه أن يلتزِم بشُروطِ الحضُور، ويتَقيَّد بآدابه. وهـٰكذا السَّافِرة، أو المتهاوِنة في حِجَابها، لها أن تَأتي، ولـٰكن مُلتَزِمَة الشروطَ، مُراعِيَة الآداب، وهي إسْدَال الحِجَاب الكَامِل (أي العَبَاءَة، لَا الزَّيِّ المستَحْدَث المعرُوف بـ " عبَاءَة كتف "، ومَا هو إلَّا مُجرَّد ثَوْب!)، وتَرك التَبرُّج ووَضْع المسَاحِيق والتَّلَطُّخ بـالعُطُور، وتجنُّب أيِّ سُلُوك يَدخُل في الاختِلَاط ويَنالُ من الفَصْل بين النِّسَاء والرِّجَال.

لِذَا عَلَيكَ أن تَضبِط الحركَة إلى الحسَينيَّة، وتُنَظِّمَ الدخُول والخرُوج بما يُحقِّق الفَصْل ويَمْنعُ أيَّ احْتِكَاكٍ واختِلَاط في مُحيطِ الحسَينيَّة، سَواءٌ في فَترة التوَافدِ إليهَا، أو عند الانصِرَاف منها حِين الفَراغ والانتهَاء، أو في فَترة انعقَاد المجْلِس، عندَما تَضِيق القَاعَات بالحُضَّار، فيَضْطرَّ بعضُ الروَّاد للجُلُوس خَارج الحسَينيَّة، أو لمَا يفضِّلُه بَعضُهم من البقَاء خَارجاً وإن كَان هنَاك متَّسَعٌ في الداخِل، لِسَببٍ أو آخر.

وعلَيكَ في المواقع التي يَلزَم فيها الاتصَال مع النِّسَاء، لتَنظِيم النَّشَاط وتَنْسِيق العَمَل، من قَبيل تَبادُل الطَّعَام، أو القَضَايا الفنِيَّة، أو أيِّ طَارِئ، علَيكَ أن تُخصِّص وتُكَلِّفَ بعض ذوِي الأرحَام من العَامِلين في الحسَينيَّة من غَير الشَّبَاب، فتُعيِّن رَجُلاً وزَوْجَته، كَحَلْقة وَصْل ورَبْط، في آليَّة مُحكَمة ومُنْضَبِطَة، تحصُر نِطَاق الاتصَال والاحْتِكَاك في أدْنىٰ حُدُود، وتحفَظ المظهَر العَام للحُسَينيَّة بَعيداً عمَا يُشِينه ويَسْمَح بالطَّعْن والغمْزِ فيه.

التكَافل في الشعائر

من الأُمور العَامَّة التي يَجبُ أن تَلتَفِت إليهَا بُنيَّ وتَعِيَها...

أنَّ الشَّعَائر الحسَينيَّة قَضِيَّةٌ تكَافُلِيَّة، قِوَامُها تَعاضُد المؤمنين، لَا يُمكِن للمُؤمن أن يَقومَ بها وَحْدَه، اللهُمَّ إلَّا مَثْنىً وجماعَة، فَلَا فُرَادىٰ في الشَّعَائر، نَعم يُمكِنه أن يَختَلي بنَفْسِه في قِراءَة الشِّعْر والرثَاء، أو فَصْلٍ من السِّيرَة والمقْتَل، فيَسْتَحْضِر مَشَاهِد الفَاجِعَة ويَغْلِبه الحزْن، فيَبْكي ويحظىٰ بالأجْر والثَّواب، لكنه لَا يَكُون قد أقَامَ شَعِيرة أو أحيَا في النَّاسِ والمجتَمع أمْرَ «أهل البيت» عليهم السلام...

والعَمَل الجماعيُّ يَقتَضِي التكَافُلَ والتعَاضُد، وإلَّا لهوَىٰ وفَشِل، وخَابَ مَسعَاه وخَسِر، أو لم يحقِّق الشَّكلَ الصَّحِيح المطلُوب، والصُّورة المثلىٰ المرجُوَّة.

الشَّعَائر الحسَينيَّة طَاعَةٌ شَرَّفَ اللهُ سُبحَانه وتَعَالىٰ بها الفرقَة النَّاجِيَة والطَّائِفَة المحِقَّة، وهي عِبَادَة جماعيَّة، علىٰ النَّاهِضِين بها والقَائمِين عَلَيها أن يَتَفَهَّمُوا هذه الحقِيقَة بوَعْي ويتَقبَّلُوهَا برِضاً وطِيب نَفْسٍ وخَاطِر، وأن يتَسابقُوا علىٰ ذلك ويتَنافَسُوا فيه، ويبتَعِدُوا عن النزعَة الفرْديَّة والحالَة الشَّخْصِيَّة، ويتَعَاونُوا علىٰ أعظَم بِرٍّ وأكبَر تَقْوىً وأبيَن حَقٍّ يُمكِن أن يَنهَض به ويُمارِسه المؤمنُون جَماعَة.

مثلُها مَثَل الصَّلَاة، فالمؤمنُ الذي يَلتَحِق بصُفُوفِ الجماعَة يَكُون قَد قَبِلَ ورَضي وتَوافَق ـ ضِمْناً ـ علىٰ العَمَل مع الإمام وبقِيَّة المصَلِّين لأداء الفَرْض، فيتَحَمَّل الإمامُ القِرَاءَة عنه، وله أن يُعالِج شُكُوكه في الركَعَات وغَيرها بفِعْل الإمَام، كَما عَلَيه هو أن يُراعي حَالَ الجماعَة وصُفُوفها، فإذا التَحَقَ بالصَّفِّ الأول، أو حَيث يَكُون طَرِيقاً وَحِيداً لاتِّصَال بقيَّة المصَلِّين، عَلَيه أن يُبَادِر بتَكْبِيرة الإحْرَام أو التهيُّؤ لها، وأن لَا تكون صَلَاته قَصْراً في رُباعيَّة، فإذا فرغ من ركعَتَيْه بَقِي في مَوضِعه يُشَكِّل حَائلاً، أو قَامَ لينْصَرِف وتَرك مَوْضِعه خَالياً، غير عَابئ بمَن يتَّصِل به! كمَا عَلَيه أن لَا يُزعِجَ جَارَه في الصَّف، فيَجْهَر في أذكَارِه، أو يُزْعِجَه برائحَتِه من التعَرُّق أو من بقَايا طَعَام تَنَاوله، فيَحْضُر المسجِدَ دُون أن يَغتَسِل ويتَطَيَّب أو يُبدِّل ثِيَابه الملوَّثة، ومَا إلىٰ ذلك من سُنَن الجماعَة وأخْلَاقها.

هٰكذا الأمر في الشَّعَائر الحسَينيَّة... علىٰ المؤمن العَامِل أن يَعِيَ مَسؤوليَّته ودَوْره ومَوضِعه، ولَا يُقْدِم علىٰ تَصرِّف وفعْل يُخلُّ بالشَّعِيرة ويُزري بها، مُنطَلِقاً من حُريَّته ورَغْبتِه الشَّخْصِيَّة، ورَأيه الخَاص، وسُلْطَانه علىٰ نَفْسِه. كَمَا عَلَيه أن يَتَفهَّم أنَّ لهٰذا الدُّخُول لَوَازم، فيتَحَمَّل التبِعَات ويتَقبَّلها بصَدْر رَحْب، ويَعْفُو ويَسْمَح لمن ضَايقَه وأسَاءَ إليه بسَبَب هٰذا التجَمُّع والحشْد المزدَحِم، تَماماً كَمَا ينبَغي للزَّائر الذي يُريدُ أن يَسْتَلِم ضرَيح «الإمَام»، وقد رأىٰ الزحَام، فيقْحَم الجمُوع وهو يَعْلَم مُسْبَقاً مَا قَد يَنَالُه من إزعَاج ومَشقَّة، ولَربَّمَا من أذىً وإصَابة!

الحسَينيَّة بُنيٌ صُورة مُصَغَّرة للطَّائفَة المحِقَّة، وتجمُّع مَحدُودٌ يُمَثِّل الفِرقَة النَّاجِيَة، وصُورة مُكَبَّرة للبيت الشِّيعي الصَّغِير، ومُوَسَّعَة للعَائلَة المؤمنَة... نَحْنُ هنا في بيتِنا الكَبير، والحُضَّار إخوَاننا وأخَوَاتنا، ننهَض بمَا يكُون زَيْناً لـ «أهل البيت» عليهم السلام وأصحَاب المحْفِل، ونَتَعاوَن لمَا يُرضيهم عنَّا، فيرضىٰ الله.

❁ ❁ ❁

الوصية الخامسة:

الخطيب والقراءة

الخَطِيبُ والقَارِئ أو المنبَر الحسَينيُّ هو ركيزَة الشَّعَائر الحسَينيَّة، وقرَاءَة التعَازِي والمراثي هُو أصْلُها وأسَاسُهَا، بَل قِوَامُها...

كَانت سِيرة الشِّيعَة في إحْياء ذِكْرىٰ عَاشُوراء «الحسَين» عليه السلام ـ تَارِيخيّاً ـ تَقُوم علىٰ عَقْد المجَالِس التي تُنْشَدُ فيها المرَاثي وتُقْرأ السِّيرة ويتلىٰ "المقْتَل" ومَا جَرىٰ في وَاقِعَة «الطَّف». لَا بمعنىٰ أنَّ الشَّعَائر الحسَينيَّة كَانَت فِيما مضىٰ، مُنْحَصِرة في هذا النَّمَط، ومَحدُودة بهذه الطَّرِيقَة فَحَسْب، ولَا أنها بَدَأت به ثم تَطَوَّرت لِتَتَشَعَّب وتَتَنوَّع... لكنه كَانَ النَّمَط المطَّرِد في جميع الحِقَب التَّارِيخيَّة المتلَاحِقَة، الحَاضِر علىٰ مَدَىٰ المسِيرة الشِّيعِيَّة في إحيَاء الذِّكْرىٰ وتخلِيد المصَاب، بَيْنَما سِوَاه من صُوَر الشَّعَائر كَاللَّطْم والمواكِب والتَّشَابيه والإدْمَاء، تَراهُ بين مَدٍّ وجَزْرٍ، يخضَعُ لِعَوَامِل التَّغْيير والتَّبدِيل، وتَحكُمه الظُّرُوف والشَّرائط المخْتَلِفَة، والإمكَانيَّات المتفَاوِتة، دُونَ القِرَاءَة الحسَينيَّة ومجَالِس الرثَاء والعَزَاء، التي كَانت ومَا زالَت وستبقىٰ في أيِّ ظَرفٍ وكُلِّ زَمَانٍ ومَكَان... من هُنا أطلَقْتُ عَلَيها الأصْل والأسَاس، لَا لأسبَقيَّةٍ، ولَا لأيِّ مِعْيَارٍ آخَر.

المجَالس هي الأصل في الشّعَائر الحسَينيّة

إنَّ هُناكَ شَوَاهِد تَاريخيَّة تَدُلُّ علىٰ أنَّ أغلَبَ أنماطِ الشَّعَائِر كَانَ مَعْمُولاً بها منْذُ بَوَاكير أنشِطَة الإحْيَاء وبدَاياتِ العَمَل بالشَّعَائر، في الأيام الأُولىٰ التي أعقبَت الفَاجِعَة، نهض بها الشِّيعَة، وتَدَاركُوهَا سَرِيعاً، حتىٰ تألَّقت عبْر الزَّمَان، وتَوَاترت ووَصَلَت إلىٰ مَا هي عَلَيه اليوْم. فمُختَلِف صُوَر الجزَع كَالبُكَاء والصَّرخَة والصَّيْحَة واللَّطْم وشَقُّ الجَيْبِ والإدمَاء، وهكذا الأنماط التَّصْوِيريَّة كَالمواكب والتَّشَابيه... أُمورٌ كَانت من الصَّدْر الأوَّل للفَاجِعَة، مُتزَامنة بصُوَرهَا المتعَدِّدِة المعرُوفَة اليَوْم، كاتفَاق جمْع مُعَيَّن علىٰ نَمَطٍ وَاحِد مُشْتَرك يَلتَقي فيه إنشَادُهم وتَتَّفِق صَرْختُهم وحَرَكَتُهم وشَكْل جَزَعِهم، فيَلْطِمُون مَعاً علىٰ وَتيرة وَاحِدَة ويُرَدِّدون صَيْحَة وَاحِدَة، وهكذا الخرُوج في مَوَاكِب عَامَّة، ولعَلَّ «التوَّابين» هُم أوَّل مَن أسَّسَ المواكِب الحسَينيَّة (٦٥هـ)، حِين تجمَّعوا علىٰ شَاطئ «الفُرات» لما خَرَجَ بهم «سُلَيمان ابن صُرَد»، فما إن وَصَلُوا القبرَ الشَّرِيف بـ «كَربَلاء»، حتىٰ صَاحُوا صَيْحَة وَاحِدَة، وضَجّوا بالبُكَاءِ والعَوِيل، فما رُئيَ أكثر بَاكِياً من ذلك اليَوْم، ثم أقَامُوا عِندَه يَوْماً ولَيلَة يَبكُون ويتَضَرَّعُون، وهُم محُدِقين بالقَبر الشَّرِيف، مُزْدَحمين عَلَيه كَما يَزدَحِم الحاجُّ علىٰ الحَجَر الأسوَد.[1] وهذه مَولَاتنا «زَينب الكُبرىٰ» عليها السلام تسُنُّ للإدمَاء، علىٰ مَا روَىٰ «العلَّامة المجلِسي» و«القندُوزي»، لما رَأت رَأسَ «أخِيها» علىٰ رأس رُمْح، نَطَحَت جَبهَتها بمُقَدَّم المحْمِل أو بالأقتَاب، حتىٰ سَالَت الدِّمَاء من تحت مِقنَعتها، وجَعَلَت تقُول:

يا هِلَالاً لمَّا اسْتَتَمَّ كَمالا ✱ غَالَهُ خَسفُهُ فأبدَىٰ غُرُوبا

وعن «أبي عبدالله» عليه السلام قَال: "ولقَد شَقَقْنَ الجيُوب، ولَطَمْنَ علىٰ الخدُود الفَاطِمِيَّاتُ علىٰ «الحسَين بن عليٍّ» عليه السلام، وعلىٰ مِثله تُلْطَم الخدُود وتُشَقُّ الجيُوب".[2]

وقَد ذكَرتُ لكَ آنِفاً بعض صُوَر التَّشْبيه.[3]

---

(١) ذُكِر في (تاريخ الطَّبري) ج٤ ص٤٥٦. وفي (الكَامل) لـ «ابن الأثير» ج٤ ص١٧٨. وإن ذكَر «الشَّيخ جَعفر النَّقدي» في (تَاريخ الكَاظميين) ص٥٥ أنَّ «معزَّ الدولَة البُوَيْهي» أوَّل من سَنَّ مَوَاكِب أو طَرِيقَة اللَّطْم الجماعي.

(٢) (تهذيب الأحكام) ج٨ ص٣٢٥. وأنظر: (ينابيع المودَّة) ج٣ ص٨٧. و(الفردوس الأعلىٰ) ص١٩.

(٣) أنظر هامِش ص٨٥ من الكتاب.

بَل إنَّ مَا قَامَ به «أهلُ البيت» أنفُسُهم، قَبلَ كُلِّ هذا وذَاك، حِين عَوْدتهم من الأسْر، وقَصْدِهم قَبْر «الحسَين» عليه السلام في أربَعينِيَّة شَهَادَته، ومَعَهُم حُجَّة الله في الأرضين مَوْلَانا «زَين العَابدِين» عليه السلام، لـمَّا وَافَوْا الصَّحَابيَّ الجلِيل «جَابر بن عَبدِالله الأنصَاري» ومَن مَعَه... أسَّسَ لذَلك كُلِّه. فَقَد جَاءَ في «اللهُوف»:

لما رجَعَ نِسَاءُ «الحسَين» عليه السلام وعيَالُه من «الشَّام» وبلَغُوا «العِرَاق» قَالُوا للدَّليل:

مُرَّ بِنَا على طَرِيق «كَربلَاء». فَوَصَلُوا إلىٰ مَوْضِع المصْرع، فَوَجَدُوا «جَابر بن عَبدالله الأنصَاري» رحمه الله وجَماعَة من «بني هَاشِم» ورِجَالاً من «آل رَسُول الله» صلى الله عليه وآله، قَد وَردُوا لزِيَارة قَبر «الحسَين» عليه السلام فتوَافَوْا في وَقتٍ وَاحِد، وتَلَاقَوا بالبكَاء، والحزن، واللَّطْم، وأقامُوا المآتم المقْرِحَة للأكباد، واجتَمَعَ إليهم نِسَاءُ ذلك السَّواد، فأقَامُوا علىٰ ذلك أياماً. [1]

وقَد تَطَوَّر الأمر فيما بَعْد وتَرسَّخ حتىٰ بلَغَ اليَوْم الصُّوَر والأنماط التي تَرىٰ، تُحيي الذِّكرىٰ وتخلِّدها في شَعَائر وطُقُوس يَلتَزِمها المؤمنُون ويَتَوَارثُونها جِيلاً بعدَ جِيل.

هذا وإن كُنتَ تَرىٰ أنَّ الأصلَ والأسَاسَ (أهمَّ شَعِيرة حُسَينيَّة) في بَعضِ بِلَادِ الشِّيعَة يَعْدِل عن "القِرَاءَة" إلىٰ الخرُوج في مَواكِبَ تجُوبُ الطُّرقَات، سَوَاء بالإنشَادِ أو باللطْم أو بجَلْدِ الظهُور بالسَلَاسِل، وفي بلَاد أُخرىٰ يَميلُون إلىٰ إقامَة التَّشابيه المسرَحيَّة التي تُصَوِّر الفَاجِعَة، وهُنَاكَ مَن يَعتَمِد "اللطمِيَّات" (المراثي التي تُقرَأ بلَحْنٍ ووَتيرة تُنَظِّم اللَّطمَ بشَكْل جَماعيٍّ وتـرتِّبه)، ويَعُدُّه هو الأصْل... لكن الأعَمَّ الأغلَب، والمعتَمَد في مُعْظَم أوْطَان الشِّيعَة هو الارتكَازُ علىٰ المنبر وقراءَة التَّعزِيَة، ثم تَليهَا بقيَّة الشَّعَائر وتَتْبَعُها.

وهُو أمرٌ يُسْتَمَدُّ من النُّصُوص الشرعيَّة فَضْلاً عن التُّراث والتارِيخ...

فَفي حَدِيث «أبي هَارُون المكفُوف»، قَال: قَال لي «أبو عبدالله» عليه السلام:

يا «أبا هَارُون» أنشِدْني في «الحسَين» عليه السلام، فأنشَدْته.

فقال: أنشِدْني كما تُنشِدُون. يَعنِي بالرِّقَّة. قَال: فأنشَدْته:

أُمرُر علىٰ جَدَثِ «الحسَيْن» * فَـقُـل لأعْظُـمِـه الـزكـيَّـة

---

(١) «اللهوف» لـ «السيِّد ابن طَاوُوس» ص١١٤. و«جَلَاء العُيون» ج٢ ص٢٧٢.

قَال: فبكىٰ، ثم قَالَ: زِدْنِي. فأنشَدْته القَصِيدَة الأُخرىٰ.

قَال: فبكىٰ، فسَمِعتُ بكَاءً من خَلْف السِّتْر. فلَمَّا فرَغْتُ قَال:

يَا «أبا هَارُون»، مَن أنشَدَ في «الحسَين» شِعْراً فبكىٰ وأبكىٰ عَشرة كُتِبَت لهم الجنَّة، ومَن أنشَدَ في «الحسَين» شِعْراً فبكىٰ وأبكىٰ خمسة كُتِبَت لهم الجنَّة، ومَن أنشَدَ في «الحسين» شِعْراً فبكىٰ وأبكىٰ وَاحِداً كُتِبَت لهما الجنَّة، ومن ذُكِرَ «الحسَين» عنده فخَرَجَ من عَيْنه من الدَّمْع مِقْدَار جَنَاح الذبَاب، كَانَ ثَوابه علىٰ الله، ولم يَرْضَ لَه بدُون الجنَّة.[١]

وعن «محمَّد بن خَالِد»، عن «عَبدِالله بن حمَّاد»، عن «أبي عبدالله الصادق» عليه السلام، بعدَ أن ذكَرَ حَديثاً طَويلاً في ثَوابِ زيَارة «الحسَين» عليه السلام، قَال: بلَغَني أنَّ قَوْماً يأتونَه من نَوَاحي «الكُوفَة»، ونَاساً غيرهُم، ونسَاءً يَنْدُبنَه، وذلك في النِّصْفِ من شَعبَان، فمِن بين قَارِئ يَقْرأ، وقَاصٍّ يَقُصُّ، ونَادِبٍ يَنْدُب، وقَائل يَقُول المرَاثي. فَقُلتُ لَه: نَعَم، قَد شَهِدْتُ بَعْضَ مَا تَصِفُه. فقَال: الحمْدُ لله الذي جَعَلَ في الناسِ مَن يَفِدُ إلينَا ويَمْدَحُنَا ويَرثي لَنا، وجَعَل عَدُوَّنا مَن يَطعَنُ علَيهِم من قَرابتنا، وغَيرهُم يهدِّدُونهم ويُقَبِّحُون مَا يَصْنَعُون.[٢]

وقَال «أبوعَبدالله الصَّادِق» عليه السلام لـ «فُضَيْل بن يَسَار»: أتجلِسُون وتحدِّثُون؟

قَال: نَعَم، جُعِلْتُ فِدَاك. قَال عليه السلام: إنَّ تِلك المجَالِس أُحِبُّها، فأحْيُوا أمْرنا، فرَحِمَ الله مَن أحْيَا أمرنا. يا «فُضَيل»! من ذَكَرَنا أو ذُكِرْنَا عِندَه، فخَرَجَ من عَيْنه مِثْل جَنَاح الذبَاب، غَفَرَ الله لَه ذُنوبه.[٣]

ومن غَرِيب مَا اعتَرىٰ السَّاحة الإيمانيَّة، وفي سِيَاق حَرَكَة التيَّارات السيَاسيَّة الشِّيعيَّة (العَلْمانيَّة مِنهـا وحتىٰ الأُخرىٰ الدِّينيَّة) التي تُنَاهِضُ إقَامة العَزَاء وتُعَارِض الشَّعَائر الحسَينيَّة وتُنَاصِبهَا العَدَاء... صِرتَ تَسْمَعُ أصْوَاتاً تعرِض هذا الحدِيث الشريف مَبتُوراً، وتحمِله علىٰ غَير مَقْصُوده، دُونَ أدنىٰ الْتِزَام بالأمانَة أو احتِرام للتَّخَصُّص العِلْمِيِّ (الذي لَا يَسْمَحُ لهم بالدُّنوِّ من الدَّلِيل، نَاهِيكَ بالاستِدلَال، لكنهم يَفعَلُون!)...

---

(١) (كَامِلُ الزِّيَارات) لـ «ابن قُولَوَيه» ص٢٠٨.

(٢) المصدر السابق ص٥٣٩.

(٣) (قُرْبِ الإسْنَاد) لـ «الحميَري القُمِّي» ص٢٦.

فيَقُولُونَ إنَّ دُعَاءَ «الإمَام» عليه السلام: " رَحِمَ الله مَن أحْيَا أمرنَا " يَتَوَجَّه إلىٰ مَن يَلْتزِم الأحْكَام الفِقْهيَّة ويَتَقَيَّد بالشَّرعيَّة، ولَا عِلَاقة لَه بالشَّعَائِر الحسَينيَّة والعَمَل بها... فما " أمْرُ " «أهلِ البيْتِ» عليهم السلام إلَّا شَريعَة جَدِّهم صلى الله عليه وآله، وإحْيَاء الشريعَة بالعَمَل بها أو الدَّعْوة إليهَا وتَروِيجها، هو مَا يُريدُه «الإمَام» عليه السلام مِنَّا لَيْسَ إلَّا! ذلك علىٰ الرُّغْمِ من أنَّ تَتِمَّة الحديثِ (الذي يَبتُرونه!) تُغني عَن أيِّ تكلُّف، وتَكْفي المحْتَجَّ عن أيّة مَؤونَة، وتَصْرِف " أمرَهُم " عليهم السلام إلىٰ ذِكْرِهم وذكْرِ مُصَابهم، ومَا يهيِّجُ الدَّمعَة ويبعَث علىٰ البكَاء.

الرثاء هو الأصل في المجلِس الحسيني

وبعدَ أن عَرفْتَ أنَّ الأصْلَ في الشَّعَائر هو عَقْد المجَالِس و " القِراءَة الحسَينيَّة " ...

إعلَم بُنيَّ أنَّ الأصْلَ في المجلِسِ والقِرَاءَة هو إنشَادُ المراثي وتهييجُ العَوَاطِف وٱستِدْرار الدَّمعَة وتَسْبيب البُكَاء. إنما شُرِّعَت المجَالِس لهٰذه العِلَّة، وحَثَّ الشَّارِعُ المقدَّس ونَدَبَ إليها لهٰذه الحِكْمَة، وهي رِثَاءُ «سيِّد الشُّهَدَاءِ» عليه السلام ونُدْبته، وإنشَادُ الشِّعْر وقراءَة سِيرته، وتلَاوة مَقْتَلِه، بما يحرِّكُ مَشَاعِر المستَمِعين ويُهيِّجُ عَاطِفَتهم ويَبعَثُهم علىٰ البكَاء.

هٰذا هُو الأصلُ والأسَاسُ الذي تَنْطَلِق منه القِراءَة الحسَينيَّة وتَرتَكز علَيه.

وهُو مَا عَلَيكَ أن تَلْتَزِمَ به وتحرِصَ علَيه، وتَصُرَّ وتُؤكِّد، فَلَا تَسْمَح بالإخْلَال والمسِّ به بأيِّ نَحْو، وٱجْعَل بُنيَّ من هٰذا الخطِير أصْلاً تلتَزِمه بحِدَّة، وتَتَمَسَّك به بِشِدَّة، ولَا تَتَهَاوَن فيه البَتَّة. وبعْدَ ذلك يأتي نَشْر العِلْم وتكُونُ الموْعظَة، ومَا إليهَا من قَضَايا مَشْرُوعَة، وكُلُّها تَوابع ومُلْحَقَات لهٰذا الأصْل الخطِير.

أمَا القَضَايا الأجتماعيَّة، والحوَادِث ومَا يتَعَلَّق بالشُّؤون السِّياسِيَّة، فهِي أُمورٌ خَارِجَة عن أصْل المجْلِس الحسَيني... ويُمكِن أن تَدْخَل فيه - إن دَخَلَت - لأمرٍ دينيٍّ بَحْت، إذا ٱنطَلَقَ من حُكْم شرعيٍّ بيِّن، يَسْتَنِد إلىٰ أدِلَّة عِلْمِيَّة وَاضِحَة باتَّة، لَا تعتَمِدُ الشَّاذَّ من الأقوَال، ولَا تَقُومُ علىٰ المتهَافِت من الأستِدْلَال، وهٰكذا تَأتي من تَطبيقَات خَارِجيَّة جَازِمَة، وتَشْخِيصٍ للمَوْضُوع لَا يعتَرِيه شَكٌّ ولَا رَيْب، في صِحَّته ومُوَافَقَته للوَاقع وٱنطِبَاقِه عَلَيه، وفي سَلَامة القَصْد ونَزَاهَة الهدَف... مما يُوجِبُ الأمر بالمعرُوف والنَّهيَ عن المنكَر، مع ٱكْتِمال شُرُوطِه وتحقُّق مُوجِباته.

والأهمُّ في هذا الصَّعيد أن يبقىٰ ذلك كُلُّه في هَامِش الملحَق والعَارِض، الذي لَا يَنَالُ من الأصْل ولَا يخدِش بالجوْهَر. ويجبُ التَّعَاطي معَه وَفْق أحكَام الأضْطِرار، فنَحْنُ نَجتَمع ونلتَقي، ونقِيم المأتم، ونُشَيِّدُ الحسَينيَّة، لِكَي نبكِي «الحسَين» عليه السلام ونُحيي ذِكْره، فإذا عرَض عَارِضٌ شَرعيٌّ فأوْجَب، وحَكَم حَادِثٌ أجتماعيٌّ فألَحَّ وقضىٰ، تَعرَّضْتَ لَه في المجْلِس وتَناوَلتَه بشَكْل عَابِر، ثم عُدْتَ للأصْل ورَجَعتَ إلىٰ الأسَاس.

وبصَراحَة لَا تحتَمِل التأوِيل، ووُضُوح لَا مُوارَبة فيه... إعْلَم بُنيَّ أن التيَّارات السيَاسيَّة الدينيَّة (وقَد خَبَرتُهم عن قُرب، وعَجَمْتُهم فلَفَظْتُهم لِضَلَالهم، وسَبَرتُهم فشَنَأتُهم لأنحِرافِهم!) خَطَرٌ دَاهِمٌ علىٰ الدِّين، وعُنْصُر فَسَادٍ فيه، وإفسَادٍ لأهلِه وأتبَاعِه، فَهُم يُريدُون أهدَافهم السيَاسيَّة، ويَتَطَلَّعُون إلىٰ مَغَانِمهم المادِّية، ويُلَاحِقُونَ أطْماعَهُم في حُطَام الدُّنيا من ثَرْوَة وجَاهٍ وشُهْرَة وسُلْطَة، ويَتَحَايلُون ـ في سَبيل ذلك ـ ولَا يَأبوْن أن يَقَعُوا في أيِّ محذور، ويَقْترِفوا أيَّ عَار، وينتَهِكُوا أية حُرمَة! وقَد رأينَاهُم كَيفَ يَدْنُون من حِيَاضِ الدِّين فيَعبَثُونَ بمَفَاهِيمه، ويَقْلِبُون أحكَامه، ويُزيِّفون ويحرِّفُون، حتىٰ شَكَّكوا بفَضَائل «أهل البيت» وأنكَرُوا ظُلَامَة «الزَّهْراء»، وصَرَفُوا معنىٰ "الوِلَاية" وجَعَلُوهَا لقَادَتِهم، وتَنكَّرُوا من "البراءَة" ليُدَاهِنُوا أعدَاءَ «آل محمَّد» من خُلَفَائهم.

فلَا تَسْمَح لمجْلِسك أن يَكُونَ مَطِيَّة لأهدَافِهم الرَّخِيصَة، ولَا تُلَوِّث فَضَاءَ الحسَينيَّة الملكُوتي بذِكْرِهم وتَناوُل قضَاياهُم والخوْض في شُؤونهم.

أمَا الحوَادِث الحقَّة، كَموَاقِف المراجع العِظَام (من الفُقَهَاء الجامِعين لِشَرائطِ الفَتْوىٰ والتَّقليد، لَا الأدْعِيَاء المزيَّفين من أتبَاع الحكُومَات، والسيَاسِيين المتَاجِرين بالدِّين، صَنَائع الدِّعَاية والمخَابرَات لَا حَلَقَاتُ العِلْم والحوْزَات) في بَعْضِ القَضَايا المصِيريَّة، وهكذا الشُّؤون الأجتِماعيَّة المُلِحَّة كَتَفَشِّي بَعضِ الظَّواهِر السَّلبيَّة وهُجُوم بعض الأفكَار التَّغْربيَّة... فهذا مما يجبُ أن يبقىٰ في حُدُوده، ويُنظَر إليه كأضطِرار طرَأ علىٰ أصْل دَوْر المجلِس الحُسَيني، والمضْطَرُّ إلىٰ أكْل الميتَة لإنقَاذ نَفْسه من الهَلَاك جُوعاً علَيه أن يَكْتَفي بما يَسُدُّ رَمَقَه، لَا أن يَشْبَع منهَا ويُتْخَم! والمضْطَرُّ لِشُرْبِ الخمْر لإطفَاء غُلَّته ودَفْع المَوتِ من الظَّمأ، لَا يجُوزُ له أن يَكْرعَ حتىٰ الصُّبَابة، فينْتَشي من سُكْرٍ ويَرتَع في ثَمَل!

فالملاحَظُ أنَّ الذّين يَدْخُلُون ويَلِجُون من هـٰذا البَاب، ويخُوضُونَ في هـٰذا العُبَاب، يَمضُونَ فيه ويُغرقُون حتىٰ يَستَوْلُوا علىٰ المنبر ويحتلُّوه، ويَسْتَحْوِذونَ علىٰ مَوْضُوعه ووَقته كُلِّه، فيَتيهُون ويَضِيعُون ويَغرَقُون، وهُم يجعَلُون الرثَاء والبُكَاء، ومَا شُرِّع المجلِس الحُسينيُّ له وسُنَّ لأجلِه، يجعَلُونه نَافِلَة قَوْلهم وفَضْلَة مَجلِسهِم!

ولَسْتُ أنزَعُ ـ بهـٰذا الحِرص والتأكِيد علىٰ نَبْذِ السِّيَاسَة ـ عن المجْلِس الحسَينيِّ عَطَاءً من عَطَاءَاته المجيدَة، وأتنكَّر أو أحْجُبُ شَيئاً من بركَاتِه العَظِيمَة، والتي منهَا تَدَاوُل شُؤون المسلِمِين وتَعرُّفُ أحْوَالهم، واستِنْهَاض المؤمنين وتَعبِئَة طَاقَاتِهِم، وهـٰكذا دَفْعُ شُرور الظَّالمين وإفشَاءُ المعرُوف ومُحارَبَة المنكَر... ولكِنِّي أُريدُ أنَّ هـٰذا وغيره هُوَ من عَطَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة، ويَكُونُ مُحصِّلَة تِلقَائيَّة ونَتِيجَة طبيعيَّة، ولَيس غَرَضَهَا الذي يُقْصَد، وهَدَفَهَا الذي يُلَاحَق، وغَايتَها التي تُنْظَر! فيُقَال إنَّ «الحسَين» عليه السلام استُشهِدَ مُجاهِداً، وقضىٰ في طَرِيق الأمر بالمعرُوف والنَّهي عن المنكَر، وإحْيَاء ذِكْراه يجبُ أن يَرتبِطَ بفَلسَفَة قِيامِه وخُرُوجه وشَهَادته، فعَلَينا أن نُوظِّفَ المنبر للنُّهُوض والقِيَام والثَّوْرَة!

كَلَّا يا بُنيَّ، لَيسَ الأمرُ كما يُصَوِّرون، فكما إنَّ نَفْيَ الجِهَاد وإنكَارَ القِيَام من القَامُوس الحسَينيِّ أمرٌ يُجانِب العَدَالة والإنصَاف، فإنَّ التركِيز علىٰ هـٰذا الأمرِ والمبالَغَة فيه، ومَا يَنتَهي إلىٰ حَصْر القضيَّة في إطَار وَاحِد، هو ظُلْمٌ أكثر فُحْشاً... فـ «الحسَين» هو الدِّين كُلُّه، بجَمِيع عُلُومه ومَعَارِفه، وأحكَامِه وشَرائعه، ورُوحِه وجَوْهَرِه، ومن الظُّلم بمَكَان والغَبْن في الغَايَة أن تُحصَر قَضِيَّته في جَانبٍ وَاحِد، مَا هُو إلَّا عَطَاءٌ وفَيْض.

ثم اعلَم بُنيَّ أنَّ «الحسَين» هو ثَارُ الله، الذي لَا يأخُذُه إلَّا «وَليُّ الله»... ونَحْنُ مأمُورُون ـ شَرعاً ـ برثَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وإقَامة المجَالِس والبُكَاءِ عَلَيه، وهي عِبَادَة تُقْصَد لِذَاتها وتُلَاحَق لنَفْسِها، فنَحْنُ نَقْصِدُ الرثَاءَ والبُكَاء، للرثَاءِ والبُكَاء، لَا لِشَيءٍ آخَر! إذ البُكَاءُ عِبَادَة قَائِمَة بِذَاتها، والرثَاء فَرِيضَة تُقْصَد بنَفْسِها، ونَحْنُ مُتَعبِّدُون، نَلتَزِم الخضُوع والتَّسْلِيم، دُون بَحْثٍ في عِلَل الشَّرائع، وتَنقِيب عن فَلسَفَات الأحكَام، فإن وَقَفنَا علىٰ شَيءٍ منهَا واكتَشَفْنا بَعضَهَا، فنَحْنُ لَا نَغْفَل أنه جُزءُ العِلَّة وبَعضُ السَّبَب، إذ العِلَّة التامَّة عِندَ الله عزَّ وجَل، في مُستَسَرِّ عِلْمِه ومَكْنُون غَيْبِه.

فإذا قُمْنَا بوَاجِب الرثَاء، ونهَضْنَا بعِبَادة البكَاء، وأدَّينَاهَا كَما يجبُ من الإخْلَاص والإجَادة والإتقَان، سَنَجِدُ أنَّ كَثيراً من الغَايات النَّبيلَة والأهدَاف العَظِيمَة تَلحَقُ بها وتَتَابع من بركَاتها، كَتَوْريث التَّقْوَىٰ والوَرَع، والرَّبْطِ علىٰ القُلُوب في المعتَقَدَات وتَرسيخ الوَلَاء لـ «أهل البيت» عليهم السلام والبَراءَة من أعدَائِهم، وإيقَاظِ شُعْلَة الغِيرة والحمِيَّة، و إذكَاءِ إباء الضَّيْم، وبَثِّ العِزَّة والشَّجَاعَة، وإفشَاءِ النكِير علىٰ الظَّلَمة... تماماً كَما نَقْصِدُ الصَّلَاةَ للصَّلَاة، فإذا أخلَصْنَا فيها وأحْسَنَّا أداءَها، أوْرثتنا الأنتِهَاءِ عن الفَحْشَاءِ والمنكَر. ونَقْصِدُ الصِّيَام للصِّيَام، فَنَشْعُر بِحَالِ الفُقَرَاء ونَسْتَحْضِرَ جُوعَ وعَطَش يَوْم القِيَامَة، ونَقْصِدُ الزكَاةَ للزكَاة، فيَنْدَفع بِسَبَبِها البَلَاء عن البِلَاد، وتَتنزَّلُ ببركَتهَا الرَّحمة... إنها آثارٌ وتَوابع، لَا يَنبَغي أن تُقْصَد مبَاشَرة، ولَا يَصِحُّ أن تُسْتَهدَف، فما عَلَينا هو إتيَانُ العِبَادة كَما شُرِّعَت وأمرَ بها الله، فإذا لحِقَتهَا الآثَارُ وتبِعَتهَا فبِهَا ونعْمَ، لَا أن نَضعَ الآثَار والنَّتَائج نَصْبَ أعيُننا، نَستَهدِفهَا ونَقْصِدُهَا، ونَتَوَجَّهُ إليهَا ونسعىٰ، فنَفتَحُ بَاباً مَا أُمِرْنا به، ونبتَدعُ في الدِّين، فيَستزلُّنا الشَّيْطَانُ ويُضِلُّنا حتىٰ تَضِيعَ العِبَادَة وتَتلَف، ويُهدَر كَذلك الهدَفُ ويَضِيع!

من هُنا بُنيَّ، وقَد عَلِمتَ خَطَر الأمر ووَقَفْتَ علىٰ جَانِب من تَشَعُّبه وتَعقِيدِه، أو تَركُّبه وعُمْقِه، عَلَيكَ أختِيَار الخطِيب وأنتِخَاب القَارِئ بمنتهىٰ الدِّقَة والوَعْيِ والحِكْمة، وأن لَا تَتَهَاوَن في هـٰذا الخَطِير، ولَا تُوَفِّر وُسْعاً وجُهداً في هـٰذا السَّبيل...

المجالِسُ درَجَاتٌ والخطَبَاءُ مَراتب

ثم أعْلَم أنَّ المجَالِسَ والخطَبَاء مَراتبٌ ودَرَجَات، وأنواعٌ وأقسَام.

هُناكَ القَارِئُ التقليدِيُّ والرَّاثي الشَّعْبي، الذي يُعرَف في بلَادِنا بـ "المُلَّا"، يَعْقِد مجلِسَه ويَقْضِيه علىٰ قِراءَة العَزَاء وإنشَادِ الرثَاء، وسَرْد رِوَاية المقتَل، أو فُصُول منهَا، فإن مَالَ عن هـٰذا وخَرَج إلىٰ شَيءٍ غيْره، وفرَّع في مَجلِسه وتوَسَّع في قِراءَته، فهو لَن يتَجَاوَز نُصُوصاً ومحفُوظَات مَأثورة في فضَائل «أهل البيت» عليهم السلام وكَرامَاتهم، أو مَوْعظَة يُنبِّه فيها مُستَمعيه، تَدعُوهُم إلىٰ التَّقْوَىٰ وتُذكِّرهُم بالطَّاعَة وتُرشِدهُم إلىٰ مكَارم الأخْلَاق. وغَالِباً لَا يكُونُ هـٰؤلَاء من أهْل العِلْم، لَا طَلَبَة ولَا عُلَماء، ولَرُبَّما لم يحضُرُوا في الحَوْزَات ولَا شَهِدُوا دُرُوسَها، ولَا عَرفُوا مَنَاهِجَهَا وكُتُبَهَا.

وهُنَاكَ الخطِيبُ الضَّلِيع، العَالِم بالفَنّ، المتخَصِّص الممارِس، الذي يَعرِض في خِطَابته الآراء العِلْمِيَّة، ويُقَدِّم الأفكَار الدِّينِيَّة، ويُصَوِّر المفَاهِيم الإسْلَامِيَّة، ولَرُبَّما اجتَهَدَ واستَنْبَط، ونَظَّر لفِكْرة وأسَّسَ... وفي هٰؤلَاء طَلَبَةٌ وعُلَماء، وفيهم مفَكِّرُونَ ومثَقَّفُون، وكَذَا فيهِم مَن أقحَمَ نَفْسَه، وانتَحَل مَا ليْسَ لَه، وغَشَّ النَّاسَ وتَلَبَّس بزِيٍّ غَيره، وكَان الحقُّ أن يَكُون في الطَّائِفَة الأُولىٰ، أي من "الملَالي"، لٰكنه تكَبَّر وتغَطْرَس، وادَّعىٰ ودَلَّس!

والتعَامُل مع كُلٍّ من هَاتَيْن الطَّائفَتين وأفرَادِهما يختَلِف، ويتَفَاوَت كُلٌّ بحَسَبه.

فلَيْسَ مَن يَدَّعي العِلْم والتَّخَصُّص، ويَمتَطِي صَهْوَة الفِكْر ويَنْتَسِب إلىٰ الثقَافَة، كَمَن لَا يدَّعي شَيئاً ولَا يَنْتَحِلُ صِفَة، ولَا يَزعُم لِنفْسِه عُنوَاناً ومَقَاماً، وفي الحقِيقَة لَا يتَبَجَّح!... لَيْسَا سَوَاء. فَلَا الموقفُ مِنهُما وَاحِدٌ، ولَا التعَامُل والتَّعَاطي، ولَا المرجُوُّ المرتَقَب، فالمطَالَبة والمحَاسَبة.

وهٰكذا هي المجَالِسُ "القِراءَات"... فَلَا تُنزِل ولَا تَرتَقِب من مجلِسٍ يَوْميٍّ صَغير، أو أُسبُوعِيٍّ محَدُود في حَجْمِه ودَوْره، مُغْلَق علىٰ رُوَّادِه الشَّيبَة وحُضُوره العَائِليِّ الخَاص (علىٰ سَبيل المثال)، مَا تَنتَظِره وتَرْجُوه من المجَالِس العامَّة أيام المواسِم والمنَاسَبات، التي تُعقَد في حُسَيْنيَّات رئيسَة كَبيرة، وتَؤمُّها مختَلِف الطَّبقَات، من جُموع الشبَاب، والمتعَلِّمين والمثقَّفين، بأعدَادٍ كَبيرة، وبرُوحِيَّات مُتعَطِّشَة للعِلْم، مُقْبِلَة علىٰ المعرِفة، ومتَأجِّجَة بالرَّوْحَانيَّة ومُفْعَمة بالوَلَاء... فهٰذه يكُونُ بها، وتَتَبلوَر من خِلَالها - في وَاقع الأمر - شَعِيريَّة الشَّعِيرَة الحسَيْنِيَّة، والظُّهُور الاجتِماعِيِّ العَام للحَدَث في البلَد أو المنطَقة.

وفي المقَابل، هُنَاكَ بُنيً قَوَاسِمَ مُشتَرَكَة بين النَّوْعيتَيْن من القِرَاءَات، والطَّائفَتَين من الخُطَباء والقَارئين الحُسَيْنيين، هي في حَقيقَتِهَا شَرائطُ وثَوابِتُ لَا يَجوزُ أن تحِيدَ عَنهَا أبداً...

أوَّلها سَلَامَة النَّهج والعَقِيدَة، وإن شِئْتَ فعبِّر بـ "هُوِيَّة الخَطِيب"، أي الخطُّ والمدرَسَة والنَّهُجُ الذي يَنْتَمِي إليه عَقَائِدياً وفكْرِياً، ويَلْتَزِمه سِيَاسيّاً، وحتىٰ اجتِماعيّاً من خِلَال العِلَاقَات التي قد تَربِطه بالضُّلَّال المنحَرِفين، والصِّلَات والمرَاوَدَات التي تجمَعه بهم، التي لَا تخلُو من تَأثير في إشَاعَة البَاطِل وإزالَة قُبْح القَبيح وسُوء المنكَر، وفي أقَلِّ التَّقدِير: تَدْخُل في الرَّبْط علىٰ القُلُوب وتَكْثِير السَّوَاد.

الشروطُ الوَاجِبَة في المجْلِس والخَطِيب

الخَطِيبُ الحُسَينيُّ يجبُ أن يكُون صَحِيح المذهَب وكَامِل المعتَقَـد، في أعلىٰ درجَات الوَلاَءِ ومَرَاتبِ المعرفَة (سَوَاء عن عِلْم وحُجَّة ودَلِيل، أو فِطْرَة نقِيَّة وتَسْلِيم)، مُؤمناً بالعَقَائد الإمَامِيَّة المُتَسَالَم والمتَّفَق علَيهَا، المنقُولَـة كَابِراً عن كَابِر، والمورُوثة جِيلاً بعدَ جِيل، لَا يَشُذُّ عنها ولَا يَبتَدع فيهَا، لَا يُشرِّق ولَا يُغرِّب، بل يَلْتَزِم النِمْرِقَة الوُسطىٰ، كما أمرَ إمَامُنا «الباقر» عليه السلام، قَال: "يا مَعْشَر شِيعَة «آل محمَّد»، كُونُوا النِمْرِقَة الوُسطىٰ، يَرجع إليكُم الغَالي، ويَلْحَقُ بكُم التَّالي"[(١)]، وكَما علَّمَنا مَوْلَانا «زَينُ العَابِدِين» عليه السلام في الصَّلَوَات الشَّعبَانِيَّة: "المتقَدِّمُ لهم مَارِقٌ، والمتأخِّرُ عنهُم زاهِقٌ، واللَّازِم لهم لَاحِق"[(٢)]... لَا غُلُوٌّ وإفراط يُـؤَلِّه «الإمَام» عليه السلام ويجعَلْه وَاجِباً قَدِيماً، فَشَرِيكاً لله عـزَّ وجلَّ، والعيَاذُ بالله، ولَا إجْحَافٌ وتَفْرِيطٌ يبْخَسُه حَقَّه، ويَنْفي خَصَائِصَه ومَقَامَاته ومَراتبه التي رتَّبَهُ اللهُ فيها، فيَجْعَله كَسَائِر البَشَر، لَا يختلِف في خَلْقٍ وخُلُق، ولَا يتَفَوَّق في صِفَة ومَلَكَة، ولَا يتميَّز بقُدْرة وقُوَّة... بل عَدَالَة وإنصَاف، تجعَل لـ «المعصُوم» عليه السلام ربّاً يَؤوبُ إلَيه، و "قَدِيماً" هو من وَرائه حَادِثٌ، و "وَاجِباً" هو من بَعدِه ممكِنٌ، ثم يقُولُ فيه مَا يَشَاء، ومهْما قَالَ فلَن يحصي ثنَاءَه، وأينَما ذهَبَ فلَن يبلُغَ من المدْح كُنْهَه، ومن الوَصْفِ قَدْرَه.

فالخطيبُ يَقَعُ في المَقَام الذي يُشِير ويُرشِدُ إليه الحدِيث: "مَن أصغىٰ إلىٰ نَاطِق فقَد عَبَدَه، فإن كَانَ النَّاطِقُ يُؤدِّي عن الله عزَّ وجلَّ، فقد عَبَدَ الله، وإن كَانَ النَّاطِقُ يُؤدِّي عن الشَّيْطَان، فقَد عَبَدَ الشَّيْطَان"[(٣)]... فَلَا تَنصِبَ بُنيَّ لِحُضَّار مجلِسِكَ شَيطَاناً أو نَاطِقاً عن الشَّيْطَان! ولَا تُقَدِّم لهم وتُطعِمهُم السُّمُوم والآفات، أو الفَضْلَة والفُتات (إذ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ (عبس))، وهكذا لَا تحضُر أنتَ في مجْلِس ولَا تَسْمَع لشَيْطَانٍ أو نَاطِق عن شَيْطَان، اغتَصَبَ مِنبرَ «رَسُول الله» صلى الله عليه وآله، واعتَلَاه بالـزُّور والتَّزوير، ولَا تأكُل إلَّا من طَاهِر "الطَّعَام" زكيِّه، وخَالِصِ الفِكْر نقِيِّه.

---

(١) (الكَافي) لـ «الكُليني» ج٦ ص٤٣٤.

(٢) (مِصْبَاح المتهجِّد) لـ «الشيخ الطوسي» ص٨٢٨.

(٣) (الكَافي) لـ «الكُليني» ج٢ ص٧٥.

والمعْضِلَة بُنيَّ هي في تَشْخِيصِ هـٰؤلَاء وكَشْفِهم، إذ إنَّ قِلَّة من المنحَرِفين الضُّلَّال، والمبتَدِعين الشُّذَّاذ، يُقِرُّون بحَالهم، ويجْرُؤون على الإعْلَان عن مَوَاقفِهم وبَيَانِ وتحدِيد هُوِيَّتهم، فالأغلَبُ منهُم يُوارُون ويُنكِرُون، ويُراوِغُون ويَتَستَّرُون!...

لِذا عَلَيكَ التَّحَرِّي والتَّقَصِّي مَا أمكَنك، ومُتَابعَة أحْوَال جميع الخُطَبَاء وسِيَر أعْلَام القُرَّاء الحُسَيْنِيين ومَغْمُوريهم، ورَصْدَ مَجَالِسِهم ومَقُولَاتهم، لِتعْرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ منهُم بَعَيْنه، وتُشَخِّصَ حَالَه وتُحدِّد خَطَّه ونَهْجَه وهُوِيَّته ومَرتَبَته العِلْمِيَّة والرُّوحِيَّة، ولَيْسَ هـٰذا من التَّجَسُّسِ أو التَّطَفُّل والفُضُول، بَل هو في صَمِيم دَوْرِك ووَاجِبك ومَسؤوليَّتك، وهو مِن مَصَادِيق مَا نَدَبَ إليه قَوْلُ مَوْلَانا «الصَّادق» عليه السلام: "على العَاقِل أن يَكُونَ عَارفاً بزَمَانِه"، حتى لَا تَنْطَلِي عَلَيكَ حِيَلُ المحْتَالِين وأباطِيل المنْحَرِفِين المتَخَفِّين، وتَسْتَخِفَّنَّك خُدَعُ المغرِضين، المحْتَمِين بقَدَاسَة المنْبَر وحُرْمَة صَاحِبِه عليه السلام عن الملَاحَقَة والمحَاسَبَة، والمسْتَغِلِّين مَشَاعِرَ النَّاسِ وحُبَّهم ووَلَاءَهم للتَّرويج لمشَاريعهم الإضلَاليَّة وبِدَعهم وأفكَارهم المنْحَرِفَة، فـ "كَمْ من قَارئ للقُرآن والقُرآن يَلعَنُه"؟! عَلَيكَ بُنيَّ أن تَقِفَ على حَقِيقَة كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُم، وتَكْشِفه بلَا لَبْسٍ ولَا تَدْلِيس... فَلَا تُقدِّم لهـٰذا الدَّوْرِ الخطِير، وتَسْمَح أن يَرقى المنبرَ في مجلِسك مَن لَيْسَ أهلاً، فتَقْتَرِفَ جَرِيمَة كُبرى.

إنها خيَانَة وذنْبٌ عَظِيمٌ أن تَتَسَبَّبَ في غَرْس الضَّلَال وزَرْع الانحِرَاف في النُّفُوس، وتكُونَ مَدْخَلاً وطَريقاً لنَشْرِ الفَسَاد العَقَائدي، وبَثِّ الآفَاتِ الرُّوحِيَّة!

إني وَجَدْتُ بعض الشَّبَاب المؤمن المصَاب بخَلَلٍ في عَقِيدَتِه، والمبتلى بآفَة خَطِيرة في فِكْره، ممن يَعْجَزُ عن مُعَالجة اللَّوْثِ وتَطْبِيبِ المرَض، مَهْما نَاوَلته الدَّوَاء وقَدَّمتَ لَه العِلَاج من الأدِلَّة والإثباتاتِ التي تَدْحَضُ المقُولَات الفَاسِدَة التي يُؤمن بها، وتُفَنِّد الضَّلَالَاتِ والأباطِيل التي يَتَبَنَّاها... تَراهُ يُعَانِد ويُكَابِر، ويَتَشَبَّث بفَاسِدِه الركيكِ المهترئ، ويتَمَسَّك ببَاطِله الضَّعِيف المتدَاعي، ويُصِرُّ على أفكَاره، وكَأنها انطَبَعَت في قَلْبِه وانتَقَشَت في نَفْسِه، فهُو غُير قَادِرٍ على الفَكَاك مِنهَا والخلَاص والتَّحَرُّر من نِيْرِها. وقَد وَجَدْتُ أنَّ هـٰذا يَعُود لـ "إصَابَة" مُنِيَ بها سَابقاً، ويَرجع لـ "جُرثُومَة" تَلَوَّث بها مُبَكِّراً، ويَكُون من دَاءٍ نَزَلَ به أوَائل إقبَالِه على التَّدَيُّن وانفِتَاحِه على الثَّقَافة الدينيَّة...

التقى المسكينُ في صِبَاه وأوّل شَبَابه مُعَمَّماً مُزَيَّفاً جَاهِلاً، أو بمُثَقَّفٍ التِقَاطِيٍّ فَاسِد العَقِيدة، تَلَقَّى مِنهُ فِكْرة بَاطِلَة، وصَاحَبَ ضَالّاً مُنحَرِفاً، شَيْطَاناً من شَيَاطِين الإنس، أَخَذَ يُوحي إليه زُخرُفَ القَوْل غرُوراً، فلَقَّنَه رَأياً شَاذّاً... فنَشَأ على هذا الرأي وتَرَعْرَع على تِلك الفِكْرة، حتى رَسَخَت في نَفْسِه، وتمكَّنَت من فِكْرِه وعَقْلِه، وٱنعَقَدَت في رُوحِه فتَعَصَّبَ وتَعَقَّد. فأَعْضَلَ الدَّاءُ وأعيى الدَوَاء، وغَدَا آفةً مُستَعْصِيَة، لم تَعُد المحَاوَرة العِلمِيَّة تجدي معَها نَفْعاً، ولا المحَاجَجَة ولا الإفهَام!

فَلا تُسَاهِم بُنيَّ - بأيِّ نَحْوٍ - في خَلْقِ مِثْل هذه الحالات... يَأتي أحَدُهُم إلى الحسَينيَّة، قَاصِداً «سيِّد الشهَدَاء» عليه السلام، بإخلَاص وحُسْن نِيَّة وصَفَاء، فيتَلَقَّفه خَطِيبٌ منْحَرِف ضَالٌّ، وقَارِئٌ مُبتَدِعٌ شَاذٌّ، ويُلقِّنه - ولَوْ فِكْرة وَاحِدَة - من أباطِيله، فَتَنْطَبع وتَقْبَع في نَفْسِه، وتكْمُن هنَاكَ في أغوَارِهَا البعِيدَة، فَلا يَستَطيع - بَعدَها - مئةُ عالِم ربَّانيٍّ، وخَطِيب صَالح مُخلِص، وكتَابٍ عِلْمِيٍّ نَافع، أن يزَحْزِحها من مكَانها، ويهزَّها عن مَوْقِعِها، نَاهِيكَ بإزاحَتِها وٱقتِلَاعِها، وإصْلَاح حَال المريضِ التَّعِس!

من هُنا عَلَيكَ أن تحذَر كُلَّ الحذَر... فَلا تَدَعْ أحَدَ هؤلاء الخُطبَاءِ لمجلِسِك، ولا تُرَوِّج لَه ولمجَالِسه بأيِّ نَحْوٍ كَان.

وبعد الضَّلَال الفِكْري والفَسَادِ العَقَائدِيِّ، أُوصِيكَ بُنيَّ وأُلزِمُك أن لا تحضَر مجلِساً يَدْعُو خَطِيبُه ويُرَوِّج لأغْرَاضٍ حِزبيَّة وأهدَافٍ سِيَاسِيَّة وٱنتِخَابيَّة! ولا تَسْمَح لِقَارِئٍ حِزبيٍّ أن يَعتَلي المنبر في حُسَينِيَّتِك... عجزَت مَدرسَتُهم أن تجتَذِبَ النَّاس، وفشِلَت في ٱستِقْطَابِهم وحَشْدِهم، فنفَذُوا في أوْسَاطِنا وتَوغَّلوا إلى محَافِلِنا وٱستَغَلُّوا مجالِسَنا!

هؤلاء بُنيَّ من أتمِّ مَصَادِيق الذين يَسْتَأكِلُونَ بـ «آلِ محمَّد»، ويحمِلُون النَّاسَ على أكتَافِهم، وهُم يتَّجِرُون بالدِّين، ويجعَلُونَه سِلْعَتَهم وبضَاعَتَهم، ومَادَّة لِصَفقَاتهم السِّيَاسِيَّة، إنهم يَمْدَحُون ويُثنُون أو يَذُمُّون ويَهْجُون، ويُوالُون ويحبُّون أو يتَبَرَّؤون ويُعَادُون، ويهوِّلُونَ ويُضَخِّمُونَ أحْدَاثاً أو يتَجَاهَلُونَ ويَستَصْغِرُونَ خُطُوباً... كُلُّ ذلك من مُنطَلَق حِزبيٍّ ومَصَالِحَ فِئوِيَّة، بَعيداً عن الحقِّ والعِلْم والموْضُوعيَّة، ثمَّ يُلبِسُونَ ذلك كُلَّه ثَوْبَ الدِّين، ويُنَادُونَ عَلَيه بٱسْمِ «سيِّدِ الشُّهَدَاء» عليه السلام ونهضَتِه الإلهيَّة!

ثاني الشُّرُوطُ التي يجِبُ أن تُلْحَظَ في الخطِيب، والثَّوابتُ التي عَلَيكَ مُراعَاتها والتَّمَسُّك بها والإصْرار عَلَيها... هو التَّقْوىٰ والإخْلَاص. عَلَيكَ بُنيَّ أن تَتَحَرَّىٰ الخطِيب المتديِّن المتَشَرِّع، وتَطْلُب المخْلِصَ في خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، المؤمن بفِكْرة المجَالِس وخَطَرِها، والمتحَرِّك في سَبِيلها... فَلَا يخفىٰ أنَّ هُنَاكَ مَن يتَّخِذُ الأمرَ مِهْنَةً وحِرْفَة، ويتَعَامَل مع المجْلِس من هٰذا المنطَلَق، فيقْرأ مجلِساً كَامِلاً بالمقدَّمة والموضُوع والخاتمة، ويَتَفنَّنُ في بيَان المصيبَة، ويجيدُ عَرضَ مَا يُريد، ويتَمتَّع بحَافِظَة ممتَازَة، وهو بَعْدُ جَهْوَريُّ الصَّوْت رَخِيمُه، ولٰكنك إذا تَدبَّرتَ في حَالِه، وعَرفتَ حَقِيقَة رأيه ومُعتَقَدِه، وَجدْته لَا يُؤمنُ بِشَيءٍ مما يقُول! ولَرُبَّما سَخِر في قَرارة نَفْسِه من تَفَاعُل النَّاسِ، وقُدرته علىٰ التَّحَكُّم بمَشَاعِرِهم!

لَا تَدْعُ بُنيَّ أمثَالَ هٰؤلَاء إلىٰ مجلِسك، إلَّا إذا كُنتَ مُضْطَرّاً، بما يحُولُ دُونَ تَعْطِيل المجْلِس والإخْلَالِ بتَعَاهُدِه والتِزَام إقَامَتِه... ذلك أنَّ أنفَاسَ القَارِئ ورُوحِيَّته لها مَدخَلِيَّة كَبِيرة في نَجَاح المجْلِس وقَبُوله، وإن كَانت هُنَاكَ مجَالِس هي التي تخلَع الروحَانيَّة علىٰ القَارِئ وتُضْفِي عَلَيْه الأنفَاس الحسَينيَّة، لَا العَكْس! لكنَّ دَوْرك كَمُنتَخِب يَبْحَثُ عن مجلِس لِتَحْضُره وتَتَعبَّد فيه ربَّك، أو كَصَاحِب مَأتم وحُسَينيَّة ومُقِيم للعَزَاء، يتَحَرَّىٰ لأهْلِه، ويكُون رَائداً لِقَوْمه وجَماعَته، يَقْتَضِي الحِرصَ علىٰ الصُّورة النَّمُوذَجِيَّة والحَالَة المثَالِيَّة، ومُرتكزها ـ كَما أسْلَفتُ لكَ ـ هو الخطِيب والقَارِئ الحسَيني.

لَا أُريد بمَن يتَّخِذ الأمر مِهْنَة وحِرْفة من الخطَباء، كُلَّ مَن يَتَلقَّى الأجْر المادِّي ويَأخُذ المالَ مُقَابِل قِراءَته وقِيَامِه بهٰذا العَمَل، سَوَاء بعِنوَان الأجْر أو الهديَّة، فَلَا مَحذُور في هٰذا ولَا عَيْب، ولَا مَنقَصَة ولَا غَضَاضَة، بل هُوَ حَقٌّ وَاجِبٌ لخادِم «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وعُرْفٌ مُحبَّبٌ مُبَارك، يَنْطَوِي علىٰ خَيْر كَثِير وفَضْلٍ عَمِيم، ويختَزِن رِسَالَة وفكْرة عَظِيمَة، هي بمَنزِلَة الطَّاقَة المحَفِّزة، والآلِيَّة العَمَلِيَّة التي تَرْفد المسِيرة وتُؤمِّنها وتَدْفَعهَا علىٰ الصَّعِيد العَام، وقَد نهَجَت مَصْدَراً وفتَحَت بَاباً يُرتَزَق منه، ويُؤمِّن المعَاشَ للنَّاهِضِين به. ثم لَو دَقَّقْتَ النَّظَرَ وأحْسَنْتَ التَّمعُّن والتَّدبُّر، لَرَأيتَ أنَّ الفضْلَ واليَدَ للخَطِيب والقَارِئ، والمنَّة لَه عَلَيكَ، بقبُوله أن يكُونَ سَبَباً للرَّحْمة وبَاباً لصِلَتِكَ «إمَامك»...

ومن هٰذه النقْطَة أنعَطِفُ علىٰ آدابِ التَّعَامُل مع القَارِئ، وأتنَاوَل حُقُوقَه ووَاجِبَاته...

التعامل مع الخطباء والقارئين

إنَّ أصْلَ التفَاوُت بين القُرَّاء والمجَالِس يَجبُ أن يَبقىٰ حَاكِماً مُطَّرداً في جَميع المنَاحِي، فـ "الهدِيَّة" تَختلِف بحَسْب القَارِئ، فـما يعطىٰ لخطِيبٍ عَالِم، ومُقْرِئ مُخلِص، يختلِفُ عما يُقَدَّم لِغَيره، هَدِيَّة كَانَ أو أجراً، ومَا يَجبُ علىٰ صَاحِب حُسَينيَّة كَبيرة ومجلِسٍ عَام (يرَاعىٰ حَجْم الحضُور) يختَلِفُ عن المرجُوِّ المنتَظَر من مجلِسٍ بَيْتيٍّ لَا يَتجَاوَز حُضُوره أفراد العَائلَة وبَعض الجيران، وهـكذا فإنَّ هَدِيَّة المجْلِس في المَوْسِم تختلِف عَنها في سَائِر الأيام.

أمَّا الاشتراط بينَ الخطِيب وصَاحِب المجْلِس علىٰ الأجرِ الذي سيَتَقَاضَاه، فمَسألة لها سلْبِيَّتُها، كَما قد تكُون لها إيجابيَّتها، فبقَدْر مَا تُورث المادِّية وتَبعَث أجْواءً أشْبَه بالتِّجَاريَّة، تَنال من عِبَادة روحَانيَّة وطَقْسٍ سَماوِيٍّ، بل عَرْشي، فتَظْهَر قَبيحَة ممجُوجَة، فهِيَ في المقَابِل لها حُسْنُها ومَا يَجعَلك تَغُضُّ عن مَسَاوِئها، لما تخلُق من رَاحَة نَفسِيَّة لَدىٰ الخطِيب وتَبعَث من اَستِقْرار، حِينَ يخرُج من قَلَقِه ويَعرِف تماماً مَا يَنتَظِره، فينْصَرِف لحُسْن أدَائه والتركيز علىٰ مجلِسِه. وكَذا فإنها تَقطَعُ الطَّرِيقَ علىٰ صَاحِب المجْلِس أن يَبْخَسَ الخطِيبَ ويَظْلِمه حَقَّه، ثم النِزَاع والاختِلَاف، وعَدَم الرِّضَا الذي قد تَتْبَعُه تَوَالٍ فَاسِدَة تَطَال الحقُوق وقَبُول المجْلِس.

ولَا تَستَغْرِبنَّ بُنيَّ من هـذا، فإنَّ كَثيراً من المهَن الإنسَانيَّة يَتَلقَّى أهلُها وأربَابُها علَيهَا الأجْر، كُلُّ مَـا هُنَـاك أنَّ كثرة التَّدَاول والعَمَل به، خَلَقَ عُـرْفـاً صَرَف قُبْحَ ذلك وأزالَه، كَالأجْر علىٰ الطِّب والتَّعلِيم، وهـكذا أعْمال الفُنُون الجمِيلَة، التي يُفتَرض أنها تَفَاعلٌ وُجْدَاني وحَالَة رُوحيَّة يَعيشُها أهلُها، ثم تَراهُم يتَلقَّون الأجْرَ علىٰ أعمالهم، ويَبيعُون نتاجَاتهم؟! بل هُناكَ عِبادَات شَرعيَّة تُؤدَّىٰ علىٰ نَحْوِ الإجَارة الصَّريحة، كَالاستِنَابة للحَجِّ والعُمرة والزيَّارة، وقَضَاءِ الصَّلَاة والصِّيَام عن الأموَات، ولَا من مُستَهْجِن ولَا مُستَنكِر؟! بل إنَّ كَثيراً من "الدُّعَاة"، يتَقَاضَون اليَوْمَ أُجُوراً علىٰ مُحاضَراتهم (تُحسَبُ لهم بالسَّاعَة)، وعلىٰ براجمِهِم التلفِزيونيَّة، ومنهُم مَن يتَقَاضىٰ أجراً علىٰ تَقدِيم الحلقَة، وأجْراً آخر علىٰ إعدَادِها! وَفْقَ اتفَاقَات وعُقُود مُبرَمة، ومُوثَّقَة قَانُونيّاً، وفي هـؤلَاء الدُّعَاة والمشَايخ مَشَاهِير لهم سَقْفٌ (في الأجْر) و "تَصنِيفٌ" لَا يَقبَلُونَ النزُول عَنه، وهو تَصَاعُدِيٌّ، يَرتَفع بالتنَاسُب مع شُهْرة الشَّيْخ وشَعْبيَّة الدَّاعِيَة، تماماً كنُجُوم السينما والغِنَاء!...

عَلَيكَ بُنيَّ أن تتَجَاوَز التحَسُّسَ من هذا الأمر (فقَد لَاحَظْتُ أنَّ بعضَ المؤمنين يَعيبُونَه علىٰ الخطَبَاء ويَرَوْنه مَنقصَة، ويَتَجَاهَلُون الحَالَات التي أشَرتُ إليهَا في المهَن الأُخرىٰ ومَشَايخَ القَوْم، ولَا يَستَنكِرُون عَلَيهم!)... وتَعلَم أنَّ الخطِيبَ بَشَرٌ يَعيشُ في هذه الدُّنيا ويسعىٰ في مَنَاكِبها، ولَا بُدَّ لَه من مَأكَل ومَعَاشٍ وإعَالَة مَن يتَكَفَّل، ونعْمَ مَا ٱتَّخَذَ من بَابٍ وٱختَارَ من سَبيل لطَلَب الرزْق، أن جَعَلَ ذِكْرَ «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام وإحيَاءَ شَعَائر عَزَائه، ثمَّ الوَعْظَ والإرشَادَ وتَعلِيم المؤمنين أحكَام دِينهم، مِهْنَته وبِضَاعَته وسِلْعَته، ليسَ في هذا مَا يُشِين أو يَعيب. ويبقىٰ أمرُ النِيَّة والقُربَة إلىٰ الله تَعالىٰ شَأنٌ خَاصٌّ يَعُود لِصَاحِبه، يَنْطَلِق فيه كُلٌّ بحَسَب تَقْوَاه وإخْلَاصه، فيُمكِنه أن يذهَبَ إلىٰ رِحَابٍ تَسْمُو فَوْقَ المالِ والمادَّة، وتحَلِّق في أُفُق مَعنَويٍّ مَلَكُوتي، والخطِيبُ في هذا وصَاحِبُ المجلِس، وغيرهُم من المؤمنين، سَواءٌ في الأبتِلَاء!

وإن كُنتُ شَخصِيّاً لَا أميلُ إلىٰ الأشْتِراطِ ولَا أُحبِّذه، وأُفضِّل أن يَنطَلِق الخطِيبُ في قِراءَته ونهُوضِه بالمجْلِس بنِيَّة عبادِيَّة خَالِصَة، مُتَّكِلاً علىٰ الجانِب الغَيْبي، وأنَّ مَا سَيَصِلُه في النِّهَاية من بركَاتِ المجْلِس هو رِزْقه المقسُوم الذي سَاقَه الله إليه، لَا يَزِيد ولَا يَنقُص، وأنَّ المسَاوَمة فيه والشَّرط والمماكَسة، وٱنتِزاع المزيدِ بهذا الطريق، لن يَعُودَ علَيه بما يَتمنَّى!... لكنِّي في المقَابِل أدْعُو أن تجزِلَ العَطَاء، وتَتَجَاوز مَا أمَّلَ الخطِيبُ وٱنتَظَر. فكَما أسْلَفْتُ لكَ، إنَّ مَا تَصْرفه هُنا، ومَا تُقَدِّمه من مَال، هو مِن أعْظَم أبوَاب صِلَة «إمَام الزَّمَان» عليه السلام، فالمِنَّة للخَطيب أن كَانَ سَبباً، والفَضْلُ لَه أن فَتَحَ لكَ هذا البَاب. وكَذَا أدعُوكَ بُنيَّ إلىٰ خُطْوَة من نُبْلٍ أرجُوُه فيك، إذا لم تكُن ميزَانيَّة المجْلِس أموَالاً شَرعيَّة من الأوْقَاف والنُذُور المعيَّنة الوَجْه، ثُمَّ لم تَكُن من تَبرُّعات النَّاسِ وعَطَاياهُم للحُسَينيَّة، وكَانت من حُرِّ مَالِك... فٱسْعَ أن تجعَلَ مَا تُقَدِّمه للخَطِيب هَدِيَّة وهبَة، لَا أجْراً مُقَابِلَ عمَل، فتبرِّئُه من الشُّبهَة إن لم يكُن قَد أدَّىٰ حَقَّ المالِ الذِي قَبَضَه، وتجعَله في حِلٍّ من تَبِعَاتِ التَّقْصِير، وهكذا تُدْخِله في ثَوَاب عَمَلِه وتُشْرِكه في أجْرِ مجلِسه، فتُسَاهِم - غَيْبِيّاً - في بِنَاء رُوحِيَّته، وتُعِينه علىٰ نَفْسِه، وفي المقَابل يَقُومُ هو بإهدَائك ثَوابَ عَمَله وقراءته، أو تَثْوِيبه لمن شِئْتَ وعيَّنْتَ من أموَاتِك ومَن أرَدْتَ أن تُتَابعَ بينكَ وبينه بهذا الخير.

ثـم عَلَيكَ أن تُبادِرَ بتَقْدِيم المالِ فَوْر ٱنتِهَاءِ المجْلِس، وأن يَكُونَ ذلك بشَكْل وأُسلُوب لَائِق، كَـأن يُوضَع المبلَغ في مُغَلَّف تُقَدِّمه كَرِسَالَـة، أو يُلَفَّ في وَرَقَة، ولكَ أن تَدُسَّه في يَدِه أثنَاء المصَافَحَة... ذلك دُونَ أن يَراهُ أو يَلْحَظه أحَدٌ من الحضُور. وفي مجَالِس وقراءَات المَوَاسِم، علَيكَ أن تَـزُورَ الخطِيبَ في دَارِه أو مَقَرَّ إقَامته، عِند نهاية الموْسم، وتُقَدِّم له أجْرَه هُنَاك. وإذا كَان خَطِيبُكَ من أهْل العِلْـم والفَضْل، فمِن المَنَاسِب أن تُتْحِفَه بِشَيء آخَر تُلْحِقه بالمال، كَعَبَاءَة أو شُقَّة من نَسِيج أو قَارُورة طِيب... فَلَا تكُون الهديَّة صِرف النقْد.

وإيَّـاك أن تُطْلعَ أحَداً علـىٰ المبلغ الـذي دَفَعته لخَطِيبـك، حتىٰ وإن جَاءَكَ بَعضُهم يَتَحرَّىٰ ويَسْتَخْبِر، لِرَغبَـتِه في دَعْوته لمجْلِسٍ آخَر، وعَـزْمه علىٰ ٱستِـضَافَته في حُسَينيَّته! ذلك حَذَر أن تَتسَبَّب في تحدِيدِ أجْرِ الرَّجُل وتَعيِين هَدِيَّة قِراءَته، ولَا سيَّما إذا كَانَ القَارِئُ ممن لَا يُطَالِب ولَا يَشْتَرِط، فَلَربَّما كَـانَ السَّـائل المسْتَفْهِم يُريدُ أن يُقَدِّم لَه هَـدِيَّـة أكبر، ويَمنَحه أكثر من المبلَغ الذي تَدْفَعه أنت، فتَـقْطَع عَلَيه رِزقه... لِذَا أجِبْه في العُـمُوم، وبيِّن لَه ٱختِلَاف المجَالِس، وفرُوق الخطَبَاء، وتَنَـوُّع الحَالَات، فمَن يَسْتَقْدِم خَطِيباً إلىٰ بَلَد، ويَتكَفَّل إقَامته وسَكَنه ولَوَازم ضِيَافته، لَيْسَ كَمَن يَدْعُوه من بَعدِ هـٰذا لمجْلِس ثَانٍ؟ ومَن يَتَعَاهَد الخطِيب في مجلِسِه، فَلَا يَدْعُو آخَر ولَا يَسْتَبدِل به غَـيره، حتىٰ يَكُونَ هـٰذا القَارِئُ هو خَطِيب هـٰذه الحسَينيَّة، وهـٰذه الحسَينيَّة لَا تَدْعُو إلَّا هـٰذا الخطِيب، لَيْسَ كَمَن يُنوِّع ويَغَيِّر... إنَّ هـٰذه الحيثِيَّات والحَـالَات تَنعَكِـس علىٰ الأجْر المنْظُور للخَطِيب، نَـاهِيكَ بالمدَاخَلَات الأُخْرىٰ التي سَبَـقَ بيَانها، كَحَجْم المجْلِس، وأيام القِرَاءَة والموْسِم.

وٱعْلَم بُنيَّ أنَّ لكَ دَوْراً ـ كَخَادِم لـ «سيِّـد الشُّـهَدَاء» عليه السلام ـ في التعَامُل مع الخُطَبـاء، في مُـراقَبتِهم ومُحَـاسَبَـتهم، ونَقْـدِهم وتَـوْجيهِهِم، وفي نُصْحِهِم وإرْشَـادِهِـم، وهـٰكذا في مُؤَازرتهم ونُصْرتهم، ودَعْمِهِـم وتَشْجِيعِهِم، وبِرِّهم والإحْسَانِ إليهِم، وكُلِّ أشْكَـالِ العَلَاقَة والٱرتبَاط بين المؤمنين، ومَا تَقْتَضِيه الأُخوَّة الإيمانيَّة ويَترتَّب عَلَيهَا من حُقُوق ووَاجبَات... إنَّ نجَاح المجْلِس مَسْؤُوليَّةٌ مُشْتركَـة ووَاجِبٌ عـامٌّ لَا يخُصُّ الخطِيبَ وَحْده، ولَصَاحِب المـأتم، وهـٰكـذا للمُسْتَمَع النَّبِيه الفَطِن، والحَـاضِر الوَاعي اليَـقِظ، دَوْرٌ في نَماءِ المسِيرة وتكَامُل الشَّعِيرة وبُلُوغها أقصىٰ ما يُمكِنها من غَاياتها وأهدَافِها الإلهيَّة العَظِيمَـة.

وكَما هُو حَقٌّ أن لَا تُسَاوِي بين الخطَبَاء في العَطَاءِ المادِّي، كَذلك الأمر في التعَامُل مَعَهُم وفي مُقتَضيَات آداب العِشْرَة، فمُسَاوَاة الفَاضِل بالمفضُول، ظُلْمٌ للفَضِيلَة...

فٱلزَم حُدُودَك مع الخَطِيب العَالِم، وٱحْصُر مَلْحُوظَاتك وٱعتِراضَاتك علىٰ مِنْبره، ومَا أحْصَيْته عَلَيه من سَقطَاتٍ وسَجَّلته من زلَّات، بِصِيغَة أسئِلَة وٱستِفْسَارات تُقَدِّمهَا إليه، دُونَ مُوَاجَهَة ومُقَابلَة، نَاهِيكَ بتَحَدٍّ ومُقَارَعَة، وأن يكُونَ ذلك في السِّرِّ لَا العَلَن، أو حتىٰ بالمكَاتبة ـ إن أمكَنكَ ـ لَا المشَافَهَة... فهُنَاكَ آدابٌ عَلَيكَ مُراعَاتها والتِزامها، لكن دُونَ التفْرِيطِ بدَوْر الرقيب والرَّاصِدِ والمسَجِّل والنَّاصِح.

كَما أنَّ الموقفَ والتعَامَلَ مَعَ "الملَّا" البَسِيط، والشَّيْخ المُسِنِّ، الذي يُؤدِّي مجلِساً تَقلِيدِيّاً، يَقْتَصِر علىٰ الرثاء والإبكَاء، وشَيءٍ من السِّيرة والموعِظَة، يَعِيشُ حَجْمَه ويَلتزِمُ حَدَّه، لَا يُنظِّرُ للنَّاسِ ولَا يُفَلْسِف، لَا يُشَرِّق بمُسْتَمِعيه ولَا يُغرِّب، يَعْرِض عَلَيهم الولَاء نقِيّاً خَالِصاً، بَعيداً عن أية ذاتيَّة وشَخْصِيَّة، وٱرتجال يُسيء، وخَوْضٍ يُشَوِّه...

لَيْسَ كَالموْقِفِ والتَّعَامُل مَع خَطِيبٍ يَدَّعي التَّخَصُّص والعِلْم، ويتَصَنَّع البلَاغَة والأدَب، ويتَّخِذ سَمْتَ العُلَماءِ وطَرِيقَتهم، ويَتَرسَّم هَدْيَ الكِبَار ويُحاكي شَكْلَهم، ويَزْعُم له أنصَارُه ومُرِيدُوه الشَّأنَ، ويختَلِقُون أو يتَصَوَّرون المقَام، ويَدَّعُونَ الصَّوْلَة ويتَوَهَّمون العُنوَان، وهُو من كُلِّ هذا وذَاك خَوَاء وفَراغ، صِفْر اليَدَين خَالي الوِفَاض، ليْسَ في جُبَّة "الشَّيْخ" التي تَتَهَدَّلُ الأردَان منهَا وتَتَوَسَّع (مُحاكَاة للعُلَماء!)، إلَّا قَرْعٌ ونَقْر، ولَيْسَ تحتَ عِمامتِه التي ٱستَهْلَكَت عَشَرات الأمتَار إلَّا نَفْخٌ ورَجْع! لَا يُحْسِنُ المسكِينُ من القُرآن آيةً يَسْتَشهِد بها، نَاهِيكَ بتَفْسِيرِهَا، ولَا يحفظ من حَدِيثِ «أهْلِ البيْتِ» عليهم السلام رِوَاية، فإذا ذَكَر شَيئاً جَاءَ به بالمعنىٰ والمضْمُون، وتجنَّبَ النَّصَّ وحَرَم مُستَمِعيه من "نُور" كَلَامهِم، ولَا يَعرِف من (نهج البَلَاغَة) خُطْبَةً ولَا كِتَاباً ولَا حِكْمة... يَقضِي وَقتَ المجْلِس بنَقْل القِصَص والحكَايات، ويَطْوِي الزَّمن العَزِيز الثَّمِين بِسَرْد الطَّرائفِ وذكْرِ الغَرائب، وكأنَّه "حَكَواتي" في مقْهىً، لَا قَارئٌ علىٰ منبر عَزَاء! فإذا عَرَّجَ علىٰ أصْل الموضُوع، ووَلَج في مَا ٱنثنىٰ عنه بعيداً وٱنصَرَف طَوِيلَاً، تمنَّيتَ أنه لم يَفعَل! من فَرْط الخلْطِ والهراء والغُثَاء الذي يَسُوقُه، والسُّوء والتشْوِيه الذي يُلْحِقُه بالمعتَقَدِ والتارِيخ والفِقْه ومختَلِف المعَارِف الدينيَّة.

لعَمْري، كَيفَ لِفَاقِد الشَّيء أن يُعْطِيه؟ فالرَّجُل لم يُمْضِ في الحَوْزَة العِلمِيَّة يَوْماً، ولم يَتَلَقَّ من عُلُومها شَيئاً، ولَا قضىٰ منْهَا وَطَراً، لَا تَلَمَّذَ علىٰ يَدِ أُستاذٍ ولَا أخَذَ عن شَيْخ، بل لَعَلَّه لم يَقْرأ في كِتَاب، ولَا سعىٰ أن يُطَوِّر نَفْسَه ويُوَسِّع دائرة عُلُومه ويُرفد مخزُونه... إنه مجرَّدُ مُنْتَسِب إلىٰ جَماعَة تَتَّخِذ الخِطَابة مِهْنَة، وتَتَصَدَّىٰ للقِراءَة الحُسَينيَّة حتىٰ جَعَلَتْها حِرْفَة، وهي تَنْشُر الخُطَبَاء وتبثُّهم في البِلَاد. ومن أخْطَر مَا تحْمِل، نَزْعَة التَّسْطِيح وخِطَاب العَوَام، ومَا زالَت تَغْمُر السَّاحَة بِنَتَاجِهَا الركيك وعَنَاصِرهَا المخْزِيَة والمشوِّهة لهذه الرسَالَة العَظِيمَة، حتىٰ صَبَغَت هذه الفِئَةُ - في ظِلِّ شُحِّ الخطَبَاء العُلَماء - والقُرَّاء الحُسَينيين المُجِيدِين، بَعضَ البِلَادِ بطَابعِهَا المتَخَلِّف، وأطْغَت فيهَا هذه الحالَة المتردِّية وعَمَّمتْها!

إنني لَا أدعُوكَ بُنيَّ لمحَارَبة هؤلاء، فلَرُبَّما أفادَت خِطَابتُهم شَرِيحَة مُعَيَّنة من المجتَمَع، وسَدَّت - علىٰ أية حَالٍ - ثغْرة وملأت فَراغاً في وَاقِعِنَا المؤلم، وخَدَمَت المذهَب شَيئاً مَا، وَفْقَ قَانون التَّدَافُع والتكَامل، وأصْل التنوُّع والتَّعَدُد، ومَقُولَة "لَوْلَا ٱختِلَاف الأذوَاق لبارَتِ السِّلَعُ". والحقُّ أنه كَانَ لهم - في مَرحَلَة مَا - دوراً لَا يُستَهَانُ به في خِدْمَة الشَّعَائر الحسَينيَّة والتَّصَدِّي لمنَاوِئيها، مما يجبُ أن يُقَدَّر ويُحفَظَ لهم، ولَا يُنْسَىٰ... ولكن إيَّاكَ بُنيَّ أن تَدْعُوهُم لمجلِسك وتُرَوِّجَ لهم بأيِّ نَحْو، فإنَّ مَسْؤُوليَّتك هي الرقيُّ بمُسْتَمِعِيك، لَا مُجَاراتهم في تَوَاضُع وتَدَنِّي مُسْتَواهُم، ومُسَايرة المجْتَمَع في تخَلُّفه، والركُون إلىٰ عَجْزِه وضَعْفِه، فدَوْرُكَ هو السَّعْي للنُّمُوِّ والرُشْدِ والتكَامل، وهؤلاء "الخطَبَاء" يخلِدُون بك وبمَجْلِسِكَ وحُضَّاره إلىٰ أرضِ الجَهْل، ويَقْبَعُونَ بهم هُنَاك، في قَاع التَّخَلُّف والخوَاء!

وهنا مُهِمَّةٌ عَظِيمَةٌ تَنتَظِرك، وتَنتَظِرُ الجيلَ الجدِيدِ من "الحُسَينيين"...

هي، بلَا مُوَارَبة، ولَا غُرُور وٱعتِدَاد، طَيُّ صَفْحَة هؤلاء وتجَاوُز مَرحَلَتهم... وكَما أسلَفْتُ، لَا بمُحَارَبتِهم ومُنَاجزَتِهم بِطُرُقٍ قَاسِيَة، أو سُوقيَّة لَا أخْلَاقِية وغير شَرعيَّة، بل بمُوَاجَهَتِهم ومُنَاصَحَتِهم، من خِلَال رَصْدٍ ومُتَابعَة حَثِيثَة ومُراقَبَة لَصِيقَة لأدَائِهم، ثم مُطَالَبتِهم ومُلَاحَقَتِهم، بالَّتي هي أحْسَن، إلىٰ أن يَرتَدِعُوا ويَرعَوُوا، ويَكُفُّوا بعد اليَوْم ويحذَرُوا أن يَرتَقُوا مِنبَر «سَيِّد الشهَدَاء» عليه السلام دُونَ تحضِير مُسْبَق وإعدَاد، ودُونَ تَقدِيم مَادَّة غَنِيَّة زَاخِرَة بمَعَارِف «آلِ محمَّد» عليهم السلام، ومَوضُوعٍ عِلْميٍّ يَسدُّ حَاجَة ويَرقىٰ بوَاقِع.

إنَّنا بحَاجَة إلىٰ نهضَة تُنْهِي مَا يَقُومُ به هٰؤلَاء، فَلَا يَصِحُّ أن يَسْتَخِفَّ أحَدٌ بأشْرفِ النَّاس، أي حُضَّار مَجلِسِ عَزَاء «سَيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ، يمتَهِنهُم ويَحتقِرهُم بتَقْدِيم الغَثِّ الرديء، مُفتَرِضاً فيهم الجهْل والسَّذَاجَة! في أدَاء يُجَارِي فِعْل الحكَّام المسْتَبِدِّين بشُعُوبهم المستَضْعَفَة، والأحْزاب السِّيَاسِية بقَاعِدَتهم المستَغفَلَة التابِعَة بلَا هَدْي ولَا وَعْي!... فهُنا دَار «الحسَين» ومدرَسَة «أهلِ البيْت» ﷺ، حَيث صَفْوَة النجَبَاء، الذينَ حقَّ أن يَنْحَني لهم كلُّ شَيءٍ في هٰذا الوُجُود إكباراً وإعْظَاماً، للنَّفْحَة الإلهيَّة والنَسَمَة الربَّانيَّة التي تدُبُّ في أروَاحِهم، وفَاضِل الطِّينَة التي صَوَّرتهم، وقَد خَلَّصَهُم اللهُ وأنجَاهُم من الانْتِماءِ للأحزَاب، فنزَّهَهُم عَن الاتجارِ والإسْفَاف الذي تمارِس، وأنقَذَهُم من بَراثِن السِّيَاسِيين وأنجَاهُم من الألَاعيب الشَّيْطانيَّة والحبَائل التي يَحيكُون... فيَمَّمُوا مخلِصِين شَطْرَ «الحسَين» ﷺ، ثُم يَأتي بَعدَ كُلِّ هٰذا وذَاك، وبَعدَ اللُّتيا والَّتي، بَعدَ النَّجَاة من بُهَم الرِّجَال وذُؤبَان البَشَر، ومَرَدَة الأحزَاب ودُهَاة السِّيَاسَة، يَأتي مَن يَزْدَريهم بخِطَاب العَوَام، حقّاً إنها لَطَامَّة كُبرىٰ!

إصلَاح الخطابة والمنبر الحسيني

لقَد تَطَوَّرت جميعُ مَنَاحِي الحيَاة، وتَرقَّت مختَلِف المحَافِل وشتَّى الميَادِين، فلِماذَا يبقىٰ حَقْل المجَالِس الحسَينيَّة رَهينَ هٰذا التَّخَلُّف، وأسيرَ هٰذه الشَّرِيحَة الظَّالمَة نَفْسَها وجمهُورها، وربَّ نِعْمَتها، والمذهَبَ وأقدَسَ قَضَاياه؟ لقَد آن أوَان الإصْلَاح، لَا المنْحَرِف الذي يَدْعُو إليه الحدَاثِيُّون الالتِقَاطِيُّون، بل الأصِيل الذي يَعُودُ بالمنبَر إلىٰ أصْلِه ومَوْقِعه، وعَهْد «الفَاضِل الدَرْبنـدِي»، و«الشَّيخ التُسْتَري»، و«السيِّد صَالح الحلِّيّ»، و«الشَّيخ كَاظِم السَّبتي»، و«الملَّا عَطِيَّة الجمْرِي»، و«الشَّيخ عَبدالأمير المنصُوري» وأمثالهم.

إنَّ السَّاحَة الإيمانيَّة عطشىٰ مَعَارِف «آل محمَّد»، وعلىٰ الخطِيب أن يَأخُذَهم ليَغْتَرِفُوا من مَعين (الكَافي) وباقي "الكُتُب الأربعَة"، ويَسْبَحُوا في (بحَار الأنوار)، ويجلُوا أروَاحَهُم ويَصْقُلُوها في (مِرآة العقُول)، ويَطَّلِعُوا علىٰ أعمال «الفَيْضِ الكَاشَاني»، ونِتَاج «الشَّريف المرتضىٰ»، و«السيِّد الرَّضي»، و«المحقِّق» و«العَلَّامة»، و«الصَّدُوق» و«المفِيد»... وآلَاف المصَادِر والموَارِد التي حَقَّ أن يَضِيق بها وَقتُ المنبر وسَاعَته، فيَشْكُو الخطِيب من هٰذا، لَا أن يَحَارَ في مَا عَسَاهُ أن يُهْدِرَ به وَقتَ النَّاس فيَلْجَأ إلىٰ الترَّهات والسَفْسَاف!

بُنيَّ! تَأمَّل في ضَعْفِ هذا الجِيل وفَقْرِه العَقَائديِّ والعِلْمِي، وسَلْ مَن مِن الشَّبَاب يَعْرِفُ تَفْسِير ‹البُرهَان› و‹نُور الثَّقَلَيْن› و‹التِّبيَان› و‹القُمِّي›، ويَعْرِف مَن يكُون «عليّ بن إبراهيم» و«شَيْخ الطائفَة الطُّوسي» و«عَبدعَلي الحوَيْزِي» و«السَّيد هَاشِم البَحْرَاني»؟ مَن يَعْرِف كُتُب ‹الأمَالي› و‹الرَّسَائل› والكُنُوز المحْفُوظَة فيها؟ إنَّني علىٰ يَقين من أنَّ شَبابنا المؤمن الذِي تَعْصِفُ به التيَّارات المنحَرِفَة، لَوْ عَلِمَ مَا في ‹إحْقَاق الحقِّ› ورأىٰ مَا فعَلَه «القَاضِي نُور الله المرعَشَي» هُنَاك، واَطَّلَعَ علىٰ جُهُود «مير حَامِد حُسَين النَّقَوِي» في ‹العَبَقَات›، وقَرَأ أجْوِبَة ورُدُود «الشَّيخ محمَّد حَسَن المظَفَّر» في ‹دَلَائل الصِّدْق›، وجَلَسَ يَوْماً علىٰ ضِفَاف ‹الغدِير› مع «العَلَّامة الأمِيني»... لأنتكَسَت الدعَايات النَّاصِبيَّة، وأندَحَضَت حُجَجُها، وتَعَطَّلَت قَنَوَاتهم الفضَائيَّة، وظَهَر كَم هي سَخِيفَة وَاهِيَة، وسَخِرَ النَّاسُ وضَحِكُوا من شُبهَات باليَة مُكَرَّرة، أشْبَعها عُلَماؤنا رضي الله عنهم بَحْثاً وقتَلُوها تَفنِيداً ورَدّاً، ودَفَعُوها دَفْعاً حتىٰ دَفَنُوهَا وطَمَرُوهَا منذُ قُرُون، وكَيفَ أنَّ العَدُوَّ لم يجِد غيرهَا، فعَادَ يُكَرِّرها ويجتَرُّهَا في عَصْرنا، مُراهِناً علىٰ انقِطَاع هذا الجيل عَن تُراثه، وغُرْبته عَن مِيرَاثه، وضَيَاعِه عَن الوَديعَة الثَّمِينَة والتركَة العَزِيزَة التي خَلَّفَهَا لَنا أُولئك الأفذَاذ رحمهم الله، لَعلَّ الشَّكَّ يخامِر ضِعَافَهم، والحِيلَة تَنْطَلي علىٰ بَعضِهم!...

تُرىٰ مَن عَسَاه يَفتَحُ هذا البَاب الموصَد علىٰ شَبابنا ويُنهي هذا الغِيَاب، غير المجْلِس الحسيني؟ ومَن عَسَاهُ يُعَرِّف هذا الجيل بالإرثِ والتَّرِكَة التي يَمْلِك؟ ومَن يُرشِده ويأخُذ بيَدِه ويَدُلُّه أين يَتَوَجَّه؟... غير الخَطِيب الحَسَيني المَوَالي المخْلِص؟

هَل نَنتَظِرُ الفضَائيَّات أن تَفْعَل، وجُلُّها تجرُّ النارَ إلىٰ قُرصِهَا وتَصْعَدُ بأصْحَابها؟!

هَل نَرْجُو الخَيْر من الأحْزَاب أم السِّيَاسِيين؟ وهُم يَعْلَمُون أنَّ انفِتَاح الأُمة، ولَا سيَّما الشَّبَاب، علىٰ هذه المعَارِف الأصِيلَة واطِّلَاعهم علىٰ هذا التُّراث العَظِيم، سَيَفْضَحُ أُكذُوبَة الأحْزاب، ويُعرِّي مَزَاعِم السِّيَاسيين، ويَكْشِف خَوَاءَهُم ويُسْقِط دَعَاوَاهُم، ويكُون القَبْر الذي سَيَدفِنُ مَشْروعَهم ويَهُدُّ بُنيانهم ويَقْضِي عَلَيهم؟!

مَن هي ذِرَاع الحوْزَة وأداة المرْجِعيَّة؟ مَا هي وَسيلَتُنا الإعلاميَّة الوَحِيدَة؟ بل مَن هي وَديعَة «أهلِ البيْتِ» ووَصِيَّة «الأئمَة» عليهم السلام؟

إنَّ الخطَابة الحسَينيَّة بحَاجَة إلىٰ حَرَكَة إصلَاحيَّة قَوِيَّة، ونهضَة شَامِلَة، تُعيدُ المنبر إلىٰ مَوْقعه، وتَستَعِيد دَوْرَ المجْلِس، وتَقطَع الطَّرِيقَ علىٰ أعدَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة (سَوَاء مَن تَوَغَّل منهُم وٱنـدَسَّ في هـٰذا الحقْل وصَارَ يَعْبَث في الميـدَان، أو مَن يُـشِير إلـىٰ مَـوَارد الضَّعْف، ويُسَلِّط الضَّوْء علىٰ مَواطِن العَجْز والخطَأ، ويَسْخَر ويَستَهزِئ!)، وتُسقِط في أيدِيهم، وهي تُقَـدِّم الصُورة الصَّحِيحَة، وتُحسِنُ عَرضَ نَماذجَ مشرِّقة، يَعجَزُ أكبرُهُم عن النيْل من أدنَاهَا، ويَصْغُر زَعِيمُهم أمَامَ أقلِّ خُدَّام «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام.

وعَلَيكَ بُنيَّ أن تُسَاهِـم ـ بحَجْمِك الصَّغير، ودوْرِك المتوَاضع ـ في هـٰذا المشرُوع الكَبير، عبر الأدوَات والوَسَائل المبذُولَة والإمكَانيَّات المتوفِّرة، فأنتَ قَـادِرٌ علىٰ سَـدِّ ثَغْرة مَا، وتملِكُ من خِلَال التعَامُل مع الخطَبَاء، سَوَاء في ٱنتِخَابهم أو مُقَاطَعَتِهم، وفي درَجَة إكْرامِهم وتَشْجِيعهِـم، وهـٰكذا أنتَ قَـادِرٌ علىٰ تَشْخِيص الـدَّاءِ ووَضْع اليَـدِ علىٰ الجـرح وبَيَانه والدَّعْوَة لإصْلَاحِه وعِلَاجِه، من خِلَال فَرْز المَوَاقف ومَنْع الخلْط ووَقْفِ خَلْق الفوضىٰ والتدَاخُل، الذي يخدُم ٱستِمْرَار الوَضْع القَائم، ويُعين أربَابه علىٰ البقَاء!

إحْـذَر بُنيَّ ممَّن يَتَجَـاوَز حَـدَّه، وأنـزِل كُلَّ خَـطِيبٍ مَنْزِلَته، لَا تخلِـط فتُـزَيِّف عـلىٰ مُستَمِعِيك وتُغرِّر بهم، والميزانُ هو التحْصِيل العِلْمِي وسِعَة الاطِّلَاع والقُدْرة الذهْنِيَّة والتَّقْوَىٰ. قد لَا يَكُونُ الخطيبُ عَالماً فَاضِلاً قضىٰ أشواطاً في الحوْزَات، لـٰكنه ثقَّف نفْسَه ووَسَّع ٱطِّلَاعه وزَادَ معلُومَاته، ثم التزَمَ حُدُودَه، فيكْتَفي بالنَّقْل عن العُلَماء، ولَا يخُوضُ في مَا لَا يَعلَم، كَما لَا يَدَّعي لِنفْسِه منزِلَة ويَنتَحِل مَقَاماً... فَلَا بَأسَ به، فَأنا لَا أُريد تحذِيرك إلَّا من الأدْعِيَاء الخاوِين، والخَامِلين المتكَاسِلِين، حتىٰ عن حِفْظِ الجدِيدِ من أشْعَار الرثَاء وقَصَائد المدِيح، فتَراهُم يُكَرِّرون، ولَا يَأتونَ بجَدِيد حتىٰ علىٰ هـٰذا الصَّعِيد!

وعَلَيكَ أن تُفَرِّقَ في تحسُّسِك، ومَا يَنتَهي إلىٰ مَوْقفكَ، وفي حِدَّة ردِّ فِعلِكَ وغَضْبَتِك بين أخْطَاء الخطِيب الفَنيَّة وزلَّاته التي تَتَعلَّق باللحْن والعُجْمَة، وبعَجْزِ البيَان وسُوء التَّعبير، وبضَعْفِ الحافِظَة وكثرة النِسيَان، وبتَكْرَار المَوَاضيع وفَقْد التَّألُّق والإبدَاع، وفي سُـوءِ ٱنتِخَـابِ القَصَـائد أو عَـدَم التَّجْدِيد في الأشعَـار، وفي القصُور عَن ضَبْط المجلِس وحُسْن إدَارته والتَّسلُّط علىٰ أجْوَائه...

وهكذا في الإطَالَة وهَدْر الوَقْت، بمعنىٰ صَرْف سَاعَة - مَثَلاً - في مَا لَا يَتطلَّبُ بَيَانه وعَرْضه وشَرْحُه أكثر من رُبع سَاعَة، وهو غَيرُ الإخْلَال في التَّوقيت، حِين لَا يلتَزِمُ الخطِيبُ مَوْعدَه ويَتَأخَّر عن وَقْت الشُّروع والبَدْء في المجْلِس، أو يَمتَدُّ به أكثر من الزَّمَن المحَدَّد، مما يَسْتَبْطِن الاستِخْفَاف بوَقْت الحضُور، ويَنْطَوِي - بنَحْوٍ - علىٰ إهانتِهم! وقَد نَظَّمُوه سَلَفاً حَسْب إعلَان المجْلِس ونظَامه، فوَقْتُ الناسِ من أشيَائهم، ولَا تَبخَسُوا النَاسَ أشْيَاءَهُم...

عَلَيكَ أن تُفَرِّق بين هذه الأخطَاء، وبين الأخْطَاء العقَائدِيَّة، ومَا يَمَسُّ الركَائز والأُصولَ والثَّوابت، كَأن يترُكَ الخطِيبُ الرثَاء ويُهمِل ذِكْر الفَضَائل والمنَاقِب، ويخُوض في شُؤون سِيَاسِيَّة، ويَدْعُو لحزْبِيَّة، ويُروِّج لمرجِعِيَّة باطِلَة مُزَيَّفَة... أمَّا الطَّامَّة التي لَا يجوز لكَ بحَالٍ من الأحْوال السُّكُوت والتغَاضِي عَنْهـا، فهي طَرْح العقَائد الفَاسِدَة، ونَشْر الأفكَار المنحَرِفَة، وبَثُّ الضَّلالَات، مَا يَمَسُّ مَقَامَات «أهل البيت» عليهم السلام، ويَنَالُ من مَراتبِهِم، أو يُشَكِّك في مَصَائبِهم، ويُبرِّئ - بِنَحْوٍ - أعدَاءَهُم. ولَرُبَّما اقتضىٰ الأمرُ مُقَاطعَة الخطِيب وردَّه وهُو علىٰ مِنبره (وهذا من أخْطَر الأُمور وأشَدِّ المواقِف)! ذلك في القَضَايا البيِّنَة الصريحة، المتَسَالَم والمتَّفَق عليهَا، كَأن ينكُر ظُلَامة «الزَّهْراء» عليها السلام ويُشكِّك في مُصَابها، أو يُحارِبَ الشَّعَائر، في مِثْل هذه الحَالَة، علَيكَ بُنيَّ أن تَتَصَدَّىٰ له في الحال، وتُوَاجِهه فَوْراً، وتجهَر باعتِراضِك، وتُعْلِن بَراءتك من ضَلَاله، وتَترك المجْلِس، وإذا وَقَع مثل هذا الخَطْبُ الفَظِيع في حُسَينيَّتِك، لَا سَمَح الله، فعَلَيكَ أن تمنَعَ هذا الخطِيب من القِراءَة بتَاتاً، وتحظُر دَعْوَته، وتَسْتَدْرِك لحُضَّار المجلِس ومَن استَمَعَ إلىٰ بَاطِل قَوْله، وتُصْلِح مَا أفسَدَ بشتىٰ الطُّرق والوَسَائل، فَتُبرِئ ذمَّتك وتخلي مَسؤُوليَّتك.

ولَا تَغْفُل بُنيَّ، وأنتَ في هذا الدَّوْر والمقَام، عن وَسْوَسَاتِ الشَّيْطَان وإملَاءَاته، ومَكَائِده وحَبَائله، فيَأخُذك إلىٰ الزَّهْوِ والغُرور، والتَّعنُّت والاستِعْراض، والكَيْد والانتِقَام... فالقُدْرة والإمرة - ولَوْ في هذه الحدُود المتَوَاضِعَة - مَدْخَلٌ لكَبَواتِ الهوىٰ، ومَزالِق النَّفسِ الأمَّارة بالسُّوء، وبَابٌ لِغَمْز «إبليس» ولَمْزه، فكَأنك ملَكْتَ حقَّ التَّقييم، وصَارَ لكَ تَصنِيف القُرَّاء والخُطَباء، فتَمنَع هذا طُغيَاناً، وتَصِدُّ ذاكَ تعَسُّفاً، وتَرفُض مَن يحلُو لكَ رفْضه تعَنُّتاً، لِنَوازِع شَخْصِيَّة، تخلَعُ علَيهَا جَانب المبدَأ والعَقِيدَة؟!

أحرِص بُنيَّ على تنزيه قَصْدِك وتَصْحيح نِيَّتك في مَواقفِك من الخطَباء وتَعامُلك معَهُم، ولَا تَغْفَل لحظَةً عن كَوْنك مجرَّد "وكيل"، وأنَّ صَاحِب المجْلِس الحقيقي هو غَيرُك، وعلَيكَ أن تَعمَل بما يُريدُ هوَ لَا بِما تَهوىٰ أنتَ وتَرغَب! وتَبذُل كُلَّ جُهْدِكَ ووُسْعِك وتجعَل تَمامَ عَزْمك في إدراك رِضَا «المولىٰ» عليه السلام، ونَشْر فضَائل «أهل البيْت» عليهم السلام والدِّفَاع عَنهُم ونُصْرة مَذهَبهم، ثم نَجَاح المجْلِس، وإفَادَة الحضُور. ولَا تَكتَفِ في تَصْنيفك الخطَباء والقُرَّاء والمنْشِدين (الرواديد)، ولَا تَبلُغ حَدَّ الطَّعن في عَقِيدَة أحَدِهم أو النَّيلِ من كِفَايته، فإقْصَائه ومُقَاطَعته، بمُجَرَّد النَّقْل ومَا يُقَال عن حَالِه ويُشَاع عن وَضْعِه، حتىٰ تتَثبَّت من ذلك بنَفْسِك، واْحْذَر أجْوَاء الوَقيعَة والافتِراء، واْنتَبِه لأمراضِ السَّاحَة من حَسَدٍ وكَيْد ومُنَافَسَة، لَا تخفىٰ علىٰ الخبير الحصِيف.

البَدءُ بأسم «الحسين» عليه السلام

وبعدُ بُنيَّ!... فإنَّ القِراءَة و "المجْلِس" يَنبَغي أن يَبدأ بذِكْر «الحسين» عليه السلام، والسَّلَام عَلَيه، لَا غير. فيكُون أوَّل مَا يَتفوَّه به الخطِيب، العِبارة المباركَة والعُنَوان المقدَّس للشُّروع في المجْلِس الحسَيني: "صلىٰ الله عَلَيكَ يا «أبا عبدِالله»". ولَا أراني بحَاجَة لِذِكْر أو تَأكِيد أنَّ «المعصُومين الأربَعَة عَشَر» عليهم السلام، هُم نُورٌ وَاحِد، وأنَّ أية فَضِيلَة ومَكْرُمة، وتَعظِيم وتَبجِيل لوَاحِدٍ منهم، هو في الحقِيقَة والوَاقع للبقيَّة منهُم صَلَواتُ الله علَيهِم أجمعين.

إنَّ وَفيات «المعصُومين» عليهم السلام وذكْرىٰ شَهادَتهم، مُناسَباتٌ عظَيمَة، وخُطُوبٌ جَلِيلَة، وفَجَائع ورَزايا حَرِيَّة بالإحْيَاء والتَّبْجِيل، وجَديرة بدَوَام الأسىٰ، ونَصْبِ العَزَاء وإقَامَة المآتم وإنشَادِ المراثي والبكَاء، ولكن «الأئمَّة» أنفُسَهُم أمرُونَا أن نُعْمِلَ جُهْدَنا، ونَبْذُل وُسْعَنا، ونَصُبَّ طَاقتنَا، ونُركِّزَ نَشَاطَنا علىٰ إحيَاء «كربلَاء»، من بين غَيْرِها من المنَاسَبَات مهْما عَظُمَت، كَما في الحدِيث: "إن كُنت بَاكِياً لِشَيءٍ فأبكِ للحُسَين". وقَد أكَّدَت النُّصُوص واْستَقَرَّت السِّيرة (المعصُومَة والمتشرِّعة) علىٰ أنهم عليهم السلام أرادُوا أن يَجعَلُوا وَاقِعَة «الحسَين» عليه السلام محورَ الحركَة الإيمانيَّة، ومُرتكَز الوَلَاء، ومَجمَع الشِّيعَة ومُلتَقَاهُم، حتىٰ صَارَت هذه الشَّعِيرة أبرز تجلٍّ لِعُنَوان "حَبْل الله" وأجلىٰ مَعَالِم "العُروَة الوُثقىٰ" التي مَن تمسَّكَ بها نَجَا ومَن تخلَّف عنها هلَك، وغَدَت مُنطَلَق دَولَة العَدْل الإلهيِّ الموعُودَة المنتَظَرة...

فقَد عَلَّمُونا عليهم السلام وأدَّبونَا أنَّ يَوْمَ «الحسَين» (لَا غَيره) هو الذي أقرَحَ الجفُون، وأسْبَلَ الدُّمُوع، وأذلَّ الأعِزَّة، علىٰ الرُّغم من أنَّ «رَسُول الله» و«أميرالمؤمنين» أعظَمُ من «الحسَين» شَأناً، وأفضَل قَدْراً، وأرفَع مَقَاماً، لٰكن لَا يَوْم كَ «عَاشُوراء» ولَا مُصِيبَة كَمُصِيبَة «كَربَلَاء»... ولن تجِدَ في الأثر، (الزِّيَاراتِ علىٰ الخصُوص) حَثّاً وتَرغيباً وتَعظِيماً، كالَّذِي وَرَدَ في حَقِّ مُصِيبَة «الحسَين»، وجَاءَ في فَاجِعَة «الطَّفِّ».

في الحدِيث الشَّريف عن «محمَّد بن سِنان»، عن «المفضَّل بن عمر»، عن «أبي عبدالله جعفر الصَّادِق»، عن «أبيه»، عن «جَدِّه» عليهم السلام: إنَّ «الحسَين بن عليٍّ بن أبي طَالب» عليه السلام دَخَلَ يَوماً إلىٰ «الحسَن» عليه السلام، فَلَما نَظَرَ إليْه بكىٰ، فقَالَ لَه: مَا يُبكِيك يا «أبا عبدالله»؟ قَال: أبكِي لما يُصْنَعُ بك. فقَالَ لَهُ «الحسن» عليه السلام: إنَّ الذِي يُؤتىٰ إليَّ سُمٌّ يُدَسُّ إليَّ فأُقتَلُ به، ولٰكن لَا يَوْم كَيَوْمكَ يا «أبا عَبدِالله»، يَزْدَلِف إليكَ ثَلَاثُونَ ألفَ رَجُل، يَدَّعُوْن أنهم من أُمَّة جَدِّنا «محمَّد» صلى الله عليه وآله، ويَنْتَحِلُون دِينَ الإسلَام، فيَجْتَمِعُون علىٰ قتْلِكَ، وسَفْكِ دَمِك، وانتِهَاكِ حُرْمَتِك، وسَبْي ذَرارِيكَ ونسَائك، وانتهَاب ثِقْلِك، فعِنْدَها تَحِلُّ بـ «بني أُميَّة» اللعْنَة، وتمطُر السَّماء رَمَاداً ودَماً، ويَبكي عَلَيكَ كُلُّ شَيء، حتىٰ الوُحُوشُ في الفَلَوات، والحِيتَان في البِحَار.(١)

إنَّ «الحسَين» عليه السلام دُونَ «أبيه»، و«جَدِّه» و«أخِيه»، و«أُمِّه» والتِّسْعَة «المعصُومين» من بَنِيه... هو "وِتْرُ الله الموتُور"، وهو لَا سِوَاه "قَرين المصِيبَة الرَّاتبة"، وهو لَا غَيره "صَريع العَبرة السَّاكِبة"، وهو الذي "مَا ذَكرَهُ مُؤمنٌ إلَّا استَعبَر وبكىٰ"، وهو الذي يحطُّ البكَاءُ عَلَيه الذنُوبَ العِظَام، وزيَارته والبَكَاءُ عَلَيه هو سَبيل إسْعَاد «فاطِمَة»، وهو الذي أوْدَعَ الله حَرارة قَتْلِه وغَرَسَها في قلُوب المؤمنين، فَلَا تَبرُد أبداً!

ومَا ذُكِرَ من الأجْرِ العَظِيم، وأُحْصِيَ من الثَّوابِ الجزيل في عَقْد المجَالِس، ومَا جَاء في الأثَر من حَثِّ الشِّيعَة علىٰ الاجتِماع للنُّدْبَة والرِّثَاء والبُكَاء، إنَّما جَاءَ في حَقِّ «سيِّد الشُّهَداء» بالخصُوص، وللمَجَالِس المقَامَة علىٰ رُزْء «الحسَين»، وتخلِيداً لِذِكْراه ومُصَابه. فكَأنَّ "القِراءَة" و"المجْلِس" ـ في الأصْل ـ شُرِّعَ له عليه السلام...

(١) «الأمالي» لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص١٧٧.

ولَوْ تَأمَّلتَ في الرِّوَاية التي أوْصىٰ فيها «الباقِر» ٱبنَهُ «الصَّادِقَ» عليهما السلام بقَوْله: "يا «جَعفَر» أوْقف لي من مَالي كَذا وكَذا، النَّوَادِب تَنْدُبُني عَشْر سِنِين بمنىٰ أيَامَ منىٰ"، لَرأيتَ أنها جَاءَت مُقَيَّدَة مكاناً في «منىٰ»، وزَمَاناً بعَشْر سِنين... أمَا الرثَاء والعَزَاء الدائِم، ومجْلِس الدَّهْر والأبد، والرَّزيَّة الدائِمَة الخَالِدَة، والمصِيبَة المتَّصِلَة الراتِبَة، فَهي مُصِيبَة «سيِّد الشُّهَداءِ» عليه السلام. وهُنَاكَ نُصُوصٌ تُؤكِّد أنَّ المجْلِس الذي سيبقىٰ مَا بَقِيَت الدنيا، ثم يَنتَقِل إلىٰ الآخِرة، ويُقَام في عرَصَاتِ المحْشَر يَوْمَ القِيَامة، هو مجْلِس «الحسَين» عليه السلام.

وإقرَاراً بهٰذه الحقِيقَة وتَسْليماً بهٰذه الفِكْرة، علىٰ القَارِئ أن يَبدَأ بالعِبَارة التقْليديَّة التي كَان يَلتَزِمها الخطَباء في مَا مضىٰ: "صلىٰ الله علَيكَ يا «أبا عبدالله»"، ذَلك وإن كَانَ المجْلِس مُنعَقِداً لِذِكْرىٰ شَهَادَة «النبيِّ» أو «الزَّهْراء»، أو أحَدِ «الأئمَّة»، أو أيِّ وَليٍّ مُعظَّم من ذُرِّيَّتِهم عليهم السلام، أو من أُمَّهَاتِهم وأصْحَابهم، كَمَوْلَاتنا «زينب الكُبرىٰ» و«أبي الفَضْل العَبَّاس» و«أُم البنين» و«فَاطِمة المعصُومَة» عليهم السلام.

فالخطيبُ يَذْكُر فَضَائل صَاحِب الذكْرىٰ والمنَاسَبَة، ويَسْرد قِصَّة مَقْتَله، ويُنشِد في ذلك المراثي ويُبكي الحضُور في مُصَابه... ولٰكن علَيه أن يَبدأ بذِكْر «سيِّد الشُّهَدَاء»، مُعلِناً أن هٰذا مجْلِسٌ حُسَينيٌّ، (ولٰكنه) يُعقَد لِذكْرىٰ شَهَادَة «النَّبِي» أو «الإمَام الصَّادِق» أو «الكَاظِم» أو «الرِّضَا» أو «الزَّهْراء» عليهم السلام... ثـم عَلَيه أن يُنهي المجْلِس ويختمَه بذِكْر مُصَابِ «الحسَين» ويُعرِّج في رثَائه علىٰ «كَرْبَلَاء» و«عَاشُورَاء».

أمَّا ٱستِحْبَاب البَدْء بالبَسْمَلَة الذي جَاءَت به نُصُوصٌ كَثِيرةٌ مِنهَا: "كُلُّ أمرٍ ذِي بَالٍ لم يُبدَأ فيه بِبسْم الله الرَّحمٰن الرَّحيم فهُو أبتَر"[1]، وأُخْرىٰ تَتَنَاوَل ٱستِحْبَاب البَدْء بالحمْد... فيُمكِن لمن أرادَ من الخطَباء التَّمَسُّك بذَلك والعَمَل به، وأبىٰ أن يُنزل الأمرَ علىٰ مَا في "الجامِعَة الكَبيرة" من قَوْله عليه السلام: "مَن أرادَ الله بَدَأ بِكُم، ومَن وَحَّدَهُ قَبِلَ عَنكُم، ومَن قَصَدَه توجَّه بكُم"[2]، فَذِكْرهُم - في الوَقع - ذِكْر الله، يُمكِنه أن يَفْعَل ذلك إخْفَاتاً، ثم يجعَل أوَّل مَا يَصْدَح به ويجْهر هو قَوْل: "صلىٰ الله عَلَيكَ يا «أبا عبدالله»".

---

(١) «عُيون أخبار الرِّضَا» لـ «الشيخ الصَّدُوق» ج١ ص٣٠٨.

(٢) «بحَار الأنوار» لـ «العَلَّامة المجلِسي» ج٧٦ ص٣٥.

قَد يَبدُو الأمر غَرِيباً بعضَ الشَّيء بُنيّ، لِذا لَا تُصرَّ عَلَيه ولَا تَتَشَدَّد في فَرْضِه وإلزَام الخُطَباء به، ودَعْه يتَحرَّك في دَائرة الحِوَار والمنَاقَشَة، ثم الرَّغْبة مِنكَ والطَّلَب... وبيِّن للمُؤمنين الحُسَينِيين، والقَائِمِينَ علىٰ المآتم تَوَجُّسَكَ من "العَشَرات" التي تُقَام علىٰ مُصَاب «الأئمَّة» ﷺ، بنِيَّات خَالِصَة ومَقَاصِد سَلِيمَة وأهْدَافٍ نَبِيلَة، فـ "عَشَرةٌ" لِوَفَاة «الصَّادِق»، وأُخرىٰ لـ "الفَاطِميَّة"، وغَيرها لـ «إمَام» آخر وهكذا، وأعْرِض لهم خَشْيَتك أن يَبلُغ الأمرُ ويُطْرَح، علىٰ المدىٰ البَعِيد، في عَرْض ومُقَابل "عَشرة عَاشوراء". مِثلَما سعىٰ بعضَ الموالين لِيُؤَسِّسُوا دُوراً وبُيوتاً بٱسْم «الحجَّة» ﷺ عُرِفَت بـ "المهدِيَّة"، أو بٱسم «أميرالمؤمنين» سُمِّيت "حَيْدَرِيَّة".

إنني أخشىٰ أن يُفْضي هذا التعَدُّد والتَّنوُّع إلىٰ عَقْدِ المُقارنَة وفَتْح بَابِ القِيَاس والرَّبْط، مَا يَنْتَهي إلىٰ تخفِيفِ وَقْع «عَاشُوراء» وخَفْضِ وَهْج المصِيبَة، وتهوِين الخَطْب فيهَا... فقَد قَاوَمَت «عَاشُوراء» سُنَنَ التَّاريخ وحَركَته وصَيْرورته، وتحدَّت الطَّبيعَة الأجتماعيَّة، ولَعلَّ الإنسَانيَّة، وقَهَرَت قُدْرَتَها الخَارقَة، التي تَستَطِيع ٱمتِصَاصِ زَخْم أيِّ حَدَثٍ - مَهْما عَظُم - عَبر عَامِل الزَّمَن وتَعَاقُب الأيام، ونسْيَان أية فَاجِعَة وٱضْمِحْلَال آثارهَا بكَرِّ الأعوَام، قَاوَمَت ذلك وطَوَّعَتهُ بعَامِل الأنفِراد والتميُّز، وحَالَة الوِتْر والحَصْر. والخَوْف أننا إذا بَدَأنا بمَسِيرة وأسَّسْنَا لحركَة مُشَابِهَة، تَسْتَنسِخ النَّمُوذَج الحسَينيَّ وتُكَرِّر التَّجْربَة في حَالَة ثَانية وثَالِثة، أن يَنتَهي هذا التَّعَدُّد والتكْرَار، إلىٰ إبطَال تميُّز «عَاشُوراء» وإسْقَاط عُنْصُر ٱنفِرادهَا وعَامِلِ قَوَّتِها وشَيءٍ من سِرِّ بَقَائها.

لِذَا فأنا أتحفَّظ علىٰ التَّطبير في مُصَاب «أميرالمؤمنين» ﷺ (وإن بلَغَ تَناسُبُ الحدَثِ مع شَكْل الشَّعِيرَه مَدَاه، كَالصَّيْحَة بـ "حَيْدَر"، وتَوَافَق فِعْلُ المطبِّرين ضَرْبَة «المولىٰ» علىٰ رأسِه وجَرْحه في هَامَتِه)، بل حتىٰ في أربعِين «الحسَين» نَفْسه!... ذلك خَوْفاً علىٰ مَوْقع ومَكَانة «عَاشُوراء»، وحِرْصاً علىٰ الوَهْج والتميُّز الذي جعَلَهَا مُنفَرِدَة طِوَال العَام، وخَالِدَة مَدىٰ الأعوَام، سَوَاء في مَوقِعِهَا في النفُوس المؤمنَة، أو وَقْعِهَا علىٰ عَامَّة الناس. ولكن عَلَيكَ بُنيَّ، أن لَا تَفرِضَ هذا وتملِيه علىٰ أحَد! فهُو لَا يَعْدُو ٱستِمْزاجاً وٱستِحْسَاناً، لَا يُشكِّل حُجَّة إلَّا لمن أدركَه وٱقتَنَعَ به، ومخالَفته لَيسَت محرَّماً يجِبُ النَّهْي عنه.

ولَا يَصِحُّ الجوَاب ـ هنا ـ علىٰ هـٰذا التَّخوُّف والتوَجُّس، بالوَعْدِ الإلهيِّ والضَّمان الغَيبيِّ للقَضيَّـة، فيقُول قَائل: إنَّ مُصيبة «الحسَين» وذكْرىٰ «عَاشُوراء» خَالِدَة لِعنَاية رَبَّانيَّـة وتَدَخُّل غَيْبيٍّ، ولَا خَوْفَ عليهَا ولَا حَذَر من شَيءٍ قد يَنالها، فَلَا تُشْغِل نَفسَك ولَا تحمِل همّاً يتَجاوَز دَوْرَك!... فنَقْحَم نِطَاقاتٍ تَتهَدَّد مَسِيرة الشَّعَائر الحُسَينيَّة، ونَرتكِبُ أخْطَاءً تُسيء إليهَا وتُشَوِّهها، ولَا نُحْسِن التقْدِير في إدارتها، ونتَجَاوَز عن مَوَازِين منْطِقيَّة ومُعطَياتٍ عَقْلِيَّة، (ولَربَّما ضَوَابطَ شَرعيَّة)، بما يتَهدَّد الشَّعِيرة وقَد يُقَوِّضها، ثم نُنادِي بأنَّ المسِيرة بعَيْن الله عَزَّ وجَلَّ، وأنها مَحفُوظَة خَالِدَة بِوَعْدٍ ربَّاني وتعهُّد كَشَفَته الأحَادِيث الشَّريفَة وهي تُقَرِّر أنها حُرقَةٌ وحَرارةٌ ووَهْجٌ لَا يَنْطَفِئُ أبداً، وذِكْرٌ لَا يُمْحَى، ووَحْيٌ لَا يَمُوت! فنَرتكِب أشيَاءَ ونُقْدِم علىٰ أُمور بنَحْوٍ يبدُو وكَأنه ٱمتِحَان (أو حتىٰ تَحَدٍّ) للإرادة الإلهيَّة، ونزَالُ مع تِلك الوُعُود والعُهُود!... لَا يُصَحِّح هـٰذا عَقْلٌ ولَا يُجَوِّزه شَرْع، فَلَيسَ للإنسَان أن يَمتَحِنَ ربَّه، بل الله سُبحَانه هو الذي يَمتَحِن عِبَادَه ويَبتَليهم.

لِذَا فنَحْنُ حِينَ نُقيم "الفَاطِمِّية" (ونُرَحِّب بتكْرارها ثَلَاثاً في كُلِّ عَام، بل بوَصْل الثانية بالثالِثَة)، نتَمسَّكُ بـ "المجْلِس الحسَيني"، ونُصِرُّ علىٰ أننا نُقيمُ العَزاء علىٰ «الزَّهرَاء» في "الحسَينيَّة"، في دَارِ «ٱبنها» وعَزِيزهَا، ونُعلِن أنه مجْلِسٌ "حُسَيْنيٌّ"، فنبدَأ بتَحِيَّة «الحسَين» والسَّلَام عَلَيه، (مَا يَتَضَمَّن ويُشِير إلىٰ طَلِبِ الرُّخْصَة والإذن مِنه، ويَعني التَّأدُّب في حَضْرة صَاحِب المكَان ورَاعِيه)، لنُقِيم المأتم علىٰ «أُمِّه» المظْلُومَة، سَيِّدة نِسَاءِ العَالمين من الأوَّلين والآخِرين، ونُحْيي ذِكْراها كَما يَنبغي ويجب.

وهـٰكذا مع كُلِّ مَظْلُوم وفَقِيد، وقَتيل وشَهِيد، من سَائر المؤمنين كَان، أو مِن أعْظَم خَلْق الله، من «المعصُومين الأربَعة عَشَر» عليهم السلام، وتَالي تِلْو «المعصُومين» من أوْلِيَاءِ الله وأنصَارِ دِينه... نُجَدِّد أحْزَان «عَاشُوراء»، ونَنْدُب «سيِّد الشُّهَداء»، ذلك بطَلَب وأمْرٍ صَرِيح من «جَدِّه الأعْظَم» و«أبيه الأمير» و«أُمِّه الزَّهرَاء»، و«أخِيه السِّبطِ الأكْبر».

ثم هي لَيسَت "مَهدِيَّة" ولَا "حيدَريَّة" بل "حُسينيَّة"! ومَن اللطِيفِ أنَّ ظَاهِرة "المهدِيَّة" سَريعاً مَا ٱنحَسَرَت، وٱستَدْرَك أصْحَابُها الأمر فعَادُوا وصَحَّحُوا الٱسم إلىٰ "الحسَينيَّة المهْدِيَّة" و"الحسَينيَّة الحيْدَرِيَّة"، ونعْمَ العَوْد.

ثم ٱعلَم بُنيَّ، أنَّ أعدَاء الشَّعَائِر الحسَينيَّة الذين يَشُنُّونَ حَرْباً منظَّمَة تَسْتَهْدِف المجْلِس الحسَيْنيَّ بهُويَّته ومَعَالمه المتَمثِّلَة في: الرثَاء والبكَاء، ثم ذِكْرِ الفَضَائِل وتَثبيتِ العَقَائد، ويتَهَالَكُون لِقَلْبِه إلىٰ مُجرَّد "محاضَرة" ثقافيَّة، و "دَرْس" في الأخْلَاق أو الأحْكَام، أو أيِّ عُنوان آخَرَ يَمِيلُ به ويُبعِده عن أصْلِه... عَمَدُوا منذ أمدٍ غَير قَرِيب وصَوَّبوا إلىٰ مُسْتَهلِّ المجْلِس الحُسَينيِّ ومَطْلَع القِراءَة الحسينيَّة، أيْ عَبَارة "صلىٰ الله عَلَيكَ يا «أبا عَبدالله»"، وجَعَلُوهَا مَرمىً لِسِهَامِهم ومَحَلّاً لِدَسِّ سُمُومِهم. وقد ٱتَّخذُوا من "البَسْمَلَة" جَبْهَة للمَعْرِكَة وأدَاة لحَرْبِهم الخَفِيَّة، ولَعلَّ بَعضَهُم جَاهَرَ بالأمر وأعلَنه، وعَرَضَه في سِيَاق التَّنكُّر لهويَّته المذهَبيَّة ولكُلِّ مَا "يَفصِلُنَا" و "يُفْرِدنَا"، ورَفْضِ ونَبْذِ كُلِّ مَا يُميِّزنا عن الآخَرين، ويُرِيدُ بهم بَقِيَّة الفِرَق والمذَاهِب الإسلَاميَّة المحْرُومَة من «عَاشُورَاء» وإحيَاء ذِكْرىٰ «الحسين» عليه السلام والبُكَاءِ علَيه!

وهٰكذا الأمرُ في تَدَخُّلَاتٍ أُخرىٰ وهَجَماتٍ مُنظَّمَة ومُبرمجة، تَتَسَتَّر بعَنَاوِين مُقَدَّسَة، كَأمر الصَّلَاةِ عندَمَا يَتَعَارض وَقْتُها مع أدَاءِ بَعضِ الشَّعَائر. ولَوْ كَان الأمرُ في الفَجْر، ومَا يتَهَدَّد فَوْتها وتحوُّلها إلىٰ قَضَاء، لَحَقَّ ووَجَب، أو إذا كَان دَأْباً وتكْراراً، لَا مَرَّة في يَوْم وَاحِدٍ كُل عَام، لَهَانَ ولٰكننا شَهِدْنا حَمَلَة مُرِيبَة تَسْتَبطِن الاَسْتِهَانَة بالشَّعَائِر والاَستِخْفَاف بها، علىٰ غِرَار الدَّعْوَة للحِجَاب والشِّعَار الذي تَرَاه في مَشْهَد «الرِّضَا» عليه السلام: "الزيَارة مُستَحبَّة، والحِجَاب وَاجِب"، لَعَمْري ألم يكُن من خِطَاب يَحثُّ علىٰ الحِجَاب ويُرغِّب فيه، لَا يَمَسُّ قُدْسِيَّة الزِّيَارة ولَا يحطُّ من قَدْرِها وحُرمَتها؟ ألم يُمكِنهم الجَمْع بين الخيرَيْن والفَضِيلَتَيْن بشِعَار من قَبِيل: "في محْضَر «الرِّضَا»، لَا تَتَهَاوَني بالحِجَاب"، أو "ٱحْفَظِي قُدْسَ الزِّيَارة بٱلتِزَام الحِجَاب"؟ كَم كَانَ جَميلاً لَو قِيل: "تَقَيَّدِي بحِجَابِكِ حتىٰ يَرضىٰ «الرضا»"؟

وقد ٱشتُهِرَت في «قُم» قِصَّة دُخُول مَوكِبٍ حُسَينيٍّ من بَابِ الصَّحْن الشَّرِيف لحَرَم «السيِّدَة المعْصُومَة» عليها السلام، وقَد أذَّنَ المؤذِّن، وكَانت الصَّلَاة بإمَامَة «السَيِّد المرعَشِي النَّجَفِي»، فَنَادىٰ المكَبِّر بعَالِي صَوْته وصَاحَ ليُوقفُوا الموكب، فقَد حَانَتِ الصَّلَاة، وإذا بـ «السيِّدِ» رحمه الله يَأمُره بتَركِهم في حَالهم، لِيُؤَدُّوا طقُوسَهُم، فإذا فَرَغُوا أقمْنَا نَحْنُ صَلَاتنا، وقَالَ كلمة عَظِيمَة تَدَاوَلها الطلَبَةُ رَدَحاً من الزَّمَن: "لَوْلَا هٰذه الشَّعَائِرُ لما بَقِيَت صَلَاة"!

بُنيَّ! لَا تُخدَعنَّ بكَلمات حَقٍّ وشِعَاراتٍ بَرَّاقَة ونِدَاءَاتٍ مَشْرُوعَة، عن بَاطِل خَفِيٍّ، وشَرٍّ يُرادُ تَزْيينه، وحَقٍّ آخَر يُرادُ طَمْسُه، وخُذ بالوَعْي والبصِيرة، مَا يجعَلك في سَلَامة من دِينك وحَركَتِك. من هُنَا تَرَاني كُلَّما رَأيتُ هٰذا الاَستِهْدَاف المرِيب، ورَصَدْتُ هٰذه الحرُوب، انكَشَفَ لي كَم هُو عَظِيمٌ مَا نَحْنُ عَلَيه، وازْدَادَ إصرَارِي وتمسُّكِي به!

إحياء ذكرىٰ العُلماء (السنويَّة)

من الآفَاتِ التي نَزَلَت بسَاحَة الشَّعَائر ونَشَاط الحُسَينيَّات، مَا أخَذَ فيه بَعضُهُم ورَاح من إحيَاء ذِكْرَىٰ مَرْجع تَقْلِيدِه المتوفَّى، وتكْرار ذلك في كُلِّ عَام، حتىٰ صَار مُناسَبة ثابتَة في "تَقوِيم" (أو "أجِنْدَة" أو "رزنَامَة") الشِّيعَة عِندَهُم! ومَع إمكَانيَّاتهم المالِيَّة والفَنيَّة والتَّنظيميَّة الكَبيرة، وتمكُّنِهم من وَسَائل الإعْلَام والقَنوَات التلفِزْيُونيَّة علىٰ الخصُوص، اسْتطَاعُوا خَلْقَ فَضَاءٍ عَام في أوْسَاط المؤمنين صَارَ يحكُم النَّاس ويَربِطهُم بذِكْرىٰ هٰذا المرجع الرَّاحِل وذَاكَ العَالِم الفَقِيد... وفي هٰذا قُبْحٌ وخَطَر!

إنَّها مُزايَدَة فَجَّة وأداءٌ سَقِيم (في نَفْسِ فَاعِله ورُوح القَائم عَلَيه، ومَرير في السَّاحَة)، أن يَذهَبَ بعضُهُم في تَوْقير العُلَماء وتَعظِيمهِم، ويخلِط في الأمر ويَهْرِف، ويَبلُغ مَا يَنقَلِب به عَن القَصْد ويَنتَكِس عن الهدَف، ويَصِير ـ لَدَىٰ الأسوِيَاء البُصَراء ـ هَتكاً للعَالِم ونَفياً لحُرْمَته، حِين يَرفَعهُ ويَقْرِنهُ بـ «الحسَين» عليه السلام، وهو يجعَل لَه ذِكْرىً كَذِكْراه ومُناسَبة سَنويَّة تُحيَى بعِنَاية واهتِمام، وتخلَّد بمتَابعَة حَثِيثَة وإصْرَار؟! إنهم في وَاقع الأمر يخلُقون أسبَاب مَقْت هٰؤلَاء المحْتَفَى بهم ويُوجِدُون بَوَاعِثَ التنفُّر والتَّقَزُّز مِنهمُ... من صُوَرِهم المطِلَّة بثِقْل، وسيرتهِم الحاضِرَة بما يَبعَث الضَّجَرَ والملَلَ والسَّأم.

لَعَمْري، انظُر بُنيَّ أين بلَغْنَا وأينَ عَسَاهُم أن يأخُذُونَا بعدَ هٰذا؟

فنَحْنُ نتَحَسَّس ونَتَوَجَّس حتىٰ نُصِرَّ علىٰ بَدْءِ المجْلِس باسم «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، مقَابِل الحمْدِ والبَسمَلَة، ومقَابل عَقْد المجَالِس لـ «الأئمة الأطهار» عليهم السلام، ونَذهَب إلىٰ حَكْر المجَالِس وحَصْرِها في ذِكْراه ووَقْفِها علىٰ سِيرته ومُصِيبته... وهٰؤلَاء يُرِيدُونَها (عَمَليّاً، وإن كَان دُونَ قوْل وتَصْرِيح) مَشَاعاً وسَوَاءً بين «الحسَين» عليه السلام وعَالمِهم ومَرجع تَقلِيدهِم الرَّاحل! فَأيةُ غَفْلَة هٰذه، وأيُّ حَضِيضٍ هٰذا؟!

إعْلَم بُنيَّ، إنَّهم ـ في الأغلَب ـ يُروِّجُون لأنفُسِهم ويَدْعُونَ لمشَاريعهِم، ومَا الفَقِيد الرَّاحِل إلَّا وَسيلَة وأدَاة، يُريد "الأبن" و"الصِّهْر" وسَائر "الوَرَثة" أن يُبقوا عَلَيه، لِيَدُرَّ عَلَيهم بعدَ مماتِه كَما كَانَ يفعَل في حيَاته. إنهم ـ في الوَاقع ـ يُعَظِّمُون أنفُسَهُم لَا فَقِيدَهُم! ولَو وَرِثوا من عِلْمِه شَيئاً لأَستَغْنُوا عن هذه البهْرَجَة والمبَالَغة والإسراف في تَقدِيس رَجُلٍ، مَهْما بَلَغ من الفَضْلِ والعَطَاء، فهُو غَير مَعْصُوم، ولَا يَبلُغ في شَرفه وحُرمَته، تُرَاب نَعْل «الإمام». هذا للمَرجع والعَالم الحقِيقيِّ، أمَا الأدْعِياء، صَنائع وَسَائل الإعْلَام ودَوائر المخَابرات، فـ "سَنَوِيَّاتهم" مَشَاريع حِزبيَّة وأغرَاضٌ مُريبَة تَتَجَاوَز النِّطَاق السَّابق إلىٰ الفِتنَة المضِلَّة، فالرَّجُل في قَبْره تَتَقَاتَل علىٰ رِمَّته البَالِية الدِّيدَانُ وتَنْخُر عِظَامه الهوَام، و"مَكْتَبه" مَا زالَ يُجدِّد أوَّل شَهْر رَمَضَان ويحكُم بالعيد والهِلَال! والطَّامَّة أن هذا التَّعِس كَان يَسْتَكْثِر الأمر علىٰ «الحسَيْن»، ويَرىٰ في إحيَاءِ ذِكْرَاه عَيْشاً في التَّاريخ، ويَدْعُو للحَرَكَة والتَّقدُّم ومُوَاكَبة الحيَاة وعَدَم الأرتهَان للماضي والتَّعلُّق بـ "الأموَات"!

لَا بَأسَ بُنيَّ بإقَامَة الفَاتحَة علىٰ مَرْجع تَقلِيد تُوفِّي، بل هُو من الوَفَاء والشُّكْر وتَعظِيم العِلْم وإكرام وتَبجيل العُلَماء الذي نَدَب إليه الشَّارع المقدَّس وحَثَّ عَلَيه، فقد رُوِيَ عن «النَّبيِّ» ﷺ: "فَقِيهٌ وَاحِدٌ أشَدُّ علىٰ إبليسَ مِن ألفِ عَابِد"، وفي مُصِيبَة فَقْده: "إنَّ الله لَا ينتَزِع العِلْمَ أنتزَاعاً ولكن يَنتَزِعه بمَوْت العُلَماء حتىٰ إذا لم يَبقَ مِنهُم أحَدٌ أتخَذَ النَّاسُ رُؤَسَاءَ جُهَّالاً، فأفتوا النَّاسِ بغَيْر عِلْم فَضَلُّوا وأضَلُّوا".[1]

ولكن ـ مع ذلك ـ يجب أن يبقىٰ الأمرُ في إطَارِه الذي يَفصِلهُم عن «الأئمة» عليهم السلام، ولَا يخْلِطُ الأمرَ علىٰ العَوَام... لِذَا لَا تَسمَح أن تُقَام مجَالِس العَزَاءِ علىٰ العُلَماءِ في ذِكْراهُم السَّنَوِيَّة في حُسَينيَّتك، ولَا تُشَارِك في مِثْل هذه المجَالِس بَأيِّ نَحْو، فتُسَاهِم في هذه الظَّاهِرة المبتدَعَة، وأجْعَل نَفْسَك وجُهدَك ونشَاطك وَقْفاً علىٰ "صَاحِب المصِيبَة الرَّاتبة"، لَا غيْره ولَا سِوَاه، ولَا تُخدَعنَّ بمَقُولَة أنَّ هذا يَصُبُّ في ذاك، وأنَّ تعظيم آية الله فُلَان ينتهي إلىٰ تعظيم «الحسَيْن» و«أهل البيت» عليهم السلام، و"كُلٌّ إلىٰ ذاك الجمال يُشير"، وأنه يُعِزُّ المذهَبَ والطَّائِفَة، مما يُغَرِّرون به العَوَام، بل يُسَوِّلُون به لأنفسَهُم...

(١) (بحار الأنوار) ج٢ ص٢٤و٢٥.

ردُّ الجمِيل للقارئ

إنَّ الخَطِيبَ الحسَيْنِي الذي يَرقىٰ المنبَر لِيَرثي، ويُقِيم المأتم ويُحيي الشَّعِيرة، فيُبكِيكَ علىٰ «الحسَين» عليه السلام، يَكتَسِبُ حَقّاً عَظِيماً وفَضْلاً كَبيراً، ويَترتَّب علىٰ ذلكَ يَدٌ وتُصْبِح لَه مِنَّة عَلَيكَ... فيَلْزَم أن تَرُدَّ بَعضَ مَا أَسْدَاه، وقَلِيلاً من مَعرُوفه وجَمِيلِه. وهو حَقٌّ يفوقُ حقَّ المعلِّم وفَضَل المؤدِّب، فَقَد جمَعَ إلىٰ التَّعلِيم والنُّصْح والموْعظَة والإرشَاد، الإبكَاءَ علىٰ «سيِّدِ الشُّهَدَاء»، وإحْيَاءَ أمْرِه، والتَّسَبُّب بأعْظَم عِبَادَة يُمكِن أن تُؤدِّيها.

ولَا تَتَوهمنَّ بُنيَّ في مجرَّد دَفع الأجْرِ والمقَابل المادِّي أو "الهدِيَّة" النقْدِيَّة التي تُقَدِّمها للخَطِيب والرَّادُود أنكَ أوْفَيتَه حَقَّه وجَازَيْتَ مَعْرُوفه وصَنِيعَه ورَدَدْتَ جميلَه؟ كَلَّا، فمِثل هٰذه الأعْمال لَا تُقَدَّر بثَمَن، ولاَ تُجازَىٰ بأجْرٍ مَادِّي، وعَلَيكَ أن تُقَدِّم مُقَابِلاً من نَفْسِ الجِنْس والطَّبيعَة والسِّنْخ، وهٰذا مَا يُرتِّب عَلَيكَ التِزَامَاتٍ ووَاجِبَات...

أوَّل خُطُوَات رَدِّ الجمِيل ومُقَابلَة المعرُوف، هي الدُّعَاء.

عَلَيكَ أن تَدْعُو للخَطِيب والرادُود، قَبْلَ المنبر وبَعْده، وأحيَاناً أثناءَه وخِلَالَه، حين تجدُ منه بَوَادِرَ سَهْوٍ ونسْيَانٍ أو شُرُود ذِهْن، أو مَا يَنِمُّ عن اَضْطِراب واَرتباك وفَقْدِ سَيْطَرته علىٰ الموْقف، فَتَراه يتَوقَّف ويَمْكُث شَيئاً، يَسْتَرجع مَا فَاتَه، ويَسْتَذْكِر مَا نَسي، فالأمرُ لَيْسَ سَهْلاً يَسِيراً كَما يَبدُو للمُسْتَمع! فهُو يحتَاجُ في بَعضِ الحَالاَتِ، حِينَ يَزْدَادُ حَجْم الحضُور ويَتَكَثَّف الجمْعُ ويَكْبُر المجْلِس، أو حِينَ يكُون في الحضَّارِ نَوْعيَّات مُتَمَيِّزة من رِجَال عِلْم أو ذَوِي شَأن اَجتِماعيٍّ، ممَّن يُحسَبُ لهم ولخَطَرِهم، مَا يَتَطَلَّبُ من الخطِيبِ قُدْرة خَاصَّة وتمكُّناً وتَسَلُّطاً، لَا يكُون إلَّا في المتمَرِّس المتفوِّق... فعَلَيكَ الدُّعَاء للخَطِيب الذي تحضُر مجلِسَه، تَدْعُو لَه بالتَّوْفِيق والسَدَاد، وأن يُطْلِق الله لِسَانَه ويُحكِم بَيَانه، ويُوفِّقه لخيْر أدَاء، حتىٰ يَأخُذَ مُسْتَمِعيه إلىٰ غَاية النَّجَاح وأفضَل الجنْي والحصَاد والفَلَاح، وكَذَا بقَضَاء حَوَائجه الخاصَّة وبُلُوغ مُرَاده ونَيْل أمَلِه.

ولَا تَغْفُل في نهَايَة المجْلِس وخَتَام القِراءَة حِينَ يَدْعُو الخطِيبُ للحُضُورِ بالحِفْظِ والسَّلامَة والعَافِية والرَّحمةِ، وبالقَبُول والسَّدَاد، أن تَرُدَّ عَلَيه، وتَعْطِفَ علىٰ قَوْله ليَشْمَل الدُّعَاءُ الدَّاعي أيضاً.

ومما يجبُ تجاه خُدَّام «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام من الخطَبَاء والرواديد، هُو إكْرامهم بتَعَاهُدِ اُستِضَافَتِهم وإقَامَة الوَلَائِم علىٰ شَرفهم، ولَا سِيَّما إذا كَانَ الخطِيبُ مُسَافِراً وَافِداً... فإن لم يَسَعْكَ أن تَسْتَضِيفَه بشَكْل دَوْرِيٍّ في بيتِك، أو كَانَ في الوَلَائم إعَاقَة لَه عن التَّفَرُّغ للمُطَالَعَة والاُستِعْدَاد للمِنْبَر (أو لكَ عن نَشَاطِكَ العِلْمِي والتَرْبوِي)، فعلَيكَ أن تُرسلَ لَه غَدَاءَه إلىٰ محَلِّ إقَامتِه. وفي المجموع يجِبُ أن تَتَكَفَّل وصَحْبُكَ مَسْألة المأكَل، وهـٰكذا خِدْمَة غَسْل ثيَابه وإعدَادِها، وتُغْنِيه عن أيِّ جُهْد يَصْرِفه في هـٰذا السَّبيل، من بَاب إكْرَامه، ثم تَفرِّغه لعَمَلِه الخطير الذي لَا ينبَغي أن يَشْغَله عَنه شَيء.

ومما أُوصِيكَ به بُنيَّ، أن تجزِل لَه العَطَاء، وتَبذُلَ لَه مَا أمكَنَك ووَسعَك، دُونَ إغفَال لآليَّة تَضْبِط الأمر، فَلَا تَدفَع أكثر من القَدْر المتعَارف مُقَابل قِراءَته، مَا يَقْطَع الطَّرِيقَ علىٰ المغَالَاة، والإضْرار بالمجَالِس الصَّغِيرة التي قَد يَعْجَزُ أرْبَابُها عن بَذْلِ وتَقْدِيم المقدَار الذي تُقَدِّمه أنت، فهُنَاكَ عُرفٌ متَدَاوَل في كُلِّ بَلَد، يَضْبِط ـ بنَحْوٍ ـ المبلَغ الذي يجبُ أن يُقَدَّم لكُلِّ خَطِيب، فَلَا تَتَسبَّب أنتَ في فوضىٰ وإربَاك علىٰ هـٰذا الصَّعِيد، لِذَا علَيكَ أن تُقَدِّم المبلَغَ المتَعَارَف عَلَيه، ثم تُلحِقْه ـ بعد ذلك، بِشَكْل مُنفَصِل ـ بما تَيَسَّرَ لَكَ وأمكَنك.

وهُناكَ خُطُوات فَنيَّة فِيهَا خِدْمة كَبيرة للخَطِيب، ولنَجَاح المجْلِس، كَضَبْط مُكبِّرات الصَّوْت، وجَوْدَة تَنظِيمِهَا، بما يجمَع بين رَاحَة المتحَدِّث والمسْتَمَع علىٰ السَّوَاء، وخُطْوَة تَبدُو جُزئيَّة، قد تُؤدِّي خِدْمَة كَبيرة، من قَبيل وَضْع سَماعَة صَغيرة قُرب المنبَر، أو بالدِّقَة، خَلْف المنبَر قَرِيباً من مَسَامع الخطِيب، فَلَا شَيءَ يُؤْذي الخطِيب في قِراءته، ولَا سِيَّما عندَ الإنشَاد وتلَاوَة المراثي (التي تقتَضي رَفْع الصَّوْت وتَوْظِيف طَبَقَاته العُليَا)، مثْل غِيَاب صَوْته عن سَمْعِه، وهـٰذا مَا يَدْفَعه لِرَفْعه ومَا يَبلُغ به الصِّيَاح! وهو سِرُّ أُنسِ الخطِيب وتَرحِيبه بمُضَخِّماتِ الصَّوْت التي تُنَظِّم علىٰ كَيفيَّة الصَدَىٰ وتكْرار رَجْع الصَّوْت، وسِرُّ رفْع بَعضِ القُرَّاء أكُفَّهُم بإزاء أفوَاهِهم ووَضْعِها علىٰ آذَانهم عِندَ الإنشَاد. إنَّ عَدَم سَماع المتحَدِّث صَوتَه يُزعجُه ويُؤذيه، ويَدْفَعه للمَزِيد من رفْع نَبرته، مَا يَتَهَدَّد صِحَّته، ولَا سِيَّما أثنَاء الموْسم... لِذَا عَلَيكَ بُنيَّ أن تُركِّب سَماعَة صَغِيرَة قَرِيبَة من أُذُن الخطِيب، تجعَله يَسْمَع رَجْعَ صَوْته، فيرتَاح في أدَائه.

وفي خَاتمة هٰذا البَاب...

إعلَم بُنيَّ أنَّ دَوْرَ المجْلِس والخطِيب والشَّاعِر والرادُود الحسَيني اليَوْم، هو من أعظَم وأخْطَر الأدوَار الفَاعِلَة والمنتِجَة في خِدْمَة المذْهَب على صَعِيد التَّبليغ والإعلَام، ولَكَ أن تَتأمَّل في شَاهِدٍ نَاطِق، من قَصِيدَة وَلَائيَّة لِشَاعِر عَظِيم، أنشَدَها أحَدُ الروادِيد، فتَلقَّفَهَا الشَّباب وحَفِظُوهَا، وصَاروا يُرَدِّدُونهَا في اَجْتِماعَاتهم وخَلَوَاتهم، وهي تَحمِل مَضَامِين وَلَائية أصِيلَة، لَوْ أرادَ العُلَماءُ نَشْرهَا لكَلَّفتهُم جُهُوداً مُضْنِيَة وحمَّلتهُم أثماناً باهِضَة، ثم لم يَعْرِفُوا مَردُودَهَا ونَتِيجَتهَا، التي حَقَّقَتها "لَطْمِيَّةٌ" أو "أُنشُودَةُ مَدِيح" صَدَحَ بها "رادودٌ" شعبيٌّ مُحبَّبٌ إلىٰ القلُوب، أنشَدَ قَصِيدَة للمَرحُوم «الشَّيخ عبدالأمير الفَتْلَاوِي»، نَظَمَها بالعَاميَّة: "«علي» عَالي على كِل عَالي"، أو "مَفرُوض عَالناس حبَّك يَا «علي»" للمَرحُوم «كَاظم مَنظُور»... فترسَّخَت مَضَامينُها السَّامِيَة، واَنطَبَعَت مَدَاليلُهَا العَقَائديَّة الرَّاقية في القُلُوب، وشَكَّلت ردّاً طَبيعيّاً، اَستَنهَضَ الفِطْرة الشِّيعيَّة النَّقيَّة ورسَّخَها، وبنىٰ على أُسُسِ الطَّهَارة والنَّجَابة، فَصَنَعَت سَدّاً مَنِيعاً، وحَاجِزاً تِلقَائياً طَبيعِياً أمَام تَشْكِيكَات الضُّلَّال، ووَسوَسَاتِ شَيَاطِين الإنس، الذين يَجترُّون أباطِيل النَّاصِبيَّة باَسْم عَصْرنَة المذهَب وتَطْوِيره وتَجديدِه!

أُوصِيكَ بُنيَّ بتَوْقِيرِ الخُطَبَاءِ والشُّعَرَاءِ والرَّوَادِيدِ الحُسَيْنِيين وإجْلَالهم، وشُكْر دَوْرِهم وتَقْدِير جُهُودِهم، وحُسْن عِشْرتهم، فَهُم اليَوْمَ سِلَاحُنَا الأوّل (علىٰ صَعِيدِ الإعْلَام)، ويكَادُ يكُون الأوَّل في الدِّفَاع عن الدين ونُصْرة المذهَب.

* * *

الوصية السادسة:

التدرُّج في العزاء

إنَّ التدَرُّجَ والمرحَلِيَّة في الأشيَاءِ تَكَادُ تكُون أصْلاً، وأمراً عُقَلَائياً في صَمِيم الفِطْرة البَشَرِيَّة والطبِيعَة الحياتِيَّة... فَلِكُلِّ نهاية بِدَاية تَأخُذُ إليهَا وتَتوَجَّه نحْوهَا، ولكُلِّ كمالٍ وتَمام سَبيلٌ يَصْبُو لِبُلُوغه وطَرِيقٌ يَتَطَلَّع لإدراكِه.

والسَّبيلُ أو الطَّريق أطَوَارٌ ومَراحِل، والسَّعْيُ مَدَارجٌ ومَنَازِل.

فالإنسَانُ، علىٰ سَبِيلِ المثَال، كَانَ نُطفَة فعَلَقة فمُضْغَة فعِظَاماً، جَنِيناً في الرَّحم يَنمُو شَهْراً بعدَ شَهْر، ليُصبِحَ وَليداً رَضِيعاً، فطِفْلاً، ففَتىً، فَرَجُلاً، فكَهْلاً، فشَيْخاً... كَذلك كُلُّ المخلُوقَاتِ، حَيوَانَاتٍ ونَباتَات، وكَذلك الأمرُ في الجَمادَات، فَهِيَ في حَركَة دَائِمَة، وانتِقَالٍ من طَوْرٍ إلىٰ آخَر، تمرُّ مَرَّ السَّحَاب، وإن حَسِبنَاهَا جَامِدَة هَامِدَة.

هٰكذا في الصِّنَاعَات، وفي أفعَال البَشَر وسُلُوكيَّاتهم وحَرَكَاتهم، فَرديَّة وجَماعيَّة.

يَنطَلِقُ الإنسَانُ في جميع أنماطِ حَرَكَتِه وأقسَامِها، سِيَاسِيَّة كَانت أو تجارِيَّة أو اجتماعِيَّة أو عِلْميَّة، حتىٰ الفَنِّيَّة الإبدَاعيَّة الخاضِعَة للمَلَكَة والمَوْهبَة، تَنْطَلِقُ من مَرحَلَة دُنيا ابتِدَائيَّة إلىٰ أُخرىٰ أعلىٰ، يَتَطَوَّر عَبْرهَا ويَنمُو خِلَالها، ويَتَقَدَّم ويَتكَامَل...

وتَجاوُز الأطْوَار، أو القَفْز على المرَاحِل، أو حَرقْهَا ـ كَما يُعبِّر ـ نَشَازٌ ممقُوتٌ وشُذوذٌ مَمجُوج، ومغَامَرة مُسْتَهجَنَة مَرفُوضَة... فإن أصَابَ صَاحِبُها وحَقَّقَت لَه نَجَاحاً ونَتَائج إيجابيَّة، لَا تجِد العُقَلَاء يَغَيِّرون قَاعِدَتهم وأصْلَهم الثَّابت في القَوْل بالمرحَليَّة والخضُوع للأطْوَار والتَّدَرُّج في الحركَة، وتَراهُم يُراهِنُونَ على خَفَايا وأُمور غَيْر مَنظُورة، يَترقَّبون ويَترَصَّدُون انكِشافهَا في آتي الأيام، ويُراهِنُون أنَّ المستَقْبَل كَفيلٌ بإظْهَار فَسَادِ الأمر وإثبَاتِ بُطْلَانه (وغَالِباً مَا تَتحَقَّق نُبُوءَاتهم!)، كَوْنه لم يُبْنَ على أُسُسٍ سَلِيمَة، تُوَافِق العَقْل والمنْطِق، ولم يَأْتِ المجْدَ من طَرِيقِه ولَا حَقَّقَ النجَاحَ من بَابِه.

لِذا فإنَّ العُقَلَاء يَرتَابونَ ويُشَكِّكُون في الغنىٰ المفَاجِئ والثراءِ السَّريع الفَاحِش الذي جَاءَ لِصَاحِبه بين لَيْلَة وضُحَاهَا، دُونَ كَسْب مِنه وسَعْي، كَما يَرفُضُونَ (حتىٰ لَا أُسْهِب في ضَرب الأمثَال وأتوَسَّعَ، وأنتَقِلَ إلىٰ شَاهِدٍ لَصِيق بما أُريدُ الاستِدلَال لَه) دَعَاوَىٰ العِلْم في غَير المشَايخ الفُضَلَاء، الذِين قَطَعُوا الأشْوَاطَ وأتلَفُوا أو صَرَفُوا الأعْمار بين كَسْبٍ وتحْصِيل وتربيَة وتَهذِيب، ويَتَوَقَّفُونَ في مَزاعِم الذَّكَاءِ الخَارِق، ويَترَدَّدُونَ في دَعَاوىٰ العَبقَرِيَّات والنَّوَابغ! التي يحصُرُون دَائِرتها فتَضِيق عن جَميع أدْعِيَائها في هذا العَصْر وتَنْحَسِر لِتُبقيهم عُراةً عن أية صِفَة ولَقَبٍ انتَحلُوه، نَاهِيكَ بَمَجْدٍ وعَظَمَة ادَّعوُهَا! إنها مَقَامَاتٌ لم تَثبت إلَّا لِأفذاذٍ هُم فَلَتَاتُ العُصُور ونَوَادِر الزَّمَان، أسَاطِينٌ تَسَالَمَت الحوْزاتُ العِلْمِيَّة، ومن وَرائها الطائفَة المحِقَّة واتفقَت علىٰ نُبوغِهم وعَبقَرِيَّتهم، من قَبيل «العَلَّامة الحلي» و«الخاجَة نَصِيرالدِّين الطُوسي» و«الشَّيخ البَهَائي»... أين مِنْهُم أنصَاف عُلَماء وأرْبَاع فُقَهَاء، يَزعُمُون، أو يَزْعُم لهم أتبَاعُهُم النُّبُوغ والعَبقَرِيَّة التي حَرقَت المراحِل وخَرقَتْهَا، وألغَت التدَرُّجَ في المنَازِل وطَوَتها، فَقَفَزَ أحَدُهُم أو طفَرَ من السُّطُوح إلىٰ الاجتِهَادِ والأعْلَمِيَّة والمرجعِيَّة، دُونَ تَعَلُّم وتَلَقٍّ من أسَاتِذَة، ولَا إجَازَة وإمضَاءٍ من مَشَايخ، وهكذا دُون ممارَسَة وتَعْلِيم، وإلقَاءِ درُوس وتَربية طُلَّاب.

إن العَقلَ يَرفُضُ هذا الأداء... ذلك أنَّ تجاوُز هذا الأصْل وتخطِّي هذه القَاعِدَة، هتْكٌ للطَّبيعَة وازدراءٌ للحِكْمَة، التي تَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَكَانه وتَأتي به في مَوْضِعِه، وهذا مَا يَنْبَغِي للأُمور أن تكُونَ عَلَيْه وَفْقَ الحِكْمَة والنِّظَامِ الأتم.

وهنا تُبنى قَاعِدَة ثَانِيَة ويُؤَسَّسُ لأصْل جَدِيدٍ لَاحِق، أو في الحقِيقَة يُكْشَفُ عن أصْلٍ ويُشَارُ إلىٰ قَاعِدَة، فهـٰذه حَقَائق مُسَلَّمَة نَقِف نَحْنُ ونُسَلِّطُ الضَّوْءَ عَلَيها، ولَا نَخْتَلِقهَا ونبتَدِعها من عَدَم... وهي أنَّ التفَاعُلَ والانفِعَال مع الأشْيَاء والقَضَايا والحَوادِث علىٰ اختِلَاف أنواعِهَا وأقسَامِها، يَنْبغي أن يَكُونَ مُتَوازِناً مع أطوَار القضِيَّة ومَراحِل الحدَث ودرَجَاته، فيأتي مُتدَرِّجاً متنَاسِباً، سَوَاء كَان تَصَاعُدِيّاً أم تَنَازُلِيّاً، فهُو مَحكُومٌ بالتدَرُّج والمرحَلِيَّة والانتِقَال الطَّبيعيِّ السَّلِس من طَوْر إلىٰ آخَر، الذي لَا إفرَاطَ فيه ولَا تَفرِيط، ولَا إغْرَاقَ ولَا تَهَاوُن، ولَا قَفْزَ ولَا طَفْر ولَا تجَاوُز، بل اعتِدَال يَحكِي الحقَّ، ومَا يَقتَضِيه العَقْل ويَحكُم به العُرف، ويُمضِيه العُقَلَاء.

ولكَ أن تَتَأمل في الحيَاة وتَستَقْرِئ مَظَاهِرهَا وقَضَايَاهَا، الحقِيقيَّة والخَارِجيَّة، والوَضْعيَّة والاعتِبَاريَّة لتَقِفَ علىٰ هـٰذا الأمر في مُختَلِف الميادِين وشتىٰ الحقُول، وتَلْحَظ اطِّرَادَه الذي يحكي قَانُونَه ونظَامه ويَكْشِف عن طَبِيعَته...

فالعُقُوبَة والجزَاءُ في القَانُون يَأتي علىٰ حَجْم الجرِيمَة ومَدَىٰ قُبْح الذنْب، والإخْلَالُ بهـٰذا يُودِي بحِكْمَة التَّشْرِيع والوَضْع، ويخَالِف جَوْهَر الرَّدْع المنْظُور في قَانُونِ الجزَاءِ الوَضْعِيِّ أو القِصَاصِ الشَّرعي، ويُزْرِي بأصْل التنَاسُبِ والموَاءَمَة، بل يُزيلُ شَنَاعَة الفَظيع الخطِير حِين يُسَاوَىٰ بالنَّزْرِ الهيِّن اليَسِير! فلَيْسَ الذي يَنتَشِلُ دِينَاراً من جَيْبِ عَابِر أو يَلتَقِطُ قِطْعَة نَقْدٍ سَقَطَت من أحَدِهم، فَلَا يُرجِعها إليه، كَمَن يَتَسَوَّر بَيتاً ويَقْتَحِم سَكَناً ليَسْرق أموَالاً طَائلَة ومُجَوْهَرات وحُلِيّاً، فَيَكْشِف عَوْرَاتِ النِّسَاء المخدَّرات، ويُرْعِبُ السُّكَّان الآمِنين ويَبُثَّ فيهِم الهلَع، ولَيْسَ الزَّاني الأعزَبُ كالمحْصَن، ولَا المغتَصِب الَّذِي وَاقَع امرأة شَرِيفَة بالإكْراهِ والإرغَام، كَمَن جَامَع بَغِيّاً برِضَاهَا...

ثم إنَّ التوَجُّعَ يجبُ أن يَكونَ علىٰ قَدْر الوَجَع، والصَّرخَةُ علىٰ قَدْر الألَم، والألم (وإن لم يكُن أمراً إراديّاً في ذاته، ولـٰكن مُقدِّمَاته وأسبَابه إراديَّة) يجبُ أن يكُونَ علىٰ قَدْر الجرح. فلَيْسَ الألم علىٰ فَقْد سِقْطٍ في شَهْره الثَّالِثِ كالألم والحَسْرة علىٰ فَقْدِ يَافع في زَهْرة شَبَابِه، ولَا موْت الشَّيْخ الذي بَلَغَ أرذل العُمْرِ يُورِث الأحْزَان في أهلِه كَفَقْد كَهْلٍ في ذُرْوَة عَطَائه وأمَسِّ الحاجَة إليه، ثم لَيسَ اليَوم الأوَّل للمُصِيبة كيَوْم يَمْضي عَلَيهَا عَام.

ولَا يُلغِي اَستِثْنَاءُ المصِيبَة في «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام هـذا الأصْل، بَل هُوَ حَاكِمٌ علىٰ إحيَاءِ ذِكْراه وتخلِيدِ عَزَائه! وإن كَانَ عليه السلام قَتِيل العَبْرة، وصَاحِبُ المصيبَة الرَّاتِبَة، وعَلَيه الصَرَّة والضَجَّة والصَّيْحَة، ولَه تَبكِي العُيُون دَماً، وتُشَجُّ الرؤُوس، وتُلْطَم الصُّدُور، وتَتَجَدَّد الأحْزان في كُلِّ آن، حتىٰ يكُون كُلُّ يَوْم «عَاشُوراء»، وكُلُّ أرضٍ «كَربَلَاء»... ولٰكن الحقِيقَة العِلميَّة، والحالَة الوَاقِعيَّة التي نَعِيشُها في عِلاقَتنا وارتبَاطِنَا بالله عزَّ وجلَّ، وبـ «آل الله» (١)، تَقْضِي الصِّيغَة التي قَدَّمتُ لها ومهَّدت، وتَفرِضُ نَمَطاً عُقَلَائياً، بل فَنِيّاً، من التَّعَاطِي والتعَامُل معَ قَضِيَّة الشَّعَائر الحسَينيَّة.

لَا بُدَّ بُنيَّ أن تَتَدَرَّج في أداءِ الشَّعِيرة الحسَينيَّة، التي يَنبَغي أن تكُون مُتصَاعِدَة في وَتيرتها، بُكَاءً كَانت أم لَطْماً، أو غَير ذلك من مَظَاهِر العِزاء وصُوَر الجزَع، لَا تكُون كُلُّ الأيام عِندَك في أداءِ الشَّعَائر سَوَاء، ولَا كُلُّ السَّاعَات، ومن بَعدِها الحالَات.

---

(١) جاء تعبير «آل الله» في قَوْل «الصَّادِق» عليه السلام: نَحْنُ آلُ الله ووَرثة نبيِّه. أنظر: (مدينة المعَاجز) لـ «السيِّد هاشِم البحراني» ج٣ ص٥٠٢. كَما وَرَدَ تَعبير «أهل الله» في مَوارد أُخرىٰ، منها ما رُوِيَ عن «أبي جَعفر» عليه السلام قال:

لما قُبِضَ «رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله بـاتَ «آل محمَّد» عليهم السلام بأطـوَل لَيْلَة، حتىٰ ظَنُّوا أن لَا سَماءَ تُظلُّهم ولا أرضَ تقلُّهم، لأنَّ «رسُولَ الله» صلى الله عليه وآله وَتَـرَ الأقـرَبين والأبعَدِين في الله. فبينَـا هُم كَـذلك إذ أتـاهُم آتٍ لا يَـرَوْنه، ويَسْمَعون كَلَامه، فقال:

السَّلَامُ عَلَيكُم «أهلِ البيت» ورَحمةُ الله وبركَاته، إنَّ فِي الله عزاءً من كُلِّ مُصيبَة ونَجاةً من كُلِّ هَلَكَة ودَركاً لمَا فَات ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، إنَّ الله اَختـارَكُم وفضَّلَكُم وطهَّركم وجَعلَكم أهلَ بيتِ نبيِّه، واَستَودَعَكُم عِلمَه وأوْرثَكُم كتَابه وجَعَلَكُم تَابوتَ عِلْمِه، وعَصَا عِزِّه، وضَرَبَ لكُم مثَلاً من نُوره، وعصَمَكُم من الزلَل، وآمنكُم من الفتن. فتعَزَّوا بعَزَاءِ الله، فإنَّ الله لم ينزِع مِنكُم رَحمته، ولن يزيلَ عنكم نعمَته، فأنتُم أهلُ الله عزَّ وجلَّ الذين بهم تمَّت النِّعْمَة واَجتمعَت الفرقَة واَئتلفَت الكلِمَة، وأنتُم أوْلياؤه، فمَن تَولَّاكُم فازَ، ومَن ظَلَم حقَّكُم زَهَق، مَودَّتكُم من الله وَاجِبَة في كِتابه علىٰ عِبادِه المؤمنين، ثم الله علىٰ نَصْرِكُم إذا يَشَاء قدِير، فاَصبِرُوا لِعَواقب الأُمور، فإنها إلىٰ الله تَصِير. قد قبلَكُم الله من نبيِّه وَديعَة، واَستَوْدَعَكم أوْلياءَه المؤمنين في الأرض، فمَن أدَّىٰ أمانتَه، آتاهُ الله صِدْقه، فأنتُم الأمانـة المستَوْدَعَة، ولكُم المودَّة الوَاجِبَة، والطَّاعَة المفروضَة. وقد قُبِضَ «رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله وقد أكمَل لكُم الدين، وبيَّن لكُم سَبيل المخرَج، فلَم يترك لجاهِل حُجَّة، فمَن جَهل أو تجاهَل، أو أنكر، أو نَسِيَ أو تَنَاسىٰ، فعلىٰ الله حِسَابه، والله من وَرَاءِ حَوائجِكُم، وأستَوْدعكُم الله والسَّلَامُ عَلَيكُم. فسَألتُ «أبا جَعفَر» عليه السلام ممن أتاهُم التعزِية؟ فقال: من الله تبارك وتعالىٰ.

انظر: (الكافي) لـ «الشيخ الكليني» ج١ ص٤٤٦.

دَعْني بُنيَّ أتوقَّف هُنا عِند الحَالَة التي رَاجَت مُؤخَّراً في بَعضِ الهيئَاتِ الحسَيْنِيَّة في «إيران»، وٱنتَقَلَت شَيئاً يَسِيراً وتَسرَّبَت إلىٰ بِلَادِنا. وهي هَيئَاتٌ يقُومُ عَلَيهَا جَمعٌ مؤمن مُخلِص، أعْرِف بَعضَهُم شَخْصِيّاً، وأنا قَاطِعٌ بنَزَاهَتِهِم وتَفَانِيهِم في خِدْمَة «المولىٰ»، وبَراءَتِهم مما رُموا به وقُذِفُوا، من الغَرَضِ والمرَض، والمؤامَرة على المذهَب، وتَعَمُّدِ تَشوِيه الشَّعَائر، والنزْعَة "العَلَوِية" (علي اللهيَّة) التي تحكُمهم... كُلُّ هٰذا باطِلٌ جُزَاف.

كُلُّ مَا هُناك، هو الإخْلَال بأصْلِ التدَرُّج والمرحَليَّة، وتجَاهُل قَاعِدَة التنَاسُب والموَاءَمة، وخَرْقها... إذ كَانت الضَّجَّة والصَّيْحَة منهم تَعْلُو بشَكْل ٱنفِعَاليٍّ "هِسْتِيري" عِندَ رُقيِّ الراثي المنبَر، ومَع أوَّل كَلماتِ يتَلَفَّظُها، قَبلَ الشروع في الموضُوع وذكْر المصِيبَة! ثم يَستَمِرُّون في هٰذا ويَمضُون لِفَترة قد تَطُولُ سَاعَة كَامِلَة من النشِيج المتواصِل! في غَمرَة ذُهُول الحضُور ودَهْشَته، مَا كَانَ يُورِث بَعْضاً الأنزعَاج ويَبلُغ بآخَرين الأمتِعَاض، حِين لم يكُونُوا يجدُوُنَ فُرْصَةً للتفَاعُل مع المجْلِسِ والخطِيب، ولَا يَسَعهم الدخُولُ في البكَاءِ (الطبيعي)، من فَرْط الوَضْع والأداءِ "المسرحيَّ" الذِي كَانُوا يَشْهَدُون! كُلُّ هٰذا في مجلِس عَزاء عَادِيٍّ، لَا في «عَاشُوراء» ولَا «الأربعين» ولَا أيام المصِيبَة العظمىٰ؟!

لَن أسْمَحَ لِنفْسي أن أُعَبِّر عن هٰذه الحالَة بالإفراط، فأنا أعتَقِد بأن لَا إفْراطَ في عَزاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، فلَو قضىٰ أحَدٌ حَيَاته كُلَّها، ورَاحَ يَندُبُ «المولىٰ» صَباحاً ومَساءً حتىٰ يبكيه دَماً، ثم مَاتَ شَوْقاً إليه وحَسْرة علىٰ مَا فَاته من نُصْرته والشَّهادَة معَه، أو حُزناً وكَمَداً علىٰ مُصَابِه... مَا كَان في ميزانِ الحقِّ ومعْيَار أهلِه مَلُوماً، بل كَان به جَدِيراً.

ولٰكن الإشكاليَّة تَنشَأ وتَترتَّب حِين يُسجَّلُ إخْلَالٌ في الميزَان التربَوِيِّ لهٰذا المؤمن الجازع الصَّارخ، وٱضْطِرابٌ في المؤشِّر الرَّوْحَانيِّ للنَادِب البَّاكِي، يُثيرُ عَلَامة ٱستِفْهَام أمَام أداءٍ بلَغَ قِمَّة الولَاء وذِروَة العِشْق الحسَيْني... ثم نَراهُ في مَواقِع أُخرىٰ من الدِّين، في القَاع والحضِيض! ولَن أذهَبَ إلىٰ الزُّهْدِ والتَّقْوىٰ والوَرَع والكَمالَاتِ التي يَنْبَغي ويُفتَرض أن تُلَازِمَ أربابَ هٰذا السُّلُوك وأصْحَاب تِلك الدَّرَجَة، بل أقِفُ قَرِيباً من هٰذا الميدَان، وأسأَلُ عن العِلْم والمعْرِفَة بـ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وبعضِ مَقَامَاته ومَراتبه؟ فَأجِدُ ضَحَالَة تُنَاهِزُ العَاميَّة، وفَقْراً لَا يُناسِب ذلك الجزَع بتَاتاً...

شَيءٌ يذَكِّركَ بالعَابِدِ الذي سَاقَ مَولَانا «الإمَامُ الصَّادِق» عليه السلام قِصَّته، في مَا رَوَاه «سُلَيمانُ الدَّيْلَمِيّ» عن «أبيه»، قَال: قُلتُ «لأبي عبدالله» عليه السلام: فُلَانٌ من عِبَادته ودينه وفَضْلِه؟ فقَال: كيفَ عَقْلُه؟ قُلتُ: لَا أدري. فقَال عليه السلام: إنَّ الثَّوابَ علىٰ قَدْرِ العَقْل. إنَّ رَجُلاً من «بني إسرائيل» كَانَ يَعْبُدُ الله في جَزِيرة من جَزائر البَحْر، خَضْراء نَضِرَة، كَثيرة الشَّجَر، ظَاهِرة الماء، وإنَّ ملَكاً من الملَائكَة مَرَّ به فقَال: يَا رَبِّ أرني ثَوَابَ عَبدِكَ هٰذا. فأرَاهُ الله تعالىٰ ذلك، فٱستَقَلَّه الملَك. فأوْحىٰ اللهُ تَعَالىٰ إليه: أن ٱصْحَبْه. فأتاهُ الملَك في صُورة إنسِيٍّ. فقَال لَه: مَن أنت؟ قَال: أنا رَجُلٌ عَابدٌ بلَغَني مكَانكَ وعبَادَتكَ في هٰذا المكَان، فَأتيتُك لأعْبُدَ الله معَك. فكَانَ معه يَوْمَه ذَلك. فَلَما أصبَحَ قَالَ لَه الملَك: إنَّ مكَانكَ لَنَزِهٌ، ومَا يَصْلُح إلَّا للعِبَادة. فقَال لَه العَابِد: إنَّ لِمَكَانِنا هٰذا عَيْباً. فقَالَ لَه: ومَا هو؟ قَال: لَيْسَ لِربِّنا بهِيمَة، فَلَو كَانَ لَه حمارٌ رَعْيناه في هٰذا المَوْضع، فإنَّ هٰذا الحَشِيش يَضِيع! فقَال لَه الملَك: ومَا لِربِّك حمار؟ فقَال: لَو كَانَ له حمارٌ مَا كَانَ يَضِيعُ مثل هٰذا الحَشِيش! فأوْحىٰ الله إلىٰ الملَك: إنَّما أُثيبه علىٰ قَدْرِ عَقْلِه.[١]

نَحْنُ نَعلَم أنَّ الأمرَ في تِلك المرتَبة التي يَظهَرُ فيهَا هٰؤلَاء المؤمنُون المعزُّون، هُو شَأن صَاحِب الزِّيارة ومُطْلِق القَوْل الذي فيه: "فلئن أخَّرَتْني الدُّهُور وعَاقَني عن نَصْرِكَ المَقْدُور، ولم أكُن لِـمَن حَارَبك مُحارِباً ولمَن نَصَبَ لكَ العَداوَة مُناصِباً، فَلَأندُبنَّكَ صَباحاً ومَسَاءً، ولأبكِيَنَّ لكَ بدَل الدُّمُوع دَماً، حَسْرة عَلَيك، وتأسُّفاً علىٰ مَا دَهاك، وتَلهُّفاً، حتىٰ أمُوتَ بِلَوْعَة المُصَاب وغُصَّة الاكْتياب"[٢]، ثم الأقرَب الأدنىٰ، والأمثَل فالأمثَل ممَّن يَليق بهٰذا السلُوك ويَعيشه حَقّاً، وهو لَا يكُون إلَّا في الأوْحَديِّ من أخَصِّ الخاصَّة.

إذا بلَغَ المرءُ هٰذه الحدُود، أو نَاهَزَها ودَنا منهَا وٱقتَرب، فَستَجِده حين يهيجُ به الوَجْدُ مرَّة، ويَصِل إلىٰ هٰذي الحيَاض سَاعَة، فيَعيشَ الجزَع الحقِيقي، وتَتَملَّكُه اللوْعَة والحُرقَة علىٰ رُزْء «الحسَين» كَما يَنْبَغي للعُرفَاءِ الكُمَّل... فسَتَراه، في حَالَة ٱنفِصالٍ تَامٍّ عن مُحيطِه، وشَدَهٍ وذهُول عن رِفَاقه وصَحْبه، وغَفْلَة عن كُلِّ شَيء سِوىٰ مَعشُوقه.

(١) «الكافي» ج١ ص١١.

(٢) زِيَارة الناحِيَة المقدَّسَة المرويَّة عن «الحجَّة» عليه السلام، ٱنظُر: «بحَار الأنوار» ج١٠١ ص٣٢٠.

ثم بَعد ٱنتِهَاءِ المجْلِس وٱنقِضَاءِ الحَال، تَراهُ مَاضِياً في لَوَازِم ٱنفِعَالِه، يَعيش التَّوالي الثَّقِيلَة الموجِعَة، والتبِعَات المنهِكَة المُضْنِية في نَفْسِه، في شُغل عن مُحيطِه وأجْوَائه... ولَربَّما صَاحَبتْهُ آثارُ تلك النَّفحَة القُدْسِيَّة والحَال أو الذَّوْق أو الوَجْد المَلَكُوتي لِسَاعَاتٍ وأيام، وقَد تَبلُغ به الصَّعْقَة، ويَبلُغ بها مَبلَغ «همَّام» من كَلَام «أميرالمؤمنين» عليه السلام! وإخوَاننا في الله، ورِفَاقنا في خِدْمَة «أبي عبدالله»، حَالُهم من حَالِنا، وحَالُ عامَّة المؤمنين، لَا يَلبَثُ المجْلِس أن يَنْقَضي، حتىٰ يَعُودُوا إلىٰ دُنياهُم ويَغْرقُوا في لَهْوِهم، ولَربَّما كَانَ ذلك مِنهُم قبلَ أن يَنفضَّ جمعُهم!... مَا يَكْشِف أنَّ في الأداء خَلَلٌ، وفي الحالَة مَا يُريب!

لَسْتَ أنتَ بُنيَّ ولَا أنا، ولَا أحَدٌ ممن تَعْرِف ونَعْرِف كَ «همَّام» الذي صَعِقَتهُ الموْعظَة فَمات!... لَسْنَا مُتوازِنين في تَربيتِنا الأخلَاقيَّة وأبعَادِنا الرُّوحيَّة الأُخرىٰ، وإن تَفَاوَتنا وظَهَرَ من بَعضِنا مَا يُميِّزه عن غَيْره في نِطَاق خِدْمَة «سيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، ولـٰكن الأمر كُلٌّ متكَامِل ووِحْدَة مُجتمِعَة، إذا ٱستَطَاعَ بعضٌ أن يُتِمَّ بنَاءَه الرَّوحَاني في شتَّى المجَالَات، ويُوَازن رُوحِيَّته، ويُنزِّه نَفْسِيَّته، ويَعيش ربَّانياً كَما يُريدُ الله ويَأمُر، ثُمَّ راحَ حينها في الجزَع علىٰ «المولىٰ» من لحظَة سَماع ذِكْره الشَّريف حتىٰ ٱنتِهَاء المجْلِس، علىٰ وَتيرة ودَرَجة وَاحِدَة من الحِدَّة والشدَّة والذرْوَة، فهُو مَعذُور، وهو عَطَاءٌ طبيعيٌّ، نَحْكُم بأنه نَاشِئٌ عن رُوحيَّة لم نصِل إليها، ومَعرِفة لم نَبلُغها، فَلَيْسَ لَنا أن نَستَنكِرها ونلُومه عَلَيهَا.

ولـٰكن أن يُمارِسَ هـٰذا الفِعْل، ويَقُوم بهـٰذا الأداء، مَن نَعرفه بعَدَم الٱلتزام الكَامِل، وبالتراخي والتهاوُن الشَّرعي، ولَعَلَّه بالٱنحِلَال والتسيُّب في بعضِ المَوَارد، والأهَم من كُلِّ هـٰذا وذاك، مَن يجهَل «الحسَين» عليه السلام ولَا يَعْرِف من مَقَامَاته وحَقَائقه إلَّا النَّزْر اليَسير، ثم يَتَسَامَح في مَواقِفه الوَلَائيَّة ويخلُّ بأصْل البراءَة في سَبيل عِلَاقَاته الٱجْتماعية ومَصَالحه الشَّخصِيَّة، فيتَوَلَّى أُناساً لهم دَوْرٌ في مَدَدِ ونُصرَة مَن يَهتِك المذهَب ويُدَمِّر العَقِيدَة ويبتَدع في الدِّين، ويتَعَاوَن مَع مَن يُحاربُ الأصَالَة الشِّيعِيَّة ويَضْرِب أُسُسَها الفِكْرِيَّة ويَنْخُر قَواعِدها الفِقْهِيَّة، ولَا يُبَالي ولَا يتحَسَّس، بل لَا يَشْعُر أينَ يَتَخَندَق وفي أية جَبهَة تَصُبُّ (في مَآل الأُمور) جُهُودُه!... فنَحْنُ في مِثل هـٰذه الحالَة، نَحكُم بخَطأ هـٰذا الأدَاء، وأنه سُلُوك مُضْطَرِبٌ نَاتج عن خَلَلٍ مَا، وهُو في أدنَاه، الجهْل، والقُصُور في الوَعْي.

إنَّ العِلْمَ بلَا عَمَل مَهْلَكَة، وكَذلك العَمَل بلَا عِلْم...

ولَعَمْري، مَا أسَّسَ التيارات المبتَدِعَة في الإسلَام - عَبْر التاريخ - والحركَات الإضلَاليَّة في مَسِيرة المذهَب، ولَا أذكىٰ جَذْوَة الأنحِراف في الأُمة، ومَا هَدَّ رُكْنَ الدِّين وثَلَم فيه وأوْهىٰ، إلَّا رِجَالٌ ٱستَغَلُّوا هٰذه النَّوْعيَّات المخْلِصَة، ووَظَّفوا هٰذه الطَّاقَات المتوهِّجَة، ممن يُؤمنُون بأمرٍ ويَعتَقِدُون بفِكْرة، فلَا يَلْحَظُون غَيرها، ولَا يَرقُبون ويَنظُرُون لِسوَاهَا، ويُكِبُّون عَلَيهَا بلَا هَدْي، ويَنْدَفِعُونَ فيها بِلَا بَصِيرة.

هٰكذا يَظْهَر الأمرُ ويَنْتَهي ويَرْجَع لِيَتَبَلْوَر في صُورة الأداء المسرحيِّ، ولَا أقصِدُ به التَّمْثِيلي الكَاذِب، بَلْ هَنَاكَ هَامِشٌ لَا بأسَ به من الأنفِعَال والتأثُّر بالمصِيبَة، يَنزِل بهٰؤلَاء الموَالين ويَعتَريهم، لٰكنه - في حَقِيقَتِه ودَرَجَته - دُونَ الحدِّ المنعَكِس في سُلُوكِهم وأدائهِم، فإذا خَلُصَت النيَّة في بَعضِهم، وٱنطلَقُوا من أغْرَاض نَزِيهة نَبِيلَة، فإنَّ هٰذا الأداء لَا يَعْدُو أن يَكُونَ أداةً تَصُبُّ في تَهييج المحْفِل وتَأجيج المشَاعِر وإذكَاء الشَّعِيرة...

عِندَهَا يَعُودُ الأمرُ ليَحْتَكِمَ ويخضَعَ لِضَوابِط الشَّعَائر الحسَينيَّة وآداب إقَامَتِها، حِين يكُون خَارِج الأنفِعَال اللَاإرادِيِّ والفِعْل غَير الأخْتِيَاري... فهُو إذاً أداةٌ في الشَّعِيرة الحسَينيَّة، ووَسيلَة لِتَهييج المشَاعِر وإثَارة الأحْزَان، ومَا إلىٰ ذلك، وعنْدَها يجِبُ أن يَخْضَع لأُصُول إقَامَة المأتم وإحْيَاء الشَّعِيرة.

بُنيَّ، لَقَد قابلْتُ في حَيَاتي وعَرفتُ عَدِيداً من هٰؤلَاء، من مُختلِف النَّماذج والنَّوعيَّات، من الشَّباب المؤمن المخلِص، الذي ٱندَفَعَ في حَقْل من حُقُول العِلْم أو العَمَل وأغرَق فيه، بما أفقَدَه تَوَازنه، وأمَالَ مَسيرته وأزرىٰ بهَدْيِه، وأخَذَه إلىٰ غَير الصِّراطِ السَّوِيِّ، فٱنتكَسَ بعْدَ حين وٱنقَلَب، حتىٰ رأيتُ بعضَهُم، ممن كَان يُلْحِق أربيعينيَّة بأُخرىٰ، ولَا يَكَادُ يفرَغ من وِرْد حتىٰ يَصِلَه بآخَر، ولَا يَرجع من زِيَارة «الإمَام» ويَلْبَث في وَطَنه يَوْماً أو يَوْمين، حتىٰ يَعُود إلىٰ زِيَارة أُخْرىٰ!... رأيته ينتَكِس حتىٰ لَا يكَاد يُؤدِّي الفَرائض! وقَد ٱنقَطَعَ عن الزِّيَارة حتىٰ دخَلَ في الجفْوَة، ولم يعُد حتىٰ يتَوَجَّه لِيزُور «الإمَام» من بُعْد!

وهٰكذا الأمرُ في عَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، عَلَيكَ أن تَلِجَه برِفْق، وتَتَعَامَل معَه بحِكْمَة ووَعْيٍ وبَصِيرَة وعلْم، وتَنهَض به نهضَة العَاشِق العَارِف.

هـٰذه وَصِيَّـة خَاصَّـة، قلَّ أن تَناوَلها الباحِثُون، أو سَجَّلتْها أقلَامُ النُقَّادِ والمحقِّقِين، ولَا وَجَّهها المربُّون، لِذَا فقَد لَا تجِدْها في مَكَان آخَر، فأفهَم بُنيَّ وأغتنِم...

إعلَم أنَّ العِبَادة والعَمَل، والسَّيرَ والسُّلُوك، يَفْتَقِر النجَاحُ فيه ويحتَاجُ الفَلَاحُ إلىٰ مُرشِدٍ حكِيم ووَاعظ رَفيق، بل مُراقِب خَبير ومُتَابع حَصِيف، يُلَاحِق المسيرة ويَرصُد الحركَة، يأخُذ بيَدِك بالعَوْن والإشْفَاق في مُفترَقات التِّيه والضَّيَاع، ويُسْعِفك بالنَّجدَة في هَجَمات اللَّبس ومُنعَطَفات الإغْوَاء...

ولَا أُريدُ بهـٰذا مَبدَأ "المرشِدِ والمريد" و "الشَّيْخ والطَّريقَة" الذي عَلَيْه المتصَوِّفة (وهو أمرٌ يتَجَاوَز الصَّاحِب النَّاصِح والرَّفيق المعِين، والمعَلِّم المربِّي)، فنَحْنُ نأخُذه مِن عَلَماء الأخْلَاق في مَدْرَسَتنا المباركَة، بَل من أحَادِيث «أهل البيْت» عليهم السلام مبَاشَرة، من قَبيل حَديث «زَيْن العَابدين» عليه السلام: "هَلَكَ مَن لَيْسَ لَه حَكِيمٌ يُرشِدُه"[١]، وحَدِيث «رَسُول الله» صلى الله عليه وآله: "المؤمن مِرآة أخِيه"[٢]، وحَدِيث «الإمَام الصَّادِق» عليه السلام: "مَن لم يَكُن لَه وَاعِظٌ من قَلْبِه، وزَاجرٌ من نَفْسِه، ولم يَكُن لَه قَرِينٌ مُرشدٌ، اَستَمكَن عَدُوُّه من عُنقِه"![٣]

إن الأستِغْرَاق في العَمَل والأنقِطَاعَ إليه، والأنكِبَاب علىٰ النَّشَاط والمبَالَغة فيه، ولَا سِيَّما في الحقْل الدِّينيِّ والرُّوحيِّ، يُورِث الغَفْلَة والعَشْوَة، وقَد تَبلُغ في بَعضِ الأحيَان والحَالَات العمىٰ والشَدَه، وتَنتَهي إلىٰ الطَيْشِ والسَفَه! فتَجِدُ العَامِلَ، علىٰ جُهْدِه وإخْلَاصِه وتَفَانيه، مُفْتَقِداً الحكْمَة، بَعِيداً عن جَادَّة الصَّوَاب والرُّشْد، ولَرُبَّما سَالِكاً سَبِيل الغِوَاية والضَّلَال، وهو يَحسَبُ أنه يُحْسِن صُنْعاً!

لَا يُسَخِّر عِلْمَه لما يَنْفَعه، ولَا يُوظِّف جُهْدَه في محلِّه، ولَا يَضَع شَيئاً في مَوْضعه.

إنَّ العَمَل والبَذلَ بلَا حِكْمَة وسَدَاد، والجهْدَ والسَّعْيَ بِلَا رِعَاية وتَوْجيه وإرشَاد، والمضيَّ في ذلك بمُبَالَغة وإغْراق... يَنْتَهي إلىٰ الخطَأ ويَقُودُ إلىٰ الأنحِرَاف، وفي الوَقْت نَفْسِه، تَراهُ يَصرِف العَامِل عن الألتِفَاتِ إلىٰ أخطَائه وعُيُوبه، ويَصِدُّه عن التَّنبُّه لِكَشْف مَوَاقع الزَّلَل والأنحِرَاف في سُلُوكه.

---

(١) (كَشْف الغُمَّة) لـ «الإربلي» ج٢ ص٣٢٥.

(٢) (مُصَادَقَة الإخْوان) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص٤٢.

(٣) (الأمَالي) لـ «الشَّيخ الصَّدُوق» ص٢٦.

فإذَا لم يكْتَشِفْها، ويَتَدَاركهَا بالتَّوقُّف والإصْلَاح، ويُبَادِر إلىٰ تَقْوِيمِها بالمرَاجَعَة والتَّصحِيح، وَقَعَ بعدَ حِين في الجهْل المركَّب (وهُو في جَانِبه العَمَلي والسُّلُوكي: الحُمْق!)، وأُصِيبَ من بَعدِها بالعِنَادِ والمكَابرَة، فَتَراه يُصِرُّ علىٰ أخْطَائه، ويَمْضِي علىٰ عُيُوبه، غير عَابئ بنَصِيحَة أخ شَفِيق، ولَا مُلْقٍ السَّمْعَ لِصَدِيق، فهُو لَا يرىٰ لِقَوْلهم محَلًّا وسَبَباً، ولَا يجِدُ لنَصِيحَتهم مَكاناً ووَجْهاً، لأنه لَا يَشعُر نَقْصاً ولَا يُعَاني مِن شَيءٍ أصْلَاً! وهو المرَضُ العُضَال والدَّاءُ العَيَاءُ الذي يُعْجِزُ كُلَّ حَكِيم وطَبيب.

وإن أنا بالسِلَوان حَدَّثْتُها فَمَا * حَدِيثي لدَيها غَير جَهلٍ مُركَّبِ
فَوَا حَيْرتا وَالدَّهْرُ يَعبَثُ بالفتىٰ * وَيُركبهُ في الأمر أخشَنَ مَركَبِ
يُحَسِّنُ في عَيْنَيْهِ مَا لَن يَنَالَهُ * وَمَا دُونهُ حَدُّ الحُسَام المشَطَّبِ
فَلَا هوَ سَالٍ، لَا ولَا هوَ نَائِلٌ * فَقُل مَا تَشَا في حَالهِ وتَعجَّبِ
شَرائعَ تَفْريقٍ لِمَا اللهُ جَامِعٌ * وَمَا ثَمَّ من دَاعٍ ولَا من مُسبِّبِ

والنشَاطُ في حَقْل الشَّعَائر الحسَينيَّة ليسَ بِدْعاً من الطَّاعَات والعِبَادات، ولَا هوَ يختَلِف ـ في هٰذه الصِّفَة ـ مع غَيره من مَيَادِين السَّعْي والعَمَل... يَقَعُ روَّادُه في الخَطَأ، ويُصَابون بمُختَلِف الآفات السُّلُوكيَّة والرُوحيَّة من عُجْبٍ وتكَبُّر وغُرُور، نَاهيك بالفَنِيَّة الخارجيَّة. فيه سُوءُ تَقْدِيرٍ وإغْراق، وفيه تَراخٍ وتَفرِيط، ومنه تَشَدُّدٌ يفتَقِدُ الحِكْمَة والبَصِيرة، ومنه ميُوعَة وتَسَيُّبٌ يَرجع لِضَعْف الدين واهتِزَاز العَقِيدَة، من أثر الجهْل والخوَاء.

من هُنَا علَيكَ بُنيَّ في إدَارة المجْلِس والحسَينيَّة، ومختَلَف محطَّاتٍ ومَواقِف إقَامَة العَزَاء والنهُوض بالشَّعَائر الحسَينيَّة، أن لَا تُراهِنَ علىٰ فَهْمك وَحْدك، وتَبني علىٰ عِلْمك الخَاص، ولَا تنفَرِدَ في تَقْيِيم الأُمور وتَحدِيدِ المَوَاقِف بنَفْسِك، مُستَقِلًّا في رَسْم البرَامج ووَضْع الخِطَط، ولَا تَركَن إلىٰ كُلِّ مَن هَبَّ ودَبَّ، ممن عَرَفَ شَيئاً وغَابت عَنه أشيَاءُ! بَل علَيكَ أن تَتَّخذَ صُحْبَة صَالحة ورِفَاقاً مخلِصين وبِطَانَة خَيْر... أصدِقَاءُ مُؤمنُون (بالمعنىٰ الأخَصِّ)، مُتَشَرِّعُون، يَتَفَاوتُون في دَرَجَاتهم وطَبَقَاتهم الاجتماعِيَّة وفي مَرَاتبهم وتخصُّصَاتهم العِلْمِيَّة، وتَتَنَوَّع أفهامُهُم وذهنِيَّاتهم، عَركَتْهُم الحياةُ وأنضَجَتْهُم التجرِبَة، وجمعَهُم عِشْقُ «المولىٰ» عليه السلام والتَّفَاني في خِدْمته والحِرص علىٰ قَضِيَّته.

رِجَالٌ لَا تَستَمِيلُهم الأحْزَاب، ولَا تَسْتَهوِيهم الزَّعَامَات، دِينيَّة كَانت أم دُنيويَّة، ولَا تهْجم عَلَيهم اللَّوَابِس، ولَا تَتَملَّكُهم من شَيَاطِين الجنِّ والإنسِ الهوَاجِس، ولَا تَغْوِيهم المظَاهِر دُون المخَابِر، ولَا تَجرفهُم النِّدَاءَات والشِّعَارات، ولَا تخدَعْهم في شَيءٍ عن وَعْيِهم وبَصيرتهم. ثم يُخلِصُون لكَ النُّصْحَ، لَا يُجامِلُون ولَا يتَملَّقُون ولَا يَمدَحُون (ثم يَنْتَظِرُون ردَّك عَلَيهم بالمثْل! كَما في بَعضِ الأوْسَاط، مَع الأسَف، كُلٌّ يُزيِّن لِصَاحِبه، يَرفَع من شَأنه ويَمتَدحُ صَنِيعَه، يُعظِّم تَوَافِهَه، ويُمَجِّدُ رِكَائِكه، فَلَا مَأثرة هُنا ولَا مَكْرُمة، ولَا فَنٌّ ولَا إبدَاع، بلْ أوهَامٌ تَتبَعُهَا أحْلَام، ودعَايةٌ وتَسْويقٌ و إعْلَام! ثم ٱنجِرَافٌ للغُرور، وغَمْرٌ في الضَيَاع، وتقَلُّبٌ في الجهَالَة قَلَّ أن تجدَ لَه نَظيراً!)، بل إخْوَةٌ يرصُدُونَ أخْطَاءَك، ويَتَتبَّعون هفَوَاتِك، ويُلَاحِقُونَ زلَّاتكَ، ويكْشِفُون عُيوبَك، لَا لِيُعيِّروكَ بها ويُشَهِّروا بكَ ويُسقِطُوك من أعيُنِ النَّاس، ولٰكن ليُهدُوهَا إليكَ حتىٰ تَتَلَافَاهَا وتَسْتدْرِكها بالعِلَاج.

وأعُودُ هُنا لألُفِتَ نَظَرَك ثَانِيَة إلىٰ خَلْطٍ نَزَلَ بالسَّاحَة الإيمانية مُؤَخَّراً وعَمَّها، وسَجَّلَ ظَاهِرَة مُحدَثَة في العِلَاقَة بين المؤمِنِين الملتَزمِين، هي الثَّنَاءُ المتَبَادَل، وكَيْل المدِيح والإطْرَاء الذي يَردُّ به كُلٌّ علىٰ صَاحِبه ويجَازِيه بمِثلِه! ويجعَلُون من تَشْجِيع القُدُرات و إذكَاء وشَحْذِ الـهِمَم مَدْخَلاً، ومَا هُوَ من هـٰذا وذَاكَ في شَيء، إنَّما تَسْوِيلَاتٌ شَيْطَانِيَّة تُدَغْدِغُ شَهْوَة مُستَحكِمَة في النَّفْس، فمَن مِنَّا لَا يُحِبُّ الإطرَاء والمدِيح، ولَا يَأنسُ بالثناءِ والتَّبْجِيل؟ ومَن مِنَّا لَا تُزعِجه المؤاخَذَة، ولَا يُؤذِيه النَّقْدُ والعِتَاب؟ حَذَارِ بُنيَّ من هـٰذه الأجْوَاء، وإيَّاكَ أن تَسْمَحَ بها وتُفْسِحَ لها. وٱجْعَل ذلك لإخْوَتِكَ دُعَاءً لهم ونُصْرة في غَيبتِهم. ولَسْتُ بهـٰذا أدعُوكَ إلىٰ الغِلظَة والجَلَافَة، والخشُونَة (التي نَراهَا في بَعضِهم!) في التَّعاطِي مع إخْوَانِك، فَهُنَاكَ هَامِشٌ مَطْلُوبٌ ومَقْبُولٌ من المجَاملَة، الذي لَا يُورِثُ تلكَ الآفات.

ٱبحَث بُنيَّ عن مِرآة تَعكِسُ صُورتَك التي لَا تَراهَا وأنتَ مُستَغرِقٌ في العَمَل، وتُنبِّهكَ إلىٰ مَا غَفَلْتَ عنه من أُمور خَطِيرة وأنتَ مُنشَغِلٌ بالخِدمَة، وتكْشِفُ لكَ مَا غَابَ عَنكَ من أشيَاءَ ثَمِينَة، جَهِلْتَهَا أو تجاهَلتَهَا، في خِضَمِّ الٱنشِغَال، ومن فَرْط الٱستِغْراق والٱندِفَاع والتَّوغُّل، أو في نَشْوَة النجَاح وفَرْحَة الفَلَاح، والأخْطَر من كُلِّ هـٰذا وذَاك: مَا تَذْهَل عنه وتَتِيه في سُكْرة التألُّق وغَمْرة التَّفَوُّق.

وٱسْعَ إلىٰ إسقَاطِ الحوَاجِز بينكَ وبَين صَحْبِك الـذِينَ آخَيتَهُم وصَافَيتَهُم في الله، وٱتَّخذْتهم بِطَانة تَستَنصِحُ بمَشُورتهم وتَأنسُ بآرائِهم، بَعدَ أن أحْرزْتَ حِرصَهُم وتَثبَّتَّ من صِدْقِهم مَعَك وإخْلَاصِهم لَك، ووَقَفْتَ علىٰ براءَتهم من الحسَدِ والمُنَافَسة، وٱنطِلَاقِهم في مُواجَهتكَ من مَحْضِ المحَبَّة والإشْفَاق، دُونَ كَيْدٍ وغَرضٍ ومَرَض...

فإن عَزَّت مِثْلُ هـٰذه البِطَانَة، وفَقَدْتَ مِثْلَ هـٰذه الصُّحْبَة والرفْقَة، فَعَلَيك أن تجِدَ حَكيماً تستَضِيء بنُور عِلْمِه وتَتَفَيّأ بظِلَال وَعْيِه وبَصِيرته، تَتَعَاهَده بالزِّيارة، وتَعرِض عَلَيه أفكَارَك وأعمالك، وتَسْأله النَّصِيحَة وتَلْتَمِسَ منه الإرشَاد.

بُنيَّ «عَبدالزَّهرَاء»...

إنَّ التَّفَاعُلَ مع قَضِيَّة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام سُلُوكٌ تِلقَائي، وٱنفِعَالٌ عَفْوِي، يَنشَأُ من ٱستِحْضَار المصِيبَة ومُواكَبة الحدَثِ عَبر المؤثِّراتِ الصَّوْتية التي يَسْمَعها المؤمن المَوَالي، في سَرد السِّيرة وحِكَاية المَقْتَل، وإنشَادِ الشِّعْر والرثَاء، أو التَّصْوِيريَّة التي يُشَاهِدُهَا في التَّشَابيه ومَظَاهِر العَزَاء، فتَنقُله إلىٰ حَالَة الأنفِعَال، فيبكي ويَصِيحُ ويَلْطُم... ويَمتَدُّ به الجزَعُ ويَبلُغ حُدُوده القُصْوىٰ، وَفقَ دَرَجَة تأَثُّره ومَدَىٰ ٱنفِعَاله.

والأداءُ في الشَّعَائر الحسَينيَّة يَنْطَلِقُ من هـٰذا أولاً وأصْلاً، ثم يَتَفَرَّع إلىٰ صُوَر مُفتعَلَة، ونَسَقٍ مُنَظَّم، يَنقُل المؤمن إلىٰ الحالَة المتوَخَّاة من الحزْن والجزَع، فالأجْوَاء عَامِل هامٌّ وعُنصُرٌ أسَاسٌ في تَنَامي الأنفِعَال وتَعزِيزه، وتَعمِيق التأثُّر ودَرجَته، فإن أفلَحَتْ ونَجَحَتْ في أخْذِ المؤمن الموالي والبُلُوغ بـه إلىٰ تِلكَ الحَالَة، وإلَّا عمَـدَت أن تُظهِـره فيها، وإنْ لم يَعِشْهَا فِعْلاً كَما يَنبَغي... وهو الذِي يَشْمَله عُنوَان "التَّبَاكي"، فيَلتَحِق بحَلْقَة اللطْم، ويجُوبُ الطُّرقَات مَعَ المواكِب، يَضرِب ظَهْره بالزنجير، أو يُطأطئ رأسه أثنَاء النَّعي والرثَاء في المجَالِس... وإن لم يَعِشْ في قَرارة نَفسِه أو يَبْلُغ تِلكَ الدَّرجَة التي يكُونُ معَهَا هـٰذا الأنفِعَال ردَّ فِعْل طَبيعيٍّ؟ فَلَا غَضَاضَة في هـٰذا "التصَنُّع" ولَا ضَير، مَا دَام الأمر في سِيَاق الشَّعِيرة، وضِمْن الضَّوَابط التي تخدُمها وتُعزِّز نجَاحها. لَا أن يَنْفَرِدَ بعضُهم في المجْلِس، ويَشُذَّ عن مجمُوع الموكب في الطَّريق، ويَأتي بسُلُوكٍ غَرِيب، ومَشْهَد تمثيليٍّ يحكِي جَزَعاً مُفْجِعاً، يُخالِف فِيه النَّظْم العَام للعَزَاء، فهـٰذا مما يُسيء إلىٰ الشَّعَائر ولَا يخدُمها.

إنَّ أَصْل التَّظَاهُر بما يَفُوقُ دَرَجَة الشُّعُور وحَقِيقَته، وممارَسَة صُورة من الجزَع تَتَجَاوَز وَاقع الحَال من تَواضُع التأثُّر والانفِعال، أمرٌ لَا بأسَ به، ولكن دُونَ إغْرَاقٍ وتهوِيل!

كَما هُو الأمرُ في صَلَاة الجماعَة، التي في صُفُوفها مَن تكُونُ صَلَاته مِعْراجاً يَرقىٰ به إلىٰ أعلىٰ المَدَارج ويَسْمُو إلىٰ أقصىٰ المراتِب، وفيها مَن هُو في أدنىٰ الحدُود، يَقِفُ عِندَ إسْقَاطِ التكْلِيف وتجنُّب العِقَاب، ثُم تكثير السَّوَاد!... ولكن لَا يُقبَل من هذا الثاني، أن يَذْهَبَ في "إظْهَارِ الخشُوع" وتَصَنُّعِه حُدُوداً تلفِتُ الأنظَار وتُشِير بالتميُّز إليه! فيُخِلُّ بالجماعَة ويُربكُ وَضْعَها، ولَا سِيَّما علىٰ صَعِيد تَشتِيت تَوجُّه المصَلِّين وانصِرافِهم في نِيَّاتهم.

ولَن أسرُد وأُعدِّد لكَ الموارِد التي عَلَيكَ مُراعَاة هذه القَاعِدَة والأصْل فِيهَا، فَهِي مُطَّرِدة حَاكِمة، لَا تُخْرَق إلَّا استِثنَاءً ولَا تُعَطَّل إلَّا شُذُوذاً... فكُلُّ أنشِطَة الحسَينيَّة تخضَعُ للتدَرُّج والمرحَلِيَّة، وجميع أشكَال العَزَاءِ وطُرُق أدَائه كَذلك.

وبعد، فَمِما يُمكِن أن يُلْحَق بهذا البَاب ويَدْخُلَ في أمرِ التَّدَرُّج والتنَاسُب والموَاءَمة، مَسْألة تَوزيع جُهْد المعَزِّين، وتَوفير طَاقَة العَامِلين في الحسَينيَّات، وإخْضَاع ذلك لتَصَاعُدٍ تَدْريجيٍّ يَتَنَاسَبُ مع الاقترابِ من يَوْم المصِيبَة العظمىٰ وسَاعَة الفَجْعَة الكُبرىٰ...

حتىٰ إنَّ الفُقَهَاء يُسْقِطُون استِحْبَاب الإمسَاك يَوْمَ «عَاشُورَاء» والامتِنَاع عن الطَّعَام والشَّراب (حتىٰ العَصْر)، لمن يُتْعِبه ذلك ويَمنَعه عن النُّهُوضِ بالعَزَاء، ويَنتَهي به إلىٰ التَّقْصِير عن القِيَام بوَاجِب الشَّعَائر الحسَينيَّة، كَما هو الحالُ في صِيَام «عَرَفَة» حِين يَضْعُفُ الصَّائم فينصَرِف عن الأدْعِيَة والأعمال.

فالملَاحَظ أنَّ الحماسَ يَأخُذُ بعضَ الشَّبَاب، والغَيْرة تَتملَّكُهُم، فيَنْهَضُون ويَنْدَفِعُون في العَزَاء وصُنُوفه ويَذْهَبُون فيه ويُغْرِقُون من اللَّيْلَة الأُولىٰ للمُحَرَّم، وكَأنها لَيلَة العَاشِر، أو من اللَّحْظَة الأُولىٰ من بَدْء العَزَاء وكَأنها الأخِيرة وسَاعَة النِّهَاية وخَتْم الخِطَاب من الرثَاء! بُكَاءً ولَطْماً وجَزَعاً، حتىٰ إذا بلَغَ العَزَاء أوْجَه وذُرْوَته الحقِيقيَّة، ودَخَل في فَصْل الخِتَام، أقعَدَهُم التَّعَبُ والإرهَاق، فلَم يُوفُوه حَقَّه، ولم يَنْهَضُوا به كَما يَنْبَغِي ويَجِب! وهكذا الأمرُ علىٰ صَعِيد الخِدْمَة في الحسَينيَّة، فَيَبذلُون الجهْدَ المضْني في جَانب، فإذَا حَانَ وَقْتُ المجلِس وسَاعَة الندْبة والبكَاء، أعجَزَهُم الجهْدُ فَخَسِرُوا الموقع وفَقَدُوا الدَّوْر!

عَلَيكَ بُنيَّ أن تُركِّز على شَأنٍ وَاحِد، بَعدَ أن تُوزِّع جُهْدَكَ على مُختلِف سَاعَات العَمَل ومَيَادِين الخِدْمَة، ولَا تجعَل شَيئاً مِنهَا مقَابِل الآخَر، فتُحْرِمه للإرهَاق البَدَني أو الضَّغْط النَّفسي، وهُنَاكَ مَن يَلْتَزِم بعِدَّة مجَالِس يحْضُرها في اليَوْم، فيكُون ذلك على حِسَاب شَعِيرة أُخْرىٰ أو تَفَاعُلِه مَع الرثاء وإرخَاص دَمعَته. والأُمور في البَاب مُتنوِّعة، والأسبابُ مختَلِفَة، والحيثِيَّات والدوَافع والظُّرُوف التي تحكُم كُلَّ سُلُوك، فتُرجِّحَ هذا على ذَاك وتُقَدِّمه عَلَيه، مُتَفَاوِتة، تَقْضي في كُلِّ مَوْرِد أمراً، وتحكُم بحُكْم مختَلِف... لِذَا فنَحنُ بُنيَّ في سُلُوكنا خِلَالَ أدَائنا الشَّعَائر الحسَينيَّة، أو في إدَارة الحسَينيَّات وعَمَلِيَّة النهُوض بالشَّعَائر، في حَاجَة مَاسَّة إلىٰ الحِكْمة التي تَضَعُ الأُمور في مَواضِعِها، وتُوزِّع الأدوَار وتُنظِّم الأنشِطَة، وعَلَينَا أن نَبحَثَ عمَّن يتمَتَّع بها ويتَميَّز، فهؤلَاء الحكَماء هُم نَوادِر كُلِّ مجتَمَع، وصَفْوة كُلِّ جماعَة، قَلَّ أن تجِدهُم وتَقَعَ علَيهم، فإذا ظَفِرْتَ بوَاحِد، فتَمَسَّك به ولَا تَتخَلَّ عنه.

وفي خِتَام هذا البَاب، دَعْني بُنيَّ أُتحِفكَ بحَديثٍ شَريف، عَبْر شَرْحه، على يَدِ عَلَم من أعْلَام الطَّائِفَة هو «المولىٰ محمَّد صَالح المازندراني»، وحَاشِية وتَعليقَات آخَر هو «الميرزا أبوالحسَن الشَّعْراني»، لتِقِفَ علىٰ أمرَين: خَطَر الحِكمَة، ومَا عَلَيكَ أن تتَحَرَّاه وتَلتَمِسه في إدَارة الحسَينيَّة، والنهُوضِ بأنشِطَتها لِتكُون علىٰ أحسَن وَجْه وأتمِّ صُورة، ثم تَعَرُّف لُغة العُلَماء والانفتَاح على المباحِث العِلميَّة في سَطْح يُمكِنك إدْراكه فتُلَاحِقه...

عن «أبي عبدالله» عليه السلام قَال: قَامَ «عيسىٰ بن مريم» عليه السلام خَطِيباً في «بني إسرائيل» فقَال: "يا «بني إسرائيل»، لَا تُحدِّثُوا الجهَّال بالحِكمَة فتَظْلِمُوها، ولَا تمنَعُوها أهلَها فتظْلِمُوهُم."

«المازندراني»: الظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيءِ في غَير مَوْضِعه، والحِكْمَة هي العِلْم بالمعَارِف والشَّرائع، وتَعلِيقها علىٰ أعنَاق الجُهَّال، وهُم الذين يَستَنكِفُون منها...

{«الشعراني»: فإن قِيل: أليسَت وَظِيفَة العُلَماء تَعلِيم الجُهَّال، فكَيفَ مُنِعُوا منه؟ قُلنَا: لَيسَ جميعُ مَا يتعَلَّق بالدِّين مما يجبُ أن يَعْرِفه كُلُّ النَّاس، بل فيه مَا لَا تَصِلُ إليه عُقُول أكثرِهم، ولَيسَ مَا يتَبادَر إلىٰ أذْهَان بَعضِهم من أنَّ مَا لَا يفْهَمه العَامَّة فُهو بَاطِلٌ أو لَيسَ من الدِّين، صَحِيحاً، وحينَئِذٍ فالوَاجبُ على العُلَماءِ أن يُكلِّموا النَّاسَ علىٰ قَدْر عقُولهم، فمَن وَجَدَه العَالِمُ أهْلاً لِفَهْم الغوَامِض، عَلَّمَه إيَّاهَا، وإلَّا فَلَا.

مثَلاً تَقْرِيرُ شُبهَة الآكِل والمأكُول والجواب عَنها، والفَرْقُ بين الحَادِثِ الزَّمَاني والذَّاتي، ومعنىٰ إعَادَة المعْدُوم، وأنه ممكِنٌ أو مُحَال؟ وتَفْسِيرُ الفَنَاء في الله والبَقَاءُ به، لَا يُنَاسِبُ البدَوِيَّ والقَرَوِي، ويجبُ الإمسَاكُ عَنه وعَن أمثَالِه. وقَد رأيتُ من بَعضِ النَّاسِ مَا ينْقَضِي منُه العَجَب ولَا يُصَدَّق به، قَالَ: إنَّ «العَلَّامة الحِلي» ﷺ في (شَرح التجْرِيد) أنكَرَ المعَاد! فقُلْتُ: كَيفَ يُمكِنُ ذلك وهُو أعلَمُ عُلَماءِ الإسلَام، ومَا عَرفْنَا هذا الدِّين إلَّا ببركَتِه وبَركَة أمثَالِه؟ قَال: قَد صَرَّح بذلك! وجَاءَ بالكِتَاب وأرَاني قَولَه في "اَستِحَالَة إعَادة المعدُوم"، فعَلِمتُ وَجْه خَطَئه.

وفي ذِهْن العَوَام لَوَازِمُ ومَلزُومَاتٌ وأُصولٌ مُسَلَّمَة لَا تخطُر ببَال العُلَماء، يَنْصَرف ذِهنُهم من اللفْظِ إلىٰ أُمور لَا دَلَالَة لها عليه، فيَجِبُ الاَجتِنَاب عن أمثَال تلك الأُمور}.

«المازندراني» ... أو يَفْقِدُون قُوَّة الاَستِعْدَاد لإدراكِهَا، أو يُضَيِّعُونها، ويجعَلُونها وَسيلَة لِنَيْل الشَّهَوات النَّفْسَانِيَّة، أو يَسْتَحْقِرُون مُعَلِّمَها أو يُؤذُونَه، كَان (ذلك) كَتَعلِيق الجوهَر الثَّمين علىٰ أعنَاق الخنَازِير، بَل أقبَحَ منه عِندَ أربَابِ البَصَائِر الثَّاقِبَة، وهو ظُلْمٌ علىٰ الحِكْمَة، وعَلَيه يُحمَلُ قَوْلُه ﷺ: "لَا تُعَلِّقُوا الجوَاهِرَ في أعنَاقِ الخنَازير".

{«الشعراني»: في زَمَانِنا، بَل في كُلِّ زَمَان، أُناسٌ نَاقِصُو الإدْرَاك، يَزعُمُون أنَّ كُلَّ شَيءٍ لَا يَفْهَمُه أمثَالُهم، فهُوَ أباطِيل وأوْهَام مُلَفَّقَة وخَيَالَات مُزَخْرَفَة. والحقِيقَة هي أنَّ مَا يَفْهَمه جميعُ النَّاس، هو ممـا يَنْحَصِرُ في مَنَال الحوَاس، وأنَّ عَالَـمَ الملكُوت وَهْمٌ، ووِلَاية «الأئمة» ﷺ غُلُوٌّ، وتهذيب النَّفْسِ حتىٰ يَصِلَ إلىٰ مَقَام القُرب مَزَلَّة. والحديثُ صَريحٌ في رَدِّهِم، وأنَّ في الحقيقَة أُموراً لَا يُدرِكها أكثر النَّاس، ولَا يجوزُ منعُ الأقلِّ لإنكَار الأكثر}.

«المازندراني» والنَّهْي عن كِتْمانها والوَعيدِ عَلَيه، محمُولٌ علىٰ النَّهْي عَنه عن أهْلِها، كَيف وقَد كَتَمَها «النبيُّ» ﷺ في أوَّل البِعْثَة عن كَفَرة «قُرَيْش»، وفي تَبليغ وِلَاية «علي بن أبي طَالب» ﷺ؟ كَما يُرشِدُ إليه قَوْلُه ﷺ: "إنَّ هَا هُنا لَعِلْماً جمّاً - وأشَارَ بيَدِه إلىٰ صَدْرِه - لَو أصَبْتُ لَه حَمَلَة، بلىٰ أصَبْتُ لَقِناً غيرَ مَأمُونٍ عَلَيه، مُستَعْمِلاً آلةَ الدِّين للدُنيا، ومُسْتَظْهِراً بِنِعَم الله علىٰ عبَادَه، وبحُجَجِه علىٰ أوليائه، أو متَقَلِّداً لحمَلَة الحقِّ، لَا بَصِيرةَ لَه في أحْنَائه، يَنْقَدِحُ الشَّكُّ في قَلْبِه لأوَّل عَارِضٍ من شُبْهَة، ألَا لَا ذَا ولَا ذَاك، أو مَنهُوماً

باللَّذَة، سَلِسَ القِيَاد لِلشَّهْوَة، أو مُغْرَماً بالجمْع والادِّخَارِ، لَيْسَا من رُعَاةِ الدِّين في شَيء، أقْرَبُ شَيءٍ شَبَهاً بها الأنعَام السَّائِمَة. كَذلك يَمُوتُ العِلْمُ بمَوْتِ حَامِله".

إذا تَأمَّلتَ بمَضْمُون هذا الكَلام، عَلِمْتَ أنَّ أكثر النَّاسِ حَرِيٌّ بكِتْمان الحِكْمَة عَنه، وكَذَلك كَتَمها جَميعُ «الأئمَّة» و«الأنبياءِ» عليهم السلام، كَما يَظْهَر لمن تَفَكَّر في آثارِهم. ثم بِنَاءُ التَّقِيَّة على الكِتْمان، والتَّقِيَّة دِينُ الله أمرَ بهَا عِبَادَه. وقَالَ بَعضُ الأكَابِر، ونعْمَ مَا قَال: صُدُورُ الأبرار قُبُور الأسرار. ويمضي رحمه الله في شَرْحه فيَقُول: (ولَا تمنَعُوهَا أهلَها) وهُم الطَّالِبُون لها، المستَعِدُّون لإدرَاكِها، وجَاعِلُوها وَسيلَةً لإدراك السَّعَادَة الدُنيَوِيَّة والأُخرَوِيَّة (فتَظْلِمُوهُم). لأنَّ تَعْلِيمَها من حُقُوقهم، ومَن مَنَعَ أحَداً حَقَّه فقَد ظَلَمَه، وينبَغي أن يَعلَمَ أنَّ العُقُولَ متَفَاوِتَة تَفَاوُتاً فَاحِشاً في الضِّياءِ واستِعدَادِ العُلُوم وقُبُولها، فبَعضُها لَا يكُون لَه نُورٌ واستِعْدَاد للعُلُوم أصْلاً، وبَعضُهَا لَه استِعْدَادٌ لِبَعضِ العُلُوم دُونَ بَعضٍ، وبَعضُهَا لَه استِعْدَادٌ إلى حَدٍّ، لَا إلى مَا فَوْقه من اللَّطَائف والدَّقَائق.

{«الشعراني»: تراهُم يُنكِرُونَ المَعارِفَ ولَا يَستَدِلُّونَ على إنكَارِهم إلَّا بأنهُم لَا يَفْهَمُونَه، وللدَجَّالِين مِنْهُم حِيلَة عَجِيبَة، يُركِّبُون ألفَاظاً شَبِيهَةً بألفَاظِ العُرَفَاء، وكَلِماتٍ مُشَابِهَةً لِعباراتِ الحكَماء، من غَيرِ أن يَكُونَ لها معْنىً!......... }.

«المازندَراني» وبَعضُها لَه استِعْدَادٌ لجمِيع العُلُوم، ومَا فِيهَا من الدِّقَّة والغُمُوض، والمعَلِّمُ الحكِيم يَنْبَغِي أن يُراعي حَالَ العُقُول وتَفَاوُت مَراتبهَا، ويَمنَع العِلْمَ مَن يَسْتَحِقُّ المنْعَ، ويُعَلِّمَه مَن يَستَحِقُّ التَّعلِيم، ويَضَع كُلَّ عَقْلٍ في مَوْضِعِه، ولَا يَتَجَاوَز عنه لِئَلَّا يُورِده في مَوْرِد الهلَكَة، فإنَّ مَن حمل أربَعين مَنّاً على بَعِيرٍ لَا يَقْدِر إلَّا على حملِ عِشْرِين مَنّاً، فقَد أهلَكَه، ومَن بَدَّلَ الشَّعير بالحِنْطَة في الفَرَس فقَد ضَيَّعَه.

يَدُلُّ على مَا ذَكَرْنَا قَوْلُه (النبيُّ) صلى الله عليه وآله: "مَا من أحَدٍ يحدِّثُ قَوْماً بحَدِيثٍ لَا تَبلُغُه عُقُولُهم، إلَّا كَانَ فِتْنَةً على بَعْضِهم"، وقَوْلُه صلى الله عليه وآله: "نَحْنُ معَاشِرَ الأنبِيَاء، نُكَلِّمُ النَّاسَ على قَدْر عُقُولهم".(١)

(١) أنظر: (شَرح أُصُول الكَافي) لـ «المولى محمَّد صَالح المازندراني» ج١ ص٣١٥.

أقرأ بُنيَّ في «الكَافي الشَّريف»، وانظُر في شُروح ومُؤلَّفَاتِ عُلَمائنا الأبرار...

هذا هُوَ السَّبيل، وهُو البَابُ الذَّي يَفْتَح علىٰ القَلْبِ السَّلِيم، الذَّي يَبلُغ بِكَ الحِكْمَة، حِين تَجمَع إليه وَرَعاً يحْجُبك عَمَّا يُغْضِب الله، وتَقْوىً تَصُدُّك عن المَعَاصِي والمحَرَّمَات، وإخْلَاصاً يأخُذُ بيَدِك ويُثْمِر عَمَلك ويُبارِك في جُهْدِك. ثم تُعايِش ـ مع هذا وذَاك ـ الحوادِث الوَاقِعَة من حَوْلك، وتُتَابع أحْوَال العِبَاد والبِلَاد، ومُستَجدَّاتِ الأُمور، وتَرصُد الأحْدَاث، وتَتَقَصَّى الحقَائِق، وتَستَكْشِف الأكَاذِيب والدَّسَائس، وتَطَّلعَ علىٰ حِيَل الخصُوم، وخُطَط الأعْدَاء ومُؤامَراتهم، فتكُونَ عَالماً بزَمَانِك، لَا تهجُم عَلَيكَ اللَّوابِس، ولَا تختلِط الأُمور، ولَا تَسْتَوْلي الشُّبُهَات!

هكذا تكْتَسِب الوَعْيَ والخِبرة، فإذا جمعْتَهَا إلىٰ العِلْم والثَّقَافَة الدِّينيَّة الأصِيلَة، رُزِقتَ الحِكْمَة والبَصِيرة، ووَقعْتَ علىٰ الصَّوَاب، ورأيتَ الحقَّ حَقّاً فاتبعْتَه، والبَاطِل باطِلاً فاجْتَنَبتَه، ونَجَوْتَ من التَّخَبُّط، والإفرَاط والعَجَلَة بالوُقُوع في مَا يَسْبِق أوَانه، أوالتَّفْرِيط والتَّبَاطُؤ بالتَّأخُرِ عَمَّا حَانَ حِينُه، بَل تَتَقَدَّم إذا اقتضىٰ الحقُّ التَّقَدُّم، وتكُفَّ وتحْجُمَ عندَمَا يَفْرِضُ الحقُّ ذلك، لَا تَنْسَاق للإغْوَاء والإعْلَام، وتَغْرِيرات الأهْوَاء وإملاءَاتِ العَوَام، ولَا يَثنيك إرهَاب الأعدَاء، ولَا يُعِيقُك تخاذُل الجبَنَاء، ولَا تخدَعك شَيْطَنَة المنْحَرِفين الضُّلَّال.

❁ ❁ ❁

الوصية السابعة:

الوقار في أداء الشعائر

بَعدَ مَا سَبَقَ بَيَانُه من الأُصُول والقَوَاعِد والآدَاب التي تجِبُ مُرَاعَاتهَا في الشَّعَائِر الحَسَينيَّة، ثُم العَمَل بالتَّدَرُّج والمرْحَلِيَّة التي تُزيِّنُها، بَل تَحكُمها وهي تَفْرِض ضَرُورة التِزَام المؤاءَمَة والتنَاسُب ومَا إلىٰ ذلك من مُقتَضَيَاتها... تَظهَرُ أُمورٌ أُخرَىٰ تَتكَامَل مَعَهَا هٰذه المسِيرة المبَارَكَة، لِتَتَنَزَّه عَما يُخِلُّ أو يَشِين ويُسيء، وتَقْتَرِب من الصُّورَة المثلىٰ والحالَة النَّمُوذَجِيَّة الكَامِلَة، والنَّجَاح التَّام إن شَاءَ الله.

مِن ذلك الأَخْذ والعَمَل بالوَقَار...

ولَعَلَّ المراد به يقْتَرِب والمقْصُود يَتَدَاخَل مع بَعْضِ العَنَاوِين التي مَرَّ بَيَانُها والتَّفْصِيلُ فيهَا في الوَصَايا السَّابِقَة (الفَصْل السَّابِق بالخصُوص)، إلَّا أنني قَصَدْتُ إفْرَاد فَصْلٍ مُستَقِلٍّ لهٰذا البَاب وتحت هٰذا العُنْوَان بالتَّحْدِيد، لأهميَّتِه وعَظِيم خَطَرِه. فهُوَ سَارٍ في جميع أنماطِ العَزَاء الحسَينيِّ وأشكَالِه، إن لَم يَكُن جَميع مَنَاحِي الحيَاة والعيْش والعَمَل، يفرِض سُلُوكاً وأدَاءً وطَريقَة يجمَعُهَا عُنْوَان: الحِكمَة، ثم يخلَع صِفَة ويُضْفي سِمَة تميِّزُ الأكْيَاسَ والمتَّزنين، ويُشَارُ بها إلىٰ العُقَلَاء والحكَماء.

فالوَقَارُ، هو الاعْتِدَال في السُّلُوك والرَّزَانَة في الأداءِ والحِكْمَة في الحركَة، وهُو الوُقُوف بين الإفْراط والتَّفْريط، أي الوَسَطِيَّة والاعتِدَال، ولكن لَا بمعنىٰ "الوَسَطِيَّة" المتدَاوَلَة في أيامِنَا هذه، التي تُرفَع بإزاءِ مَا يُسمَّى بالغُلُوِّ والتَّطَرُّف والحِدَّة، ويُراد بها تمييع الهويَّة الدينيَّة، والتراخِي في الاعتِقَاد الفِكْريِّ والتَّهَاوُن في الالتِزَام السُّلُوكي، فيرَوْن "الوَلَاء" ومَعَانيه الرَّاقِيَة ومَفَاهِيمِه العَميقَة، وغَرْسهَا في القُلُوب وسَقْيها من رَوَافد المعَارِف الإلهيَّة إفْرَاطاً وغُلُوّاً، ويحْسَبُون التَّمَسُّكَ بِالبَرَاءَة وتَطْهِير القَلبِ وتَنزيهه بِنَبْذِ الشَّيَاطِين وأتبَاعِهم عَنَه، وطَرد جميع أعْدَاءِ «آل محمَّد» عليهم السلام من حِيَاضِه وإقصَائهم ونَفْيِهم من أحْنَائه تعَصُّباً ممقُوتاً، كَما يُصَنِّفُونَ التديُّن والالتِزَام - علىٰ صَعِيد السُّلُوك والتقيُّد بالأحكَام - حِدَّة وتَطَرُّفاً، لتكُونَ الوَسَطِيَّة في المآل هي الميُوعَة، تَسَيُّبٌ ورُعُونَة واستِهْتَار، والاعتِدَال هو اللَّاهُويَّة، ثَوْبٌ فَضْفَاضٌ يُدخِلُ الأعدَاءَ ويُفْسِح للإضْلَال، باسم المرُونَة والانفتَاح!

الوَقَار، أو الوَسَطِيَّة والاعتِدَال المطْلُوب في الشَّعَائر، هو مَا يكُون بمعنىٰ وَضْع الأُمور في نِصَابها، والعَمَل بـ "الحِكْمَة" التي تَفْرِض السُّكُون حَيث يَقْتَضِي، وتُنادِي بالانطِلَاق والحركَة عندَمَا يتَطَلَّب الأمر، كَما البَلَاغَة في المتكَلِّم ومَا تَقْتَضِيه من مُراعَاة الحَال والمقَام، كَذَلك الأمر في الخطَابة والقِراءَة، والنُّهُوض بسَائِر الشَّعَائر الحسَينيَّة، من بُكَاءٍ ولَطْم وتَشْبِيه وغَيرها، فهُنَاكَ مَواضع يَحسَنُ فيهَا الانطِلَاق و "الإغْراق" والذهَاب إلىٰ أقصىٰ الحدُوُد، وتَطِيبُ الحِدَّة والشِدَّة والإعْجَال في الأدَاء، كَما أنَّ هناكَ إقْلَالٌ وإبْطَاء واعتِيَاق، حَسْبَ مَا يَقْتَضِيه الحال ويتطلَّبه المقَام... وكُلُّ شَيءٍ حَسَنٌ في مَوضِعِه ومَقَامه، زيْنٌ في حُدُوده، وإلَّا انقَلَبَ إلىٰ ضِدِّه، وأفسَدَ ولم يُصْلِح.

الوَقَارُ هُو لِسَانُ الميزان وكِظَامته، الذي يَضْبطُ الأداء ويحفَظ السُّلُوكَ والعَمَل عن الشَّطح والميْل والطُّغْيَان، فيَنْتَهي إلىٰ مَا يَكُون زَيْناً للمِنبَرِ والشَّعِيرة الحسَينيَّة، حَافِظاً لجلَالَة المجْلِس وخَفَره، واحْتِرام الحضُور وكَرامَتهم. وقَد يَبدُو - لِوَهلَة - أنَّ العَزَاءَ والجزَع، في طَبعِه وقِوَامِه، هو خُرُوجٌ عن الوَقَار! بل مَا هُو إلَّا الاضْطِراب في السُّلُوك، والذهَاب إلىٰ حُدُود لَا يَتَجَاوَزها المرءُ - في العَادة -، لكنه يَذهَل عنها، فيُقْدِم علَيهَا ويَقَعُ فيها من وَقْعِ المصِيبَة... وهذا صَحِيح في العُنْوَان الأوَّلي.

ولكننا بصَدَدِ الأَدَاء الجماعيِّ للعَزَاء، ومَا يُظْهِره للمَلأ ويَنْقُله إلىٰ الشَّعِيرة، ومَا يُشَيِّدُ بِنَاءً سَلِيماً ويَضَعُ أَسَاساً صَحِيحاً لمجْلِسٍ حُسَيْنِيٍّ عَام، ويُحكِمُ ويَضْبِطُ قِيَام محفِل جَماعيٍّ لَا فَرْدي، يَنْهَضُ بالشَّعِيرة، ولَا يُحاكي الحَالَة الشَّخْصِيَّة، وقد عَالجنَا أمرَ الأنفِعَال الشَّخْصِيِّ والحَالَة الفَرْديَّة الخَاصَّة في البَاب السَّابِق، ووَضَعْنَا الأمرَ في إطَارِه، فَلَا نَعُودُ إليه ونكَرِّر مَا ذَكَرْنا هُنَاك... ثُم إنَّ التِزَامَ الوَقَار يَتجَاوَزُ ولَا يَقِفُ عِندَ حُدُودِ السُّلُوك والتَّأَثُّر النَّاتج عَن وَقْع المصَاب. والمَوَاضِع الفَرْديَّة الخاصَّة، غَير المصْطَنَعَة، والنَّاشِئَة عَن دَرَجَة انفِعَالٍ حَقِيقِيٍّ وجَزَع وَاقِعِيٍّ، لَا تُشَكِّل إخْلَالاً به، بَل هِي أيضاً تَدْخُلُ - من حَيثٍ - في وَقَارِ المجْلِس وتَصُبُّ في خِدْمَتِه.

إعْلَم بُنيَّ أنَّ هُنَاكَ ضَوَابِطَ وأَحْكَاماً وقَوَانِين مُطَّرِدة في هذا الحقْل، أيْ الوَقَار، مُطْلَقَة علىٰ أية حَال، سَارِيَة في جميع المَوَاضِع والمقَامَات، مَاضِيةً في كُلِّ ظَرف، مفْرُوضَةَ الالْتِزَام، وَاجِبَة الاتبَاع، مِنهَا مَا يَرتَبِطُ بمَنْطِق القَارئ ولُغَتِه، ومنهَا مَا يختَصُّ بحَرَكَاتِ الخطِيب أو الرادُود، ومنهَا مَا يتَعَلَّقُ بِالأَدَاءِ العَام للشَّعِيرة، من مجْمُوع السُّلُوكِ الذِي يَشْمَل القَوْلَ والفِعْلَ والحركَة والملبَس، والأفكَار والوَسَائل وطُرُقَ الإحْيَاء التي قَد يَلْجَأ إليهَا بَعضُهُم، ويجتَهِدُ فيهَا ويَبتَدِعُها أو يُريدُ أن يُؤسِّسَ لها...

لَا يَصِحُّ بُنيَّ أن يتَفَوَّه الخطِيبُ بما يَنَالُ من وَقَار المنبَر، لَا في الموضُوع الذِي يتَنَاوله ولَا الألفَاظِ التي يَسْتَخْدِمها، فإذا أرادَ أن يُعَالج قَضِيَّة أخلَاقِيَّة أو اجتِماعيَّة، واضْطُرَّ لتَنَاوُل مَوضُوع العِلَاقَة بين الرَّجُل والمرأة، علىٰ سَبِيل المثَال، فعَلَيْه أن يكُونَ في غَاية الدِقَّة والحذَر، وأن يُنَزِّه المِنْبر ويَترَفَّع به عن الدُّخُولِ في نِطَاقَاتٍ تَقْرُب من الفُحْش، وإن لم تَكُن منه، وأن يَبتَعِدَ بمُسْتَمِعِيه عن تَصْوِيرٍ للحَال يَنتَقِل بأذْهَانهم إلىٰ أجْوَاء لَا تَلِيقُ بِقُدْسِ المقَام وخَفَر المحْفِل... لقَد سَمِعْتُ بُنيَّ تَسْجِيلاً لخطِيب يَصِفُ سِفَاد الحيوَانَات، ذكَرَه في مَعرِضِ الشَّاهِدِ علىٰ إدَانة انحِدَار الإنسَان وانهماكِه بالشَّهْوة الحيوَانيَّة، فكَانَ يأتي بألفَاظ (وإن لم تَكُن سُوقيَّة، لكنها تُعَدُّ - لمن يَرقىٰ المنبر - نَابِيَة بَذِيئَة) ويُصَوِّر مَشْهَد العَمَلِيَّة الجِنْسِيَّة بشَكْلٍ مُقزِّز، يَأبَاهُ كُلُّ سَوِيٍّ ولَا يُطِيقُه غَيُور، وقَد كَانَ في الحُسَينِيَّة قَاعَة للنِّسَاءِ، وهُوَ يَعْلَم أنَّ صَوتَه يَبْلُغهُن، فَلَا عَفَّ ولَا تنَزَّه!

إنَّ مِثْل هذه الحَالَة، بَل الأدْنىٰ التي تمَسُّ أطْرافَ خَدْشِ الحيَاء، وتَقْرُب من حِياض العِفَّة والكَرامة، مَرفُوضَةٌ محظُورة، علىٰ الخطِيبِ أن يَحْجِمَ عَنْهَا ويَكُفَّ... فإن كَانَ ممن يفْعَل ذلك من تِلقَاء نَفْسِه، ويَتَنَزَّه لنُبْلٍ في طَبْعِه وسُمُوٍّ في رُوحِه وأصَالَة في تَرْبيَتِه وخُلُقِه، فبِهَا ونعْمَ، وإلَّا فَلَا يُسْمَحُ لَه بهَا ويُمْنَع عَنْهَا ويُحاسَبُ عَلَيها.

لَا يجُوز تَوْظِيف الضَحِك، وأقذَرُه التَّلْمِيحَاتِ والإشَاراتِ الجنْسِيَّة، علىٰ المنبر البتَّة، ولَا اَستِعْمال تَعَابِير مُوحِيَة بمَعَانٍ في هذا السِّيَاق، حتىٰ لَو اَنقَطَعَ الأمرُ وتَنَزَّه عن الضَحِك أو تَصْوِير المشْهَد السَّاخِر، فهو محْظُور أيضاً، نَاهِيكَ بالفُحْشِ ونَابي القَوْل.

وهنَاكَ مَن يَلتَزِم الأدَبَ في ألفَاظِه، ويَتَقَيَّدُ بِالظَّاهِر الـمُتَّزِنِ في خِطَابه، ولكنه يختَزِنُ ويُضْمِر في نَفسِه مَا يُريب! يَوَجِّهُ الحدِيثَ ويَطْرَحهُ في سِيَاقٍ يُثِير الأفكَار ويهيِّج الغَرائز، سَوَاء من حَيث طَبيعَة الموْضُوع والبَحْثِ الذي يَتَنَاوَله، أو لخائنَةِ النَّفْسِ ودَنَاءَتها، والله أعْلَم بما تخْفي الصُّدُور، تَراهُ يَنقُل مُسْتَمِعيه، أو مُستَمِعَاته إلىٰ أُفُق مُريب، يُزري، بَل يخُونُ الرِّسَالَة المقدَّسَة التي اَسْتَقْدَمَت هَاتِيكَ المؤمنَات وجَذَبتهُنَّ إلىٰ الحُسَينيَّة، ويُقْصِيهِنَّ ويَأخُذهُنَّ إلىٰ حَيث لَا يَنْبَغي. لِذَا عَلَيكَ أن تُوصِدَ هذا البَاب وتُغْلِقه من أصْلِه وأسَاسِه وتَسُدَّ مَنْفَذَه، وتَقْلِبه جِدَاراً يَصِدُّ ويَرُدُّ، واَسْتَغْنِ عن الأجْر والثَّوابِ الذي يَنْتَظِرُكَ من مجلِس يُعالج القَضَايا الاَجتماعيَّة أو قضَايا الشَّبَاب التي تَنْطَوي علىٰ هذه الرِّيبَة!

وقَد تجِدُ خَطِيباً مُلْتَزِماً مُؤدَّباً علىٰ هذا الصَّعِيد، يُوقِّر المنبر ويحفَظُ حُرمَة المجْلِس ويَعفُّ عن هذه الألفَاظ ويَترَفَّع بمُستَمِعيه عن تِلْكُم الأجْوَاء المريبَة... لكنه يَقَعُ (وهو الوقُور) في البَذَاءَة والسِّباب، ويَنَالُ من المؤمنِين النَّاهضِين بشَعِيرة حُسَينيَّة لَا تَرُوق لَه، فيَشْتِمهُم ويَنْعَتهُم بالنِّعَاج! بعد أن يَخبِط في الاَستِدْلَال لمزَاعِمِه خَبْطَ عَشْواء ويَسُوُق هُرَاء، فَلَا يُقَدِّم دَليلاً إلَّا الاَستِمْزَاج، ولَا حُجَّة إلَّا الاَستِحْسَان والقِيَاس!

وكَذَا لَا يَنْبَغي لِلقَارِئ أن يُعْمِلَ خِطَاباً ولُغَة تُقَرِّع الحضُور وتُوبِّخُهم، أو تَلُومهُم وتُؤنِّبهم علىٰ وَاقع اَجْتماعيٍّ مَريض يَعِيشُونه، مما يُمارِسه بعضُ الخطَباء في مَعرِض الوَعظِ ومن بـاب النُّصح والإرشَاد، ويتَأكَّد قُبْحَ ذلك إذا كَان القَارِئُ شَابّاً، أوْ لم يكُن شَيْخاً عركَتهُ السنُونُ، ورَوْحَانياً اَنطفَأت فيه الشَّهَوات، وقَطَع في الرِّياضَة الأشوَاط.

الوَقَار هو أن تحفَظَ حُرمَة المجْلِس، وحُرمَة الحضُور، ولَا تَتَجَاوَز معَه ومعَهُم الحدُود، وتُبقي كُلَّ أمرٍ من أُمور المأتم والعَزَاءِ في إطَارِه وتُلْزِمه في نِطَاقه...

ومما يجب أن يُحفَظ: حُرمَة الرثَاء وذكْرِ المصِيبَة!

فإنَّ الوَقَار يحكُم طَرِيقَة الرثَاء ودرَجَته وحُدُودَه، وهـٰذا مما كَان يُنَاسِب أن يُذْكَر في الفَصْل السَّابق، لكنِّي آثرتُ إدْرَاجَهُ هُنَا لأُفصِّل فيه بَعْض الشَّيْءِ وأُطْنِب، فهُنَاكَ ـ كَما أرَىٰ ـ هَتكاً وٱبتِذَالاً، أو لِنَقُل ٱستِرخَاصاً للمُصِيبَة والرثَاء! فليسَت سِيرة المصْرَع مما يُمكِن أو يَصِحُّ تَنَاوُله وذِكْره في غَير لَيلَة «عَاشُوراء» ويَوْمه، ولَيْسَت المراثي والأشعَار المتعَلِّقة بذَلك، مما يَصِحُّ عَرْضه وإنشَاده في كُلِّ مجلِسٍ ومنَاسَبَة! إنَّ تِلَاوَة فَاجِعَة المصرَع، وإنشَادِ الأشْعَار التي تَتَعَلَّق به، يَنبَغي أن يَقْتَصِر علىٰ لَيْلَة أو يَوْم «عَاشُوراء» فَقَط، ولَا يُسْمَحُ للخَطِيبِ أن يَتَنَاوَلَ ذلك كُلَّما عَجزَ عن إبكَاء حُضَّاره، ومتىٰ فَشِلَ في ٱسْتِدْرَارِ دمُوعِهم، تَراهُ ٱنعَطَفَ بهم ولَجَأ إلىٰ الفَاجِعَة العظمىٰ التي تُزلْزِل الأكْوَان، ومَا زَالَ يُقَدِّمها ويَسْتَخْدِمهَا حتىٰ يَستَهْلِكهَا فيَخْبُو لَظَاهَا وتخْمُد شُعلَتهَا إذا آنَ أَوَانها!

إنَّ مَصَائبَ رُقيِّ «شِمْر» صَدْرَ «المولىٰ» عليه السلام وحَزِّ الرأسِ الشَّرِيف، لَا تُذكَر في غَير «عَاشُوراء»، وهـٰكذا، أو في درَجَة أدنىٰ ودَائِرة أوسَع بَعضَ الشَّيء، المصَائب والمراثي اللصِيقَة بالمصْرَع والمحِيطَة المحَاذِية للفَاجِعَة العظمىٰ، كَمُصِيبَة السَّهْمِ المثَلَّثِ وإصَابته الصَّدْرَ الشَّرِيف، وسُقُوط «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام علىٰ الأرض، وهـٰكذا بعض الصُّوَر والمشَاهِد الخاصَّة المتميِّزة في فَجْعَتهَا.

إنَّ عَرَضَ الخطِيب هـٰذه الفَجَائعَ وتَنَاوُلها في سَائر أيام العَام، بَل حتىٰ في أخطَرِ الأيام وأشَدِّها ٱفتِجَاعاً كَأيام ومنَاسبَات ٱستِشْهَادِ «الأئمَّة» عليهم السلام، يُزْرِي بوَقَار المجْلِس ويهتِك حُرْمَة العَزَاء... يجِبُ أن يبقىٰ هـٰذا حَكْراً ووَقْفاً علىٰ سَاعَته ولحظَته، وهُو من خَفَايا وأسرار إقَامَة العَزَاء، التي يجبُ أن لَا تَسْمَحَ بهتْكِها وٱستِبَاحَتِها علىٰ يَدِ المبتَدِئين، أو المتَاجِرين والمستَعْرِضين، وأن تَلتَزِمَ الوَقَار في هـٰذا وتَبْلُغ به الغَاية، فلَو تهاوَن أسْلَافُنا رحمهم الله فيه وبَذلُوه رَخيصاً في مُنَاسَبَة وغير مُناسَبة، لما بلَغْنا ولَا أدركْنا حُرْقَة «عَاشُوراء»، ولَا عَرَفْنَا هَوْلَ الفَاجِعَة ولَوعَة المصَاب وغُصَّة الاكتِئَاب.

والوَقَارُ مما يَطَالُ "التَّشَابِيه" والأعمال الفَنِيَّة التي تُسْهِم أو يُرادُ لها أن تُسْهِمَ بِنَحْوٍ أو آخَر في الشَّعَائر الحسَينيَّة، ومما يَجِبُ أن تَخضع لَهُ وتَتَحَلَّى به، فَلَا يخرُج شَيءٌ بِاسم الفنِّ، من رَسم (نقْشٍ وتَصْوير) ونَحْتٍ وتمثِيل ومَسرَح، يُجانِب الوَقَار، يحكي الخِفَّة ويُثِير أو يَبعَث السُّخْرِيَة والاستِهْزَاء، سَوَاء لِركَاكَة الصُنْع والأداء، أو لِفَسَادِ الفِكْرَة وتخلُّفها عن عَظَمَة الحدَثِ وخَطَر المناسَبَة...

لَا يكْفِي بُنيَّ في صِحَّة العَمَل بالشَّعَائر الحُسَينيَّة مجرَّد سَلَامة القَصْدِ وحُسْن النِيَّة والإخْلَاص، ولَا سِيَّما في بَعْضِ الأنماط، فهُنَاكَ بُعْدٌ جماهِيري، ومَنظَرٌ أو مَشْهَدٌ عَام، ودَوْر يُخاطِبُ الآخَر، لَا بُدَّ أن يحُسَنَ ويُضْبَطَ على أُصُول الفَنِّ وقوَاعِده، فيَلِيق بِحَمْل الرِّسَالَة، ويَصِحُّ نِسبَته إلى الشَّعَائر التي تُحيي الذكْرى وتُعَظِّم الحدَث.

فكما أنه لَا يَصحُّ - فَنِيّاً - أن يَنبري للخِطَابة والإنشَاد إلَّا ذَوُو الأصْوَات الجهْوَرِيَّة الحسَنَة الجمِيلَة التي تُجِيدُ أداءِ الأطوَار الفنيَّة وتُحسِن أُصُول الحِرْفَة، فتُشَنِّفُ الأسماع، ولَا أقُولُ تُطْربها، وتجعَلهَا مُنجَذِبَة مُتعَلِّقة بالصَّوْت، وبالتَّالي بالمضمُون والمحْتَوى، ولكن في الأقلِّ الأدنى، يجبُ أن لَا تكُونَ نَشَازاً ومن القَبِيح المنكَر، الذي يُخَلِّف التَّنفُّرَ ويُورِث التقَزُّز... كَذلك الأمرُ في الرَّسْم والتَّمثِيل والمسرَح، فَلَا يجُوزُ تَصْوِيرَ (رسْم) الشَّخْصِيَّات المقَدَّسَة من أبطَالِ وَاقِعَة «الطَّف»، أو تَصْوِيرَ لَوْحَات تحكي مَشْهَد المعركة أو الميدَان، إلَّا بِدَرَجَة مَقْبُولَة من الجوْدَة والإتقَان، فهذا حَقْلٌ لَا يجُوزُ التَّهَاوُنَ والتَّسَامُحُ فيه، فيُفْسَحُ لِلمُبتَدِئين والهوَاة، أن تُعْرَضَ أعْمالهم القَبِيحَة ولَوحَاتهم الشَوْهَاء، على هَامِش النشَاطِ الحُسَيني، في أرْوِقَة الحسَينيَّات، أو في قَاعَاتٍ أو مَعَارِضَ خَاصَّة! ثم يُقَال - جَوَاباً -: هذه هي حُدُود قُدْرة الرسَّام ودَرَجَتِه، وأقصى مَا يُمْكِنُه، وهو لَا يَستَطِيع الأفضَل! لَيْسَ لَهُ ذلك، ولَا لأحَدٍ أن يَفْعَل مَا يُسيءُ للشَّعَائر الحسَينيَّة، ولَا لِصَاحِب الحسَينيَّة والمشْرِف على القَاعَة أن يَعرِضَ مَا يَبعَث على الاستِخْفَاف والسُخْرِيَة، وعلى المبتَدِئ النَّاشِئ أن يتَعَلَّم ويتَمَرَّن في مُحتَرفه، فإذا أجَادَ وأتقَنَ، عرَضَ نِتَاجَه، وقَدَّمه بوَقَار. كَم هو مُؤلمٌ أن يَتَهَاوَن المؤمنُون في هذه الأُمور، أو يفقِدُوا الرَّزانَة والحسَّ الوقُور، فَيَبتَذِلُون الأمر ويهوِّنُون الخطْبَ، وهو لَو يَعْلَمُون جَلَلٌ عَظِيم؟

ولَا أُريدُ بهـٰذا أن لَا يُعْرَض إلَّا مَا يَرقىٰ إلىٰ لَوْحَات «ميخائيل أنجلُو» و«ليوناردو دفنشي» وأضرابهما، التي صَوَّروا فيهَا «المسِيحَ» عليه السلام وسيرتَه، وغَدَت أعْمالهم زِينَة الكَنَائِس والأدْيِرة، ومَفْخَرة الحضَارة المسِيحِيَّة! فهُنَـاكَ هَامِشٌ مَطلُوبٌ للعَفْوِيَّـة والاْرتجال، مَعْفُوٌّ عَنه لِصِدْق المشَاعِر، ولٰكن بوَقَار ودُون اْستِخْفَافٍ واْبتِذَال، فيَصرِف الفَنَّانُ حَقيقَة قُدْرته، من إمكَانيَّاتٍ ووَقْت، ويَبذُل غَاية جُهْدِه ونهَاية وُسْعِه، ثم يُراعِي الذَّوْقَ العَام ويُلَاحِظ الاْنتزاعَات الاْجتماعيَّة، فَلَا يكُون في عَمَلِه وأدائه مَا يُشَوِّه ويُسِيء.

وهٰكذا لَا يَصِحُّ أن تُصْنَع مُجسَّماتٌ ("مَاكيت") من الطِين والخَشَب والقماش ومَواد البِنَاء الأُخرىٰ، تُوضَع علىٰ لَوْح خَشَبيٍّ رَخيصٍ، تحكِي - علىٰ سَبيل المثَال - تجسِيماً فَنيّاً مَنْحُوتاً لِوَاقعَة «الطفِّ»، كأن تُصَوِّر مُخَيَّمَ «سيِّد الشُّهَدَاء»، أو ميدَانَ القِتَال في «كَربَلَاء»، وتُعرَض للمَلأ وهي في أدنىٰ مُستَوَيات الجوْدَة ولَا حَظَّ لها من الإتقَان، حتىٰ إنَّه لَا يَجُوز أن تُنسَبَ إلىٰ الفنِّ والنحْتِ والتَّصْنِيع! والحال أنَّ هنَاكَ مختصِّين في التربيَة الفَنيَّـة، وحِرَفيين من الطِّراز الأوَّل يُمكِنُهُم أن يُقَدِّمُوا - علىٰ هـٰذا الصَّعِيد - مَا يَرْفد المسيرة ويُثْرِيها ويُغنِيهَا، ويُظْهِر النَّشَاط بصُورة مَقْبُولَة، ولٰكن لما حَكَمَت الغَفْلَة عَن الوَقَار، ورَاجَ الاْبتِذَال، أصْبَحَ كُلُّ شَيءٍ مُبَاحاً ومَقْبُولاً، وصَارت "التَقْدِمَة" للحُسَينيَّة وللشَّعيرة الدينيَّة من أرخَصِ وأهْوَن مَا لَدَىٰ بَعضِهم!

لَقَد شَاهَدتُ - بمَرارة - تَسْجِيلاً لمشْهَد مَسرَحيٍّ (تشْبيه) أُجرِي في إحْدَىٰ الحسَينيَّات العَامِرة في «الكُوَيت»، يَحكي مَا جَرىٰ لَيْلَة الحادِي عَشَر من المحرَّم، أو بَعدَ المصرَع الشريف، من قِصَّة الأسدِ الذي جَاءَ ليَحرُسَ الأجسَادِ الطَّاهِرة، أو أرادَ أن يُمَرِّغ نَاصِيتَه ويخضِّبَ شَعْرَ عُنقِه بِدَم الشَّهِيد، ومَا تَتَضَمَّنه من مَعَاني الظُّهُور الشَّكْلي و"التَّمَثُّل" الذي مَارَسَه «جبرائيل» عليه السلام في ظُهُوره لـ«مَريَم العَذْراء» عليها السلام ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ (مريم)، وقُدُوم مَوْلَانَا «أميرالمؤمنين» عليه السلام إلىٰ عَرْصَة «كَربَلَاء» مُتَمثِّلاً... والمشْهَدُ وأدَاؤه شَكَّل هَتْكاً مَقيتاً، لَوْ لم يَعرِف المشَاهِد الجهَة والحسَينيَّة التي قَامَت به، لما تَردَّد أنه من فِعْل النَّوَاصِب، يُرِيدُونَ أن يُشوِّهوا الفِكْرة ويُسيئوا إليها!

لقَد جَاؤوا بثَوْبٍ فُصِّلَ علىٰ شَكْل أسَدٍ، فَظَهَر كَأنه من تِلكَ الدُّمىٰ الرَّخِيصَة المُعَدَّة للَعِب الأطْفَال، التي تُحشَى بالقُطْن أو بِشَيءٍ من الإسفَنْج! ألبَسُوهُ رَجُلاً، كَأنه لَيْس الذي قَصُّوا الثَّوْبَ لَه وفصَّلُوه علىٰ مَقَاسِه، فظَهَرَ وَاسِعاً! ثم أدْخَلُوا رأسَهُ في رَأسِ تمثَال، بل دُمية أسَدٍ، من أسْوَئها صِنَاعَة وأرْخَصِها تَقْليداً... وراحَ "الشَّبيهُ" يَتَمَسَّحُ بـ"شَبيه" جُثمانِ «المولىٰ» عليه السلام تَارة، ثم يَعُودُ ليجْلِسَ أو يجْثُو علىٰ ركْبتَيه، ويَرفَع يَدَيه يَهوِي بهما علىٰ رَأسِه! كَانَ المشْهَدُ سَاذَجاً ورَديئاً علىٰ صَعِيدِ الفَنِّ والصَّنْعَة، مُتَخَلِّفاً علىٰ مُستوىٰ الجَوْدَة والإتْقَان، وكَأنه في مَسْرَحٍ من مَسَارح رِيَاضِ الأطْفَال التي تُوَظِّف الدُّمىٰ المتحَرِكَة، مَا أوْرَثَ الضَّحِكَ بَدَل اَسْتِدْرَارِ الدُّمُوع، وقَلَبَ الموْقفَ من ذُرْوَة المأسَاةِ والاَفتِجَاع، إلىٰ أجْوَاء الهَزْلِ والتَّعْليقَاتِ السَّاخِرَة والمزَاح!

لَرُبَّما كَانَ سَيُقْبَلُ ويُهضَمُ - شَيئاً مَا - مِثْل هذا العَمَل في قَرْيَة نَائِيَة أو مَدِينَة بَعيدَة مُنقَطِعَة عَن العَالم وتحَوُّلَاته (لَا في حُسَينيَّة رئيسَةٍ يَنقُلُ أثيرُ الفَضَائيَّات نَشَاطَها مُبَاشَرة!)، قَبْلَ اَنفِتَاح النَّاس علىٰ عَالم الأقْمَارِ الصِّنَاعِيَّة، ومُتَابعَة الأفلَام السِّينَمائيَّة الأجْنَبِيَّة، والأعْمال الفَنيَّة المُتَطَوِّرة، التي تُصَوِّر مَشَاهِدَ مُشَابِهَة لما فَعَلَه الإخْوَة في الحُسَينيَّة المذكُورَة، تمثِّل حَيْوَانَاتٍ وأُسُوداً، وتَصْنَع "تَشَابِيهَ" ومجُسَّماتٍ لمخْلُوقَات، بِصُورَة وشَكْل غَاية في الإتقَان والجوْدَة، يَصْعُبُ مَعَه التَّمْييز بين الحَقِيقَة والتَّمثِيل... لم يَعُد معَهَا مثل هذا الأداء شَيئاً مَقبُولاً ولاَ مَعْقُولاً، بَل هُوَ مما سَيُورِثُ التَّقْبِيحَ والاَستِهْجَان، ويُخَلِّف تَشْوِيهاً للفِكْرة التي تُريدُ التَّعبير عَنْها، والرِّسَالَة التي تُريدُ إبلَاغَهَا.

وللمُستَمع أيضاً دَوْرٌ في وَقَارِ المجْلِس وحِفْظِ حُدُودِه، ذلك في جِلْسَته وتَفَاعُلِه وجميع شُؤونه، فهُنَاك سُلُوك (حتىٰ في طَريقَة بعضِهم في البكَاء) يُفضي إلىٰ صُوَر ممجُوجَة، يَأباهَا الذَّوْقُ العَام، قَد يَرصُدهَا العَدُوُّ، ويَنشُرهَا في مَواقعَ إعلَاميَّة كَمادَّة للاَستِهزَاء والسُّخْرِيَة، مِثل ذَاكَ الذي يَبكِي بِحُرقَة، ثُم تَراهُ يَقْطَع بُكَاءَه فُجأة ويَنْتَقِل أو يَنْقَلِب إلىٰ سُكُون عَجِيب، كَأنه مَا كَان مُجْهِشاً قَبْلَ لحظَة، لِيُخرِجَ هَاتفَه من جَيْبِه ويَنْظُرَ فيه! وقَد نُشِرَ مَشهَدٌ آخَر يَظْهَر فيه أحَدُ المؤمنين وهُو يَبكِي بطَريقَة غَريبَة يَبدُو فِيهَا كَأنه طِفْلٌ أخَذُوا أو اَنتزَعُوا منه شَيئاً! لَا كَجَازع مَفْجُوع علىٰ مُصِيبَة هَزَّت العَرْش.

ولَا أُرِيدُ بهذا أكثر من مُراعَاة حَقِيقَة أنَّ مَجالِسَنا أصبحَت اليَوْمَ مَرصُودَة ومُلَاحَقَة، حتىٰ لَا يَكَادُ يَصْدُق علىٰ أيٍّ مِنهَا عُنْوَان "مَجلِسٍ خَاصٍّ" يَجوزُ فيه مَا لَا يَجوزُ في غَيْره، أو يُسْمَحُ لأرْبَابه ورُوَّادِه ويُعفَى عن زلَّاتهم وسَقَطَاتهم... لِذَا فَقَدْ تَوسَّعَت دَائرةُ التِزَام "الوَقَار" والتَّقَيُّد بمُقْتَضَيَاته ولم تَعُد محَصُورة في نِطَاق المجْلِس وحُدُوده الزَّمَانيَّة والمكَانيَّة. ولَوْ تَأمَّلْتَ في فَتَاوَىٰ الفُقَهَاءِ العِظَام، ومُرتكَزِهم في إباحَة أو تحرِيم بَعضِ الشَّعَائر، لَرأيتَ أنهُم يجعَلُونَ "وَهْنَ المذْهَب" المِلَاكَ.[١]

ومن الوَقَار في الأداءِ مَا يَتَعلَّق بحَرَكَاتِ الخطِيب، أو الرادُود (خَاصَّة)، فَهُنَاكَ مَن يَذهَب إلىٰ حُدُود غَير طَبيعيَّة، تخرُجُ عن الاَتزان والوَقَار، وهو يُشِيرُ إلىٰ الناس لِيُعبِّر عن مَشَاعِره أو يُصَوِّر مَا يتَحَدَّث عنه، أو لِيُوافِقُوا وَتيرة قَصِيدَته، بكَيفيَّة يَظْهَر معَها وكَأنه يَطْفُر أو يكَاد يَقْفِز من المنْبر أو المنَصَّة، حَاكِياً ومُصَوِّراً الحماسَ الذي دَبَّ فيه، أو الذي يُريدُه في جُمهورِه ومُستَمِعيه!... مَهلاً يا هذا ورِفْقاً، فَما هكذا تُوردُ يا سَعْدُ الإبل، ولَرُبَّ حَرَكَة وأدَاءٍ يُسيءُ إلىٰ الشَّعِيرة ولَا يخدُمهَا وهو يُغرِقُ ويُبَالِغ، حِين تَبلُغ مَا يُخرجهَا عَن الحدُود المتَعَارَفِ عَلَيهَا، فالإشَارة من الخطِيب والرَّادُود لها حَدٌّ، والإيحاءُ بالحركَة كَذلك، والقِيَام بما يَفُوقُ ويَتَجَاوَز الحدَّ، يُخِفُّ الأداء أو يَبْعثُ علىٰ الاَستِخْفَاف، ولَربَّما الاَستِهْزَاء، لَا سَمَحَ الله، وقَد رَأيتُ مُنشِداً مُبتَدِئاً يُرفق حَرَكَاته الغَريبة بَحَمْحَمَة في صَوْته وزَمجرَة! يُريدُ أنها تحكِي صَوْتَ اللَّطْم وتُواكِبَ خَبطَ المعزِّين أيدِيهم علىٰ صُدُورهم، أو أنه يُريدُهُم أن يَبلُغُوا معَه هذا المبلَغ من الاَنفِعَال المصْطَنَع!

---

(١) ولا تَغفُل بُنيَّ هُنا عن خَلْطٍ بين أمرين، يَقَع فيه بعضُ المؤمنين، أجِدْه يتكَرَّر في مَوارِد كَثيرة، هو: التخَلِّي عن الحقِّ من الشعَائر في سَبيل إرضَاء العَدُو، وبين مُراعَاة الأُصول والآداب التي تحْفَظ الشَّعَائر وتكُون زَيْناً لها لا شَيْناً عليهَا. فكَما أنَّ هُناك إفراطٌ لدىٰ بعض ضِعَافِ المؤمنين أو السِّياسِيين من أعدَاءِ الشَّعَائر، الذين يُنادُون بتركِهَا أو تحويرهَا وقَلْبها، هُنَاك إفراطٌ لَدىٰ بعضِ الموالين المحقِّين، تحتَ عُنوان: مَا لَنا وللأعدَاء؟ ذَرهُم يخوضُوا ويلعَبوا ويقُولُوا فينا ويَرمُوننا ويقذِفُوننا، فلن يَزيدنا هذا إلَّا ثَباتاً وإصراراً وتمسُّكاً بِنَهْجِنا. والحق أنَّ هناكَ فَرقٌ بين ما يَرمُوننا به ويَفْتَرون به عَلَينا، وبين ما نَرتكِبه نَحنُ من أخطَاء حَقيقيَّة، وسُلوك يُشكِّل ذَرائع ومُسوِّغَات ومَطَاعِن. عَلَينا أن نُحْسِن أداءَنا ونَضْبِطه وَفْق الأُصول والأحكَام والآداب، ثُم لا نكتَرِث بعد ذلك بما يقُولُون فينا، لَا أن نَشْطَحَ هنا، ونُخْطِئ هُناك، ونُسيء ونُشَوِّه، ثم لَا نُبالي بشيء!

وهكذا الأمرُ في الأفكَار و "الإبدَاعَات"، بَل المبتَدَعَات التي يُحدِثهَا بَعضُ الخطَبَاء، ولَا سِيَّما حِين يَنْفَرِدُونَ أو يَنْعَزِلُونَ في مَجَالِس نَائيَة، قَصِيَّة عن حَوَاضِر ومَيادِين العَزَاء الأصِيلَة، كَمُدُن العَتَبَاتِ المقدَّسَة والحوْزَاتِ العَلمِيِّة، والبِلَادِ العَرِيقَة المتَرسِّخَة فيها أُصول وآداب الشَّعَائر الحسَينيَّة، آمِناً من مُراقَبة عَالِم، أو نَقْدِ زَميل، أو عِتَابِ خَبير ضَلِيع... يَختَلي بحُضَّارِه وجمهُوره في تِلك القُرىٰ أو المدُن، ويَبتَدع لهم رُسُوماً وطُقُوساً أرتآها من لَدُن نفْسِه المعقَّدَة وابتكَرهَا من بَنَاتِ فِكْرِه المتَخلِّفِ السَّقِيم! يُجشِّمهُم فيها العَنَاء، ويُقْحِمهُم الصِّعَاب، وهُم مُطَاوِعُونَ لَه مُنقَادُون، يَحسَبُونَ أنها من الأُصول والوَاجبَات، ويَلتَزمُونَ بها وكَأنها جُزءٌ لَا يَتَجزَّأ من العَزَاء!

هُنَاكَ خَطِيبٌ كَلَّف صَاحِب المجلِس أن يهيِّئ شُمُوعاً بعَدَدِ الحضُور (وكَان يَقربُ من ألفَين!)، ثم ألزَمَ الحُضَّار أن يَحمِل كُلٌّ منهُم شَمْعَة مُضَاءَة، فَتْرَة القِراءَة! ثُم أمَرَهُم أن يخرجُوا في غَدِهِم في مَوكب العَزَاءِ حُفَاة! وآخَر يُطَالِبهم بتِكْرار مَقَاطع مما يَقرأ، في إنشَادٍ جماعيٍّ، كَأنه يحفِّظهُم نَصّاً، ويُسَجِّل ذلك تَأييداً منهُم لما يَقُول، فَهَا هُم يُكَرِّرونَه معَه! وآخَر يُريدُهُم أن يَتَبرَّعُوا لمشروُع خَيْريٍّ، ثم يُعلِن ويَشْتَرِط أنه لَن يَقبَل بأوراقِ عُمْلَة أقلَّ من عَشرة دَنانير!... وليذهَب غَير القَادِر إلىٰ الجحِيم!

إنَّ هذه المبالَغَات والمشَقَّات التي يُحمِّلهَا بعضُ الخطَبَاءِ جُمهورَه، حِين يَجِدُ منهُم تَجَاوُباً ومُطَاوَعة ومُوافَقَة، أداءٌ خَاطِئ يَفتَقِر إلىٰ الاعتِدَال، ويجانِب التِزَام الوَقَار والاتزَان، وهو مما يُسيءُ إلىٰ المنبر الحسَيني ويُشَوِّه دَوْرَه وصُورتَه.

علىٰ الخطيب الحسيَني والرادُود المنشِد ومُقِيم المأتم والعَامِل في الخِدمَة، وكُلِّ ناهِض بالشَّعَائر، أن يَتَحَلَّى بكَرَم النَّفْسِ والرِّفعَة، ويَلْتَزِمَ الوَقار، والسكُونَ والاستِقْرار، والحِلْم والاتّاد حَيثُ يَنبَغي ويَحسُن، وهُو حَسَنٌ علىٰ كلِّ حَال! ويتَجَنَّبَ الإعْجَال والمبالَغَة والإغْراق، وأن يَتَأدَّب مع مُستَمِعِيه وحُضُوره من مُعزِّي «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، ولَا يَستَغِلَّ عِشْقَ المَوَالين وخُضُوع المؤمنين للمَجْلِس بأدَاء يتَجَاهَل قَنَاعَاتهم، ويَقْفِزَ علىٰ أُصُول الشَّعَائر والعَزَاء، ويَتَجَاوَز دَوْرَ الحسَينيَّة والشَّعِيرة والمجلِس، بأُمور يَفرِضهَا من تِلْقَاءِ نَفْسِه، يُملِيهَا عَلَيهِم ويُجبرهُم بنَحْوٍ علىٰ فِعْلِها.

وبَعدُ، فمِما يَنَالُ من وَقَارِ المنبر وحُرمَة المجْلِس تَنَاوُل القِصَص أو القَضَايا المتدَاوَلَة في مجَالِس اللَّهْـو ووَسَائل الإعْلَام المَقْرُوءة والمَسْمُوعَة والمَرئيَّة، فيَأتي الخطِيبُ بِشَاهِدٍ علىٰ مَوْضُوعه من بَرنَامَج أو تمثيلِيَّة أو عمَل فنِّيٍّ (درامي) يُعرَض في القَنوات التلفزيونيَّة، مما يَنْشَغِلُ به الناسِ، وتُتَابِعُه بعضُ شَرائح المجتَمَع بشَغَف، فكَأنه يُرِيد أن يُحاكِيهم ويُجارِيهم، ويُشْعِرهُم بمُواكَبتِه لأحْوَالهم، ويَظهَر أمَامَهم وفي أعيُنهم "عَصْرِيّاً" و "مُتطَوِّراً"، يَعيشُ عِيشَتَهم (الهابِطَة المخَالِفَة للشَّرع، أو ـ في الأقَل ـ للأخلَاق الدِّينيَّة والأجْوَاء الصِّحيَّة التي تُزكِّي النَّفْس) ويَعْرِف اْهتِمامَاتهم التَّافهَة و "يَنفَتِح" عَلَيهَا، لَا "رَجْعِيّاً" مُنغَلِقاً مثل الخطَباءِ التقليديين(!)... تَراهُ يتَنَاول أفكَاراً أو مَقَاطعَ من المسَلْسَل التلفزيوني، ويَدْخُل في تَفَاصِيل القِصَّة وتَتَابع أحْدَاثها، وهُنَاكَ مَن يَذكُر أسْماء المَمثلين والمَمَثِّلَات وأدوَارِهم الحسَنَـة أو الشِّريرة، ويُضْحِك النَّاس علىٰ مَوْقِفِ هٰذه المَمَثِّلة ويُرْجِّح صِحَّة مَا فعَلَتْه تلك البَطَلَة! إنَّ هٰذا أداءٌ قَبيح، يَبتَذِل المنْبَر ويهتِك حُرمَة المجْلِس، وهو مَرفُوضٌ لَا يجوزُ قَبُوله والتَّهَاوُن فيه.

وهُنَاكَ خُطَباء يَذكُرُون أسْماء شَخْصِيَّات أجنَبيَّة، وكَأنهم يَستَعْرِضُونَ "ثَقَافَتهُم" ووَسِيعَ بَاعهم في هٰذا الحقْل، فيَأتي أحَدُهُم علىٰ اْسْم كِتَاب أو رِوَاية شَهِيرة لِكَاتِب ذَاعَ صِيتُه بين المثقَّفِين، يُتَابِعُونَ أعْمالَه وآخر إصْدَاراته، فَيَذْكُره الخطِيب علىٰ نَحْوِ المسْتَرسِل المسْتَأنِس، لَا المتَكَلِّف المتَوَقِّف الذي اْضْطَرَّه البَحْث لهٰذا الاْستِشْهَاد، وأجْبَره علىٰ الاْنعِطَاف إلىٰ هٰذه الموارِد وبُلُوغ هٰذه الأمَاكِن!

والحَال أنَّ ذِكْر الألفَاظ والأسماء الأجنَبِيَّة علىٰ المنْبَر قَبيحٌ إذا كَان لِفَلَاسِفَة ومُفَكِّرين وعُلَماء ومكْتَشِفِين، أو مُصْطَلَحَات (من العُلُوم التَّجْرِيبيَّة لَا الإنسانيَّة)، فكَيفَ بمَن يأتي بأسْماء نُجُوم سِينما أو رِيَاضَة!

هُنَاكَ من يَذهَب بها بَعِيداً، فيَنسىٰ أو يتَنَاسىٰ أنه علىٰ مِنْبر «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، فيغْرِق ويُسْهِب وهُو يَذكُر أسْماء الأدوِية والعقَاقِير الأجنَبيَّة ويَصِفهَا لمستَمِعيه! ويُعدِّد أسماء الزُّعَماء ورُؤسَاء الدُّوَل والحكُومَات، وأعلَام السِّيَاسِيين العَالميين، ويخوضُ في مُستَنقَعاتٍ وبِرَكٍ آسِنَة، لَا يُبالي بِشَيء، ولَا يحَفَظ حُرْمَة، وكَأنه في دِيوَان، أو في مقهىٰ!

ولَعلَّ بَعضَ المؤمنين المكْتَفِين بالمجَالِس التَّقليدِيَّة، والمتَعَاهِدِين لخُطَبَاء مِن طَبَقَة مُعَيَّنَة وشَرِيحَة أَصِيلَة مُلتَزِمَة، يَسْتَغرِبُون وُجُودَ مِثْل هذا الأداء في خُطَبَاء حُسَينيين، ولكِني سَمِعتُ، كَما نُقِل لي، مَن يَستَعرِض مَعلُومَاته الرِّيَاضِيَّة ويُعَدِّد ويَذْكُر من على مِنبَر «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام أسماء لَاعِبي فَرِيق كُرة قَدَم عَالمي، ونَتَائجه في الدَّورِي الإسباني، ومَا فَعَلَه النَّجْمُ الذي يَتَعَصَّب لَه بلَاعِبي الفَرِيق الخصْم!

لَيسَ هذا سَبِيلُ اجْتِذَاب الشَّبَاب لميَادِين الدِّين المختَلِفَة، ولَا هُو طَرِيق الأخْذِ بِأيدِيهِم إلى التَّعْلِيم الدِّيني والثَّقافَة الإسلامِيَّة والالتِزَام الشَّرْعِي، ولَا هُوَ وَسيلَة لِرَوَاج الشَّعِيرة وإحْيَائها، فَفِي مَدْرَسَة «سَيِّد الشُّهَدَاءِ» عليه السلام الغَاية لَا تُسَوِّغ الوَسيلَة، ولِلمِنبر رِسَالَة لَا يُمكِن أن تُؤدَّى من هذا الطَّرِيق. وإن كُنتُ ـ شَخْصِيّاً ـ في شكٍّ من أنَّ أربَابِ هذا النَّهْج يَعمَدُون إليه ويَسلُكُونَه لتِلكَ الأهدَاف "النَّبِيلَة"، إنَّما هُوَ فَقْرُهُم وضَحَالتُهم وخَوَاؤهُم الذي يَنْجَرُّ بهم إلى هذا الأدَاء، لَا أنَّهم يُعَانون ويُكَابِدُون، ويَضْطَرُّون إليه اضْطِرار المُكْرَه، فَيتَحَايلُون على شَخصِيَّاتهم المُلْتَزِمَة، ويُرْغمُون رُوحِيَّاتهم المتَألِّقة، ويُضَحُّونَ بمَعنَوِيَّاتِهم، لِيُجَارُوا الشَّبَاب ويُحاكُوا لُغَتَهم، ويُسَايرُوا طَرِيقَتهم، عسى أن يُؤَثِّرُوا فيهِم ويُبعِدُوهُم عَن أجْوَائهِم، ويَنقُلُوهُم إلى التَّديُّن والالتِزَام.

إنَّ الطيْش والإفرَاطَ والإغْرَاق والرُّعُونَة التي نَرَاهَا من بَعضِهِم، وفي حَدٍّ أدنى، الذَّهَاب في المنْبر والشَّعِيرة إلى مَوَاضِعَ وأدَاءٍ يَفْتَقِرُ إلى السَّكِينَة والطُّمَأنينَة والاتِزَان والوَقَار، هُو دَاءٌ يجبُ التَّصَدِّي لَه، ومَرَضٌ تجِبُ مكَافَحَته، ولَا سِيَّما إذا قَرُبَ من مَوَاقع تَمَسُّ أصْلَ المنبر وهَويَّته، وتَنَال من رِسَالَة الشَّعَائِر الحسَينيَّة، ودَنَا من مَناطِقَ حَظْرٍ وخَطَر، ودخَلَ في مَا يَزْدَرِي المادَّة العِلميَّة ويَبتَذِل مَوْضُوع الخُطْبَة...

فهُنَاكَ من الخطَبَاء مَن يَعيشَ هَاجِسَ التَميُّز أو يُعَاني عُقْدَة الحَدَاثَة (وأغْلَبُهم ممن يتطَلَّعُ إلى الشُهْرة ويتَهَالَكُ عَلَيها ويَطلُبها بأيِّ ثَمَن ومن أيِّ سَبِيل، ومنهُم ضَحَايا جَهْل وقلَّة خِبْرة وقُصُور بَاع)، فيَذْهَب في أدائه، كَما يَفْعَل ذاكَ المنشِد أو الرَّادُود الذي يَقُوم بحَرَكَاتٍ تَبدُو كَأنه يَطفُر ليَبُثَّ الحماسَة في جُمهُوره، تَرىٰ هذا المسكِين (الخطِيب) يخُوض في مَواضِيع ويُوَظِّف أدَوَاتِ تجَارِي الطَّفْرَ خِفَّة والقَفزَ مَهَانة ورُعُونة!...

وَلَعٌ بالإحْصَاءَات والأرقَام، وهَوَسٌ في سَرْد أبوَاب وأصْنَاف العُلُوم التَّجْرِيبيَّة، وشَوَاهِد الاكْتِشَافَات والتَّطَوُّر والصِّنَاعِي، ومَا بلَغَته التِّقَنِيَّة... يُريدُ أن يَظْهَر في إطَار "العَصرَنَة" وصُورة "الحَدَاثة". حتىٰ ينْصَبِغَ - بعدَ حِين - بطَابع بَعيدٍ عن الثقَافَة الدينية الوَلَائيَّة والشَّرعيَّة، أجنَبيٍّ عَن لُغَة المنبر والخطَابة الأصْيلَة المرتَكِزَة علىٰ القُرآن الكَريم والحديث الشَّريف، ثم الأدَب المتَّزِن والتُّراثِ الأصيل والتَاريخ الصَّحِيح، أو حَامِل المَوَاعِظ والعِبَر، ويَذْهَبَ في الشُّعُور أو اللَاشعُور الذي غَذَّاه بهذا الأداءِ المريض، إلىٰ حَيث يَضْعُب نِسْبَته إلىٰ أشرَف عُنوَان، ويُجرَّد من أعلىٰ وِسَام: "خَادِم الحسَين"!

ولَا يَعني هذا رفْضَ كُلِّ تَوْظِيف للتَّطَوُّرات العِلْمِيَّة، والأخذِ بمُعطَيات الوَاقع المُعَاش والحيَاة العَصْرية، بَل أُريدُ الأُسلُوب الركيك والآلِيَّة والطَّرِيقَة التي تُخِلُّ بالوَقَار، فَلَا بَأسَ بالاستِشْهَاد باكْتِشَافٍ عَصْريٍّ وذكْر تَطَوُّرٍ عِلْمِيٍّ يخدُم الفِكْرَ الدِّيني ويَأتي كَنَاصِرٍ للعَقِيدَة الحقَّة، ولكن في حُدُود وبكَيفيَّة لَا تُخْرِج المنبر عن حَالِه واتزَانه ووَقَاره، وتَأخُذ المحْفِل والمقَام إلىٰ أُفق أجْنَبِيٍّ بَعيدٍ عن قُدْسِه ومُنَافٍ لحُرمَته، فهذه - في البِدَاية والنِّهَاية - حُسَينيَّة ولَيْسَت مُنْتَدَىً ثَقَافيّاً، وهذا مِنبر حُسَينيٌّ لَا كُرسيٌّ في كُلِّيَّة جَامِعيَّة وأكَادِيميَّة عِلْمِيَّة، عَلَينَا أن لَا نَخلِطَ ولَا نَقْفِزَ ولَا نَخْلُقَ التَّدَاخُل الذي يُفْقِد المجْلِس الرَّوْحَانيَّة، ويَسْلُبُه قُدْسَه وخَفَره، فينسىٰ الحضُوُر ويَغْفُلُون أين هُم الآن، وهُم يحْضُرون في هذا المكَان المقَدَّس، حِينَ يَرَوْن أنَّ الأداءَ واللغَة أشْبَه بالبرامج التِّلفِزْيونيَّة والمحَاضَرات الثَّقَافِيَّة، بَل أقرَبَ إلىٰ لَغْوِ الدَّوَاوِين وهَذْرِ مجَالِس البَطَّالِين!

والأخْطَر في هذه الطَّائِفَة والنَّمَط من الخطَباء وأدائهم، أنه يُورثُهُم الانحِرَاف شَيئاً فشَيئاً، ويَمِيلُ بهُويَّتهم، بعدَ حِين، فينْسَلِخُونَ عن معَالمها البَدِيهيَّة، وأوَّليات لَا يحيدُ عنها ذو حظٍّ من عِلْم، ولَا يَستَبدِل بها مَن لَه نَصيبٌ من خَيْرٍ وسَعَادة وتَوفيق... وقَد سَمِعْتُ أحَدَهُم بَلَغَ به الأمرُ - في هذا السِّيَاق - أن عَبَّر عن «الإمَام الصَّادِق» عليه السلام في قَضِيَّة ذكَرَهَا، بـ "الذَّكَاء"، وأنه "رَجُلٌ محنَّك"! وآخَر عَبَّر عن «أميرالمؤمنين» عليه السلام بالعَبْقَري! وأنه "ديمُقْرَاطيٌّ" نَزَلَ على رأي الأغْلَبيَّة! وقَائل إنَّ «الحجَّة المهدِي» عليه السلام رَجُلُ سِلْمٍ لَا حَرْب، وحُبٍّ لَا عُنْف، ولين لَا قَسْوَة، يَنْبِذُ التَطَرُّف والشِّدَّة ويحَارِبُ "الإرهَاب"!

ولَا تحسَبَنَّ الوَقَارَ يَقِفُ عِندَ حُسْن الإلقَاءِ والرَّصَانَة وخَفْضِ الصَّوْت والامتِنَاع عن الهذْرِ والهزَج، بل هُوَ يَتَعَدَّىٰ إلىٰ الفِكْرة والمعْلُومَة، وكَم تَحْمِلُ شَطَطاً، وتَنْطَوِي علىٰ انحِراف وسَقْطٍ وخَطَل، يحِيدُ بها عن جَادَّة الوَقَار وسَبِيلَ القَصْدِ والاعْتِدَال، الذي يَنْحَصِرُ مَأخَذُه ومُسْتَقَاه في رَوَافِدِ الفِكْر الإمَاميِّ الأصِيل... وهؤلَاء، التُعَسَاء، أو المغلُوبُون علىٰ أمرِهم للجَهْل وقلَّة البَاع والمتَاع، مَتَأثِّرُونَ، أو مَسكُونُونَ بمُجَاراة العَصرِ، ومُحاكاة الخِطَابِ واللغَة المتدَاوَلَة في الصَّحَافَة والإعلَام، والمحَافِل السِّيَاسِيَّة، ولَرُبَّما أسَرتْهم وارتَهنَتهُم الثقَافَة الغَرْبيَّة، غَافِلينَ عَن مَواطِن السُقْم فِيها، ومَا يُعَارِضُ مُعتَقَدَاتِنَا، فصَارُوا يَعْرِضُونَ دِيننا بما يُوَافِق مَقُولَاتِ القَوْم، ويُفْسِح لهم بِمَوطِئ قَدَم في سَاحَتِهم الإعْلَاميَّة والسِّيَاسِيَّة، ويحْظَون بقَبُولهم.

ولَا يَقِف الأمرُ عند أُولئك المنْحَرِفين الضَّالِّين الَّذين يُعبِّرون عن سَيِّدَة نِسَاءِ العَالمين «الزَّهْراء» المرْضِيَّة عليها السلام، التي استَنْزَلَت الرُّوحَ الأمين وأنْطَقَت «جبرائيل»، بَأنها "كَاتِبَة" و"مُؤلِّفة"! أو الأخْرَق الذي وَقُحَ مَع مَقَام الصدِّيقَة الصُّغْرىٰ «زَينَب الكُبرىٰ» عليها السلام وهُو يَنْفي أو يَرفُض (لَا لأصْل عِلْميٍّ، بَل لاستِبْعَادٍ ذَوْقيٍّ مِزَاجِيٍّ) أنها نَطَحَت جَبهَتَهَا بمُقَدَّم المحْمِل أو بالأقتَاب، وعَبَّر مُستَهْزِئاً: وهَل «زَينَب» .... حتىٰ تَنْطَح! أو ذاكَ القَائل بَأنَّ «الإمَامَ المعْصُوم» يُعْمِل جُهدَه، و"يجتَهد"، كَما اجتَهدَ الصَّحَابة أو «مَالكٌ» و«أبوحَنيفَة»، غَاية مَا هُنَاك أنَّ «الإمَام» مُصِيبٌ، وهُم مُخْطِئُون، فهُو "الأعْلَم" بِشَريعَة جَدِّه (أي الأجْوَد استِنْبَاطاً!)، ويُقْرِنُونَ «كَربَلَاء» بثَوْرَاتِهم أو عَمَليَّاتِهم الجِهَادِيَّة وانتِفَاضَاتِهم السِّيَاسِيَّة، ويُفَاضِلُون بينَ عَطَاء سَيِّدَتِنا «أُم البنين» عليها السلام وأُمَّهات الشُهَدَاء في حِزْبهم ومنظَّمَتِهم، ويَصِفُّون قَادَتهم ويُعَظِّمُون مَراجِعَهُم حتىٰ يجعَلُوهُم في مَصَافِّ «الأئمَة» عليهم السلام... فأُولئك خَارِجُون تخصُّصاً، وهُم لَيْسُوا في نِطَاق الشَّعَائر الحَسينيَّة ولَا خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، اللهُمَّ إلَّا كوَسيلَة لمآربهم وغطَاءٍ لِفَسَادِهم.

ولكِنَّ الأمرَ يَبْلُغُ هذا الخَطِيب الحُسَينيَّ المسكِين، أو التَّعِس، الذي خَدَعَته الأجْواء (أو غَلَبته الأهْوَاء، أهْوَاء المجْدِ والشُّهْرَة)، فانجَرَّ إلىٰ شَفَا هذا الجُرف الهار، الذي يُمكِن أن تَستَزِلَّه شَيَاطِينُه فينْهَارَ به إلىٰ عُمْقِ الانحِرَافِ وقَعْرِ الشَّقَاء!

إنَّها مُحصِّلَةُ التغْرِيب ونتَاجُ التهَالُك علىٰ الحدَاثَة، والانفِصَال عن تُراثِ «أهلِ البيْت» الذي يُعَلِّم رُوَّادَه ويؤدِّبهم بآدَابِه. ولَوْ التَزَمَ الخطيبُ حُدُودَه، ووَقَفَ حَيثُ يَجِب، ومضىٰ بوَقَار، مُجانِباً الطَيْشِ والإغرَاق، والتَّهَالُك علىٰ الشُّهْرَة والظُّهُور من أيِّ طَرِيق وبِأية وَسيلَة، لَنَجَا من هـٰذه المهَالِك وعَفَاهُ الله من هـٰذا البَلَاء.

إنَّ الخطِيبَ طَبيبٌ، طِبُّه وعَقَاقِيره ومَرَاهمه، وفي أسْوَأ الفُرُوض، تَاجِرٌ سِلعَتُه وبضَاعَته، القُرآن والحدِيث والفِقْه والشَّرع، والفِكْر المستقىٰ من مَعَارِف الدِّين. أمَّا مَا لَدَىٰ غيرنا، ممن شَرَّق أو غَرَّب، بَاطِلاً كَان، أو فيه خَيرٌ وحَق، فهو خَارج نِطَاقِ المنبر، ولَيْسَ من مَادَّته ومَوضُوعه. ومن المؤلم أنْ نَرىٰ خَطِيباً حُسَينيّاً يَعتَمِرُ العَمامَة، ويَزْعُم العِلْمَ والفَضْلَ والتَّخَصُّص في الدِّين، ثم يَغْفُل عن أوَّليَّات التَّأدُّب مَعَ «أهل البَيْت» عليهم السلام وحُرْمَة مَقَامِهم، ويُوَظِّفُ ألفَاظاً يَحسَبُهَا "عَصْرِيَّة" تَحكِي انفتَاحَه علىٰ الثقَافَة المعَاصِرة، وعَدَم جمُوده علىٰ المورُوثِ القَدِيم، حتىٰ في التَّعْبِير! فيُخِلُّ بوَقَارِ المنبر وثقْل الخِطَابة ورَزَانتِهَا وهو يُعبِّر عن عِلْم الإمَام وقُدْرته الإلهيَّة التي يَعْجَزُ البيانُ عن وَصْفِها والفِكْرُ عن الإحَاطَة بها، بالذَّكَاءِ والعبقَرِيَّة، ومَا إلىٰ ذلك من تَعَابير، تُسيءُ إلىٰ عَظَمَة الموضُوع وتُشَوِّه المعتقَد الذي سيَنْتَقِل إلىٰ المُستَمع، حِين يَنْقله الخطِيبُ إلىٰ هـٰذه النِّطَاقَات.

الوَقَار بُنيَّ هو السَّبيل للوَسَطِيَّة الحقَّة والاعْتِدَال، والأدَاء النَّاضِج العَمِيق، والمتَّزِن القَوِي، الذي يَجمَع الأصَالَة والمشرُوعيَّة والنَزَاهَة والحِكْمَة والدَرَجَة والحدُود المنَاسِبَة، فيَقْهَر المواقع، ويُلْجِمُ الأعْدَاء، ويُورثُ الأصْدِقاء والأحْبَاب والمذْهَبَ العِزَّ والكَرامَة، والفَخْر والمبَاهَاة، ثم يَنْشُر الحقَّ ويُذِيع الظُّلَامة، دُونَ أن يَستَطِيع مكَابِرٌ أن يَنالَ من شَيء في مَجالِسنَا، أو يجِدَ مَنْفَذاً ومَغْمَزاً يطعَن منه في مَنَابِرنا.

❋ ❋ ❋

الوصية الثامنة:

الاسم والتحزُّب

هُنَاكَ إفرازاتٌ ونَتَائج للعَمَل في مَيدَان الشَّعَائِر الحسَينيَّة يَصْعُب تجنُّبها، كَوْنه حَقْلاً ذا بُعْدٍ اجتِماعيٍّ، ولَربَّما عُدَّ ودَخل - بِنَحْوٍ - في السَّاحَةِ السياسِيَّة، وإن نَأىٰ بنَفْسِه عَنهَا، وتَنزَّه وأعْرَض، فهٰذا الإعْراضُ يخْلُقُ - حِين يدْعُو النَّاسَ إلىٰ فِكْرِه ونَشَاطِه - تَياراً جَماهِيرِيّاً أو تَكَتُّلاً شَعْبِيّاً يُنَافِسُ الجماعَات السِّيَاسِيَّة العَامِلَة في السَّاحَة، فُهو يجتَذِب ويَقْتَطِعُ طَائِفَة من المؤمنين يَسْتَأثِر بهِم، يَنْزَوِي بهِم بَعِيداً عن الأحْزَاب، ويَصْرِفِهم عَن أنشِطَتِهَا، ويَصُبُّ طَاقَاتهم ويُوظِّف "حَركيَّتهم" في نِطَاقٍ دِينيٍّ بَحْت، يَرَوْنه تَعْطِيلاً وجُموداً، بل رَجْعيَّة وتخلُّفاً، (وإن كَانت الحقِيقَة مُعَاكِسَة، فالأصْل في الحركَة أن تكُونَ للدِّين، وتَأتي الأحْزَاب السِّيَاسِيَّة لتَقْتَطعَ من المجتَمَع - وهُو كُلُّه حِصَّةُ الدِّين - فِئاتٍ وطَوَائفَ، وتَسْرِق جماعَات، تَنْزَوِي بها وتُدْخِلها مُدْخَلها الباطِل، وتُشْغِلها عما خَلَقها الله لأجْلِه)... إنَّ هٰذا الفِعْل ورَدُّ الفِعْل، يَدْخُل - في مجمُوعه - في الحِراك السِّيَاسِيِّ، من بَابِ أنَّ رفْضَ السِّيَاسَة، هو سِيَاسَة! وأنَّ الوَاقع الخارجيَّ يحكُم بأنَّ الحُسينيَّات والهيئَات، تَستَحْوِذ علىٰ جَانب من السَّاحَة، تَشْغَلُه بفِكْرِها ونَشَاطِهَا، ومن بَعْدُ مَواقِفِهَا من الأحْدَاث والأشْخَاص!

إنّها بُنيّ لَوَازِم قَلّ أن تنْفكّ، وتبِعَاتٌ يَصْعُب الخلاص منهَا.

ولَسْتُ أحمِل هَمَّ القِيل والقَال فِيهَا، ومَا نُرْمىٰ به ونُتَّهَم، من قِبَل هـٰذه التَّيارَات والأحْزَاب والجماعَات السِّياسِيَّة، من أننَا مثلُهُم: مَشْروعٌ سِيَاسِيٌّ وحرَكَة دُنيَوِيَّة، تَتَّخِذ الدِّين غِطَاءً ووَسِيلَة... لا يهمُّني هـٰذا، ولا أسْمَح له أن يَشغَلني إلّا بهَامِشٍ ضَئِيل وقَدْر يَسِير، يحكُمُه تجنُّب مَواطِن الشُّبهَة، ووُجُوبُ جَبِّ الغِيبَة ودَفْع التُّهمَة، فَدَعْهُم أو ذَرْهُم يخُوضُوا ويَلْعَبُوا، ويَقذِفُوا ويَرمُوا، ويتَّهِمُوا ويَفتَرُوا، فهـٰذه معركَة ٱرتَضَيْنا دُخُولها، ومَيدَانٌ قَبِلْنا النزَال والصِّراع فيه، وهـٰذه الدعَايات هي من أدَوَاتهم ووَسَائلهِم، ونَحْنُ نَتَفهَّم ذلك، فماذا عسىٰ الأجوَف أن يُسْمِع النَّاسَ غير النَّقْرِ والقَرْع والدَّوِيِّ والضَّجِيج، ومَاذا تُراه سَيُقَدِّم لهم ويُبرِز ويَبْذل؟ لَو كَانت لَدَيهم بضَاعَة من فِكْر، وسِلْعَة من دَلِيل وبُرهَان، لأتوا به وقَدَّموه وعَرَضُوه، وتمسَّكُوا به وٱحْتَجُّوا عَلَينا، بَل لأعْرَضُوا عَنَّا وتركُونا في حَالِنَا، ولاستَطَاع بُرهَانُهم أن يُفْشِلَ "مَشرُوعَنا" ويُبطِلَ "سِحْرنا" الذي يَزْعُمُون، ثم يَخْصُبُ ويُثْمِر زَرْعُهم كَما يَشَاؤُونَ ويَتَمَنَّون، فَيَجْتَذِبُ - حَسْبَما يُقْنع ويُعْجِب - أهلَ الحَقِّ والباحِثِين عنه، فَيَضُمُّونهم إلىٰ أحْزَابِهم ويُلْحِقُونَهم بها... لـٰكنهم أفلَسُوا هُنا وأجْدَبوا، فمَحُلَت دِيَارُهم، وخَلَت وِفَاضُهُم، فَرَاحُوا في الدعَاية والإعْلَام، وٱستَغْرقُوا في التَّشوِيه والتَّسقِيط، وتَفرَّغُوا للطَّعْن والتَّشْهِير، وتخصَّصُوا في مُلَاحَقَة الآخَرِ ومُحارَبتِه، وٱنشَغَلوا في النَّيْل ممن خَالَفَهم الرَّأيَ وٱفترَقَ عنهم في الطَّرِيقَة!

من هُنا تَراني لا أُولِي هـٰذا الجَانب أهمِيَّة تُذْكَر، قَدْر ٱهتمامي بحَقِيقَة وَاقعِنَا، ومَدىٰ إصَابتِنَا وتَلَوُّثنا، وقُصُورنَا وتَقْصِيرنَا، وتخلُّفِنا عن الصُّورة النمُوذَجِية والحالَة المثالِيَّة المطلُوبة التي يَجِبُ أن نكُونَ عَلَيهَا في خِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وإقَامة شَعَائر عَزَائه.

إنَّ "الانتِسَابَ" في النَّشَاط الاجتِماعِي، بَل في الشُّعُور الإنسَاني، بمعنىٰ شُعُور المرء أنه "عُضْوٌ" في "جماعَة"، وأنه "جُزْءٌ" من "كُلٍّ"، و"فَرْدٌ" من "فِئَة"... هـٰذا الشُّعُور هُو فِطْرة بَشَرِيَّة لا يُمكِن قَهْرُها، غَايَة مَا هُناك، أنَّ الدِّين الحَنِيف هَذَّب فيهَا وشَذَّب، وخَلَقَ لها طُرُقاً، وشَقَّ جَدَاوِلَ ومَسَارِب، تَصْرِفهَا في وُجْهَة تَنتَهي بها إلىٰ غَايتِهَا العظمىٰ، ونهاياتها السَّامِيَة، أي الانتِماء إلىٰ الله والانقِطَاعِ إلَيه والفَنَاء فِيه عَزَّ وجَلَّ.

يَصْعُبُ علىٰ الإنسَان ويَشُقُّ عَلَيه، ولَعَلَّه لَا يُطِيق أن يَعيشَ مُنْفَرِداً، لَا يَنْتَسِبُ إلىٰ جِهَـة، ولَا يَنتَمِي إلىٰ جَماعَة... ولَسْتُ أنظُر هُنَا وأقصُد هَاجِسَ الخرُوج عَن الأنتماء العَقَائدِي، أو أَلَـم الأنفِرَاد في المعْتَـقَد، والمعَانَاة من فَقْد الأنتِسَاب الفِكْري، الذي يُدْرِجُ النَّاسَ في مَدَارِسَ ومَنَاهِجَ وخُطُوط، ويُصَنِّفهُم في مَذَاهِب وأديَان ونِحَل، فحَسْب، بَل أُريد الحالَة الأجتِماعيَّة التي تَتَأتىٰ من السُّلُوك والحِرَاك والمعَايشَة، وتَتَفَرَّع عن الإحسَاس النَّفْسِيِّ والشُّعُور بالفَرَاغ والضَعْف والهزيمَة، الذي يتولَّد ويَكُونُ في "المستَقِلِّين" البَعِيدِين عن الأحْزَابِ والفِئَات، المنْقَطِعِين عن جَماعَاتٍ دَاعِمَة، وعُصَبٍ نَاصِرة، وبيئَاتٍ حَاضِنَة. وإن كَانَ مَنْشَأ ذلك وسَببه هُو الفِكْر والمعتَقَد، لكن المنظُور هُنَا هو السُّلُوك والفِعْل والحِراك، الذي لَا يُطِيقُ المرءُ أن يَنهَض به منفَرِداً ويُمارِسه ويَعِيشه وَحْدَه.

فَالإنسَانُ حِينَ يَنْتَسِبُ إلىٰ قَوْم ووَطَن وبَلَد، وإلىٰ قَبِيلَة وعَشِيرة وعَائلَة، أو حِينَ يَترَقَّع شَيئاً فينْتَسِب إلىٰ مَدرَسَة فِكْرية ومَنهَج سِيَاسيٍّ، أو حِزْب ومُنَظَّمة وجَمعِيَّة، ويجعَل مِنهَا "جماعَتَه" و "عُصْبتَه"... إنَّما يُعَالج هذه الرَّغْبَة النَّفْسِيَّة المُلِحَّة، ويُسَكِّن هذه الفِطْرة المتَوَثِّبَة المتَطَلِّعة.

قَلَّ أن تَرَىٰ في النَّاسِ "إبراهِيمِيّاً" يَتَشَوَّق إلىٰ المنزلَة الرَّفيعَة التي تُقَرِّبه بتِلكَ الدَّرَجَة والحدُود من ربِّه، ولَن تَجِدَ فيهِم مَن يَتُوقُ إلىٰ كَمالٍ يَأخُذه حتىٰ يَبلُغ به مَبلَغاً، فيُريد ويَدْعُو أن يَجعَله الله للنَّاسِ "إمَاماً"، لَا تَابِعاً ولَا مُنْضَوِياً في أية مَنْظُومَة وحِزْب وجَماعَة، ويَعِيشَ فَرْداً مُنفَرِداً ويَكُون "أُمَّة" بنَفْسِه، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (النحل)؟!... إنَّ السَّوَادَ الأعظَم من النَّاسِ يَعِيشُ حَاجَاتِه ورَغَبَاته الطَّبِيعِيَّة، ويُريد أنْ يُؤمِّن شَهَوَاته ومَلَذَّاته الحِسِّيَّة، ثم يَقْنَع، في المعنَوِيَّات، بالمبذُول من السَهلِ اليَسير، ويَقْبَع في حَضِيضِ المُتَنَاوَل القَرِيب، وغَالبِيَّة المؤمنين يَقْصُر بهم عِلْمُهُم ويَنْبُو إدْراكُهم، وتَضْعُف رُوحِيَّاتهم وتَهبط هِمَمُهم عن الأمَل في أدنىٰ هذه المراتِب المتَقَدِّمة، والتَّطَلُّع إلىٰ بِدَاياتِ هذه الآفاقِ العَظِيمَة. إنهم يُرِيدُونَ شَيئاً يُسَكِّن هَوَاجِسَهُم، ويُبَدِّد وَسَاوِسَهُم، ويَذهَب بقَلَقِهم ومَخَاوِفهم، فيَلتَحِقُون بـ "جماعَة"، ويَنْتَسِبُون لـ "فِرقَة"، ويَنْتَمُونَ إلىٰ "حِزْبٍ"، وكفىٰ اللهُ المؤمنينَ القِتَال!

ثم من فَرْطِ الحَاجَة، والعَلَاقَة النَّفْعِيَّة (وقَد أُسِّسَت عَلَيه) والمَصَالِح المتَبَادَلَة، بينَ الفَرْد والحِزْبِ، تجِدْه يَأخُذ صَاحِبَهُ إلىٰ نِطَاقَاتٍ تَتَجَاوَز إطَار التعَامل الطَّبيعي، وتَقْفِز علىٰ عِلَّة الانْتِماءِ وسَبَبِ الانتِسَاب، فَيَبْلُغ شَيئاً فشَيئاً الحَمِيَّة، ويَدْخُل في العَصَبيَّة، ويَمْضي (المؤمن) حتىٰ تَراهُ يَدِينُ الله ويَعْبُده بالانْتِصَار لهذا الحِزْب... ويُقَدِّمه في الوَلَاء والنُّصرَة والدِّفَاع علىٰ أصْل الدِّين والعَقِيدَة، بل يَنزِل به الدَّاء العَيَاءُ الملَازِم للتَّحزُّب، وهو عِبَادَة الاسْم والعُنْوان! فَقَد يكُون انتِماؤُه للحِزْبِ لمَصْلَحَة مَادِّية، ثُم تَراهُ يُقَدِّم كُلَّ أموَالِه للحِزْب، أو لعِلَّة دِينيَّة، ثم يُضَحِّي بكُلِّ قِيَم الدِّين وأحْكَامِه في سَبيل الحِزْب!

ولَا تَحسَبَنَّ بُنيَّ أنكَ، بابتِعَادِك عَن أجْوَاء السِّيَاسَة، وخَلَاصِكَ من المنظَّمات، صِرْتَ في مَأمَن ونَجَوْتَ من هذه الآفَة، وحَفِظْتَ وَلَاءَكَ خَالِصاً لأهْلِه، فَلَرُبَّما استَدْرَجَتْكَ صُورة مَرجع تَقْلِيدِكَ التي تطغىٰ وتُزَاحِم كُلَّ شَيءٍ في الحُسَينيَّة، وأخَذَتكَ إلىٰ هوُيَّة تَطْبَع مجلسكَ وتجعَله مُنتَسِباً إلىٰ "المرجع" لَا إلىٰ «الحسَين» عليه السلام!... فالتَّحَزُّب قَد يَنَال كَيَانات حَقٍّ، ويُفْسِد أنشِطَة خَيرٍ ومَواقع دِين خَالِص، كَالمسَاجِد والحسَينيَّات!

وهذا مَا أردتُه من تَنَاول الموضُوع هُنا... فإنَّ العَمَل الجماعيَّ، ومنه العَمَل في أنشِطَة الشَّعَائر الحسَينيَّة، إذا تَراتبَ ومضىٰ لِفَترة، وانغَلَق أو تمحْوَر علىٰ جماعَة مُعيَّنة، في نِطَاق الإدَارة والتَّنظِيم، والأدوَار والمهَام، وبتَعبِير آخَر، في نِطَاق المسؤوليَّة والسُّلْطَة، ثم امتدَّ ذلك رَدْحاً من الزَّمَن، قَد يخلُقُ ويَبعَثُ مِثْل هذه الحَالَة الخَطِيرة، ويَنْقَلِب علىٰ الهدَف لِصَالِح الطَّريق، وتَتَحَوَّل الوَسيلَة إلىٰ غَاية... فيُصْبحُ الوَلَاء لـ "الهيئَة" و"الموكب" لَا للشَّعَائِر، والانتِسَاب لـ "الحسَينيَّة" لَا «الحسين» عليه السلام!

بُنيَّ! كَما إنَّ هُنَاكَ خَيْطٌ رفيع، وتَدَاخُلٌ وتَشَابه يُورِث الشُّبْهَة بين التَّبذِير والإسراف وبين الجُود والكَرَم، وبَيْن الشُّحِّ والبُخْل، وبَيْن الاقتِصَادِ وحُسْنِ تَدْبير المعَاش، وبَيْن التَّوكُّل والتَّواكُل، وبَيْن الشَّجَاعَة والتَّهَوُّر، وبَيْن القُصُور والتقْصِير... كَذلك هُنَاكَ خَيْطٌ رَفيعٌ بين العَمَل في الموكب والهيئَة الحسَينيَّة، وبين العَمَل لها، وبين التَّعَصُّب للمَجْلِس الحسَيني والغِيرة علىٰ الشَّعِيرة والنَّهْضَة لإقَامَتِها، وبينَ أن يكُونَ ذلك كُلُّه علىٰ شَرط الانتِسَابِ لشَخْصِكَ ولمجْلِسك وحُسَينيَّتك وهَيئَتك ومَوكبك!

ثم يَعُودُ الأمرُ ليَأخُذَكَ إلىٰ منَافِذَ ومَدَاخِل غَايَة في الدِّقَّة والتَّعْقِيد والتركُّب، مُتَنَاسِبة مَعَ الرُّقيِّ والسُّموِّ الذي سَتبلُغ، فتَصِل إلىٰ حَيثُ يُصبحُ مجلِسُكَ رَمزاً لِقَضيَّة عَقَائديَّة وشَأنٍ دِينيٍّ خَطَير، نَهَضَ به واضْطلَع وتميَّز وانفَرَد، فَلَحِقَتهُ الخصُوصيَّة والتَّميُّز، الذي يَسْمَح، بَل يُحبِّذ الانتماءَ إليه والتَّحَزُّبَ لَه والدِّفَاعَ عَنه، وتَصِير حُسينيَّتُك عُنوَاناً يُشِير ويُرَوِّج لأمر حَقٍّ، يُكْسِبها القَدَاسَة ويُبيحُ التَعصُّبَ والانتِصَار لها!

وهنَا مَزالُّ أقدَام العُظَماء، ومَعَامِي البُصَراءُ الحكَماء، ومَضَالُّ العُلَماء الأتقِيَاء... فكَيف بِي وبك؟ ونَحنُ لم نَقطَع من الدَّربِ الطَّوِيل مِيلاً، ولم نَطْوِ من الطَّريق الشَّاقِّ مَنزِلاً ولا قَلِيلاً، لا في حِكْمةٍ غذَّتنا وعلْم اكتَسَبناه، ولا في رِيَاضَةٍ سَلَكْنَاهَا وعَمَل التزَمْنَاه؟

لِذَا، فَأنا مُوصيكَ بوَصَايا أرجُو أن تُنْجِيكَ من هٰذا المهوَىٰ، عَلَيكَ بُنيَّ أن تَعمَل بهَا، وتَتَجنَّبَ مَا يُخالِفها، لتَقْطَعَ الطَّريقَ علىٰ الدُّخُول في مَزالِقَ، والسُّقُوط في مَهَاوٍ أنتَ في غِنىً عَنْها، قد تَنتَهي بكَ إلىٰ آفةٍ تَعْجَزُ عن مكَافحَتِهَا، هي "التَّحزُّب" الباطِل، وتَلْوِيثِ وخَلْطِ وَلائكَ لـ «أهل البيت» ﷺ، واتِّخاذِ "وَليجَة" دُونهم، ومُطَاعٍ سِوَاهُم، وإن زيَّن لكَ الشَّيطانُ الأمرَ ودلَّسه، وغرَّر بكَ وألبَسَ علَيكَ، وهُو يُظهِره لَك باسمِهم الشَّرِيف وعُنوَانهم المقَدَّس!... إنها مَدَاخِلُ وأبوَاب، أوْصِدْهَا بُنيَّ بنَفسِكَ ولا تَفتَحْهَا يَوماً، لا لِرَغبة ولا فُضُول، ورِحَابٌ اجعَلْهَا مَحظُورة عَلَيكَ، طَوَاعِيَة، ولا تَسْمَح لِنَفْسِك الحركَة في أرجَائها، مَهْما دَفعَتْكَ الأجْوَاء وخَلَقَت لكَ المسَوِّغَات وأظْهَرَت الضَّرورَات.

إطلاق الاسم

من هٰذه المَدَاخِل والأبواب، إطْلَاق اسم علىٰ المجْلِس والحسَينيَّة (وهٰكذا الموكب والهيئَة)، وهو أمرٌ طَبِيعيٌّ، بل ضَرُورِي إلىٰ حَدٍّ مَا، تَفرِضه الحاجَة للتشْخِيص والتمْييز، سَواءٌ للتَّعريفِ بها أو الاهتِدَاء إليهَا... وقَد جَرَت العَادَة أن يُطْلَق اسمُ صَاحِب المجلِس ومؤَسِّسه ورَاعِيه، علىٰ مجْلِسه وحُسينيَّته، أو أن يَقُومَ هو بانتِخَاب اسْم يُطلِقه علىٰ مجلِسه وحُسينيَّته، يختَاره من الأسماءِ المبَارَكة لـ «أهل البيت» ﷺ أو أصحَابهم، أو آثارِهم ومَا يَتَعَلَّق بهم. وقَد يَلْحَقُ الاسمُ الحسَينيَّةَ نِسْبَة إلىٰ المنطقة أو البلَد الذي تكُون فيه، للقِدَم والأسبَقِيَّة، أو للشُّهْرة والعلَمِيَّة.

وهـٰذا هو المدخَل الأوَّل للتَّحَزُّب!...

فمِن الاسم ينْطَلِقُ ويَتكوَّن ويُبنى شَاخِصٌ، ولاَ أُريد أن أُعبِّر بنُصُبٍ وصَنَم. وحَولَ هـٰذا الشَّاخِص يَحُفُّ أهْلُه ويَلتَفُّون، وبه يَنْهَضُون ويَلُوذُون، وبعد فَترة تَراهُم عنه يذُودُون ويُدَافعُون، ولَه يَنْتَصِرونَ ويَبْذلُونَ ويُضَحُّون! ثم يكُونُ التعَصُّبُ الأعمىٰ والتَّحَزُّب التامُّ المَقِيت، ومن هُنَا تَنْشَأ الآفَاتُ والسُّلوكيَّات التي تَنحَرِف بالمؤمن عن دِينه، وتَطْمِس وَعْيَه وبَصِيرته، وتَسْتَلِب عَقْلَه وفِكْره، ثُم تُزْري بِوَلاَئه لـ «أهلِ البيتِ» عليهم السلام وتجعَله للحِزب وقَائده ورئيسه ومَشَارِيعِه ومَوَاقِفه!

ولتَجنُّب آفَات الاسم (الضَّرُورَة)، عَلَيكَ أن تحصُرَ الأمرَ في حُدُوده ونطَاقِه، كَعَلَم وأداةٍ للتعْرِيف ووَسيلَة للتمييز ليسَ إلَّا، وتَقِفَ عند هـٰذا، ولاَ تَسْمَحَ بخُطُوات تُركِّزه وتُرسِّخه كَعُنوانٍ لِشَيءٍ آخَر، ولاَفِتَة تحمِل وتَدعُو لمضَامين أُخرَىٰ...

خُطُوَاتٌ من قَبِيل تَصْوِير واتِّخَاذ "شِعَار"، ونَقْش رَسْم خَاصٍّ تختَصُّ به الحُسينيَّة أو الهيئَة، علىٰ غِرار مَا تَفْعَل الجمْعِيَّات والأنديَة، فلِلْوَهلَة الأُولىٰ يَبدُو الأمر شَيئاً جميلاً وحَسَناً، لاَ ضَيْر فيه ولاَ بَأس، ولٰكنك لَوْ تَدبَّرتَ، لَوَجَدتَه مَدْخَلاً لِتَرسيخ العُنوَان لاَ الحقِيقَة، وتكْرِيسِ الشَّكْل دُونَ المضْمُون، فالحُسَينيَّة (في حَقِيقَتِها وآخِر مَطَافِها) دَارٌ ومكَانٌ، ثـم كَيانٌ مَعنَويٌّ، كُلُّ دَوْره ومُهَمَّته هي إحيَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة، وطَرح رَسْم أو "شِعَارٍ" خَاصٍّ بالحُسَينيَّة لَيْسَ لَه مَوقِعٌ يُذكَر ومحلٌّ من الإعرَاب في مَنْظُومَة عَمَل الحسَينيَّة ونهُوضهَا بدَوْرِها.

وهـٰكذا التِزَام مَلاَبِسَ خَاصَّة للعَامِلِين أو "المنتَمِين" للحُسَينيَّة أو الهيئَة، من القَائمِينَ علىٰ إدَارتها وخِدْمَتِهَا وتَوْجِيه أنشِطَتِهَا، تُميِّزهُم عن بَقِيَّة المؤمنين المعَزِّين من رُوَّاد الحُسَينيَّة، وتَربطْهُم أو تجمَعهُم في شَكْل ومَظْهَر وَاحِدٍ مُشْترك، يختَلِف عن بَقِيَّة النَّاس. أو وَضْع بطَاقَات تَعْرِيف "بَاجَات" خَاصَّة مميِّزَة علىٰ الصُّدُور، أو كَقَلاَئدَ تُعلَّق في الأعنَاق وتَتَدَلَّى لِتُميِّز العَامِلين في الحسَينيَّة، عَن غَيْرهم من رُوَّادِهَا وعُمُوم المؤمنين.

وإن جَازَ ذلك بكَيفِيَّة تحصُر الأمر في المقْتَضَيات الأمنِيَّة، ونطَاق الضَّرُورَة التنظيميَّة والفَنِيَّة للعَمَل... ومن هُنا أنتَقِلُ إلىٰ التَّنظِيم.

التنظيم

لَا خِلَافَ فِي أنَّ التَّنْظِيم أمرٌ مَطْلُوبٌ، وضَرُورَة يَحكُم بها العَقلُ والشَّرع، ذلك في شتىٰ مَنَاحِي الحيَاة، ومُختَلِف حُقُول العَمَل، ومن ذلك أنشِطَة إحْياءِ الشَّعَائر الحسَينيَّة، فإنَّ للتَّنظِيم مَدْخَلِيَّةٌ كَبيرة في حُسْن إدَارة النَّشَاطِ ونَجَاحِه، وإجَادَة تَقْدِيم أنماطِ الشَّعَائر، وعَرْضها بصُورة تُعِينُ علىٰ بُلُوغ الهدَف، وتُسَهِّل إظهَارَهَا بالشَّكْل المطلُوب...

لٰكن إلىٰ جَانب هٰذه المحَاسِن وفي جِوَار المرجِّحَات التي تَدْعُو للأخْذِ بالتنظِيم، هُنَاكَ مَا يُقَابِلُهَا مما يجبُ الحذَر وأخْذُ الحيطَة من الوُقُوع فيه والأبتِلَاء به... فَلَا شَيءَ يَفتَح البَابَ علىٰ الحزْبيَّة، ويجرُّ آثارَهَا المدَمِّرة مِثْل التنْظِيم، فإنه يُشَكِّل وَاحِداً من أخْطَر مَدَاخِلها ومَعَالمها. لِذَا عَلَيكَ بُنيَّ أن تحذَر من أمرِ التَّنظِيم وتَحْتَاطَ حِيطَة شَدِيدَة منه، سَوَاءً من شَكْلِه وتَطْبِيقَاته وآليَّة العَمَل به، أو من لَوَازِمه وتَبِعَاتِه، فبِقَدْر مَا هُو ضَرُورة وفيه مَصَالح ومَنَافع، فإنَّه خَطَرٌ وتَتَبعه مَفَاسِد.

هُنَاك أُمورٌ حَذَّر الشَّارع المقَدَّس، أو الدِّين كَرِسَالَة وقِيَم ومَبَادئ وأحْكَام، وتَحسَّسَ منهَا، فسعىٰ إلىٰ ضَبْطِها وتَقْنِينِها، وحَصْر نِطَاقِها مَا ٱستَطَاع، لِعلْمِه بالتَّوَالي الفَاسِدَة والتَّبِعَات البَاطِلَة التي تَلْحقهَا... من قَبيل الرَّخَاءِ والرَّفَاه، وطَلَب رَغَد العَيْش والتَّرف، وفي حَدِيث "عَريش موسىٰ"(١) رِسَالَة ودَعْوَة، تُشِير إلىٰ أنَّ هُنَاكَ أُموراً لَو ألقيتَ فيها الزِّمَام وأخْلَيتَ القِيَاد وتَركْتَ الحبلَ علىٰ غَارِبه، لأخَذتْكَ إلىٰ مَا لَا يُحمَدُ عُقْبَاه، فَلَزِمَ أن تجعَل لها حَدّاً وسَقْفاً، وتَقِفَ فَلَا تَتَمادىٰ وتجارِي مَرامِيهَا البَعِيدَة.

---

(١) في (تهذيب الأحْكَام) لـ «الشَّيخ الطُّوسي» ج٣ ص٢٦١. عن «أبي عبدالله» عليه السلام قَال: سَمعتُه يقُول: إنَّ «رَسُولَ الله» صلى الله عليه وآله بنىٰ مَسْجِدَه بـ "السُّمَيْط"، ثم إنَّ المسلِمين كثروا فقَالُوا: يا «رسُولَ الله» لَو أمرتَ بالمسجِد فزِيدَ فيه؟ فقَال: نعَم. فأمَر به فزيدَ فيه، وبَنَاهُ بـ "السعِيدة". ثم إنَّ المسلمين كثروا فَقَالُوا: يا «رسُولَ الله» لو أمرتَ بالمسجِد فزِيدَ فيه؟ فقَال: نعم. فأمرَ به فزيد فيه، وبنىٰ جداره بـ "الأُنثىٰ والذَّكَر"، ثم ٱشتَدَّ عَلَيهم الحرُّ، فقالُوا: يا «رسُولَ الله» لو أمرتَ بالمسجِد فظُلِّلَ؟ فقالَ: نعم. فأمر به فأُقيمَت فيه سَوَاري من جُذوع النَّخل، ثم طُرِحَت علَيه العَوَارِضُ والخَصَفُ والإذخِر فعَاشُوا فيه حتىٰ أصابتهُم الأمطَار، فجَعل المسْجِدُ يكُفُّ علَيهم فقَالُوا: يا «رَسُول الله» لَو أمرتَ بالمسجِد فَطُيِّنَ؟ فقالَ لهم «رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله: لَا، عَريشٌ كعَريش «موسىٰ» عليه السلام. فلَم يَزَل كَذلك حتىٰ قُبِضَ «رسُول الله» صلى الله عليه وآله، فكَانَ جِدَاره قَبلُ أن يُظَلَّل قَامةً، فكَان إذا كَان الفَيءُ ذِراعاً، وهو قَدْر مِربَض عَنْزٍ يُصلي الظهْر، فإذا كَان ضِعْفَ ذلك صلىٰ العَصر. وقَال: السُّمَيْط لَبِنَة لَبِنَة، والسَّعِيدة لَبِنَة ونصْف، والأنثىٰ والذكَر لَبِنَتان مُخالِفَتان.

فالتَّنظِيمُ لَه أُصُولُه وطُرقُه، وهي لَا تَنتَهي ولَا تُفْضي (إن ٱنتَهَت يَوماً وأفْضَت!) إلَّا إلىٰ تَبَعيَّة المنَظَّمِين المطْلَقَة، وخُضُوعِهم التَّام، الذي يَسْلُبُ المؤمن العَامِل حُرِّيَّتَه ويحوِّله إلىٰ آلة ميكَانيكِيَّة، ويخلُق في نَفْسِه، تجاه الآمر، حَالَة الصَّنَمِيَّة والأنقِيَاد الأعمىٰ.

لَا بُدَّ لكَ في عَمَلِكَ أن تَترك هَامِشاً للعَفوِيَّة والأرتجَال، ومِسَاحَة لِلحَرَكَة الحُرَّة، ولَا أدعُو أن يكُونَ ذلك بَعِيداً عن الضَّوابط الضَّرُوريَّة، والحدُود اللَّازِمَة الوَاجِبَة (التي لَا بُدَّ منهَا للحُؤول دُون الفَوْضىٰ التي تُفْسِدُ الشَّعِيرة أو تَنَال من جَوْدَة العَمَل)، ولكن علَيكَ أن تُفرغ وتُخلي فُسْحَةً مَا، وتَتركهَا دُونَ أوامِرَ مُحدَّدَة، وضَوَابط مُلْزِمَة، لِيَتَحَرَّك العَامِلُ في نِطَاقِهَا برَأيه وٱجتِهَادِه، وكُلَّما ٱتسَعَ هذا النِّطَاق، وضَاقَ المنظَّمُ أو المنضَبطُ المحَدَّد بالأوَامر والتَّعلِيمات، بَعُدْتَ عن خَطَرِ الحزْبِيَّة وتحرَّرتَ من تَبِعَاتِ التَّنظِيم. لِذَا كُن بُنيَّ في التَّنظِيم كالمضْطَرِّ، وآكِلِ الميتَة، ولَا تَسْمَح لِنَفْسِكَ أن تَأنس وتَنْتَشي وأنتَ تَرىٰ العَمَل في حُسَينيَّتكَ يَمْضِي مُنْضَبِطاً كَالآلَة ودَقيقاً كَالسَّاعَة! اللهُمَّ إلَّا إذا كَانَ ذلك من عَطَاءِ الحُرِّيَّة، وكفَاية العَامِلين أنفُسِهم، وعَكَسَ تَفوُّقهم وإجادَتهم عَمَلهم، دُونَ أوامِر وتَعليمات، وبِلَا إرغَام وإكْراه، فَهُنا حَقَّ أنْ تَفْخَر بالنَّظْم وتَأنسَ به، فَهُو وَليدُ حَالَة صِحيَّة ونَتَاجُ نَزْعَةٍ رُوحَانيَّة مُتَألِّقة، لَا تَنْظِيمِيَّة حِزْبيَّة مَقِيتة.

إنَّ أعزَّ مَا يَمْلِك المؤمنُ هو حُرِّيَّته وخِيَاره، سَوَاء في دِينِه أو دُنيَاه، فالحرِيَّة والإرَادَة هي فَصْل الإنسَانيَّة وميزَتها، وبها تُقَيَّمُ الأشْيَاءُ والأعمال، ومن قَبلُ العِبَاداتُ، فَلَا عِبَادَة إلَّا بنِيَّة مُقَرِّبة وإرادَة حُرَّة، وصَبُّ العِبَادَة في قَالَب التَّنظِيم، ثم الأستِغرَاق في ذلك والتَّمادِي، سَيَجْعَل "العَابِدَ" مُنقَاداً إلىٰ مَسْؤُوله التَّنظِيمي أكثر من ربِّه "غَيْر المرئيِّ والمشْهُود"! ويجعَل حِرصَه علىٰ إرضَاءِ "جماعَته" و"تَنظِيمَه" وإتْقَان عَمَلِه والظُّهُور بما يَرفَع رَأسَه ويُحسِّن مَوْقفَه أمَامَهم، أعْظَمَ من مَوقع غَيبيٍّ غير مَنْظُور سَينَالُه يَوْم القِيَامة!

لَا تَسْلُب بُنيَّ المؤمنَ حُرِّيَّته تحتَ مُسمَّى تَنْظِيم العَمَل في الحسَينيَّة أو الموكب أو الهيئَة، ولَا تَقْهَره وتُرغمهُ و"تَسْتَعبِده" بٱسْم الشَّعَائر الحسَينيَّة كما تَفعَل الأحْزاب بٱسْم الجهَاد، فالقِيمَة كُلُّ القِيمَة أن يَنهَضَ المؤمنُ بهذا الدَّوْر من خَالِص عَزْمه، ومَحْضِ إرادَتِه، ومُطْلَق حُرِّيَّته، دُونَ إكْراه وإمْلَاء، يَأخُذُ عُنوَانَ التَّنظِيم وحُسْن الإدارَة ومَنع الفَوْضىٰ.

ولَـرُبَّما رَدَّ رَادٌّ على هـذا وقَال: إنَّ الشَّاب يَنقَادُ من تِلْقَاء نَفْسِه، ويَلْتَزِم بالتَّوْجيهَات والأوَامر حُبّاً وكَرَامَة، دُونَ إكْراهٍ ولاَ إرْغَام... فَإن صَحَّ ذلك وصَدُقَ، (وهو غَير صَحِيح في الأعَمِّ الأغْلَب، إذ الشَّبَابُ يُؤخَذُونَ بالأجْوَاء، ويَنقَادُون بِلاَ وَعي، ويحكُمهم عَقْلٌ جَمعِي)، فإنَّ هـذا لاَ يُعفِيكَ ولاَ يُسْقِط حَذَركَ من التَّنظِيم، فهـذه المطَاوَعَة والانْقِياد سَتَجُرُّ إلى التَّبَعِيَّة والفَسَاد، وسَتُغْري بالنَّزعَة الحزبيَّة وتُسَوِّل لها، وتَفْسِح لِذَوِي النُفوس المريضَة وتَفتَح أمَامَهم مَيْدَان الصَّيْد والكَسْبِ والاقْتِنَاص، فَيَلْتَقِطُونَ أمثَال هـؤلاَء الشَّبَاب، ويَستَغِلُّونَ حُسنَ نيَّاتهم، ويَستَثْمِرُون سَذَاجَتَهم وعفويَّتهم، لِيُنَظِّمُوهم في الأحْزاب ويُلحِقُوهُم بالجمعِيَّات، ويجنِّدوهُم كأتبَاع! لِذا علَيكَ أن لاَ تكْتَفيَ بعَدَم ممارَسَة الحزبيَّة، وتَقْنَع بالكَفِّ والإحْجَام عن اسْتِغْلاَل الحُسَينيَّة في مَشَارِيع تَنظِيميَّة، بل علَيكَ أن تَعْمَد إلى تَوْعية الشَّباب، وكَشْف الحقائق لهم، وتحصِينهم، لِتتكَوَّن لدَيهم مَنَاعَة، ويَعِيشُوا وَعْياً وبَصِيرة، على الصُّورة التي تَنبغي وتَليق بـ "خُدَّام" «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، فيَظهَر فَرْق الوَعْي بَينَهُم وبين التعَسَاء المنشَغلين بالجمعِيَّات والأحزْاب والانتِخَابات!

لِذَا علَيكَ أن تُتيحَ الفُرصَة للعَامِلين في الحسَينيَّة لاخْتِيَار الأدوَار التي يُريدُون، حَسْبَ قَنَاعَاتهم، فينْظُرُ كلٌّ أيَّ الأنشِطَة يُقَرِّبه من «المولى» عليه السلام ويُدْنيه أكثر؟ وأيّاً منْهَا يُفسِحُ لَه في الحركَة ويَسمَح لَه بالانْطِلَاق والإبدَاع، وإظْهَار مَهَاراته، وتَألُّقه في عِشْقِ مَخدُومِه، ولاَ يحدُّه ويحجِّمه؟... فيَخْتَاره ويَنشَغِل به. اللهُمَّ إلاَّ أن يَعيشَ أحَدُهُم مَرحلَة رُوحيَّة متقدِّمة، فَلاَ يُفَاضِل بين المهَام والأدوَار، ويَطْلُب مَا يجبُر النَّقْص ويَسُدَّ حَاجَة المأتم.

إنَّ النَّشَاط في الشَّعَائر الحسَينيَّة يُمثِّل فُرْصَة لِطَرْح نَمُوذَج عَمَليٍّ يُثبِتُ للمؤمنين العَامِلين في السَّاحَة السِّيَاسِيَّة، أنَّ العَمَلَ الجماعيَّ يُمكِنُ أن يَقُومَ ويَنْجَحَ ويتَألَّق دُونَ حِزبيَّة تجرُّ على السَّاحَة والأفرادِ العَامِلين فيها كُلَّ مَا نَرى من الآفاتِ الرُّوحِيَّة والعَمَلِيَّة، وتُبَرهِن ـ من جهة أُخرى ـ أنَّ هـذا الحقْل، أي إقَامَة الشَّعَائر، هو من صَمِيم الفِطْرة الإيمانيَّة، التي يتَّسِق أداؤهَا والعَمَلُ بهَا مَعَ المنْظُومَة الروُحِيَّة المنظُورة للمْؤمن، ولَيْسَت من مَقُولَة النَّشَاط السِّيَاسي الذي تَتَّجِر به الأحْزَاب، ويَلْزَمه كُلُّ ذلك الانْقِلَاب على القِيَم الرُّوحِيَّة والتعسُّف في تأوِيل المبادِئ الدينيَّة والأحْكَام الشَّرعيَّة.

عدَد الحضُور وحَجْم المجْلِس

من مَكَائد الشَّيْطَان ومَصَائِده، ومَدَاخِل الحزبيَّة وعبَادَة الاسْم والعُنْوَان، التي عَلَيكَ أن تحذَرهَا بُنيَّ... العِنَاية بعَدَد الحضُور والاهتِمام بحَجْم المجْلِس!

وكَما تحكي الآيَات القرآنية وتُقرِّرُ المفاهِيم الدينيَّة، لَا شَيءَ من الحقِّ والعَدْل إلَّا خَالَطَه ظُلْمٌ أو شَابهُ زيْفٌ ومَاثَلَه باطِل، فـ ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۝٢٧٥﴾ (البقرة)، فقَلَّ أن تجِدَ، في الخَارج، حَقّاً محضاً بيِّناً صَريحاً، لَا لَبْسَ فيه ولَا شُبْهَة، وهذا مِن قَضَاءِ الله وسُنَّته في تكَامُل خَلْقِه أن يَكُونَ عَبر الابتِلَاء، والصِّرَاع مَع حَرَكَة «الشَّيْطَان»، وقُدْرته في الاستِدْراج والتَّغْرير والإغْوَاء.

فالحقُّ أنَّ كِبَر حَجْم المجْلِس وتَعَاظُمَه، وتَوَسُّعَه وتمدُّدَه، وازدِيَادَ عَدَدِ الحضُور وكَثافته، هُو من الأُمور الحسَنَة المرغُوبَة التي تُسَاهِم في تحقِيقِ رِسَالَة المجْلِس من الإبلَاغ والإحْيَاء المنْظُور في الشَّعَائر الحُسَينيَّة، ولَا بَأسَ فيه ولَا عَيْب، بَل هُوَ مَطْلُوبٌ وممدُوحٌ... ولكن الخطَر في جَعْله هَدَفاً يُلَاحَق، وهَاجِساً يُقْلِقُ ويُتَابَع، تَنْصَبُّ عَلَيه الجهُود في الأنشِطَة والفَعاليَّات، وتُعقَد العَزَائم والنِّيَّات، فينْصَرِف صَاحِبُ المجْلِس والعَامِلُون فيه إلىٰ هذا دُونَ الأَصْل الأوَّل، أي مَرضَاة «المولىٰ» عليه السلام، وينْشَغِلُونَ به ويَستَغرِقُون، فيَصْرفهُم عن وَاجِبهِم الأصْلي ونيَّتِهم الحمِيدَة الأُولىٰ، فتَرَاهُ، شَيئاً فشَيئاً، صَارَ مُندَكّاً في سُلُوكِهم ووُجُودهِم، ليُصْبحَ هَدَفَهم الذي دُونَه التَّفريط بكُلِّ القِيَم والمبَادِئ والأحكَام، فاختِيَارُ الخطِيب (علىٰ سَبيل المثَال)، لَا يَكُون لِدينِه وتَقوَاهُ وعَقِيدَته، والرِّسَالَة التي يحمِل، والعِلْم الذي يتَمتَّعُ به، ودفَاعِه الحقِّ عن الدِّين والمذْهَب، بل لِشَعْبيَّته بين النَّاسِ وقُدْرته علىٰ اجتِذَاب العَدَدِ الأكبر من المسْتَمِعِين إلىٰ المجْلِس! ولَا يُبالي (صَاحِبُ الحسَينيَّة) بعد ذلك، إن كَان هذا الخطِيبُ فَاسِدَ العَقِيدَة، ولَا يَسْأل عن خَطَر نَشْرِه الضَّلَال والانحِرَاف في المجْتَمَع، ولَا يعنىٰ بتَسْويقه للأفكَارِ البَاطِلَة التي تَبْخَس «أهل البيْت» عليهم السلام حَقَّهُم وتتَنكَّر لفَضَائِلِهم وتُشَكِّكُ في مَقَامَاتهم! ولَا يحسَبُ لمسؤُوليَّته الشرعيَّة في التَّرويجِ لِضَالٍّ مُضِلٍّ، أو لمنَادٍ وداعٍ لمرجعيَّة مُزيَّفَة، تَأخُذُ الطَّائِفَة إلىٰ الانحِرَافَات والفتن!

كُلُّ ذلكَ في سَبيل الصُّورة التي يُريدُها لِحُسَينيَّتِه والمَوْقع الذَّي يَرجُوه لهيئَتِه، وهُو في سِيَاق الاَسم والعُنوَان، وفي مَسْعَى تَشْييدِ حِزْبٍ وإقَامَة جَماعَة وعُصْبَة!

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَقُومَ بوَاجِبك في الإعدَاد والتهَيُّؤ لاَستِقْبَال العَدَدِ المتَوقَّع ـ عَادَة ـ وَفْق حَجْم حُسينيَّتِك ومَكانتِهَا ودَوْرِهَا، والموقع الذي تتبَوَّأه، لَيْسَ علَيكَ بعدَ هـٰذا شَيءٌ، فَلَا أنتَ مكَلَّفٌ باَجتِذَاب النَّاسِ، ولَا النَّجَاحُ يكُون في كثرة العَدَد.

لَا تَغفُل عن هـٰذه الحقِيقَة العَظِيمَة والخطِيرة لحظَة...

إنَّ دَوْرَكَ ومَسؤوليَّتك تَنحَصِرُ في حُسْن الإعْدَاد وجَوْدة التَّحْضِير وإتْقَانِ العَمَل، وتَوْفيقكَ متوقِّفٌ علىٰ خُلُوصِ نيَّتِك وسَلَامَة قَصْدِك، وفَلَاحَك ونَجَاحَك مُتَعَلِّق بقَبُولِ العَمَل (لَدَىٰ الله عَزَّ وجَلَّ، ولَدَىٰ «أوْليَائه» عليهم السلام)، ومَا هُو إلَّا تحقُّق الشَّعِيرة الحُسيْنيَّة، ووُقُوع إحْيَاءِ أمرِ «أهل البيت» عليهم السلام... أمَا حَجْمُ الحضُور، وكبر المجْلِس أو صِغَره، وتَألُّقه علىٰ هـٰذا الصَّعِيد أو تَوَاضُعه، فهـٰذه أُمورٌ تحكُمها مَوَازين وضَوابِط وأسبَابٌ غَيبيَّة، لَيْسَ لكَ تأثيرٌ فِيهَا ولَا شَأنَ لكَ بها.

فَقَد يَكُونُ الخَطِيبُ الذي اَنتَخَبْتَ عَالِماً فَاضِلاً في قِمَّة الوَرَع والإخْلَاص، ونهَاية الوَلَاء، صَحِيح الفِكْر سَلِيم المعتَقَد، ويُقَدِّم مجلِساً يُؤدِّي رِسَالَة الشَّعَائر الحُسَينيَّة كَأفْضَل مَا يكُون، رِثَاءً وإبكَاءً، ثُمَّ عَرْضاً لِفَضَائِل «أهل البيت» عليهم السلام ودفَاعاً عَن الحقِّ، مُسْتَوْفياً الشَّرَائط الفنيَّة للمِنْبَر والخطَابة وَفْق الأُصُول وفي أعلىٰ المراتِب والدَّرَجَات، وهـٰكذا تكُون أنتَ، كَصَاحِب مجلِس ورَاعي مَأتم، في غَاية النَّزَاهَة وإخْلَاص النيَّة، وقَد اَستَوْفَيتَ مَا علَيكَ من العِلَل الطَّبِيعِيَّة لِنَجَاح مجلِسِكَ، لم تُقَصِّر في شَيءٍ من المقَدِّمَات والأخْذِ بالأسبَاب، ومَا يجتَذِب أكبرَ عَدَد من الحضُور... ثُم تَرَىٰ المجْلِس "أخْفَق" علىٰ هـٰذا الصَّعِيد و"فَشِل"، ولم يحْضرهُ إلَّا نَزرٌ يَسيرٌ من المؤمنين؟ وقَد يكُون هُناكَ مجلِس "ضِرار" أُسِّسَ علىٰ الضَّلَالِ والفَسَادِ من أوَّل يَوْم، لَا يُحسِنُ خَطِيبُه عُشْرَ مَا يُجيدُ خَطِيبُك، ولَا يُقَدِّم إلَّا الغَثَّ السَّخِيف، فإذا أرَادَ الاَستِدْلَال جَاءَ بهُراء، وسَاقَ هَـذْراً وأعَدَّ حَشْواً وقَالَ هَذْياً، ثم تَرَىٰ المؤمنين يُقْبِلُونَ عَلَيه ويَقُومُونَ في مجْلِسه، ويعمُرُونَه حتىٰ يَضِيقَ بهِم، ويَأخُذُون بضَلَالَاتِه، ويُؤمنُونَ باَنحِرَافَاته، فينْشَأوُنَ علىٰ أمرَاضِه وخُرَافَاته؟!

إننَّا لَا نَعْلَم المصْلَحَة والأسرار في هذا وذَاك... لَا نَعْلَم إلَّا ضَرُورة ووُجُوب مُرَاجَعَة أدَائنَا، والنَّظَرَ في سُلُوكنَا، عسىٰ ألَّا يكُون من أسبَاب هذه الظَّاهِرة، أمَّا مَا وَراء ذلك، فلَيسَ لنَا أن نَعْلَمه ولَا أن نُعَالِجه. عَلَينَا أن لَا نَعْتَني بعُزُوف النَّاس وإعْراضِهم، علىٰ الرُّغم من أنَّ "النَّجَاح" مُفْرحٌ مُبْهج، ولَعَلَّه يَدْخُل في قَوْله تعالىٰ ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (الصف)، إلَّا أنَّ "النَّصْرَ" في هذا الميدَان مَعقُودٌ في الملأ الأعلىٰ، ولَا شَأنَ له ـ في الحقِيقَة ـ بما يجري علىٰ الأرضِ، فَلَا تَأسَ عَلَيه، ولَا تكْتَرِثَ لَه، وكُن محلًّا لقَوْله تَعَالىٰ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾ (الحديد)، فإذا أقبَل الناسُ وعَظُم المجْلِس فبِهَا ونعمَ، وإن لم يكُن ذلك، فقَد كَفَاكَ الله المؤونَة، وأسْقَطَ عَنكَ التكْلِيف والمسؤولية.

لَا يُمكِنك بُنيَّ أن تَنْجُو من آفة التَّعَصُّبِ والمنَافَسَة، ومَرَضِ حُبِّ الشُّهْرة وطَلَبِ السُّمْعَة، وخَطَر التَّحَزُّب وطَلَب العُنْوان، والألتِفَاف حَوْل الأسْم والرَّسْم، إلَّا بتَجَاهُل هذه الأُمور، والتركيزِ علىٰ تَكْلِيفِكَ، وأن تَعيشَ رِحَابَ العَزَاء، وآفَاقَ أهله عليهم السلام ومُوَاسَاتهم في مُصَابهم، فتَلْحَق بدَرجَة محبِّيهم وشيعَتِهم. وعلَيكَ أن تَعِيشَ هذه بتِلقَائيَّة وعَفْويَّة، وتنْصَرِفَ إلىٰ شَأنكَ في إقَامة الشَّعَائر وتَنْقَطِع إلىٰ العَزَاء، مُنْفَصِلاً عن النَّاس، وإن كنتَ معَهُم في أوْسَاطِهم، ولكن لَا شَأنَ لكَ بهم ولَا ٱلتِفَاتَ إليهم يُشْغِلك عن الأصْل، اللهُمَّ إلَّا أنهم طَرِيقُك ووَسيلَتك للِقَاءِ «الإمَام» عليه السلام، فهُم أدَاةُ الشَّعِيرة وقِوَام المأتم. وأُرِيدُك بُنيَّ أن تَعِيشَ هذا الأمر دُونَ تكَلُّف وتَشَنُّج وتَعَسُّف، تَظْهَر فيه "مُعقَّداً"، مُنْطَوِياً علىٰ نَفسِك، سَيِّئ الخلُق، فَظّاً غَلِيظاً، تَتَعَمَّد أن يَنْفَضَّ النَّاسُ من حَوْلك، وكَأنَّ التَّجَمُّع دَاءٌ ومرَضٌ تُريد أن تَتَجَنَّبه! بل ٱمضِ في الأمر بتلقَائية ومُرُونة، حتىٰ يُصبحَ طَبْعاً فيكَ تمارِسه وتَعِيشه، فلَا تحفَل بالنَّاسِ ولَا تَعْبَأ، وأنتَ ـ في الوَقْتِ نَفسه ـ بينهُم، تجُول وتَدُور وتسعىٰ، تُظْهِر المحبَّة والمودَّة والتَّرحِيب، لَا يَشْعُرُونَ بٱنفِصَالك وسَبْحِكَ في آفَاق بَعِيدَة عَنهُم. ثُم تَلتَزِم ذلك، دُونَ أن تُشْعِر الآخَرِين بالحَرَج من تخلُّفِهم عَن هذا السُّلُوك الرَّاقي وٱنغِماسِهم في ضِدِّه، اللهُمَّ إلَّا أن تُرَبِّي عَلَيه أهلَ بَيْتِكَ وخُلَّص صَحْبِك، فتَدْعُوهُم لِتَجَاهُل العَدَدِ وحَجْم الحضُور وكَثَافَة الجمُوع، دُونَ أيِّ ضَغْطٍ أو تَعَنُّت.

ثم اَعْلَم أنَّ جُلَّ الأمرِ علىٰ هـٰذا الصَّعِيد، إن لم يَكُن كُلُّه، غَيْبٌ في غَيْب!

ولَعلَّك تَتَذكَّر مجلِسنَا في «قُم» كَم كَانَ حَافِلاً مُكْتَظّاً، وكَانَ حُضَّارُه في فَتْرة من الفَتَرات يُنَاهِزُ ألفاً (علىٰ الرُّغم من أنه كَانَ في البَيْتِ، لَا في حُسَينيَّة كَبيرة تَسْتَوْعبُ العَدَد)، فيهِم عُلَماء في مَرتَبة الاَجتِهَاد، بَعْضُهُم من مَرَاجع التَّقْلِيد، ووُزَرَاء ونُوَّاب، وقَادَة ومَسؤولين... ثم دَارَت الأيام وتَقَلَّبت الأحْوَال وتَبدَّلَت، حتىٰ كُنَّا ـ في ذلك المجْلِس ـ لَا نَتَجَاوَز خمسَة، معَ مُقْرئنا! فَلَا نَفَعَنَا تَنَامِي العَدَد، ولَا ضَرَّنا تَضَاؤُله، ولم نَخْرُج من المجْلِس في الحالَتَيْن إلَّا بما عَقَدنَا النيَّة عَلَيه، وصَرَفْنَا العَزْمَ إليه من نَزَاهَة القَصْد وصِدْق الوَلَاء.

ثُمَّ إنَّ القِيمَة ـ علىٰ صَعيدِ الحضُور ـ هي للكَيْفِ لَا للكَمِّ، فإن كَانَ للكَمِّ شَأنٌ وقيمَة كَعُنصُرٍ في قِوَام الشَّعِيرة وتحقُّقِهَا، فهُو تكْلِيفٌ كَما هُوَ تَشرِيف، يَزُولُ لمصْلَحَة، ويَنزوِي أو يَنْقَضِي لحِكْمَة، فَلَا تَغْتَرَّ به ولَا تَنشَغِل، ولَا تَعْمَل لَه ولَا تَحسَب، ولَا تُبَالِ، واَسْعَ أن لَا تجعَلَ لَه مكَاناً في تَفكيرك، ولَا مَوقعاً في نَفْسِك.

لَن تَشْعُرَ بُنيَّ بلَذَّة القُرب، ونَشْوَة إرضَاءِ سَادَتِك ومَوَاليك، إلَّا بالاَنقِطَاع إليهِم في إقَامَة العَزَاء، واَستِشْعَار أنهُم ﵈ المخَاطَب الأصليُّ والمنظُور الحقِيقيُّ والمرادُ الجِدِّيُّ من كُلِّ الجهُود التي تَبذلها في إقامَة المأتم.

وفي خِتَام هـٰذا البَاب، دَعني أسرد لكَ قِصَّة شَهيرة، لَعَلَّها تحفِّز نَوَازع الخيْر في نَفْسِك، وتُحسِن تَوجيهها، إلىٰ الغَايات والأهْدَافِ الحقَّة في هـٰذا الباب.

كَانَ هُناكَ مجلِسٌ أُسبُوعيٌّ رَاتِبٌ علىٰ مَدَارِ العَام، يُعْقَد في بيْت، ولم يكُن يحْضُره إلَّا قِلَّة قَليلَة، وكَانَ أحْيَاناً يَنفَرِدُ فيه صَاحِبُ البيْتِ مع القَارئ دُونَ ثَالِث! بل كَان الأمرُ يَبلُغ أن يَتَغيَّب صَاحِبُ الدَّار، لِطَارِئ يَلزَمه، فَلَا يتَمكَّن من الحضُور، فكَانَ يُسَلِّم مفْتَاح دِيوَانه للخَطِيب، ويُنقِدُه أجْرَه سَلَفاً، ويَطْلُب إليه أن يَقْرأ المجْلِس ثم يُغلِق الدِّيوَان ويذهَب!... وفي مرَّة من تِلك، وبينَما كَانَ الخطيبُ مُستَغرِقاً في قِراءَته، والمجلِسُ خَالٍ، رَاحَ يحدِّثُ نفْسَه ويَلُومها: مَا لي أُخَاطِبُ الجدْرَان والأثَاث؟ لَا أحَدَ هُنَا، فَما هـٰذا الذي أصْنَع؟! فأمْسَكَ وصَمَت، ثم تَرجَّلَ وأغْلَق المجلِس ورَحَل، وعَزَم أن لَا يَقْرَأ بعدَ اليَوْم في مجلِس لَا حُضَّار فيه، فَهو لَيسَ بمَجنُون حتىٰ يحدِّث نَفْسَه!

يَقُولُ هذا الخَطِيب، إنَّه بَعدَ أن قَرَّر تَركَ القِراءَة، رأىٰ في عَالَم الرُّؤيَا أفوَاجاً من الملَائكَة، رَعيلاً يتبعُ رَعيلاً، كَانوا يُعَاتِبونَه علىٰ قَطْعِه القِراءَة، ويُبلِغُونه بأنهم سَبَقَ أن دَوَّنوا أسماءَهُم طَلَباً للرُّخْصَة في الانتِقَال من عَالَمِهم لحضُور المجْلِس منذُ سِنين، وأنه خَذَلَهم بتَعْطِيلِه، وصَارُوا يُطَالِبُونَه بالعَوْدَة، ويخبرُونَه أنَّ مجلِسه مُكتَظٌّ بالملَائكَة والجنِّ النوَّح!

الأنشطَة الجانبية

من الأُمور التي تُشَكِّلُ مَدْخَلاً للتَّكَتُّل والتَّمَحوُر، وظُهُور الاسْم والرَّسْم والعُنوَان، ثم تَعظِيمه والالْتِفَاف حَولَه، مَا يُفسِح للحِزبيَّة ويَفتَح البَابَ أمَامَهَا، ويُذْكِي من بَعدُ الانْتِماء والتَّعصُّب وبَقِيَّة الآفات...

القِيَام بغَيْر الشَّعَائر من الأنشِطَة والأدوَار الدِّينيَّة، والدُّخُول في الأعْمال الجانبيَّة، التي ليسَت من صَمِيم الشَّعَائر الحسَينيَّة، كَالإعلَامية والثَّقَافِيَّة والاجْتماعيِّة، فهذه وإن كَانت - في نفْسِها - مَشْروعَة حَسَنَة، ولَعلَّها مَطلُوبة، قَد تَفرضها المسؤوليَّة الشرعيَّة، في ظِلِّ خُلوِّ السَّاحَة، وإلحَاح الضَّرُورة، التي تجعَل الأمرَ مُتعَيَّناً في بعضَ الأحيَان والحَالَات... إلَّا أنها لَيْسَت من شَأن ودَوْر الحسَينيَّـة، إنَّما ظَهَرَت وصَارَت مُصَاحِبَة لأنشِطَتِهَا، منذُ أن تَرَسَّخَت بَعضُ الحُسَينيَّات كَكِيانات سِيَاسيَّة، بل نَشَطَت بَعضُ الأحْزَاب في مَيدَان الشَّعَائر فأسَّسَت لها حُسَينياتٍ، كَانت - في حَقِيقَتهَا - غِطَاءَ للحِزْب وأنشِطَته، فرَأينَا أنها صَارَت تَتَدَخَّل في بَقِيَّة الميَادِين والحقُول الغَريبَة عَنهَا.

فإذا اضْطَرَرْتَ إلىٰ شَيءٍ من هذه الأنشِطَة والأعْمال، فعَلَيْكَ أن تَتَقَيَّد بضَوَابِطَ وتَلتَزِمَ نَهجاً صَارِماً، يُنْجِيكَ من الحزبيَّة ولَا يُفضي بكَ إلىٰ آفاتها، وبَعضُها خَفِيَّة مُلْتَبِسة ومُتلَبِّسَة، يُنكِرهَا من يَقَع فيها ويأبىٰ نِسبَتَها إلَيه، وهُو رَاسِبٌ فيهَا وغَارِق!

إذا قَامَت حُسينيَّتُك بعَمَل ثَقَافي، كإصْدَار كِتَابٍ حَوْل الشَّعَائر الحسَينيَّة، أو سِيرة إمَام من أئمَّتِنَا، أو الدِّفَاع عن قَضِيَّة عَقَائدِيَّة، أو أيِّ شَأن دينيٍّ آخر... تجنَّبْ بُنيَّ أن تُدْرج اسْم الحسَينيَّة في الطَّبْعَة، وأن تُنوِّه بالنَّاشِر، فأنتَ تُريد الكِتَابَ والموضُوع، وتَقصِد المادَّة العِلميَّة التي يَحتَويها ويَتَضَمَّنها العَمَل المطْبُوع، ولَا يهمُّكَ (في المفترَضِ) سِوَىٰ ذلك، فَماذا يَعني عِندَهَا العُنوَان، غَيْر الدعَاية والتَّسْوِيق وتَرسيخ الكَيان؟

وقَد أسْلَفتُ لكَ سَابقاً عن الحَالَات التي يتَحَوَّل فيهَا الأسم إلىٰ عُنْوان حَقٍّ، وتَكُون الدَّعْوَة لَه دَعْوَةً وتَرويجاً للدِّين وانتِصَاراً ودفَاعاً عن المذهَب، لكنه بَابٌ لَا تَستَطِيع أنتَ أن تَدْخُلَه، فأغلِقْه والتَزِم السَّلَامة. وقَد رَأينا الذِّين دَخَلُوه، كَم وَسَّعوا فِيه وتَهاوَنُوا، حتىٰ انسَلَخَت عَنه حَقيقَتُه، وتبرَّأت عن سُلُوكهم واتجارِهم المَقِيت!

وقَد يكُون ذِكْر الأسم وتَحدِيد النَّاشِر (والدَّاعي المتبنِّي للعَمَل الثَّقَافي) رَاجِحاً لِعلَّة أُخرىٰ مَشْروعَة، كَجَذْب القَارِئ واستِمالَته إلىٰ الكِتَاب، فبَعضُ الأسماءِ لها بَريقُهَا، وتُشَكِّل دَافِعاً يُسْهِم في تَحقِيقِ الهدَف... وهَا أنا مُحذِّرك بُنيَّ من هذا أيضاً، فأنتَ في غِنىً عَنه، والأمرُ في ميزَان التَّفَاضُل والمقَارنَة، لَا يَستَحِق هذه المغَامَرة، فالزَم نَهْجَك، وانصَرِف لِتَزكيَة عمَلِك في حُسَينيَّتِك، خَيرٌ لَكَ من جَذْب قَارِئ إلىٰ كِتَاب! وكَما يَقُولُ الفُقَهَاء "الاحْتِمالُ ضَعِيفٌ، لكن المُحْتَمل خَطِير"، فإنَّ الضَّررَ إذا كَان خَطِيراً، فإنَّ احْتِماله وإن كَان ضَعِيفاً يُوجِبُ العَمَل، لأنَّ المُحْتَمَل قَوِيٌّ وخَطِير، وأنتَ هُنا تُغَامِر بإفسَادِ أعظَم عِبَادة، وأخطَر دَوْر يُمكِن أن تَنهَض به، أي إقَامَة العَزَاء علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، تجعَله في مَهَبِّ الرِّيح في سَبِيل عَمَل ثَقَافي، مَهْما بلَغَت أهميَّتُه؟! بل أنتَ بِصَدَد خَلْق مِثالٍ في هذا الميدان، وحَالَة تُشكِّل نَمُوذَجاً وقُدوَة تُتِمُّ بها الحُجَّة علىٰ المتهَاوِنين والعَابِثين والمبتَدِعين! فلَا تُفرِّط بهذا بأيِّ ثمَن، وعُضَّ عَلَيه بالنوَاجِذ، وإن ظَهَرْتَ في أعيُن الغَافِلين متَعسِّفاً متَشَدِّداً ومتَطرِّفاً، فما همُّك لَو قَال الناسُ عن جَوْهَرة في يَدِكَ أنها حَجَر؟

وكَذا، لَيسَ من شَأن الحسَينيَّة أن تُقِيم دَوراتٍ صَيفيَّة للأطفَال والشَّباب، ولكن إذا حَكمَت الضَّرُورة، وقَضَت المصلَحَة الشَّرعيَّة، لمواجَهَة التَّيارَات الضَّالَّة التي تَستَمِيلُهُم، وتُفسِد عقَائدَهُم، فلَكَ أن تَفعَل، ولكن بانصِرَافٍ تامٍّ إلىٰ جَوْهَر الأمرِ ولُبِّ المقصَد، لَا إلىٰ الشَّكْل والمظهَر والدِّعَاية، والصَخَب المصَاحِب والبَهْرَجَة الملَازِمَة، التي نَرَاهَا كَيفَ تطغىٰ علىٰ الهدَفِ الأسَاس لمثْل هذه الأنشِطَة والأعمالِ، فالدَّوْرَات الصَيفيَّة تَصْرِف في التَّرفيه واللَّعِب والتَسْلِيَة، أضْعَافَ مَا تُقَدِّمه من مَادَّة دِينيَّة عَقَائدية، وكَأنَّ الهدَف هُو إرضَاءُ الأطفَال، وجُلُّ الهمِّ والحِرص يَنْصَبُّ علىٰ جَذْبِ الحضُور وتَعظِيم العَدَد وتكْثير السَّوَاد، مَا يَنتَهِي إلىٰ تَرسيخ الكَيان وخَلْق التكَتُّل.

هٰكذا الأمرُ في النشَاطِ الإعْلَامي، حِين تُطْبَع مُلصَقَاتٌ أو لَوْحَاتٌ إعْلَانيَّة في المناسَبَات الدِّينيَّة، تُرشِدُ إلىٰ حَدَثٍ، وتُنوِّه بمُنَاسَبة، أو تُروِّجُ وتَدعُو لفِكْرة وتحثُّ علىٰ عَمَل، فَلَا حَاجَة ولَا ضَرُورة لإلحَاق ٱسْم الحسَينيَّة بهٰذا الإصْدَار، فيَخْتَلِط الترويجُ وتَتَدَاخَل الدَّعْوةُ بين لَوْحَة فَنيَّة تحكِي "عَصْر عَاشُوراء" (علىٰ سبيل المثَال)، وٱسم النَّاشِر أو الجهَة التي بذَلَت لِطباعَة وتَوزيع هٰذه اللوْحَة!

أمَا النَّشَاط الأجتماعي، فأنا مَانِعُك عنه مَنْعاً باتّاً!

لَا تَسْمَح بُنيَّ بأيِّ نحْوٍ لزيَارَاتٍ مُتبَادَلة مَع هَيئَاتٍ أو حُسَينيَّات أو شَخصيَّات... فتَقُوم "بِعثَة" و"وَفدٌ" من حُسينيَّتِك بزيَارة حُسَينيَّة أُخْرىٰ، وتَستَقْبِلُ أنتَ "بعثَة" و"وَفداً" يَزُورُ حُسَينيَّتكم! ولَستُ بهٰذا أمنَعُ التوَاصُلَ وتَبادُل الزيَارَات بين العَامِلين في حَقْل الشَّعَائر، النَّاهِضِينَ بعَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، كَلَّا، فهٰذا مَطلُوبٌ - في حُدُوده - وممدُوح، وقَد يكُون من التَّوَاصُل الضَّرُوريِّ والتَّلَاقي المثمِر المبَارَك، فَفِيه تَبادُل المعْلُومَات والخبرات، والتَّعَاوُن في خَيْر الدِّين والعَقِيدَة، وربَّما التَّنسِيق الذي يُنَظِّم المجَالِس والموَاكِب ويَمنَع تَقَاطُعها، ويحدُّ من أجْوَاء المنَافَسَة التي يختلِقُهَا الجهَلَة من الروَّاد، أو من "الأتبَاع" و"الأنصَار"، ولٰكن يجبُ أن يَتِمَّ ذلك ويَكُون بتِلقَائيَّة وحَالَة طَبيعِيَّة، بَعيدَة عَن طُقُوس تَشكِيل الوُفُود، وٱبتِعَاث مَندُوبين ممثِّلين، مما يَحكي الحَالَة الرَّسمِيَّة ويَنمُّ عَن وُجُودِ مَا، يُرسَل ويَبتَعِث ويُمثِّل! مَا يُرسِّخ الكَيان والتكتُّل ويَنتَهي إلىٰ الحزبيَّة.

نعَم، لَا بَأس بٱستِقْبَال هَيئَاتٍ مُسَافِرة، قَادِمَة من بَلَدٍ آخر... فهُنَاك حُسَينيَّات تَنقُل نشَاطَها في بَعضِ المنَاسَبَات إلىٰ بِلَادِ العَتَبات، فتَقُوم حُسَينيَّات تِلكَ البِلَادِ بٱستِقْبَالهم وضيَافتِهم، وتَسهِيل أُمور نُهُوضِهم بالعَزَاء وهُم في غَير بلَدِهم. دُونَ الغَفلَة عن وُجُوب أن يكُونَ ذلك بِشَرطه وشُرُوطه، ومن شُرُوطِه أن لَا يَكُون مَن تَتَعَاوَن معَهُم وَاجِهَة حِزبيَّة، ولَا يَكُونُوا من حَمَلَة ومُروِّجي أفكَارٍ مُنْحَرِفَة، وأنصَاراً للضَّلَال.

ولَا تَقُم بُنيَّ بعِيَادَة المرضىٰ، ولَا بتَقْدِيم المسَاعدَات للفُقَرَاء، والإحْسَان إلىٰ المحتَاجِين بٱسم الحسَينيَّة! قُم بذَلك كُلِّه بٱسْمِكَ الشَّخْصيِّ، أو ٱكْتُمْهُ ولَا تُعْلِنه (حَسْبَ الظرُوف والموَارِد، ومُرجِّحَاتِ السرِّ من العَلَن)، بَعِيداً عن الحُسَينيَّة...

وقَد يَعُودُ قَائلٌ لِيَقُول، إنَّ الحسَينيَّة إذا أخَذَت مَوْقعَ الثَّغْر العَقَائدِي، والجبهَة التي تَتَصَدَّىٰ للضَّلَال والأنحِرَاف، وكَانت تَنشُر العَقَائِد الحقَّة والأفكَارَ الأصِيلَة، تُصْبحُ الدِّعَاية لها رَاجِحَة، وتَغْدُو مَطلُوبة، فأَيُّ ضَيْرٍ في عِيادَة مَريضٍ بأسمِهَا، حتىٰ إذا شَفَاهُ الله، جَاءَهَا وأصْبَحَ من رُوَّادِهَا، وتَزَوَّدَ من الفِكْر الصَّحِيح الذِي تُرَوِّج لَه، ونَهلَ منه؟ وهٰكذا الفقِير الذي تَصِله، وصَاحِب الحَاجَة الذي تُحسِن إليه؟...

إعلَم بُنيَّ أنَّ هٰذه كلُّها أُمورٌ حَسَنَة راجِحَة، وكَلِماتُ حَقٍّ، لَا أقولُ إنَّه يُراد بها باطِل، ولٰكن أقول إنَّها ستَنتَهي بالحسَينيَّة إلىٰ الخرَاب والدمَار (علىٰ صَعِيدِ الرُّوح والمعنىٰ) وهي تَأخُذهَا إلىٰ التَّحَزُّب، وهو بَاطِلٌ بلَا شَك! فهٰذه كلُّها أنشِطَة خَارِجة عن تخصُّصِ الحسَينيَّة، وأدوَارٌ غَيْر مَنظُورة لها في الأصْل، يَعْمَد إليها مَن يُريد تحويل حُسَينيَّته إلىٰ حِزْب أو عُنوَان وَجَاهَة، بل لَا تكُون إلَّا في أحزاب ظَهَرت علىٰ شَكْل حُسَينيَّات!

ثـم لَا أزعُم أنَّ هٰذا بَاطِلٌ كلُّه، مَرفُوضٌ محظُور، ولكنَّ إعمال العَنَاوِين الثانَويَّة، وتَشخِيص الموَارِد والتطْبيقَات، لَيسَ من شَأنِك ولَا في وُسعِك، ولَا أنتَ اليوم في درجَته... فهٰذه لَعَمْري مَزالُّ الأقدَام التي لَا يَسْلَمُ منهَا إلَّا الأوْحَدِيُّ، ولَا يُحسِنُ فَرْزَ الإلهيِّ منها عن الشَّيْطَانيِّ إلَّا مَن قَطَع أشوَاطاً، وسَبَر أغوَاراً، وأمضىٰ عُهُوداً، حتىٰ تَنَزَّه وتَرفَّع، وأرتَاضَ وخَضَع، ممَّن خَمَدَت فيه الشَّهَوات وأنطَفَأت الرغَبَات، وغَلَب أهوَاءَه المُضِلَّة، ثم غَلَبه العِشْقُ والهوَىٰ! عِشْقُ «المولىٰ» وهَوَىٰ خِدْمته، وعَاشَ هُيَامَ الخَادِمِ في حُبِّ مخدُومه، فلَا يَعود يَرىٰ سِوَاه، ولَا يُبالي بالأسم والرَّسْم، والسمْعَة والشُّهْرة، والقِيل والقَال.

وبَعدُ، فَقَد تجِدُ بُنيَّ في بعضِ المَوَاقع خَرْقاً لهٰذه الفِكْرة، فَلَا تَرىٰ التبِعَات المهْلِكَة التي ذكَرتُها لكَ عن الحزبيَّة، فلَرُبَّما أرتكَزَ العَمَلُ في بَعضِ الحُسينيَّات علىٰ الأسم، والتَفَّ العَامِلُون حَوْلَه وتَعصَّبوا لَه، ليتَحوَّل بعدَ فَترة إلىٰ "حِزْب"، ولٰكنه "حِزْبٌ حُسَينيٌّ"، و"تَنْظيم" إلهيٌّ يُريدُ إحْيَاء الشَّعَائر، وخِدْمَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، فأيُّ ضَيْرٍ في هٰذا وأيُّ بَأس؟ إنهم فِتْيَةٌ قَامُوا لله، وجَمَاعَة بَعِيدُون عَن السِّيَاسَة ومَهَالِكهَا، مُنقَطِعُونَ في وَلَائهم لِعَمَلهِم، مُنصَرِفُون إلىٰ الأنشِطَة المتنوِّعَة التي تَقُومُ بها أية حُسَينيَّة "تقليديَّة" أُخرىٰ، لَا يختلِفُون في شَيء، إلَّا هٰذه "اللُّحْمَة" التي تجمَعهُم، و"العُصْبة" التي تَلفُّهم؟

ألَا يُسقِطُ هذا، الفِكْرةَ التي نَظَّرْتَ لها وأمرْتَ بها؟ ويُظْهِر الأمرَ مجرَّد تحسُّسٍ وتَوجُّس، لَا يَنبَغي أن يُعَمَّم ويَشْمَل السَّاحَة كَمَبدَأ يَلتزِمه العَامِلُون في إحيَاء الشَّعَائر؟

والجوابُ عَن هذه الشُّبهَة يتَّجِه إلىٰ النَّقْضِ، بَعدَ أن تكَفَّل العَرضُ السَّابِقُ الجوابَ الحَلِّيَّ... نعم، قَد يَنجُو مثْل هذا العَمَل ويَسْلَم من التَّحزُّب السِّيَاسي، ويتَحَرَّر من التبعِيَّة لتكَتُّل يُريدُ اَستِثْمار الشَّعَائر في مَصَالحه الخاصَّة، لنَزَاهَة القَائمين وخُلُوص نيَّاتهِم، واَنصِرَافِهم واَنقِطَاعِهِم إلىٰ المَيْدَان الحَق... ولكن هَل ستبقىٰ ثَابِتَة نَائِيةً عن مُؤثِّرَات السِّيَاسَة وفي مَنأىً عن مَدَاخِل الشَّخْصَانيَّة والنفَّعِيَّة والاَتِّجار المقِيت وهي في مَعرِض ذلك كُلِّه؟ كَأنكَ تَقِفُ تحتَ سَماءٍ مَطِيرة، ثُم تَزعُم السَّلَامَة من البلَل لمظَلَّة تحمِلهَا، أو تركَب البَحْر في يَوْم عَاصِفٍ هَائج مُراهِناً علىٰ مَتانة سَفِينتك!

ثم هَل ستَنْجُو الشَّعَائر الحسَينيَّة من الفَسَاد والاَنحِرَاف الذي سَيُصيبهَا، والتَّشْوِيه الذي يتَهَدَّدُهَا، لَوْ تَعمَّمَت الحالَة واَطَّرَدَت، وغَدَت مَسْلَك جَميع الهيئَاتِ والحسَينيَّات وديْدَنهم، وصَارَت طَريقَتَهُم ومَنهَجَهُم؟

لقَد عِشتُ بُنيَّ ورَأيتُ بنفَسي التنافُس والصِّراع الذي كَانت تَعيشُه الأحْزاب الإسلَاميَّة العِرَاقية في مَهْجَرِها، وكَيف اَنعكَسَ ذلك علىٰ الحسَينيَّات والشَّعَائر؟ ومَا أخْطَر ذلك الأداء لَو كُتِبَ لَه الاَستِمْرَار، وبقِيَت الدَّائِرة الإيمانيَّة (التي تَنهَضُ بالشَّعَائر) محصُورة في الأحْزَاب والحركَات، فالشَّعبُ في قَمْع واَضْطِهَاد يَمنَعه عن مجرَّد عَقْدِ قِراءَة سِريَّة خَفِيَّة. كَانتِ المَوَاكِبُ تخرُج بأسم "أنصَارِ الحسَين"، واللطْم والحماس، والغَيرة والحمِيَّة، بل الحضُور وتَكْثِيفه، والدَّعْوَة إليه والسَّعْي لجَمْع العَدَد الأكبر، كُلُّ ذلك للحِزْب الذي تَنتَمي إليه الهيئَة، وبهدَف الظُّهُور بالصُّورَة الأقوىٰ التي تَفْرِض رُؤيتها علىٰ السَّاحَة، وتَنتزع الهامِش الأكبر من الإمكَانيَّات والصَلَاحِيات والسُّلُطَات!

مَوَاكِبُ تلطُم علىٰ مِرجعِهَا الفَقِيد أو النَّاشِئ الذي تُريدُ ترويجه! وأُخرَىٰ علىٰ زَعيمِهَا المظلُوم الشَّهيد، وثَالثَة علىٰ مَدينَتِهَا المهْجُورة بغِيَابه والموحِشَة بفَقْدِه! ورابِعَة علىٰ مجُاهِديهَا الأسرىٰ في زنزانَات العَدُو... ولَا صَوْتَ لـ «الحسين» ولَا حُضُور، ولَا بَواكيَ ولَا نَوَادِب! وهو صَاحِبُ الذكْرىٰ وأسَاسُ الشَّعِيرة؟!

ولَيسَ هٰذا لمجَرَّد فَسَادِ تلكَ الأحْزَاب وتخلُّفهَا، حتىٰ يَقُولَ قَائِلٌ إنَّ الحزْبَ الإسلَاميَّ الأصَيل، والمنظَّمة الدِّينيَّة التي تمَضِي علىٰ الحقِّ، لَن تَقَعَ في هٰذه الآفات... بل هُوَ طَبْعٌ في القَضِيَّة، ولَازِمٌ لَا يَنفَكُّ عَنهَا. إنها مُعَادَلَة ثَابتَة، وحَقِيقَة لَا يُشَكِّك فيهَا إلَّا جَاهِل سَاذج، أو مُغَالِطٌ ومُكَابِر، ومُغْرِضٌ في قَلْبِه مَرَض، يُريدُ أن يُفسِدَ الدِّين، لِصَالح دُنْيَاه التي وَجَدَهَا في هٰذه الأحْزَاب والمنظَّمات.

المنافَسَة والمغَالَبَة

مما يَنبغي الحَذَر منه بُنيَّ، والخوْفُ من الوُقُوع فيه، هُو المنَافَسَة والمغَالَبة... وهي آفَة تُصِيبُ كُلَّ عَمَل ذِي بُعدٍ اجتِماعيٍّ يتَعدَّد النَّاهِضُونَ به، ولَا سِيَّما إذا اتَّخذَ شَكْلاً جماعيّاً وانطَلَق من حَالَة فِئَوِيَّة، ولَا يَنْجُو منهَا مَيدَان الشَّعَائر الحسَينيَّة، الذي قَد يتَحَوَّل إلىٰ مضمارٍ يسعىٰ كُلٌّ لإثبات "ذَاتِه" وتكْرِيس "عُنوَانه".

فقَد نَرىٰ المنافَسَة تَقَع بين أصْحَاب الهيئاتِ والمواكِب والمجَالِس والحسَينيَّات... يسعىٰ كُلٌّ لجذْبِ الشَّبَابِ صَوْبه، واستِقْطَاب الجماهِير تجاهَه، و "إعْمار" حُسَينيَّته بالحضُور والكَثَافَة العَدَدِيَّة، أو الحُظْوَة بالسَّبْق والأولَوِيَّة في مَوَارِد الحركَة (بالنِّسْبَة للمَوَاكِب والمسيرَات)، أو التَّوْقيت والسَّاعَة الأنسَب (بالنِّسْبَة للمَجَالِس والحسَينيَّات)، وهٰكذا. فتَخُوضُ الحسَينيَّة ويَدْخُل أصحَابُ المجْلِس في تَنَوُّع الأنشِطَة، وحُسْن الخِدْمَة، والبذْل للخُطَبَاءِ والرواديد، ومَا إلىٰ ذلك من عَنَاوِين حَقٍّ، ومَسَاعِ خَيْر، ولٰكن من مُنْطَلَق وفي سَبيل المنافَسَة، وعلىٰ نَحْوِ المغَالَبَة... وهي طَامَّة كُبرىٰ!

إنه مِن الأبواب التي يَلِجُهَا الشَّيطَانُ الرَّجيم مُلْبِساً بها علىٰ المؤمنين، وخَالِقاً الشُّبهَة علىٰ العَامِلين، فيَخْلِط بين النِّداءَات الرَّبانيَّة الحقَّة، الممْدُوحَة المرغُوبَة، بطَبيعَة الحَال، الدَاعية إلىٰ المسَارَعَة والموحِيَة بالمنَافَسَة، كَما في خِطَاب: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ (آل عمران)، و﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ (المطففين)، وبين المغَالَبَة التي تَقُوم علىٰ المنَافَسَة الرَّخِيصَة، والنَّزْعَة الشوْهَاء المَعِيبَة، التي هي من الآفَاتِ الرُّوحِيَّة والسَقَطَات الأخْلَاقِيَّة، التي يَنبغي أن يَتَجَنَّبها المؤمن، ويُجنِّبها عَمَلَه، ولَا سِيَّما في هٰذا الميدَان المقَدَّس.

فنَحْنُ مُكَلَّفون بالسَّعْي الذي يُظْهِرنَا متنَافِسِين، مُسَارِعين، يُغَالِبُ بَعضُنَا الآخَر في الخَيْر، ويَسْتَبِقه على المعْرُوف، مَدْعُوُّونَ في هذا السَّبيل إلى حُسْن العَمَل والإتقَان والجوْدَة والإبدَاع... ولكن لَا على نَحْوِ المغَالَبة التي تَقُوم على هَدْم وإحْبَاطِ جُهْد "الآخَر"، وتَسْتَبطِن "إفشَال" وإفْسَاد عَمَله، وتمنّي إخْفَاقِه، نَاهِيكَ بالسَّعي إلى ذلك والعَمَل لتَحْقِيقِه والعِيَاذُ بالله! ولَا على نَحْوِ إرضَاءِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ، وتَغْلِيب نَزَعَاتِ الهوَى، والوُقُوع في حَبائِل الشَّيْطَان ومَكَائِده.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَنطَلِقَ من أنَّ جميع الحسَينيَّات مُحْترَمَة مُقَدَّسَة، وأنَّك مُنتَسِبٌ إليهَا، فتُحِبُّ لها الخيْر وتَتَمَنَّى النَّجَاح، بَل تسعى وتُقَدِّم مَا يُمكِنُكَ في هذا السَّبيل، لَا تَشُحُّ بمالِك وإمكَانيَّاتِك، ولَا تَضُنُّ بنُصْحِكَ ومَشُورتك وإرشَادَاتِك، ولَا تَبْخَلُ بجُهْدِك وسَعْيِك، ولَا تُفَاضِل بَينهَا إلَّا من حَيث الموَازِين العَقَائِديَّة والشَّرعيَّة والأخْلَاقيَّة، فالحُسَينيَّة التي تَنْهَضُ بِدَوْرِها بشَكْل أصِيل، وتَمْضِي على الطَّرِيقَة الوَلَائيَّة الصَّحِيحَة، لها الأَوْلَوِيَّة وقَصَب السَّبْق، ثم (كَضابِطَة ثَانية) مَا يُفْسَحُ لكَ من مجَالٍ للعَمَل، ويُتَاحُ لك من فُرصَة للخِدْمَة، ومَا سِوَى ذلك، تَسْوِيلَاتٌ شَيْطَانيَّة، وإغْوَاءَاتٌ مَسمُومَة.

إنَّ الحَالَة كَثيراً مَا تَأخُذ شَكْل التَّزَاحُم، وتَظْهَر وكَأنَّ الأمرَ يَدُور بين نَجَاحِكَ وبينَ إخْفَاقِ الآخَر، أو نجَاحِه وإخفَاقِك! والحال أنَّ أسْرار النَّجَاح، بَل قِوَامَ ومعْيَار النَّجَاح والفَشَل، يحُومُ في أُفق آخَر، ويَدُورُ في مَدَارٍ بَعِيدٍ عن المظَاهِر التي تَتَراءَى للنَّاس. ولَرُبَّما كَانَ "النَّجَاحُ" الظَّاهِري - في عِلْم الغَيْبِ - مُضِرّاً لك، وكَانَ الأفضَلُ للمَذْهَبِ والمسيرَة الحسَينيَّة أن يبقى مجلِسكَ مَغْمُوراً، وحُسَينيَّتُك مجهُولَة لَا يَؤمُّها أحَد!؟

بُنيَّ «عبدالزَّهْراء»! كُلَّما زَادَ "الانتِسَابُ"، وتَأكَّدَ "الاسْمُ والعُنوَان"، وتَرسَّخَت "الحِزبيَّة"، وإن كَانَت مُبطَّنة خَفيَّة، مُتَوارِيَة وَرَاء عَنَاوِين و"كَلماتِ حَقٍّ"... زَادَت العَصَبيَّة البَاطِلَة، والغَضْبَة الشَّخْصِيَّة، وتَألَّقَت المنَافَسَة الشَّيْطَانية والمغَالَبة المَرَضِيَّة. وكُلَّما تَنزَّه النَّشَاطُ الحسَينيُّ عن هذا اللَّوْث وذَاكَ الدَاء، ورَاحَ في الحركَة العَامَّة البعِيدَة عن هذه المدَاخِل - الآفَاتِ، خَلُصَ ونَجَا من التَّبِعَات المُهْلِكَة.

❁ ❁ ❁

إنَّ مَا ذَكَرتُه لكَ بُنيَّ في بَاب الظُّهور الشَّخْصِي في مَبْحَثِ النِيَّة، والسَّعْي للخَفَاء في شَخْصِكَ وعَمَلك، يَنطَبِق أيضاً علىٰ مجلِسكَ وحُسَينيَّتك، ولٰكنه لَا يَكُون هُنا ـ بطَبيعَة الحَال ـ بجَحْدِ الدَّوْر وكتْمان العَمَل، ولَيْسَ هو دَعْوَة لإقَامة المجْلِس في الخفَاء! بَل يكُون بمَنْع الأسم والرَّسْم والعُنْوَان، أو إبقَائه في حُدُوده الطَّبيعِيَّة ونطَاقِه الضَّرُورِيِّ الذي يخْدُمُ التَّعْرِيفَ والتَّشْخِيص والأهتِدَاءِ إليه، وقَطْع الطَّرِيق علىٰ التَّحَزُّب والتعَصُّب.

بُنيَّ، قَد يَشُقُّ الأمـر علىٰ كَثيرين، فَيتَصَوَّرونَ أنهم بحَاجَة إلىٰ "ظَهْر" وسَنَد، ولَا يُمْكِنُهم العَيْش في مجتَمَعَات مُعَقَّدَة، دُونَ "جماعَة" تُؤْوِيهم و"حِزْب" يَدعَمُهُم و"عُصْبة" تحتَضِنُهم، وتُلبِّي ـ في الأقَلِّ ـ نَـوَازعَ الأنتِماءِ في نَفْسيَّاتهم، وتُسَكِّن مَا يَستَحِثُّهم ويَدْفعهُم من الشُّعُور بالضَّعْفِ والعَجْز، أو نِدَاءَات اللَّاشُعُور، فينْدَفِعُون في التَّحَزُّب وهُم لَا يَدْرُون، أو لَا يحيرُون جَوَاباً وتَفْسِيراً لما يَفْعَلُون!...

ولٰكن لَا تَسْمَح لِنَفْسِكَ أن تهبِطَ إلىٰ هٰذه الحدُود وتَسْقُط في هٰذه المهَاوِي، وأنتَ «عبدالزهْراء» لَا غَيْر، وخَادِمُ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، تملِكُ خِيَاراً هو الأوَّل والأعْظَم، فَلَا تُفَرِّط فيه، ولَا تَلُوذ بغَيْرِه. اْجْعَل اْنتِسَابك إلىٰ «الحسَين»، واْصرِف اْنتِماءَك، واْخْلِص وَلَاءَك لـ «أهْلِ البيْت»، وعِش في رِحَابِهم، وتَطَلَّع للقُرْبِ مِنهُم، فَسَيَكْفِيكَ هٰذا من أيِّ فَرَاغٍ وضَعْفٍ نَفْسِيٍّ، وسَيُغنِيك عن أية نُصْرَة ودَعْم وإسنَادٍ دُنيَوِي.

❁ ❁ ❁

الوصية التاسعة:

أنماط الشعائر

تَنْطَلِقُ الشَّعَائرُ الحسَينيَّة وتَنْقَسِم في مَشْرُوعِيَّتها إلىٰ قِسْمَين:

مَا وَرَدَ فيه النَّصُّ من «المعصُوم» عليه السلام، أو لِنَقُل: مَا يَنْتَهِي الأَستِدْلَالُ فيه إلىٰ قَوْل «المعصُوم» وفِعْلِه وتَقْرِيره، فَيكُون مما أمرَ به "الشَّارعُ المقدَّس" ونَدَبَ إليه وحَثَّ عَلَيه مُباشَرة، كَالبكَاء والجزَع والإِدْمَاءِ وإقَامَة مجَالِس العَزَاءِ ولبْس السَّوَاد ومَا إلىٰ ذلك مما تجِده مُفَصَّلاً في محَلِّه من الكُتب الفِقْهيَّة والاَستِفتَاءَات التي أنبرىٰ لها مَراجِعُنا العِظَام، وهكذا في نتَاج ومُؤَلَّفَات العُلَماء الأعلَام الذين كَتَبُوا في قَضِيَّة الشَّعَائر الحسَينيَّة وتَصَدَّوا لِبَيَان خَطَرِها وعَظَمَتها، وسَأسرُدُ لكَ بَعضَها في الفَصْل القَادِم.

وهُنَاكَ قِسْمٌ آخَر، يَرتكِز علىٰ فَرْعَين: الصُّوَر التي تَدْخُل في مَصَادِيق "الجزَع"، ثم الآليَّات والأدوَات والوَسَائل التي يتَحقَّق بها "الإحْيَاء".

وهذا بَابٌ عَريضٌ وحَقْلٌ مُوَسَّع، ومَيدَانٌ مَرِنٌ مُتَحَرِّك، وسَاحَةٌ مُتَنَامية مُتَطَوِّرة، تفْسَح لأنماط مُبتَكَرة من الشَّعَائر الحسَينيَّة، تكَادُ لَا تَقِفُ عِنْد حَدٍّ ولَا تَتَعَطَّل في ظَرف، ولَا تَنتَهي عندَ أَمَد!

وهُو عَطَاءٌ مُسْتَمِرٌّ متَجَدِّد، قَرِينٌ بالذكْرىٰ، ومُلَازِمٌ للحَدَث، يَحكِي المصِيبَة الرَّاتِبَة والرَّزِيَّة الخَالِدَة وهُو يُوَاكِب الزَّمَان والمكَان، ويُقَدِّم صِيَغاً مُعَاصِرة مُحدَثة لأنماطِ العَزَاءِ وأشْكَالِ إحْيَاءِ الذِّكْرَىٰ، فلَعَلَّ الأمرَ في بَعضِ البِلَادِ ومَا يُتَاحُ فيهَا يَختَلِف عَنه في بِلَادٍ أُخرىٰ، وقَد يكُون في مُستَجِدَّات العَصْر سِعَة ومَنْدُوحَة لم تَكُن متَوفِّرة في الماضِي، مَا يُهَيِّئ سَبَباً ويُتِيح فُرصَة لَا يَصِحُّ التَّفرِيط فيهَا، ويَنبَغِي اَستِغْلَالها.

إعلَم بُنيَّ أنَّ كُلَّ مَا تَفعَلُه في سَبِيل إحْيَاء ذِكْرىٰ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وكُلَّ مَا يَصْدُر عَنكَ جَزَعاً علىٰ مُصَابِه وحُرقَة لما نَالَه، بأية وَسِيلَةٍ كَانت ومَهْما اَتَّخذَت من شَكْل وصُورَة وطَقْسٍ وطَرِيقَة، صَنَعَت شَعِيرة وخَلَقَت مَنْسَكاً... هي مُسْتَحَبَّة رَاجِحَة، تمثِّل أكبر طَاعَة، وأعظَم قُربة إلىٰ الله تعالىٰ.

ذلك وَفْقَ ضَابِطتَيْن وبشَرْطَيْن لَا ثَالِث لهما:

١ ـ أن لَا يُوجِب ذلك وَهْناً للمَذْهَب.

٢ـ أن لَا يَنتَهِي إلىٰ ضَرَرٍ عُقَلَائيٍّ مُعتَدٍّ به، وهُو هَلَاكُ النَّفس ومَا يُفْضِي إلىٰ الموْت، أو تَلَفِ وإعْطَابِ عُضْوٍ من أعْضَاءِ البدَن (علىٰ تَفْصِيل سيَأتِيك).

وكُلُّ مَا تَسْمَعُه خِلَافَ ذَلك بَاطِلٌ، يَدْخُلُ (علىٰ الصَّعِيدِ العِلْمِيِّ) في الـهُرَاءِ والغُثَاء، وأسْخَفُ من نَسْجِ العَنكَبُوت (دُونَ مُبَالَغَة وإغْرَاق، ولَا تَحامُل وعَدَاء)، ويَنْشَأ من الجَهْل والخَوَاء، أو مِن العَجْز والضَّعْفِ وضَيَاع الهوِيَّة في سُوُقِ السِّيَاسَة، بَل النِّخَاسَة، فبَعْضُهُم يَبِيعُ نَفْسَه ويَرتَهِنُهَا، ويُتَاجِر في عِبَادِ الله ويَسَوِّقهم في سَبِيل مَشْرُوعِه السِّيَاسِي!

بُنيَّ، لَعَلِّي تَتَبَّعْتُ كُلَّ مَا كُتِبَ في هـٰذا الأمر، ورَصَدْتُ ولَاحَقْتُ كُلَّ مَا قِيلَ ونُشِر في مَنْع وتَحرِيم بَعضِ أنماطِ الشَّعَائر الحسَينيَّة ومُحارَبة اَنتِشَارِهَا ورَوَاجِهَا، فَوَقَفْتُ علىٰ حَقِيقَة نَاصِعَة بيِّنَة، هي أنَّ تِلكَ الآرَاء والموَاقِف و "الاَجْتِهَادَات" لم تَصْدُر ـ حتىٰ في مَوْرِد وَاحِد ـ عَن مُجتَهِدٍ حَقِيقِيٍّ، عَالِم فَقِيه، مُسَلَّم الفَقَاهَة، وجَامع للشَّرائط... فكُلُّ مَا قِيلَ كَانَ مَزَاعِمَ بِلَا دَلِيل، أطْلَقَهَا غَيرُ مُتَخَصِّصِين، مِن أنصَافِ عُلَماءٍ وأربَاع مُفَكِّرِين، أو كُتَّابٌ ومثَقَّفون، لَا شَأنَ لهم بالاَستِدْلَال والاَسْتِنْبَاط، ولَا حَقَّ لهم في تحْدِيدِ المفَاهِيم ورَسْم الأفكَارِ الدِّينيَّة، نَاهِيكَ بالأحكَام الشَّرْعيَّة.

الإضرار بالنَّفْس

ثُمَّ رأيتُ أنَّ حُجَّة هٰؤلاء ودَليلَهم، يَدُور في مَحاوِرَ وآفاقٍ بَاطِلَة عِلْمِيّاً، ويَبْتَني على أُسسٍ ركيكَة وَاهِيَة وقَوَاعِدَ سَخِيفَة هَاوِيَة، سَاقِطَة في قَامُوسِ الفَنِّ والصِّنَاعَة، دَفَعَت بَعْضَهُم وأَخَذَته إلى التَّوسُّع في معنى "الإضْرَار" بالنَّفْسِ وحُدُوده، فجَعَلُوه لِكُلِّ ضَرر، يَسِيراً كَانَ أو متَوَسِّطاً أو فَاحِشاً كَبيراً (مَا يَلْزَمه التَّخَبُّط في كَثِير من أبوَاب الفِقْه وفُرُوعِه لَيْسَ هٰذا مَحلُّ بَيَانها). وأَخَذَت بَعضَهُم الآخَر إلى إسْقَاطِ "أصَالَة البرَاءَة"، فَطَلَبُوا الدَّلِيل على جَوَاز الفِعْل، لَا أن يُقَدِّمُوا هُم الدَّلِيلَ على حُرمته، وكَأنَّ كُلَّ شَيءٍ حَرَامٌ حتى يَقُومَ الدَّليلُ على إباحَتِه! فتَأمَّل في "أُصُوليٍّ" يُسْقِط "البرَاءَة العَقْلِيَّة الشَّرعيَّة" ويَرفُض ـ في مَلْزُوم دَعْوَاه ومَفْهُوم مَنْطُوقه ـ "قُبْح العِقَاب بلَا بَيَان"، و "عَالِم" يتجَاهَل ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء)، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴿٢٨٦﴾﴾ (البقرة)، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق)، و "رُفِعَ عن أُمَّتي مَا لَا يَعْلَمُون "(١)، و "مـا حَجَبَ الله عِلْمَه عن العِبَاد فهُو مَوْضُوعٌ عَنْهُم "(٢)، و "النَّاسُ في سِعَة مَا لَا يَعْلَمُون "(٣)، و "كُلُّ شَيءٍ لَكَ حَلَالٌ حتى تَعْرِفَ الحرَامَ منْه بِعَيْنِه "(٤)، و "كُلُّ شَيءٍ لَكَ مُطْلَق حتى يَرِدَ فِيه نَهيٌ "(٥)...

ثم ٱجتَمَعَ هٰؤلَاءِ وأُولئك والتَقَت كَلِمَتُهُم ودَعْوَتُهم على مَسْأَلَة "وَهْنِ المذْهَب" والإسَاءَة إلى صُورته (وإنْ دَخَلَ ـ فَنِّيّاً في البابِ الأوَّل، أيْ الضَّرَر).

إنَّ بَعْضَ الأحْكَام والآراءِ الَّتِي صَدَرَت ضِدَّ بَعْضِ أنماطِ الشَّعَائِر الحسَينيَّة تَحمِل التَّهَافُتَ في ذَاتِها من النَّصِّ الذي صِيغَت بِه، وتَنْطَوِي على إدَانَة مُطْلِقِهَا، وإثْبَات عَدَم ٱجْتِهَادِه، وٱفتِقَارِه الفَقَاهَة، وٱفتِقَادِه أهْلِيَّة الإفْتَاء...

---

(١) (أُصول الكافي) ج٢ ص٤٦٢.

(٢) (المصدر السابق) ج١ ص١٦٤.

(٣) (عَوالي اللآلئ) ج١ ص٤٢٤.

(٤) (وَسَائل الشِّيعَة) ج١٢ ص٥٩.

(٥) (من لا يحضره الفقيه) ج١ ص٣١٧. وهٰذا الحديث ومَا سَبَقَهُ هو مما يَستَدِلُّ به الأُصوليُّون على البراءَة الشَّرعيَّة، بَعدَ تِلك الآياتِ الكريمَة التي سَبَقَ ذِكرها.

فعِندَمَا يُحرِّم أحَدُهُم شَعِيرة حُسَينيَّة ويَنعَتهَا بـ "البِدْعَة" لأنَّ «المعْصُوم» لم يَقُم أو يَأمُر بهَا! فهذا يَعْني أنَّ الرَّجُل لم يُمارِس الفَقَاهَة ولَا عَرَفَ الأجْتِهَاد، ولم يَتَعَامَل مع القَوَاعِد والأُصُول، ولَا قلَّبَ الأدِلَّة يَوماً ولَا سَرَّحَ النَّظَرَ فيهَا مَرَّة، لأنَّ أصْل البراءَة من أوّليَّات الأُصُول ومما لَا يُمكِن أنْ يخفىٰ علىٰ متَفقِّهٍ، فكَيْفَ بفَقِيه؟ لِذَا أستَدرِكُ فيما بَعد وأرْجَعَ مُعَارضَته لأصْلٍ عِلْمِيٍّ مَقبُول، هو الخوْف علىٰ المذْهَب من الوَهْن الذي قَد يَلْحَقُه.

ولأُبيِّن لَك بُنيَّ أنَّ هذه وأخَوَاتهَا لَيْسَت مَقَالَة عِلْم ولَا مَقُولَة عُلَماء، وأنها مُجَرَّد خِطَاب عَوَام، وتَغْرير بخَلفيَّات سِيَاسيَّة... سَأُفصِّل بَعضَ الشَّيءِ في مَسْألة "الإضْرار" هذه. وسَأجعَل فَتْوىٰ «الميرزا النائيني» ﵀ الشَّهيرة مَدْخَلاً لِذَلك.

فَقَد أحْتَدَم النِّزَاعُ (في «البَصْرة») قَبلَ نَحْوِ مِئَة عَام ونَيْف، بين مُؤمنين من أنصَارِ الشَّعَائرِ الحسَينيَّة وآخَرين من أعْدَائها ومخَالِفيهَا، الذين كَانُوا يُشَنِّعُونَ علىٰ مُمارِسيهَا ويُهَوِّلُون، ورَائدُهم رَجُلٌ دِين مُغمُور يُدْعىٰ «سيِّد مَهدِي» (هَاجَرَ إثر ذلك، وإثر مَعَارِك أُخرىٰ خَاضَها ضِدَّ عقَائد الوَلَاء التي كَان يَراهَا غُلُوّاً، وتَركَ «البَصْرة» إلىٰ «الكُوَيت» وأستَقَرَّ هُنَاك وأستَوْطَن، وتَقرَّب من حَاكِمِهَا وأسْتطَاع مَنْع التَّشَابيه والمواكِب وجملَة من الشَّعَائر الحسَينيَّة التي كَانت تُقَام فيها)... مَا دفَعَ جموع المؤمنين للأستِنْجَاد بالحَوْزة العِلْميَّة، واللجُوء إلىٰ المرجعيَّة، (فتَأمَّل في فِعْل مَن يُوسَمُونَ بالعَوَام! وهُم مَن لجأ إلىٰ العِلْم والفَقَاهَة، ويَمَّمَ شَطْر التَّخَصُّص، والتَمَسَ الحُجَّة الشَّرعيَّة وَفْق الموازِين والأُصول العِلْميَّة المسْتَمَدَّة من مَركْزِهَا ومَوْئلِهَا، وقَارِنهُ بفِعْل مَن يَدَّعِي الوَعْيَ ويُنَادِي بالحدَاثَة، لتَعْرِفَ مَن هُم الرُّعَاعُ والهمَج والغَوْغَاء!) والتماس الحقِّ، وكَشْفِ الأرتيَاب في فِتْنَةِ... "وكَيْدِ المموِّهين والمنَافِقين، وخَاصَّة أفرَاد الجمْعيَّة الأُمويَّة، ذلك الكَيْد الذي لَا يَنْطَلِي إلَّا علىٰ السُذَّج والبُسَطَاء، الذي أوْقَعَ هذا الرَّجُل فَأفتىٰ ومَنَعَ وقَذَف، وضَلَّل، ولَفَّق أُموراً لَيسَ لها مَقِيلٌ في ظِلِّ الحقِيقَة، بل هي كَسَرابٍ بقِيعَة"[1]، فَقَامُوا بأستِفْتَاءِ أُستَاذِ الفُقَهَاءِ والمجتَهِدين، الأعلَم في عَصْرِهِ «الميرزا النَّائيني» ﵀، فَأجَابهُم بما نَصُّه:

(١) الوَصْفُ والتعبير لـ «آية الله الشيخ حَسن المظفَّر» ﵀، في مُقدِّمة كِتَابه (نُصرة المظلوم) ص١٠.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

إلىٰ «البَصْرة» ومَا وَالاَهَا:

بَعدَ السَّلَام علىٰ إخْوَاننا الأماجِد العِظَام، أهَالي القُطْر البَصْريِّ ورَحْمة الله وبَركَاته.

قَد تواردَت عَلَينَا في «الكرَّادَة الشَّرقيَّة» بَرقيَّاتكُم وكُتُبكُم المتضَمِّنَة للسؤال عَن حُكْم المَوَاكِبِ العَزَائيَّة ومَا يَتعَلَّق بها، إذ رَجَعْنَا بحَمْدِه سُبْحَانه إلىٰ «النَّجَفِ الأشْرف» سَالمين، فهَا نَحْنُ نُحَرِّر الجوَاب علىٰ تِلكَ السُّؤَالَات ببَيَان مَسَائل:

الأُولىٰ: خُرُوج المَوَاكِب العَزَائيَّة في عَشرة «عَاشُورَاء» ونَحْوِها إلىٰ الطُّرِق والشَّوَارع، مما لَا شُبْهَةَ في جَوَازِه ورُجْحَانه، وكَوْنه أظْهَر مَصَادِيق مَا يُقامُ به عَزاءُ «المظلوم»، وأيْسَر الوَسَائل لتَبليغ الدَّعْوَة الحسَينيَّة إلىٰ كُلِّ قَرِيبٍ وبَعِيد.

لٰكن اللَّازِم تَنزِيه هٰذا الشِعَارِ العَظِيم عَمَا لَا يَليقُ بعِبَادَةٍ مِثْلِه، من غِنَاء واْستِعْمال آلاتِ اللهْو، والتَّدَافُع في التَّقدُّم والتأخُّر بين أهْل مَحلَّتيْن، ونَحْو ذلك، ولَوْ اْتفقَ شَيءٌ من ذلك، فذَلكَ الحرامُ الوَاقعُ في البَيْن هو المحَرَّم، ولَا تَسْرِي حُرْمتُه إلىٰ الموكبِ العَزَائي، ويَكُون كَالنَّاظِر إلىٰ الأجنَبيَّة حَالَ الصَّلَاة في عَدَم بُطْلَانها.

الثَّانيـة: لَا إشْكَالَ في جَوَازِ اللَّطْم بالأيـدِي علىٰ الخدُود والصُّدُور حَدَّ الاْحمِرَار والاْسودَاد ، بَل يَقْوَىٰ جَوازُ الضَّرب بالسَّلَاسِل أيضاً علىٰ الأكْتَاف والظُّهُور إلىٰ الحدِّ المذْكُور ، بل وإن تَأدَّىٰ كُلٌّ من اللَّطْم والضَّرْبِ إلىٰ خُرُوج دَم يَسير علىٰ الأقوَىٰ.

وأمَّا إخْراجُ الدَّم من الناصِيَة بالسُّيُوف والقَامَات، فالأقوىٰ جَوازُ مَا كَانَ ضَررُه مَأمُوناً، وكَانَ من مُجرَّد إخْرَاج الدَّم من النَاصِيَة بِلَا صَدمَة علىٰ عَظْمِها، ولَا يتعَقَّبُ عَادَة بخُرُوج مَا يَضُرُّ خُرُوجُه من الدَّم ونَحْوِ ذلك، كَما يَعْرِفه المتَدَرِّبون العَارِفُون بكَيفِيَّة الضرْب. ولَو كَانَ عِندَ الضَّرب مَأموناً ضَرَرُه بحَسَب العَادَة، ولٰكن اتَّفقَ خُروجُ الدَّم قَدْرَ مَا يَضرُّ خُرُوجُه، لم يَكُن ذلكَ مُوجِباً لِحُرْمَته، ويَكُون كَمَن تَوضَّأ أو اْغتَسَلَ أو صَامَ آمِناً من ضَرَرِه، ثمَّ تَبيَّنَ ضَرَرُه منه. لٰكن الأوْلىٰ، بل الأحْوَط، أن لَا يَقْتَحِمَه غَيرُ العَارِفِين المتدَرِّبين، ولَا سيَّما الشُبَّان الذِينَ لَا يُبالُون بها يُورِدُونَ علىٰ أنفُسِهم لِعِظَم المصيبَة، واْمتِلَاءِ قلُوبهم من المحبَّة الحُسَينيَّة، ثبَّتَهُم الله بالقَوْل الثابِتِ في الحيَاة الدُّنيا والآخِرة.

الثالِثَة: الظَّاهِرُ عَدَم الإشْكَال في جَوَاز التشْبِيهَات والتَّمثِيلَات التي جَرَت عَادَةُ الشِّيعَة الإماميَّة بٱتِّخاذِهَا لإقَامَة العَزَاء والبُكَاء والإبكَاء مُنذُ قُرُون، وإن تَضَمَّنَت لِبْسَ الرِّجَال مَلابِسِ النِّسَاء علىٰ الأقْوَىٰ، فإنَّا وإن كُنَّا مُستَشْكِلِينَ سَابِقاً في جَوَازِه، وقَيَّدْنا جَوَاز التَّمثِيل في الفَتْوَىٰ الصَّادِرَة منَّا قَبلَ أربَع سَنوَات، لكِنَّا لما رَاجَعْنا المسألَة ثَانياً، اتَّضَحَ عِندَنا أنَّ المحَرَّم من تَشْبيه الرَّجُل بالمرأة هو مَا كَانَ خُرُوجاً عن زِيِّ الرِّجَال رَأساً، وأخْذاً بزِيِّ النِّسَاء، دُونَما إذا تَلبَّسَ بِمَلَابِسِها مِقْدَاراً من الزَّمَان، بِلَا تبدِيل لزِيِّه، كَما هو الحالُ في هٰذه التَّشْبِيهَات، وقَد ٱستَدْرَكْنا ذلكَ أخِيراً في حَوَاشِينا علىٰ «العُرْوَة الوُثقىٰ». نَعَم، يَلْزَم تَنزِيهَا أيضاً عن المحَرَّمات الشَّرعيَّة، وإن كَانت علىٰ فَرْض وُقُوعهَا لَا تَسرِي حُرمَتُها إلىٰ التَّشْبيه، كَما تَقَدَّم.

الرابعَة: "الدمَّام" المستَعْمَل في هٰذه المَوَاكِب مما لم يتَحقَّق لَنَا إلىٰ الآن حَقِيقَته، فإن كَانَ مَوْرِدَ ٱستِعْمالِه هو إقَامَة العَزَاء، وعند طَلَب الاجْتِماع وتَنبِيه الراكِب علىٰ الركُوب، وفي "الهوسَات" العربيَّة ونَحْوِ ذلك، ولَا يُستَعمَل في مَا يُطلَبُ فيه اللهْو والسُّرور، وكَما هو مَعرُوفٌ عندنا في «النَّجَفِ الأشرَف»، فالظَّاهِر جَوَازه، والله العَالم.(١)

وهٰذا بَيَانٌ عِلْمِيٌّ دَقِيق، يَتَضَمَّن مَسْحَة ٱستِدْلَالِيَّة لَطِيفَة، أفتىٰ علىٰ غِرَاره ونَسَجَ علىٰ مِنْوَالِه تَلَاميذُ «الميرزا النَّائيني» كَافَّة، وأمضَاهُ أسَاطِينُ الحوْزَة العِلْمِيَّة وكِبَارُ الفُقَهَاء والمراجع العِظَام، وأبرَزُهم: «السيِّد أبوالقَاسِم الخوئي»، و«السيِّد محمُود الشَّاهرُودي»، و«السيِّد عبدالهادي الشِّيرازي»، و«الشَّيخ محمَّد حَسَن المظفَّر»، و«السيِّد حسين الحمَّامي»، و«الشَّيخ محمَّد حسين كَاشِف الغِطَاء»، و«السيِّد جمال الدِّين الكُلبايكَاني»، و«السيِّد علي مَدَد القَائيني»، و«السيِّد محسِن الحكيم» الذي كَتَب: "مَا سَطَّره أُستَاذُنا الأعْظَم قُدِّسَ سرُّه في نِهَاية المتَانة، وفي غَاية الوُضُوح، بل هُوَ أوضَح من أن يَحْتَاج إلىٰ أن يُعْضَد بتَسْجِيل فَتْوَىٰ الوِفَاق......... ".

وقَد قَطَعَت هٰذه الفَتَاوَىٰ والمَوَاقِف الحَاسِمَة للحَوْزَة والمرجعِيَّة النِّزَاعَ لِفْترة وَجيزَة، ثم مَا لَبِثَت أن ٱرتَفَعَت عَقِيرةُ المشكِّكِين بعدَ حِين لِيُثِيرُوا الفِتْنَة من جَدِيد!

(١) «فتَاوَىٰ عُلَماءِ الدِّين حَوْلَ الشَّعَائِر الحسَيْنِيَّة» ص٢١.

أَمَّا مَسْأَلة الإضْرار بالنَّفْس التي يتَشَبَّثُ بها أعْدَاءُ الشَّعَائِر، فَيُرَدُّ عَلَيهَا من وُجُوه:

الأوَّل: لَيْسَ كُلُّ إضْرار بالنَّفْس مَنْهِيّاً عَنه في الشَّرْع، بمعنىٰ أنَّ عُمُوم الآية الكَرِيمَة ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۝﴾ (البقرة)، أو عُمُوم حُرْمَة الإضْرار، لَا تَطَال المَوَارِد المُمْضَاة من قِبَل الشَّارع، فإقْدَامُ المرء علىٰ عَمَلٍ في سَبيل فَضِيلَة دِينيَّة أو عَقليَّة رَاجِحَة، لَا إشْكَالَ فيه، وإن كَان في مَعرِض تَلَفِ عُضْوٍ، أو الهَلَاكِ والمَوْت.

فقَد أفتىٰ الفُقَهَاءُ وقَرَّروا بأنَّ الدِّفَاعَ عن النَّفْسِ والعِرْضِ أمامَ سَارِقٍ أو قَاطِع طَرِيق أو غَاصِب، يَكُونُ وَاجباً حتىٰ مَعَ احْتمال تَلَف عُضْوٍ. وبالنِّسْبَة إلىٰ العِرضِ، قَالَ بعضُهُم أنه رُخْصَةٌ لَا عَزِيمَة، أمَّا الدِّفَاع عن المال فَقَد ذَهَبَ أكثر الفُقَهَاءِ إلىٰ جَوَاز الدِّفَاع كَرُخْصَة ولم يُوجِبه أحَدٌ إلَّا إذا كَان مَالاً خَطِيراً، وذكَرُوا في أدِلَّة ذلك حَديثُ «رَسُول الله» ﷺ: "مَن قُتِلَ دُونَ مَالِه فَهُو شَهِيد".[١]

إذَن، لَيْسَ كُلُّ تَعْرِيض النَّفْسِ للضَّرَر وأعْضَاءِ البَدَنِ للتَّلَفِ حَرَاماً، فهُنَاكَ حَالَاتٌ ومَوَارِدَ يَأمُر بها الشَّارعُ ويَحُثُّ عَلَيهَا، وإن انْتَهَت إلىٰ هذا الخَطَر والضَّرر.

منهَا، بعْدَ بَابِ الدِّفَاع، مَا جَاءَ في النَّدْبِ علىٰ زِيَارة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام ولَو في ظُرُوف الإرهَاب والرُّعْبِ والتَّهْدِيدِ الذي يُورِثُ الخَوْفَ علىٰ النَّفْسِ أو العِرْضِ أو المال، كَما قَال «الإمامُ الصَّادِق» عليه السلام لـ «مُعَاوِيَة بن وَهَب»: "لَا تَدَع زِيَارة «الحسَين» عليه السلام لِخَوْف، فإنَّ مَن تَركَه رأىٰ من الحسْرة مَا يتمنىٰ أنَّ قَبْره عِنْده"[٢]. أيْ لَا تَدَع زِيَارته من خَوْف القَتْل أو قَطْع الأعضَاءِ أو السِّجْن والضَّرْبِ ونَحْوِهَا، فإنَّ الإنسَانَ ليتمنىٰ بَعْدَ مَوْته لَوْ أنه زارَه وقُتِلَ عِنْدَه، وأُقبِرَ في بلَدِه الأطْهَر.

وقَالَ «البَاقِر» عليه السلام لـ «محمَّد بن مُسلِم»: هَل تَأتِي قَبرَ «الحسَين» عليه السلام؟ قَال: نَعَم، علىٰ خَوْفٍ ووَجَل. فقَال: مَا كَانَ من هذا أشَدُّ فالثَّوَاب علىٰ قَدْر الخَوْف، ومَن خَافَ في إتيَانِه، آمنَ الله رَوْعَته يَوْم القِيَامة، يَوْمَ يَقُومُ النَّاس لِربِّ العَالمين.[٣]

(١) (عِلَل الشرايع) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص٧٤.
(٢) (كَامِل الزيَارات) لـ «ابن قُولَويه» ص٢٣٠.
(٣) المصدر السَّابق ص٢٧٦.

وسَأل «هِشَامُ بن سَالم» مَولَانا «الصَّادِق» عليه السلام، في حَديثٍ طَوِيل حَوْل زيارة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، قَال: .... فما لمن قُتِل عِنْدَه، جَارَ عَلَيه سُلطَانٌ فقتَلَه؟ قَال: أوَّل قَطْرة من دَمِه يُغْفَر لَه بها كُلُّ خَطِيئَة وتَغْسِلُ طِينَتَه التي خُلِقَ مِنْهَا الملَائكَةُ حتى تَخْلُص كَما خَلُصَت الأنبيَاءُ المخْلَصِين، ويَذْهَب عَنهَا مَا كَان خَالَطَهَا من أجْنَاسِ طِينِ أهْل الكُفْر، ويُغْسَل قَلْبُه ويُشْرَح صَدْرُه ويُمْلأُ إيماناً، فيَلْقَى الله وهُو مُخْلَصٌ من كُلِّ مَا تُخالِطُه الأبدَانُ والقُلُوبُ، ويُكْتَب لَه شَفَاعَة في أهل بَيْتِه، وألفٍ من إخْوَانه.........

إلى أن قَالَ عليه السلام بَعدَ عَدِّ جُملَة من المنَاقِب: فإنَّ ضُرِبَ بعدَ الحَبْس في إتيَانه، كَانَ لَه بكُلِّ ضَرْبَة حَوْراء، وبكُلِّ وَجَع يَدْخُل على بدَنِه ألفَ ألفَ حَسَنَة، ويُمْحَى بها عَنْه ألفُ ألفُ سَيِّئة، ويُرْفَعُ لَه بها ألفُ ألفُ دَرَجَة، ويكُونُ من مُحَدِّثي «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله حتى يَفْرَغَ من الحسَاب، فيصَافِحه حَمَلَةُ العَرْش.[1]

ومَا الخَوفُ والوَجَل الذي سَوَّغَه النَّصُّ، بل النُّصُوص (فهُنَاكَ كَثِير غَير هذه الأحَادِيث الشَّرِيفَة التي ذكَرتُ)، ومَدَحَه «الإمَام» عليه السلام وأثنى علَيه وندَبَ إليه، ووَعَدَ بكُلِّ هذا الأجْر الجزِيل والثَّواب الجَمِيل... إلَّا من الضَّرر المرتَقَب من وَضْع المرء نَفْسَه وإلقَائِهَا في مَوْضع يُوجِبُ الضَّرَر ويُسبِّبه. أي أنَّ «الإمام» أقرَّ الفِعْل، وهو إلقاءٌ مُباشِر في مَظَانِّ "التهلُكَة"، وتَعَرُّضٌ صَريحٌ للإضرار بالنَّفس، صَارَ مَعفُوّاً عَنه، بَل مَأموراً به، في سَبِيل رَاجِح شَرعيٍّ، هو ـ هنا ـ زِيارة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

وهذا نَقضٌ ثَانٍ، بعد بَاب الدِّفَاع، على حُرمَة الإضرار بالنَّفْسِ الذي يَزْعُم المدَّعُونَ إطلَاقه، ويُوردُونه على بَعضِ أنماطِ الشَّعَائِر الحسَينيَّة التي قَد تُفْضِي إليه.

ثم يَأتي البُكَاءُ الشَّدِيدُ نَاقِضاً ثَالِثاً... هذا نَبيٌّ مُرسَل، حُجَّة مَعْصُوم، بلَغ في البكَاءِ وذَهَبَ في الحزْن مَا كَادَ أن يُودي به، فيكُونَ حَرَضاً أو من الهالِكين ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (يوسف).

(١) (كَامِلُ الزِّيارات) ص٢٤٠.

وقد أُصيبَ ووَقَعَ في العمىٰ فِعْلاً، وتَرىٰ القُرآنَ الكَريم يُقِرُّ ذلك كَفَضِيلَة. وهو فِعْلُ نبيٍّ مُقَرٌّ في الشَّرِعية الإسلاميَّة، ولَـيْسَ مَنْسُوخاً، بل مما عُدَّ قُدْوَة لَنَا، كَما قَالَ تَعَالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَـانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَـدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَـةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِـنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يـوسف)، ومن هُنـا ٱسْتَشْهَدَ به «الإمام زَين العابدين» عليه السلام، وهـٰذا الشَّاهِد بالخُصُوص مُطَابِقٌ لما نَحْنُ بصَدَد إثبَاتِه، فَهُوَ بُكَاءٌ "مُضِرٌّ" بعُضْوٍ من أعضاءِ البَدَن!

ورَوىٰ «ٱبن شَهْر آشوب» في (المَنَاقِب) عن «الصَّـادِق» عليه السلام أنه قَـال: بكـىٰ «عليُّ بن الحسَين» عِشرينَ سَنَة، ومَا وُضِعَ بين يَدَيْه طَعَامٌ إلَّا بكىٰ، حتىٰ قَالَ لَهُ مَولىً لَه: جُعِلْتُ فِدَاك يا «ٱبن رَسُول الله»، إني أخَافُ أن تكُونَ من الهالِكين. قَال عليه السلام: ﴿قَـالَ إِنَّمَآ أَشْكُو بَـثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَـمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، إني لم أذكُر مَصْرَع «بني فَاطِمَة» إلَّا خَنَقَتني العَبرة. (رَوىٰ «ٱبن قُولَويه» في (كَامِل الزِّيارات) بِسَنَدِه عن «الصَّادِق» عليه السلام مِثْلَه، إلَّا أنه زَادَ بعدَ "عِشرين سَنَة": "أو أربَعين سَنَة"). قَال «ٱبن شَهْر آشوب»: وفي رِوَاية: أما آن لحُزنك أن يَنْقَضِي؟ فقَالَ: لَه وَيحك، إنَّ «يَعقُوبَ النبيَّ» عليه السلام كَان له ٱثنا عَشَر ٱبناً، فغَيَّبَ اللهُ وَاحِداً مِنهُم فأبيضَّت عَـيْنَاهُ من كـثرة بُكَائه، وٱحْدَوْدَبَ ظَهْرُه من الغَمِّ، وكَان ٱبنُه حَيّاً في دَارِ الدُّنيا، وأنا نَظَرْتُ إلىٰ «أبي» و«أخي» و«عَمِّي» وسَبْعَة عَشَر رَجُلاً من أَهْل بَيْتي، مَقْتُولين حَوْلي، فكَيفَ يَنْقَضِي حُزْني؟ قَال: وقَد ذُكِرَ في (حِلْيَة الأَوْلِيَاء) نَحْوُه، وقيل إنه بكىٰ حتىٰ خِيفَ علىٰ عَيْنَيْه. وقيل لَه: إنَّك لتَبكي دَهْرَكَ، فَلَو قَتَلْتَ نَفْسَكَ لما زِدْتَ علىٰ هـٰذا! فَقَال: نَفْسِي قَتَلْتُهَا وعَلَيهَا أبكِي! [1]

ونَظِيره مَا رُوِي في بُكَاءِ «شُعَيْب»، قَالَ «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله: بـكىٰ «شُعَيْب» عليه السلام من حُبِّ الله عزَّ وجَلَّ حتىٰ عَمِيَ، فرَدَّ الله عزَّ وجَلَّ عَلَيه بَصَرَه، ثـم بكىٰ حتىٰ عَمِيَ فَرَدَّ الله عَلَيه بَصَرَه، ثم بكىٰ حتىٰ عَمِيَ فَرَدَّ الله عَلَيه بَصَرَه، فَلَما كَانَت الرَّابعَة أوْحىٰ اللهُ إليه:

---

(١) (مناقِب آل أبي طَالب) لـ «ٱبن شَهْر آشوب» ج٣ ص٣٠٣. وقد تكُون العِبَارة الأخِيرة رَدّاً علىٰ اللّائم، وكأن «الإمام» عليه السلام يَقُول: دَعُوني وشَأني، أو مَا لَكُم ومَا لي! ولَو تَدبَّرتَ لَرَأيته يتوَجَّه إلىٰ المنكِرين في عَصْرِنا أيضاً!

يَا «شُعَيْب»، إلىٰ متىٰ يَكُونُ هـٰذا أبداً مِنْك، إن يَكُن هـٰذا خَوْفاً من النَّار فقَد أجرْتُك، وإن يَكُن شَوْقـاً إلىٰ الجنَّة فقَد أبحتُك. قَال: إلهي وسَيِّدِي أنتَ تَعْلَمُ أني مَا بَكِيتُ خَوْفاً من نَارِكَ ولَا شَوْقاً إلىٰ جَنَّتِك، ولـٰكن عَقَدَ حُبُّكَ علىٰ قَلْبِي، فَلَسْتُ أصْبِرُ أو أرَاك.

فَأوْحىٰ اللهُ جلَّ جَلَالُه إليه: أمَّا إذا كَـان هـٰذا هـٰكذا، فمِن أجْلِ هـٰذا سَأُخْدِمك كَلِيمي «مُـوسىٰ بن عِمْرَان».[١]... ولَا رَيبَ أنَّ البكَـاءَ الشَّدِيد البَالغ تِلكَ الحـدُود التي كَانت في «شُعَيْب» و«يعقُوب»، هُو تَعرُّض للعـمىٰ، بمعنىٰ جَعْل العَين في مَعْرِضه، إن لم يكُن طَلَباً لَه وتَعَمُّداً للوُقُوع فيه!

ومَنْقُول عن «أبي ذَر الغِفَارِي» أنه عُمِيَ في آخِرِ حَياتِه لِطُول سُجُودِه، وقَد أُثِرَ أيضاً في تَرْجمة عَدِيد من الأصْحَابِ في عَهْدِ «الأئمَّة» عليهم السلام، أو أصْحَابِ «أميرالمؤمنين» عليه السلام، وهي سِيرة كَثيرٍ من أهْلِ التَّقْوىٰ والوَرَع. والمهم أنَّ هـٰذا الفِعْل كَـان علىٰ مَرأىً ومَسْمَع من «الأئمَّة» عليهم السلام، وقد اشتُهِرَ أنَّ إطَالَة السُجُود تُؤدِّي في جملَة من الأحْيَان إلىٰ عمىٰ العَيْن، أي يَكُون السَّاجِد في مَعْرِض ذلك، لـٰكن لَا يكُون مَلُوماً ولَا مَذْمُوماً.[٢]

ونَظِيره إغْماء «الإمَام الرِّضَـا» عليه السلام مَرَّتين في إنشَادِ «دِعْبِل الخُزَاعِي» قَصِيدَته التَّائيَّة المشْهُورَة... "أنشَد دِعْبِل... فَلَطَمَت النِّسَاءُ وُجوهَهُنَّ وعَلَا الصُّراخُ من وَراءِ السِّتر، وبَكَى «الرِّضَا» عليه السلام حتىٰ أغْمِي عَلَيه مَرَّتيْن".[٣]

ومَعَلُومٌ أنَّ البكَاءَ بهـٰذه الشِّدَّة ـ وهو أمرٌ اختِيَارِيٌّ ـ التي تُفْضِي إلىٰ الإغْماء، ضَرْبٌ من التَّعَرُّض للخَطَر، وقَد ثَبتَ عِلمِيّاً أنَّ في الإغْماء احْتِمال الموْتِ، فالإغْماءُ مَعرُوفٌ في الطِّبِّ القَدِيم والحدِيث، أنه أمرٌ غَير مَضْمُون السَّلَامَة، يكُونُ المغشىٰ عَلَيه في مَعرض الهلَكَة، كَما حصَلَ لـ «همَّام» عِندَمَا سَمعَ صِفَاتِ المتَّقِين من سَيِّدِهم «أميرالمؤمنين» عليه السلام.

---

(١) (عِلَل الشرائع) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ج١ ص٥٧.

(٢) إنَّ جُلَّ ما ذكَرتُه في مَسْألة "الإضرار بالنَّفْس" استَفَدْتُه من بَحْثِ «سَماحَة الشيخ محمَّد السَّنَد البَحْراني»، والفَقْرَة المشَار إليهَا ومَا تَليهَا، تجِدهَا في تَقْريرات بَحْثِه بقَلَم «السيِّد رِيَاض الموسَوِي»، التي أصدَرهَا في كتاب: (الشَّعَائر الحسَينيَّة بين الأصَالَة والتَّجْدِيد) ص٣٤٥ وص٣٤٧ وص٣٤٩.

(٣) (عُيُون الأخبَار) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ج٢ ص٢٦٣.

وقَد قَالَ «أميرالمؤمنين» عليه السلام بعدَ أن صُعِقَ «همَّام بن عَبَّاد» صَعْقةً كَانت فيهَا نَفْسه: " أمَا والله لَقَد كُنتُ أَخَافُهَا عَلَيه "، وهـذا الخَوْف، أو عِلْمه عليه السلام بمَوْت المسْتَمع، لَيْسَ من بَابَ العِلْم اللدُنِّيِّ، إنَّما هُو من العِلْم العُقَلَائيِّ الحَاصِل من الحَالَة المعْتَادَة، الذي هُو عِلمٌ ظَاهِريٌّ، وهـو مَحَلُّ التكْلِيف. ثُم قَال عليه السلام: " هـكذا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ البَالِغَة بأهْلِها "، فقَالَ لَه قَائلٌ: فَما بَالك يا «أميرالمؤمنين»...؟ فَقَال عليه السلام: " وَيْحَك، إنَّه لِكُلِّ أجَلٍ وَقتاً لَا يَعْدُوه، وسَبباً لَا يتَجَاوَزه ".[١]

ومن شَوَاهِد البكَاءِ الشَّدِيدِ المضِرِّ بالنَّفْس... بُكَاء مَولَاتِنا «الزَّهْراء» عليها السلام، وإن كَانَ سَبَبُ شَهَادَتها هُو كَسرُ الضِّلْع وإسْقَاطُ الجنِين (ولَا يُنظَر إلىٰ مَن شَكَّكَ في ذلك أو أنكَره)[٢]، لكنَّ بكَاءَهَا الشَّدِيد كَانَ في مَعْرِض التَّلَف أيضاً.

هـذه كُلُّها، وهُنَاكَ غَيْرهَا، شَوَاهِد تُثْبِت أن لَيْسَ كُلُّ تعَرُّضٍ للخَطَرِ والضَّرَر حَرَاماً في الشَّرِيعَـة الإسلَاميَّـة، ثُم لَيْسَ كُلُّ ضَرَر يَـرفَعُ الحكْمَ ويُسْقِطه، فَلَا بُـدَّ أن يَكُـونَ مُتَنَاسِباً معَه درَجَة، فأكْلُ الميتَة والـدَّم ولحم الخِنْزير لَا يَكُونُ مُباحاً إلَّا إذا بلَغَ الضَّرَر الإشرَاف علىٰ الموْت، بخِلَافِ الضَّرر والحرَج في الوُضُوء مثَلاً.

ومَلَاكُ إحيَاء أمرِ «أهلِ البيْتِ» عليهم السلام، وممارَسَة الشَّعَائر الحسَينيَّة، أعْظَم بكَثير من تلَفِ عُضْوٍ أو من جَعْل عُضْوٍ من أعضَاء البدَن في مَعرِض التَّلَف.

حتىٰ ذَهَب بعضُ أعَاظِم الفُقَهَاءِ كَـ «الشَّيْخ خِضِر بن شَلَّال» الذي كَانَ محَدِّثاً وفَقِيهاً مقَدَّساً، من تَلَاميذ «الشَّيخ جَعْفر الكَبير كَاشِف الغِطَاء»، و «السيِّد بَحْرِ العُلُوم»، إلىٰ الفَتوَىٰ بـ " جَوَازِ اللَّطْم عَلَيه والجزَع لمصَابه بَأيِّ نَحْوٍ كَان، ولَوْ عَلِم أنه يَمُوت من حِينِه! فَضَلاً عمَّا يُخشى مِنه الضَّرَر علىٰ النَّفْسِ التي قَد تكُون عِندَ كَثِيرٍ من النَّاس أهوَن من المالِ الذِي قَامَت ضَرُورة المذهَب علىٰ مَزِيدِ فَضْل بَذْلِه في مُصَابه وزِيَارته ".[٣]

---

(١) (نهج البلاغة) ج١ ص٥٧.

(٢) راجع (حِوار مع فضْل الله حَوْل الزَّهْرَاء) لـ «السيِّد هَاشِم الهاشِمِي»، و(مَأسَاة الزَّهْراء) لـ «السيَّد جَعفَر مرتضىٰ» لتَقِف علىٰ تَفَاصِيل وأسبَاب وأدِلَّة إثباتِ اَستِشْهَاد مَولَاتِنا «الزَّهْرَاء» عليها السلام، والردِّ علىٰ مُنكِر ذلك.

(٣) (أبوَاب الجنَان) ص٣٩.

يبقىٰ مَدْخَلٌ أخِيرٌ يَلِجُ منه أعْدَاء الشَّعَائر والمحَرِّضُون عَلَيهَا، لَا المخَالِفُون من النَواصِب وأعْدَاءِ شِيعَة «أهْل البيْت»، بَل من أبنَاء الطَّائفَة نَفْسِها، أدْعِيَاءِ الثَّقَافَة والإصْلَاح والتَّنْوِير... وفي الحقِيقَة، إنه البَابُ الذي يتَمَسَّكُ به بَعضُ ضِعَاف النُّفُوس ومَهْزُوزي الهويَّة، وأرْبَاب المصَالح الدُنيَوِيَّة الذين يُريدُون مماشَاةَ "الآخَر" وإرضَاءه، من تجَّار وسيَاسِيين، ولَو أضَرَّت الصَّلَاةُ بعَيْش هؤلاء ودُنيَاهُم، لَتركُوهَا!

وَهْن المذهَب

إنه عُنْوَان "وَهْن المذهَب"...

وهُو كَما لَا يخفىٰ من القَضَايا المَوْضُوعيَّة التَطْبِيقِيَّة، التي تحكُمهَا حَقِيقَة طَبيعيَّة، أو حَالٌ خَارِجيٌّ يَستَقِي من عُرْفٍ ووَاقع اجتِماعيٍّ، لَيْسَ لِعُلُوم الحوْزَة دَوْرٌ في إدرَاكِهَا وتَحدِيدِهَا، ولَا لِفُنُونها وتخصُّصَاتها دَخْلٌ في رَسْمِهَا وتَشْخِيصِهَا، لِذَا فإنَّ العَالِم الفَقِيه ومَرجعُ التقْليد يَتَسَاوَىٰ فيه مع الجَاهِل (بالعُلُوم الشرعيَّة) العَامِّي والمكَلَّف المقَلِّد...

إنَّ الفَقِيه يَمْلِك أن يُفْتِي وَفْقَ الأدِلَّة الشَّرعيَّة التي تَخَصَّصَ فيهَا، من القُرآن والسُنَّة والعَقْل والإجمَاع، وبمِقْدَار عِلْمِه وتمكُّنه من الأدِلَّة والقَوَاعِد والأُصُول، وسِعَة بَاعِه وطُول يَدِه وقُدْرته واجْتِهَادِه، يَنْجَحُ في إصَابة الوَاقع أو الاقتِرَاب مِنه... أما تَحدِيد مِصْدَاقِ كُلِّيِّ الحُكْم الشَّرْعي، وتَطْبِيقَاته الخَارِجيَّة، وتَشْخِيصِ الموضُوع فِيه، فهُو من شَأن المكَلَّف. فالمرجع يُخبِركَ، ويَسْتَنْبِط لكَ الحكْمَ الذي يَقْضِي بحُرمَة شُرب النَّبِيذ، ولكنه لَا يَمْلِكَ أن يحرِّمَ عَليكَ تَنَاوُل هذا القَدَح بعَيْنه لأنه نَبِيذٌ، وأنتَ تَعْلَم أنه لَيسَ إلَّا عَصير الرُمَّان أو الشَّاي! أو يأمُرَكَ باجْتِنَاب هذه الحَلْوَىٰ، أو هذا النَّوع من الأغذِية المعَلَّبة المصَنَّعة في البلَادِ الغَربيَّة، لاحْتِوَائهَا علىٰ شُحُوم حَيوَانيَّة، وهي ميتَة غَير مُذَكَّاة، وأنتَ تَعْلَم باليقِين أنه منتَجٌ نَبَاتيٌّ، لَا مَادَّة حَيوانيَّة فيه. ولَه أن يُخبِركَ أنَّ البَوْلَ من النَّجَاسَات، لكن لَيْسَ هذا البَلَل الذي أصَابَ ثَوْبَك، أو أنَّ هذه الحُمْرة التي تُلَوِّنه هي دَمٌ ولَيسَت شيئاً من الصِبْغ. فالفَقِيه يُفتي بَأنَّ صِيَام المرِيضِ بَاطِلٌ، ولَرُبَّما حَرَام، لكن تَشْخِيص بلُوغ تلك الدَّرجَة والحدِّ في المرَض الذي تَترتَّب عَلَيه أحْكَام وُجُوبِ الإفْطَار والقَضَاء، يَعُودُ إلىٰ الطَّبيب المؤتمن الحَاذِق، لَا الفَقِيه والمرجع.

لَا شَكَّ ولَا خِلَافَ في أن التَّسَبُّبَ في وَهْن المذهَب حَرامٌ لَا يَجوز ٱرتكَابه والوُقُوع فيه، ولٰكن تُرىٰ أيُّ الأُمور تكُونُ وَهْناً وأيُّ منهَا عِزّاً وفَخْراً؟ ومَاذا لَو رَأىٰ مُكَلَّفٌ أنَّ في هٰذا السُّلُوك مَفْخَرة للدِّين والمذْهَب، ورَآه آخرُ عَاراً ومَنْقَصَة؟ وهو يَدُورُ في نِطَاق مُحدَث لم تَتَنَاوَله النُّصُوص والأدِلَّة الشَّرعيَّة بشَكْل مُباشِر ومُحدَّد يَحسِم الخِلَاف فيه؟

إنَّ تَشْخِيصَات الفُقَهَاء في الموضُوعَات تَعُود إلىٰ مَا يُنْقَل إليهِم ويَصِلهُم من عَامَّة النَّاس، أو لِنَقْل من ثِقَاتِ المؤمنين، ومن أهْل الخِبْرة... ولَرُبَّما كَانَ المكلَّف المخَاطَب بالحكْم، أكثر خِبْرة من نَاقِل المعْلُومَة للفَقيه، وأكثر تخَصُّصاً في فَهْم مُسْتَنِده العُرْفي، أو العِلْمِيِّ الذي يَسْتَقِي من إحْدىٰ فُرُوع العُلُوم غَير الدِّينيَّة كَالطِّب والهندَسَة والكِيمِيَاء، فيكُون أقدَر علىٰ التَّشْخِيص والتَّطْبِيق، أو قَد يَقِف المكَلَّفُ علىٰ مخَالَفَة حُكْم الفَقِيه للوَاقع ويَعْلَم أنه لم يُصِب بِسَبَب فَسَادِ مُرتَكَزه كَخِيانَة النَّاقِل وكَذِبه.

في مثْل هٰذه المَوَارِد والحالَات تَجوزُ مخالَفة الفَقِيه، ولَا يَجِبُ التِزَام قَوْله، وللمُكَلَّفِ أن لَا يُرتِّب الأثرَ علىٰ هٰذا الرأي (علىٰ تَفْصِيل في مَسْألة نُفُوذ حُكْم الحَاكِم)...

وكَذا هُو الحالُ في الموضُوعَات والمَيَادِين والمنَاطِق ذَاتِ الحدُود الرِّخْوَة والطَّبيعَة المرنَة، غير المحْسُومَة ولا البَاتَّة الجازِمَة علىٰ النَّحْوِ الرِّياضي، فتَربيعُ العَشرة مِئَة، وتكْعِيبُهَا ألف، بلَا رَيْب ولَا ٱحْتِمال لِنَتيجَة وقَوْل آخر، أما التَّحْليل السِّيَاسيُّ أو الاَجْتِماعي، فَأمرٌ موَسَّعَةٌ دَائِرتُه، ومُتَرامِيَة حُدُودُه وأطْرافُه، لَا يُمكِنُ لأحَدٍ أن يَجزِمَ فيه ويَحْسِمَ، فَيَقُولَ إنَّ هٰذا السُّلُوك مَرفُوضٌ ٱجْتِماعِيّاً أو مَقْبُول، يُورِثُ ٱستِهْجَانَ الناسِ وٱمتِعَاضَهُم، وبالتَّالي تَقْبِيحَهُم الفَاعِلينَ والقَائِمين به، أو يَسْتَتْبِع رِضَاهُم وإطْرَاءهُم، وتحسِين الفِعْل والإطْرَاء علىٰ القَائِمينَ به ومُمارِسيه! فَأنتَ كَثيراً مَا تَجِد في النَّاسِ (في المجتَمعِ الوَاحِد) مَن يَنْظُر إلىٰ حَادِثَة وأدَاءٍ وسُلُوكٍ مَا بِشَكْل إيجابِيٍّ، وآخَرُونَ يَرَوْنَه سَلبياً.

ولَا سِيَّما أنَّ مِثْل هٰذه الأحكَام أو الآراء لَا تَسْتَنِدُ لأُسُسٍ عِلْمِيَّة دقيقة، وليسَت مَبنِيَّة علىٰ أرقَام وإحْصَاءَاتٍ وٱسْتِقْراء، وإن كَان، فَهوَ بالتأكِيد لَيسَ تَامّاً، ولَا يُورِث عِلْماً يَتَرتَّب عَلَيه الجزْم فالحُكْم، بَل هي مَبْنِيَّة علىٰ نُقُولَاتٍ، وتَشْخِيصَات غَير مَوْضُوعيَّة، تَخضَع لأهْوَاء وميُول، وتَحكُمهَا عَوَاطِف ومَصَالح.

لِذا فأنتَ قَلَّ أن تَجِدَ فَقِيهاً (حَقيقيّاً، لَا مُزيَّفاً) ضَلِيعاً في الفَنِّ ومُتَمَكِّناً من أُصول الصِّنَاعَة، مَارَسَ الاَستِنْباطَ رَدْحاً، فصَارَ يُعتَدُّ به، ويَحترِم هو نَفْسَهُ وفقْهَه، لَا تَجِده يتَدَخَّل في تَشْخِيصِ المَوْضُوعَات والحكم تبعاً لذلك إلَّا في نَادِرٍ كَالمعدُوم، بل تَراهُ يتَنَزَّه عن التَّطفُّل والفُضُول. لأنَّ الأمر فيهَا مُشتَبَهٌ مُتَدَاخِل، مُختَلَفٌ فيه ومُتَنَازَعٌ عَلَيه، وكُلُّ هذا الاَختِلَاف والتَّنَازُع لَيسَ وَفْقَ قَوَاعِد وضَوَابِط يُمكِن البَتُّ فيهَا والجزم علىٰ ضَوْئها لتَحْديدِ السَّليم فِيهَا عن السَّقِيم، فهِيَ الأُخرىٰ مَرِنَة، بل هُلَاميَّة مَطَّاطِيَّة (فلَم تَأتِ الأحكَامُ إلَّا تَبَعاً لها)!

فيقُولُ الفَقِيه: هذا الفِعْلُ حَرامٌ إن كَان فِيه وَهْنٌ للمَذْهَب، أو إذا سَبَّبَ وَهْناً.

وخَيْرُ شَاهِد علىٰ هذه الحقِيقَة، قَضِيَّة التَّطْبِير والإدْمَاءِ في الشَّعَائِر الحسَينيَّة، ولَرُبَّما جَرَّ بَعضُهُم الأمرَ وسَحَبه وأدْخَلَ فيه اللَّطْمَ والبكَاءَ وسَائِر أنماطِ الشَّعَائر... فهُنَاكَ مَن يَرَىٰ أنَّ هذه الممارَسَات تُسِيءُ إلىٰ المذْهَبِ وتُشَوِّه صُورته، وتُنَفِّرَ النَّاسَ وتُبَعِّدهُم عَنه، ويَذكُرُونَ لِدَعْوَاهُم أدِلَّة ويَسُوقُون شَوَاهِدَ وقَرائن.

يَقُولُونَ إنَّ جملَة هذه الطُّقُوس والممارَسات تَفتَقِر إلىٰ العَقْل والتَّعليل العِلْميِّ المَنْطِقي، وكَما أسْلَفتُ، يَبْدَأ الأمر بالبُكَاء، فَأيُّ مَنْطِقِ هذا الذي يَقْضِي البُكَاءِ والجزَع والصَّيْحَة والصُّرَاخ المتَوَاصل في ذِكْرىٰ "جَرِيمَة قَتْل" وَقَعَت مُنْذُ أربَعَة عَشَر قَرناً؟ مَهْما كَانَ "الفَقِيد" عَظيماً وعَزِيزاً، والمأسَاةُ فَظِيعَة والفَاجِعَة مَهُولَة؟ وأيُّ مَنطِق يَسْمَحُ بأن يَبْلُغ الاَنفِعَال والتَّأثُّر بهذه المأسَاة المُوغلَة في القِدَم، حُدُودَ لَطْم الصُّدُور وخَبْطِ الرؤوسِ وجَلْدِ الظُّهُورِ، بَل الضَّرْب بالسُّيُوف وإدْمَاء الرُّؤوس، وأيُّ "اَنفِعَالٍ" هذا الذي يُنَظَّمُ في حَلَقَاتٍ ودَوَائر، يَتَقَابل فيهَا المعزُّونَ بِهُدُوء وقَرَارٍ وسَكِينَة، تَأخُذهُم إلىٰ الاَنفِعَال، أو إلىٰ التَّمثِيل وادِّعَاءِ الاَنفِعَال؟ إنَّما "فلُكْلُور" شَعْبي، ولَيْسَت شَعَائر دِينيَّة، لَا حُرْمَة لها ولَا قَدَاسَة، ووَجَبَ تَركُهَا وتَعْطِيل ممارَسَتها المشِينَة؟! فالبِلَادُ والمجْتَمَعَاتُ المتَمَدِّنة في «الغَرْب»، تَنبِذُ العُنْفَ، وتَكْرَه الدِّمَاء، ومَنْظَر المعزِّينَ وهُم مُضرَّجين بالدِّمَاء، قَد صُبِغَت أكْفَانُهم البيْضَاء بلَوْن الدَّم القَاني، يُورِثُ مَرآهُم الفَزَع والرُّعْبَ في قُلُوب النَّاس، ويُشوِّه صُورة هذا المذهَبِ الحقِّ ويُضيِّعونَ فُرصَة ثَمِينَة للدَّعْوَة للإسلَام ونَشْرِ التَّشَيُّع.

في المقَابِل، هُنَاكَ رُؤية معاكِسَة تماماً، تَذهَب إلىٰ أنَّ هـٰذا الأداء "الغَرِيب" هو وَسيلَة إعْلاميَّة نَاجِحَة، وأدَاة دَعَويَّة تَبليغيَّة مُوَفَّقَة، فَلَا شَيءَ يَسْتَوْقفُ الغربيين ويَجتَذِبهُم، ويَلفِت أنظَارَهُم إلَّا غَيْر الطَّبيعِي من السُّلُوك والغَرِيب الذي لَيْسَ عِنْدَهُم نَظِيره... والشَّعَائر الحسَينيَّة وطُقُوسُ العَزَاء المتنَوِّعَة تُورثُ في هـٰذه الأُمم والمجْتَمعَات الصَّدْمَة وتَسْتَوْقفهَا، لِتُخْرِجهَا من اَستِغْراقِهَا في الماديَّات وانغماسِهَا في الشَّهوَات، من غَريبِ بَقَاءِ هـٰذه الفَاجِعَة حَيَّة نَابِضَة بعدَ أربعَة عَشَر قَرناً، وكَيفَ أن دَرَجَة الحيَاة فيهَا، وفَاعِليَّتها تَبلُغ بأتبَاعِهَا هـٰذا الحدَّ من الانفعَال والعَطَاء، بكَاءً وصُرَاخاً وجَزَعاً وإدْمَاءً؟!

وتُوَجِّه رِسَالَة بَليغَة بوُجُود عَالَم آخَرَ جهِلُوه، وانصَرَفُوا عَنْه، وأخَذَتهُم مَاديَّتُهُم وشَهْوَانيتُهُم بَعِيداً عن مَعْرِفته وحَرَمَتْهُم إدْراكَه، عَالَمٌ تحكُمه قِيَم مَعْنويَّة يتَصَاغَرُ عِنْدهَا المالُ والصِّحَّة والألم والدَّم، وكُلُّ مَا هُو خَطِير وعَظِيم في أعيُنِهِم، هَا هُم الشِّيعَة يَبذُلُونه ويُرْخِصُونَه في سَبِيل أجرٍ يَنتَظِرُونَه في العَالَم القَادِم، أو من حُبٍّ حكَمَهُم وعشْقٍ تملَّكَهُم، عَالَمٌ تحركه أسبَابٌ أُخرىٰ غَير التي تَفْعَل في مُجتَمعَاتهِم وتُؤثِّر في سُلُوكيَّاتهم...

إنَّ البكَاءَ والجزَع يَسْتَوقفُ السَّامع والنَّاظِرَ والحاضِر، ويَدْفَعه للتَّسَاؤل: مَاذا يُبكي هـٰؤلَاء؟ وماذا يَدْفَعُهُم للجَزَع والصُّرَاخ والتَّفَجُّع هـٰكذا؟ ومَا الذي يَدْعُوهُم لجرْحِ أنفُسِهم وإسَالَة دِمائهِم وإرخَاصِهَا بهـٰذا الشَّكْل؟

إنَّ هـٰذه الشَّعَائر تَفتَحُ بَاباً للسُّؤَال، وتَشُقُّ طَرِيقاً للبَحْثِ والتَّنقيب: مَا هـٰذا الدِّينُ والمذهَبُ الذي يخلُقُ في أتبَاعِه هـٰذه الدَّرَجَة من الحبِّ والبذْلِ والعَطَاء؟ ولَا سِيَّما أنهم يَروْنه عَامّاً شَامِلاً، يجمَعُ الكِبَار والصِّغَار، الرِّجَالَ والنِّسَاء، العَجَزَة الضِعَاف والأصِحَّاء الأقوِياء؟ لَا كَما هُوَ الأمرُ والحالُ في الدِّيَانَات الأُخرىٰ، فلَرُبَّما كَانَ في بَعضِهَا مثْل هـٰذه المظَاهِر، لـٰكنها في نُخْبَة مميَّزَة وشَرِيحة مَحْدُودَة، كَالرُّهبَان في المسَيحِيَّة، والبراهَامَات في البوذيَّة، ولَا يَبلُغ بحَالِ الشَّعِيرة الجماعِيَّة، والظَّاهِرة التي تَستَغرِق جميع أتبَاع المذهَب!

إذا كَانت دَعْوَىٰ التَّنَفُّر ومَزَاعِم التَّقزُّز خَضعَت لاختِلَاقٍ وافتِعَال، وفي الأقلِّ لمبالَغَة وتَهوِيل، فإنَّ هُنَاكَ حَقِيقَة بيِّنَة من التَّأثير الإيجابيِّ البَاعِث علىٰ البَحْثِ والدرَاسَة، لَا مجرَّد الرَّأي العَابِر، في نِطَاق المثَقَّف الغَرْبي، نَشَأت من إعْجَابه وإكْبَارِه هـٰذه الطُّقُوس.

إنَّ هذه المُمارَسَة التي يُطْلِقُونَ عَلَيهَا "دَمَوِيَّة عَنِيفَة"، وفي حَقِيقَتِها هي "إلهِيَّة عَظِيمَة"، تمثِّل أرْوَعَ صُوَر البذْلِ والعَطَاء، والاَسْتِعْدَادِ للتَّضْحِيَة والفِدَاء، تُورث المذْهَبَ العِزَّة لَا الوَهْن، وإن كَانت تُرْهِب، فهِيَ تُرْهب أعْدَاء المذْهَب ومَن يَكِيدُ به.

وقَد شَهِدْتُ بُنيَّ مَخاضَ الفِتْنَة التي أشْعَلوهَا في العَقْدَيْن الأخِيرَيْن حَوْلَ شَعِيرَة التَّطْبير، وكَيفَ عَبَّأ أحَدُ الأحْزَابِ الإسلَاميَّة أنصَارَه في «بريطَانيا» وعُمُوم بِلَادِ «أُوروبا»، لِيُرسِلُوا الرَّسَائلَ والبرقيَّات التي تَحكِي الصُّورة المشوَّهَة التي يُخَلِّفُهَا التَّطْبِير (وكَأنَّ القَوْم مُنْهَمِكُونَ في التَّبليغ والنَّشَاطِ الدَّعَوِيِّ والتَّبشِير بالدِّين والمذْهَب، والحال أنَّ أقصىٰ مَا يُرْجىٰ من أحَدِهم وغَاية جُهْدِه هُو الإبقَاء علىٰ أبنَائه في أدنىٰ حُدُود الاَلتِزَام، وإبعَادِهم عن الفَسَادِ الأخْلَاقيِّ الذي تَغْرَقُ فيه تِلكَ البلَاد، فَلَا يُفْلِح!)، يَختَلِقُون قِصَصاً يَنْسِجُونَها من تَسْوِيل الشَّيطَان، بأنَّ مَسَيحِيّاً شَارفَ علىٰ الإسْلَام، أو سنيّاً قَرُبَ من التَّشيُّع، ونَاهَزَ أن يَعتَنِقَ المذهَب، ثُم اَنصرَفَ واَنقلَبَ لما رأىٰ منْظَرَ المطَبِّرين، وتَقَزَّز من ذلك المشْهَد. وقَد سَمِعْتُ مباشَرة زَهْوَ أحَدِهم وفَخْره، بَأنه الذي أملىٰ للسُّلطة وتَسبَّب في إصْدَار حُكْم حَظْر التَّطْبِير! وكَيفَ وَظَّفَ مُحازبيه وعَبَّأهُم، ونَجَحَ في إرسَالِ مئَاتِ الرَّسَائل من أصْقَاع مختلِفَة وبأسماء مُتعَدِّدة، ولُغَات مُتَنَوِّعَة، خَلَقَت القَنَاعَة وأوْجَدَت أرْضِيَّة ذلك الحكْم (وإنْ كُنتُ أتوَقَّفُ في مَسْألة التَّأثر هذه، هُنا في هذا المَوْرِد بالخصُوص، وفي الحَاجَة لخَلْق الأجْوَاء والإملَاء، فَقَد "وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَه"!).

ثم هُنَاكَ غَفْلَة - في هذا السِّيَاق - عَن أمرٍ آخر، وتَجاهُل لحقِيقَة خَطِيرة...

إنَّ التَّعدُّدِية في الغَرْب هي أصْلٌ وثَقَافَة ومُرتَكَزٌ عَمِيقٌ في بُنيتِهِم الاَجتماعية والحضَارِيَّة، يتَفرَّع عَنه العيْشُ المشْتَرك، وهَامِش الحريَّة العَرِيض، الذي يُغَطِّي ويَشْمَل، أوَّل مَا يَشْمَل، حُريَّة المعتَقَد، وحُريَّة مُمارَسَة الشَّعَائر الدِّينيَّة، ويَغْرِس فيهِم تَقَبُّل الآخَرَ وتَفهُّم أسباب أدَائه شَعَائره بهذا الشَّكْل أو ذَاك. ومَن سَوَّل لإصْدَار فَتوىٰ حَظْرَ التَّطْبير، وقَمَعَ المؤمنين المعزِّين لإعمال حُكْمِه، من مُنْطَلَق أنَّ الغَربيين يَرفضُونَه ولَا يُطِيقُونه، ويُورِثُهم التَّنفُّر من الإسلَام والتَّشَيُّع... تجاهَلَ أنهم يَتَنَفَّرُون ويَتَقَزَّزُون من القَمْعِ والإرغَام والإكْراه، والنَّزعَة الدكْتَاتُوريَّة في إملَاء الفِكْر والعِقِيدَة، أضْعَافاً مُضَاعَفَة!

لَيْسَ في الغَربِ قَضِيَّة اسمُهَا "التطبير" ولاَ أزْمَةٌ بِسَبَبِه، ولاَ وَقَفَ التبشير بالإسلاَم، ولا اعترَضَ هِدَاية النَّاسِ وجَذْبهم إلىٰ المذْهَب الحقِّ، ولاَ تأخَّر ذلك يَوماً بِسَبَب اللَّطم والبكَاء وغَيْرهَا من صُوَر العَزَاء... ولَوْ أرادَ الحِزْبيُّون الإسلاميُّون، وأدْعِياءِ الثقَافَة والتَّنوير، الصِّدْقَ، وتحرَّىٰ أعْدَاءُ الشَّعَائر الوَاقع، في إخْفَاقِهم علىٰ هذا الصَّعِيد (وإن كُنتُ أعتَقِد جازِماً أنَّ التَّبليغ والتَّبشِير لاَ يُمَثِّل عُشْر مِعشَار همِّهم ولاَ يَستَغرِق لحظَة من وَقْتِهم ونَشَاطِهِم، إنَّما هي حُجَجٌ وأعْذَار!) فإنَّ السَّبَبَ الفِعليَّ لإعْراضِ الناس في تِلك المجْتَمَعَات عن صَوْت الإسلاَم ورَفْضِهم رِسَالَته، هو التردِّي الأخْلاَقي في سُلُوك المسلِمين، ثم اللَّوْث والتَّشْوِيه الذي نَالَ ديننا من عَبَث السِّيَاسيين بأفكَارِه ومَفَاهِيمِه السَّامِية وقيَمِه النَّبيلَة! بالإضَافَة إلىٰ عِلَلٍ أُخرىٰ، لَيْسَ هذا محلُّ بيَانها وتَفْصِيل البحْثِ فيهَا، ولكنَّ الشَّعَائر الحسَينيَّة بمُخْتَلِف صُوَرِهَا، مَظْلُومَة بَريئَة من هذه التُّهْمَة، فهي لَيْسَت في العِيرِ هُنا ولاَ في النَّفِير، ولاَ دَخْلَ لها في الأمرِ من قَرِيبٍ أو بَعِيد!

والحقِيقَة التي تُحلِّقُ بَعيداً عَن كُلِّ هذا وذاك، وتَترفَّع وهي تَدْفع مَقُولاَت القَوْم وتُبْطِل فِكْرتهم، هي أنَّ الردَّ الأصَحَّ علىٰ هؤلاَء التُّعَسَاءِ، الذين يُنَاصِبُون شَعَائر العَزَاء العَدَاء، يكُون في مَكَان آخر، ويَنْطَلِق من مَوْضع مُختَلِف بَعضَ الشَّيء (يَستَبْطِن التَّنزُّل ومُوافَقَتهم علىٰ مَزَاعِمِهم، ومُجارَاتهم - جَدَلاً - في دَعوَاهُم!)...

وهي أننَا لاَ نَسْتَقي دِيننا، ولاَ نأخُذُ أحكَامَنا الشَّرعيَّة، ولاَ نَبْني مفَاهِيمنا ونَستَلْهِم أفكَارنا، من مَوَاقِف الآخَرين منهَا ورأيهم فيهَا، مُسْلِمِين من أتبَاع المذَاهِب الأُخرىٰ كَانُوا، أو أهْلِ الكِتَاب من يهُود ونَصَارىٰ ومجُوس، أو كُفَّاراً ومُلحِدِين، فنُقِرُّ مَا يَستَسِيغُون ويَتَقَبَّلُون، ونَرفُض ونَنْبذُ مَا يَأبون ويُنكِرون!...

مَا لَنَا ولهم؟ مَا لِعَقَائِدِنَا وأعمالنا وطُقُوسِنا وشَعَائرنَا وعبَادَاتِنَا، برِضَاهُم وقَبُولهم واقتِنَاعِهم، أو بتَحَسُّسِهم ورَفْضِهم وإنكَارِهم؟ لنَا دِينُنا ولهم دِينُهم، لاَ نَعبُدُ مَا يَعْبدُون، ولاَ هُم عَابِدُون مَا نَعبُد! إنَّ صَرِيح القُرآن الكَرِيم يُؤكِّد أنهم لَن يَرضُوا حتىٰ نَتخلَّىٰ عن ديننا كُلِّه، ونَنْسَلِخ عن هَويَّتنا من رَأسِهَا ونَدْخُلَ في مِلَّتِهِم! ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴿١٢٠﴾﴾ (البقرة).

من السُّخْفِ بمَكَان الأرتكَاز في بُطْلَان شَعِيرة دِينيَّة قَامَ عَلَيهَا الدَّلِيل الشَّرعيُّ وَفْقَ أُصُول الأستِنْبَاط في مَدْرَستِنَا العَرِيقَة، والتَّنَصُّل من حُكْم شَرْعيٍّ ثَابتٍ مُقَرٍّ في مَذهبِنا المبارَك، أعْتِماداً على مَوْقفِ أربَابِ المدَارِس والأديَان الأُخْرىٰ! ولَا سِيَّما في نِطَاقِ العَوَام منهُم والسُّوقيَّة الذِّين لَا يَنْقَضِي عَجَبُهُم ولَا يَتَوقَّف رَفْضُهم لِشَيءٍ من مَعَالم دِيننا وسُلُوكنا وأخْلَاقِنا وأعْرَافنا وشَعَائِرنَا، وهكذا هُمُ المغْرِضُون المحَارِبُون.

إنَّ كَثِيراً من أحْكَام شَرِيعتنا الغرَّاءِ السَّمْحَاء، وشَعَائِر دِيننـا المسَلَّمَة التي لَا تَرديدَ فيها ولَا نِقَاشَ ولَا أختِلَاف حَوْلَها ولَا جِدَال، مَرفُوضَة مُسْتَهْجَنَة في قَامُوس هؤلَاء، ولَا يُمكِننا إقنَاع "الآخَر" لِيَرضىٰ بها ويَنزِل علىٰ حُكْمِها...

فحِجَابُ النِّسَاء عِنْدَهُم حَبْسٌ للمَرأة وأضْطِهَادٌ لها، وفي الأقَلِّ الأدْنىٰ، هُو كَبْتٌ وتَضْيِيق، ومَنْعُ عِلَاقَات الغَرَام والمعَاشَرة بين الشَّبَاب والفَتَيَات قَبْلَ الزَّوَاج مُصَادَرة للحُرِّيَّة الشَّخْصِيَّة، والوِصَايـة علىٰ الأبنَاء وتَأدِيبهم تَسَلُّطٌ وعُنْفٌ وأستِبْدَاد، والأذان إزعَاجٌ وإقْلَاقٌ للراحَة وتَلوُّث سَمْعِي، والصَّلَاة بركُوعِهَا وسُجُودهَا، والحجُّ بطَوَافِه وسَعْيه حَوْل الكَعْبة المشرَّفة وَثَنِيَّةٌ وقُبُورِيَّة، والأمتِنَاع عن الأربَاح الربَويَّة في المصَارِف، سَفَاهةٌ وغَبَاءٌ وتَضْيِيعٌ وهَدْر للمال، والذبَاحَة قَسْوَةٌ وهَمَجِيَّة، وقَد شَهِدَت بَعضُ بِلَاد الغَرب حملَة وَاسِعَة من قِبَلَ جمعيَّات الرِّفْق بالحيوَان، تُطَالِب البَلَديَّات والحكُومَات بوَقْف "القَتل القَاسي" الذي يُمارِسه المسْلِمُون تجاه الخِرَاف والعُجُول في الذبَاحَة!...

فهل نَتْرك شَعَائِرنا في سَبِيل إرضَاءِ الغَربيين عَنَّا؟ هَل نَتَخَلَّى عن دِيننا أو نُغَيِّر أحْكَامه ومَفَاهِيمَه ونَعْكِس تَعَاليمَه ونَقْلبهَا حتىٰ يظهَر الإسلَامُ أو التَّشَيُّع في أعيُنِهم تَقَدُّميّاً مُوَاكِباً للعَصْر؟ هَل نَأكُل المتَردِّيَة والنَّطِيحَة والموقُوذَة والمنخَنِقَة بالغَاز والميتَة من صَعْق الكَهربَاء، حتىٰ لَا يُقَال عَنَّا قُسَاةً عَنِيفين لَا نَرفُق بالحيوَان؟ هَل نَسْمَح بخُرُوج الفتَيَات المراهِقَات ونُفسِح لِسَهَرهِنَّ مع رِفَاقِهنَّ الشَّبَاب في الملَاهي الليْلِيَّة حتىٰ لَا يُقَال عنَّا رَجْعِيين مُعقَّدِين؟ هَل علىٰ المرأة المسلِمَة أن تخلَع حِجَابها، وتُصَافح الرِّجَال الأجَانب وتُلمِسهُم نُعومَة راحَة يَدِهَا لِتَكُونَ متَحرِّرة في أعيُنِهم، وتُعَدَّ مُنفَتِحَة في فِكرِها، مَقبولَة في سُلُوكها... فنكُونَ بهذا خَيرَ دُعَاة، وزَيْناً للدِّين لَا شَيْناً عليه؟!

إعلَم بُنيَّ أنَّ إرضَاءَ القَوْم غَايةٌ لَا تُدرك، وهُناكَ أصْلٌ عَلَيكَ التمَسُّك به والإصْرار عَليه في مَسْأَلَة التعَامُل مع "الآخر" وآدابُ العِشْرة مَعَ المخَالِف لَك في الدِّين والمذْهَب، سَوَاء في بِلَادِنا أو في المجْتَمَعَات الأُخرىٰ، هُو مَا يَجمَع بين حُسْن الخلُق وعَدَم الإسَاءَة إلىٰ "الآخر"، مَع التَّمَسُّك بهويَّتك والتِزَام أُصُول مَذهَبِكَ وشَعَائر دِينك. إنَّ أصْل التَّعَايش في المجْتَمَعَات المتمَدِّنة المتَحَضِّرة يَقُومُ علىٰ أن يَقْبَل كُلٌّ "الآخَر" كَما هُوَ، لَا كَما يُريده أن يكُون. علىٰ "الآخَر" أن يَقْبَل بكَ ويتَعَايش مَعَك كَما أنت، لَا كَما يُريدُكَ أن تكُون. أمَّا مَا نَراهُ من التَّفْرِيط في المبَادِئ الدِّينيَّة، والتَّزييفِ في الحقَائق العِلْمِيَّة والتَّاريخية، وقَلْبٍ وعَبَثٍ بالأُصول الأجْتِماعيَّة والأُسس المنطِقيَّة المُتَسَالَم علَيهَا، بأسم الوَحْدَة الإسلَاميَّة، أو بهَدَف إظْهَارِ وَجْهٍ "حَضَارِيٍّ" يَستَسِيغُه الغَربيُّ ويَرتَضِيه، فبَاطِلٌ مَرفُوضٌ، نَاهِيكَ بالمنطَلَقَات السِّيَاسِيَّة والمصَالح الأنتِخَابيَّة!

وبَعدُ بُنيَّ!...

فَما ذكَرتُه لكَ من تَساوِي مَرجع التَّقليد والمكَلَّف في تَشْخِيص الموضُوعَات، وعَدَم إلزَام رأي الفَقِيه وفَهْمِه النَّاس، وإمكَانيَّة مخَالَفته وعَمَل كُلٍّ بقَنَاعَته... لَا يُؤْخَذُ بإطلَاقِه، ولَا يُمارَس بتَهَوُّر وأندِفَاع. فهُنَاكَ مَيدَانٌ قَريبٌ من الفَقِيه، ومَوْضُوعَاتٌ يَعِيشُهَا كَما تَعِيشهَا أنت، لَيسَ الأمرُ والحَال فيهَا كَقَدَح الشَّاي الذِي يحسَبُهُ خَمْراً، أو حُكْمِه في لَهْوِيَّة الموسيقىٰ ومُنَاسَبتهَا لمجَالِس الطَّرَب من عَدَمه، ولَعَلَّهَا لم تَطْرُق مَسَامِعَه يَوْماً! فهُنَاك مَوْضُوعَات في صَمِيم مَا يَعيشُ الفَقِيه ويهتَم، كالَمجَالِس الحسَينيَّة وشَعَائر العَزَاء.

وهُنَا عَلَيكَ أن تميِّزَ بين الآراء، بمعنىٰ التَّشْخِيصَات والتَّطْبِيقَات، التي تَصْدُر من المراجع العِظَام حَوْلَ الشَّعَائر، فهُنَاك شَعَائر أصيلَة، ومَوْرُوثَات ثَابتَة، لَا يُسْمَح بالدُّنُوِّ منهَا، وعَلَينَا أن نُجَاهِدَ ونكَافحَ أن لَا يَمَسُّها أحَدٌ، كَائناً مَن كَان، كَالبكَاء واللَّطْم والمَوَاكِب والتَّشَابيه والتَّطْبير ومَا إلىٰ ذلك مما تَوَارثه الشِّيعَة جيلاً بعَد جِيل، وتَرسَّخ بينهُم كَشَعَائر حُسَينيَّة، بَذلُوا في سَبيلهَا أغلىٰ الأثمان وقَدَّموا أعزَّ القَرابين من دِمَاء أبنَائهِم، وأموَالهم، ومنَاصِبهُم الدُنيَوِيَّة، وفُرَصِهُم في المكَاسِب والتِّجَارات والحظوَة عند الحكُومَات، وأبقَوا عَلَيهَا وحَافَظوا علىٰ أستِمرَارِها... هذه لَا أجتِهَادَ فيها ولَا تجدِيد.

ولَا يُلتفَتُ إلىٰ مَن يَنَال منهَا وإن كَان كَ «المحدِّث النُّوري» ﷺ، صَاحِب (المستدرك)، فَلَا يُؤخَذ بمَزَاعمِه في (اللؤلؤ والمرجَان)، فهُناكَ أمزِجَة سَقِيمَة، وأذوَاقٌ منكُوسَة، ويكفِيكَ أن تَتأمَّل كَيفَ، وهُو صَاحِب (فَصْل الخِطَاب في تَحرِيفِ كِتَاب رَبِّ الأربَاب) راحَ يَعيبُ ويحذِّر من التأليفِ في مَا يُسيء إلىٰ المذهَب ويَفْتَح بابَ الطَّعن علَيه!

أما الأُمـور المُحدَثـة والأنـماط المستجَدَّة الـمُلحَقـة، الطَّارِئَـة أو المبتَكَـرة، وهٰكذا تَفَاصِيل وجُزئيَّات تلكَ الأَصِيلَة الثَّابتَة... فَلَا بَأسَ ولَا غَضَاضَة من البحْثِ فيهَا، ولَا يَنبَغِي إنزَالها مَنزِلَة الأُصُول والثَّوَابت في الـتَّحَسُّسِ والتَّوَجُّس، وفي مُوَاجهَتِهَا بالحِدَّة والشِدَّة، والإصرار علىٰ رَفْضِ المسِّ بهَا والأقترَاب منهَا.

فالأجتِهَاد في تَوقيتِ وكَيفيَّة تَنفِيذ بَعضِ الشَّعَائر، كَأن يُؤَخَّر التَّطْبِيرُ إلىٰ سَاعَة العَصْر بدَل القِيَام به صَباحاً بعدَ صَلَاةِ الفَجْر، أو اقتِصَـارِه علىٰ «عَاشُوراء»، دُونَ المنَاسبَات الأُخْرىٰ (مما رَاجَ مُؤخَّراً وانتَشَر، فبعَضُ المؤمنِين صَارَ يُطَبِّر في «الأربعِين»، وفي ذِكرىٰ "ضَرْبَة" «أميرالمؤمنين» ﷺ في التَّاسِع عَشْر من شَهْر رَمضَان) أو كَفَصْل هَيئَات التَّشْبِيه عن المجَالِس، وإفْرَادِهَا في أوْقَاتٍ وسَاعَاتٍ مُعَيَّنَة خَاصَّة، لَا تَتَـدَاخَل مَع وَقْت القراءة، أو كالأمتناع عن تقديـم الطعام في يَوْم «عـاشوراء»... إذا حَكَـمَ فَقِيه جَامعٌ بـمِثْل هٰذه الأُمور، ورَأىٰ ضَرُورَة العَمَل والألتِزَام بهَا، فَلَا بَأس بـمُرَاعَاتِه، والنُّزول علىٰ قَوْله، وإن لَـم تَقْـتَنع بصِحَّـة رَأيه، ورَأيتَ ـ مثلاً ـ أنَّ الإطعَام في صَمِيم مَظَاهِر «عَاشُوراء»، وهو مما لَا يَنبَغِي تَركُه والتَّفْرِيط به. وذلك حِفْظاً لحُرمَـة الفقَهَاء، وحِرصـاً علىٰ هٰذا الحصْن المنيع ودَورِه الخطِير ـ علىٰ مَدىٰ التاريخ ـ في الدِّين والأُمة، ولما تمثِّله المرجعِيَّة وتتَقَلَّده من مَقَام النِّيَابة العَامَّة عَن «وليِّ الأمر» ﷺ. ومن نَافِلَة القَوْل إنَّ الفَقِيه المرَاد هُنا، هُو الجَامع للشَّرائِط، المحَصَّن من تَأثير الحكُومَات وإملَاءَاتهِا، المنَزَّه من إغْوَاءَات وضُغُوط الأحْزَاب وتَسْويلَاتها، لَا المزيَّف المندَسّ في الحوْزَة، المقتَحِم صُفُوف المراجع بالحِيلَة والتَّرهيب، المتوَغِّل بَيْنهم بالدِّعَاية والإعلَام، من قَبيل التَّعِس الذي سَخِرَ من المطبِّرين وهو يَتَسَاءَل بخُبْث: لماذا يَفعَلُون بأنفُسِهم هٰذا؟ وعنْدَمَا قِيلَ لَه: يَـزْعُمُـونَ أنَّهم يُوَاسُـونَ «سَيِّـد الشُّهَداء» ﷺ. ردَّ بصَفَاقَة: إذَن، فلْيتَجَرَّعُوا السَّمَّ في ذِكْرىٰ وَفَاة «الرِّضَا»!

وهٰكذا أمرُ الاْجْتِهَادِ في المحدَثَات من الشَّعَائر الحسَينيَّة، فإذَا قَال فَقِيهٌ جَامعٌ للشَّرائط بحُرمَة التَّصْفِيق ـ مثلاً ـ في اْحْتِفَالَات مَوَاليد «الأئمَّة» عليهم السلام، من بَاب وَهْن المذهَب أو الإزراءِ بالشَّعِيرة والمسِّ بوَقَار المجْلِس وحُرمَته، ولم تَكُن قَانِعاً بتَشْخِيصِه هٰذا، ورأيتَ أنه ـ كَمْوضُوع ـ لَا يَنْطَبِق ولَا يَصْدُق علىٰ مَا شَخَّصَه الفَقِيه وطَبَّقَه.

فاْسْعَ مَا أمكَنَك إلىٰ مُجَاراته، وعَدَم رَدِّه، ولَكَ أن تُعرِضَ عَنه، ولٰكن لَا تَتَصَدَّىٰ لموَاجَهَتِه. وتجنَّب ـ علىٰ أيِّ حَال ـ أن تَقَعَ في هَتْكِ حُرْمَة الفقَهَاء والمرَاجع، والاْستِخْفَاف بأقوَالهم وآرائهم، من المنطَلَق الذي ذكَرتُه لَك، ومن الاْحْتِيَاط لِدِينك، فالاْجْتِهَاد في تَشْخِيص الموضُوعَات لِشَأن عَام كَالشَّعَائر الحسَينيَّة، وتحدِيد المصْلَحَة من المفْسَدَة في حركَة شَعبيَّة جماهِيريَّة عَريضَة كَحَركَة النَّاهضِين بإحْيَائها، مَيْدَانٌ خَطِير، لَا يَنبَغي المضيُّ فيه دُونَ دَعْم واْتِّكَاءٍ علىٰ رُؤسَاء المذهَب وزُعَماء الطَّائفَة وقَادَة المسِيرة الإيمانيَّة، الذِين يَقِفُون علىٰ مَصَالحَ عَامَّة قَد تخفىٰ عَلَيكَ، وتَعْجَز عن إدرَاكِهَا والإحَاطَة بها.

إننى أُوصِيكَ بُنيَّ أن تَتَمَعَّن في آراءِ وتَشْخِيصَاتِ الفقَهَاء العِظَام، وأن تُبَالِغَ في الاْهْتِمام بتَحْدِيدِهم للمَوْضُوعَات وتَطبيقِهم لمصَادِيقها الخَارِجيَّة وتَشْخِيصِم المصَالح، ولَا تتسرَّع بحَال في نَقْضِها وتَتَهَاوَن في رَدِّها، وتُبادِر إلىٰ تجاهُلِهَا والاْستِخْفَافِ بها. فإذا حَدَّد فَقِيهٌ أنَّ في هٰذا السُّلُوك المعَيَّن إضْرار بالمذْهَب، وهُو مما يُورِث وَهْنه وضَعْفه، ويُسْقِطه من الأعْيُن ويخلُّ بصُورته، ويَدْخُل في " لَا تكُونُوا شَيْناً عَلَينَا " ، فعَلَيْكَ التَّوقُّف، والعَمَل بـمقتضىٰ رأيه مَا أمكَنَك، وإن لم يكُن مُلزِماً، اللهُمَّ إلَّا أن يكُونَ حُكْماً، وعندهَا يَنتَقِل الأمر إلىٰ مَسألة نفَاذِ حُكْم الحاكِم في الموْضُوعَات الخارِجيَّة، غير القَضَاء وثُبوت الهلَال.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تُفرِّقَ في مَوقفكَ وسُلُوككَ بين الحزْم والقَطْع والصَّرَامَة في تَبنِّي الشَّعَائر والتَّمَسُّك بها ونُصْرتها، والثَّبات في جَبْهَة الدِّفَاع عَنهَا، وبينَ الجرأة علىٰ الفُقَهَاء، مَا يَبلُغ الوَقَاحَة في التَّعَاطي معَهُم، فَقَد رَأيتُ من بعضِ الشَّبَاب تَمادِياً وأداءً يَقْرُب من الغرُور، فينطَلِق من وَحيِ الغِيرَة علىٰ الشَّعَائر، حتىٰ يَنْصِبَ نَفْسَه وَلِيّاً وحَافِظاً ورَاعِياً للمَسِيرة! وكَأنه هُو ـ لَا غَير ـ مَن يَفْقَه ويُحسِن الفَهْم فيُقرِّر صِحَّة هٰذا السُّلُوك وسُقْم ذاك، وهَل أنَّ في هٰذه وَهْنٌ للمَذهَب وشَيْن أم إعزَازٌ لَه وزَيْن، وهُو غِرٌّ لم يَبلُغ العِشْرين!

وكما أسْلَفتُ فَقَد يكُون هذا (حِينَ يَدُور الأمر في نِطَاق المَوْضُوع) من حَقِّه الشَّرعيِّ، ولكن عَلَيه أن يُمارِسه بِأدَبٍ واتِّزان واعتِدَال ووَقَارٍ، ثم بِوَرَع وحِرْصٍ وحَذَر واحْتِيَاط، يَنأىٰ به عن تحمُّل التَّبِعَات، والغَرَق في المسؤُوليَّة الشَّرعيَّة والابتِلَاء بأخْطَاء لَا سَبِيل إلىٰ استِدْرَاكِها بتَوْبة وجُبرانها بتَصْحِيح، إذا وَقعَت وتحقَّق منهَا الأثر.

لقَد سَمِعتُ أحَدَهُم يقُول مُتَبَاهِياً: لَو أفتىٰ مَرجعي بهذا الحكْم أو ذاك، مما يَطَال الشَّعَائر الحسَينيَّة، لَوَضَعتُ حُكْمه تحتَ قَدَمي! فيُجِيبه آخَر: لما سَاوَت الفَتوىٰ عِندِي شَروىٰ نقِير! فَينبَري ثَالِث: أنا لَا أُقلِّد نَاصِبيّاً وإن كَان الأعلَم! يَقْصِد أنَّ مَسَّ الفقيه بالشَّعَائر ـ وَفْقَ نَظْرة هذا الشَّاب وتَقْدِيره ـ يُخرِجه من المذْهَب ويُوقِعه في النَّصْب! (وكُلُّهم شَبَابٌ يَافعٌ، أنا قَاطعٌ أنهم يجهَلُونَ أكثر أحكَام الطَّهَارة!)... وكَأنها مُبَاراةٌ في الوَقَاحَة، أو أنَّ ثمَّة تَلَازُماً بين التعصُّب للشَّعَائر الحسَينيَّة، وإهَانة مَراجع التَّقلِيد!

إنَّ هذه الرُّوحيَّة والعَزِيمَة الصُّلبَة في نُصرَة الشَّعَائر (عندَ الصَّادِقين لَا المتَبَاهِين المتبَجِّحِين!)، وهذه الغَضْبَة والحميَّة والغَيْرة الولَائيَّة، أمرٌ حَسَنٌ جميل، بَل رَائع ومَطْلُوب، لكن بمُراعَاة الشُّرُوط والعَمَل بالضَّوَابِط، والتِزَام الموَازين، وحفْظ الآدَاب والحُرُمَات، سَوَاء حُرْمَة الأحْكَام الشَّرْعيَّة، ومَا يُمكِن أن يَكُونَ ـ في الوَاقع المخْفِيِّ عنَّا ـ من حُدُود الله، أو حُرمَة الفُقَهَاءِ الذِين يَستَنْبِطُونها.

تَنوُّع أنماطِ العَزاء

هكذا يَتَبيَّن أنَّ أنماطَ العَزَاء مُتعدِّدةٌ متَنوِّعة، وأنَّ البَابَ مُشْرَعٌ أمَام نَمائهَا وتَوسُّعِهَا، فيُمكِن أن يَفتَحَ علىٰ آليَّاتٍ جَدِيدَة، ويُفضِي إلىٰ صُوَرٍ مُسْتَحْدَثة وأنماطٍ مُبتكَرة، نَاهِيكَ بالتَّقلِيدِيَّة المعرُوفَة، تحيي الذِكْرىٰ وتُبَلِّغ الرِّسَالَة، وتُثِير الأشْجَان والأحزان، وتفَجِّر الدُّمُوع، وتمثِّل الحرقَة والافتِجَاع، وتحقِّق الجزَعَ علىٰ مُصِيبَة «سَيِّد الشُّهَداء» عليه السلام... فَلَا إصرار علىٰ الأنماطِ المعْمُول بهَا فِعْلاً، من غَير المنْصُوصَة التَّعَبُدِيَّة، إلَّا لأنها تُؤَدِّي هذا الغَرَض وتَحقِّق هذه الغَاية، فإن جَاءَنَا أحَدٌ بفِكْرة جَدِيدَة، فَلَا مَانعَ من العَمَل بها، فَما هذه وتلك إلَّا طُرقاً ووَسائل تَقُودُنَا إلىٰ الحبِيب، وسُبُلاً للاتِّصَال بمَعْشُوقنا، وقَدْ رَأينا أنه عليه السلام يرتَضِيهَا، وأنها تُرضِيه عنَّا، فالتزَمْناهَا وعَمِلنَا وتمسَّكنا بها.

نَحْنُ عُشَّاقٌ، بل خُدَّام وعَبيدٌ ومماليك «سَيِّد الشُّهَداء» ﷺ، نَبحَثُ عن أيِّ عُذْرٍ وسَبَب، ونتَمَسَّك بأية حُجَّة، ونَلتَمِس أدنىٰ وَسيلَة تُقرِّبنا إليه، فلَو ٱبتكَرَ أحَدٌ طَريقَة جَديدَة إضَافَة إلىٰ هـٰذه المعْرُوفَة المتدَاوَلَة من أنماطِ الشَّعَائر، يُمكِنُنا أن نُحيي من خِلَالها الذِّكرىٰ ونُقِيم العَزَاء، فَلَن نأباهَا، ولَا مَانع لَدَيْنا من العَمَل بها، ولَن نَتحَفَّظ عَلَيهَا، اللهُمَّ إلَّا حَيثُ يَثْبُت مخالَفتهَا لأحكَام الفِقْه، ولم يَسْتَوْفِ الشُّروطَ الشَّرْعيَّة، ومن بَعد ذلك مَوازين كَمالِ العَمَل، مما ذكَرنَاه وجَرىٰ البحْثُ فيه آنِفاً.

الحسَينيَّة بيتُ الحبيب وجِوَاره، والشَّعَائر مَوْطِنه ودِيَاره... نَسِيحُ فيهَا ونَهيم، نتَنَقَّل ونَتجَوَّل، نمُرُّ ونَطُوف، نَلْوِي الأعنَاق بالباب، ونَبسُطُ أكُفَّ الاَستعْطَاء، ونلثِم الأعتَاب، نُقَبِّل ذا الجِدار وذا الجِدار، علَّنا نُدرِك شَيئاً ونُصيب سَهْماً، ونبلُغ من هَدَفنَا ضِغْثاً، ونُحَقِّق من رَجَائنا قَدْراً، ونَحْنُ نلْهَجُ بدُعَاء: ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (يوسف)، ونكَرِّر نِدَاء: "أبد والله مَا ننسىٰ حُسيناً".

إنَّ في بقَاء هـٰذا الباب مُشْرعاً، أي الاَبتِكَار في أنماطِ الشَّعَائر والتَّوسُّع فيهَا، هو الذي خَلَق التنوُّع والتَّعدُّد، وما زَال يَسْمَح بذَلك ويُفْسِح، وفي هـٰذا بُنيَّ سِرٌّ، بل أسرارٌ، منهَا مَا يُعَالج تَعدُّد الأهْوَاء وتَنوُّع الاَهتِمَامَات، فبعَضٌ يجذِبه هـٰذا النَّمَط، وآخَرُونَ يَميلُون إلىٰ ذاك، وغيرُهم لَا يَتَأثَّر إلَّا من هـٰذه الطَّرِيقَة لَا تِلك، بخِلَافِ جَمْع لَا يَنْفَعِل إلَّا بوَسيلَة وَاحِدَة ونَمَطٍ ثَابت... فكأنَّ الغَرَض هو جمعُ الجمِيع، وٱستِقْطَاب كُلِّ المؤمنين، بل النَّاس أجمعِين حَوْل هـٰذه الشَّعَائر، لِيَسْمَعُوا بالوَاعِيَة ويَعِيشُوا الحدَث، بالقُلُوب والعَوَاطِف والأروَاح، لَا بالعُقُول فَحَسْب، مما يكْفِيهَا مجرَّد الإبلَاغ والإثبَات واللغَة العِلْميَّة، التي تجِدهَا بصُورة أفضَل في الكِتَاب!

وبعْدُ بُنيَّ، من أسرار تَكَثُّر أنماطِ الشَّعَائر، مُعَالَجَة الخلَل والنَّقْصِ والثَّغَرات التي قَد تَنَال بَعضَهَا، فيَجْبُرهَا بعضُهَا الآخَر، وتُوَسِّع دائِرة الرَّجَاءِ في التِماسِ قَبُول «المولىٰ» ورِضَاه، والعَيْش في أُفق السَّعْي الحثِيث الدَّؤوب كَمَظْهَر من أجمل مَظَاهِر الحبِّ والعِشْقِ الذي يُذْهِل صَاحِبه ويُورِثه الحيْرة في سَعْيه لما يُرضي "الحبيب".

فالمؤمن الموَالي لَا يَدْرِي هَل بَلَغَ في العَزَاءِ مَا يُرضي «مَولَاه»؟ ففي تِلكَ السَّاعَة من لَيلَة «عَاشُوراء» أو يَومه، على سَبيلِ المثَال، هُنَاك عَشَرات، بل مئَاتِ آلافِ الحسَينيات والهيئات والموَاكِب التي تُقِيم العَزَاء، وعَشَرات مَلَايين المعَزِّين، الذِينَ يَلْهَجُون ويَهتِفُونَ: "يا «حُسين»"، كُلٌّ على طَريقَته، فكَيفَ السَّبيل إلى لَفْتِ نَظَر «المولى» إلى مجلِسنَا؟... فكَأنَّ التَّعَدُّد والتنَوُّع إحْدَى الأبواب والسُّبل التي يَلْجَأ إليهَا الموَالي: فيُنْشِد ويَرثي، ويَنُوح ويَبكِي، ويُقِيم التَّشَابِيه، ويُخرج الموَاكِب، ويُسْقي ويُطْعِم، ويجزَع ويَلْطِم، ويُدْمي ويُطَبِّر... لَعلَّ وَاحِدَة من هذه تُصِيب، وذاكَ المنى لَو أنَّ ذلك يَحصَل.

ومن هُنَا أنتقِل إلى تَناوِل آدابِ ورُسُوم بَعضِ أنماطِ العَزَاء، ولم أختَصَّهَا بالذِّكْر وأُقدِّمهَا على سِوَاهَا إلَّا لخبرتي في أدائهَا والنهُوضِ بها، وبالتَّالي وقُوفي على شَيءٍ من أسرَارِهَا وآدابها ولَطَائِفِ ممارَسَتِهَا، وحملي رَسَالَةً أُبلغهَا حَوْلَها وأُوصيكَ بها، دُون بَقِيَّة صُوَر وأنماطِ العَزَاء، التي لَسْتُ متَمَرِّساً فيها ولم أحْظَ بكَسْب الخبرة والتَّخَصُّص، وبالتَّالي، لَيسَ لَديَّ مَا يُقَال عنهَا، أو ـ في الحقيقَة ـ مَا يَستحِق الكِتَابة فيه ونَشْره حَوْلها.

البُكَاء

على طَريقَتي في هذا الكِتَاب، سَأتنَاوَل الموضُوع من جَانبٍ وَاحِد أحْسَب أنه مُهْمَل، أو مُلحٌّ في ضَرُورته، من بَاب مَا يُواجِهه من هُجُوم، أو لخطَره وعَظِيم مكَانه ودَوْره، لَا تَنَاولاً شَامِلاً تامّاً، ومعَالجة شَافِيَة كَافِية. وهُنا، في هذه الشَّعِيرة، سَأكْتَفِي بشَذْرة من الأحَادِيثِ الشَّرِيفَة التي تَناوَلَت فَضِيلَة البكَاءِ ومَشْرُوعِيَّته، والأجْرَ المنظُور لهذه الشَّعِيرة وأهميَّتها، فقَد ذكَرتُ بعضَ ذلك في فصُول ومَوَاضَع سَابِقَة، وسَأُرجِعكَ في الفَصْل الأخير إلى كُتُب ومُصَنَّفاتٍ تَجِد فيهَا مَا يَكفِيك ويُغْنِيك.

إنما سَأعْمَدُ لِبيَان أمْرٍ، والتركيز على جَانِب، هُو نَقْض مَا يَعْرِضه أعداءُ البكَاء... من مخَالِفين، لَا غرَابة في ٱستِعْدَائهم هذه الشَّعِيرة العَظِيمَة، أو شِيعَة، ٱصطَلَمَتْهُم البَلِيَّة فكَانُوا من أتبَاع المضِلِّين، وٱستَحْوَذَ عَلَيهم الشَّيطَان، فَوَقَعُوا فَرِيسَة ظُلماتِ أدْعِياء "التَّنْوير" و "الحدَاثَة"، وحُرِمُوا أعظَم نِعْمَة، وأوْصَدُوا على أنفُسِهم بَابَ الرَّحمة، وتَركُوا سَفِينَة النَّجَاة التي أركَبتهُم نَجَابتهُم على مَتْنِها، فَأبوا إلَّا أن يَتَرَجَّلُوا مِنها!...

من أنَّ البكَاء حِيلَة العَاجز وشَأنُ النِّسَاء، وذهَابٌ قَاتِلٌ في العَاطِفَة، يَنتَهي إلىٰ ذَهَاب العَقْل وتجمِيد العَمَل، والأنـصِرَاف إلىٰ النِّيَاحَة والأنشِغَال بالأنين! ومن عَجَبٍ أنَّ أحْدَاث الضُلَّال، ومُثقَّفي - أو في الحقِيقَة - مُنْحَرفِي عَصْرنَا الحَاضِر، لَا يَتَمَتَّعُونَ بَأدنىٰ مَوْضُوعيَّة، ولَا مَسْحَة، نَاهِيكَ برُؤية عِلميَّة، مما كَان في الأوَّلين من حُكَماء وشُعَراء وأُدباء، فالملَاحَظ علىٰ أُولئك جمعُهم بين ذمِّ البكَاءِ ومَدْحِه، حَسْب المورِد والمنَاسبَة، فقَد يكُون صِفَة حَسَنَة ممدُوحَة، أو يَنقَلِب - عِندَهم - إلىٰ قَبيحَة مَذمُومَة. أما القَوْم في زَمانِنا، فبُغضٌ طَمَسَ علىٰ عُقُولهم، وحِقْدٌ أعمَاهُم وأصَمَّهُم، أخَذَهُم إلىٰ حَرْبٍ مَسْعُورة، ومُنَاجَزَة ومُصَارَعَة هي أقرَب إلىٰ إرسَالِ الكِلَاب، ونَطْح الثيران!

وكَشَاهِد أنقُل فَصْلاً من بعضِ رَوائع أعمَال القَرْن الرابع الهِجْري مُدَلِّلاً علىٰ مَا أُريد، ومُسْتَأنِساً ببَعْضِ اسْتِعْرَاضِه أمر البكَاء، لتُقَارِنه بِسَخَافَة مَا يُقدِّمه مُعَاصِرونا من أربَاب الضَّلَال، ومُوَجِّهك بُنيَّ إلىٰ عَدَم الوُقُوع في مَا نَنْتَقِد ونأخُذُه علىٰ خُصُومنا، فالبَحْثُ العِلْميُّ، وتَتبُّع الآراء، وإعمَال النَّظَرِ في مَا يقُوله الآخَرُون، له فَوائد جمَّة، لَا يَنبغي أن يَحرُم المرءُ نَفْسَه منهَا، إذا كَان أهلاً للتَّحْقِيق والتَّدقِيق، ومَعْرِفة الغَثِّ من السَّمِين، وانتِشَال مَا يَنْفَع، بعدَ إزالَة الغُثَاء وتجنُّب الفَاسِد من الأقوَال والبَاطِل من الآراء...

يقُولُ «الثَّعَالبي» (صَاحِب «يتِيمَة الدَّهْر») في كِتَابه «اللطَائف والظَّرائف»:[1]

بَابٌ في ذمِّ البكَاء:

قَالَ بَعضُ الحكَماء لبَعْضِ الملُوك وقَد رآه في مُصِيبَة يَبكي: لَيْسَ يَلِيقُ بالسُّلطَان مَا هُو عَادَة الصِّبيَان والنِّسْوَان. وكَانَ «محمَّد بن عبدالملك الزيَّات» يقُول: إنَّ البكَاءَ من خَوَر الطَّبيعَة وضَعْفِ النَّحِيرة[2]، وتَركِ البُكَاءِ في الخطُوب النـزل من أخْلَاق القَوْم البُزل[3]، ولذَلك قَال الشَّاعِر:

يُبكى عَلَينا ولَا نَبكي علىٰ أحَدٍ * لَنَحْنُ أغْلَظ أكْبَاداً من الإبِـل

---

(١) طبعة دار المناهل، من: ص٣٧ - ٤٠.

(٢) النَّحِيرة: آخِر أيام الشَّهْر (الذي يُنْحَر، فيَلِيه مَا بعده)، ويُراد به هُنا العَاقِبَة أو الغَاية والنهَاية.

(٣) البُزْل: البازِل، البَعِير إذا انشَقَّ نَابُه وظَهَر، وهي في الرجُل كِنَاية عن بلُوغ الكَمَال والعَقل والخِبرة.

وقَالَ «أبو تمام» في التَّجلُّد وتَرْكِ البُكَاءِ عِند المصِيبَة، وقَد أحْسَن:

خُلِقْنَا رِجَالاً لِلتَّصَبُّرِ وَالأسىٰ
وتلكَ الغَوَاني لِلبُكَا والمَآتِمِ

ولـ «البُحْتُرِي»:

ولَعَمْري مَا العَجْزُ عِنْدِيَ إلَّا
أَن تَبيتَ الرِّجَالُ تَبكي النِسَاءَ

وقَالَ «ابنُ الرُّومي» في الرَزَايا وتَرْكِ البكاء:

تَرحَّلَ مَن هَوِيتَ وكُلُّ شَمْسٍ * ستَكْسِفُ أو ستَغْرُبُ حين تُمسي
ومَا ألهَاكَ عن ذِكْرىٰ حَبيبٍ * كَعَدِّكَ أمسَ يَوْمٍ بَعْدَ أمسِ
أبتْ نَفْسي الهُلَاعَ لِرُزْءِ شَيءٍ * كفىٰ شَجْواً لِنَفْسي رُزءُ نَفْسِي
أتهْلَعُ وَحْشَةً لِفِراقِ إلفٍ * وقد وَطَّنْتُهَا لحلُولِ رَمْسِ
رأيتُ الدَّهْرَ يجرَح ثم يَأسُو * يُؤسِّي أو يُعَوِّضُ أو يُنَسِّي

وقَد سَبَق وقَدَّم عَلَيه: بَابٌ في مَدْح البُكَاء:

كَان «يُوسَف» عليه السلام إذا بَرِحَ به الحزْنُ علىٰ «أبيه» دَخَلَ وصَبَّ عَبْرَته ثم خَرَج. ويقُول «أبوبكْر الخوَارزمي»: إنَّ الفَجِيعَة إذا لم تُحارَب بجَيشٍ من البكَاء، ولم يُخَفَّف من أثقَالها بشَيءٍ من الأشتِكَاء، تَضَاعَفَ دَاؤُهَا، وزادَ عيَاؤُهَا، وعَزَّ دَوَاؤُهَا. ويقُولُ «أبو إسحَاق الصابي»: إنَّ في إسبَال العَبْرة، وإطْلَاق الزَّفْرة، والإجهَاشِ والنَّشِيج، وإعْلَانِ الصِّيَاح والضَّجيج، تَنْفِيساً من بَرحَاءِ القُلُوب، وتخفِيفاً من أثقَالِ الكُروب.

وقَال «امرؤُ القَيْس»:

وإنَّ شِفَائي عَبْرةٌ مِهْرَاقَةٌ
فهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ من مُعَوَّلِ

وقَال آخَر:

بكِيتُ لَيلَةَ هَجْرِها من وَصْلِها
وجَرَت مَدَامعُ أعيُني كَالعَنْدَم

أبكِي وأمْسَحُ مَـدْمَعي في جِيـدِهَـا
من عَـادَةِ الكَـافُـور إمسَـاكُ الـدَّمِ

وقَال آخَر[١]:

وَمَـا في الأرضِ أشقــىٰ مِن مُحِبٍّ
وَإن وَجَـدَ الهَـوَىٰ حُلْـوَ المَـذَاقِ
تَــرَاهُ بَــاكِـيــاً في كُلِّ وَقْـتٍ
مَخَـافَـةَ فُـرقَـةٍ أَو لاَشْتِيَـاقِ
فَيَبكي إِن نَـأىٰ شَـوْقـاً إِلَـيهِم
وَيَبكي إن دَنَـوا خَـوْفَ الفِـرَاقِ

وقَال غَيره:

لَـولاَ مَـدَامعُ عُشَّـاقٍ ولَـوْعَتهُم
لَبَـانَ في النَّـاسِ عِـزُّ المَاءِ والنَّـارِ
فَكُلُّ نَـارٍ فمِن أنفَـاسِهم قُـدِحَتْ
وكُلُّ مَـاءٍ فمِن دَمْعٍ لهم جَـارِي

وقَال «ذُو الرمَّة»:

لَعَلَّ انحِـدَارَ الـدَّمعِ يُعْقِبُ رَاحَـةً
مِنَ الـوَجْـدِ أَو يَشْفِي نَجِيَّ البَلَابِلِ

وقَال «ابنُ الرومي» في ذِكْر العِلَّة في تخفيف الهمِّ بالبكَاء:

الـدَّمْعُ في العَيْنِ لَا نَـوْمٌ ولَا نَـظَـرٌ
ولَا مَحَـالَـة مـن مَعنـىً له خُلِقَـا
ولم أجِـدْ ذلك الـمعنـىٰ وحَقِّكُما
إلَّا الـبُكَـاء إذا مَـا فَـاجعٌ طَـرَقَـا

(١) وَجَدْتُ في «الموسوعَة الشعرِيَّة» أن البيتَ لـ «ابن دريد الأزدي».

وقَالَ أيضاً:

إبكِ فَمِـن أنفَعِ مَـا في الـبُكَـا
أنَّ الـبُكَـا للحُـزْن تحلِيل
وهـوَ إذا أنـتَ تَـأمَّلْـتَه
حُـزْنٌ علـىٰ الخَـدَّيْـن محلُـولُ(١)

وقَال «أبوالحسن بن أبي القَاسِم القاشَاني»: قَد شَفيتُ غَليلي بها ٱستَدْرَرته من أسرابِ الدُّمُوع المتجَبِّرة، وخَفَّفتُ عنِّي بعضَ البرحَاء بها ٱمتَريَته من أخْلَافِها المتحَدِّرة.

ٱنتهىٰ كَلَام «الثعَالبي»، ونظَيره متكَرِّر في مَوَاطِن أُخرىٰ من التُّراث العربيِّ في مُؤلَّفات أعْلَام الفِكْر والفَنِّ والأدَب كَـ «الجاحِظ» و«ابن حَزْم الأندلُسي» و«القَيْرواني» و«أبي فَرج الأصفهاني» و«الماوَرْدي» و«عَبدربه الأندَلسي»، وهُم يَعرِضُون الأُمور بمَسْحَة عِلْمِيَّة، ولُغَة تحمِل بعضَ الموْضُوعيَّة... وكُلَّما ٱبتعَدَ البَحْثُ ونَأتْ مَادتُه عن مَواطِن الخِلَافِ العقَائِديِّ ومَوَاضِع النِّزَاع الطَّائِفِي، تَراهُ تَنزَّه عن التعَصُّب وتَجَرَّد عن الميُول والأهوَاء، ونَحَا منحىٰ العِلْم وشُرُوطه والعَقْل ومُقْتَضَياته، ومَا أن قَرُب منهَا ودَنَا حتىٰ تَعَطَّلَت العُقُول وطَاشَت الألبَاب وسَفِهَت الحُلُوم وفَسُدَت الآراء، وظَهَر مَعدِن النَّصْبِ في بَعضِهِم، وخِذْلَان الحقِّ في آخَرين! لِذَا تَراهُم في مَسْألة مثل البُكَاء، وهُم بَعيدُون عما نَحْنُ فيه اليَوْم، ولم يَكُن في عُصُورِهم ظَاهِرة شيعيَّة وشَعِيرة حُسَينيَّة، تَراهُم يَعْرِضُون الفِكْرة ويتَنَاوَلُونها بمَوْضُوعيَّة. وقد يجوز لهم ألَّا يفعَلُوا، ولَا يُستَغرَبُ منهُم، فلَا يُرجىٰ من الغَريب البعيد غَير الجهَالَة، ولَا يُرتَقَب من العدُوِّ إلَّا العَدَاء!

لكن مَا بَالُ "مفكِّرين" و"حَركيين إسلَامِيين" و"مثقَّفين" وأدْعِيَاء عِلْم وفَقَاهَة، مُنتَسبين إلينَا ومحسُوبين عَلَينَا؟... لماذا هذا التَّجَنِّي والجفَاء، ولم هذا الصُدُود عن الحقِّ، والإعْراضُ عن العَقْل، وإنكَارُ الدَّلِيل، ومُجانبَة المَوْضُوعيَّة والأُصول العِلْمِيَّة؟

---

(١) نسَبهُما «الثعالبي» لـ «ٱبنِ الرومي»، ولم أجِدْه في دِيوَانه، ورأيتُ البيتَ الثاني في شِعْر «الحسن بن وَهب» وكان البيت الأوَّل بهذا النص:

إبـكِ فَـما أكْـثَـرَ نَفْع الـبُـكَـا
والحُـبُّ إشـفَـاقٌ وتَـعْـلِـيـلُ

تَعَـالَ إِلىٰ مُعَاصِرينا أدْعِياءِ التَّنوِير، من الإسلَامِيين "الشِّيعَة"، بل الألتِقَاطيين الشَّنِيعَة، كَـ «أحمد كَسرَوي» و«علي شَريعَتي» و«محمد حسَين فَضْل الله» و«أحمد الكَاتب» و«أحمد القُبَّانـجِي» وأضْرابهم ممن لَا يَـخْفَوْنَ عَلَيك... مَا بَالهم يتَشَنَّجُونَ ويتَوتَّرون إذا قَربُوا من مَبْحَث الشَّعائر الحسَينيَّة ودنَوْا منهَا، وكأن تيَّاراً من البرقِ يَـصْعَقُهم! أو كَأنهم مَوتُورُون، نَالَهم من مَراسِم عَزَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام مَا مَلأَ القُلُوب وشَحَن الصُّدُور؟! مَـا لهم يَلِجُـون الميدَان، ويَـقْحَمُون السَّاحَـة بنَفْسِيَّاتٍ مَـرِيضَـة ورُوحِيَّات حَاقِدَة، ويَعمِدُونَ إلىٰ وَسَائل مُلْتَوِيَة وطُـرُقٍ مُتَحَامِلَة؟ كَأنَّ لهم مَع السُنن والشَّعَائر الحسَينيَّة ثأراً، يَفتَقِدُون أدنىٰ حُدُود الموْضُوعيَّة، ويَفْتَقِرُونَ أقلَّ الأمانَة العِلْمِيَّـة، حتىٰ تحسَبهُم أعدَاءً، أو لَيْسُوا من العِلْم في شَيء، والمتعَلِّم مِنْهُم والمثَقَّف، تَرىٰ في كَلَامِه ومَوْقفه مَا يَنِمُّ عن حِقْدٍ يُعْمِيه وعَدَاوَة تُغْرِيه، فَيَأخُذُ في الحَربِ والتَّشْنِيع مَا يُخرِجَه من الأعتِدَال والأتِّزان، ويُدْخِله في الأفتِراءِ وسِيَاقِ الغَوْغَاء!

هـٰؤلاء التُعَسَاء، يُعَادُون الشَّعَائر الحسَينيَّة من رَأسِهَا، ولَوْ خَلَوْا وأنفُسَهُم، وَسنَحَت لهم الفُرصَة مَرَّة، وأمكنَتْهُم الظُّرُوفُ يَوْماً، لألغَوا هـٰذا البَاب من أسَاسِه، وقَطَعُوا هـٰذا الطريقِ وعَطَّلوا هـٰذا الحكْم، بل لَحفَروا لَه ودَفَنُوه، ورَدَمُوا عَلَيه وطَمَسُوه، وأعْفَوْا أثَره فَلَا يهتَدِي إليه من بَعدُ مُهتَدٍ! ومما يَقضُّ مَضَاجِعَهُم ويخرِّب مَشَاريعَهُم ويُبطِل سِحرهُم وخِططَهُم: البُكَاء، وكَأسْلَافِهِم الرُّوحِيين الذِّين ضَاقُوا بـ «سيِّدَة النسَاءِ» عليها السلام ذَرْعاً، فمنَعُوهَا البُكَاء، حتىٰ قَطَعُوا "أراكَة" كَانت تَسْتَفيء بظِلِّها، فبنىٰ لها «أميرالمؤمنين» عليه السلام "بيتَ الأحْزان"، ثم مَا لَبِثَ خَلَفُ ذلك السَّلَف أن هَدَمُوا البيْت!... هـٰؤلاء بُنَيَّ يجرُون علىٰ نَهْج أُولئك، لَا يُخَامِرنَّك في هـٰذا شَكٌّ، ولَا يَعْتَرِينَّكَ رَيْب!

فأعْرِف عدُوَّك، وتَنَبَّه لمصْدَر الخطَر الذي يُهَدِّد عمَلَك الحسَيني. لَا تُؤخَذَنَّ بصَلَاة أحَدِهم أو "جِهَادِه"، ولَا بِشُهْرته و"فُتُوحَاته"، ولَا "بُطُولَاته" و"أمجَادِه"، ولَا تَنطَلِيَنَّ علَيكَ تُرَّهاتٌ من حَشْوٍ يَسُوقُه، بَعضُها نحَلٌ وسَرِقَات، وزَخَارفُ مُنَمَّقَات، ولَو دَقَّقتَ وأمعَنْتَ، لما رأيتَ إلَّا هَذراً وثَـرثَرة، من مُتَكَلِّف متَشَدِّقٍ فَدِم، ميِّت الحِسِّ، نَاضِب الرؤية، تَفِه الكَلَام، يَتَنَطَّع بفُضُول القَوْل، ويتكَثَّر باللغْو.

ولكَ أن تَتَأمَّل - كَمِثَال - في مَا ألقَوْه علىٰ الألسُن، وأجْرَوه في أوْسَاطِهِم مَجرىٰ الحقَائق والمسلَّمات وَاجِبَة العَمَل والأتبَاع، وقَد جَاؤوا به وأختَلَقُوه في السَّاحَة، كتحَايُلعلىٰ النُّصُوص، والتِفَافٍ علىٰ الحدُود الشَّرعيَّة التي لاَ يُمْكِنهُم إنكَارهَا أو إخْرَاجهَا عن صَرِيح مَداليلهَا، إلَّا أن يخرُجُوا من مِلَّتِنَا ويَدِينُوا بغَيْر دِيننا، أختَلَقوا مهْزَلَة بِدْعَة: "البكَاءِ الهادِف"! وهي من شَرِّ البَلِيَّة ومُضْحِكَات الرَّزيَّة! فبينَا هُم يَستَنكِرون الصَّيْحَة والصرخَة كَوْنها تَدْخُل في التَّمثِيل والأداء الكَاذِب المفتَعَل (فهُم لاَ يتَصَوَّرون أن يَبلُغ الوَجْدُ بمُؤمن هذا الحدَّ، فيَصرُخ علىٰ مُصِيبَة «الحسَين» عليه السلام ويَضجُّ بالصَّيْحَة!)، لأنَّ البكَاء المشروع هو أنفِعَالٌ تِلقَائيٌّ، وعَطَاءٌ عَاطِفيٌّ طَبيعِي، تَراهُم يُطَالِبونَ هُنَا بـ "أفتِعَال" صِيغَة أو شَكْل للبكَاء، أو آلية تجعَلُه "هَادِفاً" أو "رِسَاليّاً"، كيفَ بالله عسىٰ المرءُ يبكي "بُكَاءً هادِفاً" وهُو - في المفتَرَض - فِعلٌ غير إرادِي؟ والمشروع، النَّزِيه الخَالِص، لاَ تمثيلَ ولاَ تَصْوِيرَ فيه؟... ولم يُحِر أحَدٌ ممن وَاجَهتُه بهذا الإشكَال جَوَاباً، ولكنهم مَا زالُوا يجترُّون الشِعَار، ويكَرِّرون الدَّعْوَة، يُواجِهُون بها شَعِيرة البكَاء!

هذا هو البكَاءُ عندَ أُدباءِ العَرَبِ وحُكَمائِهم المخَالفِين، وهكذا هو عِند أدْعِياء الثقَافة والتنوِير من الألتِقَاطِيين "الشِّيعَة". أما عِندَنَا، كِعبَادَة إلهيَّة، وشَعِيرة حُسَينيَّة فهُو شَيءٌ آخَر... لاَ يُرادُ به إطفَاءُ البُرَحَاء، وتَخْفِيف الكُرُوب، وتَنفِيسُ الهمُوم، بَل تجدِيدُهَا وإذكَاؤهَا، وإبقَاءُ جَذْوتها متوهِّجَة مُتَوَقِّدَة متَّصِلَة.

إعْلَم بُنيَّ أن البُكَاءَ هو أعظَمُ الشَّعَائر الحسَينيَّة وتَاجُهَا، وهُو الإكسِير الذي يحْمِل سِرَّيْن من أخْطَرِ مَا يكُون، سِرٌّ كَاشِفٌ عن السَّعَادَة والنَّجَابة، من طَهَارة المولد والتوفيق، وآخَر يَنْطَوي علىٰ سِلاَح الإيمان، وآليَّة البقَاءِ والأستِمْرار، ومقَاوَمَة المَحْوِ والتزييف، والظُلْم والغَصْبِ والبَاطِل والتَّحْرِيف.

البكَاءُ لَيسَ حِيلَة العَاجز، ولاَ وَسِيلَة الضَّعِيف، ولاَ هُوَ شَأنُ الصِبيَان والنسْوَان، مما دَرَجَ عليه عُرف الأعرَاب الجُفَاة، وسَرىٰ وفَشَا حتىٰ بنىٰ ثقَافَة الأغْلاَظِ الأجْلاَف، الذين نشَأوا علىٰ قَسْوَة الإغَارة، وعُنْفِ السَّلْبِ والنَّهْبِ، ووَرِثُوهَا من الفَخْر بِوَئد البنَات، والزَّهْوِ بجُمُود الحسِّ وتحجُّر المشَاعِر!

البكَاءُ قِمَّة التَّفَاعُل الرُّوحِي ونهَاية الانفعَال النَّفْسِي، وأمَارة الخشُوع، وبُلُوغ الأثر مَبلَغه في الإنسَان، وهَو عَلامَة العِرفَان، وسُموُّ الوُجْدَان، ورقيُّ الإحسَاس ورَهَافَة الإدْرَاك، والخضُوع للحَقِّ، والنزَاهَة عن الكِبْر والطُّغْيَان، ألم تَرَ قَولَ الله في الرُّهبَان: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨٣﴾ (المائدة)؟ (١)

---

(١) وهُنا قصَّة طَوِيلَة بعض الشَّيء، أحْبَبْتُ أن أسردهَا لكَ، لما تحتَويه من مَعَانٍ وإشَارات تَكْشِف حَال القَوْم.

في (الصَّافي) لـ «الفيض الكاشاني» ج٢ ص٧٦ عن (العيَّاشي): عن «الصَّادق» عليه السلام في قَوْله تَعَالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، قَال: أُولئك كَانُوا بين «عيسى» و«محمَّد» عليهما السلام ينتَظِرُونَ مجيء «محمَّد» صلى الله عليه وآله.

وفي (تَفسير القمِّي): كَان سَبَبُ نُزُولها أنه لما اشتَدَّت «قُرَيْش» في أذىٰ «رَسُول الله» صلى الله عليه وآله وأصحَابه الذين آمنُوا بـ «مكَّة» قَبل الهِجْرَة، أمرَهُم «رسُولُ الله» صلى الله عليه وآله أن يخرجُوا إلى «الحبشَة» وأمرَ «جَعفَر بن أبي طَالِب» أن يَخْرُج معَهُم، فخرَجَ «جعْفَر» ومعَه سَبعُون رَجُلاً من المسلمين، حتى ركبوا البحر فلَما بلَغَ «قَريشاً» خُروجُهم، بعثُوا «عَمْرو بن العَاص» و«عُمارة بن الوَليد» إلى «النجَاشي» لِيَردَّهُم إليهم.

وكَان «عَمْرو» و«عُمارة» متَعَادِيين، فقَالَت «قَريش»: كيف نبعَثُ رَجُلين متَعَادِيين؟ فبرأت «بنُو مخزُوم» من جنَاية «عُمارة»، وبرأت «بنُو سَهْم» من جِنَاية «عَمْرو بن العَاص» (أي أسقطَت كلُّ عَشِيرة تبِعَة جِنَاية العَشِيرَة الأُخرىٰ ومَا لها عِندهَا).

فخرَجَ «عُمارة»، وكَان حَسَن الوَجْه، شَاباً مُترفاً، وأخرَجَ «عَمْرو بن العَاص» أهْلَه معَه. فلَما ركبوا السَّفِينة، شَربُوا الخمْر (!)، فقَالَ «عُمارة» لـ «عَمْرو بن العَاص»: قُل لأهلكَ تُقبِّلني! فقَالَ «عَمْرو»: أيجوزُ هذا؟ سُبْحَانَ الله! فسَكَتَ «عُمارة»، فلَما أنتشى «عَمْرو»، وكَان على صَدْر السَّفِينة، دفعَهُ «عُمارة» وألقَاهُ في البَحْر، فتَشَبَّثَ «عَمْرو» بصَدْر السَّفِينَة، وأدْرَكُوه وأخْرَجُوه.

فوَرَدُوا على «النجاشي»، وقَد كَانوا حملُوا إليه هَدَايا، فَقَبلَها منْهُم. فَقَال «عَمْرو بن العَاص»: أيها الملك، إنَّ قَوْماً خَالَفُونا في دِيننا، وسَبُّوا آلهتنا، وصَاروا إليك، فردَّهُم إلينا.

فبعَثَ «النَّجَاشي» إلى «جعفَر» فجاءَه، فقَالَ: يا «جَعْفَر»، ما يَقُول هؤلاء؟ فقَالَ «جَعْفَر»: أيها الملك، ومَا يَقُولُون؟ قَال: يَسأَلون أن أردَّكُم إليهم. قَال: أيها الملك، سَلْهُم، أعبيدٌ نَحْنُ لهم؟ فقَال «عَمْرو»: لَا، بَل أحْرارٌ كِرَام. قَال: فسَلْهُم، ألهُم عَلينَا دُيونٌ يطَالِبونَنا بها؟ فقَال: لَا، مَا لَنَا عَلَيكُم دُيون. قَال: فَلَكُم في أعنَاقِنا دِمَاء تُطَالبونها؟ فقَال «عمْرو»: لَا. قَال: فَما تُريدُون منَّا؟ آذيتُمونا فَخَرَجْنَا من بلَادِكُم؟ فقَال «عَمْرو بن العَاص»: أيها الملك خَالَفُونَا في دِيننا، وسَبُّوا آلهتنا، وأفسَدُوا شَبابنا، وفَرَّقُوا جماعَتنا، فرُدَّهُم إلينَا لنَجْمَعَ أمرنا.

فقَال «جَعْفر»: نعَم أيها الملك خَالَفنَاهُم. بعَثَ اللهُ فينَا نَبيّاً أمر بخَلْع الأنْدَاد، وتَرْك الاستِقسَام بالأزلَام وأمرَنَا بالصَّلَاة والزكَاة، وحَرَّم الظُّلم والجَوْر وسَفْكَ الدِّمَاءِ بغَيْر حَقِّهَا، والزِّنَا، والرِّبَا، والميتَة والدَّم ولحم الخنزير، وأمرَنا بالعَدْلِ والإحْسَان وإيتَاءِ ذِي القُربىٰ، وينهىٰ عن الفَحْشَاء والمنكَر والبَغْي. ◀

فَقَال «النَّجَاشيُّ»: بهـذا بَعـثَ الله «عيسىٰ بن مَريَم» (ﷺ) ثم قَال «النجَاشي»: يا «جَعْفَر»، هل تحفَظ مما أنزَل اللهُ علىٰ نبيِّك شَيئاً؟ قَال: نَعَم، فقرَأ علَيه سُورة «مَريَم» (ﷺ)، فَلما بلَغَ قوله ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗا ۝﴾. فلما سَمعَ «النجاشي» بهـذا بكىٰ بكاءً شَدِيداً وقَال: هـذا والله هُو الحق. فقَال «عَمْرو بن العَاص»: أيها الملك، إنَّ هـذا مخالفٌ لَنا فردَّه إلينَا. فرَفع «النَّجَاشِيُّ» يَـدَه فضَربَ بها وَجْه «عَمْرو»، ثُم قَال: اُسكُت، والله لئن ذكَرتَه بسُوء لأُفقِدنَّك نَفْسَك. فقَام «عَمْرو بن العاص» من عنده والدِّمَاء تَسيلُ علىٰ وَجْهِه، وهُو يقُول: إن كَانَ هـذا كَما تَقُول أيها الملك، فإنَّا لَا نَتعرَّضُ له!

وكَانت علىٰ رأس «النَّجَاشيِّ» وَصِيفَة لَه تَذُبُّ عنه (تطرُد الذُّبَاب)، فَنظَرَت إلىٰ «عُمارة بن الوَليد» وكَان فتىً جميلاً فأحَبَّتهُ. فلَما رَجعَ «عَمْرو بن العَـاص» إلىٰ منزله قَال لـ «عُمارة»: لَوْ راسَلْتَ جَاريَة الملك؟ فَراسَلَهـا، فأجَابته. فقَال «عَمْرو»: قُل لها تَبعَث إليكَ من طِيبِ الملك شَيئاً. فقَال لها (أي سَألها ذلك)، فبعثَتْ إليه. فأخَذَ «عَمْرو» من ذلك الطِّيب، وكَان الذي فعَلَ به «عُمارة»، حِينَ ألقَاه في البَحْر، في قَلْبه (أي يحمِل عَلَيه ويُضمِر)، فأدخَلَ الطِّيبَ علىٰ «النَّجَاشي» وقَال: أيها الملك، إنَّ حُرمَـة الملِكِ عندنا وطَاعته عَلَينا ومَا يَلزَمنا إذا دَخلنا بِلَادَه ونأمَن فيه، أن لَا نَغشَّه ولا نُريبه، وإنَّ صَاحِبي هـذا الذي مَعي، قَد رَاسَلَ حُرمَتَكَ وخَدَعَها، وبَعثَتْ إليه من طِيبِك، ثم وَضَعَ الطِّيبَ بين يَدَيْه. فغَضِبَ «النَّجَاشي» وهَمَّ بقتْل «عُمارة». ثم قَال: لَا يجُوزُ قَتلُه، فإنَّهم دخَلُوا بلَادي بأمَان. فدَعَا «النَّجَاشي» السَّحَرَة، فَقَالَ لهم: اعمَلوا به شَيئاً، أشدَّ علَيه من القَتْل! فأخَذُوه، ونَفَخُوا في إحْليلِه الزيبق، فصَارَ مع الوَحْش يَغْدُو ويرُوح، وكَان لَا يَأنس بالنَّاس. فبعَثَت «قُرَيش» بعدَ ذلك فكَمِنُوا لَه في مَوْضع حتىٰ وَرَدَ المَاءَ مع الوَحْش، فأخَذُوه، فما زَال يضْطَرب في أيديهم ويَصِيح حتىٰ مَات.

ورَجع «عَمْرو» إلىٰ «قُرَيْش» فأخبَرهُم أنَّ «جَعْفَراً» في أرضِ «الحبشَة» في أكرَم كَرَامَة، ولم يزلْ بها حتىٰ هَادَنَ «رسُولُ الله» ﷺ «قُريشاً» وصَالَحهُم، وفَتَحَ «خيبر»، فَوافَىٰ («جعفر») بجَميع مَن مَعَه.

ووُلد لـ «جَعْفَر» في «الحبشَة» من «أسماء بنت عُمَيس» «عبدالله بن جَعفَر»، ووُلدَ لـ «النَّجَاشيِّ» ابنٌ سَمَّاهُ «محمَّداً». وكَانت «أم حبيب بنت أبي سُفيان» تحتَ «عبدالله» («ابن جَحْشٍ» الذي تَنَصَّر ومَاتَ في «الحبشة»)، فكَتَبَ «النبيُّ» ﷺ إلىٰ «النَّجَاشي» ﷺ يخطِبُ «أُم حَبيب» فبَعَثَ إليهَـا «النَّجَاشيُّ» فخَطَبَهَا لـ «رَسُول الله» ﷺ فأجَابتْه. فزوَّجَها منه، وأصدَقَها أربعمئة دِينار، وسَاقَهَا عن «رَسُول الله» ﷺ وبعَثَ إليهَا بثيابٍ وطيبٍ كَثير، وجَهَّزهَا وبَعثَهَا إلىٰ «رسُول الله» ﷺ، وبَعثَ إليه بـ «مَارِيَة القِبطيَّة» أُم «إبراهيم»، وبَعثَ إليه بثيابٍ وطيب وفرَس، وبعثَ ثَلَاثين رَجُلاً من القِسِّيسِين، فقَالَ لهم: انظُروا إلىٰ كَلَامه وإلىٰ مَقْعَده ومَشْربه ومُصَلَّاه.

فلَما وَافَوْا «المدينَة» دَعَاهُم «رسُول الله» ﷺ إلىٰ الإسلَام، وقرأ علَيهم القُرآن، ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، فَلمَّا سَمعُوا ذلك من «رسُول الله» ﷺ بكَوا وآمنوا ورجعُوا إلىٰ «النَّجَاشي» وأخبَرُوه خَبَر «رسُول الله» ﷺ وقرَؤوا علَيه مَا قَرأ عَلَيهم. فبكىٰ «النَّجَاشيُّ» وبكىٰ القِسِّيسُون وأسلَم «النَّجَاشي»، ولم يُظهِر لـ «الحبَشَة» إسْلَامَه، وخَافَهُم علىٰ نفسه وخَرج من بلاد «الحَبَشَة» يريدُ «النبيَّ» ﷺ، فلَما عبَرَ البحر، تُوفي، فأنـزَل الله علىٰ رَسُوله ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾. ■

أنظُر كَيفَ أقرَّ اللهُ تعالىٰ فِعلَهُم ولم يَستَنكِر بُكَاءَهُم، علىٰ الرُّغم من أنه كَانَ بَكَاءً شَدِيداً، فالفَيْض انصِبَابٌ عَن امتِلَاء، فقَد جَعَلَتْ أعيُنُهم من فَرْطِ البُكَاءِ كَأنها تَفيضُ من تِلقَاء نَفْسِهَا، بل رَاحَ الكِتَاب الحكِيم يُثني علىٰ انفِعَالهم ويُقرِّظ مَا كَانَ مِنهُم!

البكَاءُ فِعلُ العُلَماء والحكَماءِ والعُظَماء، ولَو رَاجَعْتَ التَّاريخَ وقَرأتَ في المصَادِر لَرَأيتَ أنه سِيرة الأنبيَاء والأوْليَاء والصُّلَحَاء، ودِيْدَنُ الزُّهَّاد العُبَّاد، وهو يَتَنَاسَبُ في شِدَّته وضَعْفه تَناسُباً طَرديّاً مع العِلْم والمعْرِفَة، وسُمُوِّ الرُّوح، ولَطَافَة الحِسِّ، ورِقَّة المشَاعِر.

ولَعلَّ جَاهِلاً يَتَوَهَّم من هـٰذا وذاك الخَوَر والعَجْز، والخنُوع والضَّرَاعَة والضَّعْف! وسَفِيهاً يَتَشَدَّقُ: دَعْ عَنكَ البُكَا وٱلحَق بركْبِ الجهَاد، فالدِّين يُريدُكَ قَوِيّاً عَزيزاً، مُقَاتِلاً صِندِيداً، والبُكَاءُ للضُعَفَاءِ العَاجِزين... فيعُود القُرآنُ الكَريم لِيَجْعَلَ البُكَاء صِفَة المجَاهِدين المخْلِصِين، الرَّاغبين في القِتَال، والمشْتَاقِين للشَّهَادة، الذينَ قَصُرت أيدِيهم وعَجِزَت إمكَانيَّاتهم عَن اللُّحُوق بالميدَان، فكَانوا يَبْكُون صَادِقين، حتىٰ تَفيضَ أعيُنُهم، كَما الرُّهبَان والقِسِّيسِين، أُولئك مما عَرفُوا من الحقِّ، وهـٰؤلاء حَسْرة علىٰ فَوْت الجِهَاد، فالتَمَسَ الله عزَّ وجلَّ لهم العُذْر وشَهِدَ لهم بصِدْق الدَّعْوىٰ والزَّعْم، وأنزَل فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (التوبة).

فَلَا تَلَازُم بين البُكَاء والعَجْز، ولَا هُو بالضَّرُورة كَاشِفٌ عَن الخَوَر والضَّعْف وسُقُوط الهمَّة، أو الجبن وطَلَبِ العَافِيَة، وهـٰكذا العَكْس والمقَابِل، فالجَلَافَة والغِلْظَة لَا تَنُمُّ عَن البأسِ والقُوَّة، والحِدَّة والجَفْوَة لَا تَعْنِي الإقدَام والرُّجُولَة! ولَا هِيَ عُنوَان العَزِيمَة ولَا أمَارة الشَّجَاعَة، فالتَّاريخُ يَحكِي والوَاقع يَشْهَد أنَّ الجُفَاةَ الغِلَاظ، والقُسَاة الأجْلَاف الذين يتَبَجَّح أتبَاعُهُم ويَعِيبُون عَلَينَا ويَزعُمُون أنهم "رِجَالٌ لَا يَبكُون، بَل يَفعَلُون!"، هُم الذين جَبُنُوا في كُلِّ مَوْقف، نكَصُوا في «أُحُد»، وفَرُّوا في «حُنَيْن»، وقَد كَانوا من قَبلُ في «الخندَق» يَلُوذُون ببَعْضِهم، ويختَبِئُون في ثِيَابهم، ويتَوَارون ويَلتَمِسُون الملجَأ والمهْرَب في الكَنيف! ولم يَبرُز إلىٰ قِتَال «عَمْرو بن عَبْد وُد»، ويَطْلِبُ الموْتَ والشَّهَادَة، إلَّا وَاحدٌ، هو "البكَّاء" «أميرالمؤمنين» عليه السلام!

إنَّنا بُنيَّ لَا نَبحَثُ عن صُورة يَرتَضِيهَا الغَرْبُ عنَّا، ولَا عَن ثَنَاءٍ يُـزْجيه المخَالِفُ لَنا، ولَا نَزلَتْ بِنَـا ولَا حَلَّت عَلَينَا عُقَـدٌ نفسِيَّـة هَزَّت هُوِيَّتنا، ولَا ٱستَحْكَمَت مُركَّباتُ نقْصٍ، جَعَلَتنا نَنْطَلِق منهَا ونَحْتَال علىٰ دِيننا ونَتَنكَّر لمبادِئنا وقيَمِنا وأَخْلَاقِنا...

نَحْنُ نَتَحَرَّىٰ رِضَا سَادتِنَا، ونَلْتَمِسُ مَا يجعَلنَـا مِصْدَاقاً لِقَوْل «رَسُول الله» ﷺ في حَديثِ مُنَاجَاة «مُوسىٰ» عليه السلام وقَد قَال: يَا ربِّ لم فَضَّلْتَ أُمَّـة «محمَّـد» ﷺ علىٰ سَائر الأُمم؟ فقَال الله تَعَالىٰ: فـضَّلتُهُم لِعَشْر خِصَال، قَال «مُوسىٰ»: ومَا تِلكَ الخِصَال التي يَعْمَلُونها حتىٰ آمرَ «بني إسرائيل» يَعمَلُونها؟ قَال الله تعالىٰ: الصَّلَاة والزكَاة والصَّوم والحج والجِهَاد والجُمُعَة والجماعَة والقُرآن والعِلْم و«العَاشُوراء».

قَال «موسىٰ»: يَا ربِّ ومَا «العَاشُوراء»؟

قَـال: البُكَـاءُ والتَّبَاكِـي علىٰ سِبْطِ «محمَّد» ﷺ، والمرثية والعَزَاء عـلىٰ مُصِيبَة وُلْدِ «المصطفىٰ»، يَا «مُوسىٰ» مَا مِن عَبْدٍ من عَبيدِي في ذلك الزَّمَان بكىٰ أو تَبَاكىٰ وتَعزَّىٰ علىٰ وُلـدِ «المصطفىٰ» إلَّا وكَانت لَه الجنَّـة ثَابتاً فيهَا. ومَا مِن عَبْـدٍ أنفَقَ من مَالِه في مَحبَّة «ٱبن بنتِ نَبيِّه» طَعَامـاً، وغَير ذلك، دِرْهَماً أو دِينَاراً إلَّا بَاركتُ لَه في دَارِ الدُّنيَا، الدِّرهَمُ بسَبعين، وكَانَ معَافىً في الجنَّة، وغَفَرتُ لَه ذُنوبه. وعزَّتي وجَلَالي مَا مِن رَجُلٍ أو ٱمرأة، سَالَ دَمْعُ عينَيه في يَوْم «عَاشُوراء» وغَيره قَطْرَة وَاحِدَة إلَّا وكُتِبَ لَه أجْرُ مئَة شَهيد.[1]

وقَـد يَخلِطُ بعضٌ ويتَـوَهَّم فيَحْسَبُ النَدبَ والحثَّ علىٰ البُكَـاءِ هُو لما كَانَ من خَشْيَة الله والتضرُّع إليه فحَسْب، دُون البُكَاء علىٰ المصِيبَة، وهـٰذا حَدِيثٌ يجمعُ فيه «النبيُّ» ﷺ بين البُكَاء تَضَرُّعاً إلىٰ الله عزَّ وجَل، والبُكَاء علىٰ مُصِيبَة «سِبطِه» عليه السلام.

فقـد رُوِيَ عن «أميرالمؤمنين» عليه السلام أنه قَال: زَارنـا «رَسُولُ الله» ﷺ فَعَـمِلنا لَه حَـريرة، وأهدَتْ إلينَـا ٱمـرأة قُعْباً من لبن وزُبْـدٍ وصَحْنَـة من تَمر، فَأكَلَ «رَسُولُ الله» ﷺ. ثم وَضَّأتُ «رَسُولَ الله» ﷺ فمَسَحَ رأسَه ووَجْهَه بيَدِه، ثـم ٱستَقْبَلَ القِبلَة فـدَعَا الله مَا شَاءَ الله، ثم أكَبَّ علىٰ الأرضِ بدُمُوع غَزِيرة مِثْل المطَر. فهِبْنا «رَسُولَ الله» ﷺ أن نَسأله.

(١) (مجْمَع البَحْرَين) ج٣ ص٤٠٥.

فوَثَبَ «الحسَين» وأكبَّ على «رَسُولِ الله» ﷺ، وقَال:

يَا أبتِ، رأيتُك تَصْنَع مَا لم تَصْنَع مثلَه؟

فقَالَ: يا بُنيَّ، إني سُررْتُ بِكُم اليَوْمَ سُروراً لم أُسر بِكُم مِثْلَه، وإنَّ «جِبريل» عليه السلام أتاني فأخْبرني بما يُصْنَعُ بِكُم وأنكُم تُقْتَلُون، فَدَعَوْتُ الله لَكُم بالخير.

قَال «الحسَين» عليه السلام: فمَن يَزُورنا ويتَعَهَّد قُبُورنا؟

قَال ﷺ: طَائفَةٌ من أُمتي يُريدُون بِرِّي وصِلَتي، إذا كَان يَوْم القِيَامَة زُرتُهم بالمَوْقف وأخَذْتُ أعْضُدهُم، فأنجَيْتهُم من أهْوَاله وشَدَائِده.

بكى «رَسُول الله» ﷺ حُزناً وألماً على «سِبْطِه»، كَما بكى تَضرُّعاً إلى الله عزَّ وجَلَّ، وخَلَط بين البُكَاءَيْن، فكَأنه يُشِير إلى الجمْع بين الأحَادِيثِ التي تُبشِّر العَيْنَ البَاكِية من خَشْية الله، والبَاكِيَة في مصَاب «أبي عَبدالله».

نَحنُ نَعْمَل بأمر إمامِنَا «الشَّهيد» ونُنْفِذ وَصِيَّته، إذ قَال في وَداعِه أهْل الحَرَم...

ثم لَزِمَه (أي وَلَدَه «زينَ العَابدِين» عليه السلام) بيَدِه وصَاحَ بأعلى صَوته: يَا «زَينَب ويَا «أم كُلثُوم» ويَا «سُكَينَة» ويَا «رُقَيَّة» ويَا «فَاطِمَة» إسْمَعْنَ كَلَامِي واْعلَمْنَ أنَّ «اْبني» هذا خَليفَتي عَلَيكُم، وهُو إمامٌ مُفْتَرَض الطَّاعَة.

ثم قَال لَه: يا وَلَدي، بلِّغ شِيعَتي عنِّي السَّلَام فَقُل لهم: إنَّ أبي مَاتَ غَرِيباً فاْندُبُوه، ومضى شَهيداً فاْبكُوه.[1]

وهُو عليه السلام مَن جَعَلَ البُكَاءَ عَلَامَة الإيمان وأمَارته، وجَعَلَه رِسَالَة شَهادته وعُنْوَان مَقْتَله، فقَال: أنا قَتيلُ العَبْرة، مَا ذُكِرتُ عِندَ مُؤمن ولَا مُؤمنَة إلَّا بكى واْغتَمَّ لِمُصَابي.[2]

فهُوَ عليه السلام قَتيلُ الغَمِّ والعَبْرة، لَا قَتِيل المهْرَجَانَات السِّيَاسِيَّة والمؤتَمرات الفِكْرِيَّة والنـدَوَات والمحَاضَرات، وإن كَان لتِلكَ هَامشٌ ونَصِيبٌ، فبَعدَ اْستَيفَاء العَبْرة نَصِيبهَا، وأداءِ حَقِّهَا، ولَا يُغفَر لمن يُريدُ طَمْسَ هذه الحَقِيقَة والاْلتِفَاف عَلَيها بفَذْلكَاتٍ مُنمَّقَة وعبَاراتٍ رنَّانة، فيُنَادِي ـ عملاً بمَرحَلِيَّة الحَرْب ـ بأنَّ «الحسَين» عَبرةٌ وعِبرة!

(١) (مجْمَع البَحْرين) ج٣ ص٤٠٥.

(٢) (مَعَالي السِّبْطَين) ج٢ ص٢٢، (ذَرِيعَة النَّجَاة) ص١٣٩، (شَجَرة طُوبى) ج٢ ص٤٥١.

وخُلَاصَة القَوْل في هذا، روَاية، لَا أُقدِّمهَا للمُنكِرين الجاحِدِين، والمشَكِّكِين المغرِّرين، بل لأتباعِهِم المغرَّر بهم، من المستَضْعَفِين المأخُوذينَ بِصَخَبِ الإعْلَام وضَجِيج الأحْزَاب وإملاءَاتِ السِّيَاسِيينَ اللِّئَام، ممَّن يَلحَقُونَ أُولئكَ بجَهَالَة ويَتَّبِعُونهم بِعَمَاية، أقدِّمه قَبل يَوْم يتبرَّأ فيه الذين اتُّبِعُوا من الذِين اتَّبَعُوا!

ذكَر «العَلَّامَة المجْلِسي» قدس سره: رأيتُ في بعضِ مؤلَّفاتِ أصحَابنا أنه حُكِيَ عن «السيِّد عليِّ الحسَيْني» قَال: كُنتُ مُجاوِراً في مَشْهَد مَولَاي «عليّ بن مُوسىٰ الرِّضَا» عليه السلام مع جماعَة من المؤمنين، فَلَما كَانَ اليَوْم العَاشِر من شَهْر عَاشُورا، ابتدأ رَجُلٌ من أصحَابِنَا يَقرأ مَقْتَلَ «الحسَين» عليه السلام، فوَرَدَت رِواية عَن «البَاقِر» عليه السلام أنه قَال: مَن ذَرَفَت عَيْنَاهُ علىٰ مُصَابِ «الحسين» ولَوْ مِثل جَنَاح البعُوضَة غَفَرَ اللهُ لَه ذُنُوبَه، ولَو كَانت مَثْل زبَدِ البَحْر.

وكَانَ في المجْلِس معَنَا جَاهِلٌ مُركَّب يَدَّعي العِلْم، ولَا يَعْرِفه! فَقَال: لَيْسَ هذا بصَحِيح، والعَقْل لَا يَعتَقِده. وكَثُرَ البَحْثُ بَينَنَا، وافترَقْنَا عَن ذلك المجْلِس، وهُو مُصِرٌّ علىٰ العِنَادِ في تَكْذِيب الحدِيث. فَنَامَ ذلك الرَّجُل تِلكَ اللَيْلَة، فَرَأىٰ في مَنَامِه كَأنَّ القِيَامة قَد قَامَت، وحُشِرَ النَّاسُ في صَعِيدٍ صَفْصَفٍ لَا ترىٰ فيهَا عِوَجاً ولَا أَمْتاً، وقَد نُصِبَت الموَازِينُ، وامتَدَّ الصِّراط، ووُضِعَ الحِسَابُ، ونُشِرتِ الكُتُب، وأُسْعِرت النيرَان، وزُخْرِفَت الجِنَان، واشتَدَّ الحرُّ عَلَيه، وإذا هُو قَد عَطِش عَطَشاً شَدِيداً وبَقِيَ يَطلُبُ الماء، فَلَا يجِده، فالتفَتَ يَميناً وشمالاً وإذا هُو بِحَوْضٍ عَظِيم الطُّولِ والعَرْض، قَال: قُلْتُ في نَفْسِي: هذا هُوَ «الكَوْثَر»، فإذا فيه مَاءٌ أبرَد من الثَّلْج وأحلىٰ من العَذْب، وإذا عِنْد الحوْضِ رَجُلَان وامرأة، أنوَارُهم تُشْرِق علىٰ الخلَائق، ومَع ذلك لِبْسُهُم السَّوَاد، وهُمْ بَاكُون محَزُونُون. فقُلتُ: مَن هؤلاء؟ فَقِيل لي: هذا «محمَّدٌ المصطفىٰ»، وهذا الإمام «عَليٌّ المرتضىٰ»، وهذه الطَّاهِرة «فَاطِمَة الزَّهْراء» فقُلتُ: مَا لي أراهُم لَابِسِينَ السَّوَاد، وبَاكِينَ ومحَزُونِين؟ فَقِيلَ لي: أليْسَ هذا يَوْم «عَاشُوراء»، يَوْم مَقْتَل «الحسَين»؟ فَهُم محَزُونُونَ لأجْلِ ذلك. قَال: فَدَنَوْتُ إلىٰ «سَيِّدَة النِّسَاءِ فَاطِمَة» وقُلتُ لها: يَا بنتَ «رَسُول الله» إني عَطْشَان. فنَظَرَت إليَّ شَزْراً وقَالَت لي: أنتَ الذي تنكرُ فَضْل البُكَاء علىٰ مُصاب وَلَدِي «الحسَين» ومُهْجَة قَلبي وقُرَّة عَيْني الشَّهيد المقتُول ظُلماً وعُدْوَاناً؟ لَعَنَ الله قَاتِليه وظَالميه ومَانِعيه من شُرْبِ الماء.

قَالَ الرَّجُل: فَٱنتبَهْتُ من نَوْمي فَزِعاً مَرْعُوباً وٱستَغْفَرْتُ الله كَثيراً، ونَدِمتُ علىٰ مَا كَان منّي، وأتيْتُ إلىٰ أصْحَابي الذين كُنْتُ مَعَهُم، وخَبَّرتُ برُؤيايَ، وتُبْتُ إلىٰ الله عزَّ وجَل.(١)

ومَا أردتُه من سَرد هـٰذه القِصَّة، هُو فَصْل الخِطَاب وإنهاء الجِدَال في هـٰذا البَاب وغَيره مما نَخْتَلِفُ فيه مَع القَوْم، ففِيهَا الكِفَاية لِطَالِب حَقٍّ، في قَلْبه بَصيصُ نُور. وتَنبيهك أن لَا تُطِيل الحِوَار مَعَ هـٰؤلاء، ولَا تَذْهَب نَفْسُك عَلَيهم حَسَرات... ٱنقُضْ وَاهِيَ رَأيهم، وٱهْدِم سَخِيفَ قَوْلهم، وقَدِّم مُحكَم دَلِيلك، وأقِم ثَابتَ بُنيانِك، وأتمَّ الحُجَّة، ثُم ٱمضِ لشَأنك، ولَا تَسْمَح لهم بٱسْتِدرَاجِكَ إلىٰ حَيث تَنْصَرِف عَن آفَاقِ الوَلَاء، وتَنْشَغِل بهـٰذا الغُثَاء.

ولكَ أن تَتَأمَّل هُنَا، كَمِثَال... فهـٰذه الحِكَاية مَروِيَّة في (بحَار الأنوار)، في ذَيْل طَائِفَة من الأحَاديثِ الدَّالَّة علىٰ فَضْل البُكَاءِ في مُصِيبَة «سَيِّد الشُّهَداء» عليه السلام، فيه تِسْعَةٌ وثَلَاثُون حَديثاً، حَيث ذهَبَ المحَقِّق(٢) في حَاشِيَته إلىٰ عَيْن مَقُولَة ذاكَ المصَاب بالجهْلِ المركَّب الذي رأىٰ الرُّؤيا! فقَد أخَذَ في اللفِّ والدَوَران، ورَاحَ في الطَيِّ والنَّشْر، يَركَبُ هُنا ويَترَجَّل هُنَاك، ويتَكَلَّفُ دَائماً ويَتَعَسَّفُ أبداً، حتىٰ يُسْقِط - بأيِّ نحْوٍ - فَضِيلَة البُكَاء، ويُؤَوِّلها بما يجعَلهَا "معْقُولَة" (في سَقِيم فَهْمِه) و "مَنْطِقِيَّة" (في بَاطِل فِكْره)! تَماماً كَما فَعَل ذلك التَّعِس، فحُرِم من سَقْي «الكَوْثَر»! فجَاراه هـٰذا ومضىٰ علىٰ دَرْبه، علىٰ طَريقَة مَن يَروِي حَديثَ النَّهْي عن "الصَّلَاة البَتراء"، ويَذكُر في سَنَدِه: "قَال رَسُولُ الله صلىٰ الله عليه وسَلَّم"! فَلَا نفَعَتْه المَوعظَة ولَا أفَادته النَّصِيحَة، بَل ربَّما أضَرَّته وحمَّلَتْه حِمْلَ مَن تَمَّت عَلَيه الحُجَّة، وخَرَجَ من القُصُور والتَّقْصِير إلىٰ العِنَادِ والمكَابرة.

مَا يَعني بُنيَّ أنَّ هُنَاكَ مَحرُومُون (ولَا أقُول أشْقِيَاء)، وفي الحقِيقَة أموَاتٌ، لن تُسْمِعهُم مهْما بلَغْتَ من البلَاغَة، ولَن تَهدِيهم مَهْما كُنتَ من الحجَّة... فَذَرْهُم وما يُريدُون.

---

(١) (بحَار الأنوار) ج٤٤ ص٢٩٣. وفي (منتَخَب الطُّرَيْحي) ص٣٦٦.

(٢) هو «محمد الباقر البهْبُودي»، أحَدُ أعدَاءِ حَديث «آل محمَّد» وخُصُوم رِوَاياتهم! الذي خَرَج من مَنزله وحَيِّه، وقَحَم دَارَ غَيره، ورَاح يخبط خَبْطَ عَشْوَاء، ويحكِّم ما تملَّكَتْهُ الأهْوَاء، وقَد بلَغت به الجرأة، بل الكِبر والغُرور أن أسقَطَ، بمنتهىٰ الصَّفَاقَة والرُّعُونَة، ثُلُثَي أحَادِيث (الكَافي الشريف)، أكثر كُتُب الطَّائفَة المحقَّقَة أعتِبَاراً، في عمَليَّة بَعِيدَة عن المَوَازين العِلمِيَّة والأُصول الفَنيَّة! وكَأنَّ تُراث «أهل البيت» عليهم السلام تَركَةُ أبيه! لَا أمانة سُفِكَت علىٰ جَوانبهَا دِمَاء الشِّيعَة، وخُطَّت بمِدَادٍ فضَّلَهُ «الإمَام الصادِق» عليه السلام علىٰ دِماء الشهداء!

وبَعدُ، إنَّ للبُكَاء في مَأتم «سَيِّد الشُّهَدَاءِ» عليه السلام آداباً وأُصولاً...

أوّلها حِفْظ الوَسيلَة وصَوْن الأدَاة. فَمِن خِلَال هذا المِحْجَر، وعَبْر هذه الجارِحَة العَزِيزَة، سَتُمارِس أعْظَم عِبَادَة، وتَنْهَض بأخْطَرِ دَوْرٍ يُمْكِن للمُؤمن أنْ يُؤدِّيه، أيْ إهْرَاق الدُّمُوع وسَكْبِهَا والبُكَاء في رُزْء «الحسَين»...

وكَما أنَّ تَلَوُّث الوِعَاء وقَذَارة الإنَاءِ تُغيِّر طَعْمَ الغِذَاء، من طَعَام وشَراب، ولَعَلَّها تُفْسِدُه، كَذلك الحَال في الطَّعَام المعْنَوِيِّ والغِذَاءِ الرُّوحي، فَإنَّ تَلوُّث الآنية أو الطَّرِيق وقَذَارة الوِعَاء أو الآلَة التي تُمارِس الرُّوحُ بوَاسِطَتِهَا التكَامل والتَّرقِّي، أو تَتَلقى عَبْرها ومن خِلَالِ ممارَسَتِهَا الفَيْض، وهي هُنا العَين، سَيَعْتَرِيه نَقْصٌ ويَنَالُه كَلْمٌ، ويحِلُّ به ضَررٌ فَادِح، ولَوْلا عَظَمة هذه الشَّعِيرة، وخَطِير مَنزِلتِهَا، التي تُورِث هذا العَمَل (البُكَاء في مُصَاب «سيِّد الشُّهَدَاء») مِنعَة وحَصَانة... كَان هذا اللَّوْثُ سيُزري به ويُبطِلُ أثره!

من هُنا، سَآخُذك بُنيَّ إلى أُفق أرفَع، وأتوَقَّف بِكَ هُنيئَة في مُنعَطَف قَلَّ أن تجِدَ فيه أقْرانك، فإن شِئْتَ أن تَأخُذ به وتَرقى منه إلى الأعلى، فذَاكَ شَأنك، وإلَّا فَذَرْه في سُنبُلِه وأمرُر عَلَيه مُرورَ الكِرَام!... فإنَّكَ إن زَهِدْتَّ في الأجْر الذِي يَنتَظِرُك (أو رَضِيتَ ـ ولَن أُعبِّر بـ "قنَعْتَ" ! ـ بالأقلِّ الأدنى)، أو في الفيْضِ والكَمال الذي سَيَلْحَقُك بمُمارسَة هذه الشَّعِيرة بتَمام شُرُوطهَا، أي البُكَاء بعَيْن صُنْتَ طَهَارتها، فَعَلَيْكَ أن لَا تُفرِّط بوَاجِب وتَتَهَاوَن في خَطيرٍ آخَر، هو تَبْجِيل هذا العمَل وتَعظِيم هذه الشَّعِيرة، فتَحْرِص على أن تحفَظ حُرمَة البُكَاء على مُصَاب «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وتَعِيش آفاقَ تَقْدِيم "هَدِيَّتِك" إلى مَوَاليكَ وسَادتِكَ، وهي دَمعَتك، بالأدَبِ الوَاجِب وتَرفَعهَا بالاحْترام اللازِم، فكَيف تَفْعَل ذلك بِوِعَاء قَذِر؟ وكَيف حَيَاؤكَ وجُرأتك أن تُقدِّمهَا بين يَدَي أربَابِ نِعْمَتِك وقَد طَوَيتَهَا بدَثَار مُلَوَّث بالمعَاصي والذُّنوب؟!

فإن لم يكن بُنيَّ من هذا الباب، فمِن ذَاك... عَلَيكَ تَنزيه عَينكَ عن التلَوُّث بالنَّظَر إلى الحَرام، سَوَاء كَانَ من أعْرَاضِ المؤمنين، أو مِن المنكَراتِ واللهوِيَّات التي تَبثُّها أجهِزَة المرئيَّات، من قَنوَات فَضَائية مبتَذَلَة أو خَلِيعَة، نَاهِيكَ بالإباحيَّة، أو مَوَاقع إلكترونية، ومَا إلى ذلك مما يُمكِن للشَّيْطَان أن يَنْفُذ من خِلَالِه ليُفْسِدَ على المؤمن طَاعَته.

وكَذَا عَلَيكَ أن تُنزِّه سَمْعَك، فهُو طَريقُ ٱستِدْرَار الدَّمعَة ومَبعَثُ البُكَاءِ من العَيْن، تُنزِّهه عن سَماع المَعَازِف والغِنَاء، وهكذا عن غِيبَة المؤمنين، ثُم الحَذَر كُلُّ الحذَر من سَماع مَا يَنتَقِص من حَقِّ «أهْل البيْت» عليهم السلام ويَستَخِفُّ بحُرمَتِهم ويُنكِر فَضَائلهُم ويُشكِّكُ في مَصَائبِهِم، أو ينهَضُ بٱحْتِجَاج أعْدَائِهِم، ويَلتَمِس الأعذَار لجرَائِمِهم، أو مَقُولَات مَدْح المضِلِّين والثَّنَاء على المشَكِّكِين، فهذه وتلكَ من مَواطِن مُحارَبَة الله والاَستِهْزَاءِ بآياتِه، فَقَد رَأيتُ من مُؤمنين حُسَينيين تَسامُحاً وتَراخِياً في هذا وتَهاوُناً، فهُم يُصَاحِبُون أتباع الضَّلَال، ويُجالِسونهم، ولَرُبَّما سَايروهُم لما يتَوهَّمونه لَباقَة، وجَامَلُوهُم من حُسْن خُلُق وكَياسَة، ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾ (النساء)، وقَال عزَّ من قَائل في آية أُخْرى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ (الأنعام)، اللهُمَّ إلَّا للوُقُوف في مَوقِف الرَّاد والمبْطِل، فهذه "المسْمُوعَات" والأصْواتِ من أشَدِّ المنكَرات و "الملوِّثات" السَّمْعِيَّة، ولَو ٱنكَشَف لكَ الغِطَاء وعِشْتَ الحقَائِق، لَرَأيتهَا أشَدَّ قُبْحاً ونكِيراً من الغِيبَة والفُحْشِ واللَّهْو والمعَازِف والغِنَاء، وسَائر مَعَاصي وذنُوب السَّمْع! وٱجْعَل بُنيَّ نِبراسَك وقُدْوَتك وإمَامك، قَوْل مَولَانا «أميرالمؤمنين» عليه السلام في وَصْفِ المتَّقين: "غضُّوا أبصَارَهُم عمَّا حَرَّمَ الله عَلَيهم، ووَقفُوا أسماعَهُم على العِلْم النَّافع لهم".(١)

أكْثِر بُنيَّ من النَّظَر إلى المصْحَف الشَّرِيف ورَسْم القُرآن الكَرِيم، ونَقْشِ آياتِه المبَارَكَة، وزيِّن جُدْران بَيتِكَ، وصَدِّر مجلِسكَ وحُسَينيَّتِك باللَّوْحَات القُرآنية، وأُخرى تحمِل أسْماء «الأئمَّة الأطْهَار» عليهم السلام، وهكذا اللَّوْحَات التي تُصَوِّر مَشَاهِدَهُم وعَتَبَاتهم المقَدَّسة، وآثَارهم المشرَّفة، وتُنسَب إلى أشْخَاصِهم وهَيئَاتهم المعَظَّمة... فهذا مما يُجلي النَّظَر والبَاصِرة، ويُنزِّه هذه الجَارِحة ويُبارِك فيهَا.

(١) (نهج البلاغة) خطبة ١٩٣.

وقد أدركْتُ أحَدَ خُدَّام «سيّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وهُو شَيْخٌ طَاعِنٌ قَد دَخَلَ في العَقْد التَّاسِع من عُمْره، يُخبِر أنه التَزَمَ وِرْداً أو عَمَلاً أوْرثه المعَافَاة في بَاصِرته، فَلَم تُصَب عَينُه بمَرض ألبتَّة، وحَفِظَ نَظَره من القِصَر والضَّعْف، وأغنَاه فلَم يَحْتَج في حَياته كُلِّهَا إلىٰ "نظَّارات"، وقَد بلَغ أرذَل العُمر... ذلك التزَامه الصَّلَاةَ علىٰ «محمَّد وآل محمَّد»، كُلَّما وَقَع نَظَره علىٰ "سَيِّد" من ذُريَّة «رسُول الله» صلى الله عليه وآله! صَغيراً كَان أم كَبيراً، من أهْلِ العِلْم كَان أو لم يكُن. إنَّ مثل هذا "العَمَل"، يجمَع لَكَ بُنيَّ الخَيْرَين، ويُحقِّق الغَايتَين: الصِّحَّة والمعَافَاة في البَدَن، فيُسلِم عَينَك ويحفَظهَا من الأمراض والآفَات، ثم يفيض البَرَكَة والسَّلَامَة المعنَوِيَّة، فيُطَهِّرها ويُعِدُّها لتَسكُب طَاهِرَ العَبَرات وتَهْمِل عَزيزَ الدُّمُوع وغَاليهَا، وتَبلُغ المنىٰ في مُصَاب «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

إنها العَبَرات المخلِصَة والدُّموعُ النَّاطِقَة الصَّادِقَة التي تجمَعهَا الملائكَة، بل تجنِيها، كَما الشَّهْدُ من أفوَافِ السَوْسَن، والزَّنبَق من اليَاسَمين، والرَّحيق من النَّرجِس، وتَنقُلهَا بلْسَماً يُدَاوِي جِراح «المولىٰ»، أو كَما في حَديث «الإمام العَسكَريّ» عليه السلام: في تَفسير قَوله تَعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴿٨٥﴾﴾، قَال لي «أبي» عن «آبائه» عَن «رسُول الله»: لما نَزلَت هذه الآيَة في ذَمِّ اليهُود الذين نَقَضُوا عُهُودَ الله، وحَادُوا عن أمرِ الله، وكَذَّبوا «رَسُولَ الله» وقَتَلُوا أنبيَاءَ الله، فقَالَ «النَّبِيُّ» صلى الله عليه وآله: يَا أصحَابي! أفلَا أنبئكُم بما يضَاهِيكُم من يهُود أُمتي؟ فقَالُوا: بلىٰ يا «رَسُول الله» صلىٰ الله عَلَيكَ وعلىٰ آلك. فقَال: قَوْمٌ من «بني أُميَّة» يَزْعُمُونَ أنهم من أُمَّتي ويَظُنُّون أنهم مَن أهْل مِلَّتي، يَقْتُلُون أفَاضِلَ ذُريَّتي وأطَائبَ أرُومَتي وذُريَّة «ابْنَتي»، ويبدلُونَ شريعَتِي ويتركُونَ سُنَّتي، ويَقْتُلُون وَلَدَيَّ «الحسَن» و«الحسَين»، كَما قَتَلَ أسْلَافُ هؤلَاء اليهُود «زكَريا» و«يحيىٰ» (عليهما السلام).

ألَا وإنَّ الله يَلعَنهُم كَما لَعَنَهُم من قَبل، ويبعَثُ الله علىٰ بقَايا ذَراريهم يَوْمَ القِيَامة إمَاماً هَادِياً مَهْدِيّاً من وُلدِ «الحسَين» فيَقتُلهم عن آخِرهم ويَأخُذ بثَأر جَدِّه «الحسَين»، ولهم يَوْمَ القِيَامة أشَدُّ العذَاب وبِئسَ المصِير.

أَلَا لَعَنَ اللهُ قتَلَة «الحسَين» ومُحِبيهم ونَاصِرِيهم والشَّاكِّين في لَعْنِهم من غَير تَقِيَّة.

أَلَا وَصلىٰ اللهُ علىٰ البَاكِينَ علىٰ «الحسَين» والمقِيمِينَ عَزَاءَه.

أَلَا وَصلىٰ اللهُ علىٰ مَن بكىٰ علىٰ «الحسَين» رَحمةً وشَفَقَةً ورِقَّةً له.

أَلَا وَصلىٰ اللهُ علىٰ اللاعِنين لأَعْدَائهم، والممتَلِئينَ عَلَيهم غَيْظاً وحَنَقاً.

أَلَا وَإِنَّ الرَّاضين بقَتل «الحسَين» هُم شُركاءُ قَتَلَته.

أَلَا وإِنَّ قتَلَته وأعْوَانهُم وأشْيَاعَهُم، المتَقَدِّمينَ والمتَأَخِّرِين، بَراءٌ من دِين الله، وعَلَيهم لَعنَة الله والملَائكَة والناسِ أجمعِين.

أَلَا وإِنَّ اللهَ يَأمرُ مَلَائكَته المقرَّبين أن يتَلَقَّوا دُمُوعَ البَاكِينَ علىٰ مُصَاب «الحسَين» عليه السلام فيجَمَعُون دُمُوعَهم، ويَنْقُلُونها إلىٰ خَزَنَة الجِنَان، فيَمزِجُونَها بماء الحيَوان، فيزِيد في عَذْبِهَا وطِيبِهَا وطَعْمِها ألفَ ضِعْفِهَا........[1]

فإذا فَرغْتَ من صَوْن الأداة وحَفِظْتَ عَينَك مِن الآفَاتِ... ولَن تَفْرَغ، فَهُو ٱبتِلَاءٌ وسَعيٌّ دائِم، وعمَلٌ يجب أن تَدْأَبَ عَلَيه وتُوَاصِله بَلَا ٱنقِطَاع، فَلَا تركَن إلىٰ نِعْمَة الرقَّة، والعَيْن الذَّرُوف، فَلَربَّما أُصِيبَت العَين بَعدَ هذا بالجمُود، ولم تَعُد تَصُبُّ الدَّمعَ من فَرْطِ الذُّنُوب، كَما نَبَّه مَولَانا «أميرالمؤمنين» عليه السلام وحَذَّر: "مَا جَفَّتِ الدُّموعُ إلَّا لِقَسْوَة القُلُوب، ومَا قَسَت القُلُوبُ إلَّا لِكَثْرة الذُّنوب".[2] ورَزَقَكَ الله الدَّمعَة والبُكَاء، فعَلَيكَ أن تَلْتَزِم آدابه في المجَالِس، وتَتَقَيَّدَ بأُصُوله...

وأولها الجلْسَة والهيئَة، فإذا شَرَع الخطِيبُ في المراثي وذِكْر المصَاب، ٱنتقَلْتَ معه إلىٰ حَالٍ جَدِيدَة من التَّجَاوُب والٱنفِعَال... فإن كُنتَ مُتَربِّعاً في جِلْسَتِك، أسنَدْتَّ مِرفَقك إلىٰ فَخِذِك، وطَأطَأت بِرَأسِك، وغَطَّيتَ وَجهَك، ورُحْتَ في سَكْب الدُّمُوع وإهْراقِهَا مَا شِئْت. فإذا تمكَّنَتِ الفَجْعَة من قَلْبِك، ورَزَقَكَ الله، فبَلَغْتَ مَا يَنبَغي من التَّأثُر والٱنفِعَال، وأخَذْتَ في النَّحِيب، ورُحْتَ في النَّشِيج، فغَيِّر جِلسَتَكَ إلىٰ الجثُوِّ، وخَلِّ لأنفَاسِكَ السَّبِيل، لِتَنْطَلِق لَا يَعُوقُهَا شَيء، ولكَ أن تفْرغ يَدَيكَ ولَا تغَطِّي وَجْهَك، فلَيْسَ ثَمَّة مَا تَستره!

---

(١) (تفسير الإمام العَسْكَري) ص٣٦٧.

(٢) (عِلَلُ الشَّرايع) ج١ ص٨١.

بَل هُوَ مما لَكَ أن تُبَاهي به وتَفْخَر، وتَرجُو أن تَرقُبَك الملائكة وتُسَجِّل حُضُوركَ وأنت علىٰ تِلك الحَال والهيئَة، جَازِعاً مفْتَجِعاً.

أمَّا إذا لم تُرْزَق ذلك، ولم يَكُن مِنكَ تأثُّر بها أنشَدَ الرَّاثي وقَرأ، ولَا ٱسْتَطَعْتَ الأنتِقَال بذِهْنِكَ، وٱستِحْضَار المصِيبَة وتَصَوُّر الفَاجِعَة، فٱسْعَ جُهْدَكَ أن تُهرِقَ ولَوْ دَمعَة وَاحِدَة، فإن أبتْ عَينُك ولم تُوافِقْكَ وتُطَاوِعك، فَأبقِ علىٰ هيئَتِك، مُطَأطِئاً رأسَك، مُغَطِّياً وَجْهَك بكَفِّك، ولَا تَبلُغَنَّ بِكَ الصَّفَاقَة أن تَركُز وتَنتَصِب مَاضِياً في جِلْسَتِكَ وهَيئَتِكَ السَّابِقَة، قَبلَ شُرُوع الخَطِيب في الرثَاءِ، مُحَلِّقاً إليْه، أو إلىٰ شَيءٍ آخَر، وكَأَنَّك أوْلَيتَه أُذناً صَمَّاء، لَا تَسْمَع مَا يَقُول، ووَلَّاه قَلْبُكَ صَفْحَة إعْرَاضِه، فَلَا يَهتَزُّ لَكَ فَرْعٌ ولَا تَذْرِف لكَ عَيْن؟!

فأقَلُّ الوَاجِبِ وأدنىٰ الأدَب أن تَتَبَاكىٰ، وتَظْهَر بهَيئَة الحَزِين، وتُسَايِر غَيْرك من الحضُور فَجْعَتهم وحُرقَتهم، فَفي الحَدِيث عن «الصَّادِق» عليه السلام، قَال: إنَّ «رَسُولَ الله» صلى الله عليه وآله أتىٰ شَباباً من الأنصَار، فقَال: إني أُريدُ أن أقْرأ عَليكُم، فمَن بكىٰ فَلَهُ الجنَّة، فقَرأ آخر «الزُّمَر» ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إلىٰ آخِر السُّورة، فبكىٰ القَوْمُ جميعاً إلَّا شَابٌّ، فقَالَ: يا «رسُولَ الله»، قَد تَباكَيتُ فما قَطَرَت عَيْني. قَال: إني مُعِيدٌ عليكُم، فمَن تَباكىٰ فَلَهُ الجنَّة. قَال: فأعَادَ عَلَيهم، فبكىٰ القَومُ وتَباكىٰ الفتىٰ، فَدَخَلُوا الجنَّة جميعاً.(١)

أما إذا كُنتَ متَّكِئاً علىٰ ٱسطُوانة أو جِدَار، أو مُسْتَوِياً علىٰ مقْعَد، وشَرَع القَارِئُ في الرثَاء، ثَنيْتَ إحْدىٰ رِجْلَيْك، وطَأطَأتَ بِرأسِكَ وغَطَّيتَ وَجْهَك بكَفِّكَ، وقَد أسنَدْتَ مِرفَقك إلىٰ ركبَتِك التي ثَنَيْتَهـا... فهـٰذه الجِلْسَة تُعِين علىٰ البكَاء، وتُرخِي وتُخَفِّف من ضَغْط المِعدَة علىٰ الرئَتَين، وتُفْسِح للصَّدْر بتردُّد الأنفَاس وإطْلَاق الزَّفَرات، وتَحُول دُونَ أن تَرْهَقَ وتَنْهَكَ سَرِيعاً، فتَأخُذ في الأمَدِ الذي تُرِيد، فَلَا تَكُفَّ وتَنْقَطِع أو تُختَصَر وَصْلتُك سَرِيعاً. ومن هُنا، عَلَيكَ أن لَا تَحضُرَ المجْلِسَ شِبعاً ممتَلئ البَطْن، ولَا مُرْهَقَ البَدَن، ولَا مُثقَل الرُّوح في الفِكْرة بشُؤون الدُّنيَا وهمُومِهَا، فإنَّ هـٰذا يَصْرِفُكَ عن البُكَاء أو يحُوْل دُونَ أخْذِ وَطَرك والاَستِغْرَاق فيه.

---

(١) «أمالي الشَّيخ الصَّدُوق» ص٦٣٨.

والبُكَاءُ بُنيَّ مَراحِلُ ومَدَارِج وأطْوَار... فأوَّله مُجرَّد الصَّوْت المعبِّر عن الحزن، أو خُروُج الدمُوع وانسِكَاب العَبَرات، وقَبْلُه التَّبَاكِي، وهُو تكَلُّف البكَاء واصْطِنَاعه، من الظُّهُور بهيئَة البَاكِي. وبَعدُه النَّوحُ أو النوَاح، وهو البكَاءُ من الإشْفَاق والحَسْرَة، وهو مَا يَكُونُ علىٰ الـميِّتِ خَاصَّة، ويكُون متقَابِلاً أو من جَمْع يَرُدُّ أحَدُهُم البكَاءَ علىٰ الآخر. والإجْهَاش، وهو التَّطَلُّع والتَّحَرُّك إلىٰ طَوْر يَفُوقُ مَا فِيه المرءُ من البكَاء، وكَأنه يَفْزَع إلىٰ البُكَاءِ فَزْعاً ويَطْلُبه طَلَباً. والشَّهِيق، وهُو تَردُّد البُكَاء في الصَّدْر، فكَأنَّ أنفَاسَه كُلَّها أنينٌ وحَنِين. ثُمَّ النَّحِيب، وهو رَفْعُ الصَّوْت بالبُكَاء، أو شِدَّته وكثرته. والعَوِيل، وهو مَا يفُوقُ النَّحِيب في رَفْع الصَّوْت والجَهْر بالبُكَاء وما يَبلُغ الضَجَّة. ثم النَّشِيج، وهو أشَدُّ البُكَاء، الذي يَكُون بَعدَ تَردُّده في الصَّدْر، فإذَا خَرَجَ صَاحَبَه صَوْتٌ كَغَرْغَرَة الحشْرَجَة، أو كَمَن غَصَّ بِرِيقِه واخْتَنَق، ومنه نَشِيجُ الطَّعْنَة في الصَّدْر، مَا يُسْمَعُ من غَرْس الرُّمْح وخُرُوج الدَّم، وهكذا نَشِيجُ القِدْرِ إذا غلىٰ. ثم الاخْتِرَاط، إذا لَجَّ الرَّجُل في البُكَاء وذَهَبَ الغَايَة وبَلَغَ النهَاية...

ولَا أُرِيدُ من هذه الإطلَاقَات المصْطَلَحَ والمعنىٰ اللغَوِيِّ الدَّقِيق، إنما هي مَرَاتب وأطْوَارٌ وحَالَات، أُرِيدُ منْهَا مُرَاعَاة التدَرُّج وعَمَلِيَّة التَّصَاعُد، وأدَاء مَا يُنَاسِبُ حَال المجْلِس ومَوْقع النَّعْي، ومُوَافَاة الخَطِيب والالْتِقَاء معَه في مَا يَبلُغه من الرثَاء، وإعَانته علىٰ نَجَاح المجْلِس وألَقِه، وتجاوُز المرءُ الحالَة الشخْصِيَّة والانفِعَال الخَاص مع البُكَاء، وانتِقَاله ودخُولَه في تحقِيق الشَّعِيرَة. فالفَهْم والوَعْي والمعْرِفَة بمَواطِن كُلِّ مَرْحَلَة من مَراحِل تِلَاوَة المصِيبَة، وإنشَادِ المراثي فَالبُكَاء، يجعَل المجْلِس مُتَّسِقاً، والوَضْعَ فيه منْسَجِماً، لَا نَشَازاً مُستَهْجَناً، أو مُنكَراً، فكُلُّ مَرْحَلَة، ولَعَلَّه كُلَّ مُصِيبَة تَقْتَضِي رَدَّ فِعْل يُنَاسِبهَا، وإن كَانَ الرثَاء كُلُّه خَطِيراً، والبُكَاء علىٰ أية حَال فَضِيلَةٌ وفيه أجْرٌ وثَواب، إلَّا أنه لَا يَنبَغِي الهوِيُّ والسُّقُوط في مَا يُزرِي به وبالمجْلِس، كَمَن كَان يَبكي وهُو يَقرأ القُرآن، فَلَما أصْغوا إليه وَجدُوه يَتْلُو: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ (البقرة)! وهكذا الأمر في المجَالِس الحسَينيَّة، فَلَرُبَّ بُكَاء يُفْسِد المجْلِس، حِين يتَجَاوَز طَوْره، ويتَخَطَّى حُدُودَه ومَوْضِعه.

فإذا رُزِقْتَ الدَّمْعَة، وسَالَ من عَينَيك وسَاحَ مَا بَلَّلَ وَجْهَك، فَلَا تُكَفْكِف دُمُوعَكَ وتمسَحهَا بمَحَارِم وَرَقيَّة، ومَنَادِيل من التي تلقىٰ بعدَ ذلك في القُمامَة وتُودَع النُّفَايات، (اللهُمَّ إلَّا للتَمَندُل والتَّمَخُّط، ودَفْع مَا ينْحَدِرُ من الأنفِ، الذي غَالباً مَا يُصَاحِب البُكَاء ويُلَازِم إهْرَاق الدُّمُوع) بَل عَلَيكَ إمْرار يَدِكَ ومَسْحهَا علىٰ وَجْهك، وتَلْطِيخه بِبَلَلِ الدُّمُوع، فيَسري ويَعمُّ محيَّاك، ويَصْبغ وَجْهَك لَيُزهر بنُور سَيَتَلألأ في عَرَصَات القِيَامة، ويجتَذِبُ مَن يَلتَقِطك ويُخرِجك من بين الحبِّ الرَّديء، فيُخلِّصكَ ويُنجِيك!

فهٰذا بُنيَّ من "الوَسْم" الذي سَيُميِّزك، وسَتُعرَف به هُناك، في الموْقف وسَاحَة المحْشَر، عِندَما تُعرَض أو يَستَشْرِفك رِجَالٌ قَالَ الله تَعالىٰ فيهم: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ۝٤٦﴾ (الأعراف)... ومن "السِّيماء" التي سَتُميِّزكَ وتُعرَف بها، مَا يُوسِم ويَختِم جَبهَتك عِند السُّجُود علىٰ التربَة الحسَينيَّة (ومن هُنا يُطلَق عَليَها بالفَارِسيَّة "مُهْر"، أي خَاتَم)، وهُناكَ وَسْمٌ ثَالِث يأتيكَ خَبرُه إن شَاءَ الله.

وهي سِيرَة العُلَماء الأعْلَام والعُرَفَاء الكُمَّل، وقَد رأيتُ أحَد المرَاجع العِظَام الذي جَمع العِلْم والعِرفَان، عِندَمَا كَانَ يجلِس للبُكَاءِ علىٰ «الحسَين» عليه السلام، كَانَ (بعد أن يَنْزِل عن مِقْعَدِه ويَفْتَرِش الأرض) يَستَعْمِل مِنْدِيلَين، وَاحِداً لأنفِه، وآخَرَ لِدُمُوعه، وقَد أوْصىٰ مرجع آخَرُ أن يُوضَع المنديل الذي كَان يُكَفكِف به دُمُوعَه علىٰ «جدِّه» عليه السلام، في كَفَنِه.

ومما أُوصيكَ به بُنَيَّ أن تَتَهيَّأَ ـ وأنتَ قَادِمٌ إلىٰ المجْلِس ـ للبُكَاء، وتَأخُذَ في عُدَّته وأسبَابِه، ومنهَا أن تَتَحَرَّىٰ مَوْضِعَ جُلُوسِكَ، وتجعَله إلىٰ جِوَار المؤمنين البكَّائين، يُعينُونَك وتُعينهُم، يُسْعِدُونَك إذا فَتَرت، ويُسْعِفُونَك إذا تَعِبْت، فَلَا تَجُفَّ مَآقيك حتىٰ تَقْضي وَطَرك، وتُؤدِّي حَقّاً فَرَضَه عَلَيكَ وَلاؤك، وألزَمَتكَ به نَجَابتُك، وعَهَداً قَطَعْته فأمضَيْته علىٰ نَفْسِك من "عَالم الذَّر"... فهُنَاكَ أشخَاصٌ جمدَت مِنْهُم العُيُون من قَسْوَة أو غِلْظَة، ولَرُبَّما من طَبيعَة خَلْقِيَّة، وتكْوِين جِسْمانيٍّ، لَا ذَنبَ لهم فيه ولَا حِيلَة مَعَه، ولٰكن علىٰ أية حَال، فَإنَّ مُجَاوَرتهُم في المجْلِس تُورِث بَعض آفتِهم، وتحدُّ من انطِلَاقِك وتُقَيِّد تحرُّرك، فَتَجَنَّب بُنيَّ هٰؤلَاء مَا أمكَنك، وابْتَعِد عَنهُم.

إنَّ رِقَّة القَلْب والرَّحمة، وسُرعَة الدَّمعَة وغَزَارتها، نِعْمَة عظَيمة، كَما في الحديثِ الشَّريف عن «أبي عَبدِالله» عليه السلام قَال: "مَا مِن شَيءٍ إلّا ولَهُ كَيْلٌ ووَزْن، إلّا الدُّمُوع، فإنَّ القَطْرة تُطْفئ بِحَاراً من نَار، فإذا اْغرَوْرقَت العَينُ بمائها، لم يُرْهَق وَجْهَهَا قَتَرٌ ولاَ ذِلَّة، فإذا فَاضَت، حَرَّمَه اللهُ على النَّار، ولَوْ أنَّ بَاكِياً بكى في أُمَّة لَرُحِمُوا ".(١)

عَلَيكَ بُنيَّ بالدُّعَاء لِكَسْبهَا والتَّضَرُّع لِنَيْلِهَا، كَما في المرْوِيِّ عَقِيب زِيَارة كُلِّ «إمام»: " وتجعَل دَمْعي غَزِيراً في طَاعَتِك، وعَبْرتي جَارِية في مَا يُقَرِّبني مِنك، وقلبي عَطُوفاً على أوْلِيَائك ".(٢) وفي «دُعَاء أبي حَمزَة الثُّمالي» عن مَوْلَانا «الإمَام زَين العَابِدين» عليه السلام، في أسْحَارِ شَهْر رَمَضَان المبارَك: " سَيِّدي أخْرِج حُبَّ الدنيَا من قَلْبي، واْجْمَع بيني وبينَ «المصطفى وآله»، خِيَرتك من خَلْقِكَ وخَاتم النَّبيين «محمَّد» صلى الله عليه وآله وسَلَّم، وانْقُلني إلى درَجَة التَّوْبة إليكَ، وأعِنِّي بالبُكَاء على نَفْسِي ، فَقَد أفنَيتُ بالتَّسوِيف والآمالِ عُمْري، وقَد نزلْتُ مَنزِلَة الآيِسِينَ من خَيري ".(٣)

وإن كَانت هُنَاك مَجارِيَ وسُبُلاً يمْكِنُ من خِلَالها تَحصِيل هذه الخِصْلَة، ويُرجى مِنهَا أن تُورِثَ الدَّمعَة، كَالتَّغْذِية أو الصِحَّة النَّفسِيَّة، ولكنِّي لَا أرغَب في دخُولها وطَرْق بَاب الأغْذِية التي تُحقِّق هذه الحالَة، من قَبيل مَا جَاء عن «رسُولِ الله» صلى الله عليه وآله: "مَن أكَلَ الدِّبا بالعَدَس رَقَّ قَلْبُه عنْد ذِكْر الله، وزَادَ في دِمَاغِه "(٤). وعن «أميرالمؤمنين» عليه السلام: قَال لي «رسُول الله» صلى الله عليه وآله: عَلَيكُم بالعَدَس، فإنه مُبارَكٌ مقدَّس، يُرقِّق القَلب، ويُكْثِر الدَّمعَة، وقَد بَارَكَ فيه سَبعُونَ نبيّاً آخِرهُم «عيسى بن مَريَم» عليه السلام.(٥) ومَا رُوِيَ عن«معاوية بن عَمار»: قُلتُ لـ «أبي عَبدِالله» عليه السلام: إنَّ النَّاسَ يَروُون أنَّ «النَّبيَّ» صلى الله عليه وآله قَال: إنَّ العَدَسَ بَارَكَ عَلَيه سَبعُونَ نَبيّاً؟ فَقَال: هو الذي يُسمُّونه عِندَكُم الحمُّص، ونَحْنُ نُسَمِّيه العَدَس.(٦)

---

(١) «الكَافي الشريف» ج٢ ص٤٨١.
(٢) «مِصْبَاح الزَّائر» لـ «السيِّد اْبن طَاوُوس» ص٢٤١.
(٣) «مِصْبَاح المتهَجِّد» لـ «الشَّيخ الطُّوسي» ص٥٩١.
(٤) «الدَعَوات» لـ «القُطْب الرَّاوَندي» ص١٤٩. والدِّبا: الجرَاد قبل أن يَطير، الوَاحِدَة: دَباء.
(٥) «عُيون الأخبار» لـ «الشَّيخ الصَّدُوق» ج١ ص٤٥.
(٦) «المحَاسِن» لـ «أحمد بن محمد بن خَالِد البَرقي» ج٢ ص٥٠٥.

ذلكَ لأنَّ "الأسْبَاب" في هـذه النِّعْمَة العَظِيمَة لَيْسَت مِثْلَهَا في نِعْمَة المالِ أو العِلْم، ولَا حتىٰ الصِّحَّة في البدَن، فَالسَّبيل الحسِّي هُنَاك وَاضِحٌ بَيِّن، فَأنتَ عَلَيكَ أن تَعْمَل وتكِدَّ وتُتَاجِر لـتَحْصُل علىٰ المال، وأن تَلـتزِم القَوَاعِد الصِّحيَّة ومَا يَأمُر به الأطِبَاء لتُحَصِّن جِسْمَك من الآفَات... أمَّا الأمر في القَضَايا المعنَوِيَّة، فيَتَقَلَّص الجانبُ الحِسِّيُّ في الأسبَاب إلىٰ أضْيَق الحدُود، ويَنْحَسِر إلىٰ أقلِّ نِطَاق.

ولَا أقول إنها من قَبيل الأُمور القَهْرِيَّة اللاإراديَّة، كنِعْمَة جَمال وحُسْن الوَجْه مثلاً، كَلَّا، فهُنَاك سُبُلٌ لتَحصِيل رِقَّة القَلب وطُرُقٌ للتَّمَتُّع بعَيْن هَمُولَة سَكُوبَة، ولـٰكنَّ العُمْدَة والأسَاسَ في الأمر، هو الدُّعَاء والرِّيَاضَات الرُّوحِيَّة التي تَستَجْلِب التَّوْفيقَ واللطْفَ والرَّحمة التي تُدرِك المرء، فيُرزَق رِقَّة القَلْب وسُرعَة الدَّمعَة.

ومُنْطَلَق ذلك، أنَّ جمودَ العَين لَيْس إلَّا من القَسْوَة، وقَد قَالَ الله تَعَالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ (البقرة)، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (الأنعام)، ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾ (الحج)، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الزمر)...

والقَسْوَة التي تَنْزل بالمرء، تَعُود في أصْلِهَا وجَذْرِهـا إلىٰ الآفَات الرُّوحِيَّـة كَـالكِبْر والغُرُور (الذي يَتَفَـرَّع منه الفِسْقُ والعِصْيَـان، ويَسْتَتْبِعه عَدَم الانصِيَـاع، ويَسْتَبطِن التمرُّد)، ولَا تَعْجَب بُنَيَّ من أسْقَاطٍ لَا شأنَ لهم ولَا خَطَر، ولَا هُم في العِير ولَا في النَّفِير، يَتَكَبَّرون ويَبْطَرُون، وصِغَارٍ لَيْسَ في كِنَانتِهم سَهْم يَرمي إلىٰ الرِّفعَة والعُلُوِّ، ولَا في جَعْبَتِهم أدْنىٰ الأسبَاب والبَوَاعِث لِتلك الآفَات، من عِلْمٍ ومَالٍ وسُلطَانٍ وجَاهٍ ومَكَانَة ومَنزِلَة... تَرَاهُم يَطْغُون ويَتَجَبَّرون!

فهذا دَاءٌ يَستَوطِن كُلَّ نَفْس، وسَهْمٌ من سِهَام الشيطَان، لَا يُوفِّر أحَداً، وإنَّما الأسباب تُظْهِره في طَبَقَة، وتكْشِفه أو تَفْضَحه في جَمْع وفئَة، وإلَّا ففِي المتأففِين من غُرُور غيرهم، والطاعِنِينَ علىٰ "التُّجَّار" و "الأعْيَان" و "الشَّخْصِيَّات" و "العِلْيَة" تَكَبُّرهُم، مَن لَو أمكَـنَتْه الفُرْصَة وسَنَحَت لَه ووَاتتْه، لَرَاحَ في التِّيه والخُيَلَاءِ مَا يُطِيحُ بـ «قَارُون»، ولَعَلَا وتجبَّر وطغىٰ طُغيان «فِرعَون»، ولَفَجَر وبَطَش بَطْش «النَّمرُود»!

وبَعدُ بُنيَّ، فمِما بقي حَسْرَة في نَفْسي، أنقُلها لكَ في نهاية هـٰذا الباب، أُمنِية لم أتمكَّن من تَحقِيقِها بَعد، وهي أن أعمَلَ لتَدَاخُل، وأُفسِحَ لاتِّصَال الأصْوَات بين قَاعَتَي الرِّجَال والنِّسَاء في الحسَينيَّة، وذلك عِندَ الرثَاء والبُكَاء، بما يَسْمَح أن تُسَمَع الرنَّة والصَّيْحَة منهُن، فَتهَيِّج الدَّمعَة، وتُثير المجْلِس بَل تَقْلِبه انقِلَاباً. وقَد شَهِدْتُ ذلك في بعض حُسَينيَّات «إيران»، لـٰكن الخطَأ هُنَاكَ كَان في افتِقَادِهم مَا يمنَع الصَّوْتَ أثنَاء القِراءَة، دُونَ فَترة المصِيبَة وإنشَادِ الرثَاء، فقَد كَانَ ضَجِيجُ الأطفَال ولَغْوُ النِّسَاءِ يُفسِد المجْلِسَ حِين الحديث، ولَا يَسْمَحُ بمُتَابعَة الخطِيب، فقَد كَانت قَاعَة النِّسَاء في طَابق عُلْوِيٍّ يَستَشْرِف قَاعَة الرِّجَال، يجلِّلها حتىٰ مُنتَصَفِهَا، ولَا يَمنَع الصَّوْتَ حَاجِزٌ، اللهُمَّ إلَّا نِصْفُ جِدَار، يَحجُب النَّظَر، ويَحفَظ عن السُّقُوط، ثمَّ فَراغٌ إلىٰ السَّقْف يَنتَقِل عِبرَه الصَّوْت. ومَع هـٰذه المنقَصَة، كَانَ العَطَاء عَظِيماً حِينَ الرثَاء، وعندَ الشُّرُوع في المصِيبَة، فقَد ارتَفَعَت الرنَّة من المؤمنَات، وعَلَتَ الصَّيْحَة والصَّرخَة، مَا خَلَق أجْوَاءَ جَزَع حَقِيقيٍّ، قَلَبَ المجْلِس في قَاعَة الرِّجَال أيضاً، ومن ذلك اليَوْم وأنا أتمنىٰ أن أنهَض بمَجْلِس يحقِّق هـٰذه الغَاية... يجمَع الفَصْلَ والسِّتْر والحِجَاب، ثم يفْسِح لانتِقَال الأصْوَات أثناء الرثَاء.

لـٰكن الأمر يَقتَضي تَصْمِيماً وهندَسَة خَاصَّة في بنَاء الحسَينيَّة، تَعلُو فيه قَاعَةُ النِّسَاء القَاعَة الرئيسِيَّة، أو تحاذِيهَا، فإذا بَدأ النَّعيُ ورَاحَ المنشِدُ في الرثَاء، فُتِحَت النوَافذ المطِلَّة، وصَارَ يُسْمَع صُراخُ النِّسَاء وضَجَّتُهُن. وهـٰذا يتَطَلَّب إمكَانيَّات فَنيَّة وتقَنيَّة متَطَوِّرة بعضَ الشَّيء، مَا يَسمَح أن تُنفَّذ العَمَلِيَّة بشَكْل آليٍّ لَا يُزْعِج أحَداً ولَا يُربِك المجْلِس بأيِّ نَحْو، فيمكِن استِخْدام زُجَاج عَازِل للصَّوْت تماماً، ونَوافذ آلية تُفتَحُ وتُغلَق كَهرَبائياً، يوكَّل بها مَن يَرصُد الوَضْع، فإذا بلَغ المجْلِس الرثَاء فَتَحَ النَّوافِذ وجمَع القَاعَتَين.

اللَّطم

اللَّطْمُ هو ضَرْبُ الخَدِّ، وصَفَحَات الجِسْم، ولَا سِيَّما الصَّدر، بِبَسْط اليَد. وهُو في الأصْل من صُوَر الجزَع وأشكَال التَّعبِير عن الحزْن العَمِيق، وقَد تَرىٰ المصَاب بَفقْد أحَد أقَارِبه أو أحِبَّته، إذا بلَغَ به الحزْنُ مدَاه والبكَاء مَبلَغه، أخَذَ يَلْطم وَجْهَه وصَدْره، ولَربَّما خَبطَ رأسَه بالجدَار الذي يَستَنِد عَلَيه، وهٰكذا...

وهو يكُون حَالَة فَرْدِيَّة تَعرِض أثناءَ السَّماع، من شِدَّة الانفِعَال والاستِغْراق في الرثَاء، وأداءً خَاصّاً من فَرْط التأثُّر بالمصِيبَة، فيلْطِم المؤمنُ صَدْره ووَجْهَه، أو يَضْرِبُ بيَدِه علىٰ رأسه، جَزَعاً وتَفجُّعاً علىٰ مُصِيبَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

أما المرادُ من اللَّطْم الشَّعَائِريِّ فَشَيءٌ آخر غَير هٰذا... إنه انتِظَام جَماعَة من المؤمنين المعزِّين وذهَابهم أو أخْذهُم في اللطْم علىٰ إيقَاع قَصِيدَة أو مَرثيَّة حُسَينيَّة، بوَتِيرة وَاحِدَة، وبشَكْل جماعيٍّ مُتَّسِق منْتَظم، وإن بَدَأ آليّاً مُصْطَنَعاً جَامِداً، يخلُو من التَّأثُّر والانفِعَال (الذي يُفتَرض أنَّ اللطْم يَستَتْبِعه ويأتي كَنَتِيجَة لَه!)، فإنه سَيَمضِي ويَنتَهِي انفِعَاليّاً، يأخُذ التأثُّر أربَابه، وتَستَولي الحماسَة علىٰ ممارِسيه، وهو كُلُّه، علىٰ أية حَالٍ كَان، من أوَّله إلىٰ آخِره، طَاعَة إلهيَّة وخِدْمَة حُسَينية وبَركَة وَلَائِيَّة، سَيؤول إلىٰ انفِعَال ويَنتَهي إلىٰ جَزَع حَقِيقيٍّ إن شَاءَ الله، أو هُو مما يَشْمَله "التَّبَاكِي" و"تَصَنُّع" و"تمثِيل" الجزَع، ويَدْخُل في خَلْق صُورة ومَظْهَر يُحيي الذِّكرىٰ ويُقِيم الشَّعِيرة. فالعِبَادَات الوَاجبَة والمسْتَحبَّة، والأعمال المشرُوعة عُمُوماً، لَا يُعطِّلها ضَعْفُ الأدَاء، ولَا يُلْغِيهَا تَعسُّر اكتمال الشُّرُوط التي تُحقِّق الصُّورة التَّامَّة والحالَة المثلىٰ فيهَا. فلَيْسَ كُلُّ مُصَلٍّ تَرتَعِد فَرَائِصُه عندَ الوُقُوف بين يَدَيْ الله كَموْلَانا «الحسَن المجتبىٰ» عليه السلام! (١)

(١) في (الأمالي) لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص٢٤٤، عن «الصَّادِق» عليه السلام قَال: حدَّثني «أبي» عن «أبيه» أن «الحسَن ابن عليِّ بن أبي طَالب» عليه السلام، كَان أعبَد النَّاس في زَمانه، وأزهَدَهُم وأفضَلَهم، وكَان إذا حَجَّ حَجَّ مَاشِياً، وربَّما مشىٰ حَافِياً، وكَان إذا ذكَر الموت بكىٰ، وإذا ذكَر القَبر بكىٰ، وإذا ذكَر البَعْث والنشُور بكىٰ، وإذا ذكَرَ الممرَّ علىٰ الصِّراط بكىٰ، وإذا ذكَرَ العَرْض علىٰ الله تَعَالىٰ ذِكْره، شَهق شَهْقة يغشىٰ عَلَيه مِنهَا، وإذا قَامَ في صَلَاته تَرتَعِد فَرائصُه بين يَدَي ربِّه عزَّ وجَل، وكَان إذا ذكَرَ الجنَّة والنَار اضْطرَب اضْطِراب السَّلِيم، وسَأل الله تَعَالىٰ الجنة، وتَعوَّذ به من النار.

واللَّطْم كَشَعِيرة حُسَينيَّة، لَه عِدَّة طُرُق وأشْكَال، فهُنَاكَ اللَّطْم علىٰ الطَّريقَة «العِرَاقيَّة»، سَوَاء «النَّجَفِيَّة» منهَا أو «الكَرْبَلَائية» (والفُرُوق بينَهما محَدُودَة قَد أُشير لها لَاحِقاً)، وهُو الذي عَلَيه العَمَل في «الكُوَيت» و«الأحساء» و«القطيف» وعمُوم «الخليج»، بِاسْتِثْنَاء «البَحْرين»، الذين يَلْطمُون علىٰ الطَّرِيقة المعرُوفَة بـ «البَنْدَرِيَّة»، كَما يفعَل سُكَّان السَّاحِل الإيراني للخَلِيج من «بندَر عبَّاس» جَنُوباً، فـ «بوشهر» وَسَطاً، حتىٰ «الأهواز» وعُمُوم «خُوزِستَان» شمالاً. وهُنَاكَ الطرِيقَة «الهنْدِيَّة» المعْمُول بهَا في «الهنْد» و«بَاكِستَان»، ويَقْرُب منه لَطْم الشِّيعة في «أفغَانِستَان» (في مَدِّ الذِّرَاعَيْن، إلَّا أنه يكُون من جُلوس). أما اللطْم في «إيران» و«آذربيجان» وعنْدَ عُمُوم «التُّرك»، وهكذا «لُبنَان»، فهُو مُتنَوِّع لَا يَكَاد يحكُمه طَابعٌ مُعَيَّن، وطَرِيقَة محدَّدة، ولَا يُمارَس وَفْقَ نَمَطٍ ثَابت.

ولكُلٍّ من طُرُق اللَّطْم هذه، أُصُولٌ وآدابٌ تُقَيِّد النَّاهِضِين بها وتحُدُّ القَائمِين عَلَيهَا، وطُقُوس ومَراسِم تَضْبِطُهَا وتَحكُمهَا، يَنبَغي أن تُراعىٰ وتُلتَزَم. وذَلك لِعِلَل كَثيرة، منهَا ضَبْط العَمَل وإتقَانِه، فالعَمَل الجماعِيُّ إذا جَرىٰ علىٰ نَحْوٍ متعَارَف وطَرِيقَة مُتَوَارَثة مَعلُومَة الكَيفِيَّة، في المَوَاقع والفُصُول، والوَقَفات والانعِطَافَات، لم يَضْطَرِب النَّاهِضُون به، ولم يَقَع في أدائِهم الخلل وقَلَّ هَامِش الخطَأ. ثم إنَّ الحَرْفيَّة في التطْبِيق والدِّقَّة في التزَام الرُّسُوم والآداب، يَخْلَع علىٰ الطَّقْسِ القَدَاسَة ويُضْفي الحُرمَة، ولَيْسَ هذا من التهْوِيل واخْتِلَاق مَا لَا أصْلَ لَه ولَا حَقِيقَة، فَكَثيرٌ من فَتَاوَىٰ المراجع العِظَام تتَضمَّن مَا يُشِير ويَدْعُو لالْتِزَام العَمَل بالشَّعَائر الحسَينيَّة وَفْق الرُّسُوم والسُّنَن المتَّبعَة، وكَأن هذا التعَاهُد والثَّبَات في الأداء لَه مَوْضُوعيَّتُه ثُم نَتَائجه وتَبعَاته.

ثم إنني أُريدُ من هذا الالتِزَام، الذي أُفرِّط بَسَببه وأتجاوَز عن "حَركيَّة الشَّعِيرة" والفُسْحَة المتَاحَة للتَّغْيير والتَّطْوِير، لغَرَضٍ أخْطَر أرْميه، وهَدَف أعظَم أنشُدُه... هو قَطْعُ الطَّرِيق علىٰ المفْسِدين الذَّينَ يُرِيدُونَ هَدْم الشَّعِيرة وتخرِيبهَا، فَيَدْخُلُون من بَابِ التطْوِير، والإفسَاح للاجْتهَاد في طَرِيق التَّغيير، مما لَا أرْفُضه ولَا أمنَعه، ولكن بِشُروطٍ وقُيُود، أوَّلها ورأسُها أن يكُونَ صَادِراً من حُسَينيين مؤتَمنين، غَيُورين علىٰ الشَّعَائر، حَرِيصين علىٰ نَجَاحِها وأَلَقِهَا، لَا مِن أتبَاع الضُّلَال المنْحَرِفين، الذين يُرِيدُون أن يَخدَعُونَا عن دِينِنَا.

لِذَا دَعُونا نُبقي كُلَّ شيءٍ علىٰ وَضْعِه، ونَمْضِي به كَما كَانَ يَفْعَلُ آباؤنَا وأجْدَادُنا، ونُورِّثه للأجيَال القَادِمَة من الخلَف، وَديعَة ثَمِينَة، عَلَيهِم أن يجعَلُوهَا في الحِفْظِ والصَّوْن، ومَن أرْجَح طُرُق الصَّوْن، التِزَام السُنَن والآدَاب، والتَّقَيُّد بالطُّقُوسِ والمراسِم.

تَبدَأ شَعِيرة اللَّطْم بَعدَ انتِهَاءِ المجْلِس الحَسَينيِّ مبَاشَرة، وإن كَانت تُقَام في بَعضِ البِلَاد كَشَعِيرة مُسْتَقِلَّة، فيَتجَمَّع النَّاسُ للَّطْم، لَا لِلقِراءَة! ولٰكن المعْمُول به والمشْهُور، ومَا أُوصِيكَ به هُو أن يَعقُبَ القِراءَة ويَلي الرثَاء والبُكَاء، وكَأنه عَطَاءٌ ونَتِيجَة، وطَوْرٌ لَاحِقٌ لما قَطَع المؤمن لِتَوِّه واجْتَاز، وصَارَ فيه من الحَالَة الرُّوحِيَّة، وتَنَامي الحزْن، فَيَنتَقِل من البُكَاءِ إلىٰ اللَّطْم، وهُو صُورة ودَرَجَة أعلىٰ في الجزَع.

يَقُوم الحضُورُ ويجرِي تَرتيب المعَزِّين في دَوَائر وحَلَقَات، أو في صُفُوف، حَسْب سِعَة قَاعَة الحسَينيَّة، أو في مجمُوعَات "جَوقَات" في المواكِب السَيَّارة في الطُّرُقَات.

وعَلَيكَ بُنيَّ أن تُوكلَ أمرَ تَنْظِيم الصُّفُوف أو الدَّوَائر، وتَرتيب مَوَاقعهَا في قَاعَة الحُسَينيَّة، إلىٰ خَبير حَصِيف، وضَليع مُمارِس للَّطْم، يُفَضَّلُ أن يكُونَ كَبيراً في السِّن بَعض الشَّيءِ (كهْلاً)، حتىٰ يَتَقَبَّل النَّاسُ تَعلِيماته بتَرحِيب، ويَنْقَادُوا لِتَوْجِيهَاته بِلَا غَضَاضَة، بِشَرط تمتُّعه بالبُنيَة اللَّازمَة، حتىٰ يُسْعِفه بَدَنه ويُوفِّر لَه الطَّاقَة للجُهْد المطْلُوب، وهٰكذا أن يجمَع إلىٰ الحزْم والصَّرَامَة، حُسْنَ الخلُق وسِعَة الصَّدْر والرَّحمة التي تجعَله يَسْتَوْعبُ أخْطَاءَ المعَزِّين، ويَتَحَمَّل سُلُوكيَّات بَعضِهِم وشَطَحَاتهم المؤغلَة أحْيَاناً في الخطَأ! ولَا بَأسَ أن تَتْبَعَه وتُعِينَه، مجْموعَة من الشَّباب، تَأتمر بتَوْجِيهَاته وتُنفِّذ تَعليماته...

وعَلَيه أن يُراعي - في عَمَليَّة التَّنظِيم هٰذه - عِدَّة أُمور، منهَا تَرتيب انتِشَار الحضُور في قَاعَة الحسَينيَّة، ورَصِّ الصُّفُوف والدوَائر، مَع إفسَاح مَسَافَاتٍ تُتِيحُ للَّاطِم الحركَة، ولَا تحدُّ من انطِلَاقِه، ولَا سِيَّما في "النَّزلَة". وعَلَيه أن يُوازِن في الأمر ويُحسِن التقْدِير، حَسْب عَدَدِ الحضُور وكَثَافَة اللَّاطِمِين، فإذا قَلَّ العَدَد، أدنَاهُم من المنَصَّة أو المنْبر، وقَارَبَ بين أمَاكِنِهم، بما يحفَظ هَيْبَة المجْلِس ويُحقِّق شَعِيريَّته في الأعْيُن والنُّفُوس، وإذا زادَ العَدَد، وفَاضَ عَن سِعَة القَاعَة، لم يَبْخَس حَقَّ السَّابِقين المبَادِرين، بالتَّزَاحُم والتَّضْيِيق، بَلْ كَفَّ التَّدَافُع، وأوْقَفَ دُخُول الجمُوع اللَّاحِقَة للحَسَينيَّة، حتىٰ يَأخُذ اللَّطَّامَة وَطَرَهُم.

وأخطَر أدوَارِ القَائِم علىٰ التَّنْظِيم هُنَا، هُوَ جَمع "اللطَّامَـة" المتَمَرِّسين في حَلَقَات مُستَقِلَّة وخَاصَّة بهم، أو في أمَاكِنَ مُتَقَارِبَة من خِلَال الصُّفُوف، أو تَفْرِيقهِم وتَوزِيعهِم علىٰ مختَلَف الدَّوَائر ونَشْرهم بين الجمُوع...

فنَجَاحُ الشَّعِيرة وألَقهَا، يَقْتَضِي الأوَّل أحْيَاناً، لِيَنْهَضُوا بالعَزَاء كَما يجِب، ويُوفُوا اللَّطم علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام حقَّه، ولَا يَقَع بَخْسٌ وتَقْصِيرٌ علىٰ هٰذا الصَّعِيد، ذلك لما يجمَع هٰؤلاء ـ عَادةً ـ من التَّفَاهُم والأُنسِ ببَعْضِهِم، والقُدْرة الأكْبَر علىٰ التَّفَاعُل عِندَمَا يَلتَقُون، فَيَتَأَلَّق اللَّطْم ويَشْتَدُّ، ويَبلُغ مَا يحقِّق الجزَع، ويَعْكِس الحُرقَة التي تَضْطَرِم في صُدُور المؤمنين، «عُشَّاق سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

وقد يَتَطَلَّب الثَّاني في أحْيَان أُخْرىٰ، حِينَ يخشىٰ من ٱضْطِراب أداءِ الشَّعِيرة ويُخَافُ عَلَيهَا الإخْفَاق، لٱفتِقَاد الحضُور الخِبرة، وعَدَم تمتُّعِهِم أو تمكُّنهِم من أُصول وفُنُون الأداء، وعَجْزِهم عن التَّجَاوُب مع "الرادُود" وقَصِيدَته، أو "الطَّوْر" الذي يُرِيدُ منهَا... فيتَوَزَّع "المتَمرِّسُون" ويَنْتَشِرُون بَينهم، لِيَقُودَ كُلٌّ دائِرةً ويَنهَض بحَلَقة، أو الجماعَة التي تُحِيطُ به ويَقْرُب منهَا. وهٰذا دَوْرٌ عَظِيم وشَأنٌ خَطِير يجمَعُ إلىٰ فَضْلِه الأوَّل، فَضِيلَة التَّعلِيم، وأجْرَ التَّوَاضُع والإيثَار والتَّضْحِيَة. ويُمكِنُ الجمْع بين الفَضِيلَتين، فيَنْتَشِر "المتمَرِّسُون" أوَّل الأمر بين النَّاس، فإذا ضُبِطَ الوَضْع وأُحْكِم، واتَّسَق اللَّطمُ ومضىٰ علىٰ الوتيرة والطَّرِيقَة الصَّحِيحَة... عَادُوا ليَجْتَمِعُوا ويَأتلِفُوا، ويَشْفُوا صُدُورَهُم ويَقْضُوا وَطَرَهُم من اللَّطم كَما يَنبغي ويُوفُوا العَزَاءَ حَقَّه.

ويجِبُ أن يَتِمَّ كُلُّ ذلك بتَوَافُق سَابِق علىٰ إشَارات وتَلْوِيحَات تُحدِّد الخطُوَات والحركَات التي تُدِير أداءَ الشَّعِيرة وتُنظِّم القَاعَة ومَسْرَح الأدَاء، فَوَاحِدَةٌ لِرَصِّ الصُّفُوف، وأُخْرىٰ للتَّوَزُّع والٱنتِشَار، وثَالِثَة للتَّجَمُّع وتَأليف الدَّوائِر الخَاصَّة، وهٰكذا... دون الحاجَة لحركَة وتَنقُّل يخلُّ بالنَّظْم، نَاهِيكَ بتَحَادُثٍ ونِدَاءٍ يُربِك المعَزِّين، وأحْيَاناً "الرادود" نَفْسَه! وهٰذا كلُّه يَعُود لتَدْبِير "المدِير"، ورَهَافَة حِسِّه، وقُدْرته علىٰ التَّمييزِ وحُسْنِ التَّقدِير، وأيِّ الأُمور يكُون الأفضَل لخِدمَة الشَّعِيرة، ومتىٰ يُقَدِم علىٰ تِلك الحركَة، ومتىٰ يتَّخِذ هٰذه الخطْوَة، وكَيفَ يَفْعَل؟... فعَلَيكَ أن تُدَقِّق في ٱخْتِيَاره وتحرِص أشدَّ الحِرص.

ثم لِيَعْلَم مَن يَنهَض بهذا الدَّوْر، إذا وُفِّق ونَجَحَ في عَمَلِه وإدَارته، أنه لَيْسَ إلَّا سَببٌ ظَاهِري، فَألَقُ العَزَاءِ والتَّوفيق في الأدَاء، ونَجَاحُ الشَّعِيرة، يَعُود لأُمور غَيبيَّة خَفِيَّة. وهذا بُنيَّ أصْلٌ مُطَّرِدٌ يجبُ التأكِيدُ عَلَيه والتَّذكير به دَائماً، لِتَقْطَعَ الطَّريق على الغُرور والآفَات الأخْلَاقيَّة والأمراضِ النَّفْسِيَّة المصَاحِبة - عَادةً - للنَّجَاح!

ولَا يَفُوتني هُنَا التَّذْكير بأنَّ عَمَلِيَّة التَّنظِيم والجمْع وتَأليفِ الدَّوَائر والصُّفُوف، تَتِمُّ بشَكْل تِلقَائي، أثنَاء تَقَاطُر المؤمنين وتَوَافُدِهم على القَاعَة، فَلَا يُنادىٰ على المؤمنين بالتهَيُّؤ والاْصْطِفاف بشَكْلٍ "عَسْكَري" جَافٍّ!... إنَّما يكُون - كَما جَرَت العَادَة - بمُصاحَبة نِدَاء يَنْشِده الرَّادُود، على نَحْوٍ متَعَارَف، يكُون كَالدَّعوة للاْلتِحَاق بالصُّفُوف وتَنْظِيمِهَا، فيُكَرِّر نداء: "آ يا حسين ومصابه".

فإذا اْنتَظَمَ الجَمْع، بَدأ المنْشِدُ بقِراءَة "فتحَة عَزا" أو مَا يُطلَق عليه بـ "الموشَّح"... وهو إطلَاقٌ خَاصٌّ في أوْسَاط الهيئَاتِ الحسَينيَّة، لَا عِلاَقَة لَه بالفَنِّ المعروف، الذي هو من ألوَان النَّظْم، اْختَرعَهُ «الأندَلُسيُّون» في القَرن الثالِث الهجْري، ولَه قَوَاعِد خَاصَّة في أوْزانه وقَوافيه، تجعَله يختلِف عن الشِّعر العَاديِّ، فيه مَطْلَع أو مَذْهَب، وقُفْل يتكَرَّر، وغُصْنٌ ودَوْرٌ وسِمْط وبَيْت، ثم خَرجَة أو قَفْلَة أخِيرة [١]، أمَّا "الموشَّح" الذي يُعْمَد إليه في شَعِيرة اللَّطْم الحسَيني، فهُو قَصِيدَةٌ عَاديَّة تَكُونُ في الغَالِب من بُحُور الطَّوِيل والمدِيد والوَافِر والكَامل، أو غَيرهـا، مما يَسَمَح أن تكُونَ الطَّرِيقَة في إلقَائه ثَقِيلَة أو هَادِئة، واللَّطْم بَطِيئاً وخَفِيفاً... ضَربٌ يحقِّق الإحماء، ويُشَكِّل المدْخَل إلى المرْحَلَة التَالِية.

فإذا فَرغَ المنْشِد من هذا، بَدَأ بإلقَاءِ "القَصِيدَة"... والقَصَائد أطْوارٌ وألحان، وتلقى بكَيفيَّات مُتنوِّعَة، لكنها تَشْتَمل على مَا يُعرف بـ "المُسْتَهَل"، وهو بَيْتٌ أو أكثر، يُنْشِدُه اللَّاطِمُون، ويكَرِّرونه في نهَاية كُلِّ مَقْطَع من القَصِيدَة، يَستَمر خِلَالَه اللَّطْم في "الطَّرِيقَة الكَربلَائيَّة"، ولكن بشَكْل أخَفَّ، أو أقلَّ قُوَّة، بينَما يتَوقَّف تماماً في "الطَّرِيقَة النَّجَفيَّة"، ويُستَعَاض عنه بَرفْع اليَدِ والإيماء والإشارة مَع وَتيرة القَصِيدة ولحنِها.

---

(١) انظر: «الشَّامل» مُعْجَم في عُلوم اللغة العرَبيَّة ومُصطَلَحَاتها، لـ «محمَّد إسبر» ص٩٣٧.

وهي سُنَّة حَسَنَة تُدْخِل اللَّاطِمَين ـ تِلْقَائياً ـ في أجْر الإنْشَاد أيضاً، وتجمَع لهم الفَضِيلَتَيْن، ولـٰكن يَنبَغي في "المسْتَهَل" أن لَا يَكُونَ مملَّاً وطَوِيلاً، أو مَعَقَّد الألْفَاظ والتركيب، أو صَعْب الحِفظ، مما يُربك الجمُوع المردِّدَة ويُخِلُّ بأدائهَا، بل سَلِساً وخَفِيفاً علىٰ اللِّسَان والحَافِظَة، فَلَا يخرُج من غَرَضِه الأصْلي، إلىٰ مَا قَد يَعْمَد إليه "الرَّادود" فيَجْعَلُه فاَصِلاً يَسْتَريح فيه ويَلتَقِط أنفَاسه، أو يُطِيل في وَصْلَته، ويَملأ فَراغ عَجْزِه! وهـٰذا بُنيَّ مما عَلَيكَ أن تَلْحَظه، ويَسْبِق مِنكَ إعْدَاده وتَنْسِيقه وضَبْطِه مَع "المنشِد"، فَلَا يُترَكَ الأمر لحَالِه، ويلقىٰ الحبْلُ علىٰ غَارِبه، فتُستَنزَفُ طَاقَة اللطَّامَة في غَيْر محلِّها، وأنتَ تُريدُهَا لمَوضِع قَادِم ومَرحَلَة لَاحِقة عَليكَ أن تدَّخِرهَا لها.

ومن هُنَا أعَرِّجُ علىٰ مَسْأَلَة الوَقْت، وأُعيدُكَ لِفَصْل "التَّدَرُّج في العَزَاء" وهـٰكذا "الوَقَار في الشَّعَائر"، فالأمر في اللَّطْم من أهَمِّ مَوَارِدهما، وأكثر مَواقع تَطبيقه والتزَامه.

عَلَيكَ بُنيَّ أن تحدِّد الوَقْت الذي قَرَّرته للَّطم، وتُلْزِم به "الرادود" وتُقيِّده، ولَا سِيَّما إذا لم يكُن يحيي الشَّعِيرة ويَتَولَّى العَزَاء وَحْدَه، وكَانَ معَه "رَادُودٌ" آخَر أو ثَالِث، كَما في المَوَاكِب والحسَينيَّات الكَبيرة، والجمُوع المحْتَشِدَة، فإنَّ الحماسَة والانْدِفَاع غَالِباً مَا يَأخُذ أحَدَهُم، فيَستَغْرِقُ في اللَّطْم ويَمْضِي في الإنْشَاد، ولَا سِيَّما إذا وَجَدَ من حُضَّارِه التجَاوَب ولَاقىٰ من حماسَتهم مَا يُحِب، فكَأنه يَستَشْعِر الخسَارة والحيْف أن يتركهم وفيهِم رَمَق!

عَلَيكَ أن تُراعيَ حَال المجْلِس وطَبيعَة الحضُور، وتُوَازِن، فَالغَرضُ النِّهَائيُّ هو إحيَاءُ الشَّعِيرة، وإدْخَالُ أكبر عَدَدٍ من المؤمنين فِيهَا، وصُنْعُ مَا يزيد في أَلَقِهَا وبَهائهَا ورَوْنقِهَا، فتَجْمَع بين رَغْبَة عَامَّة المؤمنين، الذين لَا يُحبِّذُون الشِّدَّة ولَا يُريدُونَ الإطَالَة، وتَطَلُّعَات الخاصَّة الذين يَطلُبون المزيد، ويُريدُون أن يَقْضُوا وَطرَهُم ويَشْفُوا صُدُورَهُم ويُوفُوا اللَّطْم والعَزَاء حَقَّه، ولَا يُقَصِّروا فيه. وإن كَانَ الحقُّ هُنَا ـ بطَبيعَة الحال ـ مَعَ الخاصَّة، لـٰكن عَلَيكَ، كَمُدِير ومَسؤول ورَاع، أن تُوازِن بين الرَّغبتَين وتُنْصِفَ الجماعَتَيْن، بما يُحقِّق العَدَالَة والاعْتِدَال، فيَقْضي "اللطَّامَة" المتمَرِّسُون وَطَرَهُم، ولَا يُصَابُ البَقيَّة بالملَل والسَّأم، فَيَتركُوا الشَّعيرة ويُحرَمُوا من هـٰذا الفَيْض. فمِن مَهَامِّ الحُسَينيَّة، نَقْلُ المؤمِنين من ضِفَّة العَوَام إلىٰ الأُخرىٰ وإلحاقِهِم بالخَوَاص، وهـٰذا يتطلَّبُ تَدَرُّجاً ورَوِيَّة وحِكْمَة.

إنَّ أدَاءَ الشَّعَائر الحسَينيَّة محكُومٌ في عَدَدِ العَامِلين بها، ونَوْع الشَّعِيرة، لِتَنَاسُبٍ عَكْسيٍّ بيِّن، فكُلَّما ٱشتَدَّ الأداءُ وتَركَّز نَوْع العَمَل وتميَّز، قَلَّ عَدَدُ المشَارِكين وٱنحَسَرت الجمُوع وأحْجَمَ النـاسُ عن الدُّخُول فيـه، هـٰكذا يَضِيقُ النِّطَاق من شَعِيرة إلىٰ أُخرىٰ، كُلَّما ٱرتَفعَت "كُلفَة" العَمَل بهَا وزَادَت "مَشَقَّته". فالحضُور في المجْلِس أعَمُّ وأكثر من البَاكِين، والبَاكُون أعَمُّ من اللَّاطِمِين، واللَّاطِمُون أعَمُّ من المطَبِّرين، والمطَبِّرون أعمُّ من السَّائرين علىٰ الجمْر... وإن كَان هـٰذا من طَبْع القَضِيَّة، وفي صَمِيم سَيْرِها وَفقَ سُنَن الحركَة، كَما جميع مَظَاهِر الإيمانِ والعَمَل والسُّلُوك الدِّيني، فَالمصَلُّون أعَمُّ من الملتَزمينَ بالجماعَة في المسَاجد، وهـٰؤلاء أعَمُّ من مُلتَزمي النَّوافِل ومُحيي اللَّيل والمتهَجِّدين، وهـٰكذا.

إلَّا أنه لَا يَعني تَرك السَّعْي لِتوسيع دَائرة "الخوَاصّ" وتَعمِيم نِطَاقهَا لتَشْمَل أكْبر عَدَدٍ ممكِن، وجَعْل المؤمِنين كُلُّهم "نُخْبَة"!... وهـٰذا من عَمَل الحُسَينيَّة وفي صَمِيم دَوْرِهَا التَّبلِيغي التَربَوِي، وهُو الجنَاحُ الثَّاني الذي تُحلِّق بِهِ وتَطِير في سَماءِ الوَلَاء، بَعدَ نَفْس أدَاءِ الشَّعِيرة، وإيفَاء المصِيبَة حَقَّها من الجزَع والإحْيَاء. فَلَا يَكُون في أدائنا، وخَفْقِنا بـ "الجنَاح الثاني"، مَا يُشَكِّل عُنْصُراً طَارِداً، أو سَبَباً منَفِّراً، يُشِلُّ "الجنَاح الأوَّل"، فيَسْقُط العَمَل ويَهوِي، أو لَا يحلِّق ليَصِل الدَّرَجَة المطْلُوبَة في القُرْب من «أهْل البَيْت» عليهم السلام.

فكُن وَاضِحاً في هـٰذا الأمرِ وحَاسِماً، بِما يُحقِّق لكَ العَمَل بالمهِمَّتَيْن، والتَّوازُن بين الطَّائفَتَيْن... فَتَضْبِطُ الحركَة في حُسَينيَّتك وتَحْسِم أمرَك، سَوَاء مَعَ "الرَّادُود" أو "اللطَّامَة". وإن بلَغَ الأمر حَدَّ التَّزَاحُم وأعْسَرَ الجمْع بَينَهما، ودَار مَدَار التَّخلِّي عن أحَدِهما، وضَاقَ "الخواصُّ" بهـٰذا الأدَاء، ولم يُطيقُوه، فَفَرِّط بهم دُونَ المهمَّة الأصليَّة التي عَلَيكَ النُّهوض بها، ولَا تَسْمَح لمجلِسكَ أن يأخُذ طَابع الخواصِّ والنُّخْبة! بل ٱجْعَل سِمَتَه وعُنوَانه: المجْلس الذي يَأخُذ بأيدِي عَامَّة المؤمنين بتَدرُّج لَا يُنفِّرهم، ومَرحَلِيَّة لَا تقصِيهم وتَطْرُدُهم، فيُدخِلهُم في أخصِّ الشَّعَائر، وذُرْوَة النشاط، وقمَّة التَّفَاعُل والعَطَاء.

الفَخْر بُنيَّ، كُلُّ الفَخْر، أن تَنجَحَ الحسَينيَّة بالأخذ بيَدِ مَن يقِف في الدرجَة الأُولىٰ من الإيمان والعَمَل، فترقىٰ بـه إلىٰ الثَانية والثَّالِثة... لَا أن تكتَفي بالٱنصِراف لخلْقِ أجْوَاء الخاصَّة، وتَوفير مَا يُؤدِّي به عَدَدٌ محدُودٌ طُقُوسَهُم ويَقْضُوا وَطَرهُم.

ولَا أرَاني بحَاجَة ـ بَعدَ مَا جَاءَكَ في الفُصُول السَّابقَة ـ أن أُكرِّر عَلَيكَ الحذَرَ من إقحَام القَضَايا السِّيَاسيَّة أو أيِّ شَأنٍ آخرَ في مَضَامين القَصِيدَة اللَّطمِيَّة والمعَاني التي تحمِلهَا... فَلَا تَتَجَاوَز الرثَاء، ومَا يدُور في فلَك «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام ، والمصيبة وأجْوَائهَا وتَوَابعهَا، من قَبيل اَستِنهَاض «الحجَّة» عليه السلام، والفَخْر بالشَّجَاعَة، وتَسطِير البطُولَة.

لَقَد وَقَعَت هذه الشَّعِيرة العَظِيمَة في مخمَصةٍ ولأوَاء، ونَالَهـا كَبَدٌ وبَلَاءٌ وعَنَاء! حين قَادَتها الأحزَابُ السيَاسيَّـة، وهي التي كَانت تَتَنكَّر لها وتَستَهزِئُ بها، وتُنَاصِبهَا العَدَاء، وتَرَاهَا من مَظَاهِر الرَّجعِيَّة والتَّخَلُّف، قَادَتها وأخَذَتها إلىٰ غَير وُجْهَتِهَا، وأقحَمَتهَا في غَير سَبيلهَا، وذلك بطَريقة فَجَّة، وآليَّة سَخِيفَة وَقحَة، تَقفِز حتىٰ علىٰ فلْسَفَة الشَّعِيرة وتُصَادِرُ مَعناهَا، وتَقلِبُهَا مجرَّد أُنشُودَة ولحن يَتَرنَّـمونَ به... وإلَّا فَـما معنىٰ اللَّطم في قَصِيدَة تمدَح قَائداً سِيَاسِياً فعلِيّاً، وتمجِّد زَعيماً حيّاً يُرزَق؟! لَا حُزْنَ في أبياتها ولَا رثَاءَ في مَضَامِينهَا؟! أين مَوْقع الحزْن هُنا، ومَا محَلُّ الندْبَة والجزَع الذي يُورِثُ ـ في مَا يَنبغي ـ اللَّطم؟!

إنَّها ببَسَاطَة مُصَادَرة... رَأوا في اللَّطم مجرَّد شَكْلٍ ونَمَط، قَابِل ليكُونَ وَسيلَة إعلَامِيَّة نَاجِحَة، وطَرِيقَة شَعبِيَّة محبَّبة مَقْبولَة، يتَفَاعلُ معَهَا الشَّباب، وتُؤثِّر فيهِم، فعَمدُوا إليه وصَادَرُوه، بل التَـفُّوا علىٰ قِوَامِه وقلَبوا حَقيقَته إلىٰ مجرَّد لحْن يَصنَعه إيقَاعُ اللطْم! فصَارَت اللطْمِيَّات تُنشد لقَضَايا سِيَاسيَّة (سَوَاء بَاطِلَة أو محُقَّة، فهذا لَا يُغيِّر من قُبح المصَادَرة ولَا يُصحِّحُ السَّرِقَة)، ورَاحَوا يَلطِمُون علىٰ «البوسنَة» و«الهرسك» و«القُدس» و«فلسطين»، ومَواضيع الثورة والوحْدَة الإسلَاميَّة، ومُحارَبة المنكَرَات والتَّسَيُّب الأخْلَاقي في المجتَمَعَات (فلَطَمُوا علىٰ "القَصَّات الجكْسُونيَّة"! وقَد يَأتينا مَن يلطِم علىٰ مُشكِلَة الطَّلَاق والعُنُوسَة والمخدِّرات!) وهنـاكَ مَن أزرىٰ بـالحُرمَة وهتك الذِّمَار وتجاوَزَ الحدَّ ورَاحَ في المهزَلَة وهُو يخلِطَ و"يجمَع"، فأنشد "لَطمِيَّة" تَقرِنُ بين حِصَار «مُسْلِم بن عَقيل» عليه السلام في «الكُوفَة»، وحِصَار الفِلَسطِينيين في «غزَّة»! وهُنَاكَ مَن لَطَم في نَقْدِ الإعلَام الاَستكْبَارِي والمحَطَّات الأخْبَارِيَّة كَـ "السي إن إن" و"البي بي سي"! ومَن أنشَدَ وأقَام "لَطمِيَّـات" في زُعَماء سِيَاسِيين مُنحَرِفِين، وقَادَة حِزبيِين فاسِدِين مُتَاجِرِين، و"عُلَماء دِين" ضالِّين مُضِلِّين، و"مَراجع" مُصْطَنَعِين مُزَيَّفِين... تمجِّدُ فيهِم وتَرفَع شَأنهم، وتُعظِّم قَدْرَهم!

لعَمْري، مَا بَالُ هٰؤلاء؟ كأنَّ محطَّات الإذَاعَة والتلفِزيُون والقَنَوَاتِ الفَضَائيَّة والمَوَاقع الإلكترُونيَّة التي يَملكُون، والصُّحُف والمجَلَّات والدَّوْريَّات، والكُتُب ودُور النَّشر... لم تكْفِهم، ولم تملأ فَارغ أعيُنِهِم وتُغني فَقير نُفوسِهِم، فٱنعَطفوا علىٰ الشَّعَائر الحسَينيَّة.

إنه إسفَافٌ وٱمتِهَان، بَل مَهزلَة مخجِلَة، أن يحمىٰ العَزَاءُ ويَشْتدَّ اللَّطمُ علىٰ الصُّدُور، ثُم يكُون مُستهَلُّ اللطَّامَة وجَوَابهم بعَالي أصوَاتهم: "السي إن إن"! وطَامَّة ووَقَاحَة أن يكُون في "الرَّوَاديد" والشُّعَراء، مَن أنشَدَ القصَائد في ذمِّ بعضِ أنماطِ الشَّعَائر وتَقْبِيح ممارسيهَا، وفي المؤمنين الحزِبيين مَن لَطَم علىٰ تلك القَصَائد الآثِمَة وسَارَ بها!

لَا تَسْمَح بُنيَّ لأضرابِ هٰؤلَاء التُّعَسَاء بالدُّنوِّ من مِنصَّة أو منْبَر مجلِسِك، ولَا تُفسِح لهٰذا الهرَاء أن يتَسرَّب ويَنفذ بأيِّ نَحْوٍ إلىٰ حُسينيَّتِك، ولَا تَنطَلِيَنَّ عَلَيكَ تَزيينات الشَّيطَان التي قَد تُصَوِّر اللَّطْمَ علىٰ عُلماء حَقِيقيين، وعلىٰ قَضَايا مُحقَّة، أمراً رَاجِحاً، ولَيْسَ من إسفَاف السِّياسِيين الحزْبيين!... فكُلُّ مَيْل عن «الأئمَّة المعصُومين» عليهم السلام بَاطِل، وكلُّ ٱنعِطَافٍ إلىٰ غَير «عَاشُورَاء» و«كَربَلَاء» ٱنحِرافٌ وضَلَال.

فإذا فَرغ اللَّطْم علىٰ القَصِيدَة أو القَصَائد، جَاءَ دَور مَا يُعرَف بـ "النَّزْلَة".

وهي الأُخرىٰ قَصِيدَة، لكنَّ طَوْر اللَّطْم فيهَا يختَلِف، فَلَا يَكُون من ٱستِقْرَار اللَّاطِم ووُقوفه في مَوضِعِه وثَبَاتِه في مَكَانه، بل بحَركَة تجمَع: خُطْوَة وَاسِعَة ممتدَّة للأمَام، وأُخرىٰ للخَلْف، وبينَهُما نُزُول، بثَنْي الرِّجْل والأنحِنَاء والهوِيِّ إلىٰ هَيئة أقرَب لحِال الركُوع، ثم رَفع اليَدَين واللَّطْم علىٰ الصَّدْر. مَا يُشَكِّل "نُزُولاً"، وهو الوَجْهُ في التَّسمِيَة.

و"النَّزْلَة" سَريعة الوَتيرة، يُصاحِبهَا لَطْمٌ شَدِيد وقَويٌّ، ويكُون المستَهَلُّ فيهَا، والجوَاب الذي يُردِّده اللَّاطِمُون، وُقُوفاً لَا يُصَاحِبه لَطْمٌ ولَا نُزُول. ويَصنَعُ الأداءُ الجماعيُّ المتْقَن فيهَا ٱستِعرَاضاً وشَكْلاً مُلفِتاً من مَزِيج النَّظْم والحماسَة.

ومن سِمات "النَّزلَة" قِصَر مدَّتها الزمنيَّة، فَلَا يَنبغي أن تمتدَّ وتَطُول، ذلك لِشَدِيد الجهْد الذي تَتطَلَّبه، وفَرْط الإرهَاق الذي يُصَاحِبهَا، ويتفَاوَت الأمرُ حَسْب المنَاسَبة والحَالَة، ولَربَّما نَوْع القَصِيدَة وطَبيعَة الأجْوَاء، وأقصىٰ مَا أرَاه نِصف سَاعَة، تتَضَمَّن وَقَفات المستَهل التي تكُون ٱستِرَاحَات يَلتَقِط فيهَا اللَّاطِمُون أنفَاسَهُم.

ويَلي "النَّزلَة"، "صَيحَة" و"ضَجَّة"، وهي لَا تكُون إلَّا في ذُروَة لَيالي العَزَاء، وغَالباً مَا تَبدأ من الليلة الخَامِسَة، بل السَّادِسَة من عَشرة «عَاشُوراء»، أي لَيْلَة «مُسْلِم» أو «الأنصَار»... تُردَّدُ فيها جملَة من الشِّعَارات الحسَينيَّة و"المستَهلَّات" الحماسِيَّة، وهكذا "الهوسَات"، يَنهَض بها اللَّاطِمُون بَعدَ أن تَتَدَاخَلَ صُفُوفُهم ودَوائرُهُم، وقَد غَلَبَتْهُم الفَجْعَةُ وأخَذَتهم الحَماسَة، فأنفرَط نَظمُهُم، فَيغْدُون كُتلَة وَاحِدَة تَهتِف وتَلطِم، ثم يَعْمَدُون لِركْضَة يَدورُون فيهَا في حَلَقَة، وهُم يَطْفِرُون من جَزَع ويقْفِزُون، ويَلطمُون أو يَرفَعُون أيديهم ويضربُونَ علىٰ رُؤوسِهِم، ويَصرخُون... في مَظَهرٍ يَستَدِرُّ الدُّموع من كُلِّ عَين، ومَشهَدٍ تَتَزلزَل لَه الحسَينيَّة وتكَاد تَنصَدع.

وهي شِعَارَات خَالِدة باللَّهْجة العَاميَّة، أشهَرهَا:

"يا حَبيب بن مظَاهِر، قُوم شِيل العَلَم وٱظْهَر".

"يا فَاطمة الحزِينة، قِطعَوْا يمين «العَبَّاس»".

"وَا وِيلي علىٰ «العرِّيس»".

"طِلَع شَباب من الخِيَم، قُومي يا «زينب» هَلهِلي".

"هَالله هَالله «حِسين» وِينَه، بالسِّيوف مقَطِّعِينه".

"هَالله هَالله يا شَباب، «حِسين» نايم عَالتراب".

"يَا طَير خَبِّر «النبي» عَمَّا جَرىٰ في «كَربلا»".

"الليلة الودَاع سيِّدي، هذا الودَاع سَيِّدي"

وقد طَرأ مُؤخَراً علىٰ خِتَام شَعِيرة اللَّطم، مَا صَارَ يُعرَفُ بـ"الشُّور"... وهو رَسْمٌ «إيراني» مُبتَدَع، ونعمَت البِدْعَة، ٱنتَقَل إلىٰ مجالِس اللَّطم العَربيِّ، ونعمَ الأنتِقال. وكَيفيَّته تكُون بَأن يجثوا اللَّاطِمُون علىٰ ركَبِهِم في حَلَقَة مُتَقَابلين، ويَضجَّ اللَّطْم علىٰ ٱسم وَاحِد، لَا شِعْرٌ ولَا شِعَار، وكَأنَّ الخطَاب ٱنقطَع، واللغة تَعطَّلت، فيكَرِّرون: «زَيْنَب» «زَيْنَب» «زَيْنَب»، أو «حُسَين» «حُسَين» «حُسَين»، «أبا الفَضْل» «أبا الفَضْل» «أبا الفَضْل»، وهكذا ويَتَنَاوَبُون علىٰ الأسماء المعَظَّمَة، وهُم يَضربُون صُدُورهُم بشِدَّة، وبشَكل تَصَاعُدِيٍّ ووَتيرة سَريعَة تَرتَفع شَيئاً فشَيئاً مَع الصَّوْت والردَّة، حتىٰ تَبلُغ الذِّرْوَة.

وبعد بُنيَّ، فمِن صَمِيم آداب اللَّطم وأُسُسه، أن يَكُونَ على الصَّدْر مُبَاشَرة لَا على الثَّوْب، وذلك بنَزع القَمِيص، أو فَتْح الجيب، والحَسْر عن مَوْضع اللَّطم وكَشْفه، حتى تَقَع اليَدُ على بَشَرَة الصَّدْر، وتُؤثِّر فيه بعد حِين حُمرَة، بَل كَدْماً واَسوِدَاداً، وإن وُفِّقت وحَظيت بالسَّعَادَة، فتَقَرُّحاً ونَزْفاً.

وإنما أُشدِّد على هذا وأُؤكِّده، لأنه السَّبيل لـ "الوَسْم الثَّالِث" الذي سَيُعْرفُ المؤمنون به في عَرْصَة القيامَة يَوْم العَرْض، مما جاءَ في قَوله تَعَالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأعراف)... وذلك بعد خَتْم الجبهَة بالسَّجْدَة على التربَة الحسَينيَّة، وتَضَمُّخ الوَجْه بالدُّمُوع السَّاكِبة على مُصَاب «الحسَين» عليه السلام.

ولَعَمْري، فهو وَسْمُهُم في الدنيا قَبل الآخِرة، وطَابعُهم وسَبيلُ اَستِشهَادِهم على يَدِ أخسِّ وأشقى الخلْق والأنجَس من الكِلَاب، أي النوَاصِب[1]، الذين تَعترِضُ عِصَاباتُهم الإرهَابيَّة في «باكِستَان» (وفي «العِرَاق» إبان سَطوَة الإرهَاب) حَافِلات الركَاب المتنقِّلَة بين المدُن، فتُنزِل الرِّجَال وتَتفحَّص صُدُورهم وظُهُورَهم، فمَن حَمَل "الطَّبْع" و "الخَتْم" أو "الوَسم"، بل "الوِسَام"، قتَلُوه وأذاقُوه المنيَّة والحِمام!

ثُمَّ لأن هذا الاَلتِزَام في أدَاءِ الشَّعِيرَة، والإصْرَار على الأصَالَة فيهَا ولَطْم البَدَنِ مُبَاشَرة، كَانَ ومَا يَزَال مَيدَان صِرَاع ومُوَاجَهَة بَينَ الوَلَائيين وبَيْن أعْدَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة، من أدْعِيَاءِ التَّنوِيرِ والثَّقَافَة والإصْلَاح الشِّيعِي (السُخفَاءِ منهُم والخبثَاء)، ومما يجادِلُون فيه ويُمارُون! ويَلتَمِسُون شَتَّى الأعْذَار في مُوَاجَهتِه والسُّبُل في مُكَافَحَته... فيَزْعُمُون أنَّ الأمرَ ضَرْبٌ من التَّعَرِّي، ويَتبَاكُونَ على السَّتر والحيَاء. ونَحْنُ نَعْرِفهُم بأشْخَاصِهِم، ونَعرِف مَدَى التزامَهم ودرَجَة حِيطَتِهم لَدِينهم، ولم نَجِدِ الحياءَ يُزهِرُ في نفُوسِهم وسُلُوكهم يَوْماً إلَّا في هذا الموضِع! دُونَ الملَاهِي والمسَابح وعلى الشَّوَاطئ، وأثناء ممارسَة جملَة من الرِّيَاضَاتِ البدَنيَّة... فلَم نَرَهُم يُبَالُون بالتَّعَرِّي ولَا يَسألون عَن الحيَاء!

---

(١) في روَاية «اَبن أبي يَعفور» عن «الصَّادِق» عليه السلام: "إيَّاكَ أن تَغتَسِلَ من غُسَالَة الحمام، فَفيهَا تجتَمعُ غُسَالَة اليهوديِّ والنصرانيِّ والمجُوسي والنَّاصِبُ لَنا «أهل البيت»، وهُو شرُّهُم، إنَّ الله لم يخلُق خَلْقاً أنجَسَ من الكَلب، وإنَّ النَّاصب لَنَا «أهل البيت» لأنجَسُ منه". اَنظر: (عِلَل الشرائع) لـ «الصَّدُوق» ص٢٩٢.

أمَّا المؤمنُونَ الملتَزِمُون حَقّاً، فَفِي لِبَاسِ الإحْرَام للحَجِّ والعُمْرَة الكَفَاية لِرَدِّهم أو إقنَاعِهِم، والحَال أنَّ بَابَ الاَختِلَاطَ هُنَاكَ مُشْرَعٌ علىٰ مِصرَاعَيْه، بَيْنَمَا الأمرُ في اللَّطْم مُقْتَصِرٌ علىٰ مَجَالِس الرِّجَال، ولَا وُجود لِناظِر من النِّسَاء، حتىٰ إنَّ دَائرة التَّصْوِير التي تَصِل الحَسَينيَّة بقَاعَة النِّسَاء، أو تَنقُل الشَّعِيرة في الفَضَائيَّات، تُركِّز علىٰ "المنْشِد"، دُونَ "اللطَّامَة" فَلَا يُظهِر أجْسَاد الرِّجَال.

وبعد بُنيَّ، فمِما عَلَيكَ مُراعَاته في أدَاء شَعِيرة اللَّطم والتنبُّه لَه:

* الحِرص علىٰ ضَبْط إيقَاع اللَّطْم، والعَمَل بجِدٍّ علىٰ اَنتِظَامِه وتَوَافُقِه، ومَنع الاَضطِرَاب فيه، ولَا سِيَّما في بَعضِ الأطْوَار الصَّعْبَة غَيْر المتدَاوَلَة، أو التي تحتَاج لِخِبرَة وتمرُّسٍ كَـ "ثَلَاث دَقَّات" و"الشُّوط الكَربَلَائي".

* الإفسَاح للنُّظَّارة... فقَد لَاحَظْتُ أنَّ كَثيراً من الحسَينيَّات، عِندَ ضِيق المكَان وعَدَم اَسْتيعَابِه أعْدَاد النَّاهِضِين بالشَّعِيرة، سَوَاء أكَانت لَطَماً أو تَطبيراً، يَعمَدُون إلىٰ إخرَاج النُظَّارة وطَرد "الجمهُور"، من بَابِ أنَّ الأوْلَويَّة هي للَّاطِم والمطَبِّر، فيَجب أن يُفسَحَ لَه. والحَال أنَّ وُجُود النُظَّارة قَد يَدْخُل في قِوَام الشَّعِيرة، ويُشكِّل عُنْصُراً أسَاساً فيهَا، فاَحْرِص بُنيَّ أشَدَّ الحِرْص علىٰ وُجُودِهِم، وتمسَّك بالجَمْع، ولَا تَلجَأ إلىٰ خِيَار إخْرَاجِهِم إلَّا بعدَ عُسْر واَضْطِرار شَدِيد.

* مَنْع الحركَة والتَّنقُّل بين صُفُوف ودَوَائر و"جوقَات" اللَّطْم... فهذا مما يُشتِّت التركيز ويَصْرِف الاَنتِبَاه، ويَنَال من وَقَار المحْفِل ورَصَانته، واَمنَع ذلك من القَائمِين علىٰ الهيئَة ومُدِيري اللَّطْم، أو عُمُوم الحضُور والمشَارِكين، اللهُمَّ إلَّا لِضَرُورَة قُصْوَىٰ.

* عَلَيكَ أن تُعَيِّن دَوَائر وصُفُوفاً وتخصِّصَهَا للأطفَال، يَقُودُهَا بعضُ الشَّبَاب المتمرِّس، تَكُون في زَوَايَا القَاعَة ونهَايَاتهَا، فوُجُود الأطفَال بين الكِبَار يُعِيقُ اللَّطْم، ولَا سِيَّما في "النَّزلَة"، ويُعرِّضهُم للخطَر، كَما أنه يَنَالُ من هَيْبَة المحْفِل ووَقَاره.

* يجب التَّنبُّه لمسألَة طَلَب الإعَادَة، التي تَكُونُ من اللطَّامَة إذا أعجَبَهُم مَقْطَعٌ من القَصِيدَة، فيَسْألُون "الرَّادُود" إعَادته. عَلَيكَ أن تَضْبِطَ هذه العَمَلِيَّة بما يحقِّق الجمْع بين رَغْبَة اللطَّامَة، ووَقت المجلِس، أو الزَّمَن المحدَّد للرَّادُود.

فبعضُ الإعَادَة، تِكْرارٌ لَيْسَ في محَلِّه، وإطَالَة قَد تُرْهِق اللطَّامَة وتَصرِف طَاقَتهُم في غَير محلِّهَا، وقَد تُورِث في بَعضِهم السَّأم والضَّجَر، وتكُون علىٰ حِسَاب أبيَاتٍ من القَصِيدَة ومقَاطِعَ لرُبَّما كَانت أكثر تَأثيراً وأهميَّة، فيَفقِدهَا المجْلِس ويخسرهَا. ولَا يخفىٰ عَلَيكَ بُنيَّ أنَّ هُنَاكَ أغْرَاضاً خَفِيَّةً ونيَّاتٍ مُبيَّتَةً في بعضِ طَلَبات الإعَادَة! فقَد يُراد منهَا الدِّعَاية والتَّسوِيق، سَوَاء للرَّادُود أو الشَّاعِر، مَا يكُون علىٰ حِسَاب المجمُوع البريء الغَافِل!... فأحْذَر بُنيَّ وتَنبَّه، فَرَصْد هذه الحركَات والتِقَاطهَا هُو من مُهمَّتِك ودَوْرك. من هُنا فإنَّ بعض المجَالِس والحُسَينيَّات تمنَع الإعَادَة مُطْلَقاً، أو تحصِر إجَابة طَلَبها بأمْر مُدِير اللَّطْم أو شَخْصٍ مُعيَّن مختصٍّ بهذا الدَّوْر، يتَعَاهَدُ إشَارة بَيْنه وبَيْن "الرَّادُود"، فيقُوم بتَقْيِيم صَيْحَات ونَدَاءَات الطَّلَب، ويُقَلِّبُ الأمر وهُو يُوازِن حَالَ المجْلِس، فيُحدِّد درَجَة تقبُّله للإعَادَة والتِّكْرَار، وهَل سَيزيدُ هذا في ألَقِ اللَّطْم ونَجَاحِه، أم سَيَضُرُّه ويَنالُ من اسْتِرْسَالِه، ثم يُقرِّر ويُشِير إلىٰ "الرَّادُود" بالإعَادَة، أو بالامتِنَاع وتجاهُل الطَلَب، والاعتِذار عن الإجَابة.

* من السُّنَن والآدَاب المحبَّبة في شَعِيرَة اللَّطْم، إدْخَال رَاية حُسَينيَّة، حَمرَاء أو خَضْراء أو سَوْدَاء، والتَّلوِيح بها علىٰ رؤوس اللَّاطِمين، وهُو لَا يَكُون إلَّا في لَيالٍ خَاصَّة وأوْقَات ذُروَة اللَّطْم وحَماسَة "النَّزلَة". وحبَّذا لَوْ جَرىٰ تَوْزيع شَرائط القُماش الأخْضَر (عَلَق) المتبركَة بالمنْبر من لَيلَة سَابقَة، لِيَربِطهَا اللطَّامَة علىٰ مَعَاصِمِهم تَبركاً وشِعَاراً، وتَوَسُّلاً وطَلَباً لِقَضَاءِ الحاجَة وبُلُوغ المرَاد.

* يجب التَّنبُّه لِمَنْع الكَلَام وتَبَادل الحَدِيث بَينَ اللطَّامَة أو بَين الجمْهُور، وهكذا استِعْمال الهوَاتِف النقَّالَة، ومَا إلىٰ ذلك مما جَاءَ التَّحْذِير منه آنِفاً في آدَاب المجْلِس. ومما يجب تَأكيده هُنا، حَظْر التَّصْوِير والتَّسْجِيل أثنَاء اللَّطْم، إلَّا لإدَارة الحسَينيَّة، وإعْلَام مَن يَرْغَب بأنه سيَتِمُّ تَوزيع الأشرِطَة المسجَّلَة والأفلَام المصَوَّرة ونَشْرها فيما بَعْد. وعلىٰ أية حَال، لَا تَسْمَح بـ "ظَاهِرة" مَقِيتَة أخَذَت تَغزُو مجَالِسنا، هي تَوجُّه بعضُ الحُضَّار إلىٰ المنصَّة، وتَوجيه كَاميرَات هَوَاتفهم النقَّالَة نَحو الرَّادُود (ولَا سيَّما إذا كَانَ من المشَاهِير)، والتِقَاط الصُّوَر لَه وتَسجِيل إنشَادِه، فَفِيه هَتْكٌ خَطِيرٌ للشَّعِيرة.

* من المظَاهِرِ السَّلبِيَّة التي عَلَيكَ مُكَافَحَتهَا ومُعَالجتهُا في أدَاء هذه الشَّعِيرة... تَرك بعضهم اللَّطْم وتَنَحِّيهم جَانباً وٱنعِزَالهم خَارج قَاعَة الحَسَينيَّة، في فِنَائِها، أو حتىٰ الانتِظَار خَارجهَا، إلَّا مَع "رَادُود" بعَيْنِه، دُون سِوَاه. فتَجِدُ قَاعَة اللَّطْم تَكَاد تكُون فَارِغَة أثنَاء إنشَادِ أحَدِ "الرَّوَاديد"، ثم تَكتَظُّ فُجْأة وتمتلئ مع اعتِلَاء "رَادُود" آخَر المنصَّة! أو علىٰ العَكْسِ من ذلك، تجِدُهَا ممتلِئَة، ثم تَفرَغ فَوْر انتِهَاء وَصْلَة الرَّادُود الذي يُحِبُّون، فيَعتَلي الثَّاني المنَصَّة والقَاعَة خَاليَة. وهذا أمرٌ مَقِيتٌ ومَعِيب، والوَيْل إن كَان لِنُصْرة شَخْصِيَّة، ولم يَكُن تِلقَائياً طَبيعِيّاً نَاشِئاً من أُنسٍ وتَعلُّق سَاذَج.

وفي نهَاية هذا البَاب، دَعْني بُنيَّ أقِف قَلِيلاً مَع جَوْهَر هذه الشَّعِيرة وكُنْه اللَّطْم، ومَا يَضِيع في طَيَّات الإخْرَاج الفَنِّي لها، ويُفْقَد في ثَنَايا ودَهَالِيز الشَّكْل والمنْظَر، مما لَا أستَنكِره وأرفُضه، إذ هُو مَطْلُوبٌ في حُدُودِه، وعُنصُرٌ أسَاسٌ في قِوَام الشَّعِيرة وتحقيقهَا "الإحياء"، لكن الحسْرَة علىٰ مَا يَضيع ويُفقَد!

فـ "النَّجَاح" علىٰ الصَّعِيد الفَنِّي والشَّكْلي، الذي يَعْنِي في مَا يَعني، خَلْق الصُّورَة العَامَّة التي تُثيرُ الإعْجَاب، والانبِهَار بِحُسْنِ الأدَاء الجماعِي، وتجلِبُ الثَّنَاءَ علىٰ إتقَان اللطَّامَة التَّنَاغُمَ مع القَصِيدَة واللَّحْن، ونَجَاحهم في ضَبْطِ الرتْم والإيقَاع، وقُدْرتهم الفَائِقَة علىٰ تَوْحيد اللَّطْمَة وقوَّتها، ثم في عَدَد اللطَّامة وتَنَاسُق دَوَائرهم وصُفُوفِهم... يَكَادُ يَنتَقِل بالشَّعِيرة إلىٰ غَيْر غَاياتها، أو - في الأقَلِّ - يُبعِدهُا عن بَعضِ مَقَاصِدهَا وأهدَافهَا النَّبِيلَة، ويُقْصِيهَا عَن فَضَائها الأوَّلي (في المفرُوض، والمُرَاد الأصليِّ مِنْهَا)، وعُمْدَته خَلْق حَالَة الجزَع، والحُرقَة علىٰ مُصَاب «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

وأعُودُ هُنَا باللَّائِمَة علىٰ الإعْلَام العَام الذي غَزَا مجَالِسنَا، فَدُخُولُ كَاميرات الفَضَائيَّات وتَسْجِيل "السِّيدِيَّات" ونَشْرِهَا الوَاسِع، بمِقْدَار مَا خَدَم وأفَادَ علىٰ صَعِيد تَرويج الشَّعِيرة وإحْيَاء القَضِيَّة، فقَد أضَرَّ من جَانب آخَر وأفقَد محَافِل اللَّطْم رُوحيَّاتها، وأخَلَّ بقُدرتها علىٰ التَّفَاعُل والاندِمَاج والتَّأثُّر بالقَصِيدَة، وأدَاء اللَّطْم جَزَعاً وحُرقَة. ولَعَلَّ أوَّل وأبسَطَ شَاهِدٍ علىٰ هذا الأمر، فقْدَان اللطَّامَة حَقَّهم وتخلُّفهم عَن وَاجبهم في وَاحِدَة من أخْطَر أركَان الشَّعِيرة، أي النَّزْع واللَّطْم علىٰ الصُّدُورِ العَارِيَة.

وهَا أنا مُوصيكَ بُنيَّ، أن تُغلِقَ هـٰذا البَاب، وتُقَدِّم الأدَاء التَّقْلِيدِيَّ القَائم علىٰ اكتمال شُروطِ الشَّعِيرة، فَلا تُفرِّط في رِكْن منهَا، المتوَجِّه إلىٰ التَّفَاعُل الرُّوحِيِّ، المنصَرِف إلىٰ التأثُّر النَّفْسيِّ واستِشْعَار الحُزن والأسىٰ... تُقَدِّمه علىٰ الظُّهُور الإعْلامِيِّ ومُقتَضيَاتِ الانتِشَار العَالمي، وضَرُورَات الدَّعوَة ولَوَازِم التَّبليغ! دَع مجلِسَك يَعِيش حَالَته المطلُوبَة، ولَا تَأسَ علىٰ قَضِيَّة الإعْلَام ولَا تَغْتَمَّ لها ولَا تخشَ عَلَيهَا ولَا تحسَب أنها ستَتَعَطَّل بإعْرَاضِك عَنهَا وتَقِف أو تتلكَّأ لعَدَم نهوضِك بها، وثِق بأنَّ مُلاحِقيهَا و "خُطَّابها" كُثْر، وطُلَّابها لَن يُقَصِّروا! فانصَرِف أنتَ إلىٰ مَا عَادَ غَريباً وقَلِيلاً، ونَزْراً يَسِيراً، وأحْيِه في حُسَينيَّتِك ووَفِّره لأهلِه، فلَرُبَّ لَاطِم وَاحِدٍ جَازع، يجلِبُ لكَ رِضَا «المولىٰ» عليه السلام... وذاكَ المنىٰ، لَو أنَّ ذلك يحصَل.

لَا تركَن بُنيَّ ولَا تُراهِن علىٰ رَصيدٍ تملِكُه هُنا، من يَدٍ لَكَ طُولىٰ في خِدْمَة الشَّعَائر، ولَا تَعتَمِد علىٰ مَوْقع تَفرِض أنكَ صِرْتَ فيه، يَسْمَح لكَ بحَرَكَة خَارج الأُصول، فتُقْدِم وَاثقاً وتخوضُ مُغَامِراً ومجازِفاً، زاعِماً الإمسَاك بالزِّمَام، ومُتوَهِّماً القُدرَة علىٰ التَّحَكُّم في القِيَاد... بَل كُن من الذين ﴿هم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾ (المؤمنون)، إنَّك لَا تَدرِي كَيفَ يُسلَبُ التَّوفيق، ومَا هي عَاقِبة العَبَثِ بأخْطَر مُقَدَّسَات الدِّين وحُرُمَات المذهَب، وجَعْل تُراثٍ سُفِكَت علىٰ جَوَانبه الدِّمَاء وقُدِّمت القَرَابين تِلْوَ القَرَابين، حَقْلاً للتَّجَارُب وسَاحَة للاستِعْرَاض! فَالشَّيطَان يَأتي مُتَدرِّجاً، خُطوَة فخُطوَة، فَلا تَتَّبع خُطُوَاته، يَقُول لَك: دَعْ هـٰذه في سَبِيل تِلك، واستَعِض بهـٰذا عَن ذَاك، ويُدْخِلك في مَا ابتُلِي به غَيرك، فأعْضَلوا هُنَاك وحُصِروا وأنشَبُوا ولم يَستَطِيعُوا الخرُوج والخلَاص.

لقَد رَأينا بَلَداً عَزيزاً وشَعباً عَرِيقاً كَان الأوَّل في هُويَّة الوَلَاء وإحيَاء الشَّعَائر والعَزَاء، كَيفَ فَقَدَ دَوْرَه وسَقَطَ عن مَوْقعه، حِينَ استَهَانَ بالثَّوَابت وعَبَثَ بالأُصول، فقَلَب اللَّطم إلىٰ شِعَارَات سِيَاسِيَّة، والمَواكب إلىٰ مظَاهَرَات، وذِكْر «القَاسِم» و«العبَّاس» و«الأكبر» و«حَبيب»، إلىٰ الهتَاف بحَيَاة شَخصِيَّات سِيَاسِيَّة ورُمُوز وزَعَامَاتٍ دِينيَّة بَعضُهَا ضَالٌّ مُضِل! ورَاحُوا في مَوسِم العَزَاء وأيام الفَاجِعَة والجزَع والبكَاء، يُعَلِّمونَ الأطفَال الرَّسْمَ بدَل اللَّطْم، ويَنافِسُون علىٰ دُخُول "مَوسُوعَة جنيس" لأكبر طَبَق أو "شَطِيرة"!

زِفَاف القَاسم عليه السلام

من الشَّعَائِر الحسَينيَّة المؤكَّدَة، والطُّقُوس التي تخلُق التَّنَوُّع وتَعكِسُ التَّعدُّد في جَوَانب البَلَاء في «كَربَلَاء»، وتُصَوِّر حَجْم الفَاجِعَة وعظَمَ المأسَاة... إقَامَة تَشْبِيهٍ يَحكِي فَرضِيَّة زِفَاف «القَاسِم بن الحسَن السِّبْط» عليه السلام.

وهي من الشَّعَائِر المظلُومَة التي عُرِّضَت لِلَغَط الجُهلَاء ومُحَارَبة السُّفَهَاء، وتَشْكِيكِ المغْرِضين، وعَدَاءِ الأشْقِيَاء.

بالإضَافَة إلىٰ تَحَامُل بعضِ العُلَماء، وتَنَاوُلهم المجْتَزِئ للقَضِيَّة، وعَرْضِهم وتَبنِّيهم مَوْقفاً غَير عِلمِيٍّ، وتَعليلاً ـ في الرَّد والرَّفضِ ـ لَا يُناسِب سُمعَتَهُم وشُهْرتهم، ومَا يُشَارُ به إليهم من مَقَام في الفِكْر والفَضِيلَة، ولَا أرَىٰ ذلك منهُم (كَحَمْل علىٰ الخيْر والصِّحَة) إلَّا مُجارَاة لِلعَوَام، من أدْعيَاء الثَّقَافَة، ونُزُولاً عند متَطَلَّبَاتِ ولَوَازم الخوْضِ في مَيدَان الحدَاثة، فكَأن هنَاكَ قَضَايا وأُمور (كَحَدٍّ أدنىٰ) عَلَيكَ رَفْضُهَا والتَّبَرِّي مِنهَا، حتىٰ يَقبَلك القَوْمُ محَاوِراً، ويُحسِنُوا فيكَ الظَّن، ويُطِيقُوا سَماع، مجرَّد سَماع، أقوَالك في رَدِّ بَقِيَّة أفكَارِهم!... فيُجَاريهم أحَدُهُم في بَعضِ أخطَائهم ومَوَاقع انحِرَافِهم التي يَرَىٰ أنها لَيْسَت خَطِيرَة، ويَحْسَبُ أنها لَا تضُرُّ الدِّين ولَا تمسُّه في الصَّمِيم، ليَنفَذ بينَهم ويتَوَغَّل في أوْسَاطِهم، عَلَّه يُؤثِّر فيهم. أمَّا إذا لم تحمِلْه علىٰ الخيْر، ولَكَ ذلك، فهذا مَيْدَانٌ لَا مجامَلَة فيه ولَا مُحابَاة، فألحِقْه بجُمْلَة القَوَارير التي كُسِرت في الإسلَام، فهُو لَيسَ أوَّلها، ولَن يكُون آخِرهَا!

وإن كَان من العُلَماء مَن رَفَضَ الأمر وأنكَره من غير هذا المنْطَلَق، ولأسبَابٍ لَا تنظُر أو تَرقُّب إرضَاء الحدَاثيين ومُجَاراتهم، والتأثير في المثقَّفِين والنُّفُوذ بينهُم، بل لِمَحْضِ افتِقَاد دَلِيل الإثبَات أو لقُصُوره وعَجزِه عَن النُّهُوضِ بالأمر، ولجمْلَة من الاسْتِبعَادَات العَقْلِيَّة، والدُّفُوع "العِلمِيَّة" التي تَنْتَهِي إلىٰ عَدَم وُقوع "العُرْس"، بَل التَّزْوِيج، وهؤلَاء الأجِلَّاء أيضاً يُعَدُّون من أسْبَاب بَعْثِ الألَم ومَوَاطِن الحسرة، وتجلِّيات ظُلَامَة هذه الشَّعِيرة!... فهُم يَرَوْن ـ علىٰ مَبنَاهُم في عَدَم الثُّبُوت ـ أن لَا وَجْهَ لتَمثِيل "زِفَافٍ" لم يَقَع أصْلاً، وحِكَاية "عُرْس" لم يَكُن، وعَمَل تَشَابِيه لَه، من قَبِيل التي يَنهَض بها المؤمنُون ضِمْنَ شَعَائِر «عَاشُورَاء» وأنماط وفُنُون العَزَاء.

والحَال أنَّ الأمرَ لَيْسَ كَما يَتَصَوَّرُون... فَشَعِيرة الزِّفَاف تَحكِي أمَلاً وتُصَوِّر حَسْرةً، وضَرْباً من مَصَائِب يَوْم «الطُّفُوف»، ولَا تُرِيد أن تَجزِمَ بِوُقُوع الزِّفَاف وتَحقُّق الزَّوَاج... وهي مِن قَبِيلِ "لِسَانِ الحَال" الذي أباحَ للأُدباء والشُّعَراء ٱبتِكَار أَوْصَافٍ وتَصْوِير مَشَاهِدَ وٱستِخْدَام رُموز، بَل حَبْك قِصَصٍ ووَضْع أحْدَاثٍ وتَأليف سِيَر وٱخْتِراع شَخْصِيَّات، تُسْعِف بَلَاغَة النصِّ وتخدِم العَمَل، وسَمَحَ لأَهْل المعنىٰ والسُّلُوك تَوْظِيفَ مُفْرِدَات الغَزَل في "العِشْقِ الإلهيّ"، و"الخمْرِيَّات" في وَصْفِ الحَالِ من نَشْوَة الوَجْد، وسُكْر الغَيْبَة من وَارِد الإشرَاقَات والتَّجَلِّيَات، ومَا إلىٰ ذلك مما أباحُوه لأُولئك وتَفهَّموه لهٰؤلَاء، ولكنَّهم تَصَلَّبوا و"تخشَّبُوا" وجمدُوا عَن فَهْمِهَا في سُلُوك عُشَّاق «الحسَين»!؟

إنَّ رِسالَة هٰذه الشَّعِيرة تَنطَلِق من السَّعْي لِتَعدِيدِ المصَائب والإشَارة لِتَنَوُّعها، وبَيَان أنَّ الآلامَ التي قَاسَاهَا «المؤلىٰ»، ٱستَوْعَبَت كُلَّ مَا يُمكِن أن يَكُون في هٰذا العَالَم.

إنَّ الجرَائم التي ٱقتَرفَهَا القَوْم، والمصَائِب التي وَقَعَت في «كَربَلَاء»، والآلام التي حَلَّت علىٰ قَلْبِ «المؤلىٰ»، كَانت مُستَوْعِبة الكَمِّ والكَيف، مُتَعَدِّدَة في الأنوَاع والأقسَام، وقَد بلَغَت الذَّرْوَة من كُلِّ شَيءٍ في كُلِّ شَيء، فَلَا أحَدَ عَاشَ مِن المحَنِ والرَّزايا، ووَقَعَ عَلَيه الظُّلم وأَصَابه، وعَانىٰ الأَوْجَاعَ وكَابدَ الآلَام، كَما «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، لَا قَبلَه ولَا بَعدَه، لَا حَيٌّ من الخَلْق ولَا ميِّت، لَا قَتِيلٌ من الأشراف ولَا شَهِيدٌ في الأَوْلِيَاء، لَا عَالم فَاضِلٌ ولَا عَارِفٌ كَامِل، لَا مَلِكٌ ورئيسٌ وسُلطَان ولَا قَائد وزَعِيم من الأعْيَان... لَا أحَدَ نَزَلَ به مَا أَصَابَ «المؤلىٰ» عليه السلام. وإذا وُضِعَت المقَايِيس علىٰ ضَوَابِطَهَا الوَاقِعِيَّة من التَّنَاسُب، ومَحَلِّهَا الصَّحِيح من عُمْق الإحْسَاس وَفقاً لحدُود العِلْم ودَرَجَة الوُجُود ورُتبة الخلْق ومَقَام الإحَاطَة، فيُمكِنُ القَوْل إنَّ كُلَّ الآلَام التي ذَاقَتْهَا البَشَرِيَّة مجتَمِعَة، ثم مجمُوع مَا عَرَفَه آحَادُ أفرَادِ البَشَر، لَن تَبلُغَ ذَرَّة مما عَانَاهُ «المؤلىٰ» في «كَرْبَلَاء».(١)

---

(١) مما يَقشَعِرُّ لَه البَدَن، بل يَتَزلزَلُ الفرْشُ ويهتزُّ العَرْش، زَعْمُ أحَدِهم أنَّ العالِمَ الذي يتَّبع (ونعمَ العالِم هو)، عُرِّضَ لظُلَامَة (من سُوء فَهْم مَقُولَاته الغامِضَة الملْتَبِسَة، أو لحَسَدِه من أقرانه!) فَاقَت ظُلَامَة «سيِّد الشهَدَاء» عليه السلام! وأعجَبُ من ذلك سُكُوتُ جماعَته ومُطَاوَعتهم لَه، وهُم مَوْصُوفُون مَعرُوفُون بالوَلاء، فقَد أبوا حتىٰ مجرَّد تخطِئَتِه، نَاهِيكَ بمُواجَهتِه والضَّرْب علىٰ يَدِه، بل لَجْمِه ولَكمِه في فَمِه ومَلئه الكَثكَث!

ونَحْنُ هُنَا نُرِيدُ أنْ نَحْكِي ذلك أو نُصَوِّره، فَماذَا عَسَانا أن نَفْعَل؟

أنكْتَفِي بالبُكَاء؟ لِنُوَاسِي أو لِنَشْعُر بالدُّمُوع التي سُكِبت هُنَاك والعَبَرات التي أذَابت مُهْجَة «المصطفىٰ» وهُو في عَلْيَائِه، فَهَوىٰ من جِوَار «العَرْش»، لِيَشْهَد "الحضْرَة" في «كَربَلَاء»؟ أنُعْوِل بِالوَاعِيَة، ونَشْهَقُ بدُموعنَا، فنَحْكِي رنَّة حَيَّرت الأطيَار فَأقلَعَت من أفنَانها، وهَجَرَت أعْشَاشَهَا، ورَاحَت تَطِير في كُلِّ البَلَاد، تَبْحَثُ عَن الدَّم المسْفُوك لِتُلَطِّخ به أجْنِحَتَهَا وتمرِّغ رِيشَهَا. رنَّة ضَجَّت وصَعِقَت لأجْلِهَا الملَائِك في السَّماوَات، فَهَجَرَت التَّسْبِيح وصَارَ ذِكْرهَا التَّعْدِيد؟...

أم نَجْمَعُ إلىٰ ذلك كُلِّه الصُّراخ، عَلَّنَا نَبْلُغُ بَعْضَ مَا كَانَ هُنَاكَ من صِيَاح شَدِيد جَافٍ، من حَنَاجِرَ أشْجَاهَا الظَّمَأ، وهي تَهتِفُ وتَدْعُو، وتَصْدَحُ وتَشْكُو، ولَا من مُجِيب، وتَسْتَغِيثُ فَلَا من مُغِيث؟... أنصْرُخ حتىٰ تَبُحَّ مِنَّا الأصْوَات كَما بَحَّت في «كَربَلَاء»؟ أم نَضِجُّ بَجلَبَة ونُثِير صَخَباً يَختَلِطُ فيه النِّدَاء، يَحكِي الهَيْعَة المُفْزِعَة؟ أو نَصِيح، عَسَانَا أن نُصَوِّر شَيْئاً من تَصَايُح القَوْم وتَضَارِبهُم عِنْدَمَا التقىٰ الجمْعَان، أو قُل عِنْدَمَا انحَدَرَت جيُوشُ «بني أُميَّة» تهدُّ كَمَوْج العَوَاصِف يَضْرِبُ السَّوَاحِل الصَّخْرِيَّة العَالِيَّة، والأجْرَاف الأبيَّة المتَعَالِيَة، يُرِيدُ هَدَّهَا؟!...

أنجْزَعُ لِنُحَاكِي الذُّهُول والدَّهْشَة التي حَكَمَت المَوْقف في تِلكَ السَّاعَات؟

أنلطِمُ لنَعْرِف آلَامَ وَطْءِ الخَيْل ومُرُورِهَا علىٰ صَدْرٍ تَضَمَّن عَرْشَ الله؟

أنفْلُقُ هَامَاتِنَا ونَجْرَحُ أجْسَامنَا ونُدْميهَا، لِنَشْعُر بِعَضِّ السُّيُوف المتَعَاقِبَة علىٰ تلكَ الأبْدَان، ووَخْزِ طَعْن السِّنَان في تِلكَ الأجْسَام، وحُرقَة الجرَاح التي نَالَت منهَا؟

أندُوس الجمْر لنَشْعُر بوَهْج الصَّحْرَاء، وحَرَارة الهجِير، ولَسْع الحصىٰ أقدَاماً احْتَفَت من ثُكْلٍ وذُهُول، ورَاحَت تَبحَثُ في المَيْدَان عَن فَقِيد، فَتَعْثُر بالصَّرعىٰ؟

أنمْسِك ونَمتَنع عن المأكَل والمشْرَب لِنَعْرِفَ مَا جَرَىٰ علىٰ تِلكَ الأمعَاءِ الغَرْثىٰ التي قَطَّعَهَا السَّغَبُ، والأكْبَاد الحرَّىٰ من فَادِح الظمَأ؟

هَيهَات، هَيهَات!... والله مَا نَفِي ذَرَّة مما كَانَ، ولَن نبلُغ أدنىٰ مَا وَقَع. لِذَا تَرانَا نَلْتَمِس أيَّ سَبَب، ونَعْمَد لأية وَسِيلَة، عَلَّنا نَدْنُو ونَقْرب مما يَجِب.

إنَّ كُلَّ أخ شَهْم نَبِيل، وشَقِيقٍ عَطُوفٍ شَفِيق، يَرىٰ من وَاجِبه رِعَاية ٱبن أخِيه اليتيم، ويَعِيش أُمنية أن يُزَوِّجه ويَرىٰ ذريَّته وخَلفه، حُبّاً فيه وكَرَامَة لأخِيه، فكَيف بمَعْدِن النُّبْل، ومَوْئل الشَّهامَة، وعَيْن العَطَفِ، وقمَّة المحبَّة، ومُطْلَق الرَّحمة؟... ويَتَأكَّد ذلك ويُغلَّظ فيه الأمر، إن كَانَ مُقْتَرِناً بِوَصِيَّة من أخِيه، كَما في الرِّوَاية.

لَقَد عَاشَ «سَيِّدُ الشُّهَدَاء» عليه السلام حَيَاته من بَعْد ٱسْتِشْهَاد أخَيه «الحسَن» عليه السلام علىٰ ذِكْراه، وكَانَ وَلَده «القَاسِم» عليه السلام أمَانته التي يتَفنَّن في رِعَايته، ويَتَفَانىٰ في حِفْظِه وصَوْنه، والوَصِيَّة التي يتَحيَّن الفُرْصَة لإنفَاذِهَا... وقَد وَقَفَ يَنْظُره في «كَرْبَلَاء» يَتَقَدَّم إلىٰ حَتْفِه، فمِنَ الطبيعيِّ أنه عَاشَ حَسْرة بلُوغه التَّزْوِيج، وذهَابِه مِن هذه الدُّنيَا علىٰ العُزُوبيَّة، وأنه لم يحقِّق في ٱبن أخِيه غَايته ولَا بَلَغَ رَجَاءَه.

والتَّشْبِيه الذي يَصْنَعه الشِّيعَة لَيلَة الثَّامِن مِن المحرَّم، الذي يحكِي الزِّفَاف "المرْجُوَّ" لهذا الفتىٰ المظْلُوم، طَقْسٌ يُرِيد أن يحكِي هذه الحسرة لَيْسَ إلَّا... فَأيُّ ضَيْر في هذا، وأينَ وَجْه البِدْعَة، ثم أينَ التَّشْوِيه ومَا يَقتَضِي مِن القَوْم النَّكِير، ولماذا يَرفَعُون عَقِيرتهم، ويَذْهَبُون إلىٰ هذه الحدُود في التَّشْنِيع؟

إضَافَة إلىٰ ذلك، فالأمر لَه حَظُّه مِن الوَاقِع، ولَيسَ محْض تَصْوِير لافتِرَاضٍ يَسْتَقِي من الطَّبِيعَة ومقتضىٰ الحَال، بَل هُنَاكَ رِوَاية تَدْعَمه، ونَصٌّ مَأثورٌ يَعْضُدُه...

إنَّ أكثر الخلْط الحاَصِل عِنْد المعْتَرِضِين علىٰ قِصَّة عِرْس «القَاسِم»، هُو لـمَا يَروْنَه في شَعِيرة "الزِّفَاف" من أشْكَال الزِّينَة وإيقَاد الشُّمُوع والنِثَار، ومَا إلىٰ ذلك مما يحكِي أجْوَاء العِرْس الحقِيقيَة، فَيَظُنُّون أنَّ الذِّي وَقَعَ في «كَربَلَاء» هُوَ من هذا القَبِيل... علىٰ الرُّغْم من أن قَصْدَ المحبِّين هُو تَأجِيج العَوَاطِف وتَهييج المدَامع، إذ أنهم يَقْرَؤون مَع تِلك المرَاسِم أشْعَاراً حَزِينَة حَوْل حِرْمَان «القَاسِم» عليه السلام من العِرْس والزَّوَاج وهُو في مُقْتَبَل العُمْر، وأن خِضَابه كَان دَمَه المسْفُوح، وهذا مما يُثِير الأحْزَان ويُهيِّج المدَامع والقُلُوب، ولَا يعني أنَّ «القَاسِم» أقْدَم بالفِعْل، وٱنصَرَف إلىٰ هذا وقَد ٱحتَدَم القِتَال وصَارَت المعركَة في أوْجِهَا! فـ «القَاسِم»، كَما تَذْكُر رِوَاية العُرْس نَفْسُها، بَعْدَ عَقْد قِرَانه علىٰ ٱبنَة «عَمِّه»، خَرَجَ مُبَاشَرة نَحْوَ الميدَان لِنُصْرَة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

ولَو أمعَنتَ النَّظَرَ لوَجَدْتَ أنَّ أعْتِراض بَعض هؤلَاء العُلَماء يَعُود لأسبَابٍ ومَحذورَات شَكْليَّة لَا جَوْهَرِيَّة حَقِيقيَّة، هي مَا دَعَاهُم للاَستِنكَار ودَفَعَهُم للرَّفض، ولَا أُريد مُصَادَرة الخَلفِيَّة العِلْمِيَّة الدَّلِيلِيَّة التي يَستَنِدُون عَلَيهَا، لكن أُريد أنها لم تكُن نَتِيجَة عَفوِيَّة عَرَضَت من بَحْثٍ وتَحقِيق مَوْضوعيٍّ غَير مُتَحَيِّزٍ لأيِّ تَوَجُّه مُسْبَق، بَل كَانَ بَحْثاً يُلَاحِقُ هذه الشَّعِيرَة ويَهدِف إبطَالها، فَلَاقىٰ مَا يُريدُون ووَجَدُوا مَا يبحَثُونَ من "أدِلَّة"! وأنَّ مَنشَأ ذلك مِنهُم ومُنطَلَقه هو التَّحَسُّس من الصُّورة والشَّكل... فعَادَ وقَادَ إلىٰ رَفْضِ "شَعِيرَة تُوحِي بخِلَاف الوَاقع" (كَما أجتَهَدُوا). ومن هذا "التَّحَسُّس" أستِعْمال تَعبِير "العُرْس" الذي يُوحِي بالسُّرور والبَهْجَة والفَرَحَ، مما لَا يَتَنَاسَب مَع أحْزَان «كَربَلَاء» والمَصَائب المرَوِّعَة التي كَانت تَجرِي يَوْمَ «عَاشُورَاء»، والحال أنَّ هذا التعبير لَيْسَ إلَّا مَا دَرَجَ عَلَيه عَامَّة النَّاس كَإشَارة إلىٰ إحْدىٰ الجهَات المهَيِّجَة في المصِيبَة، وقَد جَاءَ في نَفْس رِوَاية «الطُّرَيحي» التي أُسِّسَت عَلَيهَا الشَّعِيرة، تَصْريحٌ علىٰ لِسَانِ «القَاسِم» عليه السلام بأنَّ: "عُرْسنا أخَّرنَاه (أي أجَّلنَاه) إلىٰ الآخِرَة"، فَهَل هُنَاكَ إعلَانٌ أوْضَح من هذا في أنَّ الشَّعِيرة لَا تُصَوِّر بهجَة الأعْرَاس ولَا تَحكِي أُنسَ الأفرَاح!؟

أمَّا أصْلُ أو مُسْتَنَدُنا في مَشْرُوعيَّة إقَامَة هذه الشَّعِيرة فَتَكفِينَا فَتوىٰ الفُقَهَاءِ العِظَام، وقَد ذكَرتُ في مَا سَلَف سُؤال أهَالي «البَصرة» «الميرزا النَّائيني» قدس سره، والفَتْوىٰ الشَّهيرة التي صَدَرت في حِينهَا، مَع تَعلِيق جُملَة من عُظَماء الطَّائِفَة وأسَاطِين الحوْزَة العِلمِيَّة بالإمضَاء والموافَقَة (١)، فإنَّ هذا كَافٍ شَافٍ.

ولكن لمزيدِ أطْمِئنَانٍ وأستِئْنَاس، فنَحْنُ مَا نَزَال نَشْهَد جَهَالَات ومَوَاقِف خَرْقَاء، تُصَادِر المطْلَب وتَقْفِز علىٰ الحقِيقَة، وتَنقُض دَعْوَانا وتَردُّ علىٰ المشروعيَّة، من مَدْخَل يقْلِب حَقِيقَة الشَّعِيرة ورسَالَتهَا، بالبَحْثِ في وُقُوع الزَّوَاج فِعلاً من عَدَمِه، ومَا إلىٰ ذلك مما هو بَعيدٌ ـ في حَقيقَته ـ عَن مَغْزَىٰ الشَّعِيرة ورِسَالتهَا... فَأنا أنقُل هُنَا أستِفتَاءً وُجِّه إلىٰ المرحُوم آيَة الله العظمىٰ «السيِّد مُحْسِن الحكِيم» قدس سره فيه تَفصِيلٌ يَقْطَع الطَّرِيقَ علىٰ كُلِّ متَوَغِّل ومتَغَلغِل، هذا نصُّه:

---

(١) انظر: ص٢٠٥، من هذا الكتاب.

بِسْم الله الرَّحمن الرَّحيم

لمَوْلَانا وسَيِّدنا آية الله العظمىٰ أدَام اللهُ ظِلَّه.

قَد اُستَمرَّت سِيرة الشِّيعَة علىٰ تَخصِيصِ يَوم الثَّامِن من محرَّم بأسْم «القَاسِم بن الحسَن المجتبىٰ» عليه السلام وذِكْر فَضَائِله ورثَائه، وحَسْب العَادَة المستَمِرَّة، إذا وَصَلَ القَارِئُ إلىٰ ذِكْرِه وإلقَاء كَلَماتٍ في حَقِّه وهُو علىٰ المنبَر، يَأتون بالصَوَاني وفيهَا الشُّمُوع والحنَّة والخُضْرَة ويُدْخِلُوهَا في المجْلِس، لتُذَكِّرَ بعَظِيم مُصِيبَته، وأنه اُستُشهِدَ في عُنفُوَان شَبَابه ولم يتَهَنَّأ به، ويجعَلُون لـ «القَاسِم» "زَفَّة"، فإذا دَخَلَت الصَوَاني في المجْلِس يَقُومُ صِيَاحٌ وعَوِيل من أهل المأتم، وتَجرِي دُمُوعُ الشِّيعَة علىٰ الخدُود، ويهتَزُّ المجْلِس الحسَيني، فهَل يَكُون في هٰذه العَادَة وهٰذه السِّيرَة مَانعٌ في نظَرِكُم الشَّرِيف، أم لَا يكُون فيه بَأس؟

ظلُّكُم مُستَدَام علىٰ رؤوس المسلِمِين.

الجوَاب: بِسْم الله الرَّحمن الرَّحيم

ولَه الحَمْد، لَا مَانع من ذلك، وفيه تَذْكِرة للمُصَاب الأليم والخَطْبِ الجسِيم، فإنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُون.

٢٤ شعبان ١٣٨٧ هـ ق

محسن الطباطبائي الحكيم[١]

ولَا أرَاني هُنَا بحَاجَة لِردٍّ بقيَّة الإشكَالَات الوَاهِيَة التي لم تَصْدُر عن أهْل العِلْم، مما يصُبُّ في إثارات أعْدَاءِ الشَّعَائر وجماعَة المتَغَرِّبين أو المتأثِّرين بهم من قَبيل: "إنَّ «الإمَام الحسَين» عليه السلام كَان يَعْلَم بأنَّ «القَاسِمَ بن الحسَن» عليه السلام سيُقْتَل، فمَا المصْلَحَة في تَزوِيجه؟ ومَا الغَاية مِن مجرَّد إجْرَاءِ العَقْد" !؟ [٢] أو الأُخْرىٰ المحْكَمَة التي تَرِدُ من وَجْه، فَقَد كَفَانا فَضِيلَة المحقِّق «السيِّد هَاشِم الهاشِمِي» في بَحْثِه القَيِّم (عُرْس «القَاسم» بين الحقيقَة والخرَافَة) المؤونَة وأحسَنَ الرَّدَ والجوَاب.[٣]

(١) (فتاوىٰ عُلَماء الدِّين حَوْل الشَّعَائر الحسَينيَّة) ص١٨٣.

(٢) (تجاربي مَع المنبَر) ص١٠٠.

(٣) بعضُ ما ذكرتُه آنفاً في هٰذا الباب اُستَفَدتُه، ولَعلَّه مقْتَبَسٌ من هٰذا الكِتَاب.

تُقَامُ "شَعِيرَة الزَّفَاف" في الليلَة المخَصَّصَة لمَوْلَانا «القَاسِم بن الحسَن»، وهي الثَّامِنَة من عَشرة «عَاشُوراء»، أثناء قِرَاءَة المجْلِس، أو بالأحرىٰ في نهايته، عِندَ بُلُوغ الخطِيب قِرَاءَة المصيبَة، ومَع شُرُوعِه في تِلَاوَة رِوَاية «الطرَيْحِي» المذكُورَة في (الفَخْرِي) التي مَطلَعهَا:

"أنه لمَا آلَ أمرُ «الحسَين» عليه السلام إلىٰ القِتَال بـ «كَربَلَاء»، وقُتِلَ جميع أصْحَابه ووَقَعَت النَّوْبَة علىٰ أوْلَادِ أخِيه «الحسَن» عليه السلام، جَاءَ «القَاسِمُ بنُ الحسَن» عليهما السلام وقَالَ: يَا عَمِّ! الإجَازَة لأمضي إلىٰ هـٰؤلَاءِ الكُفَّار. فقَالَ لَه «الحسَين» عليه السلام: يَا بنَ أخِي، أنتَ من أخِي عَلَامَة، وأُريـدُ أن تبقـىٰ (لي) لأتسلـىٰ بِك، ولم يُعْطِه إجَازة للبِرَاز. فجَلَسَ مَهمُوماً مَغْمُوماً، بَاكِي العَين، حَزِينَ القَلب، وأجَازَ «الحسَين» عليه السلام إخْوَته للبِرَاز ولم يجزْه، فجَلَسَ «القَاسِم» متَألِّماً، ووَضَعَ رَأسَه علىٰ رجْلَيه، وذَكَرَ أنَّ «أباه» قَد رَبَطَ لَه عُوذَة في كَتِفِه الأيمَن، وقَالَ لَه: إذا أصَابَكَ ألَمٌ وهَمٌّ، فعَلَيْكَ بِحَلِّ العُوذَة وقراءَتهَا، فأفْهَم مَعنَاهَا واْعمَل بكُلِّ مَا تَراهُ مَكْتُوباً فيهَا. فقَال «القَاسِم» لِنَفْسِه: مضىٰ سِنُونَ عَلَيَّ ولم يُصِبني مثْل هـٰذا الألم، فَحَلَّ العُوذَة وفَضَّهَا، ونَظَر إلىٰ كِتَابتهَا وإذا فيهَا: يَا وَلَدِي يَا «قَاسِم»! أُوصِيكَ أنكَ إذا رَأيتَ عَمَّك «الحسَين» عليه السلام في «كَربَلَاء»، وقَد أحَاطَت به الأعدَاء، فَلَا تَترك البِرَاز والجهَاد لأعدَاءِ الله وأعدَاءِ «رَسُوله»، ولَا تَبْخَل عَلَيه بِرُوحِك، وكَلَّما نَهَاكَ عن البِراز عَاوِده ليَأذنَ لَك في البِرَاز، لتَحْظَى بالسَّعَادَة الأبدِيَّة. فقَامَ «قَاسِم» من سَاعَتِه وأتىٰ إلىٰ «الحسَين» عليه السلام وعَرضَ مَا كَتَبَ أبوُه «الحسَن»، علىٰ عَمِّه «الحسَيْن» عليهما السلام. فَلما قَرأ «الحسَين» عليه السلام العُوذَة، بكىٰ بكَاءً شَدِيداً، ونَادىٰ بِالوَيْل والثُّبور، وتَنَفَّس الصُّعَدَاء، وقَال: يَا «اْبن الأخ» هـٰذه الوَصِيَّة لكَ من «أبيك»، وعندِي وَصِيَّة أُخرىٰ منه لَك، ولَا بدَّ من إنفِاذَهَا. فمَسَكَ «الحسَين» عليه السلام علىٰ يَدِ «القَاسِم» وأدْخَلَه الخيمَة، وطَلَبَ «عَوْناً» و«عبَّاساً»، وقَالَ لأُمِّ «القَاسِم» عليه السلام: لَيْسَ لـ «القَاسِم» ثِيَابٌ جُدُد؟ قَالَت: لَا. فقَال لأُختِه «زَينَب»: اْئتِيني بـ "الصُّندُوق". فَأتت به إليه، ووُضِعَ بين يَدَيْه. ففَتَحَه وأخْرَجَ منه قَبَاءِ «الحسَن» عليه السلام، وألبَسَه «القَاسِم»، ولَفَّ علىٰ رَأسِه عِمَامَة «الحسَن» عليه السلام، ومَسَكَ بيَدِ «اْبنَتِه» التي كَانت مُسَمَّاة لـ «القَاسِم» عليه السلام، فَعَقَدَ لَه عَلَيهَا وأفْرَدَ لَه خَيْمَة، وأخَذَ بِيَدِ البِنْتِ ووَضَعَهَا بِيَدِ «القَاسِم»...

فإذا بَلَغَ الخَطِيبُ هـٰذا الموْضِع من القِرَاءَة... دَخَلَ "مَوكب الزِّفَاف" من بَاب قَاعَة الحسَينيَّة، وأخَذَ بجَوْلَة في أنحَائهَا، ورَاحَ "حَمَلَة الصَوَاني" بإلقَاء النُّثَارِ علىٰ الحضَّار، ورَشِّهِم بماء الوَرْد.

وكمَا اللَّطْم وغَيره من الشَّعَائر الحسَينيَّة، فإنَّ لـمَراسِم "زفَافِ القَاسِم" طُرُقاً متعَدِّدَة، وكَيفيَّات متنوِّعَة، لكَ أن تختَار منهَا مَا يُنَاسِب مجْلِسَكَ ويُوافِق إمكَانيَّاتِك وقُدرَاتك، فلِكُلِّ طَرِيقَة مُستلزَمَاتها، كمَا لها وَقْعهَا وتَأثيرهَا، وبركَتهُا... منهَا مَا يَصْحَبه "الدمَّام" و"النقَّارة" و"الصَنْج" و"البُوق" أو"البَرَزَان"، فَيَدْخُل الموكبُ علىٰ إيقَاع خَاصٍّ، يختَلِف عَن إيقَاع "التَّطْبِير"، ويَكُون بَعَدَ نَفْخ أو عَزْفِ السَّلَام مِن البَرَزَان، تَحِيَّة وإذناً بالشُّرُوع، ضَرْباً بالنَّقَارَة: أربَع دَقَّات، وإيقَاع الدَّمَّام: ضَربَة وَاحِدَة، ثم ثَلَاث ضَربَات، ثم يَرجع ويَخْتِم بِضَرْبَة وَاحِدَة. أمَّا الخرُوج وانتِهَاءُ "مَوكب الزَّفَاف" إذا تَضَمَّن شَبِيه المصْرَع، فَيَكُون إيقَاعاً حَرْبيّاً تَدُقُّ فِيه النَّقَارَة: أربَع دقَّات، والدَّمَّام: سِت ضَرَبَات، مَع الهتَاف بعَد السَّادِسَة بـ "حَيْدَر"، خِلَافاً لمَا عَلَيه الحَال في "التَّطبِير"، الذي يكُون إيقَاعُه ثُنائياً بضَرْبَتَيْن بَطِيئَتَين يَفصِلُهُما هِتَافُ "حَيْدَر"، ثُمَّ يَكُون خَتْم الشَّعِيرَة ونهَايتها: سِتُّ ضَرَبَات سَرِيعَة يَفْصِلُ مجمُوعهَا هِتَافُ "حَيْدَر".

وأرىٰ أنَّ إدخَال "الدَّمَّامَات" في مَوكب الزَّفَاف يحكُمه حَجْم المجْلِس وعَدَد الحضُور، فهُو لَا يُنَاسِب إلَّا المجَالِس الكَبيرة المزدَحمة، يَلفِتُ فيهَا الأنظَار ويُركِّزهَا علىٰ الموكب، ويُضْفِي عَلَيه الخفَرَ والمهَابة. فإن كَانَت حُسَينيَّة صَغِيرَة وعَدَدَ الرُّوَاد فيهَا محْدُود، فَالأفضَل أن يُكْتَفَى بِدُخُول الموكب دُون مُصَاحَبَة الدَّمَّامَات وقَرع الطُّبُول. فإذا دَخَل الموكب في قَاعَة الحسَينيَّة، يجبُ أن يَتَوقَّف "الدَّمَّام" ومَا يُصَاحِبه، ويَبدأ الخَطِيب أو الرَّادُود الخاص الذي يُنتَدَب، بقِراءَة "الزَّفَاف"، والمسَيرة مَاضِية في حَركتهَا.

ولَعَلَّ مَدَار الطُّرق في "الزَّفَاف" ومُرتكَزهَا، بعدَ الحيْثِيَّات التي مَرَّت عَلَيك وأُخرىٰ ستَأتيكَ لَاحِقاً، هو الأُنشُودَة أو القَصِيدَة التي تجرِي بهَا قِرَاءَة "الزَّفَّة" ويتمُّ إنشَادهَا، وقَد يُطلَق عَليهَا في بعض البِلَاد "الجلْوَة" (وإن كَانت "الجَلْوَات" تختَصُّ بمَجَالِس النِّسَاء، في بَعضِ الأعْرَاف، والزَّفَّات للرِّجَال)...

فَهُنَاك الطَّرِيقَة المتَّبَعَة في «البَحْرين»، التي تَعتَمِد مُستَهَلّاً يَشْتَرِك الحضُور في تَرديدِه:

زَينَبٌ يَا رَبَاب، قَرِّبوا لي الخِضَاب
وهَلُمُّوا جميعاً، لِنَزُفَّ الشَّبَاب

ثُمَّ قِرَاءَة القَصِيدَة، أو كَما يُسَمُّونَها "الجلْوَة":

يَا أبنَةَ الأكْرَمِين، من بَنِي هَاشِم
عَلِّقِي الشَّمْعَ في، خَيْمَةِ القَاسِم
ثُمَّ بَعْدَ الزفَاف، إنصُبي المآتَم
زَينَبٌ يَا رَبَاب، قَرِّبوا لي الخِضَاب
وهَلُمُّوا جميعاً، لِنَزُفَّ الشَّبَاب
شَمْسُ أُفْقُ العُلَا، نَزَلَت للكُسُوف
لمصَابٍ جَرَىٰ، في عِرَاق الطُّفُوف
فَمَضَى للخِيَام، والحَشَا في أضطِرَام
فَدَعَا بِالنِّسَا، يَا بَنَات الكِرَام
زَينَبٌ يَا رَبَاب، قَرِّبوا لي الخِضَاب
وهَلُمُّوا جميعاً، لِنَزُفَّ الشَّبَاب
صَرَخَت زَيْنَبٌ، بِبُكاً وأنتِحَاب
خَضِّبُوا الكَفَنَا، من دِمَاء الشَّبَاب
آه وَا قَاسِماه، مَا تَهَنَّا قَلِيل
عِوَضاً للخِضَاب، بدَمَاهُ غَسِيل
يَا لَه فَادِحٌ، هَزَّ عَرشَ الجَلِيل
لمصَابٍ جَرىٰ في عِرَاق الطُّفُوف

وهُنَاك "جَلْوَة" أُخْرَىٰ بالعَامِيَّة، علىٰ الطَّرِيقَة «البَحْرانيَّة» أيضاً، مَطْلَعهَا:

مَا جَرىٰ في الدَّهَر كِلَّه مِثِل عِرس أبن الحَسَن
لَبَّسَه المظلُوم عَمَّه يَوْم تَزويجه بكَفَن

وهُنَاكَ الأهزُوجَة التي تَسير بها أغْلَب مَوَاكب "زفَافِ القَاسِم" في «القَطِيف»:

كَبْشِ الكَتِيبَـة قُـوم، بَـسْ عَـاذْ مِن هَـالنُّـوم
زِفْ مُهْجَـة المـسْمُـوم، علـىٰ زَوجَته سْكَينَه
زِفْ مُهْجَـة المـسْمُـوم، قَبلِن يِـذِبْحُـونَه
اَنهَـض يَـا بُـو فَـاضِل، يَـا الضَّيغَم البَـاسِل
هٰذا مَهُـو قَـابِل، نِـسْـوَه يَـزفُّـونَه
قُـومُـوا نِـزِف هَـالـشَّـاب، طَيِّب واَبن أطيَـاب
هٰذا يِـصِير اَمْعَـاب، نِـسْـوَه يِـزِفُّـونَه

ولَا يُنَاظِرهَا في الشُّهْرة إلَّا أُختهَا، وهي دَارِجَة في جميع بِلَادِ المنطَقَة، وعَلَيهَا أغلَب المآتم ومجَالِس العَزَاء:

يَـا الَّـذِي علـىٰ المـشَرْعَه ظَلَّت رَميَّـة جِثَّته
هٰذا جَـاسِم زَافِّـينَه اَنهَـض وعَـايِـن زَفَّـتَه
قُـوم بَـسَّك يَـا قُـمَـر عَـدْنَـان من نَـوْم التِّراب
وَقَّظ اَخْـوَانك وقُـومُـوا بعَجَل زِفُّـوا هَـالـشَّبـاب
والـذُّوَايب سَـرِّحُـوهَـا والبِسُـوا جِـدَيـد الثِّيَـاب
واَنـتِخُـوا جَـدَّام جَـاسِم كَـان تَـنْـشَف دَمعَـتَه
شُلُـون يَـا مَـظْلُـوم عِـرْسَه وأنـتَ مَعْـدُوم النَّـصِير
والعِـرِس وَيَّه الجنَـايِـز يَـوْم وَاحِـد مَـا يِـصِير
هَلِّ دَمَعَه وقَـال أنـا أدرِي بهَـالـوَلَـد عُمْـره قَـصِير
لٰكـن اَبـن اَمِّـي وَصَّـانِي شُلُـون أخَلِّي وِصِيَّتَه
ورَمْلَه مَـا بين النِّسَـا تَلْطِم صَـدِرْهَـا مُعْـوِلَه
رِدْت اَنـا زِفَـافِ الـوَلَـد مَـا بَين قَـوْمَه وكلْ هَلَه
مَـا دَرَيت يِـصِير عِـرْسِ اَبنِي بَـوَادِي كَـربَلَا
ويَـنْـظُـر بْعَيْنَه عَـمامَه علـىٰ الـوَطِيَّه مجَـدَّلَه

هَلْ دَمع جَاسِم وصَاح القَلِب يَا عَمِّي أنكِسَر
لَا تِزفُّوني يَا عَمِّي أنكَان أنا عُمْري قِصَر
خَلْنَي أطلَع للمَنِيَّه وأنتُو حُفْرُوا لي قَبر
ضَمَّه لصَدْرَه وبِجَا والكلِّ يَجْذِب وَنَّتَه

أمَا في «العِراق»، فهُم يَقْرَؤون القَصِيدَة الشَّهيرَة التي مَطْلَعهَا:

إلمَن هَالشَّمع والمَن الحِنَّة * جَاسِم مِن دِمىٰ نَحْرَه تِحَنَّه

وفي «خُوزِستَان»:

قَومَن هَلْهِلَن لَوْلَا تِنُوحَنَّه
عِرِّيس ابن اخُوي بِدَمَّه مْحَنَّه
يَا شُبَّان قُومُوا نِشْروا العْمايِم
يَا عَبَّاس لِيش علىٰ الثَرىٰ نَايِم[١]

وهُنَاك أهَازِيج وقَصَائِد أُخرىٰ، يَعْمَد إليهَا بَعضُ الخطَبَاءِ والرَّوَادِيد، وتَعتَمِدْهَا الحسَينيَّات، والعُمْدَة أن تحقِّق غَاية الشَّعيرة، والقُدْرَة على إذْكَاءِ الأحْزَان، ونَقْل وتَصوِير مَشْهَد الحسْرة التي كَانت تَتَملَّك قَلْب «المَوْلىٰ» عليه السلام.

وأرَىٰ بُنيَّ، أنَّ التَّرتيبَ الأمثَل والتَّنْسِيق الأفضل لموكب الزِّفَاف يَكُون بَأن يَتَقَدَّم "شَبيه «القَاسِم»" الموكب وَحْدَه مُنفرِداً، دُون أن يَسْبِقه في الدُّخُول حَمَلَة الرَّايات، فإن كَانَ لَا بُدَّ، فرَاية وَاحِدَة تَتَقدَّمه بفَاصِل كَبِير، حتىٰ لَا تحجُب مَنْظَره، ويُمكِن أن تجعَل كَوكَبة من الأطْفَال من حَمَلَة الشُّمُوع تَتَقدَّمه، كَإعْلَان وتمهيد للمَوكب، ولكن أيضاً بفَاصِلَة ومَسَافَة كَافية، ذلك حتىٰ تَترَكَّز الأنظَار على "الشَّبيه"، ولَا يخطُفهَا مَعْلَمٌ آخَر. ثمَّ يَلِيه حَمَلَة الصَّوَاني، وهُم كَوكَبة من الشَّبَاب يَقُومُون بحَمْل "صَوَاني الزَّفَّة"، ويُبَاشِر بَعْضُهُم النِّثَار، ويَقُوم بعَضُهُم الآخَر بنَضْح أو رشِّ مَاءِ الوَرد على الحضَّار... ثمَّ يَأخُذ الموكب في جَوْلته في أرْجَاءِ الحسَينيَّة، فَلَا يُطِيل أكثر من اقْتِراب الخطِيب وبُلُوغه "المصْرَع"، فيَجِب أن يَكُون عَندَهَا الموكبُ قَد خَرَج من الحسَينيَّة.

---

(١) كُتِبَ الشِّعْر المنظُوم باللهْجَة الدَّارِجَة وضُبِط حَسْب مَنطُوقه العامِّي.

أمَا محتوَيَات الصَّوَاني فَهِي ـ كَأسَاس ـ الشُّمُوع، والحِنَّاء، والوُرُود والرَّيَاحين، والنُّثار، وغَالِباً مَا يَكُون من الحلَوِيَّات المغَلَّفة، التي يُمكِن أن تَتَخَلَّلهَا بَعضُ القِطَع النَّقْدِيَّة... وهذا بَابٌ مُوَسَّع، ولكن أحْذَر بُنيَّ من الحلَوِيَّات المصَنَّعة من مَوَاد محرَّمَة، كَالمكَوِّنات المستَخْرَجَة من لحُوم أو شُحُوم ذَبائح غَير مُذكَّاة، فَقَد رأيتُ أنَّ كَثيرين يتَهَاوَنُونَ في هذا ويتَسَامحُون. وعَلَيكَ أن تَتَنَبَّه لإشْعَال الشُّمُوع، وهُنَا عُرفٌ ونَذْرٌ مُجرَّب يَقُوم به العُزَّاب، فيُوقِد أحَدُهُم الشَّمْعَة، بِنِيَّة أن يَرزقَه الله زَوْجَة صَالحة، فَيُوفي نَذْرَه بِصِينيَّة كَامِلَة يَأتي بها في القَابِل لتَدْخُل في مَوكب "زَفَاف القَاسِم". أمَّا الحِنَّاء فيجب أن تَكُون مَسحُوقاً يَابِساً، ولَا تَكُون مَعْجُونة، فإن جَاء أحَدٌ بحِنَّاء مَعْجُونَة، فَلَا تُستَعْمَل بأيِّ نَحْوٍ قَبْل أنقِضَاء شَهْر «صَفَر»، بل الثَّمانيَة الأُوَل من «رَبيع الأوَّل».

أمَا لِبَاسُ المشَارِكين في "مَوكب الزِّفَاف" فيَنبَغي أن يَكُونَ مُوَحَّداً، فَيَرتَدُونَ ثِيَاباً خُضراً على هَيئَة الأكفَان، وتُلَفُّ جِبَاهُهُم بقِطَع أو شَرائط من القُماش الأخْضَر، أمَا شَبيه «القَاسِم»، فهُنَاك مَن يُظهِره في لِبَاسِ الحَرْبِ والميدَان، فيُلبِسه الدِّرْع، ويُقَلِّده السَّيْفَ والتُّرْس، و"خُوذَة" (وهي البَيْضَةُ، غِطَاءٌ من حَدِيدٍ يُلْبَس في الرأس) تجلِّلهَا عِمامَة، وتُزيَّن بريش الطُّيُور، ومَا إلى ذلك من حُليٍّ وزِينَة، تُورِث الشَّخْص مَهَابَة وجَلَالاً يُنَاسِب الدَّوْر والشَّخْصِيَّة التي يُمَثِّل... وهُنَاك مَن يتَقَيَّد بالهيئَة التي خَرَج بها مَوْلَانا «القَاسِم» عليه السلام في ذلك اليَوْم العَظِيم، فَقَد بَادَرَ عليه السلام، كَما في الرِّوَايَة، إلى الميْدَان "وعَلَيْه قَمِيصٌ وإزار، وفي رِجْلَيه نَعْلَان"، ولَسْتُ مُرَجِّحاً شَيْئاً هُنا ولَا مُؤثِراً هَيئَة، فنَحنُ لَسْنَا بِصَدَدِ تَمثِيل الوَاقِعَة كَما هي، بِقَدْر مَا نُريد إثَارة الأشْجَان وتَهييج الأحْزَان، ولَفْت الأنظَار، ولَرُبَّما كَانَ في خُرُوج "الشَّبِيه" بالهيئَة المذكُورَة في رِوَايَة «حميد بن مُسلِم»، مَا يصرِف الشَّعِيرة عَن غَرَضِهَا، ولَا يُعين على تَحقِيقِ هَدَفِهَا.

ويَنبَغي أن تُدقِّق في أختِيَار مَن يَنْهَض بِدَوْر "الشَّبيه"، سَوَاء في الشَّكْل، فَلَا يَتَجَاوَز الفتى الثَالثَة عشرة أو الرَّابعَة عَشرة، مُعتَدِل القَوَام، حَسَن الوَجْه، يُورِثُ مَرآه الحسْرة في نُفُوسِ النُّظَّارة، ويُشِير إلى حُسْن «بني هَاشِم» وأستِواء خِلقَتِهِم... أو في الخُلُق، فَيَكُون مُتَدَيِّناً مُلتَزِماً، بَعيداً عن أجْوَاءِ اللَّهْو المحَرَّم التي يَقَعُ فيهَا بَعضُ الفِتْيَان.

وعَلَيكَ أن تختَارَه وتُعيِّنه مُبكِّراً، من اللَّيَالي الأُوْلَيَات، لِيَتِمَّ تَفْصِيل الثِّيَاب اللَّائقَة واللَّازِمَة للدَّوْر، وتَكون جَدِيدَة خَاصَّة به، فَلَا يَرتَدِي مَا كَان للشَّخْص (الشَّبِيه) الذي أدَّىٰ الدَوْر في العَام الماضِي، فَتَكُون ضَيِّقَة عَلَيه أو وَاسِعَة!... كَما يجرِي تَعْلِيمه وتحفِيظُه النصَّ الذِي سَيُلقِيه والدَّوْر الذِي سَيُؤدِّيه، فلَا يتَلَعْثَم ويتَلكَّأ، ولَا تَأخُذه هَيْبَة المحْفِل فَيَرتبِك، ولَا سيَّما في المجَالِس الكَبيرة، أمَام الجمُوع المحْتَشِدَة. وفي حَال تَضَمَّن مَوكب الزِّفَاف تَصْوِير مَشْهَد مَصْرع «القَاسِم» عليه السلام، فعَلَيكَ أن تُعِدَّ مكَاناً إلىٰ جِوَار المنبَر أو في رُكْن من أركَان الحسَينيَّة، تَسْدُل عَلَيه السِّتْر، لِيَتَوَارىٰ خَلْفَه "الشَّبيه" بَعدَ قِرَاءَته المقْطَع الخاصَّ به في رِوَاية «الطُرَيْحِي»، وهُو الذي يَبدأ من قَوله: "يَا عَمَّاه قَد ضَاقَ صَدْري... "، ويَنتَهي بِتِلَاوَته الرَّجَز الذي تمثَّل به مَوْلَانا «القَاسِمُ» عليه السلام في الميْدَان:

إن تُنْكِرُوني فَأنَا نَجْلُ «الحسَن»
سِبْطِ الرَّسُول «المصطفىٰ» والمؤتَمَن
هٰذا «حُسَيْنٌ» كَالأسِير المرْتَهَن
بين أُناسٍ لَا سُقُوا صَوْبَ المُزن

وعندَهَا، يَتَولَّى الخَطِيبُ قِراءَة المصْرَع ومَراثيه، بيْنَما يكُون "الشَّبيه" قَد نُقِل إلىٰ خَلْف السِّتَار، ليُعَدَّ علىٰ هَيئَة الصَّرِيع، فيُصْبَغ رَأسُه ويَسِيلُ علىٰ وَجْهِه الأحمر القَاني، مَا يَحكِي الدِّمَاء، ويَحمِله أربَعَة من الشَّبَاب علىٰ أكتَافِهِم ويُخرِجُونه من الحسَينيَّة.

وبَعدُ، فهُنَاك أُمور عَلَيكَ مُلَاحَظَتُهَا والعَمَل بِهَا، تَصُبُّ في التَّقلِيل من العُيُوب والعثرَات، وتُسَاعِد في نَجَاح الشَّعِيرة:

* أسعَ للإفْرَاج في القَاعَة مُسْبَقاً وصُنْع "مَمرٍّ" وطَريق يُسَهِّل حَركَة "مَوكب الزِّفَاف" عِندَ دُخُوله، فَلَا يُعيقُ الحضُورُ الجلُوس علىٰ الأرضِ حَركَته، فيَضْطَرُّ أحَدُهُم لإزاحَة النَّاس وتَنحِيَتِهِم جَانباً أثناء القِرَاءَة، ممَا يُربِك المجْلِس ويَصرِف تَركِيز الحضُور ويُشَتِّت انتِبَاهَهُم، فَعَلَيكَ أن تَعْمَد قَبْلَ حُضُور النَّاس، إلىٰ وَضْع أوَانٍ أو أمتِعَة في المسِير المفْتَرض للمَوكب (ترْفَعهَا سَرِيعاً قَبلَ دُخُول الموكب)، أو أية وَسِيلَة أُخرىٰ تُنبِّه الحضُور للامتِنَاع عَن الجلُوس في المَوْضع الذي سَيُشَكِّل مَسِير "مَوكب الزِّفَاف".

* وهٰكذا أسعَ للتَّقْلِيل مَا أمكَن مِن إلقَاء النِّثَار في قَاعَة الحسَينيَّة، فهٰذا أيضاً مما يَصرِف الأنتبَاه ويُشَتِّت التركيز ويُشْغِل النَّاس عَن شجىٰ الرِّثَاء، وآفَاق المصِيبَة التي يهْدِف مَوكب الزِّفَاف إلىٰ صُنْعِهَا. فإذا فَرغ "مَوكب الزِّفَاف"، جمعتَ مَا كَان في "الصَّوَاني" وجعَلته في صُرر، ووَزَّعتَهَا علىٰ الحضُور عِند أنقِضَاء المجْلِس لِيَتَبركُوا بهَا.

* أقتِصَار تَصْوِير المراسِم وتَسْجِيلهَا علىٰ جهَة تَابعَة لإدَارة الحسَينيَّة، ومَنْع التَّصْوِير من قِبَل النَّاس، والإعْلَان مُسبَقاً بأنَّ تَسْجِيلاً كَامِلاً سَيُقَدَّم لهم فيما بَعد. فأنتَ تَرىٰ بعضَ الأهَالي الذِين يُشَارك أطْفَالهم في الموكب، يَحمِلُون الشُّمُوع أو يُردِّدُون مُستَهَلَّ الزِّفَاف، يَحرِصُونَ علىٰ تَوثِيق هٰذه المشَاركَة، والتِقَاطِ الصُّوَر لهم، للذِّكْرىٰ، وهٰكذا الأمر من غَيرِهم، وهي ظَاهِرَة تُفْسِد رِسَالَة الشَّعِيرة وتُزْرِي بها.

* أمنَع أن يَقِف أو يَتَقَدَّم أمَام هَيئَة الزِّفَاف وهي تَلِج القَاعَة وتَجول في أرجَائهَا، أحَدٌ من العَامِلين في الحُسَينيَّة، والقَائمِين علىٰ تَنظِيم الموكب، نَاهِيكَ بالحضُور، فهٰذا كُلُّه يَصرِف الأنظَار عن "الشَّبيه"، ويُشَتِّت التركيز عن أصْل الشَّعِيرة. علىٰ الجمِيع أن يَلتَزِم مَوْضعَه ويبقىٰ في مَكَانه، حتىٰ تُخلَق أجْوَاء حَقيقيَّة تمثِّل المصِيبَة، ويَنْصَرِف النَّاس إلىٰ سَماع ومُشَاهَدَة وتَلقِّي مَا يهيِّج أحْزَانهم ويُرِيق دُموعهُم، لَا أن يُثَار صَخَبٌ وتقُوم ضجَّة تَذْهَب بأجْوَاء الحزْن، وتَنقُل المجْلِس إلىٰ الفوضىٰ.

ومما يُمكِن أن يُلحَق بهٰذه الشَّعِيرة، صُنع "الحِجْلَة"، وهي بالأصْل القُبَّة التي تُعدُّ للعَرُوس، وقَد جَرىٰ العُرف في بَعضِ البِلَاد أن تُنْصَبَ أمَام بَيْتِ الشَّاب الذِي يُتَوَفىٰ قَبلَ الزَّوَاج، وتُوضَع أمَام مجْلِس عَزَائه. ومنه أنتَقَلَت إلىٰ شَعَائر لَيْلَة الثَّامن من المحَرَّم، فصَارَت تُصنَع بأسم «القَاسِم» عليه السلام، وتُوضَع علىٰ أبوَاب الحسَينيَّات أو في دَاخِل قَاعَاتها، تُشِير إلىٰ النَّاس وتُذَكِّرهُم بأنَّ شَهِيد هٰذه الليلَة قضىٰ ولم يُزَف إلىٰ عَرُوسِه... وهي أشْبَه بالمنَصَّة أو المصْطَبَة، تُنَجَّد بقُماشٍ أخْضَر أو أحْمَر، وتُوضَع عَلَيهَا أكَالِيل الوُرُود، وتُزَيَّن بالأوَاني الزُّجَاجِيَّة، وتُضَاء بِالقَنَادِيل والمصَابِيح، وهُنَاك أنوَاعٌ أصْغَر حَجْماً، تُحمَل في المَوَاكِب الحسَينيَّة التي تَجُوب الطُّرقَات لَيلَة الثَّامن (لَا التي تَدخُل قَاعَة الحسَينيَّة)، وقَد يَتَعَاون علىٰ حَملِهَا عَدَدٌ من الرِّجَال، ويَتَنَاوَبُون، بَل يَتَنَافَسُون.

الإطعام

وهُو من الشَّعَائِر الحُسَينيَّة العَظِيمَة والسُّنَن والآداب الخَطِيرَة التي تَوارثَهَا الشِّيعَة والتَزَمُوهَا مُنذُ بَوَاكِير إقَامَة الشَّعَائِـر حتىٰ صَارَ مَعْلَماً وسِمَـة شَهِيرة ثَابتة. ويَنْطَلِق الإطعَام، أو تَرتكِز فَلسَفته علىٰ أُمور ثَلَاثة...

الأول: الاَنشِغَالُ، أو التَّفَرُّغ لِلعَزَاء...

من المعْلُوم أنَّ المصَاب الذِي يَفقِد عَزِيزاً، يَشْغَله الحزْنُ عَن مَعَاشِه ويَصْرِفه حتىٰ عن طَعَامِه، وفي الحدِيث أنه لما جَاءَ نَعْيُ ذي الجنَاحَين «جَعفَر بن أبي طَالِب» عليه السلام واَستِشْهَادِه في غَزْوَة «مُؤتَة»، قَالَ «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله: اَصنَعُوا طَعَاماً واَحمِلُوه إلىٰ أهْل «جَعْفَر» مَا كَانُوا في شُغْلِهم ذلك، وكُلُوا مَعَهُم، فَقَد أتاهُم مَا يَشْغَلهُم أن يَصْنَعُوا لأنفُسِهم.(١) وعن «الصَّادِق» عليه السلام قَال: لمَا قُتِل «جَعفَر بن أبي طَالِب»، أمَرَ «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله «فَاطِمَة» عليها السلام، أن تَأتِي «أسْماء بِنْت عُمَيْس» هِيَ ونَسَائها، وتُقِيم عِندهَا، وتَصنَعَ لها طَعَاماً ثَلَاثة أيام.(٢) وقَد لَبِسَت نِسَاءُ «بني هَاشَم» السَّوَاد والـمُسُوح بعدَ فاجعَة الطَّف، وكُنَّ لَا يَشْتَكِين من حَرٍّ ولَا بَرْد، منقَطِعَات للعَزَاء وإقَامَة المأتم، وكَان «عليُّ بن الحسَين» عليه السلام يَعمَل لهنَّ الطَّعَام.(٣)

إنَّ الحسَينيَّات تَفرِض وتَنْطَلِق من أنَّ الشَّيعَة جَميعاً هُم أربَاب عَزَاء، وهُم في شُغْل عن أمْرِ الطَّعَام وإعْدَاده، فكَما تَقُوم بتَهيئَة أسبَاب البُكَاء وتَوَفِّر مَظَاهِر العَزَاء، تَقُوم أيضاً بإعدَاد وتَقدِيم الطَّعَام لرُوَّادهَا، بَل لِعَامَّة المؤمنين. وفي هـذا رِسَالَة عَظِيمَة مَفَادُها، أنَّ الشِّيعيَّ عَلَيه أن يسعىٰ بين المجَالِس ويَتَنَقَّل من مَأتم إلىٰ آخَر، ويَنصَرِف لِشُؤون العَزَاء ويَنقَطِع لإقَامته، ويَمضي في إحْيَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة، ولَا يُفكِّر في تَدْبِير أُموره الخاصَّة، وقَد جَاءَ في الآداب(٤) مَا يُشير إلىٰ هـذا، من الكَفِّ عَن أعْمال الدُّنيَا، والتَّجَرُّد للبُكَاء والنِّيَاحَة وذكْرِ المصَائِب، وإقَامَة المأتم كَما يُقَام لأعزِّ الأوْلَاد والأقَارِب.

---

(١) (دَعَائم الإسلَام) لـ «القَاضي النعمان» ج١ ص٢٣٩.

(٢) (المحَاسِن) لـ «البرقي» ص٤١٩.

(٣) (المصدر السابق) ص٤٢٠.

(٤) عَدَّدها المرحُوم «الشيخ عبَّاس القمِّي» في (مَفَاتيح الجِنَان) في أعمال يَوْم «عَاشُورَاء».

وفي حَدِيث «الإمَام الرِّضَا» عليه السلام: مَن تَركَ السَّعيَ في حَوَائجه يَوْمَ «عَاشُورَاء» قضىٰ الله لَه حَوَائج الدُّنيَا والآخِرَة، و مَن كَانَ يَوْمُ «عَاشُورَاء» يَومَ مُصيبته وحُزْنه وبُكَائه، جَعَلَ الله عزَّ وجَلَّ يَوْمَ القِيَامَة يَوْمَ فَرَحِه وسُرُوره، وقَرَّت بِنَا في الجِنَان عَيْنُه. ومَن سَمَّى يَوْمَ «عَاشُورَاء» يَوْمَ بَركَة وادَّخَرَ لمنزِله شَيئاً، لم يُبَارَكْ لَه في مَا ادَّخر، وحُشِرَ يَوْمَ القِيَامَة مَع «يَزِيد» و«عُبيدِالله» و«عُمَر بن سَعْد» لَعَنَهُم اللهُ إلىٰ أسْفَل دَرَكٍ من النَّار.(١)

وعن «الإمَام أبي جعفَر البَاقِر» عليه السلام: ... فإن استَطَعتَ أن لَا تَنتَشِر يَوْمَكَ في حَاجَة فافعَل، فإنَّه يَوْم نَحْسٍ لَا تقضىٰ فيه حَاجَة، وإن قُضِيَت لم يُبارَكْ لَه فيهَا ولم يَرَ رُشداً، ولَا تدَّخِرَنَّ لمنزلك شَيئاً، فإنَّه مَن ادَّخَر لمنزِله شَيئاً في ذَلك اليَوْم لم يُبارَكْ لَه في مَا يَدَّخِره ولَا يُبارَكْ لَه في أهْلِه.(٢)

وهُنَاكَ مَن يَخْلِط بين بَعضِ الآدَاب وشَعِيرة الإطْعَام، فَيَتَوَهَّم التَّعَارُض، فإنَّ من آداب «عَاشُوراء» الإمسَاكَ عَن الأكْل والشُّرب إلىٰ قَريب العَصْر، وهي سَاعَة المصْرَع، فيَقْطَع إمْسَاكَه بِشَربَة مَاء، حتىٰ لَا يُكْتَب صَائِماً ويَكُون ممن استَنَّ بسُنَّة «بني أُميَّة»، فكَيفَ يجتَمعُ هـٰذا مَع الإطْعَام العَام الذِي تَشْهَده الحُسَينيَّات في بلَادِ الشِّيعَة، ويَستَقيمُ مَع الدَّعْوَة للمُحَافَظَة علىٰ هـٰذه الشَّعِيرة وتَأكِيدِهَا وتَرسِيخِهَا والبذْلِ في سَبِيلِهَا؟...

إنَّ الأمرَ في "الإطْعَام" والعَمَلَ به لَا يَقْتَصِرُ علىٰ يَوم «عَاشُورَاء»، بَل هُو شَعِيرة تُصَاحِبُ كُلَّ مجلِس، وتَكُون في كُلِّ يَوْم، وتلْكَ الآدَاب (الإمسَاكَ والامتِنَاع عن الطَّعَام) مُتعلِّقة بـ «عَاشُورَاء» بالخصُوصِ، وهُنَاكَ بِلَادٌ تُؤخِّره إلىٰ وَقْت العَصْر. أمَا في بِلَادِنَا فإنَّه يُوَزَّع من أوَّل الصَّبَاح إلىٰ الظَّهِيرة، ويُنْقَل إلىٰ البيُوت، أمَّا الذي يُقدَّم في الحسَينيَّات، فيكُون بَعدَ قِراءَة المجْلِس وتلَاوَة المَقْتَل، فكَأنَّ المؤمن أدَّىٰ وَاجبَه وقضىٰ فَرْضَه، فيتَزَوَّد بالبركَة. ثـم إنَّ النَّاس يَتَفَاوتُون في التِزَام السُّنَن والآدَاب، ولَيْسَ لكَ إرغَامَ أحَدٍ، فكَما أنه قَلَّ أن تجِدَ مَن يحتَفِي، أو مَن يُلَطِّخُ نَاصِيتَه بالطِّين في هـٰذا اليَوْم (وهُو من الآدَاب)، كَذَلك الأمرُ في الإمسَاك، والشَّعِيرة تَرقُبُ الوَضْعَ العَام للنَّاس، وتُوفِّر مَا يَخدُم المجمُوع.

---

(١) (كامل الزيارات) لـ «ابن قولويه» ص٣٢٦.

(٢) (عيون الأخبار) لـ «الصدوق» ص٤١٩.

وعَلَيكَ بُنيَّ ٱستِحْضَار المعَاني العَظِيمَة التي تَتَضمَّنهَا هٰذه الخِدْمَة الحسَينيَّة، وتُنزلها مَقَامهَا وتَعْرِف مَوْقِعهَا وتُثَمِّن قَدْرها، ويَعْلَم المؤمنُون المنْشَغِلُون بهَا، المضْطَلِعُون بِدَوْرِ إعْدَادِ الطَّعَام، وقَد تَوَارَوا في المطَابخ وبَدَؤوا عَمَلَهُم قَبلَ غَيرِهم، وسَبَقُوا عُمُومَ المعَزِّين بسَاعَات، ولَعَلَّهُم حُرِمُوا ـ بسَبَب ذَلك ـ من بَعضِ الأنشِطَة، ولم يحظَوْا بِشَرفِ المشَاركَة في قِسْم من الشَّعَائر، ولَرُبَّما ٱعترَتْ بَعْضَهُم مشَاعِر مُعيَّنَة، ممَا يَكتَنِفُ هٰذا العَمَل لتَمَحُّضِه أو تَوَغُّلِه في عُنوَان الخَادِميَّة (ولَا سيَّما في بِلَادِنَا)، وكَأنه دَوْر العَامِلِ والأجِير، لَا الشَّريف والكَريم... عَلَيهِم أن يَعْلَمُوا أنَّ الأمرَ مَعكُوسٌ هُنا، وأنها خِدْمَة تمثِّل شَرفاً لَا ينَالُه إلَّا الأوْحَدِيُّ من المؤمنين، ولَا يُلَقَّاهُ إلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيم، دَوْرٌ قَامَ به حُجَّة الله علىٰ العَالمين، سَيِّدنَا ومَوْلَانا «زَينُ العَابِدِين» عليه السلام، وكفىٰ. ثمَّ إنَّ النُّهُوضَ بالحسَينيَّات والإعْدَاد للعَزَاء، يحمِل مَعْنىً خَطِيراً، يَضَع فيه المرءُ نَفْسَه مَوْضِع صَاحِبِ المصِيبَة، ويَتَضَمَّن ـ بنَحْوٍ ـ ٱنتحَال صِفَة المعزَّىٰ، وهو «الحجَّة بن الحسَن» عليه السلام! فأهلُ الميِّت هُم مَن يُقيمُون عَلَيه العَزَاء، فَجَاءَ نُخْبَةٌ من المؤمنين، ونَهَضُوا بهٰذا الدَّوْر، فكَأنهم ٱرتَفَعُوا ـ بهٰذا ـ وٱرتَقَوا، حتىٰ يَعْجَزَ الكِرامُ الكَاتِبين عَن إحْصَاءِ ثَوَابِهِم، ومَن فَوْقَهُم من الملائك عَن عَدِّ حَسَنَاتِهِم، فيَنتَقِل الأمرُ إلىٰ المبَاهَاة والٱغتِبَاط علىٰ مَا أفضَلَ الله وأعطىٰ، ومَا تَطَوَّل به وآتىٰ هٰذه الثلَّة من النُّجَبَاء، ومَنَحَ هٰذه الكَوكَبَة من السُّعَدَاء.

وحتىٰ لَا تُحرَم بُنيَّ هٰذه النِّعْمَة، ولَا تُسْلَبَ هٰذا الفَضْل والتَّوْفيق، عَلَيكَ، بعدَ شُكْرِهَا، أن تَلتَزِمَ الإتقَان والجوْدَة في أدَائهَا (بَل هُوَ جَوْهَر الشُّكْر، يَكون بَعدَ الذِّكْر القَوْليِّ واللِّسَاني، فِعْلٌ وعَمَل)، وَفْقَ أعلىٰ المعَايير، وتَنتَقِل إلىٰ عَالَم الحقَائِق وتَعيش أجْوَاء "الحقِيقَة"، وتَتَجَاوَز مُعْطَيَات الوَاقع والظَّاهِر وتَنفَصِلَ عَن صُوَر قَد تَبتَذِل النَّاس، وهي تَعكِسُهُم وتَرَاهُم وَفْقَ مَا هُم عَلَيه من مَالٍ أو جَاه، فَلَا تُبَالِي مَاذَا تنَاوَل هٰؤلَاء وكَيف؟... تَنتَقِل إلىٰ آفَاق كُلُّها مِنعَة وصَوْنٌ وخَفَر، بَل خَطَرٌ وحَذَر! فهٰؤلاء بُنيَّ ضُيُوف «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وأنتَ تَصَدَّيتَ لإقَامَة المأتـم علىٰ إمَامِهم، وٱنبَرَيْتَ لِدَوْر خِدمَتِهِم، فأحْسِن وأجِد وأتقِن، وقَدِّم أفضَل مَا لَدَيك، وأقصىٰ مَا تَستَطِيع، وغَاية مَا يُمكِنك، من نَوعيَّة الطَّعَام إلىٰ الأوَاني فالخِدْمَة وكَيفيَّة التَّقدِيم..

ولَسْتُ أدْعُو هُنَا للتَكَلُّفِ والمبَالَغَة، أو السَّرَف والبَطَر، فَالأمرُ يَدُورُ مَدَار القُدْرَة والإمكَانِيَّة، لكن حَذَارِ أن يخدَعَكَ الشَّيْطَان فَتَرىٰ أنَّ "السَّيِّءَ" يُمْكِن أن يَضِيع في صَخَبِ زُحَام الجُمُوع، و"العَيْبَ" قَدْ يَتَوَارَىٰ في تَدَفُّق النَّاس وكثرة الطَّلَب، و"النَّقْص" قَد يُجبَر في أنَّ الطَّعَامَ بَذلٌ ومنْحَة و"تَقْدِمَة" لَا يَلْزَمهَا شَيء، ولَيْسَت بَيْعاً وشِراءً يَفسَخه عَيْبٌ ويُرجعه نَقْص!

عَلَيكَ أن تُعِدَّ الطَّعَامَ من أجْوَد الموَاد وأحْسَنهَا.

وكَمَدخَل لهذا الأمر، أنقُل لكَ قِصَّة، وهي وإن أستُقِيَت من مَنَام، لكنها رُؤيا صِدْق تحكي حَقِيقَة عِلمِيَّة مُبرهَنة، وأمراً شَرعيّاً مُثبتاً... وقَد وَقَعَت لصَاحِب مَأتم كَبير، كَان يُحضِّر حُسينيَّته للمَوْسِم، يَتَفَقَّد أدوَاته ويَجرد مَوْجُودَاته ويُعدُّ قَائِمَة مُشْتَرياته، ومَعه أصحَابه، يُخرِجُون الأوَاني والقدُور من المخزَن، ويُحصُون النَّوَاقِص، ويُسَجِّلُون ويُقَيِّدُون مَا يَحتَاجُون من مُؤَن، من الأرُز والسَّمْن والحبُوب، وهكذا الشَّاي والسُّكَّر، فلَما وَصلُوا إلىٰ القَهْوَة، طَلَب الشَّخْص المسْؤول عَن إعدَاد القَهْوة مَا يحتَاج من بُن وهَال، وأستَدرَك بأنَّ هُنَاكَ بقيَّة من بُنِّ العَام الماضي، لَا بأس به، وإن شَكَا بعضَ الخُزون، فأمَر صَاحِب الحسَينيَّة أن يُضيفَه ويخلِطه بالبُنِّ الجدِيد، فيزُول خُزونه.

يَقُولُ هذا المؤمن المَوَالي، بأنه في لَيلَة «عَاشُورَاء» من ذلك العَام، أخذَته غَفْوَة في مَطبَخ الحسَينيَّة، من شِدَّة الإعيَاء والتَّعَب، حَيث كَان يُحيي اللَّيل ويُعِدُّ الطَّعَام لِيُوزَّع يَوم «العَاشِر»، فَرَأىٰ في عَالم الرُّؤيَا بأنَّ «سيِّد الشُّهدَاء» عليه السلام، قَد دَخَل الحسَينيَّة ومَعَه كوكَبة من أصحَابه، وخَلْفَه رَجُلٌ مهيب، عَرفَ أنه «حَبيب بن مظَاهر»، يحمِل وَرقَة وقَلَماً، ويُدَوِّن مَا يُملِيه عَلَيه «المولىٰ» عليه السلام، وكَانَ عليه السلام يَذكُر أسماءَ الخدَّام والمعزِّين واللَّاطِمين و«حَبيب بن مظَاهِر» عليه السلام يُسَجِّل ويُدوِّن، حتىٰ خَرجُوا من الحسَينيَّة ودخَلُوا مَطْبَخهَا، فأخَذَ «المولىٰ» عليه السلام يُملي مَا صُرِفَ من مَوَاد غِذَائيَّة ويُحصِيهَا: كَذا "خِيشَة" (شِوَال) أرُز، كَذا "عُبوَة" (تَنكَة) سَمْن، وهكذا حتىٰ وَصَل وقَال: خمسُون كيلُو شَاي، عِشْرون كيلُو قَهْوَة، كُلُّ هذا وهُو عليه السلام مَاضٍ في طَرِيقه، و«حَبيب» خَلْفه يُدَوِّن ويُسجِّل، لكنه لمَا ذكَرَ القَهْوَة التَفَتَ «المولىٰ» عليه السلام إلىٰ «حَبيب» وقَال: عَشرة منهَا قَديمَة!

أفَاقَ صَاحِبُ الحسَينيَّة من نَومه مِلْؤه الحسْرة والنَّدَامـة، وهو يُردِّد الآيَة الكَريمَة: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ (البقرة)!...

إعْلَم بُنيَّ أنَّ هـٰذا هُو قُربَانك، وهي "تَقْدِمتك" لـ «إمَامك»، ومَا غَلَبَ الشُحُّ «قَابيل» فَقَدَّم حُزْمَـة من أرْدَئ حَصَادِه، حتىٰ إنَّه ـ علىٰ مَا يُقَال ـ رأىٰ فيهَا سُنبلَة طَيِّبة، فَفركَها وأكَلَ بُرَّها!... إلَّا لما داخَلَه من أنها هَدَر، سَتَأتي النَّارُ وتَأكلُها، فَلِماذَا نُعَرِّض مَالَنا للضَّيَاع والتَّلَف؟ والخوْف أنَّ التَّعْلِيل الخفيَّ للتَّهَاوُن في أمرِ نَوْعيَّـة الطَّعَام المقَدَّم في الحسَينيَّة يَنْطَلِق، ولَوْ في اللَّاشُعُور، من هـٰذا المنطَلَق! مَا يَستَبطِن الأستِخْفَاف بالحضُور، ويَنْطَوِي علىٰ ازدرَاء المعَزِّين، والغَفْلَة عن الأجْر والثَّوَاب.

والحقُّ أنَّ هـٰذا لَا يَكُون في الأعَمِّ الأغلَب من أصْحَابِ المجَالِس والحسَينيَّات، فَهُم والحمْدُ لله، مَا زَالُوا يُقَـدِّمُون أفضَل مَا عِندَهُم وأحسَن مَا يَستَطِيعُون، ويَتَنَافسُون في هـٰذا ويَتَفَوَّقُون، ومَا الأخطَاء التي تَقَع وتكُون في هـٰذا الطَّرِيق إلَّا من طَبيعَة التَّهَاوُن التي تحكُم سُلُوكَ أكثرنا، وعَدَم الدِّقَّة والإتقَان في العَمَل لَيْسَ إلَّا.

ومن نَافِلَة القَوْل بأنَّ مَا أعْرُضُه هُنَا وأُحَاكِمه وأُطَالِب به من نَوْعيَّة ودَرَجَة "التَّقدِمَة"، أمرٌ نِسبيٌّ يخضَع للقُدْرة والإمكَانيَّات الماليَّة، فصَاحِبُ الحسَينيَّة الفَقِير، لَيْسَ مُطَالَباً بِمَا يُنتَظَر من الغَنيِّ المقتَدِر، اللهُمَّ إلَّا الأحسَنَ والأفضَلَ مما يَملِك ويَستَطيع. وبَعدَ كَوْن مَا تُقَدِّم في الحسَينيَّة هُو قُربَانك وهَديَّتُك لـ «إمَامك»، والهديَّة علىٰ قَدْر مُهدِيها، فهِي قِرَاكَ لِضَيفِه، وهـٰذا عُنوَان آخر يَلْحق، فَأنتَ لَا تُقرِّب مَا تُقَدِّم من طَعَام لتَأكلَه النَّار! بَل لتُحْسِن وتُكْرِم وَفْد وضَيْف «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وتُوَقِّر به المؤمنين النَّاهِضِين بإحْيَاء شَعَائر عَزَائه.

ودَعْني بُنيَّ أُطِيل الوَقْفَة هُنَا بَعضَ الشَّيء، وأدعُو للعَمَل علىٰ نَقلَة نَوعِيَّة في دَرَجَة الخِدْمَة في شَعِيرة الإطعَام، وعَدَم الأكْتِفَاء بالقَدر الحَالي من النَّشَاط في هـٰذه الشَّعِيرة، فهـٰذا من الميَادِين التي عَلَينَا تَطْويرهَا وتحسْينِهَا، كَمّاً وكَيفاً، سَوَاء في نَوْعيَّة الطَّعَام أو آليَّة الخِدْمَة في تَقْدِيمِه وتَوْزِيعِه.

أوَّل مَا يَجِبُ عَلَيكَ هُو إحْرَاز الإبَاحَة والتَّذْكِية، فَلَا تُقَدِّم للمُعَزِّين إلَّا اللُّحُوم والطُّيُور المذَكَّاة وَفْقاً للضَّوَابط الشَّرعيَّة، ولَا تَكْتَفِ بِمَا يُسَوِّغ تَنَاوُل لحوُم مُستَوْرَدة مَذبُوحَة في بِلَادٍ أجنبيَّة، لمجرَّد شَهَادَة مَطْبُوعَة تَقُول إنَّهَا ذُبِحَت علىٰ الطَّريقة الإسلَاميَّة، أو عُنوَان "حَلَال" الذي يختمُون به مغلَّفَات وعُبوَات هـٰذه اللُّحُوم، وهُو خَتْم تَراه أحيَاناً علىٰ غَير الأغذِيَة من الصِّنَاعَات التي لَا عَلَاقَة لها بالذِّبَاحَة والتَّذكِيَة كَالحبُوب وأكْوَاز الذُّرَة! ممَا يُشْعِرُ بالغِشِّ والكَذِب، وأنهَا شَهَادَات زُورٍ تُوَظَّف كَأداةِ تَسْوِيق. وحتىٰ اللُّحُوم المتدَاوَلَة في كَثِير من بِلَادِنا، التي تَظْهَر طَازَجة وتَبدُو أنها ذُبِحَت محَليّاً فتَكُون خَاضِعَة لِعُنْوَان "سُوق المسْلِمِين"، هي في الحقِيقَة مُستَوْرَدَة من «الصِّين» و«الهنْد» و«أُستراليا» «ونيوزيلاندا»، ومَا إليهَا من بِلَاد غير المسْلمين، يحتَالُ التُّجَّار والقَصَّابون في تَسوِيقهَا، فَهِي في الوَاقع من تِلك المجَمَّدَة، لكِنَّهُم يَعْمَدُون لإذَابَة تجميدِهَا، ثُمَّ تَوزِيعِهَا علىٰ الأسوَاق وتَعْليقِهَا في محلَّات الجِزَارة... ولَسْتُ أتشَدَّد هُنَا وأتطَرَّف و "أغضَب لله أكثر مما غَضِبَ لنفَسِه"، ولـٰكننا بُنِيَّ في زَمَنٍ فَشَا فيه الفَسَادُ وعَمَّ التَّهَاوُن والتَّرَاخي في الأحكَام، حتىٰ قرُبَ من التَّسَيُّب والإبَاحِيَّة، بل دَخَلَ فيهَا، فكُلُّ حَرَام يجِدُونَ لَه وَجْهاً يُبيحُه ويحلِّله، حتىٰ لَا تَكَاد تَقِف علىٰ مناطِقَ حَظْرٍ و "ممنُوعَات" وتقُول لَا يُمكِنُك أن تفعَلَ هـٰذا، ولَا بدَّ لك أن تَتْرُكَ ذاك، فسُرعان مَا يحتالون ويجدُون للأمر مخرَجاً "شرعيّاً"، لِذا أُوصِيكَ وأقُولُ لكَ، كَمَا قَال «أهلُ الكَهْفِ»: ﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ١٩﴾ (الكهف)، فالآثار الوَضْعِيَّة لأكْل الميتَة ونتَائج تَنَاوُل الحرَام، وهـٰكذا بَركَات الطيِّب الزكيِّ من الطَّعَام خَطِيرة علىٰ الرُّوح والسُّلُوك، فَلَا تتَهَاوَن ولَا تفرِّط فيهَا.

ثـم عَلَيكَ أن تُراعي وتحـرِصَ علىٰ الطَّهَارة، فكَثِير من القَصَّابين لَا يُطهِّرون مَنْحَر الذَّبيحَة، ويَعمَدُون لِسَلْخِها وتَقطِيع لَحْمِها بالسِّكِين التي بَاشَروا فيهَا الذَّبح، فيَختَلِط دَمُ المنحَر بالدَّم المتخلِّف في الذَّبِيحَة، والمستثنى في الحكْم من النَّجَاسَة... لِذَا عَلَيكَ أن تَغْسِلَ اللُّحُومَ وتُطَهِّرها قَبلَ طَبخِها، وهـٰكذا الأوَاني والقُدُور، وتُوصِي العَامِلين بالحذَر والحيطَة علىٰ هـٰذا الصَّعِيد، فَلَا تُقَدِّم في الحسَينيَّة إلَّا الطَّاهِر الزكي.

وعَلَيكَ بُنيَّ أن تجمَع إلىٰ الطَّهارة الشَّرعيَّة، الحرِصَ علىٰ النظَافَة ومُراعَاة مُقتَضَيَات الصِّحَّة العَامَّة، فَتَحْتَرزَ عن القَذَارَات وكُلِّ مَا يُلوِّث الطَّعَام، سَوَاء أثنَاء الطَّبخ والإعْدَاد، أو حِينَ سَكْبِه وتَقدِيمه، فتُغْسَل الأواني بعِنَاية وتجلىٰ بحِرْص، ويَضَع العَامِلُون في الطَّبخ القفَّازات ولَا يُباشِروا الطَّعَام بأيدِيهم العَارِية، ويُغطُّوا رؤوسَهُم، حَذَراً من تَسَاقُط الشَّعْر في الطَّعَام، أو التِقَاط الأوْسَاخ، وحَبَّذا لَو وَاضَبَوا علىٰ تَقلِيم أظَافِرهم واحتَاطُوا أن تكُونَ محلّاً لالتِقَاط وتجمِيع الأوْسَاخ، وكَذا تُغسَل أرضيَّة المطْبَخ وجُدْرَانه جَيِّداً بعد كُلِّ وَجْبَة، ويُزَال مَا قَد يَعْلَق بها من دُهُون وأدْخِنة.

وعَلَيكَ بالنَّظْم، وتَعْيِين "أميرٍ" للمَطْبَخ، يَكُون ذَا خِبْرة ودِرَاية، ويتَمتَّع بالحِسِّ القِيَادِيِّ والقُدْرة الإدَارِيَّة، يَقُوم بتَقسِيم العَمَل وتَوْزِيع الأدْوَار بينَ العَامِلِين، ويَكُون مُشْرِفاً علىٰ مُرَاعَاة الضَّوَابط الشَّرْعيَّة والفَنيَّة لِشَعِيرة الإطعَام. فَلَا يَسْمَح بدُخُول المطبَخ لغَيْر العَامِلِين، ويُراقِب سَيْر العَمَل، وعَمَلِيَّة الطَّبخ والإعْدَادِ وتَنَاسبهَا مَعَ السَّاعَة المقرَّرة لتقْدِيمِه وتَوْزِيعه، ثمَّ مُوَازنَة الكَمِيَّة مَع عَدَدِ الحضُور، ويَنظُر في نَوْعيَّة الطَّعَام وإتقَان صُنعِه ونَوعيَّته... وبتَعبِير مُوجَز، يتَوَلَّى ضَبْطَ مِعْيَار "الجوْدَة" علىٰ مختلَف الأصْعِدَة.

ومنهَا الأوَاني وأدَوَاتِ التَّقْدِيم، فإن استَطَعتَ بُنيَّ أن يكُون الماعُونُ من أجْوَده وأفْخَره، فبِهَا، وإن ضَاقَ وُسعُك عَن ذلك، لأسبَاب مَادِّية أو إمكَانيَات تِقَنيَّة فَنيَّة، كَتَعرُّض الماعُون الصِّيني للكَسْر، وتَكَلُّفِه مَزيداً من الوَقتِ في السَّكْب والتوزيع، فلَكَ أن تَستَعِيضَ عنه بـ "السْتِيل" أو "الميلَامين"، ولكن حَذَار أن يَكُونَ في الماعُون خَدْشٌ أو صَدعٌ وفَطْر، أو ثَلْمٌ في أطْرَافه، مما يكُون قَد استُهلِك ولم يَعُد صالحاً للاستِعْمال!

أمَا في المرحَلَة الأخِيرة، عِندَ تَقْدِيم الطَّعَام وخِدْمَة المؤمنين المعزِّين، فيَجِبُ التَّنبيه علىٰ مُراعَاة حُرْمَة المؤمن وكَرامته، ومن ذلك سُرعَة الخِدْمَة، فَلَا تُعطِّل النَّاسَ علىٰ المائدَة وتُبْقِيهم مُنتَظِرين! ثمَّ تَقْدِيم البَرَكَة بمنتهىٰ الاحْترام والأدب، فهِي لَو كَانت صَدَقَة وإحسَاناً لوَجَبَ فيهَا ذلك، كَيفَ وهي هَدِيَّة وضيَافَة من صَاحِب المأتم الحقِيقي أي «المولىٰ» عليه السلام، ومَا أنتَ إلَّا خَادِمٌ ووَسيلَة وطريق؟! وكَيف عسىٰ الضِّيَافة أن تكُونَ بِغلظَة وجَلَافة؟ أو بكَيفيَّة تخدِش حَيَاء الضَّيفِ وتُريق مَاءَ وَجْهِه؟

وإنَّما أتناوَل هـٰذه الأُمور وأذكُرهَا لـمَـا أراهُ في بعض المجَالِس المزدَحمة، مما يَعرِض عِند سَعْي النَّاسِ لتَنَاوُل المزيد، أو حِين مُحاوَلَتهم أخْذ البركَة إلىٰ بيوتهم، ومَا يَنْشأ من جِدَال ونزَاع مَع العَامِلين في المطْبَخ والقَائمِينَ علىٰ شَعِيرة الإطعَام في الحسَينيَّة، وقَبل ذلك، مَا تُفضي إليه السُّرعَة والزُّحَام، وتخلُّفه من التَّهَاون في شَرائطِ الجَوْدَة والإتـقَان، والغَفْلَة عن أُصول الأدَبِ في الضِّيَافَة وقَوَاعِد العَمَل في هـٰذه الشَّعِيرة المقدَّسَة.

ومما يَنبَغي أن يُذْكَر هُنَا بالمُنَاسَبَة، أنَّ الإطعَام في بَعضِ البِلَاد يَنْحَصِر لَيلَة السَّابع والعَاشر أو يَـومهما (حَسْب سَاعَة قِراءَة المجْلِس، أو لَيْلَة «العبَّاس» التي قَـد تكُون «تاسُوعَاء» في بَعضِ البِلَاد)، دُونَ بَقيَّة لَيالي وأيام عَشرة «عَاشُوراء»، وهـٰذه ظَاهِرة غَير صِحيَّة، عَلَيكَ السَّعي لِتَغْييرهَا، فالطَّبْخُ وتَقدِيم البركَة يَجب أن يَكُون من الليلَة الأُولىٰ، وتَـوزيع الطَّعَام وشَعِيرة الإطعَام يَجب أن تُصَاحِبَ كُـلَّ مَجلِس ومَأتـم علىٰ مَدَار العَام، فهي من الأسرار والنِّعَم الخفيَّـة التي أسْدَاها إلينَا «سَادَاتنا» عليهم السلام ، فَلَا يجُوز أن نَـتركهَا ونُفرِّط فيهَا (وسَأعرِض إلىٰ ذلك في بَحْث "البركَة").

أمَّا نَوعُ الطَّعَام والطَّبخَة التي تُقَدَّم، فَهي تَتَفَاوَت حَسْب البِلَاد والأعـرَاف المعمُول بهـا في كُلِّ بلَـد، فَفِي «العِرَاق» تُقَدَّم "القِيمَـة"، وفي «لُبنَان» "الهـرِيسَـة"، وفي «إيران» مختلَف أنواع "اليَخَاني"، وفي «بِلَادِ الخليج» "الأرز مع اللحْم"، وإن تَدَاخَلَت الأُمور في هـٰذا الزَّمَان وانتَقَلَت من بَلَد إلىٰ آخَر، فَما عَادَت البِلَاد تَـتَقَيَّد بأكلَة خَاصَّـة أو تَـتَميَّز بنَوْع معَيَّن... عُموماً، يَنْبَغي السَّعيُ للتَّفَوُّق وتَقْدِيم الأفضَل، ولَا سيَّما إذا أسْعَفَ حَجْم المجْلِس وعَـدَدُ الحضُور ذلك، وإلَّا يُكْتَفَى بمُسَمَّى الإطعَام وتحقُّق العُنوان، أمَّا مع القُـدْرة والإمكَان، فالطَّعَام المقَدَّم بـاسم «الحسَين» عليه السلام وفي مجَلِسه، يجَبُ أن يكُونَ في القِمَّة من جميع الجهَات، حَلَالاً طَاهِراً نظِيفاً طَـيِّباً سَائغاً، ويَكُون وَافراً وكَافِياً، وحَبَّذا أن يَصْحَبه شَيءٌ من الخضَار والحلَويَّات، لِيَكُون وَجْبَةً متكَامِلَة، ولٰكن دُون تجَاوُز العُرف وحُدود المقبُول، فإن خَالَف العُرف وتجاوَزه بنِيَّة تَطوِيره ونَقْله إلىٰ الأفضَل، فَلَا تَسْمَح أن يَبلُغَ دَرَجَـة مُستهجَنَة، حِين يتَجَـاوَز التنوُّع وإعْمار المائدَة الحُدُود ويَدْخُل في البذَخ والبهْرجَة، مما يَكُون في الوَلَائم، ويُوحي بما يُخرج الأمرَ عَن نِطَاق العَزَاء ومَا يُناسِبه.

الثاني: الأستِشْفَاء والتِماسُ البركَة...

أعلَم بُنيَّ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يُنسَبُ إلى «أهْل البيت» ﷺ ويَلْحَق بهم بأيِّ نحْوٍ كَان، يَعُمُّه الخَيْر ويتعلَّق به اليُمْن وتحلُّ فيه البركَة. سَوَاء حِين حَيَاتِهم كَان ذلك الأنتِسَاب والتَّعلُّق، أو بَعدَ وَفَاتِهم ورَحيلهم عَن عَالم الدُّنيَا، ولسَرَيان ذلك طَرِيقَان، تتلقى الكَائنَاتُ عَبْره خَيراتهُم وبَرَكَاتهم، كُلٌّ بحَسْبه وبكَيفيَّة تُنَاسِب طَبيعته... فنَحنُ عِندَمَا نُردِّد أنَّ "كَلَامهُم نُور"، لَا نُريد الرِّسَالَة الإلهيَّة التي تحمِلهَا أحَادِيثهُم الشَّريفَة فحَسْب، ولَا الهَدْيَ المترتِّب على سَماعِه والسَّعَادَة النَّاتجَة عن الأمتِثَال لَه، لَا نُريد هٰذا فَقَط، بل نُريدُ - معَه - أنَّ كَلَامَهم يَحمِل خُصُوصيَّة في طَبيعتِه، وتَأثيراً غَيبيّاً وتكْوِينيّاً لَا يُوجَد ولَا يكُون في حَدِيث غَيْرهم، وإن وَافقَهم في المضمُون، ومَهما تَطَابق مَعَهُم في المعنى والتقى في الرِّسَالَة.

إنَّ الوُجُود الأقدَس لـ «أهل البيْت» ﷺ بلَغ في عَالَـم الحقِيقَة من الكَمال والقُدْرة، وسَائر صِفَات خَالِقهِم ومُوجِدِهِم جَلَّ جَلَالُه، دَرَجَةً لَيسَ بَعدَهَا شَيء، وحَدّاً لَن يَبلُغه مُمكِن، ولَا لأحَدٍ أن يَعرِفه (بحَقِيقَته النورانيَّة) ويَصِفَه غَيرهُم.

ومن الطَّبيعيِّ أنَّ هٰذا الوُجُود الأعظَم، المستَمَدُّ من مَنْبع الحقِّ الفيَّاض جَلَّت آلاؤه، يَفِيض - بِدَوْره - ويترشَّح مَا فيه، فمما فيه: قِمَّة الكَرَم والجود، مَنْحٌ من ابْتِدَاء وإفضَالٌ بلَا سُؤَال. كَما المصْبَاح، لَا يُمكِن لَه إذا أضَاءَ إلَّا أن يُبدِّد الظَّلَام، وللشَّمْسِ إذا أشرَقَت وتجلَّت إلَّا أن تُزيحَ الليلَ وتَأتي بالنَّهار، فكَيف بكَوكَب ومصبَاح ﴿فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۝﴾ (النور)؟... كَذلك «آل محمَّد» ﷺ، يفيضُون على الوُجُود ويَتَرشَّحُ منهُم العَطَاء، غَير مَجذُوذ ولَا ممنُوع، وذلك عن طَريق عَالَـمَي الحسِّ والشُّهُود، ثم الغَيْب والمعنى، كُلُّ عَالَـم بِحَسَبِه ووَفْقَ قَانونه وسِعَته، ففي عَالَـم الأسبَاب غير الحِسِّيَّة وطَريق الغَيْبِ الذي يجول ويَستَوْعب آفاقاً لَا تحدُّهَا مَادَّة ولَا يُقيِّدهَا مكَان، يتلقَّى مِنهُم مَن يَعيش في «الصِّين» مِثْلَما يَفْعَل مَن هُو في «المدِينَة المنوَّرة»، بَل مَن كَان من سُكَّان السَّماوات والكَواكِب والنُّجُوم، كَالذي هُو من أهْل الأرضِ وبَشَرِها، بل الحيوَان والنَّبات والجماد، يتلقُّون الفَيْض نَفْسَه، إنَّما تَفَاوتَت الأوْعية، فاْختَلَف المتلقى.

وهكذا الفَيْضُ من طَريق الحسّ والتَّلَقِّي في عَالَم الشُّهُود، يَكُون هُو الآخَر محكُوماً بقَوَانينه وضَوَابطِه، التي تَحجُب أو تحدُّ الفَيْض من حَيث المانع والمقتَضي في المتَلَقِّي، لَا من حَيْث الجود والقُدْرة في المعْطِي، فَالماديَّات محكُومَة بعَنَاصِرهَا، وكَثَافَة وُجودِهَا، وغِلظَتهَا، وبالتَّالي عُسْر سَرَيَان الفَيضِ فيهَا، فيكُون للقُرب المكَاني والتَّجَاوُر والتَّحَاذِي دوْره وأثره، فَلَا يحظىٰ البَعيد بما يَنَاله القَريب.

إنَّ وُجُودَهم المطْلَق ونُورَهم الخَالِص الشَّريف هُو إكسِير الكَوْن ونَامُوس الحيَاة وسرُّها المسْتَسِر، وعِلَّتهَا الفَاعليَّة، بل كُلُّ العِلَل، الذي عَمَّ نَوَالُه وسَرت بَركَتُه وغَمَرَ خَيْره فَنَزل الغَيْث واستَقَرَّت الأرض، ومنه تُفْرَز الحقائق ويُبيَّن الكَذِب، كَما يُصْرَف الزَّمَانُ الكَلِب، وبه يشفىٰ المريضُ ويُجبر المهِيضُ ومَا تَزدَادُ الأرحَام ومَا تَغيض... وهُو مَا يُعرَف بالوِلَايَة التكْوينيَّة، فعَظَمة وُجُودِهم تَنعَكِسُ وتَسري فتَظهَر وتَتَجلَّى في مَا نَرىٰ ونَشْهَد من هذا العَالَم! فَالله سُبحَانه وتَعَالىٰ أعطىٰ «بهم» كُلَّ شَيءٍ خَلْقه، ثمَّ هَدَىٰ.

وهكذا تَنزُّلهم مِن "الأنوَار"، وتحيُّزهُم ونَشأتهم في أبدَان وأجسَام بَشريَّة، لَه فيْضُه وعَطَاؤُه من الخَيْر والرَّحْمة والبركَة والشِّفَاء والمعَافَاة... يَرشَحُ من أبدَانهم الشَّريفَة إلىٰ كُلِّ مَا بَاشَروه ومَسُّوه من أرضٍ وحَجَرٍ ومَدَر وأثاثٍ ومَتَاع وثيَاب، ويَسري في الفضَاءِ الذي يحيط بهِم والأجْوَاء التي تَلفُّهُم وتكتَنِفهُم، وكُلِّ مَا انتَسَب إليهم وأُلحِق بهم بِأيِّ نَحْو. فالدَّار التي تُوقَف لهم، وتُؤسَّس علىٰ اسمهم تكْتَسِب الفَيض منهُم، والمكَان الذِي تُذكَر فيه فضَائلُهُم ومَدائحُهُم، وتُعَدَّد ظُلَامَاتهم ومَصَائبهم، يَغدُو طَريقاً حِسِّيّاً لتَنزُّل رحمتهم ونَوَالهم، والطَّعَام الذي يُصنَع بأسمِهم ولمنَاسبَاتهم، ويُقَدَّم لِضُيوف محَافِلِهم، تَحُلُّ فيه البركَة، ويَسري الطِّبُّ والدَوَاء والشِّفَاء.

ولَا أُريد التفصِيل في أيَادِيهم عليهم السلام علىٰ الخلْق وفَضْلِهم علىٰ الوُجُود، أي مَا كَان من وِلَايتِهم التكْوِينيَّة، ثم مَفهُوم التبرُّك بالمحْسُوسَات، أن يخرجنَا عن مَوْضُوع بَحْثِنا الأصلي ويَأخُذنا عَنه إلىٰ غَيره، وإن شَرُف واستَحَقَّ... لِذَا سَأُوجز الأمر وأختَصِره بشَاهِد وتمثيل، هُو مَا جَرىٰ وكَان من الدَّابة التي كَان يَعتَليهَا «جبريل» عليه السلام، لَما تمثَّل ونَزَل إلىٰ الأرض يَوْمَ فَلَقَ الله البَحْر لـ «مُوسىٰ» عليه السلام وأغرَقَ «فِرعَون» وجنُوده.

وكَانَ «السَّامِريُّ» علىٰ مقدِّمة «مُوسىٰ»، فنظَر إلىٰ «جبريل»، وكَان علىٰ حَيوان في صُورَة "رمَكَة"، وكَانت كُلَّما وَضَعَت حَافِرَها علىٰ مَوْضع من الأرضِ يتَحرَّك ذلك المَوْضع ويهتزُّ، ذلك من رتبَة الوُجُود ودَرَجَة الحيَاة ومَدَىٰ الكَمال، فكَأنَّ التَّفَاوُت والبَوْنَ والتفَوُّق يُوجِبُ سَرَيَان الفَيْض عِندَ التَّماس، فينْحَدِر من الأعلىٰ إلىٰ الأسفَل عِند الاتِّصَال، فهذا الموجُود الذي تمثَّل علىٰ الأرضِ دَابة وظَهَر في "صُورة رَمَكَة"، هُو في مَرتَبة وُجُوديَّة تتَفوَّق علىٰ الأرضِ وتَسْمُو علىٰ عَالم الدُّنيا، فكَان من الطَّبيعِيِّ أن يَفِيضَ الحيَاة ويَبعَثهَا في الأدنىٰ والأسفَل لـمَّا يَباشِره ويَمسُّه، فكَان الجمادُ (التُّراب الذِي تَطأه الرَّمكَة) يتَحرَّك وكَأن رُوحاً بُثَّت فيه ونُفِخَت!

لَاحَظَ ذلك «السَّامِريُّ» وعَرف السرَّ، وكَان من خِيَار أصحَاب «مُوسىٰ» عليه السلام، فَأخَذَ حَفْنَة من تُراب دَاسَه حَافِر رَمَكَة «جِبريل» عليه السلام (﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ (طه))، التَقَطَه وكَان يتَحرَّك، فَصَرَّه في صُرَّة، ونَبذَهَا أي احتَفَظَ بها.

فَلما جَاءَهُم «إبليس» واتخذُوا العِجْل، قَالَ لـ «السَّامِريِّ»: هَاتِ التُّرابَ الذي مَعَك!

فَجَاءَ به «السَّامِريُّ»، فألقَاه «إبلِيس» في جَوْفِ العِجْل، فلَما وَقَعَ التُّرابُ في جَوْفه، تحرَّك الصَّنَم وخَارَ التِّمثَال، ونَبَتَ عَلَيه الشَّعرُ والوَبَر، فقَد أدركَتْهُ ـ في الحقِيقَة ـ دَرَجةٌ من الحيَاة، وانبثَّت فيه "بعْضُ" أو شَيءٌ من الرُّوح، من أثر تِلك "القَبضَة"!... فسَجَدَ لَه سَبعُون ألفاً من «بني إسرائيل»، وكَانت الفِتنَة.(١)

إنه قَانونٌ طَبيعي، نُدرِك مَا نَرىٰ ونَشْهَد ومَا نحُسُّ منه، ويَغيبُ عَنَّا مَا طَواه الغَيب.

إنَّ مَقَام ودَرَجَة الوُجُود والحيَاة والقُدْرة والـمُكْنة و "الوِلَاية الإلهية" التي يتَمتَّع بها «أهلُ البيْت» عليهم السلام، هي التي خَلَعَت علىٰ «جِبريل» الوُجُود وألبَسته حُلَّة أمانة الوَحْي وحرَاسَة العَرش، فَسرىٰ منه (لما نَزَلَ الأرضَ وتمثَّل) إلىٰ دَابتِه، وسَرىٰ من حَافِرِها إلىٰ التُّراب!... فكَيفَ بمَن أو بما يَنتَسِب إلىٰ مَنبَع الوُجُود وأصلِ الجود «آل محمَّد» عليهم السلام؟

---

(١) أنظر: (تفسير القمِّي) لـ «عليّ بن إبراهيم» ج٢ ص٦٢.

إنَّ أيَّ ضَرْب من ضُروب الأقتران والأتصَال بهِم، وإن لم يَكُن مُبَاشِراً لأبدَانهِم أو مَا مَسَّهَا وأتصَلَ بها، يُورث البركَة ويَنْشُر الرَّحمة، ككِتَابة أحَادِيثهِم في مَوْضع، والإتيَان علىٰ ذِكْرهِم في فَضَاء، وإطْلَاق أسمائِهم علىٰ الأشيَاء، من أمَاكِن ومَحافِل، سيُفضي إلىٰ تكْوين مَسرَب حِسِّيٍّ للبركَة، وصُنْع مركَز مَادِّيٍّ لِترشُّح الخَيْر ونَشْر الرَّحمة.

ومن ذلك، الدُور والمبَاني التي تُوقَف بأسْم «الحسَين» عليه السلام أو البيُوت التي يُقَامُ فيهَا مَأتمه، تَنْصَبُّ فيهَا الرَّحمة وتَتَعَلَّق بها البركَة، بأثاثهَا ومَتَاعِهَا وأرضِهَا وسَقْفِهَا وجُدْرانها... ومنه الطَّعَام الذي يُوَزَّعُ في الحسَينيَّات، يُعدُّ ويُصنَع ويُقَدَّم بأسم «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، تحُلُّ فيه البركَة لِعُنوَانه الأقدَس، ويَقْترِنُ به الخَير لمنَاسَبته العظمىٰ، ويكُون فيه الطِّبُّ والدَّوَاء والشِّفَاء لِرَمزِه وأقترانه بالإكسِير الأعظَم، الذي قِيلَ في «أبيه»:

قُل لِمَن وَالىٰ «عليَّ» المرتضىٰ ... نِلْتَ في الخُلْدِ رفِيعَ الدَّرَجَات
أيُّهَا المُذنِبُ إن لُذْتَ به ... لَا تخَافَنَّ عَظِيمَ السَّيِّئَات
حُبُّه الإكسِير لَوْ ذُرَّ علىٰ ... رِمَم حَلَّتْ بهَا رُوحُ الحيَاة
وإذا شَمَلَتْ ألطَافُه ... سَيِّئَاتِ الخلْق صَارت حَسَنَات

وليسَ هذا إغْرَاقاً ومُبَالَغة، ولَا هُو تَطرُّفٌ وغُلُو، بَل هُو من مقتضىٰ الأمر، وشَأن القَضِيَّة، تَرَاهُ في القَضَايا الصِّنَاعِيَّة كَالدَّوَاء النَّاجِع والطِّبِّ الحَاذِق، الذي قَد يَرقىٰ إلىٰ الطَّبيعيَّة فيكُون من طَبيعَة الشَّيء، فَالنَّارُ طَبعُهَا الإحْرَاق، والماءُ فيه الإروَاء، والصَّلَابة قِوَام الحجَر، والرِّقة لَازِم الحرِير... أُمورٌ لَا تَنفَكُّ، وتَبِعَاتٌ تِلقَائيَّة، وتَوالٍ تَراتُبيَّة. هكذا ومن هُنا، ووَفقَ هذا القَانون تَسْري "البركَة" في الطَّعام الذي أُعِدَّ علىٰ ذِكْرِهِم، وصُنِعَ بيُمْن أسمائِهِم، يحمِلُ السرَّ ويخلِّفُ الأثر.

ولَا أُريد الإثبَات والأستِدْلَال التَّامَّ علىٰ هذا، فَلَعلَّه (في كُبراه) مُسَلَّمة عَقْليَّة وبَدِيهة فَلسَفِيَّة، ولكن دَعْني أنقُل لكَ قِصَّة ذكَرَهَا «الميرزا النُّورِي» في (جَنَّة المأوىٰ) و(النَّجْم الثَّاقِب)، وقَالَ عَنهَا إنه لَوْ لم يكُن في هذا الكِتَاب سِوىٰ هذه القِصَّة المُتقَنة الصَّحِيحة، الحَاوِيَة علىٰ فَوَائد جمَّة، الحادِثَة في عَصْرنا، لكَفَاهُ الله شَرفاً ونَفَساً، ثمَّ قَال:

نقَلَ «الحاجُّ عَليِّ البغْدَادِي» أيَّده الله قَائلاً:

اَجتَمَع في ذِمَّتي ثَـمانُون تُومَاناً من مَالِ «الإمَام» ﷺ، فَذَهَبْتُ إلىٰ «النَّجَفِ الأشرف» فأعْطَيْتُ عِشرين تُومَاناً منه لجنَاب عَلَم الهـدىٰ والتقىٰ «الشَّيخ مُـرتضىٰ» (١) أعلىٰ الله مَقَامَه، وعشْرين تُـومَاناً إلىٰ جَنَاب «الشِّيخ محمَّد حسَين المجتَهِد الكَاظِمِي» (٢) وعشـرين تُومَاناً لجنَاب «الشَّيخ محمَّد حَسَن الشُّروقي». (٣)

---

(١) لَا بَـأس بُنيَّ أن تَقِفَ شيئاً علىٰ ترجمة هٰؤلاء الأفذَاذ، لتَعرِف كَيف تُقَيِّم العُلَماء وتميِّزهُم فتُعَظِّمهُم، ثم تقارِنهم بصَنَائع الإعلَام والحكَّام من أدْعيَاء المرجعِية في عَصرنَا!

«الشيخ مُرتضىٰ الأنصَاري» "الأعْظَم"، صَاحِب (الرَّسَائل) و(المكَاسِب). وُلدَ سنة ١٢١٤ في «دزفول» وأخذَ الدروس الأوليَّة في الفِقْه والأُصُول عن عَمِّه «الشَّيخ حسَين»، حتىٰ نالَ مَرتبة سَامية. وسَافَر مع «وَالدِه» إلىٰ «كَربلَاء» وحَضَر عندَ «السيِّد محمَّد المجَاهِد» (صَاحِب (مفَاتيح الأُصول)) و«شَريف العُلماء» («شيخ محمد شريف المازندراني») أربعَة أعوَام، ثم رجَع إلىٰ بلَده وبقِي هناكَ سَنتَين وعَادَ إلىٰ «كَربَلَاء» واْستَفَادَ من «الشريف»، وعـزَم علىٰ دَرس «الشيخ مـوسىٰ كَاشِف الغِطَاء» في «النَّجَف»، ثم عَـادَ إلىٰ وَطَـنه، وجَالَ في البلدَان، وفي «كَاشَان» أخَذ عن «النَّرَاقي» سَنَواتٍ وأجَازَه، ثم زار مَشهَد «الرِّضَا» ﷺ وعَادَ إلىٰ مَسقَط رأسه، واْجتَمَع عندَه أهْل الفَضْل واْستَفَادُوا من عِلْمِه وبعدَ مُـدَّة غَـادَر وَطَنه لمجَاوَرة مَرقَـد «أميرالمؤمنين» ﷺ واْستَفَاضَ من مجلِس بَحثِ «الشيخ علي كَاشِف الغِطَاء» وحَضر دَرسَ «صَاحِب الجوَاهِر» تَبَركاً واْحتراماً، ثم اْستَقَلَّ بالتدريس، وبعد وَفَاة «صَاحِب الجوَاهِر» صَارَ الزَّعيم الـدِّيني للطَائفَة، والمدرِّس الأول في الحوْزة العلميَّة، وتخرَّجَ علَيه من العُلَماء والطلَّاب من يَبلغ عَـدَدُهُم المئات، منهُـم «الميرزا محمَّد حَسَن الشيرازي» و«الميرزا محمَّد حَسَن الآشتِيَاني» و«أبوالقَاسم كَلانتر» و«حَسَن النجْم آبادي» و«الميرزا حَبيب الله الرشتي» و«الآخوند الملَّا حَسَن قُلي الهمَداني» و«الشيخ عبدالحسين التُّستَري» و«الميرزا محمَّد حُسَين النُّوري» و«الشيخ محمَّد حَسَن المامقَاني» و«الفَاضِل الشربياني» و«الآخوند الملَّا كَاظِم الخراسَاني» قَدَّس الله تعالىٰ أسرارهُم.

(٢) وُلد بـ «الكَاظميَّة» سنة ١٢٢٤ وتُوفي لَيلَة ١١ من المحرَّم سَنة ١٣٠٨ في «النَّجَف الأشرف» ودُفن في الصَّحن الشريف في حُجْرة «السيِّد جَواد» صَاحِب (مفتَاح الكَرامَة) من الجهَة القِبليَّة. الشيخ العَالم الفَقِيه الزَّاهِد المشهُور الحَال، اْنتهَت إليه رئاسَة الإماميَّة في بلَادِ العَرَب، وقَلَّده كَافة العَرَب، ووَصَلَت إليه الأموَال الكَثيرة، وكَان يَـبسطُهَا في الفُقَرَاء، ولَا يَتَنَاوَل منهَا أزيَد مما يحتَاجه علىٰ وَجْه الاْقتِصَاد، ولم يخلِّف بعَد وَفاته داراً ولَا عقَاراً. تخـرَّج علىٰ يَدِه كَثيرٌ من الفُقَهَاء، وكَان من عُبَّاد زَمَانه وزُهَّادِهم، خَشِناً في ذات الله، قَليل النظير، سَهَل المؤونة، سريع الإعَانة والإجَابة، كَثير الاْهتِمام بأُمور الطائفَة، ولَا سيَّما حَمَلَة العِلم.

(٣) الشيخ «محمَّد حَسَن الشروقي» المحْتِد والمولد، النَّجَفي المنشَأ والمدفَن تُوفي في «النَّجَف» ٧ ربيع الأول سنة ١٢٧٧ ودُفنَ في الصَّحن الشَّريف في الحجْرة الملَاصِقَة لِبَابِ المسْجِد المسَمَّى بـ «مَسجد الخضْراء» من الجهَة الشرقية، وكَان يُصلي فيه جماعَة. و«الشُّروقي» نِسبَة إلىٰ بلَاد «العِراق» الشَّرقيَّة يقَال لأهلِهَا «الشُّروقيَّة». كَان عَالماً فَاضِلاً نَقياً زاهِداً فَقيهاً تَفقَّه علىٰ «صَاحِب الجواهِر» وصَاهَره علىٰ إحْدَىٰ بناته، وأخَذَ عن جماعَة من عُلماءِ «النَّجَف» وأخَذَ عنه جَماعَة. أعقَب «الشيخ محمَّد» و«الشيخ أحمد» و«الشيخ محمد علي» و«الشيخ محمد رضَا» و«الشيخ جَعفَر »وهو أصغرهم، أُمه «بنت صَاحِب الجوَاهِر».

وبَقِيَ في ذِمَّتي عِشْرون تُوماناً كَان في قَصدِي أن أُعطِيهَا إلىٰ جَنَاب «الشيخ محمَّد حَسَن الكَاظِمَيني آل يَاسين» (١) أيدَه الله عِندَ رُجُوعي. فَعِندَمَا رَجعْتُ إلىٰ «بغداد» كُنتُ رَاغِباً في التَّعجِيل بأدَاء مَا بَقِي في ذِمَّتي، فتَشرَّفتُ في يَوْم الخَمِيس بزِيَارة الإمَامَين الهمَامَيْن «الكَاظِمَيْن» ، وبَعدَ ذَلك ذَهَبتُ إلىٰ خِدْمَة جَنَاب «الشَّيخ» سَلَّمَه الله، وأعْطَيْته مِقدَاراً من العِشرين تُومَاناً، ووَاعَدْتُه بأني سَوْفَ أُعطي البَاقي بَعدَمَا أبيع بَعض الأشيَاء تَدْريجيّاً، وأن يُجيزَني أن أوصِّله إلىٰ أهْلِه. وعَزمْتُ علىٰ الرُّجُوع إلىٰ «بغدَاد» في عَصْر ذلك اليَوْم، وطَلَبَ جَنَاب «الشَّيخ» منِّي أن أتأخَّر، فأعتَذَرْتُ بأنَّ عَليَّ أن أُوفي عُمَّال النَّسيج أجُورَهُم، فإنه كَانَ من المرسُوم أن أسَلِّم أُجْرة الأسبُوع عَصْر الخَمِيس. فرجَعتُ، وبَعدَ أن قَطَعْتُ ثُلُث الطَّريق تَقريباً، رَأيتُ سَيِّداً جَليلاً قَادِماً من «بَغدَاد» من أمَامي، فعندَمَا قَرُبَ مِنِّي سَلَّم عَليَّ وأخَذَ بيَدِي مُصَافِحاً ومُعَانِقاً وقَال: أهْلاً وسَهْلاً وضَمَّني إلىٰ صَدْرِه وعَانقَني وقَبَّلَني وقَبَّلتُه. وكَانَ علىٰ رَأسِه عِمامَة خَضْراء مُضِيئة مُزْهِرة وفي خَدِّه المبَارَك خَالٌ أسوَد كَبير، فوَقَف وقَال: «حَاج عَلي» علىٰ خَير، أينَ تَذْهَب؟

قُلتُ: زُرْتُ «الكَاظِمَيْن» وأرجع إلىٰ «بغداد».

قَال: هذه الليلَة لَيلَة الجمُعَة فأرْجع.

(١) ترجمته في (أعيان الشيعة) لـ «السيد محسن الأمين» ج٩ ص١٧١: تُوفي في رجَب سَنَة ١٣٠٨ بـ «الكَاظميَّة» ونَقَلَ نَعْشَه حفيدُه «الشيخ عبدالحسين» إلىٰ «النَّجَف» ودفَنه في مقبرتهم التي في دَارِهم المعرَوفة. عَالم جَليل، فَقيه متَبحِّر، ثِقَة وَرع، أنمُوذَج السَّلَف، حَسَنُ التَّحْرير، جيِّد التَّقرِير، متَضَلِّع في الفِقه والأُصول، خَبيرٌ بالحديث والرِّجَال. كَان المرجع لأهْل «بَغدَاد» ونَوَاحيهَا وأكثر البِلَاد في التَّقلِيد، أنتهَت إليه الرئاسَة الدينيَّة في «العِرَاق» بعد وَفَاة «الشَّيخ مُرتضىٰ الأنصَاري»، قَرأ (المطوَّل) علىٰ «الشَّيخ عبدالنبي الكَاظمي» نَزيل «جَبل عَامِل» (صَاحِب تَكْمِلة نَقْد الرِّجَال)، وكَان من تَلَاميذ «صَاحِب الجوَاهر» و«صَاحِب الفُصُول». لَه: (رسَالَة في الطهَارة والصَّلَاة والصَّوْم) و(رسَالَة في حُقُوق الوَالدين) و(ترتيب مجالِس في عَزَاء «الحسَين» كَان يَقرأها في عَشرة «عَاشُوراء» و(تعليقَات علىٰ رَسَائل الشَّيخ مُرتضىٰ) وغَير ذلك. وكَانَ «الشَّيخ جَعفَر الشُوشْتَري» شَريكه في الدَّرس ومن أخصِّ إخوَانه، سَافرَ مَعه إلىٰ «شُوشتر» في سَنة الطَّاعُون سنة ١٢٦٤، وكَان مبتلىٰ بفَقد الأوْلَاد الكِبَار، مَات وَلَده الأرشَد الكَامِل «الشَّيخ عَلي» سَنة ١٢٨٨ بعدَ وَفَاة وَلَده «الشَّيخ جَعفَر» الذي كَان من تَلَاميذ «الشَّيخ مُرتضىٰ»، ومَاتَ بعد زَمَان قَليل من وَفَاة «الشيخ علي» وَلَده الآخَر «الشيخ بَاقر» وَالد «الشيخ عبدالحسين» القَائم مقَام جَدِّه، ثم مَاتَ حَفيده «الشَّيخ محمَّد حُسين» ثم «الشَّيخ تَقي» أبنا «الشيخ علي» ثم «الشَّيخ عبدالله» أبن «الشيخ بَاقر»، ولم يُعرَف منه إلَّا الرِّضَا والتَّسلِيم.

قُلتُ: لَا يَا سَيِّدِي لَا أتمكَّن.

فَقَـال: في وُسعِك ذلك، فأرجَع حتـىٰ أشهَـدَ لَكَ بـأنكَ من مَـوَالي جَـدِّي «أميرالمـؤمنين» عليه السلام ومن مَوالينَا، ويَشْهَـد لكَ «الشَّيخ» كَـذلك، فقَد قَالَ تَعَـالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ﴾ (البقرة).

وكَـانَ ذلك منه إشَـارة إلىٰ مَطلَبٍ كَان في ذِهْني، أنْ ألتَمِسَ من جَنَاب «الشَّخ» أن يَكتُبَ لي شَهَادَة بأني من مَوَالي «أهل البيْت» عليهم السلام لأضَعهَا في كَفَني.

فقُلتُ: أيُّ شَيءٍ تَعْرِفه، وكَيفَ تَشْهَدُ لي؟

قَال: مَن يُوصَل حَقُّه إلَيه، كَيفَ لَا يعْرِف مَن أوْصَلَه؟

قُلتُ: أيُّ حقٍّ؟

قَالَ: ذلك الذَّي أوْصَلَه إلىٰ وكيلي.

قُلتُ: مَن هُو وكيلُك.

قَال: «الشَّيخ محمَّد حَسَن»!

قُلتُ: وكيلُك؟

قَال: وكيلي.

وكَـانَ قَد قَـال لجنَـاب «الآقَا السيِّد محمَّد». وكَان قَد خَطَر في ذِهني أنَّ هـٰذا «السيِّد» الجَليل يَدْعُوني بٱسمي مَع أني لَا أعرِفُه؟ فقُلتُ في نفسي لَعلَّه يَعرفني وأنا نَسيته. ثُم قُلتُ في نَفْسي أيضـاً: إنَّ هـٰذا «السَّيِّد» يُريدُ منِّي شَيئاً من حَقِّ السَّادَة، وأحَببتُ أن أُوصِل إلَيه شَيئاً من مَال «الإمَام» عليه السلام الَّذي عِندِي.

فَقُلتُ: يَـا «سيِّد»، بَقيَ عِندِي شَيءٌ من حَـقِّـكُم فَرَجَعتُ في أمرِه إلىٰ جَنَـاب «الشيخ محمَّد حَسَن» لأُؤدِّي حَـقَّكُم، يعني السَّادَات، بإذنه.

فـتَبَـسَّم في وَجْـهِي وقَـال: نَـعَم، قَـد أوْصَلْـتَ بَعضـاً من حَـقِّنَـا إلىٰ وُكَلَائِـنا في «النَّجَف الأشرف».

فَقُلتُ: هَل قُبِلَ الذِي أدَّيته؟

فقَالَ: نَعَم.

خَطَـرَ في ذِهْني أنَّ هـٰذا «السَّيِّـد» يقُول بـالنِّسْبَـة إلـىٰ العُلَماء الأعلام "وكَلَائنا"، فاستَعْظَمتُ ذلك، فَقُلتُ: العُلَماء وكَلَاءٌ في قَبضِ حُقُوق السَّادَات، وغَفَلْت.

ثُمَّ قَال: ارجع زُرْ «جَدِّي».

فرَجَعْتُ وكَانت يَدُه اليمنىٰ بيَدِي اليُسْرىٰ، فعِندَمَا سِرنا رَأيتُ في جَانبنَا الأيمَن نَهراً مَاؤُه أبيَض صَافٍ جَارٍ، وأشجَارَ الليمُون والنَّارنج والرُّمَّان والعِنَبَ وغَيرها، كُلُّها مُثْمِرة في وَقْتٍ وَاحِد، مَع أنه لم يكُن مَوْسِمَها، وقَد تَدَلَّت فَوْقَ رُؤوسِنا!

قُلتُ: مَا هـٰذا النَّهر ومَا هـٰذه الأشجَار؟

قَالَ: إنَّها تكُون مَع كُلِّ مَن يَزُورنا ويَزُور «جَدَّنا» من مَوَالينَا.

فقُلتُ: أُريدُ أن أسألك؟

قَالَ: اسْأل.

قُلتُ: كَان «الشَّيخ المرحُوم عَبدالرَّزَّاق» رَجُلاً مُدَرِّساً فذَهبْتُ عِندَه يَوْماً فسَمِعتُه يقُول: لَو أنَّ أحَداً كَان عُمره كُلُّه صَائماً نَهارَه، قَائماً لَيلَه، وحَجَّ أربَعين حِجَّـة، وأربَعين عُمْره، ومَاتَ بين «الصَّفَا» و«المروَة» ولم يكُن من مَوَالي «أميرالمؤمنين» عليه السلام فلَيسَ لَه شَيء؟

قَالَ: نَعَم والله، لَيْسَ لَه شَيء.

فسَألتُه عَن بَعض أقربَائي هَل هُو مِن مَوَالي «أميرالمؤمنين» عليه السلام؟

قَالَ: نَعَم، هُوَ وكُلُّ مَن يَرتَبط بِك.

فقُلتُ: «سَيِّدنا»! لي مَسْألة.

قَال: اسأل.

قُلتُ: يَقرأُ قُرَّاءُ تَعزيَة «الحسَين» عليه السلام أنَّ «سُلَيمان الأعْمَش» جَاءَ عِندَ شَخْصٍ وسَأله عن زيَارة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام فقَال: بِدْعَة. فَرَأىٰ في المنَام هَوْدَجاً بين الأرضِ والسَّماء، فَسَأل: مَن في الهوْدَج؟ فَقِيلَ لَهُ: «فَاطِمَة الزَّهْرَاء» و«خَدِيجة الكُبرىٰ» عليهما السلام، فقَال: إلىٰ أين تذهَبَان؟ فَقِيلَ: إلىٰ زيَارة «الحسَين» عليه السلام في هـٰذه اللَّيلَة، فهِي لَيلَة الجمُعَة. ورَأىٰ رِقَاعاً تَتَسَاقَطُ من الهوْدَج مَكْتُوبٌ فيهَا: "أمَانٌ من النَّار لِزُوَّار«الحسَيْن» عليه السلام في لَيْلَة الجمُعَة، أمَانٌ من النَّار يَوْمَ القِيَامَة"، فَهَل هـٰذا الحدِيثُ صَحِيح؟

قَالَ: نَعَم، صَحِيحٌ وتَام.

قُلتُ: «سَيِّدنا» يَقُولُون من زَارَ «الحسَين» عليه السلام لَيلَة الجمُعَة فَهِيَ لَه أمَان.

قَالَ: نَعَم والله (وجَرَت الدُّمُوعُ من عَيْنَيْه المباركَتَيْن وبكىٰ).

قُلتُ: «سَيِّدنا» مَسْأَلة.

قَالَ: ٱسْأَل.

قُلتُ: زُرنَا «الإمَام الرِّضَا» عليه السلام سَنة تِسْع وستِّين ومئتَيْن وألف (١٢٦٩)، وألتَقَيْنَا بأحَدِ الأعْرَاب «الشُّرُوقيين»، من سُكَان البَادِيَة، في الجهَة الشَّرقيَّة من «النَّجَفِ الأشْرَف»، في «دُرُود» وٱستَضَفْنَاه، وسَألنَاهُ كَيفَ هِي وِلَاية «الرِّضَا» عليه السلام؟

قَالَ: الجنَّة. ولي خمسَة عَشَر يَوماً آكل من مَالِ مَوْلَاي «الإمام الرِّضَا» عليه السلام، فكَيفَ يَجْرُؤ «مُنْكَر» و«نَكِير» أن يَدْنيا منِّي في قَبْري، وقَد نَبَتَ لحمِي ودَمِي من طَعَامِه عليه السلام في مَضِيفِهِ؟ فهَل هذا صَحِيح، أنَّ «عَليَّ بن مُوسىٰ الرِّضَا» عليه السلام يَأتي ويخلِّصه من «مُنْكَر» و«نَكِير»؟

فَقَال: نَعَم والله، إنَّ «جَدِّي» هُوَ الضَّامِن.

قُلتُ: «سَيِّدنا» أُرِيدُ أن أسألكَ مَسْألة صَغِيرة؟

قَال: ٱسأل.

قُلتُ: وهَل زِيَارتي لـ «الإمَام الرِّضَا» عليه السلام مَقبُولَة؟

قَالَ: مَقبُولَة إن شَاءَ الله.

قُلتُ: «سَيِّدنا» مَسْألة؟

قَالَ: بِسْم الله.

قُلتُ: إنَّ الحاج «محمَّد حُسَين القَزاز» (بزَّاز بَاشي) ٱبن المرحُوم «الحاج أحمد القَّزاز» (بزَّاز بَاشي)، هَل زِيَارته مَقْبُولَة أم لَا (وقَد كَان رَفيقَنا في السَّفَر، وشَريكَنا في الصَّرف في طَريق مَشْهَد «الرِّضَا» عليه السلام؟

قَال: العَبد الصَّالح زيَارته مَقْبولَة.

قُلتُ: «سَيِّدنا» مَسْألة؟

قَالَ: بِسم الله.

قُلتُ: أنَّ فُلَاناً من أهْل «بغْدَاد» ـ وكَانَ رَفيقَنا في السَّفَر ـ هَل زِيَارته مَقْبُولَة؟ فَسَكَت.

قُلتُ: سَيِّدنَا مَسْأَلَة؟ قَال: بِسْم الله.

قُلْتُ: هَل سَمِعتَ هذه الكَلِمَة أم لَا؟ فَهَل إنَّ زِيَارته مَقبُولَة أم لَا؟ فَلَم يُجبني.

ونَقَلَ الحَاج المذْكُور، أنه كَانَ ذَلك الشَّخْص وعِدَّة نَفَرٍ من أهْل «بغدَاد» المترفين، قَد أنشَغَلُوا في السَّفَر باللَّهْو واللَّعِب، وكَانَ ذلك الشَّخْص قَد قَتَل أُمَّه!

فَوَصَلْنا في الطَّرِيق إلىٰ مكَان وَاسِع، علىٰ طَرَفَيْه بَسَاتين، مُقَابِل بلْدَة «الكَاظِمَيْن» الشَّرِيفَة، وكَانَ مَوْضعٌ من ذلك الطَّرِيق متَّصِلاً ببَسَاتين من جِهتِه اليمنىٰ لمن يَأتي من «بَغدَاد»، وهُو مُلك لِبعضِ الأيتَام السَّادَة، وقَد أدخَلَتْه الحكُومَة ظُلماً في الطَّرِيق، وكَان أهْل التَّقْوَىٰ والوَرَع من سَكَنَة هَاتَيْن البَلْدَتين يجتَنِبُونَ دَائماً المرُورَ من تِلكَ القِطْعَة من الأرض. ورَأيته عليه السلام يَمشي في تِلك القِطْعَة.

فقُلتُ: يَا سَيِّدِي! هذا المَوْضع مُلكٌ لبَعضِ الأيتَام السَّادَة، ولَا يَنبَغي التَّصرُّف فيه.

قَالَ: هذا الموْضِع مُلكُ جَدِّنا «أميرالمؤمنين» عليه السلام وذُرِّيته وأوْلَادنَا، ويحلُّ لموَالينَا التَّصرُّف فيه. وكَان في القُرْبِ مِن ذلك المكَان علىٰ الجهَة اليُسرىٰ بُستَانٌ مُلكٌ لشَخْصٍ يُقَالُ لَه «الحاج الميرَزا هَادِي» وهُو من أغنِيَاء العَجَم المعرُوفين، وكَانَ يسكن في «بغداد».

قُلتُ: سَيِّدنَا، هَل صَحِيح مَا يُقَال بَأنَّ أرضَ بُستَان «الحَاج الميرزا هَادِي» مُلكُ «الإمَام مُوسىٰ بن جَعفَر» عليه السلام؟

قَالَ: مَا شَأنك بهذا؟ وأعرَضَ عن الجوَاب.[1]

---

(١) تأمَّل بُنيَّ وتَدبَّر في هذا الموْقف والذي سَبَقَه، عِندَ السُّؤَال عن قبُول زِيَارة الرَّجُل المُتْرَف، علىٰ الرُّغم من أنه كَان من أهْل اللَّهْو، بَل قَاتلاً لأُمِّه... لم يُجبه «الإمام» عليه السلام وكأنَّه يثقُل عَلَيه رَفض زِيَارة حتىٰ مِثل هذا المجرِم! وهكذا الحال هُنا، حِين أعرَض عليه السلام عن الجوَاب، وأمرَ بترك الفضُول، مَنْعاً من هَتكِ المؤمن، وحِرْصاً علىٰ سُمعته ومَاءِ وَجهه أن يُراق! وهُنَاك نقطَة سَبَقَت أردتُكَ أن تَقِفَ عَليهَا، هي رَفضُ «الإمَام» السَّير في الطَّريق "السُّلطَاني" حَال التَّوَجُّه للزيَارة، ولَعلَّها إشَارة تحذير من الدُّخُول في السُّلطة والانتِسَاب للأنظِمَة والحكُومَات، فذَلك ضَرْبٌ من التَّخلِّي والتَّفْريط بعَقْد الوَلَاء، وتَرك الوَفَاء للسَّادَة الوُلَاة الحقيقيين، فـ "طَرِيق" الزِّيَارة وإقَامَة العَزَاء، وكُلِّ عِبادَة، يجب أن يَتَنزَّه عن هذا اللَّوْث والخوْض.

فوَصَلْنا إلىٰ سَاقِيَة مَاءٍ فُرِّعَت من شَطِّ «دِجْلَة» للمَزَارع والبَسَاتين في تِلك المنطَقَة، وهي تمرُّ في ذلك الطَّرِيق، وعندَهَا يتَشعَّبُ الطَّريق إلىٰ فَرْعَيْن بٱتجاه البَلْدَة، أحَدُ الطَّريقَيْن "سُلْطَاني" (أي حُكُومي)، والآخَر طَرِيق السَّادَة، فٱخْتَارَ عليه السلام طَريقَ السَّادَة.

فقُلتُ: تَعَالَ من هٰذا الطَّرِيق، يَعني الطَّرِيق السُّلْطَاني.

قَال: لَا، نَذهَبُ من طَرِيقِنا.

فمَا خَطَوْنا إلَّا عِدَّة خُطُوات، فوَجَدْنا أنفُسَنَا في الصَّحْنِ المقَدَّس، عِند مَوْضع خَلْع الأحْذِيَة، من دُون أن نَمُرَّ بزُقَاقٍ ولَا سُوق!

فَدَخَلْنَا الإيوَان من جِهَة "بابِ المرَاد"، التي هي الجهَة الشَّرقيَّة مما يَلي الرِّجْل.

ولم يَمكُث عليه السلام في الرُّوَاق المطَهَّر ولم يَقْرَأ إذن الدُّخُول، ودَخَلَ ووَقَفَ علىٰ بَابِ الحَرَم، فَقَال: زُر.

قُلتُ: إني لَا أعرِفُ القِراءَة.

قَال: أقْرَأ لَك؟

قُلتُ: نَعَم.

فَقَال: أأدخُلُ يَالله، السَّلَامُ عَلَيكَ يَا «رَسُولَ الله» السَّلَامُ عَلَيكَ يَا «أميرالمؤمنين»، وهٰكذا سَلَّمَ علىٰ كُلِّ «إمَام» من «الأئمَة» عليهم السلام، حتىٰ بلَغَ في السَّلَامِ إلىٰ «الإمَام العَسْكَرِيِّ» عليه السلام، وقَال: السَّلَامُ عَلَيكَ يا «أبا مُحمَّد الحسَن العَسْكَري»...

ثُم قَال: تَعرِف «إمَام زَمانِك»؟

قُلتُ: وكَيفَ لَا أعرِفُه؟

قَال: سَلِّم علىٰ «إمام زَمَانِك».

فقُلتُ: السَّلَامُ عَلَيكَ يَا «حُجَّة الله» يَا «صَاحِبَ الزَّمَان» يَا «ٱبنَ الحسَن».

فَتَبَسَّمَ وقَال: عَلَيكَ السَّلَامُ ورَحمةُ الله وبركَاته!

فدَخَلْنا في الحرَم المطَهَّر وٱنكَببنَا علىٰ الضَّرِيح المقدَّس، وقَبَّلنَاه. فقَال لي: زُر.

قُلتُ: لَا أعرِف القِراءَة.

قَال: أقرأُ لكَ الزِّيَارة؟

قُلتُ: نَعَم.

قَال: أيَّ زيَارة تُريد؟

قُلتُ: زَوِّرني بأفضَل الزِّيَارَات.

قَال: زِيَارَة "أمين الله" هي الأفضَل. ثُم أخَذَ بالقِرَاءَة وقَال: السَّلَامُ عَلَيكُما يَا أمينَي الله في أرْضِه، وحُجَّتَيْه على عِبَادِه... إلخ.

وأُضيئَت في هذه الأثنَاء مَصَابيحُ الحرَم، فَرأيتُ الشُّمُوعَ مَضَاءَة، ولكن الحرَم مُضَاءٌ ومُنَوَّر بنُور آخَرَ مِثل نُور الشَّمْسِ! والشُّمُوع تُضيء مِثْل المصْبَاح في النَّهَار في الشَّمْس.

وكُنتُ قَد أخَذَتْني الغَفْلَة بحَيْث لم أنتَبِه إلى هذه الآيات.

فعِندَمَا انتهى من الزِّيَارة، جَاءَ إلى الجهَة التي تَلي الرِّجْل، فوَقَفَ في الجانِب الشَّرقي، خَلْفَ الرأس، وقَال: هَل تَزُور جَدِّي «الحسَيْن» عليه السلام؟

قُلتُ: نَعَم أزُور، فهذه لَيلَة الجمُعَة.

فقَرأ "زيَارَة وَارِث"، وقَد فَرَغَ المؤذنُون من أذَانِ المغْرِب، فَقَالَ لي: صَلِّ والتَحِق بالجماعَة. فَجَاء إلى المسْجِد الذِي يَقَع خَلْفَ الحرَم المطَهَّر وكَانت الجماعَة قَد انعَقَدَت هُنَاك، ووَقَفَ هُو منفرِداً في الجانِب الأيمَن لإمَامِ الجماعَة مُحَاذِياً لَه. ودَخَلتُ أنا في الصَّفِّ الأوَّل حَيثُ وَجَدْتُ مَكَاناً لي هُنَاك.

فعندَمَا انتَهَيْتُ لم أجِدْه، فَخَرَجْتُ من المسْجِدِ وفَتَّشْتُ في الحرَمَ فَلَم أرَه. وكَانَ قَصْدِي أن أُلَاقِيه وأعطِيه عِدَّة "قِرَانَات" وأستَضِيفَه في تِلك اللَّيلَة.

ثُمَّ جَاءَ بذِهْنِي: مَن يَكُونُ هذا السيِّد؟! وانتَبَهْتُ لِلآيات والمعْجِزَات المتَقَدِّمَة، ومن انقِيَادِي لأمرِه في الرُّجُوع، مَع مَا كَانَ لي مِن الشُّغْل المهِمِّ في «بغدَاد»، وتَسْمِيته لي باسمِي، مَعَ أني لم أكُن قَد رَأيته مِن قَبْل، وقَوْله "مَوَالِينَا"، وإني أشْهَدُ، ورُؤيَة النَّهْر الجَارِي والأشجَار المثْمِرَة في غَيْر المؤسِم، وغَيْر ذلك مما تَقَدَّم، مما كَانَ سَبَباً لِيَقِيني بأنه «الإمَام المهدِيِّ» عليه السلام، وبالخصُوص في فَقْرة إذْنِ الدُّخُول، وسُؤَاله لي بَعدَ السَّلَام على «الإمَام العَسكَريِّ» عليه السلام: هَل تَعْرِف «إمَام زَمَانِك»؟ فَعِندَمَا قُلتُ: أعْرِفه، قَالَ: سَلِّم، فعِندَمَا سَلَّمتُ، تَبَسَّمَ ورَدَّ السَّلَام!

فَجِئْتُ عِندَ حَافِظِ الأحْذِيَة (الكيشْوَانيَّة) وسَألتُ عَنه، فقَال: خَرَج...

وسَألَني: هَل كَان هـٰذا «السيِّد» رَفيقك؟ قُلتُ: نَعَم.

فجِئتُ إلىٰ بَيْتِ مُضِيفي وقَضَيْتُ اللَّيلَة، فعِندَمَا صَارَ الصَّبَاح ذَهَبْتُ إلىٰ جَنَاب «الشَّيخ محمَّد حَسَن» ونقَلْتُ لَه كُلَّ مَا رَأيت، فَوَضَعَ يَـدَه علىٰ فَمِي، ونهَاني عَن إظهَارِ هـٰذه القِصَّة و إفْشَاءِ هـٰذا السِّر، وقَال: وَفَّقَكَ الله تَعَالىٰ.

فأخْفَيتُ ذَلك ولم أظْهِره لأحَـد، إلىٰ أن مضىٰ شَهْرٌ من هـٰذه القَضِيَّـة، فكُنتُ يَوماً في الحرَم المطَهَّر، فَرَأيتُ سَيِّداً جَليلاً قَد ٱقتَرَبَ مِنِّي وسَألَني: مَاذا رَأيت؟ وأشَارَ إلىٰ قِصَّة ذلك اليَوْم! قُلتُ: لم أرَ شَيئاً.

فأعَادَ عَليَّ ذلك الكَلَام وأنكَرتُ بِشِدَّة. فٱختفىٰ عَن نَظَري ولم أرَه بَعدَ ذلك.[1]

والشَّاهِد الذِي يتَعَلَّق بمَوْضوعنَا بُنيَّ، هُو الفَقْرة التي جَاء فيهَا أنَّ تَنَاوُل الطَّعَام من مضيف «الإمام الرِّضا» عليه السلام، يَقِي من العَذَاب، بَلْ مِن الحِسَاب، حتىٰ إنَّ «مُنكَراً» و«نكيراً» لَن يَدْنَيا مِن قَبْر المؤمن!

فَلِماذا لَا يَكُون في الطَّعَام الذِي يَتَنَاوَله المؤمِنُونَ في الحسَينيَّات وفي المجَالِس المقَامَة في عَزَاءِ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام والمنسُوبَة إليه نَفْس هـٰذه الخصُوصيَّـة، فَالملَاك وَاحِد؟! ولَا يخفىٰ أنَّ "المال" الذِي جَاءَ في الحِكَاية مَنسُوباً إلىٰ «الإمَام الرِّضا» عليه السلام، وأنَّ المؤمن قَد تَنَاوَل مِن "مَال «الإمَام»" خَمسَة عَشر يَوْماً، هُو المال الذي جَاءَ وصُرِفَ في "المضِيف" من رَيْع أوقَاف «الإمَام» أو مِن تَقْدِمات زُوَّارِه ونذُورَاتهم، وهُو كَذلك في الحسَينيَّات، مَا يَنتَهِي إلىٰ ٱعتِبَاره ونسْبَتِه إلىٰ «الإمَام» عليه السلام أيضاً.

---

(١) فكَأنها إشَارَة الإذْن علىٰ البوْح ونَقْل المشاهَدَة.

ٱنظر: «النَّجْم الثَّاقِب» لـ «المحدِّث النُّوري» تَرجمة «السيِّد يَاسِين الموسَوِي» ج٢، ص١٥٠-١٦٣.

وقَال «المؤلِّف» في ذَيل رِوَايته القِصَّة: إنَّ «الحَاج عَلي» المذكُور، هو ٱبن «الحَاج قَاسِم الكَرَّادي البَغْدَادي»، من التُّجَّار العَوَام. وكلُّ مَن سَألتُه من عُلماءِ وسَادَات «الكَاظِمِيَّة» و«بغدَاد» المعظِّمين عن حَالِه، مَدَحُوه بالخَيْر والصَّلَاح والصِّدْق والأمَانَة، وٱجتِنَاب عَادَات أهْل زَمَانه السَّيِّئَة. وقَد شَاهَدْتُ آثارَ هـٰذه الأوْصَاف فيه عِندَ رُؤيَتي لهُ وتكَلُّمي مَعَه. وكَان يَتَأسَّف أثناء كَلَامِه علىٰ عَدَم مَعْرِفَته عليه السلام بشَكْل تَظْهَر فِيه آثارُ الصِّدْق والإخْلَاص والحُب، فهَنِيئاً لَه.

نَعَم، هُنَاكَ أمرٌ خَفِيٌّ أو هُو دَقِيق، قَد يَنتَهِي إلىٰ فَرْقٍ جَوْهَرِي، يَعُودُ في صِدْق عُنوَان المجْلِس والمحْفِل ونسْبَتِه إلىٰ «الإمَام» عليه السلام.

فَالحرَم هُو حَرَم «عَليّ بن مُوسىٰ الرِّضَا» عليه السلام، والمضِيفُ مَضِيفُه، بِلَا أدْنىٰ شَكٍّ ولَا أقَلِّ شَائِبَة، لَا يُنْسَب إلىٰ غَيْره، ولَا يُشَارِكه فِيه أحَد، ولَا يُخَالِط البَذْلَ والإطعَامَ هُنَاك شَيء! كَانَ الأمرُ كَذَلك في مُختَلِف العُهُود وعلىٰ مَرِّ العُصُور، وفي ظِلِّ شَتَّى الحكُومَات مِن «قَاجَارِيَّة» و«صَفَوِيَّة» و«بهلَوِيَّة» إلىٰ «جمهُورِيَّة»، لَا شَأن للحُكَّام والسَّلَاطِين بهذا المكَان الأقدَس، ولَا دَخْلَ للحكُومَات. والضَّيفُ هُنَاك هُو ضَيْفُ «الرِّضَا»، والطَّعَام يُقَدَّم لَه ويُصرَف عَلَيه من مَالِ «الرِّضَا»، لَا يُنَازِعه أحَدٌ ولَا يُشَارِكه.

أمَا الأمر في الحسَينيَّات والمجَالِس فَيَخْتَلِف، فقَد تُنْسَب الحسَينيَّات إلىٰ البُلدَان والمدُنِ والأحْيَاء، أو الفِئَات والقِطَاعَات المهَنِيَّة والشَّرَائح الأجْتِماعيَّة، ثُمَّ العَشَائِر فَالعَوَائل، ثُمَّ الأشْخَاص القَائِمِينَ عَلَيهَا، وقَد تَتْبَع أحزَاباً ومُنَظَّماتٍ وجمعيَّاتٍ وجَماعَات، تَتَفَاوَت في إخْلَاصِهَا ونَقَائهَا وفي فِكْرِهَا وعلْمِهَا.

علىٰ قَدْر مَا يَخْتَلِطُ الأمر ويتَدَاخَل، فيدَنُو ويَقْرُب، أو يَنأىٰ ويبتَعِد عن الأنتِسَاب إلىٰ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وهكذا بِمقْدَار مَا تَتَنَزَّه الحسَينيَّة ويخلُص المجْلِس من الرِّيَاءِ والسُّمعَة وأسبَاب الشِّرك وعَنَاوِين الشُّهْرة ومَا إلىٰ ذَلك مِن الآفَات الرُّوحيَّة والأمرَاضِ الأخْلَاقِيَّة، فَيلتَزِم المجْلِسُ أو يَحِيد عَن جَادَّة الصَّوَاب... بِمِقْدَار مَا يكُونُ للطَّعَام المقَدَّم هُنَاك أثره وفِعْلُه، سَوَاء في الأروَاح أو الأبدَان، أو في الآثَار الوَضْعِيَّة التي يحتَجِبُ بها الآكِل عَن الحِسَاب وعَذَاب الآخِرَة.

خَلُص هُنَاكَ ـ في المضِيف ـ وصَحَّت النِّسْبَة إلىٰ «الإمَام عَليِّ بن مُوسىٰ الرِّضَا» عليه السلام، فَتَبِعَ الأثرُ وتَحقَّق جَوَابُ الشَّرْط، وأمضَاهُ «الإمَام المهدِيُّ» عليه السلام وأقرَّه، فإذا كَان الأمرُ في الحسَينيَّة كَما هُوَ في المضِيف، وَقَعَ الأثرُ وتَبِعَت النَّتِيجَة كَذَلك، فالمؤمنُ المعزِّي إذَا أمضىٰ عَشَرَة «عَاشُورَاء» ومَا بَعدَهَا وهُو يَتَنَاوَل من "مَالِ «الإمَام»"، حتىٰ يَنْبُت لحمُه وعَظْمُه من ذلك الطَّعَام، فكَيفَ عسىٰ النَّار أن تَقْرُب بَدَنه؟ بَل كَيف لِـ «مُنكَرٍ» و«نكِيرٍ» أن يَدْنَيا مِن قَبْره، والله مَا هُما إلَّا «مُبشِّرٌ» و«بَشِير»؟

مِن هُنَا، تَنَبَّه بُنيَّ وقِفْ علىٰ خَطَر الدَّوْر الذي تَضْطَلِع بِه وٱعْرِف مَا يُمكِنك أن تُقَدِّم لإخوَانكَ وتَفْعَل لمذْهَبك عَن هذا الطَّرِيق. إنَّ بإمكَانك أن تُحسِن عَمَلَك فتَضْبِطه وَفْق المعَايِير العَقَائديَّة، والأحْكَام الشَّرْعيَّة، والأُصُولِ الأخْلَاقِيَّة، فتُجِيد ذلك وتُتْقِنه، ثُم تُخلِص فِيه، وتَتَألَّق فَتبلُغ إنكَار ذاتِك، والانْقِطَاع إلىٰ الله، فيتَنَزَّه المجْلِس... حتىٰ يَتَمَحَّضَ في نِسْبتِه إلىٰ «المولىٰ» عليه السلام، لِيَرقىٰ ويَسْمُو بدَوْرِه ويتَألَّق، أو هُو يَدخُل بمُجرَّد تحقُّق صِدْق النِّسْبَة، فيكُون للطَّعَام المقَدَّم فيه ذاكَ الأثَر العَظِيم والثَّمَرة الخطِيرة. مَا يَفْتَح لكَ بَاباً وَاسِعاً عَرِيضاً من الفَضْل علىٰ المؤمِنين المعزِّين والإحْسَان إلىٰ إخْوَانك، أوْ هُو ـ في الحقِيقَة ـ أدَاءٌ لحقِّهِم ووَاجِبهِم عَلَيك، ووَفَاءٌ بالأمَانَة وعمَلٌ بالرِّسَالَة التي التزَمتَهَا، واستِحْقَاقٌ وأهْلِيَّة للمُهِمَّة التي نَهَضْتَ بها.

إنَّ للغذَاءِ أثراً لَا يُنكَر، وتَبِعَاتٍ لَا تَتَخَلَّف... والتبرُّك بطَعَام الحسَينيَّة، بَابٌ عَظِيمٌ للرَّبطِ علىٰ قُلُوب المؤمِنين، وتَطهِيرِ أروَاحِهِم، ولعَمْرِي، فهُوَ من السُّبُل الخفِيَّة للإبقَاءِ علىٰ عَقْدِ الوَلَاء، ومَنْع الدُّخُول في مَن تَوَجَّه إليهِمُ الخِطَاب يَوْمَ «عَاشُوراء» حِينَ أحَاطُوا بـ «سَيِّدِ الشُّهَدَاء» عليه السلام مِن كُلِّ جَانِب، فخَرَجَ عليه السلام حتىٰ أتىٰ النَّاسَ فاستَنْصَتَهُم، فَأبوْا أن يُنصِتُوا حتىٰ قَالَ لهم: "وَيلَكُم مَا عَلَيكُم أن تُنصِتُوا إليَّ فتَسَمَعوا قَوْلي، وإنمَا أدعُوكُم إلىٰ سَبيلِ الرَّشَاد، فَمَن أطَاعَني كَانَ من المرْشَدِين، ومَن عَصَاني كَانَ من المهْلَكِين ، وكُلُّكُم عَاصٍ لأمْرِي، غَير مُستَمِع قَوْلي، فَقَد مُلِئَت بُطُونُكُم من الحرَام، وطُبِعَ علىٰ قُلُوبكُم، ويلَكُم ألَا تُنْصِتُون؟ ألَا تَسْمَعُون؟ ".[١]

فَمِن بين الأغذِيَة المحَرَّمة والملوَّثَة التي يَتَنَاوَلها المؤمنُون، تَدْخُل أجْوَافَهُم وتملأ بُطُونَهم من الحرَام أو الشُّبهَة، فَتُصِمَّ الآذان وتَطْبَعَ علىٰ القُلُوب، تَأتي الحسَينيَّات وتَقُوم بدَوْر مُطَهِّر الأروَاح ومُدَاوِي الجِرَاح الذِي يحدُّ من خَطِير آثَارِ تِلك الأطعِمَة ويَستَدْرِك عَظِيم أضْرَارِهَا، ويكُون مَا يَتَنَاوَله المؤمن علىٰ مَائِدَة «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام رَحمةً وبركَةً، وشفَاءً ودَوَاءً لَه من الأسقَام الجِسْمِيَّة، والآفَاتِ الرُّوحِيَّة.

---

(١) «العَوالم، «الإمَام الحسَين»» لـ «الشيخ عبدالله البَحْرَاني» ص٢٥٢.

الثَّالِث: الإكرَام...

بَعدَ عُنْوَانيٍّ ومَدْخَليٍّ تَقدِيم الطَّعَام في المآتِم والحسَينيَّات، أي التَّفَرُّغ للعَزَاءِ، والتَّبرُّك بالزَّادِ، يَأتي عُنوَان الإكْرَام واستِحْبَاب الإطْعَام مُطْلَقاً.

وفيه رِوَايَاتٌ شَرِيفَة أدْرَجَتِ الإطْعَامَ في مَنْزِلَة صَلَاةِ اللَّيْل وجَعَلَته من "المنْجِيَات"، فَعَن «أبي عبدالله الصَّادِق» عليه السلام قَال: "المنْجِيَاتُ: إطعَامُ الطَّعَام، وإفشَاءُ السَّلَام، والصَّلَاةُ باللَّيل والنَّاسُ نِيَام".(١)

وعَدَّته من أعْظَم القُرُبات، كَما رَوَىٰ «عَليُّ بن بَابوِيه» عن «الكَاظِم» عليه السلام: "مَا شَيءٌ يُتَقرَّبُ به إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ أحَبَّ إليْه من إطعَام الطَّعَام، وإرَاقَة الدِّمَاء".(٢)

وعَن «عَليِّ بن الحسَين» عليه السلام: "مَن أطْعَمَ مُؤمناً أطْعَمَه الله من ثِمار الجنَّة".(٣)

وعَن «حَنَّان بن سَدِير» عن «أبيه» عن «أبي جَعفَر» عليه السلام: "تَعْتِقُ كُلَّ يَوْم نَسَمَة؟ قُلتُ: لَا. قَال: كُلَّ شَهْر؟ قُلتُ: لَا. قَال: كُلَّ سَنَة؟ قُلتُ: لَا. قَال: سُبحَانَ الله، أمَا تَأخُذ بِيَدِ وَاحِدٍ من شِيعَتِنَا، فتُدْخِلُه إلىٰ بَيتِك، فَتُطْعِمه شَبعَه؟ فَوَالله لَذَلك أفضَلُ من عِتْق رَقَبة من وُلدِ «إسماعِيل»".(٤)

وعَن «حُسَين الصَّحَّاف»، قَالَ: قَالَ «أبو عَبدِالله» عليه السلام: أتحبُّ إخْوَانَك يَا «حُسَين»؟ قُلتُ: نَعَم. قَال: وتَنْفَعُ فُقَراءَهُم؟ قُلْتُ: نَعَم. قَالَ: أمَا إنَّه يَحِقُّ عَلَيكَ أن تُحِبَّ مَن أحَبَّ الله، أمَا إنَّكَ لَا تَنفَعُ منْهُم أحَداً حتىٰ تحبَّه. أتدْعُوهُم إلىٰ مَنزِلك؟ قُلْتُ: مَا آكُل إلَّا ومَعَي مِنهُم الرَّجُلَان والثَّلَاثَة والأقَلُّ والأكثر. فَقَالَ «أبو عَبْدِالله» عليه السلام: أمَا إنَّ فَضْلَهُم عَلَيكَ أعْظَمُ من فَضلِكَ عَلَيهِم. فقُلتُ: جُعِلتُ فِدَاك، أُطعِمهُم طَعَامي، وأوطِئهُم رَحْلي، ويَكُون فَضْلُهم عَليَّ أعظَم؟ قَال: نَعَم. إنَّهم إذا دَخَلُوا مَنْزِلك دَخَلُوا بمَغفِرتكَ ومَغْفِرَة عِيَالك، وإذا خَرَجُوا من مَنزِلك خَرَجُوا بذُنوبِكَ وذُنوبِ عِيَالك.(٥)

(١) «الكَافي» لـ «الكُليني» ج٤، ص٥١.
(٢) «فقه الرِّضَا» ص٣٦٢.
(٣) «المحَاسِن» لـ «البرقي» ص٣٩٣.
(٤) «المصدَر السَّابق».
(٥) «المصدَر السَّابق».

وأستِحْبَابُ الإطْعَام لَا يتَوَقَّف علىٰ بَذْلِه للفَقِير المحْتَاج، بَل يتَحَقَّق بإطْعَام الغَنِيِّ المؤسِر أيضاً، فَفِي الحدِيثِ عَن «جَعفَر بن محمَّد» عليه السلام، أنه قَال لِبَعضِ أصحَابه: " مَا يَمنَعْك أن تَعْتِقَ كُلَّ يَوْم رَقَبَة؟ قَال: لَا يحتَمِلُ ذلك مَالي جُعِلتُ فِدَاك. قَال: تُطعِم كُلَّ يَوْمٍ رَجُلاً مِنَّا. قَال: مُوسِراً كَانَ أو مُعْسِراً؟ قَال: إنَّ الموسرَ قَد يَشْتَهِي الطَّعَام، وكَان «أبي» يَقول: لئن أُطعِم عَشَرة من المؤمنِين، أحَبُّ إليَّ مِن أن أعتِقَ عَشْر رِقَاب.[١]

إنَّ الإطعَام بُنيَّ من أعْظَم الفَضَائل وأشرَف المنَاقِب، وهُو عُنوَان الاَحْتِفَاءِ بالضَّيْفِ وإكْرَامِه، الذِي جَاءَ فِيه:

عَن «رَسُولِ الله» صلى الله عليه وآله، أنه قَال : "مَن كَانَ يُؤمن بالله واليَوْم الآخِر فَليُكرِم ضَيْفَه".

وعَنه صلى الله عليه وآله : " مَن لم يُكْرِم ضَيْفَه ، فَلَيْسَ من «محمَّد» ولَا من «إبراهِيم» ".[٢]

وبإسْنَادِه إلىٰ «عَبدِالله بن مَسْعُود»، عَن «رَسُولِ الله» صلى الله عليه وآله، أنـه رَأىٰ علىٰ البَابِ الرَّابع من الجنَّة مكْتُوباً: "لَا إله إلَّا الله، «محمَّدٌ» رَسُولُ الله، «عَليٌّ» وَليُّ الله، مَن كَان يُؤمن بالله واليَوْمِ الآخِر فَليُكرِم ضَيْفَه ".[٣]

وعَن «عليِّ بن الحسَين» و«محمَّد بن عَلي» عليهما السلام، أنهما ذَكَرا وَصِيَّة «عَليٍّ» عليه السلام عِنـدَ وَفَاته، وفيهَا: "الله الله في أبن السَّبيل، فَلَا يَستَوْحِش من عَشِيرته بمَكَانِكُم، والله الله في الضَّيْف، لَا ينْصَرِفَنَّ إلَا شَاكراً لَكُم ".[٤]

وعَن «أميرالمؤمنين» عليه السلام أنه قَال: " أكْرِم ضَيْفَك وإن كَانَ حَقِيراً ".[٥]

فكَيفَ بِكَ بُنيَّ أن تَصْنَع بالضَّيفِ إذا كَان نَجيباً شَرِيفاً، بَل كَانَ أكْرَم النَّاس وأشْرفهَم؟ ثمَّ كَيفَ بِكَ إذا لم يَكُن الضَّيفُ ضَيفَك، بَل ضَيْفَ «سَيِّدِ الشُّهَدَاءِ» عليه السلام، وقَد تَصَدَّيتَ لِوَاجِب ضِيَافته، وأنبرَيْتَ لِدَوْر مُضِيفه؟

(١) (دَعَائم الإسْلَام) لـ «القَاضِي النُّعمان المغْرِبي» ج٢ ص١٠٦.
(٢) أنظُر: (مُستَدْرَك الوَسَائل) لـ «الميرزا النُّورِي» ج١٦ ص٢٥٦.
(٣) (الرَّوضَة في فَضَائل «أميرالمؤمنين عليه السلام») لـ «شَاذان بن جبريل القُمِّي» ص١٥٣.
(٤) (دَعَائم الإسْلَام) لـ «القَاضِي النُّعمان المغْربي» ج٢ ص٣٥٢.
(٥) (غُرر الحِكَم) لـ «الآمِدِي» ج١ ص١٤٤.

عِندَهَا عَلَيكَ أن تَتَفَانىٰ في إكْرَامِه وخِدْمَتِه، حتىٰ يَكُون الإطْعَام والإشْبَاع أقَلَّ مَا تُقَدِّم وتَبْذِل، ويَكُون ذَلك كُلُّه علىٰ أحْسَن وَجْهٍ وأكمَل كَيْف...

عَلَيكَ بُنيَّ أن تُظْهِرَ الٱنبِسَاط والسُّرُور، لَا علىٰ نَحْوٍ يُخلُّ بهَيئَة العَزَاء وأجْوَاء المأتم، إنَّما هُو حُسْن ٱستِقْبَال تُلحِقه ببَشَاشَة وحَدِيث (في غَير عَشرة «عَاشُورَاء» وأيام المصَائِب)، يَنْفِي ٱنزِعَاجَك أو تَعَبكَ ومَا يُشْعِره بتَجَشُّمِكَ العَنَاء وتحمُّلكَ المشَاقَّ في سَبِيلِه، وعَلَيكَ أن تخدِمَه بِنَفسِكَ، لَا تَستَأجِر خَادِماً، بَل أنتَ وأبنَاؤكَ ومَن مَعَك من أهْل وأصْحَاب تَقُومُونَ علىٰ أُمورِ ضِيَافَتِه وخِدْمَتِه، وتَذْهَب في هـٰذا إلىٰ مَا جَاءَ في الأثرِ من ٱستِحْبَاب صَبِّ الماءِ علىٰ يَدِه، وإصْلَاح نَعْلِه، وتَشْيِيعِه إلىٰ البَاب، وفي السُّنَّة النَّبَوِيَّة "أخْذُ الركَاب للركُوب"، ولَعلَّ مَا يُقَابِلُه في زَمَانِنَا إعْدَاد أمَاكِن لِوُقُوف المركَبَات، وتَنْظِيم حَركَة السَّيْر حَوْل الحُسَينيَّة بِما يُحقِّق الرَّاحَة ويَنْفِي عَنه الأذىٰ والٱنزعَاج، ويَكُون به تَمام الإكْرَام، ويَنبَغي أن يَرجع الضَّيفُ فَرِحاً، من الرِّضَا بِما قدَّمتَ لَه، طَيِّب النَّفْس، مُثْنِياً شَاكِراً، وإن قَصَّرت في حَقِّه، أو صَدَرَ من ذَوِيك مَا يخَالِفُ أدَبَ الضِّيَافَة والإكْرَام، فَعَلَيكَ أن تَعْتَذِرَ إليه، وأن تَطْلُب مِنه العَفْو والسَّماح علىٰ أيه حَال، إشْعَاراً لَه بِعِظَم شَأنِه وأنَّ مَا قَدَّمْتَ لَه من ضِيَافَة وإكْرَام دُون ٱستِحْقَاقِه.

إنَّما ذكَرتُ الإطْعَام، وأردْتُ الأعَمَّ منه، فَالسَّقْي وتَقْدِيم الشَّرَاب كَذَلك، مَاءً كَانَ أو غَيره، من أعظَم وأخطَر الشَّعَائر الحسَينيَّة، ولَعَلَّه يَنْفرِد بالعُنوَان مُسْتَقِلَّاً عن أُصول الضِّيَافَة، لَا مُلْحَقاً بها وتَابعاً لها، فَمِن السُّنَن القَدِيمَة، حَمْل السِّقَاءِ وتَقدِيم الماء، علىٰ الخصُوص حَيث يَعِزُّ ويَطِيب، وفي أجْوَاءِ الحرِّ والعَطَش.

ونَاهِيكَ بالأحَادِيث التي جَاءَت في ٱستِحْبَاب السَّقْي، ثُمَّ دُخُوله في عُنوَان الإطْعَام والشَّعَائر الحسَينيَّة، فَإنَّ للسَّقي دَلَالَة خَاصَّة ومَوْقعاً مُتَميِّزاً في نَشَاط الحُسَينيَّات وحَركتها، يَنطَلِق من ٱقْتِرَان مُصِيبَة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام بالعَطَش وحِرمَانه شُربَ الماء. لِذَا تَرىٰ الشِّيعَة يَلتَزِمُونَ هـٰذه الشَّعِيرَة ويَتَسَابقُونَ علىٰ النُّهُوضِ بِهَا، وعُنوَانهُم وهتَافُهُم الذِي يُكَرِّرُونَه وهُم يُسقُونَ العُطَاشىٰ ويُنَاوِلُونَهم أقدَاحَ الماء أو الشراب: "ٱشرب وزيد، والعَن «يزيد»"، بالعَاميَّة، يُرِيدُون ٱشرب و"زِدْ".

أمَا أحَادِيث «المعْصُومين» عليهم السلام فكَثِيرة، منهَا مَا رُوِيَ عن «رَسُولِ الله» صلى الله عليه وآله، أنه قَال: "مِن أفضَل الأعمَال إبرَاد الكَبِد الحرّىٰ" يَعني سَقْي الماء.(١) وعَن «أبي عَلْقَمَة» مَولىٰ «بني هَاشِم»، قَالَ: صَلَّى بنَا «رَسُولُ الله» صلى الله عليه وآله الصُّبح، ثُمَّ التَفتَ إليْنَا فقَال: "معَاشِرَ أصْحَابي، رَأيتُ البَارِحَة عَمِّي «حمزَة بن عَبدِالمطَّلِب»، وأخِي «جَعفَر بن أبي طَالِب»، وبين أيديهما طبَقٌ من نَبِق، فأكَلَا سَاعَة، فتَحوَّل لهما النَبِقُ عِنباً، فأكَلَا سَاعَة فتَحوَّل العِنبُ رُطَباً، فدَنَوْتُ منهُما فقُلْتُ: بِأبي أنتُما، أيُّ الأعمَال أفضَل؟ فقَالَا: وَجَدْنا أفضَلَ الأعْمَال: الصَّلَاةَ عَلَيكَ، وسَقْيَ المَاءِ، وحُبَّ «عَليِّ بن أبي طَالِب» عليه السلام".(٢) وعَنه صلى الله عليه وآله أنه قَال: "خَمسٌ مَن أتىٰ الله بِهِنَّ أو بِوَاحِدَة منهُنَّ، وَجَبَتْ لَه الجَنَّة: من سقىٰ هَامَة صَادِية، أو حَمَل قَدَماً حَافِيَة، أو أطعَم كَبِداً جَائعَة، أو كَسَا جِلْدَة عَارِيَة، أو أعتَقَ رقَبَة عَانيَة".(٣) وعن «جَعفَر بن محمَّد» عليهما السلام، أنه قَال: "مَا مِن مُؤمن يُطعِمُ مؤمناً شَبْعَة من طَعَام، إلَّا أطْعَمَه الله من ثمار الجنَّة، ولَا يَسقِيه رَيَّة إلَّا سَقَاه اللهُ من الرَّحِيقِ المخْتُوم".(٤) وعن «رَسُول الله» صلى الله عليه وآله، أنَّ أعْرَابيّاً سَأله فقَال: يَا «رَسُولَ الله»، عَلِّمني عَمَلاً أدخُل به الجنَّة. قَال: "أطْعِم الطَّعَام، وأفشِ السَّلَام، وصَلِّ والنَّاسُ نِيَام". قَال: لَا أُطِيقُ ذلك. قَال: "فَهَل لكَ إبِلٌ؟" قَالَ: نَعَم. قَال: "فانْظُر بَعِيراً منهَا فاسْقِ عَلَيه أهلَ بيْتٍ لَا يَشْرَبُونَ الماءَ إلَّا غَبّاً، فإنك لَعَلَّك لَا يَنْفُق بَعِيرُك ولَا يتَخرَّق سِقَاؤك، حتىٰ تجِبَ لكَ الجَنَّة".(٥) وعن «عليِّ بن الحسَين» عليهما السلام، قَال: "من أطْعَمَ مُؤمناً من جُوع أطعَمَهُ اللهُ من ثمار الجنَّة، ومَن سقىٰ مُؤمناً من ظَمَأٍ سَقَاهُ الله من الرَّحِيق المخْتُوم، ومَن كَسَا مُؤمناً كَسَاهُ الله من الثِّيَاب الخُضْر" وقَالَ في آخِر الحدِيث: "لَا يَزَالُ في ضَمانِ الله مَا دَامَ عَلَيه سِلْكٌ" (أي خَيط مِنه، يُريد حتىٰ يبلىٰ).(٦)

(١) (الغَايَات) لـ «جَعفَر بن أحمد القُمِّي» ص٧١.
(٢) (المصدر السابق) ص٧٢.
(٣) (أعلَام الدِّين) لـ «الديلمي» ص٦٩٤.
(٤) (دَعَائم الإسْلَام) لـ «القاضي النعمان المغربي» ج٢ ص١٠٥.
(٥) (غُرَر الحِكَم) لـ «الآمدي» ج١ ص١٤٤.
(٦) (الأختِصَاص) لـ «الشَّيخ المفِيد» ص٢٩.

وبَعدَ الآدَابِ العَامَّة المشْهُورَة المعْرُوفَة التي بيَّنْتُ بَعضَهَا، هُنَاكَ أُخرىٰ خَاصَّة أو خَفِيَّة، عَلَيكَ مُرَاعَاتها في أمرِ الإطْعَام... فَلَا تَقَع في مَا يَفْعلُ بعضُ المؤمنين الموَالين، حِين يُقدِّمُون الطَّعَام ويَدْعُون النَّاس إليْه، مُنَادِين أنه "علىٰ رُوح «أبي عَبدِالله»"! وقَد لحظْتُ ذَلك كَظَاهِرة مُتَفَشِّيَة في «لُبنَان» و«الشَّام»، يتَوَهَّمون أنَّ «المَوْلىٰ» عليه‌السلام كَسَائِر "الأموَات"، تُهدَىٰ إلىٰ رُوحِه الخيْرات، ويَصِلْه أرحَامُه ومَعَارِفه ومحِبُّوه بالمبرَّات! وإن لم يَكُونوا علىٰ هـٰذا المعتَقَد، فإنَّ نِدَاءَهم يُوحي بهـٰذا المعنىٰ، وفي هـٰذا السِّيَاق، رأيتُ بعضَ المؤمنين في «الكُويت» يَقْرَأ الفَاتِحَة علىٰ رُوح «الإمَام المعصُوم» عليه‌السلام!

ولَا أُريد بُنيَّ أن أدخُلَ في إبطَال هـٰذا وإنكَارِه، والتَّشْكِيكِ في أهلِيَّة الهدِيَّة إن كَانت مَا تَيسَّرَ من القُرآن الكريم وتَنَاسُبهَا مَع شَأن «الأئمَّة» عليهم‌السلام، فهـٰذا مما لَا شَكَّ فيه ولَا رَيْب... ولكنَّي أُريدُ ضَرورة تمييز «الأئمَّة» عليهم‌السلام في تَعَامُلِنا معَهُم عَن سَائر النَّاس، كَما ميَّزَهُم الله سُبْحَانه واْختَصَّهُم، فحَقِيقَة «الإمَام المعْصُوم» والقُرآن الكَريم وَاحِدَة، ونُورُهُم وَاحِد، ذَاكَ صَامِتٌ مُدَوَّن، وهـٰذا نَاطِقٌ مُجَسَّد، وأروَاحُ «الأئمَّة» عليهم‌السلام تَدُورُ في أُفق لَيْسَ بَعْدَه رُقيٌّ وتكَامُل، وإنْ لم يَكُن الأمرُ كَذلك وكَانَ التَّكَامُل غَير مُتَنَاهٍ، وكَان لَا بُدَّ لهم - تَبَعاً لِذَلك - من زَادٍ، فَهُو - بلَا شَكٍّ - لَيْسَ من المبذُول عِندنا ومَا في وُسْعِنا تَقْدِيمه! لَقَد سَكَنَوا الحضْرة الأعلىٰ وأدركَوا الغَاية القُصْوَىٰ، وبَلَغوا المقَام الأرفَعَ والأوْفىٰ في القُرب من الله تَعَالىٰ، ومَا الإهدَاءَات "الصَّحِيحَة" التي نُقَدِّمهَا إليهم (كَالصَّلَوَات عَلَيهم)، إلَّا كَبَاقَة وَرْدٍ يقدِّمهَا بُستَانيٌّ إلىٰ صَاحِب البُستَان.

إنَّ طَبيعَة عَلَاقتنا بـ «أئمتنا» عليهم‌السلام، والنَّهْجَ الصَّحِيح في الاْتصَّال بهم، والطَّرِيق القَوِيم للتَّعَامُل والتَّعَاطِي معَهُم، وهو بَعدَ التَّسليم والطاعَة في التَّلقِّي، يكُونُ في المقَابل، أيْ مَا نُقَدِّمه نَحْنُ ومَا يَصدُر منَّا تجَاهَهُم، في مَا يَدُور حَوْل محوَرَي: زَيَارة مَراقِدهم، والتَّوسُّل بهم. فنَحنُ مَأمُورُون ومكَلَّفُون أن نَجْعَل طَبيعَة العِلَاقَة بهم وآليَّة التَّـوَاصُل مَعَهُـم في أقصىٰ حُـدُود التَّبجِيل والتَّعظِيم، والحذَر من أيِّ أداءٍ وُسلُوك يَبْخَسهُم مَنَازِلهم التي أنزلَهُم الله فيهَا، ويَحُطُّ، ولَو بدَرجة يَسِيرة، من مَقَامَاتهم... وعُمْدَة ذلك وأسَاسُه هو تمييزهُم، وعَدَم مُسَاوَاتهم بغَيرِهم من سَائر البَشَر.

ومَا يكُونُ مِنَّا علىٰ نَحْوِ "التقْدِمَة" مِن مَالٍ أو غَيْره، سَوَاء أكَانَ من منْطَلَق الوَاجِب الشَّرعيِّ الذِي يُفْرغ الذِّمَّة ويُسْقِط التكْلِيف كَالخُمس، والنُّذُور التي تُعقَد إليهِم وتُقدَّم بأسمائهم ﷺ، أو العَنَاوِين الأُخْرىٰ المستَحَبَّة... يجبُ أن يَكُون مَحْفُوفاً بالإكْبَار والتَّبْجِيل والتَّعظِيم، ولَا يَشْتَمِل أو يُشْعِر بأيِّ ٱنتِقَاص.

من هُنا فَإنَّ الإطْعَام بنِيَّة إهْدَائِهم ثَوَابه، أو تِلَاوَة الفَاتحة علىٰ أروَاحِهِم، ومَا إلىٰ ذلك من أعْمال يُشَارِكهمُ فِيهَا غَيرهُم من "أموَات" النَّاس... فيه مَا يُقرِنهم بالنَّاس، ويجعَلهُم سَوَاء في مَا نَصِل به سَائر مَوتىٰ المؤمِنِين والمؤمنَاتِ من الخيْرات، ويُظهِرهُم مُحتَاجِين مُفتَاقين. وإن كَانُوا في الوَاقع كَذلك، لكن لَسْنَا نحْنُ من يُلبِّي حَاجتَهُم، ولَا أعمالُنا وتَقْدِماتنا التي تُفرِّج كَربهُم وتجْبُر كَسْرهُم وتُغْني فَقْرهُم وتُسَكِّن رَوْعَتهُم! بل لهم مَعَ رَبِّهم حَالَاتٍ لَا تُطيقُهَا العُقُول، ولَسْنَا في أدنىٰ مَقَام مَعْرِفتَها وإدرَاكِهَا.

أمَا النِّيَابة عَن «المعْصُوم» في الحجِّ والزِّيارة وإهْدَاء الختْمات، ومَا إلىٰ ذلك ممَا نَراهُ عَادَة في سِيرة المؤمنين المتَشَرِّعين، فهُو لَا يَدْخُل في "الإسَاءَة" أو "الأنتِقَاص"، ولَا يكُون من بَاب قَرْنهم وقيَاسِهِم ومُسَاوَاتهم وإنزَالهم مَنْزِلَة سَائِر النَّاس، بَل هي تَقْدِمَاتٌ بِنِيَّة صِلَة «الإمام» والتَّقرُّب إليه، وجَعْلهَا شَفِيعاً لقَبُول بَقِيَّة أعْمال العَامِلين، ومَدْخَلاً لرِضَا «الإمَام» عَنهُم، وطَلَباً لجائِزته ورَدِّه عَلَيهِم، ولَا تَكُونُ علىٰ نَحْوِ رَجَاء الزِّيَادَة في مِيزَان حَسَنَات «الإمَام»! ولَا بنيَّة الإضَافَة في صَحِيفَة أعماله! ممَا لَا يَلِيق بقُدسِ سَاحَتِه ﷺ، ولَا يَنبَغي للمُؤمن أن يَقَعَ فيه.

حتىٰ الدُّعَاءَ لهم، هُوَ في حَقيقته لَنَا، بصَريح التَّوقيع الشَّريف الصَّادِر من النَّاحِيَة المقدَّسَة علىٰ مُشرِّفها آلاف التَّحِيَّة والسَّلَام: "وأكثِروا الدُّعَاءَ بتَعجِيل الفَرَج، فإنَّ (في) ذلك فَرَجكم".[1]

لِذَا، يَنبَغي أن تكُون نِيَّة البَذْل، ويكُون النِّدَاء علىٰ طَعَام الحسَينيَّة أن: تَبَاركُوا بطَعَام أُعِدَّ بٱسْم «سَيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ، أو هَلُمُّوا إلىٰ البركَة.

---

(١) «كَمال الدِّين وتمام النِّعمَة» لـ «الشيخ الصَّدُوق» ص٤٨٥.

الإدماء

أوّل مَا يَنبَغي التَنبُّه إليه، أو بالأحرىٰ التَّذْكِير به، فقَد سَبقَت الإشَارَة أنَّ المؤمنين في ممارَسَة أنماط الشَّعَائر الحُسَينيَّة علىٰ مَراتب ودَرَجَات، فهُنَاك شَعَائر عَامَّة تجمَع المؤمِنين المَوَالين كَافَّة كَالقِراءَة والبُكَاء، وأُخْرىٰ خَاصَّة يَلتَقِي فيهَا وعَلَيهَا ثُلَّة مَحدُودَة مميَّزة، ونُخْبَة مُنتَقَاةٌ مُصْطَفَاة... والتَّطبير والإدمَاء وَاحِدَة من هـٰذه، إنه شَعِيرة خَوَاص ﴿وَمَا يُلَقَّنٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصِّلت).

وإنمَا أعَدْتُّ ذِكْر ذلك لتَعرِفَ كَيفَ تَعْمَل علىٰ هـٰذا الصَّعِيد، وكَيفَ تَدعُو وتُبلِّغ، فَلَا تَحرِص وتَنفَعِلَ وتُبالغ فَتَذهَب نَفْسُك حَسَرات، مما تخشىٰ فَقْدَه وفوْته، فإنَّ الدَّوَاعِي هُنا (في هـٰذه الشَّعِيرة) بَاعِثة، والمقتَضَيَات فَاعِلَة متَحرِكَة، ذلك مما تُوَاجِهه من هُجُوم ظَالِم وحَرْب شَرِسَة، سَوَاء من الإخْوَة الأحبَاب أو مِن المخَالِفين والنُّصَّاب، مَا يجعَل القَائمِين عَلَيهَا في تحفُّز واَستِنْفَار، ويُدْخِلهُم في حَالَة طَوَارئ دَائمَة! يَخْشَوْن تَأثير الحرْب الإعْلَاميَّة والدَّعَايات البَاطِلَة والفَتَاوىٰ المزوَّرة، ويَقْلَقُون من فِعْل أجْوَاء التَّرغِيب والتَّرهِيب التِي قَد تَصْرِف النَّاسَ عَن هـٰذه الشَّعِيرة المظْلُومَة، فَيقِلُّ عَددُ ممارِسِيهَا والنَّاهِضِينَ بِها، مَا يُضعِف أَلَقَهَا ويُخفِت وَهْجَهَا.

إعلَم بُنيَّ، إنَّ شَعِيرة بهـٰذه الخطُورَة والعَظَمَة، لَسْتَ أنتَ ولَا غَيرُك من سَائِر النَّاس مَن يُحدِّد مَصيرَهَا ويَقُود مَسِيرتهَا، ولَيْسَ هـٰذا مَقَالَة "قَدَريَّة" تَنْفِي دَوْر الغَيْب، ولَا "جَبْرِيَّة" تُلغِي إرَادَة الإنسَان، ولـٰكنه سَعْيٌ وعَمَلٌ بالتَّكْلِيف، وتَسْليمٌ بالنَّتَائج، ثمَّ إذعَان ومَعرِفة بحَركَة التَّاريخ والصَّيرُورة التي تَلتَقِي وتتَقَاطَع عندَهَا قَوَانين: "التَّدَافُع" (﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾(الحج))، و"التَّكَامُل والتَّقَادُم" (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ (الأنشقاق))، و"حَتْمِيَّة النَّصْر" (﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾(الصف)، و﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾(القصص))...

إنَّ يَدَ الغَيْب هي التِي تُدبِّر الأُمور وتُدِير المعْركَة هُنَا، فَتُفْسِح وتُطْلِق، فيَتَألَّق عَمَلٌ ويَنتَشِر، وتَرُوج شَعِيرةٌ وتَزْدَهِر، أو تُمسِك فَيْضَهَا وتمنَع مَددَها، وتحجُبُ رعَايتَها، فيَنكِفئ الأمرُ، ويتَراجَع ويَنغَمِر!... وإذا أرَادَ اللهُ شَيئاً هَيّأ لَه أسبَابه وقَيَّض عَوامِلَه، ومنهَا ٱستِدْرَاج المعَانِدين والمكَابِرين لِحَرْبه، والإمْلَاء لهم لِيزْدَادُوا إثْماً، مما يَستَحِثُّ المؤمنين ويَسْتَنْفِر طَاقَاتهم وإمكَانيَّاتهم، فتَتَألَّق الشَّعِيرة. وقَد كُنتُ في مَحْضَر عَالم عَارِف، عَشِيَّة إعْلَان الحرْب علىٰ الشَّعَائِر، التي كَان عُنْوَانها مَنْع "بِدْعَة التَّطْبِير"! أشْكُو همِّي وأبثُّ هَوَاجِسي ومَخاوِفي، فقَال بِطُمْأنينَة ورزَانَة: إنَّه عَصْر ألَق ورَوَاج الشَّعَائر، ومعْركَة التَّطبير التي أعْلَنُوا عَنْهَا ستَكُون القَائِدَ والرَّائد، أبشِر ولَا تَخَف!

فَلَا تَأسَ بُنيَّ علىٰ ٱنصِرَافِ النَّاس، ولَا تَفْرَح بإقبَالهم، قَدْر مَا تَتَأمَّل وتَرقُب وتَرجُو في هـٰذه المظَاهِر تكَامُل الأُمَّة وقُربها من أدَاءِ حَقِّ العَزَاء، وٱستِيفَائهَا مَا هُوَ مَطْلُوبٌ منهَا في حُدُود قُدرتها (فحَقُّ العَزَاءِ لَا يُؤَدِّيه إلَّا صَاحِبُه، وهُو «الحجَّة» عليه السلام)... فمِن مَجمُوع الحضُور في المجْلِس لَا ترىٰ مَن يَبكِي بحُرقَة وجَزَع إلَّا قَلِيل، ولَا يُشَارِك في اللَّطم إلَّا الأقلُّ، ومن اللَّاطِمين لَا يقُوم بالتَّطْبير إلَّا ثُلَّة مُصْطَفاة وكَوكَبة متَألِّقة. وكُلَّما تَقَارَبَ عَدَدُ النَّاهِضِينَ بِسَائر أنماطِ الشَّعَائر وتَسَاوَىٰ، ودَخَلَ العَامُّ في الخاصِّ، تكُون عَلَامَة أنَّ الأُمَّة قَد دَنَت من كَمالها، وأنَّ عَصْر الظُّهُور والفَرَج قَد قَرُبَ وأزِف.[1] وكَأنِّي أنظُر مجَالِسَ العَزَاء في عَصْر الظُّهُور الشَّرِيف تَنقَلِب بجَمِيع حُضَّارِها ورُوَّادِها ويَنتَقِلُون بأجمعِهم من الرِّثَاءِ والبكَاءِ، إلىٰ اللَّطْم والجزَع، إلىٰ التَّطْبير والإدْمَاء، لَا يَتَخَلَّف وَاحِدٌ ولَا يتَقَاعَس أو يَتَبَاطَأ عَن شيَءٍ يُؤَدِّي حَقَّ عَزَاء «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

---

(١) مما ٱستَفَدتُه من سَماحَة آية الله العظمىٰ «الشيخ الوَحِيد الخراسَاني» دَام ظلُّه الوَارف، أنَّ إقَامَة العَزَاء علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام هو الشُّغْل الشَّاغِل لمولَانا «الحجَّة بن الحسن» عليه السلام وهو في مُغيَّبه... يبدأ يومَه بالنَّظَر إلىٰ قَميصِ «جَدِّه» المضَمَّخ بدِمَائه الزَّاكِية، فيَستَحْضِر مَشهَد المصرَع المهُول، الذي مَا زَالَ يهتزُّ لَه العَرشُ وتَرتَجِف السَّماوَات فَيُفْجَع، وهـو عليه السلام علىٰ هـٰذه الحَال حتىٰ تَتَجدَّد الدِّمَـاء علىٰ القَمِيص، فتَكُون الإشَارة لَه بالنُّهُوض والقِيَام. إنَّ محوَر الأمر ومُرتكَز الحركَة في زَمَاننا وكُلِّ زَمَان بَعدَ مَصرَع «الحسَين» عليه السلام هُو أدَاء حَقِّ العزَاء، وإنَّ فلسَفَة الغيبَة وعلَّة الظهُور مرتبطَة ـ بنَحْوٍ ـ بٱستِيفَاء الرَّزيَّة حَدَّها من النُّدبَة والرثَاء، وحَقَّها من التَّفجُّع والبكَاء، فإذا بلَغَ الحدُّ، تجَدَّدَت الدِّمَاءُ ويكُون القِيَام لطَلَب الثَّار. ٱنظُر: (مقتَطَفَات وَلَائيَّة) ص٥٤.

تَبْدَأ شَعِيرَة التَّطْبِير من لَيلَة «عَاشُوراء»، وأُولىٰ مَرَاسِمِهَا مَا يُعرَف بـ "المَشْق"، والكَلِمَة تَعني إشْهَار أو سَلَّ السَّيْفِ وتجرِيد الحُسَام اَستِعدَاداً للضَّرْبِ والطَّعْن، ويُرادُ منه الإعْلَان عن التَّطبِير، والحَشْد والتَّعبِئَة لَه، واَستِعْرَاض مَا سيَجرِي في الغَد... ويكُون بدُخُولِ المطَبِّرين قَاعَة الحسَينيَّة، أو خُروجهم في مَوَاكب تجُوب الطُّرُقَات، يَرتَدُون الأكْفَانَ ويَحمِلُون السيُّوف، يُنَادُونَ: "حَيْدَر"، ويَندُبُون ويُردِّدُونَ الأهَازِيج.

و "المَشْقُ" في جَوْهَره "رَقْصَة حَرْب"، أو قُل اَستِعْرَاضٌ للقُوَّة وإعْلَانٌ لأقصىٰ دَرَجَات التَّضْحِيَة والبَذْل، مما يَقُوم به المقَاتِلُون قُبيل دُخُولهم الميْدَان، مما تَرَاهُ في مُختَلف الحضَارَات والثَّقَافَات ويُمارِسه سَائر الشُّعُوب... يَلتَقِي فيه المطَبِّرون في حَلْقَاتٍ ودَوَائر، يُؤَدُّونَ حَرَكَاتِ التَّطْبِير، مَع مُبَالَغَة في رَفْع الخطىٰ والتَّقَدُّم للأمَام ثُم الرُّجُوع للخَلْف، والإيماء بالسَّيف، بإشهَارِه أو رفْعِه باليَد، لَا تَلْوِيحاً عَالِياً، بَل بِمَدِّ الذرَاع دُون العَضُد، وتحريكه حَرَكَة أُفقِيَّة تَرسُم نِطَاقاً قَوْسيّاً حَوْل المستَعْرِض تَقْرُب من نِصْفِ دَائرة، تُعَاكِس حَرَكَة رَأْسه وهُو يُدِيرَه كَمَن يَتَلَفَّت يَمْنَة ويَسْرة، مُحَمْلِقاً عَينَيْه لَا يَطْرِف، كَالغَضِبِ المذْهُوش، ثُم رَفْعِه السَّيفَ ليَهْوِي علىٰ هَامَتِه، ولكن بصَفْحَتِه لَا حَدِّه، أيْ علىٰ عُرْضِه ومَا بَين شُطْبَتَيْه، علىٰ إيقَاع الطُّبُول وضَربها، تَدُقُّ للمعْرَكَة، بَل القِيَامَة المرتَقَبَة صَبيحَة «عَاشُورَاء».

والأهَازِيجُ كَثيرةٌ ومُتَنوِّعَة يَفْصِلهَا تِكْرار النِّدَاء: "حَيْدَر" "حَيْدَر"... أشهَرُهَا:

يَـا «فَـاطِمَـة» قُـومي إلـىٰ «الـطُّفُـوف»

هـٰذا «حُـسَـين» طُعْـمَـة الـسُّـيُـوف

الأرضُ تَـبْـكِـي والـسَّـمَـا وَا وَيْلَاه

هـٰذا «حُـسَـين» بـالـدِّمَـا وَا وَيْلَاه

وفي القَاعَات المغْلَقَة، والموَاكِب التي تُقِيم "المَشْقَ" والتَّطبير دَاخِل الحسَينيَّات، حِين لَا تَتَمَكَّن من الحركَة خَارجهَا ولَا تَستَطِيع أن تَجوبَ الطُّرقَات، كَما هُوَ الأصْل والأسَاس في الإعْلَام والإشْهَار وتحقِيق شَعِيريَّة الشَّعِيرة... لكَ أن تُوقِفَ قَرْع الطُّبول هُنَيْئَة لتُسمعَ الحضُور هِتَافَات المطَبِّرين، فَلَا تختَلِط الأصْوَاتُ وتَضيعَ المعَاني القَيِّمَة العَظِيمَة التي تحمِلهَا هِتَافَاتهم، ثُمَّ يَعُود ضَرْبُ الدَّمَامَات مَع نِدَاء "حَيْدَر".

الخطْوَة التالِيَة في شَعِيرة التَّطْبِير والإدْمَاء تَكُونُ آخِرَ اللَّيل، قُبَيْل الفَجْر، أي في وَقْتِ السَّحَر... بتَبدِيل الرَّايَات السَّوْدَاء والخضْرَاء المرْفُوعَة على الحسَينيَّة ودَاخِلها، بأُخْرَى بيضَاء، وهي عَلَامَة أنَّ في هذه الحسَينيَّة سَيُقَام التَّطبِير، تتَخَلَّلهَا بعضُ الرَّايَاتِ الحمْرَاء، ولكن بعَدَدٍ أقلّ، ليكُونَ الغَالِبُ واللَّافِت لَوْنُ الأكفَان.

وتَبدَأ الطقُوس العَمَلِيَّة للتَّطبِير بأدَاءِ صَلَاة الصُّبح فَجْر العَاشِر من المحرَّم...

هذا مَا عَليه المؤمنون الموَالون في «العِراق» و«إيران» وبلَاد «الخليج». أمَا في بلَاد «الهند» و«باكِستَان» و«أفغَانستَان» فإنهم يُمارِسُون الإدمَاء عَصْر «عَاشُورَاء»، وهكذا الحَال في «لُبنَان»، يَبدَؤونَ من الظَّهِيرَة، بعَدَ الفَراغ من تَلَاوَة "المقتَل" وقراءَة "المصْرَع"... والحقُّ أنها الأقربُ إلى سَاعَة مَصْرَع «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام يوم «عَاشُورَاء»، وأنسَب لأدَاء الشَّعِيرة من هذه الجهَة، لكن يَرِد عَلَيهَا أمر الفَصْل بين تِلَاوَة المقْتَل وأدَاءِ التَّطبِير بصَلَاةِ الظُّهْر، بَينَمَا في الفَجر، تتَوَالى الشَّعَائِر وتتَعَاقَب مُتَّسِقَة مُتَصَاعِدَة، لَا يقْطَع تَوَاصُلَهَا ولَا يخلُّ بالتَّفَاعُل معَهَا وبُلُوغ الذَّرْوَة شَيء، وإن كَانَ «الهنُود» و«البَاكِستَانيُّون» يَبدَأون بالعَزَاءِ من بعدِ صَلَاة الظُّهْر، فتَتَّصِلُ شَعِيرة الإدمَاءِ منهُم بالعَزَاء، وهذا أكْمَل الأدَاء. ولَعَلَّ هُنَاك مُرجِّحٌ لميقَات التَّطبير في الصَّبَاح، هُو أنَّ الفَترة الزَّمَنيَّة التي تَفصِل صَلَاة الفَجْر عن الظُّهرَين (ولَا سِيَّما في آخِر وَقتهَا)، أكبر وأكثر ٱمتِدَاداً منهَا بين الظُّهرَيْن إلى العِشَاءَين، مَا يَسْمَح بَوقفِ النَّزفِ وٱلتِئَامِ الجرُوح وأدَاء الوُضُوء للصَّلَاة التَّالِيَة تَامّاً. ولَعلَّ طَبيعَة المنَاخ في «لُبنَان» ودَرَجَات الحرَارة هُنَاك، حتى في المواسِم الصَّيفيَّة، تُعين على ذلك ولَا تمنعه، خِلَافاً للحَال في «العِراق» و«الخَليج».

عُمُوماً، عَلَيكَ بُنيَّ بالعَمَل وٱلتِزَام سِيرة مُدُنِ العَتَبَات المقَدَّسَة، وحَوَاضِر الحوْزَات العِلمِيَّة، دُونَ مَسٍّ بالآخَرين أو ٱنتِقَاصٍ لأدائِهِم، بَل لَرُبَّما كَانَ هُو الأرجَح وَفْقَ بَعضِ المعْطَيات، لكني أُوصِيكَ بٱلتِزَام مَا هُو عَلَيه الحَال في «النَّجَفِ» و«كَربَلَاء».

بَعد أدَاء الصَّلَاة (ويُفَضَّل أن تَكُونَ جَماعَة بإمَامَة مُسْتَوْفٍ للشُّرُوط)... تَقُوم بتِلَاوَة زيَارة «عَاشُورَاء»، وتكُون مختَصَرة، دُونَ السَّلَام واللَّعْن الكَامِلَين (مئَة مَرَّة)، بَل تَتْلُو ذلك مَرَّة تَنْوِيها عَن المئَة، فالوَقتُ لَا يَسْمَح والأجْوَاء لَا تُطِيق.

ثُمَّ يَأخُذُ مُنشِدٌ بقِرَاءَة نَعْي مُشْجٍ يُثِير المَشَاعِر ويُهيِّجُ الأحْزَان، ويُعِدُّ النُّفُوس، ويأخُذْهَا إلىٰ صُوَر الفَاجِعَة ومَآسي هٰذا اليوْم المَهول، وهُو كَـ "الإحماء" الذِي يُستَقْبَل به فِعْلٌ في غَايَة الحمَاسَة وقِمَّة الانفِعَال... فإذا بَلَغ الوَجْدُ حَدَّه، ورَأىٰ قَائد الموكب استِعْدَاد جماعَته، أشَارَ لِصَاحِب "البَرزَان"، فنَفَخَ "الصُّور" بالسَّلَام، ونَادَىٰ بِحَيَّ علىٰ خَيْر العَمَل، وقَامَت قِيَامَة عُشَّاق «الحسَين»! يَعزِفُ ثَلَاثاً لحنَ تَحِيَّة البَدْء، تَفْصِل بينَهَا صَرْخَة: "يَا حُسَين"، تُدَوِّي مَع تَقَارُع قَامَات المطبِّرين بُصُورة مُسَايَفَة، كَضَرْبٍ من التَّحِيَّة والسَّلَام، ثُم يُدَقُّ الدَّمَّام (بإيقَاع ضَربتَين) ويَعْلُو هِتَاف: "حَيْدَر".

ولمَا وَجدْتُ بُنيَّ جُلَّ فتَاوَىٰ الفقَهَاء في شَعِيرة الإدمَاء والتَّطبِير، تُؤكِّد علىٰ أن يَكُون الأدَاءُ من خَبِير عَارِف بالفَنِّ، وكَما عبَّروا: "حاذِق"، ولَعَلَّ بَعضَ الفَتَاوَىٰ قَيَّدَت الأمرَ واشْتَرَطَت فِيه ذَلك، فَلَا يَقَع في مَحظُور هَلَاك النَّفْس وتَلَفِ العُضْو، أو الضَّرَرِ الشَّدِيد... دَعْني أُفَصِّلُ لكَ بعضَ الشَّيءِ في هٰذا الفَنِّ، وأُبيِّن لكَ جَانباً من أُصُوله.

التَّطْبير يكُون بـ "القَامَة"، وهي سَيْفٌ صَمْصَام، أيْ لَا يَهتَزُّ ولَا يَنْثَني، حتىٰ كَأنه حَرْبة أو خَنْجَر كَبير، في حَجْم "المِشْمَل" (سَيفٌ يَشتَمِل عَلَيه الرَّجُل بثَوْبه)، متَسَاوِي الشُّطْبَتَين أو الشَّفِيرَيْن، مُدَبَّبٌ في طَرَفه، مُستَقِيمٌ غير مَعْكُوف ولَا مَحنيٍّ في وَسَطِه، ولَا مُلْتوٍ في نِهَايتِه. يُصْنَع مِن مَعْدَن "الفنَر"، وهُو أخَفُّ الصُّلب...

إنَّ الغرَض "الشَّعَائريَّ" من التَّطبِير هُو إرَاقَة الدِّمَاء والنَّزف، وإظْهَارُ الجزَع بهٰذا الطَّقْس الدِّينيِّ العَظِيم، الذِي يَكْشِف الحبَّ والاستِعْدَاد للِبَذْل والعَطَاء من جِهَة، ويُورِث في المُشَاهِد العَدُوِّ الرُّعبَ والهيْبَة، والصَّدِيق الحزْنَ والفَجْعَة. ولَا يُرادُ منه إلحَاق الأذىٰ بالنَّفْسِ، والذِّهَاب بالموَاسَاةِ إلىٰ الحدُود الممنُوعَة شَرْعاً، المحَظُورَة حُكْماً، مما يَكُون من بَعضِ المطَبِّرين الأعزَّاء حِين تَأخُذهُم الحمَاسَة ويتَملَّكُهُم الجزَعُ علىٰ «مَولَاهُم» عليه السلام، فيَخْرُجُون من نِطَاق التَّحَكُّم بمَشَاعِرِهم، ويَفقِدُون السَّيطَرة علىٰ أنفُسِهِم.

من هُنا يجبُ أن تكُونَ "القَامَة" مَشْحُوذَة الشَّفْرَة، مُرْهَفَة الحدِّ من شِدَّة الصَّقْل، أقربَ شَيءٍ إلىٰ الموسىٰ! فإذا هَوَتْ علىٰ الرَّأس شَقَّت البَشَرة والجِلْد، وإن بَالَغَت، بلَغَت اللَّحمَ والعُرُوق، دُونَ العَظْم والمَشَاش والجمْجُمَة.

لِذَا فَلَا يُستَعْمَل "اليَطَقان" في التَّطبِير، وهُو سَيفٌ مُصْمَتٌ ثَقِيل الوَزْن، يُصنَعُ من الحدِيد الصُّلْب، أشْبَه شَيءٍ بالبَلْطَة المنبَسِطَة أو الفَأس الممتَدَّة طُولاً، أو قُل السَّاطُور (الذي يُقَطِّع به الجزَّار ذَبَائحَه)! تَرىٰ بَعضَ المطَبِّرين يَلْجَأ إليه ويَضْرَب رَأسَه به.

فَلَا تَفْعَل بُنيَّ، واْسْعَ لِتَوْعيَة مَن يَفعَل ودَفعِه لِترْك ذلك... من مُنطَلَق الإخْلَاص في الشَّعِيرة، وتَنزِيهِهَا عَن مَواطِن التَّبَاهِي والتَّفَاخُر بِالبَأس والقُوَّة، ثُم مَنعِهَا عن نِطَاقَات الخَطَر، الذي لَا يتَهَدَّد المطَبِّر الضَّارِب فَحَسْب، بَل الشَّعِيرة من أصْلِهَا، وقَد تَربَّص بهَا مَن ينتَظِر حَالَة وَاحِدَة تُسَجَّل كَخَرقٍ في هـٰذه المعجِزَة الخَالِدة، التي لم يَتَضرَّر من مِئَات الآلاف، بل مَلَايين مُمَارِسِيهَا على مَدَىٰ عُقُود، شَخْصٌ وَاحِدٌ علىٰ نَحْوِ الحَصْر! فَلَا يَندَفِعَنَّ أحَدٌ ويَذْهَبَ إلىٰ مَا يُشبِه التَّحَدِّي والمجَازَفَة، فيُشْمِت بنَا الأعدَاء!؟ (١)

---

(١) في سِيَاق حملَة إعلَاميَّة كَبيرة، وَاكَبت إصْدَار فَتْوَىٰ تحريم التَّطبِير في التَّاسِع والعِشرِين من ذِي الحجَّة سنة ١٤١٤هـ، كَان أغرَب مَا فيهَا الافتِرَاء علىٰ جملَة من عُلماءِ الإماميَّة (من الفُقَهَاءِ الحقِيقِيين) وإدخَالهم في مَن قَال بالتَّحرِيم! هـٰكذا دُون مَصْدَر وبَلَا سَنَد. وكَانوا يَشِيعُونَ هـٰذه الفِريَة ويُروِّجُونها بكَثَافَة، بَل بلَغ الأمر كِتَابة ونَشْر هـٰذا البهتَان، بلَا وَجَل ولَا حَياء! حتىٰ نَجَحُوا في إظهَار الأمر بصُورة المسألَة الخِلَافِيَّة: هُنَاك من يَمنَع التَّطبِير ويحرِّمه، وهُناك مَن لَا يَفعَل! والحال أن لَا أحَدَ من مَرَاجِع الشِّيعَة الحقيقيين حَرَّم التَّطبير. نَعم، كَان لبَعضِ الشَّخصِيَّات السِّيَاسِيَّة وعُلماء الطَّبقَة الثَّانية مَوقفاً ضِد التَّطبير، لكن عَدَدَ هـٰؤلاء لَا يَتَجَاوَز أصَابع اليدِ الوَاحِدَة، ولَا يُمكِن مُقَارنته بالمبيحِين، المَوَافِقِين والمؤيِّدين، الذين هُم بالمئات، ناهِيكَ عن النَّوعِيَّة، وكَونِهم من الفقَهَاء العِظام الذين لَا يَعتَرِي الشَّكُّ في أيٍّ منهم، بعَكْسِ أُولئك الثلَاثة أو الخمْسَة.

عموماً، في سِيَاق تلكَ الحمْلَة الرَّهيبَة المدجَّجَة بدَعْم حُكومي خُرافِيٍّ سَخَّر كلَّ طَاقَات الدَّولَة وإمكَانيَّاتها، وعَبَّأ جميع القُوىٰ الأمنيَّة والمخَابراتية، والأحزَاب والعَنَاصِر المَوَالِيَة لها في الدَّاخِل والخَارج... شَاعَت قِصَّة عن مَوْت شَخْصٍ في التطبير! وقَد دَعَـمُوا إشَاعتَهُم بشهَادَة وَفَاة رَسميَّة جَاءَ فيهَا "شَجٌّ في الرَّأس". وقَد تَنَاقلَت الأوسَاط الإيمانيَّة الخبر، واْنتَشر في المَوَاقع الإلكترونيَّة، وصَارَ مَادَّة إعلَاميَّة نَاوَرُوا بهَا طَويلاً، ووظَّفوها في ثَنْي النَّاس وصَرْفِهِم عن هـٰذه الشَّعِيرة المظلُومَة.

ولما كَانت «البحْرين» هي مَصْدَر الخبر ومنبَع الإشَاعَة ومكَان وُقُوع القِصَّة المزعُومَة، اْنتَابني شَكٌّ واْرتبتُ في الأمر، فـ «البَحْرين» التي كَانت الأُولىٰ بين بلَاد الشِّيعَة في إحيَاءِ الشَّعَائر الحسَينيَّة، تَراجَعَت واْنقَلَبَت (بسَبب نفُوذ الأحزَاب وهيمَنتهَا، والتغرير السِّيَاسي الفَاحِش والتَّضليل الذي يحكُم السَّاحة هُناك) وصَارَت تحارب الشَّعَائر الحسَينيَّة! فكَانت من أكثر البلَاد اْستجَابةً لِفتوىٰ التَّحرِيم... لذَا لَاحقتُ القِصَّة وتَابعتُهَا بتَحقيق مَيدَاني دَقيق، بَدَأ من شَهَادة الوَفَاة. فَتَبَيَّنَ أنَّ المتوفىٰ شَيخٌ يَعَاني من مرَض القَلب، كَان يقِفُ مع النُّظَّارة يُشَاهِدُ مَوكب التطبير، وبسَبب التزاحُم والتَّدافع، أو بسَبَب مَشَاهِد الدِّمَاء (لَسْتُ أدري علىٰ وَجْه الدقَّة)، أُغمِي عَلَيه، فسَقَط على الأرض واْرتَطَم رأسُه بحَجَر الرَّصِيف، فتُوفي رَحمه الله!

وهـٰذا من مَهَام وأدوَار قَائد مَوكب التَّطبِير، الذي عَلَيه أن يتَدَخَّل للمَنْع والحدِّ، سَوَاء علىٰ صَعِيد اَستِعمال أدوَاتِ الجرْح، أو دَرَجَة النَّزْف ومَدَىٰ إهْراق الدِّمَاء، وبالتَّالي إرهَاق البَدَن والإعيَاء الذي يَبلُغ ببَعضِهم فَقْد الوَعْي والإغماء.

إنهم بُنيَّ يَترَبَّصون بِنَا، ويَنتَظِرون أدنىٰ زلَّة ويَسْتَغِلُّون أيَّ خَطَأ، ويُلَاحِقُون الصَّغائِر ويُعَظِّمُون التَّوَافِه، بَل يَختَلِقُونَها كَما رَأيت، فَكَيفَ إذَا صَدَقَ وُقُوع الضَّرر والإصَابَة، فتَلِفَ لأحَدِ المطَبِّرين عُضْوٌ من بَدَنه، أو مَاتَ ـ لَا سَمَح الله ـ بسَبَب الشَّعيرة؟... فَلَا تَبذِل لهم مَا يُريدُون، ولَا تمكِّنهُم وتُوَفِّر لهم مَادَّة الطَّعن بالشَّعِيرة الحَسَينيَّة والنَّيْل منهَا. ولَا يَعني هـٰذا أن لَيْسَ لكَ أن تُراهِـن علىٰ المدَدِ الغَيْبِي وتَركَـن إلىٰ اللُّطْفِ الإلهي، وتَطْمَئنَّ إلىٰ رِعَاية «المـوْلىٰ» ﷺ، وتَعتَمِـد علىٰ المعْجِـزَة المتكَرِّرة، والخَالِدَة إن شَاءَ الله، ولـٰكن لَا علىٰ نَحْوِ التَّحَدِّي ومَا يُظْهِر المرءَ وكَأنه يَمْتَحِن ويَبتَلي رَبَّه! ففي الحدِيث أنَّ «إبليس» لَقيَ «عيسىٰ بن مَريَم» ﷺ فقَالَ لَه: "أمَا عَلِمْتَ أنه لَن يُصِيبَك إلَّا مَا كَتَب اللهُ لك؟ قَالَ: نَعَم. قَال «إبليس»: فَأوفِ بِذُروَة هـٰذا الجبَل فَتردَّ منه، فأنظُر أتعيشُ أم لَا؟ قَال «عيسىٰ»: إنَّ العَبدَ لَا يختَبِر ربَّه، ولـٰكن الرَّبَّ يختَبر عَبْدَه". بل إنَّ الأمرَ في اللُّطفِ الإلهي الذِي يَحفُّ هـٰذه الشَّعِيرة، وعَدَم وُقوع حَالَة هَلَاكٍ وَاحِدة بِسَبَب التَّطْبِير علىٰ مَدَىٰ التَّارِيخ، هُو ممَا يُضَاعِف مَسْؤوليَّتك، أن تُزرِي بالنَّوَامِيس وتَهتِك القَوَانين وتَتَجَاوَز الأُصول وتُخالِفَ الأوَامر الشَّرعيَّة الإلهيَّة، فتكونَ السَّبَبَ في وُقوع الخرْق!

ولإعْـدَادِ "القَـامَـة" حتـىٰ تَبلُغ ذلك الحـدَّ المـرْهَف المطْلُـوب وتكُـون "قِيَـاسِيَّـة" ونَمُوذَجِيَّة، عَلَيكَ أن تَعْمَدَ إلىٰ العَمَل اليَدَوِي لَا الآلي، فَقُرْصُ البَرْد والإحْدَادِ المعْدِنيِّ (سَوَاء الكَهْرَبَائي أو غَيْرِ الكَهْرَبَائي)، يُتْلِف "القَامَة" وهُو يَأكُل من شَفِيرهَا ويَستَهلِك مَعْدِنهَا، مَا يُطْفِئهَا ويحِيلهَا صَماءَ عَمْيَاء، أي يجعلها تَنْبُو. لِذَا عَلَيكَ اَستِعْمال حَجَر السَّنِّ، والجلَاءِ اليَدَوِي، والصَّحِيح القِيَاسِيُّ منه هُو "النَّاعِم"، فتُجْرِي حَدَّ القَامة بَسْطاً وقَبضاً، ذِهَاباً وإيَاباً علىٰ الحجَر برِفْق وأناة، مرَّات وكَرَّات (لسَاعَات)، مَع سَكْب شَيءٍ من الماء أو الزَّيت لتَسهِيل الحركَة ومَنع الحرَارة والاَحْتِكَاك المُتْلِف، والزَّيتُ أفضَل، يُورِث الشَّفِير نُعومَة ومَلَاسَة حَدِّ المَوَاسي... وهُو الصَّقْل الذي يُطلَبُ ويحقِّق الشَّج الصَّحِيح.

وهُنَاك الشَّحْذُ "الخشِن"، الذِي يُطْلُب ويُرادُ لـ "الفَلْق" والجرْح الأكثر عُمقاً.

والشِّجَاجُ بُنيَّ دَرَجَات، خَصَّ اللغَويُّون كُلّاً منهَا بٱسم... أوَّلها الحارِصَة أو البازِلَةُ أو القَاشِرة: وهي التي تَشُقُّ أي تبْزُلُ الجِلْدَ قَلِيلاً، ولكِنَّها لَا تَعْدُوه ولَا تخرقه، أي تُورِث جَرْحاً سَطْحِيّاً فَحَسْب، ثُم البَاضِعَة: التي تَقْطَع الجِلدَ وتَشُقُّ اللَّحْم شَقّاً خَفِيفاً وتُدمي، إلَّا أنها لَا تُسيل ولَا يَنزِف منهَا الشجُّ، فإذا نزَفَ كَانت الدَّامِية، ثُمَّ المتلَاحِمَة: التي تَأخُذ في اللَّحْم ولَا تَبلُغ العَظْم، ثم الموضِحَة: التي تُبدِي وَضَحَ العَظْم، ثُمَّ الهاشِمَة: التي تَبلُغ فَرَاشَ العَظْم (عِظَامٌ رِقَاقٌ تَلي القِحْف، وهو العَظْم الذي فَوْق الدِّمَاغ من الجمْجُمَة)، ثم الآمَّة: التي تَبلُغ أُمَّ الرأس، أي الجِلْدة التي تكُون على الدِّمَاغ، بعدَ أن تَصْدَع عَظْمَه، ثم الدَّامِغَة: التي تَبلُغ الدِّمَاغ فَتَقْتُل لِوَقْتِهَا!

والشَّحْذ "الخَشِن" أصْلُه للقِتَال ومُبَارزَة العَدُو! يجعَل "القَامَة" قَاتِلَة، ويَسْمَحُ لها أن تُورِث في مَوْضع الضَّرْبِ والتَّطْبِير جُرحاً غَائراً، وشَقّاً وَاسِعاً، حتىٰ تبلُغ الشَجَّةُ حَدَّ "المتَلَاحِمة" بَل "الموضِحَة"... فَبَعضُ المطَبِّرين لَا تسكُن نَفْسُه ولَا يَشْعُر بأنه أدَّىٰ حَقَّ الشَّعِيرة إلَّا بذلك. لَا تَسْمَح بهذا بُنيَّ إلَّا للخَبِير الحاذِق، والممارِس الشَّدِيد، الذِي يَعرِف مَا يَصْنَع، ويُدْرِكَ مَا هُو مُقْدِم عَلَيه، فَكَما أسْلَفتُ، فإنَّ الغَرَضَ الأصليَّ هُو الإدمَاء والنَّزْف، وقِوَام الشَّعِيرة به، لَا بِعُمْق الجرَاح والوُقُوع في مَشَارِف الضَّرَر والتَّلَف.

فإذا فَرَغتَ من إعْدَادِ "القَامَة"، طَلَيتَهَا بالزَّيت أو الدُّهْن، ولَفَفْتَها بخِرْقَة نَظِيفَة، وحَفِظْتَهَا حتىٰ سَاعَة التَّطْبِير، فتُخرجهَا من غِلَافهَا (القُماشي لَا غير، فَالقِراب أو الغِمْد الجِلدِي أو الخَشَبي أو المصنَّع من "البلَاستيك" يُفْسِدُ ٱحتِكَاكُه الجلَاء ويُعطِبُ الحدَّ)، وتَغسِلها بالماء جَيداً لتُزِيل الشُّحُوم العَالِقة بها، ثُم تَقُوم بتَعقِيمهَا بالمطهِّرات الصِّحيَّة.

ومما يَجدُر التَّنبيه عَلَيه، هُو تَوقير هذه الآلة (القَامَة) وعَدَم ٱبتِذَالها باللعِب والعَبثِ والإهمَال، بل حِفْظِهَا وصَوْنها، فهِي الأدَاة والوَسِيلَة التي تَتَقرَّب عَبرَها إلىٰ «مَولَاك» عليه السلام، بتلك القُربَة العَظِيمة... فتُقَبِّلها بَعدَ إعْدَادِهَا، وهكذا بَعدَ الفَرَاغ من تِلَاوَة "زيَارة عَاشُوراء"، وقَبْل الشُّرُوع في التَّطْبِير. كَما عَلَيكَ الحذَر من نَقْش الآيات القُرآنية أو أسْماء «المعْصُومين» عليهم السلام عَلَيهَا، فتَجْعَل ذلك في مَعرِضِ التَلَوُّث بالدَّم، وهُو محرَّم.

وكَذَا عَلَيكَ التَّنبُّه لِطَرِيقَة حَمْل "القَامَة" والحركَة بهَا وهي في يَدِك، قَبل أن تنتَضِيهَا وتُصْلتهَا عِند الشُّروع في التَّطْبِير، فَلَا تُلَوِّح بهَا ولَا تَغفَل عَن مُحِيطِك، وعَلَيكَ أن تُنبِّه الحضُور إلىٰ ذلك وتُكرِّره عَلَيهم، فهُم يَحمِلُون ـ في الوَاقع ـ آلة حَادَّة، وسلَاحاً قَاتِلاً، وإنْ كَان "أبيضَ"! (حتىٰ يَبدَأ ويَشْرع التَّطْبِير ويَدْخُلُوا فيه، فَتُمسِك، ولَا تُشَتِّت تَركيزهُم وتَصرفه إلىٰ شيء آخَر بإطْلَاق التَّوْجيهَات والإرشَادَات)، والحوَادِث الجَانبيَّة التي لَا عِلَاقة لها بنَفْسِ التَّطْبِير، تفُوق التي تَقَعُ وتكُون منه مُبَاشَرة بأضْعَاف مُضَاعَفَة!

وهٰكذا الأمر حَال التَّطْبِير وأثناءه، ولَا سيَّما إذا كَانَ المكَانُ مُزْدَحماً والقَاعَةُ مُكتَظَّة... فبَعضُ المطبِّرين حرَسَهم الله، يُأدُّون الشَّعِيرة وَفْق أُصولها وطَرِيقَتهَا التَّقْلِيديَّة الصَّحِيحَة في مُراوَحة الجِسْم (سَمِّها إن شِئتَ: رَقْصَة القِتَال)، التي تَقْتَضِي صُنْع حَلْقات ودَوَائر، يَخْطُو فيهَا المطبِّرون خُطْوَة إلىٰ الأمَام باتِّجاه قَلْبِ الدَّائرة ـ علىٰ إيقَاع الدَّمَّام وهتَافِ "حَيْدَر" ـ وأُخرىٰ إلىٰ الخلَف، وبين هٰذا الكرِّ والفرِّ تَهوِي الضَّرَبَات علىٰ الرَّأس بَعدَ أن يَأخُذَ التَّلوِيحُ بالسَّيْف مَدَاه، ومَعَ تَلَاحُم الحَلْقَات وتَزَاحُمهَا في المكَان، وعندَ الرُّجُوع إلىٰ الخلْف، يَغْفُل بَعْضُهُم عَمَّن وَرَاءَه فيُصِيبه بِسَيْفِه ويَجرَحُ فَرْداً من الحَلْقَة المجَاوِرة، ولربَّما أَصَابَ جَارَه الذِي في نَفْس دَائرته.

أمَّا عَمَلِيَّة ضَربَ الرَّأس وشَجِّها فَهِي أيضاً أنوَاع وكَيْفِيَّات...

الأُولىٰ: الضَّربُ في مُقَدِّمة الرَّأس والنَّاصِيَة، وهُو الموضِع الأقَلُّ إدمَاءً.

الثانية: الضَّربُ علىٰ قِمَّة الرَّأس وأعْلَاه (أو سَقْفِه)، وهُو أكثر إدمَاءً من الأول.

الثالثة: الضَّربُ علىٰ القَرْنين من الرَّأس، أي جَانبَيْ قِمَّة الرَّأس و"سَقْفِه"، من جِهَة الأُذن، وهُو الأكثر إدمَاءً ونَزْفاً، وهٰكذا خَطَراً. ويَبدُو أنَّ الأمر يَرجع إلىٰ مَوَاضع العُرُوق والشَّرايين والأوردَة المنتَشِرة في الرَّأس.

هُنَاك مَن يَكْتَفِي بِضَربَة وَاحِدَة قَوِيَّة شَدِيدَة، ثُمَّ يَعْمَد إلىٰ الخَبْطِ علىٰ جُرْحِه بصَفْحَة "القَامَة" وعَرْضِها، أو بِرَاحَة يَدِه، وهُنَاك مَن يُكرِّر الضَّربَ والجرْح مَرَّات، فيشُجُّ رأسَه في عِدَّة مَوَاضِع، ويُورِث فيهَا أكثر من جُرْح، ولَربَّما جَاءَت ضَرْبةٌ مِنْه فَوْق ضَرْبة، فكَلَّمَت وعَمَّقَت وأَمَضَّت!

ومما يَنْبَغِي التَّنَبُّه لَه في الإعْدَاد والتَّحْضِير للتَّطْبِير، تجهيز القَاعَة أو المكَان الذِي ستَجْرِي فيه الشَّعِيرة...

ومن ذلك تَغطِيَة الأثاث والمتَاع بالأقمِشَة والسَّوَاتر التي تحفَظْه عَن التَلَوُّث بالدِّمَاء. وتَنظِيفُ الأرْضيَّة وكَنْسِهَا من أي حَجَر ومَدَر وأجسَام صَلْبة جَارِحَة أو مُعِيقَة، فَالمطبِّرون دَاخِل الحسَينيَّات يخلَعُون نعَالهم ويَكُونُون حُفَاة، ولَربَّما شَاكَ شَيءٌ قَدَم أحَدِهم، فَنفَرَ واْضْطَرب، وهُو يَحمِل "القَامَة" الحادَّة، فيُعَرِّض نَفْسَه وغَيره للخَطَر.

وتَوفير المقوِّيَات كَالتَّمْر والعَصَائر والأشْرِبة التي تُعَوِّض النَّازِف مَا يَفْقِدُ مِن طَاقَة، وتجهيز الأدْوِية والإسعَافَات الأوَّليَّة، وأدَوَات التَّضْمِيد والطِّبَابة من أرْبطَة وعَصَاب ولُصوق، ورَقُوء لِحَقْن الدَّم وقَطْع النَّزف، بَل "غُرز" وخُيُوط طِبيَّة لِزُوم عَمَليَّات جِرَاحِيَّة بَسِيطَة تُخاطُ فيهَا الشِّجَاج والإصَابات، فإذَا عَجَزَت هذه الإسعَافَات عن معَالجة النَّزف وحَبْس الدَّم، كَانت وَسيلَة النَّقْل إلىٰ المشفىٰ حَاضِرة مُعَدَّة. ولَا بَأس بالطُّرُق التَّقْلِيدِيَّة والأدْوِيَة الشَّعبيَّة، كَـ "الدِّبَاغ" وهُو مَسْحُوق قِشْر الرُّمَان، فَلَهُ فِعْلٌ سَرِيع وأثرٌ عَجِيب. والصَّحِيح هُو غَسْل الجرْح ثمَّ وَضْع "البِيْلَسان" عَلَيه، فإنه يَبرأ.

وهكذا اللجُوء إلىٰ التُّربة الحسَينيَّة لِوَقْفِ نَزْفِ الجرْح الذي لَا يَرْقَأ، إذا أنهَرَ العِرْقُ ونَغَر الدَّمُ وانفَجَر... وقَد شَهَدْنا بُنيَّ مَا جَرىٰ في حُسَينيَّتِنا القَدِيمَة (في «الرميثية») عَام ١٤١٧هـ، حِين أُغْمِيَ علىٰ أحَدِ المطَبِّرين الشَّبَاب من عُمْق الجرْح وشدَّة النَّزْف، وكَانت ضَربتُه هَاشِمَة، قَد بَلغَت فَرَاش العَظْم حتىٰ كَان يُرىٰ بَيَاضُه، فَظَنَّ بَعْضُهم أنه مخُّ الرَّجُل! وصَارَ أوَّل الأمر يَهْذِي ويَهجُر كَمَن خُولط، ثمَّ غَابَ عَن الوَعْي، وامتَدَّت إغْمَاءَته وطَالَت، ولم تُجدِ الإسعَافَات الأوَّليَّة نَفْعاً، وكَان الحضُور في وَجَلٍ وارتبَاك، يَنَادِي بعضُهُم بالابتِعَادِ عَنه وإفْسَاح المجَال من حَوْله للهَوَاء، عَلَّه يَستَعِيد أنفَاسَه، وآخرُون يَطَلبون استِدْعَاء سَيَّارة إسعَاف تَنْقُله إلىٰ المشفىٰ، وأنَّ حَالَته في منتهىٰ الخطُورة، لَا تحتَمِل المجَازَفَة... حتىٰ تَوقَّف نَبْضُ الرَّجُل وأمسَكَ قَلْبُه عَن الخَفْق وانقَطَع نَفَسُه، وامتدَّ ذلك لأكثر من دَقِيقَتين، وكَان كُلَّما ضَغَطَ الطَّبِيبُ علىٰ صَدْره ليُعِيدَ الحركَة إلىٰ قَلبِه، تَدَفَّق الدَّمُ من رَأسِه وزَادَ نزْفُه، ونَحْنُ في حِيرة لَا نَدْرِي مَا نَصْنَع!

ومما زَادَ في الوَجَل أنَّ الطبيب الحَاضِر في الحسَينيَّة (من الإخوَة الهنُود) ابتعَدَ ونأىٰ وكأنه يُعلِن وَفَاته أو يُخلي مسؤوليَّته القَانونيَّة! عندَهَا جَاءَ «أبوحَيدَر»، طبَّاخ الحُسَينيَّة، وقَد سَحَق شَيئاً من "التربة"، خلطَها بالماء وعَجَنَها لتُصْبحَ طِيناً، وَضَعَهَا في الجرح الغَائِر، ونَحنُ من حَوْله نَدْعُو ونَتَوَسَّل... فُجْأة، تَوقَّفَ النَّزف، ثُم مَا كَانت لحظَات، لم تَطُل دقيقة، حتىٰ أفَاق الرَّجُل وجَلَسَ مُستَنِداً إلىٰ جِدَار صَغير كَان يَفصِل بَاحَة الحسَينيَّة عَن الممرِّ الذِي يُفضي إلىٰ مَطْبخ إعْدَادِ الشَّاي والمغَاسِل والحمامَات. أفَاقَ وهُو يُحَمْلِق في المحِيطِين به، ويقُول: أنا بخَير، لَا شَيءَ أصَابني. وبَعدَ دَقَائق كَانَ يَتَلقَّى التَّقْرِيع من أصحَابه، وهُو في شُغْل عَنهُم، يَشُدُّ عِصَابته ويُضَمِّدُ رَأسَه بنَفْسه!

وكَان الشَّابُ قَد ضَربَ رأسَه بـ "يَطَقَان" مَرات مُتكَرِّرة، ولَعلَّ بعضَ الضَّرَبَات كَانت مُتَلَاحِقَة علىٰ الموْضع نَفْسه، وقَد بَلَّلَت دِمَاؤه الكَفَنَ الذي يَرتَدِيه، حتىٰ إنك لَو عصَرتَه لَسَالَ الدَّم منه وجرَىٰ، وكَأنه غُمِر ونُقع في بِركَة دِمَاء!

ولَا يخفىٰ عَلَيكَ بأنَّ تنْجِيس التُّربَة الحسَينيَّة حَرَام، وهكذا كُلُّ مَا يهتِك حُرْمَتهَا، ولكن ذلك للتُّربَة المأخُوذَة للتَّبرُّك والصَّلَاة، فإذا خَرجَت من هَيئَة القُرص والشَّكْل المخْصُوص لذلك، وسُحِقَت وعَادَت لهيئَتِهَا الأصْلِيَّة الأُولىٰ، كَتُراب أو طِين الأرْض، قَبل أن تُجعَل في القَوَالِب وتُعدَّ للسُّجُود، لم يحرُم اْستِعْمالها في هذا المورِد.

إنها بُنيَّ شَعِيرة عَظِيمَة خَطِيرة، تُوَازِيهَا في العَظَمَة والخُطُورة، مَسؤوليَّةٌ شَرعيَّة وأخْلَاقيَّة. وحَقَّ للفُقَهَاء أن "يَشْتَرِطُوا" في فَتَاوَاهُم ويُقَيِّدُوا إباحَة التَّطبِير، فإنَّ ذلك لم يأتِ من فَرَاغ. لذَا عَلَيكَ أن تمضي بمنتهىٰ الحِيطَة وتَعمَل بغَاية الحكْمَة... ثُم دَعْني، بعد هذا، أهمِس في أُذنك وأُسرُّ لكَ بحَقِيقَة خَفِيَّة، أرجُو أن تَعِيَهَا ولَا تَغفَل عَنهَا يَوْماً، وهي أنَّني لم ألمَس الرِّعَاية الحسَينيَّة والعِنَاية الرَّبَانيَّة في شَيءٍ من عَمَلي، كَما لَمَسْتُه في هذه الشَّعِيرة، فَما أن تُدَوِّي الحسَينيَّة بهتَاف "حَيْدَر"، حتىٰ أنسىٰ كُلَّ مَا خَطَّطْتُ لَه وأعْدَدْت، وذَهبَ عنِّي الرَّوْع وتَبدَّد الوَجَل، وعَلِمْتُ باليَقِين أنَّ الزِّمَام في مَكَان آخَر، والقِيَاد لَيْسَ بيَدِ أحَدٍ ممن يُرىٰ هُنا! فللشَّعِيرة رَبٌّ يَرعَاهَا، وهُو الذِي يُديرهَا ويُدَبِّر أمرَهَا، ومَا نَحنُ جميعاً إلَّا بيَادِق علىٰ رُقعَة يحركُها قَائدٌ حَصِيف، وأميرٌ ظَافِر.

هٰذا عن التَّطْبِير بـ"القَامَات" الـذي عَلَيْه المؤمنُـونَ في «العِـراق» و«إيـرَان» و«أذربيجَان» وعُمُوم «بلَاد الخَلِيج»... وهُنَاكَ التَّطْبِير دُون "قَامَات"، الذي يُقامُ في «لُبنَـان». وهي من المرَاكز الخَطِيرة في عَالَم التشيُّع والمَوَاقع الأصِيلَة المتقَدِّمَة علىٰ هٰذا الصَّعِيد، التي مَا ٱنفكَّت مُعَظِّمة لحُرمَة «سيِّـد الشُّهَدَاء»، قَائمَة بَوَاجِب العَزَاء. فبَعْدَ مُدُن العَتَبَاتِ المقدَّسة والحوَاضِر والحوَزَات العِلمِيَّة، بَرزَت في بلَادِ الشِّيعَة مَوَاقع كَانَ لها قَصَبُ السَّبق، فَشَرفُ العَمَل بالتَّطبِير، تَلألأت في سَماءِ إحيَاء هٰذه الشَّعِيرة، وتميَّزت بأدائهَا، حتىٰ أصبحَت تُقْرَن بذِكْرِها ويُشَارُ إليهَا كعَلَم في عَالمِها، كَـ «زنجَان» و«أردَبيل» و«أصفَهَان» و«البَحرين» و«النَّبَطِيَّة» و«حَيْدَر آباد».

ففي مدينة «النَّبَطِيَّة» المحرُوسَة، يُقَام التَّطبِيرُ سَنَوِيّاً، فيَخْرُج النَّاسُ فُرادَىٰ وجماعَات علىٰ هيئة مَوَاكِب، بأعْدَادٍ كَبيرة تَبلُغ آلافاً مُؤلَّفة، تَنْحَدِرُ من سَائر القُرىٰ والبَلْدَات وتَتَقَاطَر لِتَلتَقِي في مَوكب مَهيب. وقد ٱنتَشَر التَّطبِير في السَّنَوَات الأخِيرة في «لُبنَان» وٱمتَدَّ خَارج «النَّبَطِيَّـة»، فصَارَ يُقَام في «بيروت» أيضاً، وبعد «العَامِليَّـة»، في بَعضِ أحيَاءِ «الضَّاحِية»، وكَثير من قُرىٰ «الجنوب» كَـ «أنصَار».

ويكُون عنْدَهُم ـ في الغَالِب ـ بجَرح الرَّأس بمُوسىٰ حَادَّة من قِبَل خَبِير ممارِس من الشَّيبَة المتخَصِّصِين، ثم يَمضي المطَبِّر يَضْرِبُ رَأسَه ويَخبِطُ جَرحَه برَاحَة يَدِه حتىٰ ينْزِفَ، بل يَشْخَبَ دَماً، وهُو يهتِف بالنِّدَاء الخالِد: "حَيْدَر"، وإن بَدأت الشَّعِيرة مُؤخَّراً تأخُذ شَكْلَهَا الكَامِل، فَصَارَ كَثيرٌ مِن المطبِّرين يَحمِلُون السُّيُوفَ والقَامَات.

ولَا يَفُوتني تَسجِيل مَوَاقِف الثَّبَات التَّارِيخيَّة التي خَطَّهَا رِجَالَاتُ وأبطَال هٰذه المدِينَة التي غَدَت مَعْقِلاً من مَعَاقِل الوَلَاء لـ «أهْل البيت» عليهم السلام، وقَاوَمَت جميع أشْكَال الغَزْو، العَسْكَرِيِّ الإسرائيليِّ، والفِكْرِيِّ العَقَائِدِيِّ الإضْلَالي، وثَبَتت أمَام الحملات الضَّارِيَة الظَّالمة التي أرَادَت تَعطِيل هٰذه الشَّعِيرة وتَقْوِيضَهَا، فوَقَفَ العَلَّامَة الحجَّة «الشيخ عبدالحسَين صَادِق» قدس سره (١٨٦٢ ـ ١٩٤٢م) سَدّاً مَنيعاً أمَام "فِتْنَة التَّنزيه"، وهٰكذا «الحاج إبراهيم ميرزا» رحمه الله الذي أسهَم في إرسَاءِ الشَّعِيرة بٱستِصْدَار رُخْصَة خَطِّيَّة رَسْمِيَّة من المفوَّضِ العُثماني أواخِر القَرْنِ التَّاسِع عَشَر الميلَادِي.

أمَا شَعِيرة الإدمَاء في بِلَادِ «الهنْدِ» و«بَاكِستَان» و«أفغَانستَان» فَلَا تكُون بـ "القَامَة" ولَا شَجِّ الرَّأس، بل بوَاسِطَة "الزنجِير"، وهُو حُزْمَة من السَّلَاسِلِ الفُولَاذِيَّة تَضُمُّ نَحْواً من عَشرة إلىٰ عِشرِينَ سِلْسِلَة، يَنَاهِز طُولها في المتوَسِّط (مَع مَقْبِضِهَا الخَشَبي) ذِرَاعاً، تَنتَهِي بصَفَائح مَعْدَنيَّة مَصْقُولَة، أو نِصَال حَادَّة مُسَنَّة، أو قُل سَكَاكِين صَغِيرة، مَشْحُوذة الحَدَّيْن، مُدَبَّبة جَارِحَة، وقَد يَعمَدُ بعضُهُم إلىٰ ثَنْي أطرَافهَا، لتَفْرِي الجِلْد، وتَنْشُب فيه وتَنغرِس، فَلَا تَخرج إلَّا وهي تَنْتَزِع شَظَايَا اللَّحْم!

وهُم لَا يُوَظِّفُون الطُبُول والدَّمَّامَات، ولَا البُوقَ والبرَزان، بل يَتْلُون المصِيبَة ويَقْرَؤُون المصرَع، ويَتَوَالىٰ المنشِدُونَ علىٰ تَعدِيد المَرَاثي المُشْجِيَة، فإذا حَانَ الميعَاد وأزِفتِ السَّاعَة، جَاؤوا بحِصَان أبيض، يَشبهُونَه بـ «ذِي الجنَاح»، فَرَس «سيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ، ويُعِدُّونَه بكَيفيَّة يُثِير مَرآه الفَجْعَة ويُهيِّج الدَّمعَة ويُعِدُّ النُّفُوسَ للجَزَع: مَلوِيَّ السَّرج، مَرخِيَّ العِنَان، مُلَطَّخ النَّاصِيَة بالدِّمَاء، قَد نَشَبَت فيه السِّهَام، فإذا رَأوه التفُّوا حَوْلَه وتمَسَّحُوا به والتَمَسُوا البرَكَة، وهُم مَا بين بَاكٍ جَازع، وصَارخ مفتَجع...

ثم يَرفَعُون نِدَاء الشَّعِيرة، وهُو عندَهُم: "يَا حُسَين"، لَا كَما «العَرب» و«الفُرس»: "حَيْدَر"، ويكَرِّرونه بوَتيرة متَوسِّطَة، لَا بَطِيئَة ولَا سَرِيعَة، وكَأنَّها تَستَدْرِج وتَصعَد بمُعطَيَات النِّدَاء: "يَا حُسَين" "يَا حُسَين" "يَا حُسَين"...

ثم يَأخُذُون بجَلْدِ أنفُسِهم، فيَهوُونَ بالزنجِير علىٰ ظُهُورِهم.

فإذا فَرغَ أحَدُهُم وقضىٰ وَطَره من إدمَاء ظَهْرِه، عَمَدَ إلىٰ صَدْره، فَجَعَلَ بينَ أصَابع يَدَيه مَوَاسي (شَفرَات حِلَاقَة)، وذهَبَ في اللَّطْم حتىٰ يَشْخَب صَدْرُه دَماً.

ودَعني أختِم هٰذا البَاب من فَصْل "أنمَاطِ الشَّعَائر" بوَقفَة مع شُبهَة، لَا أُريد الردَّ علىٰ مُثِيرِيها ودَحْض مَقُولتهُم فأحتَجُّ لِذَلك وأستَدِل، بل إزالَة اللبس عَمَّا قَد يَعتَرِي بَعضَ المؤمنين... فقَد يتَوَهَّم بَعضُهُم أنَّ أنماطاً من الشَّعَائر الحسَينيَّة كَاللَّطْم والإدمَاء تَحمِلُ رسَالَة التكْفِير والتَّوْبة، مما تَرَاه في طُقُوسِ بعضِ النَّصَارَىٰ، ويُسَمَّى "جَلْدُ الذَّات"، ولَرُبَّما كَانَ لِبَعضِ الأحدَاث التَّارِيخيَّة أثرٌ في تكْوِين هٰذا الانطِبَاع عن الشِّيعَة، بأنهم يعيشُونَ عُقدَة الذَّنبِ لتقَصِيرهم في نُصرَة «إمامِهم»، مما كَانَ في حَرَكَة «التوَّابين»...

إنَّ هذا غَير صَحِيح، فنَحْنُ لَا نَشْعُر بالذَّنب كَالَّذين قَصَّروا من أهْل ذلك العَصر[١]، بل كُل مَا هُنَاكَ أننا نَعِيشُ الحسْرَة على فَوْت النُّصرْة، وعَدَم إدرَاك شَرَفِ الشَّهَادة في ركْب «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام. ونَحْنُ لَا نَقُوم بالطُّقُوس التي تَنْطَوِي على أذىً وعَذَاب من منْطَلَق التَّكفِير عن الذُّنوب، بَل هي في الأصْل مَظَاهِر الجزَع الذِي يتَمَلَّكُنا من عِظَم المصَاب، ثُم من مُنطَلَق المواسَاة، والسَّعْي لاْستِشْعَار بَعض الألم الذِي قَاسَاه أُولئك العُظَماء في «كَربَلَاء»... وإن التَقَينَا مَع تِلك الفِكْرة في أنَّ الشَّعَائر الحسَينيَّة تُطَهِّر الرُّوح، وتُسقِط التَّبِعَات وتُكَفِّر الذنُوب، وتُطفِئ غَضَب الرَّب، فإنَّ لِكُلِّ شَيءٍ أجْراً مُعَيَّناً وثَوَاباً مُحَدَّداً، إلَّا الدَّمعَة في مُصَابِهِم، وإنَّ دَمعَة وَاحِدَة على «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام كَفِيلة بِسَدِّ أبوَاب العَذَاب وإطفَاء نَار جهَنَّم على مُهْرِقهَا، والسَّعي في هذا السَّبِيل فِيه من الأجْر والثَّوَاب مَا يَمْحَق الذُّنوب مَحْقاً، ويَنْسِفها فَلَا يُبقي لها أثَراً بَعد عَيْن، وقَد مرَّت عَلَيكَ في الباب الأوَّل طَائِفَة من الرِّوَايَات في هذا الشَّأن.

من هذا المنطَلَق نَعْمَل، وفي إطَار الإبَاحَة والاْستِحْبَاب الشَّرعي هذا نتَحَرَّك، لَا نَعبَأ ولَا نُبالي إن التَقَت شَعَائرنَا مع أفكَار الآخَرين ومَضَت على سُنَن أديَان أُخرى، وكَذا لَا نَسْتَوْحِش إنْ أُفرِدْنا فَلَم يَلْتَقِ مَعَنا ولم يُوافقنَا أحَد.

* * *

(١) وهُم لَيسُوا من الشِّيعَة، فلَا مقتَضِي للشُّعور بالذَّنب وطلَب التَوْبَة! وسيَأتيك عَرْض كِتاب (مَن هُم قَتَلَة الحسَين) لـ «العَلَّامة السِّيد عَلي الميلَاني»، وفيه تفصيل الأمر وأدلَّته.

الوصية العاشرة:

ماذا تقرأ

لَا شَيءَ يُزيِّنُ العَمَل ويُكمِّل الطَّاعَة ويَرقىٰ بالعِبَادَة كَالعِلْم، ولَيْسَ بَعد الإخْلَاصِ في أدَاءِ الشَّعَائر الحُسَينيَّة من مَكْرُمَةٍ وفَضِيلَةٍ مثل المعْرِفَة المسْتنِدَة إلىٰ العِلْم، البَالِغة اليَقِين عن طَرِيق الدَّلِيل والبرهَان والحجَّة.

والعِلْمُ لَه طَرِيقُه وسَبِيلُه، فإن وُفِّقَ لَه المرءُ وحَظِيَ بشَرف الانْتِسَاب إلىٰ الحَوْزَة العِلْمِيَّة والدُّخُول في طُلَّابه، فبِهَا ونعْـمَ، وهُو تَمامُ الأمرِ وكَماله. وإذا لم يُوَفَّق لِذَلك ولَـم يَحظَ بهـٰذا الشَّرَفِ الأتم، لم يَنْقَطِع عَن رَوَافِدِه ولَا احْتَجَبَ عَن مَنَابع الخَيْر، فاتَّصَلَ بها عَن طَرِيق نَـتَاج الحوْزَة وعَطَائها، وأوَّله الكُتُب والمؤلَّفَات العِلْمِيَّة. ولَا سَبِيلَ ثَالِثَ في البَيْن، فَلَا وَحْيٌ هُنَا يتَنزَّل علىٰ أحَد، ولَا غَيْبٌ يُفيضُ اعتِبَاطاً، والرِّهَانُ علىٰ "نُورٍ يَقْذِفه الله في قَلْب مَن يَشَاء" دُونَ العَمَل بالمقَدِّمَات والأخْذِ بِالأسبَاب، خَطَأٌ يَبلُغ الانحِرَاف.

ومن الآفَات الخطِيرة التي ابْتُلِيَ بهَا عَصْرنَا يا «عَبدَالزَّهْرَاء»: العزُوف عن المطَالَعة، ثُم الخوْض في الأفكَار والقَضَايا العِلْمِيَّة، وأحْيَاناً التَّخَصُّصِيَّة دُونَ مَأخَذٍ ومُستَقىً يُعَوَّل عَلَيه، كَقَوْل العَالم ورَأيه المدَوَّن في الكُتب.

حتىٰ تكُونَ علىٰ جَادَّة الصَّوَاب في النُّهُوض بالشَّعَائر، ومن العَامِلِينَ علىٰ بَيِّنَة وبَصِيرة من أمرِك، سَوَاء في حُضُورِكَ ومُشَارَكَتِكَ بالمجَالِس والمآتم، أو في إقَامتِهَا والنُّهُوضِ بهَا... عَلَيكَ أن تَتَسَلَّح بالعِلْم وتَتَمَتَّع بالثَّقَافَة، وفي أدْنَاهَا الوَاجِب اللَّازِم، مَا يَتَعَلَّق بهذا الحقْل والميدَان. وقَد يَبلُغ الأمرُ في بعضَ الأحْيَان لُزُوم وُقُوفكَ علىٰ الخَلفيَّة الدَّلِيليَّة لِبَعضِ الشَّعَائر التي تُؤدِّيها وتُروِّج لها، لَا مُجرَّد مَعْرِفَة حُكْمِهَا الشَّرعيَّ، ولَا أقصِدُ الأجْتِهَاد، بَل القُدْرَة علىٰ المنَاظَرَة والأحْتِجَاج، وإمكَانيَّة الدَّعْوَة والتَّبليغ والإقنَاع. كَمَا يجبُ أن تَنْطَلِق من إحَاطَة تَفصِيليَّة بالفِكْرة والمفهُوم الذِي تَعمَل لَه، ومَعرِفة تَامَّة بمَوْقِعه في الفِكْر الإسلَامي، ومَكَانه في المنظُومَة العَقَائدِيَّة، ومَا يَترَتَّب عَلَيه من دَوْرٍ رِسَالي.

وهذا بُنيَّ لَا يَكُون إلَّا بالمطَالَعة بشَغَف والقِرَاءة بنَهَم، فَكَمَا أسْلَفتُ لك، لَسْتَ قِدِّيساً يتنَزَّل عَلَيه وَحْيٌ يُلهِمُه، ولَا وَليّاً بلَغَ تِلكَ المرتَبَة من الصَّفَاء والنَّقَاء والخلُوص، ثُم العُذْر في العَجْز عن الكَسْب بالطَّرِيق الطَّبيعِي، أي التَّحصِيل، حتىٰ يَفِيضَ عَلَيكَ العِلْمُ من خَزائن الغَيْب. كَم هُو مُؤلمٌ أن تنشَأ الأجيَالُ مِنَّا مُعْرِضة عَن تُراثنا العَظِيم، جَاهِلَة بجُهُود وعَطَاءَاتِ عُلَمائِنا الأبرار الأفذَاذ الذين لم يُوَفِّروا مَوضُوعاً ولَا فِكْرة إلَّا تَنَاوَلُوهَا بما يَكفي ويَفِيض، ولَا شُبهَة إلَّا دَفَعوهَا، ولَا مَطْعَناً إلَّا فنَّدُوه وأبطَلُوه، فيَعِيش بَعض الشَّبَاب الغُربَة والحيرة، سَوَاء في المعتَقَد أو في القُدْرة علىٰ رَدَّ المخَالِف أو المشَكِّك الجَاحِد، والردُّ مَبْذُولٌ بِبَابِهِم، لَا يَتطَلَّبُ منهُم أكثر من فَتْح دَفَّة الكَتاب والنَّظَر فيه!

والقِراءَة بُنيَّ فَنٌّ يَبدأ باَخْتِيَار الكِتَاب...

وهَا أنا أُقدِّم لَك وأُعرِّفك ببَاقَة مُنتَخَبَة من الأعمَال العِلْمِيَّة القَيِّمة والكُتُب الحسَينيَّة الثَّمِينَة، التي أرَاهَا قَاعِدَة العَامِلِ في الشَّعَائر الحسَينيَّة، وأسَاس أنطِلَاقه في هذا الميدَان، وأقلَّ مَا يجِب أن يَتَسَلَّح به، فيكُون ممن يَعمَل علىٰ هُدَىً وبَصِيرة، ويَمْتَثِل الآيه: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الملك)... وفيهَا مَا يحتَاج - في بَعضَ أجْزَائه - إلىٰ دِراسَة وتَعَلُّم، فَتُراجع أهْلَ العِلْم وتَسْأل ذَوِي الأختِصَاصِ بشَأنها، ومنهَا تَنْطَلِق إلىٰ آفاقٍ أُخرىٰ أوسَع وأكبر، حَرِيٌّ بصَاحِب المأتم وقَائد الموكبِ الحسَيني، ومُدِير المجَالِس ومُدَبِّر مَراسِم العَزَاء أن يجيدَهَا ويُتقِنَهَا.

١ ـ «أسرار الشهادة»

واسمُه «إكسيرُ العِبادَات في أسرار الشَّهادَات»، هُو سِفر نَفِيسٌ، وجَامع جَلِيل، غَزيرُ الفِكْرَة، جَزِيلُ المبَاحِث، جَمُّ الفَوَائد، ولَولَا خَطَرُ المادَّة وعَظَمَة الموضُوع، لَقُلتُ إنه استَوْعَبَ أطرَافَه وأحَاطَ بفُروعه، واستقصىٰ غرائبه ونوَادِره، ولم يَدَع شَارِدَة إلَّا رَدَّها بين دَفَّتيه! وهُو الغَايَة التي لَيْسَ وراءَهَا مَذْهَبٌ لِكَاتب ومَسْلَكٌ لمؤلِّف، ولَا مُراغ لمستَفِيد ولَا مَنهَلٌ لِطَالِب، ولَا مَضرَبٌ لِرائد وقَائد يُسْترشَد به.

لَقَد وَجَدْتُ في هـٰذا الكِتَاب ضَالَّتي، وتَعَلَّقتُ به مُنذُ أمَـد، حتىٰ ربَطَتني بمُؤلِّفه علَاقة رُوحِيَّة خَاصَّة، لما أشْعُر به من يَدٍ لَه عَليَّ وفَضْل مما استَفَدْته من كِتَابه ونهلْتُه من وَحْي شَخْصِيَّته، وتَأثُّرٍ بأدَاءِ المجَاهِد الشُّجَاع، والغَيُور الذِي لَا يُسَاوِم ولَا يُدَاهِن في دِينه، ولَا تَنْطَوِي نَفْسُه علىٰ ظُلم يَنَالُ عَقِيدَته ويَمَسُّ مَقَامَات «أهل البيْت» عليهم السلام، ثُم من مَوْقع ومكَانَةٍ، أغبِطُه عَلَيهَا، أحْسَبُ أنه حَظِيَ بها عِندَ سَيِّدِه ونَالها من مَخدُومه عليه السلام... فكَأنه قدس سره قُدْوَتي، ومَثَلي الأعلىٰ في هـٰذا الميدَان.

وقَد كَانَت مِن أُمنِيَاتي أن أُحقِّقَ هـٰذا الكِتَاب وأفصِّلَ لَه هَوَامِش وحَوَاشي تَلِيقُ به، وتَدْفَع بَعضَ مَا يتَوهمه الجهَلَة عَنه ويَستَنكِرُونه عَلَيه، أو يَستكثرونَه ويَرَونه إغرَاقاً وغُلُوّاً منه، ممـا ردَّ عَلَيه المؤَلِّف ودَفَعَه في طَيَّات بُحُـوثه، ولكني كُنْتُ أشْعُر بالحَاجَـة لبَسْطِه وعَرْضِه بلُغَة عَصْرِيَّة أسْهَل تَنَاوُلاً لجِيلنَا، حتىٰ إني أعْدَدْتُ لِذَلك جملَة من الاستِفتَاءَات، جمعتُهَا من المرَاجع العِظَام المعَاصِرين في «قُم» حَوْلَ تَزكيَة الكِتَاب وإمضَاءِ مَادَّته ومُحتَوَاه.

ولـٰكن سَبَقني إلىٰ هـٰذا الفَضْل وحَظِيَ بهـٰذا الشَّرف غَيري...

وهَا أنا أنقُل بعضَ مَا جَاء في مُقَدِّمة تَحقِيقِه للكِتَاب، وحَقَّ أن يُكتَفى بهَا:

إنَّنا نُوَاجِه أثراً فَرِيداً وسِفراً نَـادِراً يعنىٰ بقَضِيَّة «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، فَقَد جمَع هـٰذا "الإكسِير" كُلَّ مَا يتَّصِل بذِكْر «الحسَين» عليه السلام، واحْتَوىٰ السَّردَ من مُختَلِف المصَادِر، وضَمَّ البَحْثَ الدَّقِيق، والتَّحْقِيق الرَّشيق، والمظْهَرَ الأنيق، والبَاطِنَ العَمِيق، وامتَازَ بالإلهامَات القَائِمِيَّة ـ علىٰ حَدِّ تَعبِير مُصَنِّفه ـ والتي تَنصَبُّ علىٰ قَلْبِه، ثُمَّ تَتَدَفَّقُ علىٰ طُرُوسِ (صَحَائف وأوْرَاق) البَحْث والتَّحْقِيق.

لَقَد فَرَّغَ المصَنِّف ﷺ في هذا "الإكسِير" جُهْدَه، وأكَبَّ على إنجَازِه مَدَّة ثمانية عَشَر شَهْراً، خِدْمَة لـ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وعَطَاءً لمِنْبره الشَّريف، وقُرباناً يُدنيه إلى الله تَعَالى، فشَاءَ الله لهذا السِّفْر رَوَاجاً وانتِشَاراً، حتى طُبِعَ مُكَرَّراً في «إيرَان» «والهِنْد» و«العِرَاق»، فكَان مَطلَباً للعُلَماء والبَاحِثين، على مَا في نُسَخِه مِن أخطَاء وعَوائق.

امتَازَ الكِتَاب بشَكْل مُنْقَطِع النَّظِير، فَلَم يُسْبَق أو يُلْحَق بمِثلِه من نَاحِية البسْطِ والتَّرتيب والتَّنسِيق، فقَد رتَّبه مُصَنِّفه ﷺ على أربَعَةٍ وأربَعِين مجْلِساً، وقَدَّمَ لَه اثنَتَي عَشرَة مُقَدِّمة، وذيَّلَ المجَالِسَ بتَذْيِيلَات وذنَّبهَا بتَذنيبَات وخَاتمة، ضَمَّنهَا كَثيراً من المجَالِس. فَقَد تَنَاوَلَ «الحسَيْن» عليه السلام سِيرةً ومُعْجِزَة ومكَارِماً وخَلْقاً (وخُلُقاً)، وشَهِيداً وقَتِيلاً، وذكَرَ أخبَار مَا بَعد مَقْتَلِه عليه السلام، واستَوْعَبَ كُلَّ مَا يتَّصِل بـ «الحسَين» عليه السلام من سِيرة أصْحَابه ومَقْتَل كُلٍّ منهُم، وكَذلك أهْل بَيْتِه، وتَعَرَّضَ إلى ثَوَاب زِيَارته ضِمْن بُحُوثٍ شَيِّقَة، وبَسْطٍ لَطيف.

قَلَّما تجِدُ كِتَاباً شَامِلاً لمختَلِف المبَاحِث الفِقْهِيَّة والأُصُوليَّة والعَقَائِديَّة والتَّاريخيَّة والرِّوَائيَّة والرِّجَاليَّة والعِرفَانيَّة... في آن! ضِمْنَ تَتَبُّع رَهِيبٍ ونَسَقٍ عَجِيب، إنَّ هذا مَا سَتَراه جَلِيّاً في (أسرَار الشَّهَادَة).

يُضَاف إلى كُلِّ هذا ذِكْر القِصَصِ والمحَاوَرات المهِمَّة، التي يَمْتَاز بهَا هذا الكِتَاب، والذي أجَادَ وأبدَعَ مُصَنِّفُه في تَسْمِيَتِه بـ "الإكْسِير"، إذ إنَّه خَلِيطٌ من مُخْتَلِف المبَاحِث، بَل يُمكِنُ أن نُسَمِّيه مَوْسُوعَة حُسَينيَّة.

من الصَّعْب أن تعثر على كِتَابٍ امتَازَ مُصَنِّفه بالعِلْم والفَضِيلَة، قَال المحَقِّقُ الخبير «الآغَا بُزُرك الطَّهْرَاني» ﷺ في وَصْفِه:

{عَالِمٌ متَبحِّر، وحَكِيمٌ بَارعٌ، وفَقِيهٌ فَاضِل، ورِجَاليٌّ مُحَدِّث}.

لَقَد امتَازَ (أسرارُ الشَّهَادَة) عَن غَيره أنه نَتَاج يَراع العِلْم والفَضْل، قَد فَرَّغ فيه هذا الفَقِيه عِلْمَه وسَرَّحَ فِيه نَظَره، ولعَمْري، إنَّ هذا لمن أهَمِّ الدَّوَافع لمتَابعَة هذا السِّفْر الجَلِيل... كِتَابٌ صَنَعه قَلَمُ مَرْجع مِن مَراجع الدِّين في «كَربَلَاء المقَدَّسَة»، يَضُمُّ أعظَمَ مَوْضُوع، يُمثِّل أشرَف وَسيلَة يُمكِن التَّقَرُّب بهَا إلى الله جَلَّ وعَلَا.

وُلدَ «الملَّا آغَا بن عَابِد بن رَمَضَان بن زَاهِد الشِّيروَاني الحَائِري الدَرْبَنْدِي» ﵀ في «دَرْبند» (قَرية بنَواحِي «طَهْران») حُدُود عَام ١٢٠٨هـ، ونَشَأ فيهَا مُكِبّاً علىٰ العِلْم، حتىٰ أتمَّ فيهَا مُقَدِّمَاته وسُطُوحِه علىٰ يَدِ عُلَماء بَلَدِه، ثُم هَاجَرَ إلىٰ «قَزْوِين». وهُنَاكَ أخَذَ عُلوم الفِقْه والأُصُول والحدِيث من المَوْلىٰ «الشَّيخ محمَّد صَالح البرغَاني الحَائِري» المتَوَفىٰ ١٢٧١هـ وشَقِيقِه «الشَّهِيدِ الثَّالِث» المقْتُول عَام ١٢٦٣هـ (قَتِيل فِرقَة "البَابِيَّة" الضَّالَة)، وأخَذَ الحِكْمَة والفَلْسفَة عن الآخُوند المَولىٰ «آغَا الحكَمِي القَزوِيني».

اَشْترَكَ مع نُخْبَة من العُلَماء كَان زَعِيمُهَا السيِّد «محمَّد المجَاهِد الطَبَاطَبَائي الحائِري» الذي تَولَّى الجِهَاد ضِدَّ «الرُّوس» عندَ غَزْوِهم «إيران» عَام ١٢٤٠هـ، فَلمَّا تُوفِّيَ «الطَبَاطَبَائي» بَعدَ رُجُوعه من المعْرَكَة في «قَزوِين» عَام ١٢٤٢هـ، نقَلُوا جُثمانَه إلىٰ «كَربَلاء»، وكَانَ «الدَرْبَنْدِي» مَعَه، فاَستَقَرَّ به المقَام في جِوَار «أبي عَبدِالله الحسَيْن» ﵇، واَشتَغَل في تَحصِيل العِلْم فيهَا علىٰ يَدِ أسَاطِين الطَّائِفَة هُنَاك، فحَضَرَ علىٰ المَوْلىٰ «محمَّد شَريف المازندَراني» (الشَّهير بـ «شَريفِ العُلَماء»).

ولما تُوُفِّيَ أُستَاذُه، هَاجَرَ إلىٰ «النَّجَفِ الأشرَف»، فاَستَقَرَّ مُجَاوِراً "بَابَ مَدِينَة عِلْم" «رَسُولِ الله» ﷺ، يَنْهَل من فيُوضَاتِه وتَسْدِيدَاتِه.

أقَامَ ﵀ في «النَّجَف» واَشتَغَلَ في تَحصِيل العِلْم، فحَضَر دُرُوسَ الفِقْهِ علىٰ «الشَّيخ عليِّ بن جَعفَر كَاشِف الغِطَاء» ﵀ عَام ١٢٥٣هـ، وقَد برَعَ في شَتَّى العُلُوم والفُنون، وكَان عَالماً بـ "الإكْسِيرِ" و "الهيئَة" وغَيرهَا من العُلُوم.

عُرِفَ ﵀ بعِلمِه وتَقْوَاه وفَضْلِه، حتىٰ بلَغَ رُتبَة الاَجتِهَاد، واَشتَهَرت عَنه الشَّجَاعَة والجرْأة، إذ كَانت لَا تَأخُذه في طَريق الحقِّ لَوْمَة لَائِم ولَا عَذْلُ حَاسِد.

ذكَرَ أكثر مَن تَرجَمَ لَه اَهتِمامَه بمَقْتَل «الحسَين» ﵇... كَان شَدِيدَ التَوَجُّع والتَّألُّم لمَصَائِب «آلِ محمَّد» ﷺ، واَشتُهِرَ عَنه البكَاء واللَّطْم علىٰ مصَائبِهم، ولَا سِيَّما علىٰ مُصَاب «سَيِّد الشُّهَدَاء» ﵇، فقَد أثَّرَت فيه وَقْعَة «الطَّفِّ» بشَكْل خَاصٍّ، فكَانَ من أجْلِهَا ثَائراً مَوْتُوراً، وكَان يَرقىٰ المنبَر أيام «عَاشُورَاء»، ويَذْكُر خَبرَ مَقْتَل «الحسَين» ﵇، ويَبكِي ويَلطِم علىٰ رَأسِه، ويُظْهِر أشَدَّ الجزَع، وكَان النَّاسُ تَبكِي لِبُكَائه.

وبالإضَافَة إلىٰ جِهَادِة «الرُّوس»، فإنَّ لَه وَقَفَات ضِدَّ «البَابيَّة»... فقَد تَصَدَّىٰ لهم في «كَربَلَاء» بكُلِّ مَا أُوتيَ مِن حَوْل وقُوَّة، فكَانَ أوَّل مَن قَامَ في وَجْهِهِم عِندَ بِدَاية أمرِهم، حتىٰ دَاهمُوه في مَنزِله وحَاوَلُوا اغتِيَاله، فَدَافَعَ عَن نَفسِه، وجُرِحَ جِرَاحاً بَالِغَة.

وقَد ضَيَّقُوا عَلَيه وأُوذِيَ في سَبيل المَبْدَأ والعَقِيدَة، واصْطَلَمَته البَلَايا والأهْوَال فَعَزَم علىٰ فِرَاق «الحَائر» الحسَيني المقَدَّس، فَشَدَّ الرِّحَال عَازِماً «طَهْران» التي تُوُفِّي فيهَا عَام ١٢٨٥هـ، فنُقِلَت جَنَازته إلىٰ «كَربَلَاء»، يَبدُو أنهَّا وَصِيَّة مِنه، ودُفِنَ في الصَّحْن الصَّغِير للحَضْرة الحسَينيَّة، متَّصِلاً بقَبر «السَيِّد محمَّد مَهْدِي» ابن صَاحِب (الرِّيَاض) ﷺ.

ذكَره «الآغَا بزُرك الطَّهْرَاني» ﷺ، فَقَالَ في (الكِرَام البَررة):

[كَانَ في «النَّجَف» من تَلَاميذ «الشَّيخ عَليِّ بن جَعفَر كَاشِف الغِطَاء» في الفِقْه، وتَلَمَّذَ الأُصُول علىٰ «شَرِيفِ العُلَماء المازنْدَرَاني»، تُوُفِّيَ أعلىٰ اللهُ مَقَامه في ١٢٨٥هـ أو ١٢٨٦هـ، فأُودِع جَسَدُه الشَّرِيف سِتَّة أشْهُر لِتَجْفِيفِه وحَمْلِه إلىٰ «العِرَاق»، ولما كُشِفَ عَنه شُوهِدَ علىٰ طَرَاوَته، فحُمِلَ إلىٰ «كَربَلَاء»، ودُفِنَ في الصَّحْن الصَّغِير في حُجْرة سَبَقَه إلىٰ الدَّفن بها جَمْعٌ من فُحُول الطَّائِفَة وأبطَال العِلْم كَـ «السيِّد مَهدِي السيِّد عَليِّ الطَبَاطَبَائي» مُؤلِّف (الرِّيَاض)، و«الشَّيخ محمَّد حُسَيْن الأصفَهَاني» مُؤلِّف (الفُصُول)، و«السيِّد إبراهيم القَزوِيني» مُؤلِّف (الضَّوَابط)، وغَيرهُم]. (١)

وذكَره «السيِّد مُحسِن الأمِين» فقَال في (أعيَان الشِّيعَة):

[... فَقِيه أُصُوليٌّ متكَلِّمٌ محقِّقٌ مُدَقِّق، جَامع للمَعقُول والمنقُول، خَرَجَ من «دَرْبَنْد» إلىٰ «كَرْبَلَاء» لِطَلَب العِلْم، ونَاصَبَ "البَابِيَّة" أيام ظُهُورِهم في «كَربَلَاء»، وحَاوَلُوا اغتِيَاله، ثُمَّ خَرَجَ إلىٰ «طَهْران» وأقَامَ فيهَا مُقَدَّماً عِندَ «نَاصِرالدِّين شَاه»، وعندَ كَافَّة النَّاس، وكَان يَعِظ في «طَهْرَان» ويَرقىٰ المنبر في «عَاشُوراء» ويَذكُر خَبر مَقتَل «الحسَين» ﷺ ويَبكي ويَلطِم علىٰ رَأسه ويُظهِر أشدَّ الجزَع، ويَبكِي النَّاس لبكَائه]. (٢)

(١) (الكِرَام البَررَة في القَرن الثَّالِث بعدَ العَشْرة) لـ «آغَا بزُرك الطَّهْرَاني» ج١ ص١٥٣.
(٢) (أعيَان الشِّيعَة) لـ «السيِّد مُحسِن الأمِين» ج٢ ص٨٧.

وقَالَ فيه «الشَّيخ عَبَّاس القُمِّي»:

{...كَانَ مِن تَلَاميذ «شَرِيفِ العُلَماء»... ولَه في حُبِّ أَهْل «البيْت» عليهم السلام، سِيَّما «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام مقَامٌ رَفيع. وتَغيُّرُ أَحْوَالَه من اللَّطْم والبكَاء وغَير ذَلك مِن شِدَّة مُصيبَتِه علىٰ «الحسَين» المظْلُوم في أيام «عَاشُوراء» مَشْهُور. ويُحكَى أنه كَان يُعظِّم كُتُب العِلْم، سَيَّما كُتُبَ الحدِيث، وأنه كُلَّما أَخَذَ (تهذِيب الشَّيخ) ((التهذيب) لـ «الشَّيخ الطوسي») يُقبِّله ويضَعه علىٰ رَأْسِه ويقُول: كُتُب الحدِيث مِثْلُ القُرآن المجِيد يَلزَم اَحْترامُه}.[1]

كَما ذَكَره من أَصْحَاب التَّراجِم:

«المرَاغِيُّ» في (المآثر والآثَار)، وتلمِيذُه «التنكَابُني» في (قِصَصِ العُلَماء)، و«السيَّد حَسن الصَّدْر» في (تكْمِلَة أمَل الآمل)، وكَذَلك «خَيرالدِّين الزركلي» في (الأَعْلَام).

أَمَّا مُؤَلَّفَاته ومُصَنَّفَاته فكَثِيرة، لكنَّها كثرةٌ لم تَنَلْ - بشَهَادَة العُلَماء - مِن العُمْق والجوْدَة والإتقَان والإبدَاع...

منهَا في الفِقه: (خَزَائن الأحْكَام)، من الكُتُب الفِقْهيَّة الضَّخْمَة المبسُوطَة، يَشْرحُ فيه مَنظُومة «السَّيد مَهْدِي بَحْر العُلُوم» قدس سره الفِقْهيَّة. و(الرِّسَالَة العَمَلِيَّة) فَقَد كَان قدس سره من مَرَاجع التَّقْلِيد في «كَربَلَاء». و(المسَائل التَّمرِينيَّة) أو (فَنُّ التَّمرِينَات)، قَالَ المحقِّق «السيِّد رِضَا الجلَالي» عَنه: إعْلَم أنَّ المحقِّق «الدَّرْبَنْدِي» اَخْترَعَ عِلْماً خَاصّاً سَمَّاهُ "عِلْم التَّمرِينَات"، قَالَ عنه: {إنَّ فَنَّ التمَّرِينَات الذِي اَخْترَعْتُه، هو مجمَع بَحْرَيِّ القَوَاعد الأُصُوليَّة والقَوَانين الفِقِهيَّة، وإتقَان القَوَاعِد الأُصُوليَّة واَستِحْدَاث الفِقْهيَّة واَستِحْكَامهَا، وهُو في الحقِيقَة عِلْمٌ جَدِيد، وفَنٌّ مُختَرع، لم يَحُمْ حَولَه السَّابقُون}، وغَرَضُه في ذلك العِلْم تمرين الطُّلَّاب علىٰ اَستِخْدَام القَوَاعد الأُصوليَّة والفِقْهيَّة، في تَطبيقَاتها علىٰ الفُرُوع لاَستِنْبَاط الأحْكَام مِنهَا، مَع التَّوَسُّع في النَّقْضِ والإبرَام، وعَرْضِ الاَفْتِرَاضَات والرُّدُود بشَكْل عَمِيق.

وفي الأُصُول: (خَزَائن الأُصُول)، و(العَنَاوِين)، و(حُجيَّة الأُصُول المثبتَة بأقسَامِهَا).

---

(١) (الكُنى والألقَاب) لـ «الشَّيخ عبَّاس القُمِّي» ج٢ ص٢٢٨.

وفي العَقَائِد: (الفَنِّ الأعلىٰ في الاعتقَادَات).

وفي الرِّجَال والدِّرَاية: (القَوَاميس في عِلْم الرِّجَال)، و(رِسَالَة في الدِّرَاية).

وفي العُلُوم الأُخْرىٰ: (الجوْهَرة في الأُصْطُرلَاب)، و(الإكْسِير) وفيه جملَة من أحْكَام هـٰذا العِلْم وأحْوَالِ عُلَمائه.

وفي المَقَاتِل: (جَوَاهِر الإيقَان) وهُو فَارِسِيٌّ، و(أسرار الشَّهَادَة)، و(سَعَادَات نَاصِري) الذي تَرجَم فيه كِتَابه (أسرار الشَّهَادة) ونقَلَه إلىٰ الفَارِسيَّة.(١)

ثم أعلَم بُنيَّ «عبدَالزَّهْرَاء»، أنني أسْهَبْتُ في عَرضِ هـٰذا الكِتَاب وبَيَان حَال مُؤلِّفه العَظِيم، لأسبَاب كَثيرة ودَوَافع متَعَدِّدة، منهَا مَا ذكَرتُه من أُنسي وتَعَلُّقي به، ولعِلَل أُخرىٰ كَخُطُورة مَادَّته، والأفكَار الرَّاقية التي تَنَاوَلها...

فَإنَّ في ذلك رِسَالَة خَفِيَّـة، أو قُل غَير مبَاشِرة، هي أنَّ مَا يَقُومُ به عُمُوم الشِّيعَة ويَفْعَلُونه في عَزَاء «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، ومَا يَعتَقِدُونَه في وَاقِعَة «كَربَلَاء» ويَقُولَونه في مَا جَرىٰ يَوْم «عَاشُوراء»... لَيْسَ من فِعْل العَوَام وسُلُوكِهم فَحَسْب، بَل هُو مِن رَأي العُلَماء ومَسلَكِهم، وشَأنِهم ودَيدَنهم.

إنها شَعَائر ممضَاة بالعَمَل والتَّطْبِيق، لَا مَحْضُ القَوْل والإفْتَاء (وإن كفىٰ شَرعاً)، من أسَاطِين العِلْم وفُحُول الطَّائِفَة المحِقَّة وأعْلَام الفِرقَة النَّاجِيَة، وأفكَارٌ تَبنَّاهَا وقَالَ بها عُلَماء قَلَّ نَظِيرهُم في الطَّبقَة الأُولىٰ من رِجَالَات الحوْزَات العِلْمِيَّة، لَا يَنَالهم في ذلك أدْنىٰ رَيْب ولَا يُمكِن الطَّعْن بِهم مِن وَجْه. فإذا أرادَ ـ بعدَ هـٰذا ـ أحَدٌ أن يَنْقُض هـٰذه الشَّعَائر، أو يَرُدَّ تِلكَ الأفكَار، فَلَه ذلك، إن كَان من أهْل العِلْم، ولـٰكن عَلَيه أن يَترَجَّل عَن صَهْوَة الغُرور والتَّدلِيس الإعْلَامِي، وسَطْوَة السَّيفِ والصَّوْلجان، وقُوَّة الدَّولَة والسُّلطَان، ويَنزل إلىٰ سَاحَة البَحْثِ العِلمِي، ويُشْهِر يَرَاعَ الاستِدْلَال، لَا أن يُسَفِّه نَفْسه وأتبَاعَه ومخَاطَبيه، وهُو يَنْسِف شَعَائرنَا وأفكَارنَا بالقَوْل أنها أفكَار عَوَام وأفعَال جَهَلَة؟!

---

(١) إنَّ جُلَّ ما ذَكَرته هُنا في تَرجمة «الشَّيخ الدَّرْبَنْدِي» قدس سره وسيرته العَطِرة، وهـٰكذا في عَرضِ كِتَابه القيِّم (أسرار الشَّهَادة)، مقتَبَسٌ، بَل مَنقُولٌ بالنَّصِّ من مقَدِّمة مُحَقِّقَيه: «الشيخ د. محمَّد جمعَة بَادِي الكُوَيتي»، والأستَاذ «عبَّاس مُلَّا عَطِيَّة الجمْري البَحْراني».

٢ـ (كامل الزيارات)

لـ «ٱبن قُولَويه القُمِّي» أحَدُ أعَاظِم الطَّائِفَة، المُتَّفَق على جَلاَلَته ووَثَاقَته وأمَانته وضَبْطِه وحِفْظِه وإتقَانه، وتَبَحُّرِه في الفِقْه والحدِيث.

يَتَمَيَّزُ هٰذا الكِتَابُ ومُؤَلِّفه، بدَرَجَة الاٰعتِبَار والوَثَاقَة التي تَرفَعه إلىٰ "الصَّحِيح" والتَّسلِيم التَّام بما فِيه، فَإن دَارَ النِّقَاشُ في هٰذا وقُدحَ في التَّسَالُم علىٰ صِحَّة أحَادِيثه كُلِّهَا، فهٰذا النِّقَاشُ ـ في نَفْسِه ـ كَاشِفٌ عن خَطَر الكِتَابِ وعَظَمَته، كَما لَو بُحِثَ في "عِصْمَة" أحَدِهِم، ونُقِضَ علىٰ المدَّعِين (المثبِتين) بشَارِدَة صَدَرَت مِنه هُنَاك، ووَارِدة سُجِّلت عَلَيه هُنا، تُنزِله عن رُتبة العِصْمَة، فإنَّ هٰذا يُثبِتُ لَه الدَّرَجَات العُليَا من العَدَالَة. لِذَا فقَد حَازَ (كَامِلُ الزِّيَارَات) الأهميَّة الكُبرىٰ والثِّقَة الأكِيدَة لَدَىٰ جميع الشِّيعَة، وذلك لموْقف صَاحِبه من الضَّبْط، ومحَلِّه من الصِّدْق، ومَكَانته من السَّدَاد، ومَقَامه من الأمَانة.

إننا أمَام شَخصِيَّة فَذَّة وكتَاب عَظِيم، لَا تَجِدُ شَيئاً من كُتُب "الرِّجَال" إلَّا وفيه هِتَافٌ بوَثَاقَته وإعْلَانٌ بجَلَالَة قَدْرِه، وهٰكذا كُتُب "الحدِيث"، فهِيَ مَشْحُونة بِما يَنِمُّ عن شِدَّة إعظَام أصْحَابها بـ (كَامِلِ الزِّيارات) ومُؤلِّفه، وطُمَأنينتهم بصِدْق لَهْجَته وضَبْطِه وحِفْظِه وإتقَانه. ويكفِيكَ في جَلَالَته أن يكُونَ «الشَّيخ المفِيد محمَّد بن النُّعمان» أعَلَا الله مَقَامَه، من خرِّيجي مَدْرَسته، والظَّاهِرُ (من عِبَارة بعضِ الرِّجَاليين كَ «النَّجَاشيِّ» وغَيره) أنه شَيخُه الفَذُّ في الفِقْه، وأنه ٱكتفىٰ بالأخْذِ عَنه. حتىٰ أنَّ «المفِيد» نعَتَه بـ "الصَّدُوق"، وقَد أطْلَقَ عَلَيه «السيِّد ٱبن طَاوُوس» كَذلك هٰذا اللَّقَب، لِفَرط صِدْقه ووَثَاقَته (وإن ٱخْتُصَّ باللَّقب بعدَ ذلك «الشَّيخُ الأجلُّ محمَّد بن عَليِّ بن بَابوَيه القُمِّي» ﵀، فكَان "الشَّيخ الصَّدُوق" عَلَماً فيه، دُونَ غَيره).

وأبوه أيضاً من الأعَاظِم الثِّقَات، وهُو المدْفُون بـ «قُم» في مَقْبَرة "شَيخَان".

قَالَ «العَلَّامة المجلِسي»: "... وكتَاب (كَامِلِ الزِّيارة) من الأُصُول المعرُوفَة، وأخَذَ منه «الشَّيخ» («الطُّوسي») في (التَّهذِيب) وغَيره من المحدِّثين".[1]

---

(١) (بحَار الأنوار) لـ «العَلَّامة المجْلِسي» ج١ ص٢٧.

وهُو من مَصَادِر «الحُـرِّ العَامِلي» في (الوَسَائل)، وقَد عَدَّه من الكُتُب المعتَمَدَة التي شَهِدَ بصِحَّتِهَا مُؤَلِّفُوهَا الثِّقَاتِ وغيرُهم، وقَامَت القَرائـنُ علىٰ ثُبوتها، وتَوَاتَرَت عَن مُؤَلِّفيهَا، وعُلِمَت نِسبتُهَا إليهم، بحَيْث لم يَبْقَ فيهَا شَكٌّ ولَا رَيْب، كَـوُجُودِهَا بخُطُوط أكَابر العُلَماء، وتَكَرُّر ذِكْرِهَا في مُصنَّفَاتِهم، وشَهَادَتِهم بنِسْبَتِهَا، ومُوَافقَة مَضَامينهَا لرِوَايَات الكُتُب المتَواتِرة.

ذَكَرَ «الرَّاوَندِي» في (الخرَائج والجرَائح) عَنه مَكْرُمة أحْبَبتُ نقلَها، فقَال:

ومنهَا (أيْ من مُعْجِزَات «صَاحِب الزَّمَان» عليه السلام): مَا رُوِيَ عن «أبي القَاسِم جَعفَر بن محمَّد بن قَولَويه» قَال: لما وَصَلتُ «بغدَاد» في سَنة تِسْع وثَلَاثين وثَلَاثمئة للحَجِّ، وهي السَّنَة التي رَدَّ «القَرامِطَة» فيهَا «الحَجَر» إلىٰ مكَانه من «البيْت»، كَانَ أكْبر همِّي الظَّفَر بمَن يَنْصِبُ «الحَجَر»، لأنه يَمْضِي في أثنَاءِ الكُتُب قِصَّة أخْذِه، وأنه يَنْصِبه في مَكَانه «الحجَّة» في الزَّمَان، كَما في زمَان «الحَجَّاج» وَضَعَه «زَينُ العَابِدِين» عليه السلام في مَكَانه فاْستَقَرَّ. فاْعتَلَلْتُ عِلَّة صَعْبَة خِفْتُ منهَا علىٰ نَفسي، ولم يتَهَيأ لي مَا قَصَدْتُ لَه، فاْستَنَبتُ المعَرُوف بـ «اْبن هشَام» وأعطَيتُه رُقعَة مختُومَة، أسْأل فيهَا عَن مُدَّة عُمْرِي، وهَل تكُون المنِيَّة في هـٰذه العِلَّة أم لَا؟ وقُلتُ (لَه): همِّي إيصَال هـٰذه الرُّقعَـة إلىٰ وَاضِع «الحَجَر» في مَكَانِه، وأخْذُ جَوَابه، وإنما أندُبكَ لهـٰذا. قَالَ: فقَال المعْرُوف بـ «اْبن هشَام»: لما حَصَلتُ بـ «مكَّة» وعُزِمَ علىٰ إعَادَة «الحَجَر»، بَذَلتُ لِسَدَنة «البَيْتِ» جُملَة تمكَّنْتُ معَهَا مِن الكَوْن بحَيث أرَىٰ وَاضِعَ «الحَجَر» في مَكَانِه، وأقمْتُ مَعي منهُم مَن يَمْنَع عَنِّي اْزدِحَامَ النَّاس، فكُلَّما عَمَدَ إنسَانٌ لِوَضْعِه اْضطَرَبَ ولم يَسْتَقِم، فأقْبَـلَ غُلَامٌ أسْمَر اللَّوْن حَسَن الوَجْه، فتَنَاوَلَه ووَضَعَه في مكَانه فاْستَقَام، كَأنه لم يَزُل عَنه، وعَلَتْ لِذَلك الأصْوَات، واْنصَرفَ خَارِجاً من البَاب، فنَهَضْتُ من مَكَاني أتبَعُه، وأدفَع النَّاسَ عنِّي يَمِيناً وشمالاً، حتىٰ ظُنَّ بي الاْختِلَاط في العَقْل! والنَّاسُ يُفرِجُون لي، وعَيني لَا تُفَارِقه، حتىٰ اْنقَطَعَ عن النَّاس، فكُنتُ أُسرِعُ السَّيرَ خَلْفَه وهو يَمشي علىٰ تَؤدَة ولَا أدركه. فلَما حَصَلَ بحَيْث لَا أحَدَ يَرَاه غَيري، وَقَفَ والتَفَتَ إليَّ فقَال: هَاتِ مَا مَعَك! فنَاوَلتُه الرُّقعَة، فقَال من غَير أن يَنْظُر فيهَا: قُل لَه: لَا خَوْفَ عَلَيكَ في هـٰذه العِلَّة ويكُون مَا لَا بُدَّ مِنه بعْدَ ثَلَاثين سَنَة!

قَالَ: فوَقَعَ عَليَّ الزَمَعُ (أي دُهِشَ وبُهِت) حتىٰ لم أُطِق حِرَاكاً، وتَركَني وانصَرَف! قَال «أبوالقَاسِم»: فأعْلَمَني بهذه الجمْلَة.

فَلَما كَانَ سنَة تِسْع وستِّين اعتَلَّ «أبوالقَاسِم» فأخَذَ ينظُر في أمرِه وتحصِيل جهَازِه إلىٰ قَبره، وكَتَبَ وَصِيَّته واستَعْمَل الجدَّ في ذلك. فَقِيلَ لَه: مَا هذا الخوْف؟ ونَرجُو أن يتَفَضَّلَ الله تَعَالىٰ بالسَّلَامَة، فَما عَلَيكَ مَخُوفَة. فقَال: هذه السَّنَة التي خُوِّفتُ فيهَا. فَمات مِن عِلَّتِه. ودُفِنَ ﷺ في «الكَاظمِيَّة» في الرَّوَاق الشَّريف، بمُحَاذَاة تلمِيذِه «الشَّيخ المفِيد».

هذا وقَد أعْلَن ﷺ وشَهِدَ في مَطْلَع كِتَابِه أنه لم يَرْوِ أو يُخرجُ إلَّا: " ... مَا وَقَعَ لَنَا من جِهَة الثِّقَاتِ من أصْحَابنَا رَحمهُم الله برَحمته، ولَا أخْرَجْتُ فيه حَدِيثاً رُوِيَ عن الشُذَّاذ من الرِّجَال، يُؤثَر ذلك عَنهُم عَن المذكُورِين غَير المعرُوفين بالرِّوَاية المشهُورِين بالحَدِيث والعِلْم " . والعِبَارة وَاضِحَة الدَّلَالَة علىٰ أنه لَا يَروِي في كِتَابه رِوَاية عَن «المعصُوم» عليه السلام، إلَّا وقَد وَصَلَت إليه من جِهَة الثِّقَات من أصحَابِنا رحمهم الله.

قَال صَاحِبُ (الوَسَائل) بَعد مَا ذكَرَ شَهَادَة «عليِّ بن إبراهيم» بأنَّ رِوَايات تَفْسِيره ثَابتَة ومَرْوِيَّة عَن الثِّقَات عَن «الأئمَّة» عليهم السلام: " وكَذلك «جَعفَر بن محمَّد بن قُولَويه»، فَإنَّه صَرِيحٌ بَما هُو أبلَغ من ذلك في أوَّل مَزَاره (أي هذا الكتاب) " .

وهكذا فَهِمَ بَعْضُ الأعَاظِم من عِبَارته هذه، وذَهَبَ إلىٰ تَوْثِيق كُلِّ مَن ذُكِر في أسَانيد كِتَاب «ابن قُولَويه»، والشَّهَادَة بأنَّهم من المشْهُورين بالحدِيث والعِلْم، وأدخَلَه في التَّوْثِيقَات العَامَّة، بينَما فَهِمَ آخَرُون من عِبَارته، مُجرَّد تَوثيقِ مَشَايخه بِلَا وَاسِطَة فحَسْب، أي الَّذِين أخَذَ عنهُم ورَوَىٰ مُبَاشَرة، لَا كُلَّ الذِين وَقَعوا في أسَانيدِهم.

قَال «آية الله العظمىٰ السيِّد أبوالقَاسم الخوئي» في (معْجَمِه) بعدَ نَقْل عِبَارة (الوَسَائل): " إنَّ مَا ذكَره متَينٌ، فيُحْكَمُ بوَثَاقَة مَن شَهِدَ «عليِّ بن إبراهِيم» أو «جَعفَر بن محمَّد بن قُولَويه» بوَثَاقَته، اللهُمَّ إلَّا أن يُبتَلى بمُعَارِض، وقَد زَعَمَ بَعْضُهُم اختِصَاص التَّوثِيق بمَشَايخه فَقَط، ولكنه خِلَاف ظَاهِر عِبَارته كَما لَا يخفىٰ " .[1]

---

(١) (مُعجَم رِجَال الحدِيث) لـ «السيِّد أبوالقَاسم الخوئي» ج١ ص٥٠.

إنَّ مُؤلِّفَ هذا الكِتَاب ـ كَما مَرَّ ـ أحَدُ أجَلِّ الأصحَاب في الحدِيث والفِقْه، و(كَامِل الزِّيارات) هذا من أهَمِّ كُتُب الطَّائفَة وأُصولها المعتَمَد عَلَيهَا في الحدِيث. وإن ثَبتَت دَلَالَة كَلَام «المؤلِّف» علىٰ مَا قَال، يُعَدُّ كلُّ مَن جَاءَ في أسنَادِ الكِتَاب ـ وَقد بَلَغوا أربعمئَة رَاوٍ ـ من الثِّقَات، بشَهَادة الثِّقَة العَدْل «ابن قولَويه». بنىٰ علىٰ هذا المبنىٰ العَلَّامة الرِّجَالي والفَقيه الأُصُولي «السيِّد أبوالقَاسِم الخوئي» في (مُعجَمه)، وصَرَّح به في مَوَاضِعَ عَدِيدَة من كِتابه، لكنه عَدَلَ عن هذا المبنىٰ في أوَاخِر عُمْرِه الشَّريف.[١]

الكِتَاب بُنيَّ في "المزَار"، يجمَعُ الأحَادِيثَ الشَّريفَة التي نَدَبَت إلىٰ زِيَارة مَرَاقِد «المعصُومين» والمشَاهِد المشرَّفة، والرِّوَايات التي تُبَيِّن كَيفيَّتها، ثُمَّ فَضْلَهَا، كَما يتَنَاوَل أغلَب مَا يتَعَلَّق بهَا ويَحُوم في فَلَكِهَا... يَبدَأ بـ «رَسُولِ الله» و«المدِينَة المنوَّرة» بقَبْرِه الشَّريف، ثُم «أميرالمؤمنين» و«الكُوفَة»، فـ «الحسَن السِّبْط» وأئمَّة «البقِيع»، فـ «الحسَيْن» و«العَبَّاس» بـ «كَرْبَلَاء»، ثُمَّ «الكَاظِمَيْن» بـ «بغْدَاد»، فـ «الرِّضَا» في «خُرَاسَان»، ثُم «العَسْكَرِيَّيْن» بـ «سَامَرَّاء»، ثُم الزِّيَارَات الجَامِعَة، و«فَاطِمَة المعْصُومَة» بـ «قُم»، و«السَّيِّد عَبدالعَظِيم الحسَنِي» بـ «الرَّي».

بُنيَّ «عبدالزَّهرَاء» إنَّنِي أعْرِضُ لكَ هذا السِّفْر العَظِيم، وأدعُوكَ لِقَراءَة متَوَاصِلَة فِيه، فهُو لَيْسَ كِتاباً تَقْرَؤه فتُتِمُّه وتَفْرغ منه فتُودِعُه الخزَانَة، بل هُو مما يَجِبُ أن تَتْلُوه تِلَاوَة، وتتَّخِذه وِرْداً تكَرِّره كُلَّ صُبْح ومَسَاء، حتىٰ تختِمَه مَرَّات وكَرَّات فتَحْفَظه ويَرسَخ في نَفسِك ويَجري علىٰ لِسَانِك. ولَا يَفُوتني أن أُشير إلىٰ دَاءٍ أرَاه نَزَل ببَعضِ المؤمنين، وآفة يَسْألني عَنهَا كَثِيرٌ من الشَّبَاب، إنَّهُم يَسْأمُونَ من قِراءَة كُتُب "الحدِيث"، ويَملُّون ويَضْجُرُون، ويجدُون فيهَا رتَابة أو جموداً وجَفَافاً... فإذا رَأيتَ في نَفْسِك شَيئاً من ذلك، فأعْرض نَفْسَكَ علىٰ "طِبيبٍ" رَوْحَاني، وافْزَع إلىٰ الدَّوَاء والتَمِس العِلَاج، واعلَم أنه من سُقْم أصَابكَ وغَبَن نَالَك، حِين استَعَضْتَ الأدْنىٰ بالذي هُو خَيْر، فحُجِبْتَ عن أنوَارِ حَدِيثِهِم، وسَكَنْتَ ظُلْمَة الوَحْشَة منهَا والأُنس بغيرها!

---

(١) مَا ذكَرته هُنا في سيَاق عَرض الكِتَاب وتَرجمة المؤَلِّف، مُقتَبَسٌ من مُقدِّمة «الشِّيخ جَوَاد القيُّومي» ولجنة تحقِيقِ الكِتَاب في طَبعته الثالِثة ١٤٢٤هـ، من إصدَار: «نشر الفقاهة ـ قُم».

٣ـ (الخصائص الحسَينيَّة)

ظَهَر في القَرنِ الثَّاني عَشَر الهجْري في الأوسَاطِ الشِّيعِيَّة والمحَافِل الإيمانيَّة، عَالِمٌ دِينيٌّ كَبير، فَبَرزَ ولَفتَ الأنظَار، وذَاعَ صِيتُه ولمعَ نَجْمُه وصَارَ يُشَارُ إليه بِالبَنَان، لَا بَينَ عَامَّة النَّاسِ وفي أوسَاطِ الخطَبَاء الحسَيْنِيين ورُوَّاد المجَالِس وأربَاب الحسَينيَّات فَحَسْب، بَل في الحوْزَات وبين العُلَماء الأعْلَام، فتَعَرَّفُوا عَلَيْه كَشَخْصِيَّة عَظِيمَة مَا لَبِثَ أن أصْبَحَ مِن أسَاطِين عَصْرِهم ونَوادِر زَمَانهم...

إنه «الشَّيخ جَعفَر بن المولىٰ حُسَيْن التُّسْتَري» ﵀... عَالِمٌ وَرع، وفَقِيهٌ جَلِيل، ومَرجع مُقَلَّد، ومُؤلِّف مُدَقِّق، وخَطِيبٌ بَارع، ورَاثٍ مُجيد لـ «سيِّد الشُّهَدَاء» ﵇، وَقَفُوا مَعَه علىٰ ظَاهِرة غَريبة بعض الشَّيءِ (لنُدْرَتها)، وهي أن يتَصَدَّى للوَعْظِ والإرشَاد، وقِرَاءَة المجَالِس الحسَينيَّة والمرَاثي العَاشُورائيَّة، عَالِمٌ من الطِّرَاز الأوَّل، بَلَغَ الفقَاهَة والمرجعِيَّة، مما لم يَتكَرَّر إلَّا في حَالَات قَلِيلَة، أتينَا علىٰ ذِكْر إحْدَاهَا في شَخْصِ «المولىٰ الدَّرْبَنْدِي» ﵀، فكَان لِذلك وَقْعُه وأثره علىٰ النَّاس، حِين يَرَوْن "خَطِيبهَم" هُو مَرجع تَقْلِيدهُم، وأرفَع شَخْصِيَّة في عَالَم الإسْلَام، أي نَائب «إمَام الزَّمَان» ﵇!

كَانَ ﵀ ذَا همَّةٍ عَالِيَة، وحِسٌّ متَميِّز بالمسؤوليَّة الشَّرعيَّة والأخْلَاقِيَّة، ومُلَامَسَة حَاجَات النَّاس العَقَائِدِيَّة والرُّوحِيَّة، وضَرُورَاتِ الإرشَادِ الدِّيني، لِذَا كَان في غَاية الحِرْصِ علىٰ رُقِيِّ المنبر لِرثَاء «سيِّد الشُّهَدَاء» ﵇، فهُو السَّبِيل الأعظَم والوَسِيلَة الفُضْلى سَوَاء من حَيث الأجْر والثَّوَاب، أو من حَيث الآلِيَّة الفَنيَّة والكَيفيَّة العَمَلِيَّة للتَّبليغ، وكَانَ يُجيد ذلك ويُتْقنه، فيَجْتَمع حَوْلَ مِنْبره الأُلوف (مما لَم يَكُن مَألوفاً في ذلك العَهْدِ، بَل حتىٰ في عَهْدِنا اليَوْم)، لما كَان يُحسِن وَصْفَ الفَاجِعَة وتَصْوِيرِهَا، ويَبرَع في بَيَان المأسَاة وتَعْدِيدِهَا، ويَنْجَح في تَسْلِيطِ الضَّوْء علىٰ نكَاتٍ وجَوَانبَ لم يَلتَفِت إليهَا غَيره، فكَانت أشْبَه بِمُبتَكَرات، لَه فَضْلُ سَبْق طَرْحهَا وتَناوُلها... سَتَقِف في (الخصَائِص) علىٰ بَعضِهَا، من قَبيلِ مُقَارَنته بَيْنَ «سَيِّد الشُّهَدَاء» ﵇ والحجِّ، وبَين ٱستِغَاثَات «المولىٰ» ﵇ وقَرَابينه في «كَربَلَاء»، وبين تَلبِيَات وقَرَابين الحجِيج، وهكذا تَصوِيره ذُهُول الملَائكَة ودَهْشَتِهَا عِندَ هبُوطهَا من الجِنَان إلىٰ عَرَصَات «كَربَلَاء» حِين ٱحْتِدَام المعْرَكَة والتِهَابِ الوَطِيس.

ولُدَ «الشَّيخ جعفَر التُّسْتَرِي» في العُقُود الأُولىٰ من القَرْن الثَّاني عَشَر، ونَشَأ في بيْت عِلْم وزُهْد ووَرَع، وبَعدَ فَرَاغِه من المقدِّمَات والسُّطُوح في «كَربَلَاء المعَلَّاة»، أنتَقَلَ إلىٰ «النَّجَفِ الأشْرَف» وحَضَرَ علىٰ «الشَّيخ حَسَن» صَاحِب (أنوَار الفقَاهَة)، و«الشَّيخ محمَّد حَسَن» صَاحِب (الجوَاهِر)، ولَازَم الشَّيخ الأعظَم «مُرْتضىٰ الأنصَارِي» سَنَوَات عِدَّة، وسَتَجِدُ أنَّ كُلَّ مَن تَرْجَم لَه وتَناوَل سِيرته، أهتَمَّ بمَوْته أكثر من مِيلَاده! ذلك لما وَقَعَ عِند وَفَاته، التي صَادَفَت لَيلَة "الأربَعِين"، العِشْرِين من صَفَر عَام ١٣٠٣ هـ في طَرِيقِه إلىٰ «العِرَاق» قَادِماً من زيَارة «عَليِّ بن مُوسىٰ الرِّضَا» عليه السلام... فَقَد تَنَاثَرَت النُّجُوم في تِلك اللَّيلَة، وتَسَاقَطَت الشُّهُب في السَّماء بشَكْل أثَارَ أستِغْرَاب النَّاس وحَيرتهم، حتىٰ أنَّ مَادَّة تأريخ وَفَاته (بحِسَاب الجمَّل) عُرِفَت وأشتُهِرَت بـ "كَوَاكِب قَد نثرت"! كَما أستَخْرَجَهَا تِلمِيذه «مِيرزا محمَّد الهمَدَاني» وذكَرهَا في رِسَالتِه التي أَلَّفهَا في تَرْجمة أُستَاذِه المؤلِّف بَعدَ وَفَاته، وسَمَّاهَا (غَنِيمَة السَّفَر في تَرْجَمة الشَّيخ جَعفَر)، وفي مَادَّة التَأريخ إشَارة إلىٰ وَاقِعَة تِلك اللَّيْلَة من تَنَاثُر النُّجُوم حَيْث يُقَال أنه لم يُسْمَع بمِثْله في التَّوَارِيخ إلَّا في سَنَة وَفَاة «الشَّيخ الكُلَيني» (٣٢٩ هـ) كَما ذكَره «النَّجَاشي».[(١)]

(الخصَائص) بُنيَّ كتَاب رَشَحَ من مِدَاد العِلْم وخُطَّ بيَرَاع التَّخَصُّص، وهُو بَعدُ هٰذا، كِتَابٌ مِلْؤُه الإخْلَاص لـ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، ومَن يَقْرَأ في "تَصْدِير" المؤلِّف لِكِتَابه، (قَبْلَ المقَدِّمَة)، الذِي ذكَر فيه وعَدَّد أسبَابَ إقدَامِه علىٰ هٰذا التَّأليف، وقَد ذَرَّفَ علىٰ السِّتِين، ومَن نَظَرَ في "الحَالَات الأثنتي عَشَر" التي أستَعرَضَها مِن "صِرَاعِه" مَع الخَوْف والرَّجَاء... وقَفَ علىٰ مَدَىٰ الصِّدْق والإخْلَاص في هٰذا العَمَل، وهُو عُنْصُرٌ أسَاسٌ يَلْحَق بالأوَّل أي العِلْم، يَبلُغ بالعَمَل التَّمام والكَمال.

وقَد عَرَض فيه مَا أختُصَّ به «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وتميَّز، فَذَكَر قدس سره ثَلَاثِين عُنْوَاناً ومَقْصَداً، أسرِدهَا لكَ علىٰ نَحْوِ الفِهْرِست، لِتَتَأمَّل، فَلَعَلَّ وَاحِداً مِنهَا يجتَذِبُك ويَأخُذ بيَدِكَ إلىٰ رُبُوع هٰذا السِّفْرِ العَظِيم...

---

(١) أنظر: (الذَّرِيعَة) لـ «آغَا بُزُرْك الطَّهْرَاني» ج٧ ص١٦٦.

الأوَّل: عُنوَان خُصُوصِيَّاته وفي عَوَالِـم وُجُوده ومَحالِّه مِن أوّل خِلْقَته قَبلَ الخَلْقِ وبَعْدَه إلىٰ يَـوْم الانقِضَـاء. وفيه مَا يَخصُّه في ابتِدَاءِ خَلْق نُوره، ومَا يَخصُّه في انتِقَالات نُورِه في العَـوَالِم، في عَـالَـم الـذَّرِّ والأشْبَـاح، وفي عَـالَـم انعِكَـاس الأنـوَار في ظَهْـرِ «آدَم» عليه السلام لِمُشَاهَدَته، وفي عَالَـم انتِقَال نُورِه إلىٰ الشَّجَرة في الجَنَّة، وفي انتِقَالِه في الدُّنيَا وخَصَائص الحَمْل به، ثُمَّ مَا يَختَصُّ بِحَال وِلَادَته وطُفُولَته، وخَصَائِص مَحلِّه عِندَ شَهَادته، ومَحلِّه بَعدَ شَهَادَته بـالنِّسْبَـة إلىٰ الرُّوح والرَّأس والجسَد، ثُـم في خَصَائِص مَحَلِّه يَـومَ القِيَامَة، فخَصَائص مَحَلِّه بَعدَ يَوم القِيَامَة.

الثَّاني: خُصُوصِيَّته وصِفَاته وأخْلَاقه وعبَادَاته الدَّائمَة المطْلَقَة الثَّابتَة لَه مُدَّة عُمرِه.

الثَّالِث: خُصُوصيَّة لَه في صِفَـاتٍ وأخْلَاقٍ وعبَادَاتٍ ظَهَـرَت منه يَوْم «عَاشُورَاء»، بالنِّسْبَة إلىٰ الجمْع بين العِبَادَات الظَّاهِريَّة والبَّاطِنِيَّة، والجمَع بَين مَا يُمكِن جَمعه، ومَا لَا يُمكِن جَمعه مِن العِبَادَات والصِّفَات الحسَنَة، والجمْع بينَ أقسَام البَلَايا وتحمُّلهَا والشُّكر عَلَيهَا، ومن جَمْع الكُلِّ في عِبَادَة خَاصَّة به، لم يَعْبُد اللهَ بهَا أحَدٌ قَبلَه!

الرَّابع: الألطَاف والتَّبجِيل الذِي خَصَّه اللهُ به.

الخامِس: في بَيَان المظْهَر لما ذُكِرَ من اللُّطْفِ الرَّبَّانِيِّ الخَاص.

السَّادِس: في خُصُوصيَّاته المتَعَلِّقَة بالخُشُوع للذِكْر والرِّقَّة والبكَاء عَلَيه.

السَّابع: في خُصُوصِيَّات زِيَارته.

الثَّامِن: في خُصُوصِيَّاته المتعَلِّقَة بالقُرآن المجِيد.

التَّـاسِع: في خُصُـوصِيَّـاته المتَعَلِّقَـة ببيتِ الله الحرَام، وأنه "بَيتُ الله" حَقِيقَة، وسِرُّ المعَادَلَة مَع الحجِّ، وكَيفَ جَعَل اللهُ لَه حُجَّاجاً مخصُوصِين!

العَاشِر: في خَصَائصِه المتعَلِّقَة بالملَائكَة.

الحَـادِي عَـشَر: في خَصَائصِه المتَعَلِّقَة بـالأنبيَاءِ العِظَام: «آدَم» و«نُوح» و«إدرِيس» و«إبراهِيم» و«إسماعِيل» و«يَعقُوب» و«يُوسُف» و«صَالَح» و«هُود» و«شُعَيْب» و«أيوب» و«زكَرِيَّا» و«يحيىٰ» و«مُوسىٰ» و«دَاوُد» و«سُلَيمان» و«عيسىٰ» عليهم السلام.

الثَّاني عَشَر: فيما يتَعَلَّق بخَاتم الأنبيَاء صلى الله عليه وآله.

ومما تَجدُر الإشَارة إليه أنَّ مِن خَلَفِ صَاحِب ‹الخصَائص› المعَاصِر «الشَّيخ محمَّد تَقي ابن الشَّيخ كَاظِم بن محمَّد عَلي بن الشَّيخ جَعفَر التُّستَري» المتَوفى ١٤١٥هـ، قَال عَنه «الآغَا بزُرك الطَّهرَاني» : "عَالم مُصَنِّفٌ بَارع، وُلدَ في «النَّجَف» ونَشَأ بها على حُبِّ العِلْم والفَضِيلَة اللذَين وَرِثهُما عَن آبائِه وعَن جَدِّه الأعلىٰ «الشَّيخ جَعفَر» ، الغَنِيِّ عَن الوَصْف".[1] ويقُول عَنه صَاحِب ‹الموْسُوعَة الفِقْهِيَّة الميسَّرة›: "تَشَرَّفْتُ بزِيَارته في بَلدَة «تُسْتَر» عِدَّة مَرَّات، واشْتَرَكْتُ في المؤتَمر الذِي انعقَدَ لأجْلِه وهُو في قَيْدِ الحيَاة. كَانَ زَاهِداً عَن الدُّنيا وزخَارفِهَا، مُكِبّاً علىٰ التَّأليفِ والتَّصنِيف، لم يَتْركْه مَا كَانَ ذلكَ ممكِناً لَه. وكَانَ يُقيم الجماعَة لأهْل بَلْدَته مَع كِبَر سِنِّه، ولَه عنْدَهُم حُرْمَة كَثيرة حَيّاً ومَيِّتاً. لَه تَأليفَاتٌ كَثيرة أهمهَا: ‹قَامُوس الرِّجَال›: كَتَبَه بهَدَف التَّعلِيق والنَّقْدِ علىٰ كِتَاب ‹تَنقِيح الرِّجَال› لـ «المامقَاني»، استَفَدْنَا مِنه في ‹الموْسُوعَة›، و‹النُّجْعَة في شَرح اللمْعَة›: وهُو شرح رِوَائيٌّ لـ ‹اللمْعَة الدِّمَشْقِيَّة› لـ «الشَّهِيد الأوَّل»، في أحَدَ عشَر مجلَّداً، و‹الأخبَار الدَّخِيلَة›، و‹نَهج الصَّبَاغَة في شَرح نَهج البَلاغَة›، وغَيرهَا".[2]

وبَعدُ بُنيَّ، فـ ‹الخَصَائص› كِتَابٌ عَظِيم، مجهُول القَدْر وخَافي المنزِلَة لَدَىٰ هـذا الجيل، حتىٰ بمُثَقَّفِيه وأربَاب المطَالَعه من الشَّبَاب، حَبَّذَا لَو قُيِّض لَه مَن يخرجُه، أو يُخرِج مَادَّته والأفكَار الخطِيرة التي تَنَاوَلَها، ويَنقُلها إلىٰ لُغَة عَصْرِيَّة، وسَبْكٍ وعَرْضٍ أقْرَب إلىٰ تَنَاوُل القُرَّاء في زَمَاننا. فَأنتَ هُنا في رِحَاب الأصَالَة والتَّخَصُّص، ثم النَّفَحَات الرَّوْحَانِيَّة المضَمَّخَة بعَبَق الإخْلَاصِ، الذِي غَدَا سِلْعَة نَادِرة في تَأليفَات زَمَانِنا!

وكَانَ قَد خَتَم تَصْدِيره بعِبَارة صَوَّر فيهَا كِتَابه، أحْبَبْتُ أن أنقُلَها:

"خَصَائِصُ الحسَيْن ومَزَايا المظْلُوم... أرجُو فَضلَ ربِّي أن يجعَلَه لي في ظُلُماتِ القَبْر ضِيَاءً ونُوراً، ومن مخَاوِف الفَزَع الأكبر أمْناً وسُروراً، وعنْدَ إيتَاء الكُتُب، كِتَاب حَسَنَاتٍ يُخرِجه لي ألقَاهُ مَنْشُوراً، وفي مخَازِي ذلك اليَوْم كَرَامَة وحُبوراً، ومَدَىٰ الأعصَار ذِكْراً مَوْفوراً، بحَوْل مِنه وقُوَّة، مَا تَوفيقي إلَّا بالله عَلَيه تَوكَّلتُ وإليه أُنيب".

(١) ‹نقبَاءُ البَشَر› لـ «آغَا بزُرك الطَّهْراني» ج١ ص٢٦٥.
(٢) ‹الموسُوعَة الفقهِيَّة الميسَّرة› لـ «الشيخ محمَّد عَلي الأنصَاري» ج٣ ص٥١٧.

٤ـ (الفَوادح الحسَينيَّه)

لـ «الشَّيخ حُسَين العُصْفُور بن الشَّيخ محمَّد بن أحمد الدَّرَازِي البَحْرَاني» المتَوَفىٰ بل المقتُول شَهيداً ١٢١٦هـ، ابن أخِ «الشَّيخ يُوسُف» ﷺ صَاحِب (الحدَائق) وتلمِيذه وأحَدُ المجَازِين بإجَازته.

لَا يَكَادُ يَخلُو كِتَابٌ من كُتُبِ التَّراجم، إلَّا النَّزرِ الشَّاذ، من الثَّنَاءِ عَلَيه وإطرَائه والإشَادَة بعُلُوِّ كَعْبِه في المعقُول والمنقُول، وسُمُوِّ درَجَته في الفِقْه والحدِيث والأُصُول، حتىٰ عَدَّه بَعضُهم من المجَدِّدِين للمَذْهَب علىٰ رأسِ المئَة الثَّانية بَعد الألف، كَما ألمَحَ إليه «العَلَّامَة الأميني» ﷺ في (شُهَدَاء الفَضِيلَة). وقَال السَّيد «مُحسِن الأمين» في (أعيَان الشِّيعَة): كَان متَبَحِّراً في الفِقْه والحدِيث، طَوِيلَ البَاع، كَثير الاَطِّلَاع ، انتَهَت إلَيْه الرِّئَاسَة والتَّدْرِيس. وقَالَ عَنه الشَّيخ «آقَا بُزُرك الطَّهْرَاني» في (الكِرَام البَرَرَة) : كَانَ من المصَنِّفِين المكثرين المتَبَحِّرين في الفِقْه والأُصُول والحدِيث وغَيْرِهَا.

ظَهرَت ﷺ بَرَاعَتُه في أكثر العُلُوم الشَّرعيَّة كَالتَّفسِير والحدِيث والشِّعْر والأدَب واللُّغَة والكَلَام والمرَاثي، حَيث أتىٰ بعَمِيق فِكْرِه الصَّائِب، ودِقَّة ذِهْنه الوَقَّاد مَا يُبهِرُ العُقُول ويَخْلِبُ الأنظَار... ومن عَجَائب أمْرِه أنه كَان يُملي كُتُبَه الاَستِدْلَالِيَّة الموسَّعَة كَ (أنوَار اللوَّامع في شَرح مَفَاتِيح الشَّرائع) لـ «الفَيْضِ الكَاشَاني»، و(رَوَاشِح العِنَاية الرَّبَانِيَّة في شَرح الكِفَاية الخُرَاسَانِيَّة)، وكتَاب (السَّوَانح النَّظَرِيَّة في شَرح البِدَاية الحُرِيَّة) لـ «الحرِّ العَامِلي»، يُملِيهَا علىٰ بَعضِ تَلَامِذَته، اعتِماداً علىٰ حَافِظَته، وهٰكذا يَسُوق أدِلَّة كُلِّ مَسْألَة فِقْهِيَّة أو عَقَائِدِيَّة بجزئيَّاتها التَّفْصِيليَّة، من دُونِ تجشُّم الرُّجُوع إليهَا عِنْد التَّصنِيفِ والتَّأليف، من هُنَا فإنَّ النُّسَخَ الخطِّيَّة المَوْرُوثَة عَن مَكْتَبَتِه، تَرَاهَا كُتِبَت بخَطِّ تَلَامِذَتِه وخُتِمَت أجزَاؤهَا بخَاتمه الشَّرِيف وإمضَائه فَقَط.

قَالَ صَاحِبُ (أنوَارِ البَدْرَيْن): العَلَّامَة الفَاضِل الفَهَّامَة الكَامِل، خَاتمة الحفَّاظ والمحَدِّثِين، وبَقِيَّة العُلَماءِ الرَّاسِخِين الإخبَاريين، الفَقِيه النَّبِيه «الشَّيخ حُسَيْن بن العَالم الأمجَد الشَّيخ محمَّد بن الشَّيخ أحمد آل عُصفُور الدَّرَازِي البَحْرَاني» وهُو المعنِي في (لُؤلُؤة البَحْرَين) (الشَّيخ يُوسف البَحْرَاني) بـ «حُسَين».

كَانَ رَحمه الله تَعالىٰ من العُلَماء الرَّبَّانِيين والفُضَلاءِ المتَتَبِّعين والحفَّاظِ الماهِرين مِن أجِلَّة مُتَأخِري المتَأخِّرين وأسَاطِين المذْهَب والدِّين، بَل عَدَّه بَعضُ العُلَماء الكِبَار من المجَدِّدين للمَذْهَب علىٰ رأسِ ألفٍ ومئتَيْن، كَانَ يُضْرَبُ بِه المثَل في قُوَّة الحافِظَة، مُلَازِماً للتدْريسِ والتَّصنِيف، والمطَالَعَة والتَّأليف، مُوَاظِباً علىٰ تَعْزِية «الحسَين» عليه السلام في بَيْتِه.

وحَدَّثني العَالم الفَاخِر المرحُوم «الشَّيخ نَاصر بن نَصْرالله القَطِيفِي» رحمه الله وكَان علىٰ غَير مَذَاقِه (لَعلَّه يَقْصِد أنه كَانَ أُصُولِيّاً لَا أخبَارِيّاً)، عَمَّن يَثِق به، أنَّ هذا الشَّيخ أتىٰ بِلَاد «القَطِيف» مَسَافِراً لحجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرَام وزيَارة «النَّبيِّ» صلى الله عليه وآله، واْجتَمَعَ بالسيِّدِ الأمجَد «السيِّد محمَّد الصِّنْدِيد القَطِيفي» رحمه الله، وكَانَ عِندَ الأخِيرِ من الكُتُب النَّادِرَة النَّفِيسَة مَا لَا تُوجَد عِندَ غَيْره، وكَانَ ضَنِيناً بهَا، فَوَقَعَ «الشَّيخُ» علىٰ كِتَاب في الأخْبَار كَانَ يَبْحَث عَنْه، فَسَألَه أن يَحمِلَه مَعَه في سَفَرِه علىٰ أن يُرْجِعَه عِندَ عَوْدَته، فَأبىٰ «السيِّد»، لكنه مَكَّنه مِنه فَتْرة بقَائِه في «القَطِيف»، فاْستَعَاره ثَلَاثَة أيام ثُمَّ أرجَعَه إليْه، وسَافَر إلىٰ «مَكَّة»، وبَعدَ قَضَاءِ مَنَاسِكه عَاوَدَ مُرُورَه بـ «القَطِيف»، فاْجْتَمَع بـ «السيِّد محمَّد» وطَلَب إليْه أن يَأتي بذَلك الكِتَاب، فَأخْرَجَ إليْه نُسْخَة منه جَدِيدَة، وأخْبَره بَأمرِهَا، وأنه إنَّما أمْلَاهَا في سَفْرته تِلك اْعتِماداً علىٰ حِفْظِه لَه مُدَّة اْستِعَارته! فتَعجَّبَ مِنه مَع جملَة الحَاضِرِين، فَقَابَلُوه فَلَم يجِدُوا شَيئاً منه يخَالِفُ الأصْل إلَّا يَسيراً لَا يُذكَر.

وبالجمْلَة فَهُوَ من أكَابِر عُلَماءِ عَصْرِه وأسَاطِين فُضَلَاءِ دَهْرِه عِلْماً وعَمَلاً وتَقْوَىً ونُبلاً، وبَحثُه مملُوءٌ من العُلَماء الكِبَار مِن «البَحْرِين» و«القَطِيف» و«الأحْسَاء» وأطرَاف تلك الدِّيَار، وفتَاوَاه وأقْوَالُه مَنقُولَة كَثيرةٌ مشتَهِرة، من تَلَامِذَته وغَيْرِهم، في حَيَاته وبَعدَ وَفَاته، ضَاعَفَ اللهُ حَسَنَاته. وهُو يَروِي عَن أبيه «الشَّيخ محمَّد»، وعَن عَمَّيْه «الشَّيخ يُوسُف» و«الشَّيخ عَبْدعَلي»، ويَروِي عَنه جماعَة كَثيرة منهُم: «الشَّيخ أحمد بن زَيْن الدِّين الأحْسَائي»، و«الشَّيخ عبدالمحْسِن اللويَمِي الأحْسَائي»، واْبنه «الشَّيخ حَسَن»، و«الشَّيخ عَلي بن الشَّيخ عَبدَالله بن يحيى الجَذْحَفْصِي»، و«الشَّيخ محمَّد بن خَلَف السِّتْرِي البَحْرَاني»، و«الشَّيخ محمَّد عَلي القَطَرِي البِلَادِي البَحْرَاني»، و«الشَّيخ عَبْدعَلي بن قضيب القَطِيفي»، و«الشَّيخ مَرزُوق الشُّوَيكِي الخَطِّي»، وغَيْرِهم.

وقَد كَانت «البَحْرَين» في عَصْرِه وقَبْلِه عَامِرة بالعُلَماء الأعلَام الأنجَاب، والمشتَغِلين والطُّلَّاب، مَع مَا هِي فيه في الغَالِب من الحوَادِث الكَثِيرة والخرَاب. وقَد تُوُفي ﷺ شَهيداً سَنَة ١٢١٦هـ، بَعدَ مُضِيٍّ ثَلاثَة أيام على ضَرْبَة تَلَقَّاهَا من مَلعُون مِن أعدَاء الدِّين، بحَرْبة في ظَهْر قَدَمِه. ودُفِنَ بقَرْيَتِه «الشَّاخُورة»، وقَبره اليَوْم مَزَارٌ مَعرُوف، وقَد جُدِّدَ بِنَاؤه أخيراً بفَنٍّ مِعْماريٍّ بَدِيع.

ومن مُؤلَّفَاته: (سَدَاد العِبَاد) وهُو رسَالَته العَمَلِيَّة الشَّهِيرة التي مَا زالَ الأخبَارِيُّون يَعمَلُونَ بِهَا، وكِتَاب (المحَاسِن النَّفْسَانيَّة في أجْوِبَة المسَائِل الخُرَاسَانيَّة)، ولَه (أجْوِبَة المسَائل الشِّيرَازيَّة) و(أجْوِبَة المسَائِل القَطِيفِيَّة)، و(الجنَّة الوَافِيَة في أحْكَامِ التَّقِيَّة)، و(رَسَالَة الأشرَاف في المنْع عَن بَيْع الأوْقَاف)، و(بَاهِرَة العُقُول في نَسَبِ الرَّسُول)...

أمَّا كُتُبه في عَزَاء «أهْل البيْت» عليهم السلام فكَثِيرةٌ، منهَا:

(مُهيِّجُ الكَمَد في وَفَاة النَّبي محمَّد ﷺ)، و(سَحَائِبُ المصَائِب في وَفَاة الإمام عليٍّ بن أبي طَالِب عليه السلام)، و(الدُّرَة الغَرَّاء في وَفَاة فَاطِمَة الزَّهْرَاء عليها السلام)، ولَه كُتُبٌ في: (وَفَاةِ الإمَام الحسَن عليه السلام)، و(وَفَاةِ الإمَام زَيْن العَابِدِين عليه السلام)، و(وَفَاة الإمَام محمَّد البَاقِر عليه السلام)، و(وَفَاة الإمَام الصَّادِق عليه السلام)، و(وَفَاةِ الإمَام الكَاظِم عليه السلام)، و(وَفَاة الإمَام الرِّضَا عليه السلام)، و(وَفَاة الإمَام الجَوَادِ عليه السلام)، و(وَفَاة الإمَام الهادي عليه السلام)، و(وَفَاةِ الإمَام العَسْكَرِيِّ عليه السلام).

وعلى رَأسِهَا (الفَوَادح الحَسينيَّة والقَوَادح البَيْنِيَّة) في «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، المشْهُور بمَقْتَل «آل عُصْفُور». [1]

وهُو كِتَابٌ على نهج (مُنْتَخَب الطُّرَيحي) الذي يُقْرأ قَبْلَ المنْبَر في «بِلَادِ الخليج» وبَعضِ مُدُن «العِرَاق»، بَل يتلى تَلاوَة وكَأنه اَستِدْرَاكٌ مُعَجَّلٌ لما قَد يَفُوت الخطِيب ويَسْقُطُ مِن مِنْبَره في حَقِّ المصِيبَة والعَزَاء، ومَا يُحقِّق غَرَض الشَّارع المقَدَّسِ في سَنِّ الشَّعِيرة، ويُبرِئ ذِمَّة الوَاقِف والبَاذِل في الصَّرْفِ عَلَيهَا.

(١) أنظُر: (أعيَان الشِّيعَة) ج٦ ص١٤، و(أنوَار البدرين) لـ «الشَّيخ عَلي البلَادِي البحراني» ص٢٠٧، ومقَدِّمة (تَتِمَّة الحدَائق النَّاضِرة) بقَلَم «ميرزا محسِن والشَّيخ أبي أحمد آل عُصفور» ج١ ص٥، و(الذَّرِيعة) لـ «آغا بزرك الطِّهْراني» ج١٦ ص٣٦٤.

والكِتَاب لَه مَكَانته الخَاصَّة في «البَحْرَين»، وَضَعَه مُؤلِّفه، ذلك العَالم الربَّاني، لِيُقْرأ في عَشَرة المحَرَّم يَوْماً ولَيْلاً، إذ المجَالِس هُنَاكَ علىٰ هٰذا التَّرتيب، ورُزءُ «الحسَين» عليه السلام هو وِرْدُ المؤمنين "كُلَّ صُبْح ومَسَاء". لِذَا وَضَعَه ورتَّبَه رحمه الله علىٰ عِشَرين مُصِيبَة بعَدَدِ اللَّيَالي والأيام، وتَشْتَمِل كُلُّ مُصِيبَة علىٰ فَوَادح.

وهُـو تُحفَـة رُوحِيَّـة رَائعَـة، وسِفْـرٌ عِلْـميٌّ ثَـمِين، وعَـمَلٌ فَـنِّيٌّ بَـدِيع، أُوصِيكَ بُنيَّ بمُطَالعَتِه ومُدَاوَمة الرُّجُوع إلَيه، وإن أمكَنَك إحْيَاء سُنَّة تِلَاوَته قَبْل المنبر، ولَا سِيَّما إذَا لم يَكُن خَطِيبكَ ممن يُكْتَفَى به، فنِعْمَ العَمَل والخيَار...

فَهو غَزِيرٌ في مَادَّته، يَحوِي مَعَارِف عَقَائِدِية ووَلَائيَّة رَاقِيَة، مَأمونَة المأخَذ والمنبَع، فَهي مُسْتَقَاة من أحَادِيث «الأئمَّة المعْصُومين» عليهم السلام، ومن التَّوَارِيخ المعْتَبَرة، والقَوَاعِد العِلميَّة التي يُرتكَز ويُعْتَمَد عَلَيهَا في نَقْل الحدَثِ والقَوْل بِوُقُوعه. ويَتَضَمَّن نَصَائح ووَصَايَا حَكِيمَة، تُنبِّه القَارِئ وتُرشدُه إلىٰ وَاجِبه تجَاه الوَاقعَة الرَّزيَّـة. وهُو جَزِيلٌ في مَباحِثه، متَوَسِّعٌ مطَّرِد، يَشْمَل السِّيرة الحسَينيَّة في أغْلَب تَفَاصِيلهَا، ويُغَطِّي وَاقعَة «الطَّفِّ» وكُلَّ مَا جَرىٰ فيهَا، ويَأتي علىٰ حَيثيَّات القَضِيَّة وخَلفِيَّاتها، ويَذْكُر مُقَدِّمَاتها وتَوَاليهَا، حتىٰ لَا يَكَاد يَغْفَل أو يُفَرِّط في شَيء. وبَعدُ بُنيَّ، فإنَّ الكِتَاب في صِيَاغَته وطَرِيقَة عَرْضِه وأُسلُوب تَسْطِيره وكَتَابتِه، يَنْقُلكَ، أو يُبقِيكَ في أجْوَاءِ الأصَالَة في اللُّغَة والتَّعبير والبَيَان، مما لَه مَدْخَليَّة في التِزَام الأصَالَة، فإنَّ الاستِغْرَاقَ في قِرَاءَة الكُتُب العَصْريَّة والتَّعايُش مَع لُغتِهَا، يفْصِلُك عَن أجْوَاء أنت في أمَسِّ الحاجَة إليهَا، لَا في صَقْل لُغتِك وتحصِين بَلَاغتك فَحَسْب، بَل في الجَانب الرُّوحِي، أو في الفَضَاء الذي يخلُقُه هٰذا الأُسلُوب، فَيُبقِيكَ قَرِيباً من مُلَامِسَة التراث والعَيْشِ في رِحَابه. فَأنتَ في هٰذا الكِتَاب سَتَجِدُ نَفْسَك أمَامَ سَيْل مُتَدَفِّق من المحَسِّنَات البَدِيعِيَّة التي لَا تُوَفِّر من الجِنَاس مُمَاثِله ومُرَكَّبه ومُسْتَوْفيه، ومن السَّجْع مُطَرَّفه ومُرَصَّعه ومَشْطُوره ومُتَوَازِيه، وكَأنَّك في رِحَاب "مقَامَات" تُبدع في الموَازَنة ولُزُوم مَا لَا يَلزَم... مَا يُثْرِي مخزُونكَ الأدَبيَّ من طَرِيق سَوِيٍّ، يُغنِيكَ عَن أعمَال «الجَاحِظ الأموِيّ»، وأجْوَاء (يَتيمَة الدَّهْر) لـ «النَّيْشَابورِيِّ» و(العِقْدِ الفَرِيد) لـ «الأندَلُسِيِّ»، وهٰذا مما قلَّ نظيره في كُتُبنَا، مَا يُبقِيكَ علىٰ صِلَة بجُذُور اللغَة وأجْوَاء الأدَب الأصِيل.

٥ـ (سيماء الصُلَحَاء)

ذكَره صَاحِبُ (الذَّرِيعَة) في مَوْرِدَين: الأوَّل حِينَ أتىٰ علىٰ ذِكْر كـتَاب (تَنْبِيه الغَافِلِين) فكَتَب: " (تَنْبِيهُ الغَافِلِين علىٰ عَقَايد الوَهَّابِيين)، لـ «الشَّيخ عَبدالحسَيْن بن إبرَاهيمَ بن صَادِقِ بنِ إبرَاهيمَ بـنِ يحيىٰ، آبن الشَّيْخ فَيَّاضِ بنِ عَطْوَة المخْزُومِيِّ القُرَشيِّ العَامِلي» المولُودِ في صَفَر ١٢٧٩هـ، والمتَوفىٰ في ذِي الحِجَّة ١٣٦١هـ. وهُو الفَائِدَة الحادِيَة والسَّبْعُون من كِتَابه (جَامع الفَوَائد). كَما أنَّ كِتَابه (سِيماء الصُلَحَاء) المطبُوع في ١٣٤٥هـ، هُو الفَائدَة الثَّانية والسَّبعُون منه. وآباؤه الـخَمْسَة إلىٰ «الشَّيْخ فَيَّاض» كُلُّهم عُلَماء فُضَلَاء شُعَـراء، ولهم تَصَانيف وأشْعَار كَما كَـتَب إليْنَا بخَطِّه. "[1] وذكَره ثَانِية، فقَال: " (سِيماءُ الصُّلَحَاء في إثبات جَواز إقَامَة العَزَاء لِسَيِّد الشُّهَدَاء عليه السلام)، لـ «الشَّيخ عَبْدالحسَين بن إبراهِيم صَادِق العَامِلي» المعَاصِر، طُبع في ١٣٤٥هـ، وتَعَرَّض عَلَيه «السيِّد مُحسِن» في كِتَابه (التَّنزِيه لأعْمال الشَّبِيه) وذكَر فِيه أنه الفَائِدَة الثَّانية والسَّبعِين مِن (جَامع الفَوَائد) لَه. "[2]

منذُ قُرْن ونَيْف، نَشَأت في «الشَّام» حَركَة مُريبة بقِيَادَة «السيِّد مُحْسِن الأمِين»، تَصَدَّت لِعَزَاءِ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وتَنكَّرت لِبَعضِ أنـماطِ شَعَائره، وقَد آنصَبَّ نكِيرهَا علىٰ شَعِيرة الإدْمَاء وشَجِّ الرُّؤوس (التَّطبِير) يَوْم «عَاشُوراء»، هـذا في مُعْلَن الدَّعْوَة وظَاهِر الحركَة، أمَّا في بَاطِنهَا وحَقيقَتِهَا، فَقَد كَانت تُخفي السَّعْيَ لإلغَاءِ الشَّعَائر الحسَينيَّة من رَأسِهَا، كَونها تُـشَكِّل فَرْزاً " طَائفيّاً " يَفْصِل الشِّيعَة عن السُّنَّة، فَشَعَائر الإسْلَام هِيَ الحجُّ والجمْعَة والعِيدَان، وأية مُمارَسَة شَعَائِريَّة تَنهَض بهَا طَائِفَة أو جماعَة مُنْفَرِدة، سَتُقْصِيهِم عَن مجمُوع " الأُمَّة " وتُظْهِرهُم " غَير مُسْلِمِين " !... هـذا هُو جَوْهَر وحَقِيقَة آعترَاضِهِم، وإنْ أخَذَ شَكْل الآحْتِجَاج بِبِدْعِيَّة الشَّعَائِر تَارَة، وخَطَرِهـا علىٰ النَّفْسِ أُخرىٰ، وتَسبُّبهَا في وَهْنِ المذْهَب والآسْتِهْزَاء به والسُّخْرِيَة من أتبَاعِه ثَالِثَة، مِن هُنَا كَانت " آستِدْلَالَاتهم " خَاوِيَة، أوْهَنُ من بَيْتِ العَنكَبُوت (لَو كَانُوا يَنسِجُون، فكَيفَ وهُم يَخْرُصُون ويَهرِفُون؟!)، لأنَّ الدَّلِيلَ علىٰ أصلِ مَا يُريدُون ويَرمُون، دُونَه خَرْطُ القَتَاد.

---

(١) (الذَّرِيعَة) لـ «آغَا بُزُرك الطَّهْرَاني» ج٤ ص٤٤٥.

(٢) (المصدر) السابق ج١٢ ص٢٩٢.

هٰكذا كَان هٰذا التَّيَار يَفهَم الأمرَ، ومَا زَال، وهٰكذا كَانَ يُفكِّر ويَرمي.

وقَد فَشَا أمرُهُم بين العَوَام وقَوِيَت شَوكَتُهُم في أوْسَاطِ أنصَافِ المثقَّفِين، وأخَذَت تَروُجُ دَعْوَتهم بَيْنَ النَّاسِ كَافَّة كَالنَّارِ في الهشِيم، مُسْتَغِلَّة أجْوَاءَ «لُبنَان»، الرَّخْوَة والمتَميِّعَة عَقَائِدِيّاً، والمنُحَلَّة والمتفَسِّخَة أخْلاقِيّاً، إلىٰ حُدُود تُنَاهِز الكُفْرَ هُنَاكَ والإباحِيَّة هُنَا، وذلك لأسْبَاب مختَلِفَة، منهَا عَزْم الأَستِعْمار علىٰ تكْرِيس «لُبنَان» دَوْلَة مَسيحِيَّة، لِطَبيعَة التَّركِيبَة السُّكانِيَّة في البلَدِ الأكثر كَثَافة أو نِسْبَة مَسِيحِيَّة في الشَّرق العَرَبيِّ المسْلِم، كَما كَانَ للتَّدَاخُل المذْهَبِي والتَّعَايشِ الدِّينيِّ والأَنفِتَاح المفْرِط علىٰ الغَرْب، دَوْره في أستِسَاغَة الأفكَار "الإصْلَاحِيَّة"، وهٰكذا كَان لِسَطْوَة المدَارس التَّغْرِيبيَّة والأحْزَاب العِلْمانيَّة تَأثيرهَا في طَبْع المجتَمَع بصِبْغَتِهَا، وكَأنه صَارَ مَن يُريد الأنتِسَاب إلىٰ هٰذا الوَطَن، ويَرغَب في الهوِيَّة اللُّبنَانيَّة حَقّاً، عَلَيه أن يتخلىٰ عَن سُلُوكيَّاته الدِّينيَّة والأَجْتِماعِيَّة "الرَّجعِيَّة" و"المتَخَلِّفَة"! فقَد كَانت الأُمة تَعِيش "عَصْر النَّهْضَة العَرَبيَّة" المزيَّفة، التي حَقَّ أن تُسَمَّى "عَصْر القِرَدَة" التي تُحاكِي الغَرْبَ في شَكْلِه ومَظْهَره وسُلُوكه وأنحِلَالِه، دُونَ مُجَارَاته في جَوْهَر نَهضَته المتَمَثِّل في التَّقَدُّم العِلْمِيِّ والتَّطَوُّرِ التِّقَني، ولَا حتىٰ في الرُّقيِّ المدَني، فقَد بقَوا أعْرَاباً يَعتَمِرُون قُبَّعات ويَعقِدُونَ في أعنَاقِهِم رَبطَات!...

كَانَت حَرَكَة قَوِيَّة، تَتَهَدَّد أُسُسَ وثَوَابتَ الدِّين، وتُنذِر بأكتِسَاح لَا يُبقي ولَا يَذَر! وقَد بَدَت مَدْعُومَة، عَن عِلْم وسَبْق تَنْظِيم وتَآمُر، أو مِن حَيث تَقَاطَعَت الأهْدَاف والتَقَت المصَالِح! بالمدِّ والحركَة "الإصْلَاحِيَّة" التي ظَهَرت في «مِصْر»، وسَمِّهَا إن شِئتَ "حمَّى التَّغْرِيب" التي كَانت تَجتَاح بلَاد المسْلِمِين، بأسم النَّهْضَة والتَّحَرُّر والتَّطَوُّر، فَخَرَجَت المرأة من بَيتِهَا، بَل مِن حِجَابها، وأُطْلِق للأختِلَاط، وأنتَقَل التَّعلِيم لِطَوْر جَدِيد (هَا نَحْنُ نَلمِسُ اليَوْمَ، بَعدَ مئَة عَام، كَم كَانَ فَاشِلاً وعَقِيماً!)، وعُقِدَت الصَّفقَات السِّيَاسِيَّة الكُبرىٰ التي سَلَّطَت الأنظِمَة العَرَبيَّة علىٰ شُعُوبهَا، كُلُّ ذَلك كَان "سَلَّة وَاحِدَة"، خُذْهَا أو دَعْهَا، علىٰ الطَّرِيقَة الغَربيَّة، عُرِضَت علىٰ شُعُوب المنْطَقَة، فأنجَرَفَ فيهَا المثَقَّفُون العَرَب، وأنسَاقَ مَعَهُم بَعضُ "رِجَال الدِّين"، ولَن أُطْلِقَ عَلَيهم "عُلَماء الدِّين"، إمعَاناً في سَلْبِ مَشْرُوعِيَّتِهِم، والتَّنَكُّر لأفعَالهم التي جَارَت تِلكَ المؤَامَرة العظمىٰ.

في ظِلِّ هذه الظُّروف العَصِيبَة، انبَرىٰ العَلَّامَة الحجَّة «الشَّيخ عَبدالحسَين صَادِق» ﷺ، أَحَدُ أَعْلَام تِلك البِلَاد وقَادَة المسِيرة الدِّينيَّة والزَّعَامَة الرُّوحِيَّة فيهَا، وتَصَدَّىٰ لهذه الهجْمَة، ووَقَفَ في وَجْه هذا التَّيَار الجَارِف وَقْفَة بُطُوليَّة، عَمَليَّة ونظَريَّة... فمضىٰ ﷺ يحتَضِنُ الشَّعَائر الحسَينيَّة ويُذْكِي ممارَسَة الطُّقُوس الدِّينيَّة، علىٰ أُصُولها الشَّرعيَّة، وسُننهَا المؤرُوثَة الأصِيلَة، ضَارِباً مُعطَيَات ذَلك "المدِّ التَّغْريبيِّ" عَرْضَ الجِدَار، ومُتَجَاهِلاً تَوَغُّلَاتها، بَل مُرغِماً تَسوِيلَاتهَا وقَاهِراً نُفُوذَهَا وقَامِعاً تَدَخُّلهَا بالعَمَل المحَصِّن المانع، ثُم بالفِكْر والقَلَم المنَظِّر الرَّادع، فعَمَدَ إلىٰ كِتَابٍ يدَفَع تِلك الأبَاطِيل، ويَنْقُض تَسْويلَات الشَّيَاطِين التي جَرىٰ بَعضُهَا علىٰ ألسُن "رِجَال دِين"، فَأَدرَجَ ﷺ (سِيماء الصُّلحاء، إقامة عزاء «سيِّد الشهداء» ﷺ)، في مَوسُوعَتِه (جَامع الفَوَائد)، ومَا لبِثَ أن طُبعَ الكِتَابُ وأنتَشَر. ويكفِيه من الأثر، أنه أزعَجَ "الغُزَاة" و"أستَفَزَّ" قَائدهُم، فأفقَدَه تَوَازنَه وأدَاءَه "التكْتِيكي"، ودفَعَه إلىٰ رَدٍّ كَشَفَ فيه مُخَطَّطه الكَامِل، فكَتَبَ (رِسَالَة التَّنْزِيه)، مَا فضَحَ مَرَامِيه القُصْوىٰ، وأهْدَافه الحقِيقيَّة وغَاياته النِّهَائيَّة، وصَدَّق ظُنُونَ المتَوَجِّسِين منه والمرتَابين فِيه، وظَهَرَ كَما عبَّر المحقِّق الخبير «الآغَا بُزرك الطَّهْرَاني»، المشْهُود بحِيَادِه ومَوْضُوعيَّته، أنه فِعْل: "بَعضِ المتجدِّدين المُتَسَنِّنين"! [١]

لَقَد كَشَفَ «السيِّد مُحسِن» في (رِسَالَة التَّنْزِيه) والحِقْبَة التي تَلَت "مَعْرَكَة" هذا الإصدَار، وتَضَمَّنَت ممارَسَات عَمَلِيَّة وفَرْضاً "سُلْطَوِيّاً" قَاهِراً في الحَظْر والمنْع حَيث طَالَت يَدُه وبلَغَت قُدْرته! كَشَفَ عَن أنَّ هَدَفَه هُو الشَّعَائر الحسَينيَّة من رَأسِهَا، لَا كَما كَانَ يدَّعِي من أنَّ "بعضَ" الشَّعَائر (كَالتَّطبِير) مُوهنَة للمَذْهَب، وتُنَفِّر "الآخَرين" منه، مَا يَحُول دُونَ رَوَاجِه وأنتِشَارِه... وأثبتَ أنَّه يُريدُ القَضَاءَ المبْرَم علىٰ هذا المَعْلَم الوَلَائيِّ الأصِيل، وأنَّ إحْيَاء «عَاشُورَاء» عِنْدَه هي في مُجرَّد عَقْد مجَالِس تلقىٰ فيهَا المحَاضَرَات والمَوَاعِظ الأخْلَاقيَّة، دُونَ أيِّ مَظْهَر للعَزَاءِ والندْبَة والطُّقُوس الشَّعَائِريَّة التي عَلَيهَا الشِّيعَة من بُكَاءٍ ولَطْم وصيَاح، نَاهِيكَ بمَوَاكِبَ تجوبُ الطُّرقَات، وبالتَّشَابيه والإدْمَاء ومَا إلىٰ ذلك (وقَد طبَّق ذلك في سِيرته التي مَا زالَ عَلَيهَا أتبَاعُه إلىٰ اليَوْم).

(١) (الذَّرِيعَة) لـ «آغَا بُزُرك الطَّهرَاني» ج٢٤ ص١٧٨.

وقَد اْختَرتُ لكَ بُنيَّ هذا الكِتَاب، وسَأُلحِقه بَآخَرَيْن علىٰ نَسَقِه وشَاكِلتِه، لتَقِفَ علىٰ ظُرُوف تِلك الحِقبَة العَصِيبَة، وتَطَّلِعَ علىٰ رَحىٰ الحَرْبِ المرِيرَة التي دَارَت في ذَلك الحِين، فتَعرِفَ خَلفِيَّات المعْرَكَة التي تخوضهَا اليَوم مَع "تَغْرِيبيِّي" زَمَانِنَا، كَما فَعَلَ هؤلَاء الأبطَال مَع أسْلَاف أُولئِك "الغُزَاة"، وأنتَ تَنْظُر في جُذورِهَا الأُولىٰ وبدَاياتِهَا، فتكُونَ علىٰ بَصِيرة من أمرِكَ ووَعيٍ بقَضِيَّتك، فَتُدْرِكَ خَطَر دَوْرك ومَوقعَك.

والكِتَاب يَكتَسِب قِيمَته، بَعدَ مُحتَوَاه العِلْمِيِّ وتَأَلُّقه وجَوْدته في الأستِدْلَال لما يُريد، في أنه شَكَّل "سَابقَة"، فهُو أوَّل مَن تَصدَّىٰ وانبرىٰ، فَحَظِيَ بشَرفِ السَّبْق، وكَانت لَه بذَلك اليَدُ علىٰ شَرِيحَة عَرِيضَة من المؤمِنِين رُميَت واْختُتِلَت بالغَفْلَة فلَم تكُن تَدرِي مَا يُراد بهَا، ثم الفَضْل في رَدْع الخَصْم، وهُو يَرىٰ مَن لَا يُضَارِع ولَا يهَادِن، ولَا تَأخُذه في الله لَوْمَة لَائم، يتَصَدَّىٰ لَه ويُوَاجِهه ويَنهَض فَلَا يُخلي لَه السَّاحَة، يَصُولُ فيهَا كَيفَ يَشَاء.

وقَد أشَارَ حَفِيد المؤلِّف فضَيلَة «الشَّيخ عبدالحسَين» (الثَّاني) في المقدِّمَة التي سَطرَهَا، وأدْرَجَها في الطَّبعَة الجدِيدَة للكِتَاب (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) إلىٰ أمرٍ ونكْتَةٍ جَدِيرَة بالتَّوَقُّف عِنْدَهَا والاْلتِفَات إليهَا، هي سِرُّ بقَاء هذا الأثَر من أعمال سَماحَتِه، دُونَ غَيرِه من نتَاجَاته العِلْمِيَّة والأدَبيَّة، فقَد: "غَـيَّبت عَادِياتُ الزَّمَان للمُؤلِّف مُعْظَم نتَاجِه العِلمِيِّ والفِكْري، بل أكَادُ أقُول تَمامَ ذَاك النِّتَاج، لَوْلَا هذه الرِّسَالَة اليَتِيمَة (التي تحمِل سُطُورهَا الأُولىٰ شَهَادَة مُؤلمة بضَيَاع وفَقْد وَاحِدٍ وسَبعِينَ شَقِيقَة لها مِن بنَاتِ قَلَمِه)، ويُمكِن أن نُدرِكَ حَجْم الخسَارة الفِكْرِيَّة هذه حِينَ نضِيف إلىٰ هذا الكَمِّ الضَّائع من نتَاج «الشَّيخ» ﷺ كُلَّ مَا ذكَرتْهُ لَه تَراجِمُ الأعلَام كَ (مَاضي النَّجَف وحَاضِرهَا) و... من مُؤلَّفَات ومُصَنَّفَات بينهَا مَنْظُومَات في الفِقْه وعلْم الكَلَام، إذ لَيْسَ في مَكْتَبة خَاصَّة أو عَامَّة لِوَرِيثٍ من أبنَاء وأحفَادِ «الشَّيخ» ﷺ لهذه المؤلَّفات والمصَنَّفَات من المطْبُوع أو المخْطُوط، من عَين أو أثر، ولَا حتىٰ وُرَيقَاتٍ تَنعَاهَا.

نَعَم، ويَا لِطَرافَة الأقدَار أحيَاناً، فَقَد سَلِم من تَصَانيف «الشَّيخ» مَا كَان هُو زاهِداً فيه كُلَّ الزُّهْد، وكَان يحرِص علىٰ عَدَم نَشْره طِيلَة حَياته! وهُو شِعْره الذي لم يكُن ﷺ - كَعَادة الفقَهاء - يَنْظُر إلَيه، علىٰ رَوْعَته وثِقْلِه في الميزَان الفَنِّي بشَهَادَات الفُحُول من الشُّعَراء،

بعين الرَّضَا والقَبُول، لِعَدَم كَوْن الشِّعْر في قَنَاعَته، وقَناعَات عُلَماء الدِّينِ الأجِلَّاء عُمُوماً، ذا بَالٍ، بين صَالح الأعْمال التي يتطَلَّعُون عَادَة إلىٰ التَّزوُّد بهَا لآخِرتهم. ومن هُنَا لَنا أن نَفْهَم الوَجْه في تَسمِيته دِيوَانَه بـ «سِقْطِ المتَاع»، أي مَا لَا جَدْوَىٰ فيه ولَا قِيمَة، وهو بطَبيعَة الحَال إنَّما يَقْصِد بهذا العُنوَان شِعْره غَير العَقَائدي، وأمَّا شِعْره العَقَائدي، والذِي يتَمَحْوَر في مَدِيح ورثَاء «أهل البيْت» عليهم السلام وشُهَدَاءِ «كَربَلَاء» وحَبيبه «الحسَين» عليه السلام الذِي جَرىٰ حُبُّه مجرَىٰ الدَّم في عُروقه، فقَد فَصَلَه عَن بَاقي شِعْره وجمعَه ضِمن دِيوَانٍ مُستَقِلٍّ صَغِير الحجْم، أسماهُ «عُرْف الوَلَاء»، أي عِطْر الوَلَاء وشَذَاه، علىٰ أنه هُو الآخَر لم يَسْلَم من قَسْوَة الأيام، حَيث وَصَلَنا مَنْقُوصاً في كَمِّه، وفي طِبَاعَة مُشَوَّشَة، وثَوْب رَثٍّ مُهَلهَل، لَا يَلِيق بجَلَالَة الدِّيوَان ورَوْعته وثَرائه الفَنِّي. ولنَا أن نقَدِّر بأنَّ شِعْره العَقَائِدي ومَا قَالَه في «آلِ الرَّسُول» مَدْحاً ورثَاء، كَانَ إليه أحَبَّ الزَّاد إلىٰ الآخِرة... أوَلَيْسَ في المأثُور عَنهُم عليهم السلام: "مَن قَال فِينَا بَيْتَاً من الشِّعْر بنىٰ اللهُ لَه بَيْتاً في الجنَّة"؟ وهذا الشِّعْر كَان أروَع شِعْره، وبه تَألَّق اسمُه وطَارَت سُمْعَته، ولَه فيه العَدِيد من المرثيَّات الخَالِدَة، كَدَالِيَّة «عَليٍّ الأكبر» رَيحَانَة «الحُسَين» عليهما السلام، وغَيرهَا من القَصَائد البَلِيغَة الشَّجِيَّة التي مَا زَالَت تُردِّدُها المنَابِر، وتتغنىٰ بهَا حَنَاجِرُ الخطَبَاء، وتَذرفُ الأجيَال ـ علىٰ وَقْع مَعَانيهَا ومُوسيقَاهَا ـ دُمُوعَ ـ الأسىٰ والمحَبَّة لـ «آلِ الرَّسُول» صلوات الله عليهم. لَقَد بَادَر «الشَّيخ» لَدَىٰ عَوْدَته من «العِرَاق» مُلَبِّياً دَعوَة أهَالي مَدِينة «النَّبطِية» لِيكُون عَالِمهَا ومُرشِدَهَا، إلىٰ إنشَاء أوَّل بيْت لـ «الحسَين» في «جبَل عَامِل»، ومنه تَنَاسَلَت بَاقي الحسَينيَّات في مُدُن وقُرىٰ هذا الجبَل، تحتَضِن مَآتمه وشَعَائره المبارَكَة، ولما دَخلَت تِلكَ الشَّعَائر مَعْرَكَة ضَارِيَة، وهُوجِمَ أكثر مظَاهِرهَا بِلَاذع النَّقْد والتَّسْفِيه، كَان هُو نَصِيراً لها بالحجَّة والموْقف، حتىٰ تحوَّل مع الأيام إلىٰ رَمزٍ سَاطع في مَيْدَانهَا. وإذا مَا التفتنا كَذلك إلىٰ أنَّ الرِّسَالَة التي بَيْن أيدِينَا، والتي تَذبُّ عن الشَّعَائر الحسَينيَّة، هي الرِّسَالَة الوَحيدَة التي نَجَت من قَسْوَة الأيام علىٰ نِتَاجِه، فَهِي بالخصُوص التِّي سَلِمَت دُونَ بَاقِيه علىٰ كثرته، ربَّما لَاحَ في الخاطِر أنَّ لهذا الشَّيخ سِرّاً خَاصّاً وعلَاقَة خَاصَّة مَع مَوْلَاه «الحسَين»، قَد لَا يجعَل مِن اسمِه «عَبدالحسَين» الذِي اختَارَه لَه وَالدُه رحمه الله مُجرَّد صُدْفة!".

وبَعدُ، فَالكِتَابُ بُنيَّ، انطَلَق مما كَان يَغمُر السَّاحَة الإيمانيَّة ويَدُور في أرجَائهَا مِن إثَارات وإشكَالَات وسجَالَات، فَسَجَّلَهَا ونَقَلَهَا بأمَانَة وتَجرُّد ومَوْضُوعيَّة (كَم نفْتَقِدُهَا في الجبْهَة المقَابِلَة التي لَا يُرىٰ في أعمالها وفي إعْلَامِهَا إلَّا البهْتَان والتُّهْمَة، والتَّزْييف والافتِراء، والمغَالَطَة والمصَادَرة!؟)، ورَاحَ في الرَّدِّ العِلْميِّ عَليهَا باستِدلَالٍ عَقْليٍّ وشَرعيٍّ مُحكَمَيْن، وسَتُؤْخَذ بقُدْرته علىٰ تَفنِيدِ مَزَاعِم ودَعَاوىٰ المشكِّكِين دُونَما عَنَاء، وسَيَظهَر لَكَ بجَلَاء، كَم ارتَهَنَ خَصْمَه وأسَرَه بِرُدُودِه المفْحِمَة. وإن بَدَا لَكَ في بَعضِ المواضِع، حِين يَمرُّ علىٰ قَضَايا خَطِيرة سَريعاً، فَلَا يُطيلُ الوَقفَة عَلَيهَا، ولَا يَشفِي غَلِيلك مِن النَّيْل في خُصُومك وخُصُومه، مَا يُظهِره وكَأنه يَمِيل إلىٰ مُوَازنَة الأمر واللِّين و "الوَسَطيَّة"، مقَابِل الشِّدَّة في الحقِّ، والحِدَّة في الذَّوْد عَنه، فَهُو مِن طَبيعَة الرِّسَالَة وهَدَف المؤلَّف في مُخاطَبيه، ومن مُعْطَيات ظُروف ذلك الزَّمَان، وتَشْخِيصِه ﷺ لكَيفيَّة المواجَهَة وإدَارة المعركَة، وأمَلِه في العِلَاج عَبْر التي هيَ أحْسَن، لَا مِن رَخَاوَة في المعتَقَد أو مُضَارَعَة في الموْقف.

وستُطَالِعك من بَعدُ، وأنتَ مُسْتَرسِلٌ بِقراءَة الإشْكَالَات وإجَاباتِه عَليهَا، بَلَاغَةُ وقُوَّة التَّعبير وإيجَازه، وتَوَازن الجُمَل وتجميلهَا بالمحَسِّنَات وبالأمثَال السَّائِرة والشَّوَاهِد الشِّعْرِيَّة، إلىٰ جَانِب ثَرْوَة لُغَويَّة تَتَدَفَّق في السُّطُور بِرَوْعة واقتِدَار عَالِيَيْن. وعَن تَمَرُّس «الشَّيخ» ﷺ في اللغَة، وثَروة المفرَدات التي يَستَخْدِمهَا في نثره وشِعْرِه يقُول المرحوم «آية الله الشِّيخ محمَّد طَاهِر آل الشِّيخ رَاضِي»، أحَدُ كِبَار مجتَهِدِي «النَّجَفِ الأشرَف» وأدبَائها: "... كُنَّا إذا لم نَجِد في القَوَاميس اللغَوِيَّة كَلِمَة نَحتَاجُهَا، سَألنَا عَنهَا الشَّيخ «عَبدِالحسَين صَادِق»". [1]

وقَد تَنَاوَل الكِتَابُ عَنَاوِين: الحزْن والبكَاء لَا يُنَافِيَان الشَّجَاعَةَ والصَّبر/ حَقِّ «الحسَين» علىٰ المسْلِمِين كَافَّة/ عَزَاء «الحسَين» ﷺ لَا يُلْهِي عَن العِبَادَة/ البكَاء والسَّخَط علىٰ القَضَاء/ البكَاء والصَّبر الجَمِيل/ الاجْتِماع في العَزَاء والبِدْعَة/ الصُّراخ والعَوِيل في مَجَالِس العَزَاء/ حُكْم النِّيَاحَة علىٰ «الحسَين» ﷺ/ الرثَاء الصَّحِيح ونقْل الحديث الصَّحِيح/ بين الشِّعْر الحسَينيِّ والغِنَاء/ التَّأسِّي بـ «النَّبِيِّ» ﷺ/ الاحتِفَال بيَوْم «عَاشُورَاء»/ ضَرب الصُّدُور والظُّهُور/ هَل نهىٰ «الحسَين» ﷺ عن اللَّطْم؟/ تمثِيل وَاقِعَة «الطَّف/ التَّطبِير.

(١) «نَجَفِيَّات» لـ «الشيَّخ محمَّد عَلي دخَيِّل» ص٢٦٢.

٦ـ «النَّقْد النزيه»

«النَّقْدُ النَّزِيه لِرِسَالَة التَّنزيه»، للفَقِيه الجَامع والمجْتَهد البَارع آية الله «الشَّيخ عَبدالحسَين ٱبن قَاسِم الحلِّي» (١٢٩٩هـ ـ ١٣٧٥هـ)، من تَلَامِيذِ «الآخُوندِ الخُرَاسَاني» صَاحِب «الكِفَاية»، و«السيِّد كَاظِم اليَزْدِي» صَاحِب «العُرْوَة»، و«شَيْخ الشَّرِيعَة الأصفهَاني» و«محمَّد طَه نَجَف». بَلَغ الاَجتِهَاد ونَالَ رتبة الفَقَاهَة، ونَاهَزَ المرجعيَّة، ولٰكن تَرشِيحَات الفُضَلَاء وأهْل الخِبْرة في الحوْزَة رَجَّحَت غَيْره، فاَسْتَغَلَّ الفَرَاغ من المسؤوليَّة والنَّجَاة مِن هٰذا الموْقع الخَطِير، وهَاجَرَ إلىٰ «البَحْرَيْن» ليُعِيدَ إحْيَاء حَوْزتهَا هُنَاك.

وحتىٰ تَقِف بُنيَّ علىٰ الفَرْقِ بين رِجَال "الجبْهَتَيْن" وتَعْرِف دَرَجَة ومَرتَبة الَّذِين دَافَعُوا عَن الشَّعَائِر ونَهضُوا بٱحتِجَاجِهَا، وكَافَحُوا في نُصْرَتِهَا والذَّوْدِ عَنهَا، مُقَابِل النَّكِرَات الذِينَ حَارَبُوهَا، وكَم يَتَكَلَّفُ المرءُ ويَتَعَسَّف في مُجرَّد نِسْبَة بَعْضِهِم لأهْلِ العِلْم والحوْزَات (أمَّا جُلُّهُم فَمِن الألتِقَاطِيين الأشْقِيَاء)، وكَيفَ وُضِعَت لِبَعْضِهِم "سِيرَةٌ عِلْمِيَّة" تَرفَعه إلىٰ الفقَاهَة والاَجتِهَاد، واَدُّعِيَ لَه الفَضْل وزُعِم المجْدُ بأدَوَاتٍ إعْلَامِيَّة وعلىٰ أيدِي دَوَائر مُخَابرَاتِيَّة! وعلىٰ الرُّغْم مِن أنهَا تَنطِق بكَذِبهَا وتَفْضَحُ نَفْسَهَا بفُصُولها المتَنَاقِضَة ومَقَاطِعهَا المخْتَلَقَة، مَا يجعَلهَا متَهَافتَة سَاقِطَة، إلَّا أنهَا تَنطَلِي علىٰ العَوَام، وتَأخُذ وَطَرهَا من التَّأثير والفِعْل في السَّاحَة... سَأُفصِّل بعضَ الشَّيءِ في تَرجمة وسِيرة هٰذا العَلَم، وأنقُل مقَاطِعَ مما ذكَره المحقِّق الخبير «آغَا بُزُرك الطَّهْراني» في «نُقَبَاء البَشَر»:

" «الشَّيخ عَبدالحسَين بن قَاسِم الحلِّي، وُلِدَ سنة ١٢٩٩هـ، من عَائِلَة مَعرُوفَة في «الحِلَّة» تُعرَف بـ «آل هلَيِّل»، تَعَلَّم القِرَاءَة والكِتَابَة وبَعض المبَادِئ وهَاجَرَ إلىٰ «النَّجف» في سَنَة ١٣١٤هـ، فقَرأ المقدَّمَات والسُّطُوح علىٰ لَفِيفٍ من أهْل الفَضْل، وقَد سَاعَدَه ذكَاؤه المفْرِط ورَغْبتُه المُلِحَّة علىٰ إنهَائهَا في أقصَرِ وَقْت، مَع فَهْم وضَبط، وحَضَر في "الخَارج" علىٰ «الشَّيخ محمَّد كَاظِم الخرَاسَاني»، و«السيِّد محمَّد كَاظِم اليَزْدِي»، و«شيخ الشَّرِيعَة الأصفَهَاني» وغَيرهم، سِنِيناً عَدِيدَة في الفِقْه والأُصُول وغَيرهمَا، وبَرعَ بَراعَة لَفَتَت إلَيه أنظَارَ الشُّيُوخ وهُو شَاب، وظَهَر نُبُوغُه وعَبقَريَّته، واَشتَهَر في الأوْسَاطِ العِلْمِيَّة بِغَزَارَة فَضْلِه وتَحقِيقِه.

ولم تَـقْتَـصِر همَّتُـه علىٰ ذلك، بَل رَاحَ يُواصِل دِرَاسَة العُلُوم الإسلَاميَّة الأُخرىٰ، فقَد قَرأ "الكَلَام" و "الحِكْمَة" و "التَّفْسِير" و "الرِّجَال" وغَيْرهَا، وكَان يَحضُر علىٰ شَيخِنَا «شَيخ الشَّرِيعَة الأصفَهَاني» في "الدِّرَايَة" و "الرِّجَال"، ويُواصِل التَّحقِيق والغَوْر في ذلك، وقَد كَان أُستَاذه يَحتَرمه ويَعتَرِف بِفَضْلِه، فَقَد بَرَعَ فِيه بَرَاعَة المتَخَصِّص، وكَانت لَه تَحقِيقَاتٌ وكتَاباتٌ تَنُمُّ عن خِبْرة وتَضَلُّع وضَبْطٍ وإتقَان، وحَدَّثني العَلَّامة «الشَّيخ عَبدَالله المامَقَاني» أيَام اشتِغَالِه بتَأليف كِتَابِه (تَنْقِيح المقَال في عِلْم الرِّجَال) أنَّ المترجَم لَه كَان أعظَم مُسَاعِدٍ ومُعَاضِدٍ لَه علىٰ جَمْع وتَأليفِ كِتَابِه المذْكُور. كَما ذكَرتُه في (مصفىٰ المقَال في مصنِّفي عِلْم الرِّجَال) عَمُود ٢٢١ وقَد سَألتُ المتَرجَم لَه بَعدَ وَفَاة المرحُوم «المامَقَاني» عَن ذلك فقَال لي: كُنْتُ قَد كَتَبتُ بُحُوثاً عَدِيدَة وأجزَاءً كَثِيرَة في تَحقِيقِ أحْوَالِ الرِّجَال، وفَوَائِد وتَنبِيهَاتٍ في مَوَاضِيعَ مُختَلِفَة من هـٰذا العِلَم، ولما عَزَمَ «المامَقَاني» علىٰ التأليف في الرِّجَال، قَدَّمتُ لَه كُلَّ كِتَابَاتي، وأذنْتُ لَه أن يُدرِجَهَا في كِتَابِه بأسمِه وبمُوجَب نَظَرِه، فَفَعَل.

وكَما كَـانَ المترجَـم لَه مِن رِجَال العِلم، كَانَ من شُيُوخ الأدَب، فقَد نَظَمَ الشِّعْر في الرَّابعَة عَشرة من عُمْره، ونَمَت مَوَاهِبه بَعدَ هِجْرته إلىٰ «النَّجَف الأشرَف» واختِلَافِه إلىٰ النَّوَادِي الأدَبيَّة، واشْتِرَاكِه في الحَلَبَاتِ التي كَانَ يَتَبَارىٰ فيهَا يَومئِذ أئمَّـة الأدَب وشُيوخ القَرِيضِ وأُمرَاءُ الفَصَاحَة، وقَد بَرَزَ بينَ أُولئِك، عَلَماً يُشَارُ إليْه بالبَنَان، وشَاعِراً كَبِيراً لَه وَزْنه بَين عَبَاقِرة الشِّعْر وأعْلَام القَرِيض، فَقَد أجَادَ وأبدَعَ في كُلِّ نَظْمِه، وإن لم يكُن مكثِراً كَالآخرين. وكَان كَثِير الحِفْظ، رَاوِيةً لأخْبَارِ العَرَب ونَوَادِرهُم وأشْعَارِهم، فَذّاً في إتقَان اللغَة وفُروعهَا، وكَانت لَه في نَـوَادِي «النَّجَف» صَوْلَات وجَوْلات، وبَين شُيُوخ الأدَب مَقَامٌ رَفِيع، كَما كَان الشُّعَراء يَتَبارُون أمَامَه ويُذعِنُونَ لحكْمِه في الخصُومَاتِ الأدَبيَّة.

وقَد بَلَغَ دَرَجَةً سَامِيَة وحَلَّ مَكَانة مَرمُوقَة بين أبطَال العِلْم وأسَاطِين الدِّين، ونَبَغَ في الفِقْه والأُصُـول والحَدِيث والـرِّجَـال، والكَلَام والحِكْمَـة، والتَّـارِيخ والأدَبِ، والهيْئَـة والحِسَاب، والتَّفْسِير وغَيْرهَا، وأصْبَحَ من المشَاهِير وفي مَصَافِّ العُلَماءِ الأعْلَام، وتَصَدَّىٰ للتَّدرِيس، فَقَرأ عَلَيه المِئَاتُ من الطُّلَّابِ مُختَلِف العُلُوم، وتخَرَّجَ عَلَيه خِلَال عَشَرَاتِ السِّنِين عَدَدٌ من أهْل الفَضْل والمعْرِفَة.

وكَانَ مَحبُوباً لَدَىٰ كُلِّ مَن عَرَفَه مِن أصدِقَائِه وزُمَلَائِه وتَلَامِذَتِه وغَيْرِهِم، لكثرة تَوَاضُعِه وأدَبه النَّفْسِي، وخُلُقِه الرَّفِيع، وطيبِ قَلبِه، ولوَرَعِه وتُقَاه وصَلَاحِه، وشَرفِ نَفْسِه وإبائه. هَاجَرَ إلىٰ «البَحْرَيْن» وتَوَلَّى القَضَاءَ والمحَاكِم الشَّرعيَّة فِيهَا، وقَد تُوُفِّي في «المَنَامَة» سَنَة ١٣٧٥هـ، ودُفِنَ هَنَاك. وقَد تَركَ تَغَمَّدَه اللهُ برضْوَانه ورَحمتِه مُؤلَّفَاتٍ مُهِمَّة مِنهَا:

(حَيَاة الشَّرِيف الرَّضِي)، دِرَاسَة قَيِّمَة اختَصَرتْه لجنَة في "مُنتَدَىٰ النَّشْر" ونَشَرتْه في مُقَدِّمة الجزْءِ الخامِسِ مِن (حَقَائق التَّأويل) لـ «الرَّضِيِّ»، و(النَّقْدُ النَّزِيه) رَدَّ فِيه علىٰ «السيِّد مُحسِن الأمِين» في كِتَابة (التَّنزيه لأعمالِ الشَّبِيه) طُبِعَ في «النَّجَفِ الأشرَف» ولَه في الرَّدِّ علىٰ المرحُوم «الأمين» كِتَابٌ آخَر هُوَ (نُصْرَة المظلُوم) وقَدْ طُبِعَ في «النَّجَف» أيضاً باسم غَيرِه، (والظَّاهِر أنه غَير كِتَاب «الشَّيخ حَسَن بن إبرَاهيم المظفَّر» الذي يحمِل الاسم نَفْسَه، والذي سَيَأتِي ذِكْرُه لَاحِقاً)، ولَه (دِينُ الفِطْرَه) وهو دِينِيٌّ فَلْسَفِيٌّ يُلَائِم العَصْر والحَاضِر في وَضْعِه وأسْلُوبِه، يَقَع في جُزئَين رَأيتُهما عِندَه بِخَطِّه كما ذكَرتُه في (الذَّريعَة) ج٨ ص٢٩٢، الأوَّل في مَبَادِئ الأديَان، والثَّاني في شَرِيعَة الإسْلَام، و(الشَّجَرَةُ الملعُونَة) في مثَالِب «بني أُميَّة»، وهُو تَارِيخيٌّ فَلْسَفِي، وقَد رَدَّ فِيه علىٰ «النُّصُولي»، و(مَصَارِع الكِرَام) في وَفَاة «النبيِّ» ﷺ و«الأئمَّة» ﷺ، و(الفَلَك القَدِيم والحدِيث) في عِلْم الهيئَة، و(يَنَابيع الأحْكَام) في أُصُول الفِقْه، و(النَّفَحَات القُدْسِيَّة) وهُو مُجلَّدٌ ضَخم يتَضَمَّن كَثِيراً من المسَائِل الفِقْهِيَّة المشْكِلَة وحُلُولها، و(رِسَالَة في تَرجمة شِيخ الشَّرِيعَة الأصفَهَاني) رأيتُهَا بخطِّه، كما رَأيتُ إجَازة شَيخِنَا المذْكُور لَه بِخَطِّ المجِيز، وقَد صَرَّح فيها باجْتِهَادِه وأثنىٰ عَلَيه ثَنَاءً جَميلاً، و(شَرْح تَشْرِيح الأفلَاك) لِـ «الشَّيخ البَهَائِي»، و(شَرح الإثنىٰ عَشَرِيَّة) في الصَّلَاة، و(الرَّد علىٰ الطَّبِيعِيين) ذكَرنَاه في (الذَّرِيعَة) ج١٠ ص٢١٠ و(مَنْظُومَة في الأخْلَاق والآدَاب) في ألفِ بَيْت، و(دِيوَان شِعْره) ضَخْمٌ في مختَلِف المواضِيع، وكُلُّه مِن النَّظْم الرَّائع الرَّاقي، ولَه بَحثٌ طَوِيلٌ عَن "الشُّعُوبيَّة والشُّعُوبِيِّين" نُشِرَ في السَّنَة الثَّالِثَة من (مجلَّة الاعتِدَال) النَّجَفِيَّة، ولَه غَيْر ذَلكَ بُحُوثٌ ومُؤلَّفَاتٍ أُخرىٰ لم نَقِفْ عَلَيهَا مما ألَّفَه في السَّنَوَاتِ الأخِيرَة في «البحْرَيْن»، ومُقَدِّمَات وتَقَارِيظَ لِبَعْضِ الكُتُب.

ومما تَجْدُر الإشَارَةُ إليْه أنه ﷺ كَانَ مُخلِصاً للعِلْم والحقيقَة، لَا يهمُّه أن يُنشَر أثرُه بٱسْمِه أو ٱسْم غَيره، فَقَدْ مَرَّ القَوْل عَن يَدِه الطُولىٰ في (تَنقِيح المقَال)، ونَشْر رَدِّه الثَّاني علىٰ «الأمين» بٱسم غَيْره. ولَه بُحُوثٌ مفَصَّلَة كَذلك وقَصَائد في رثَـاءِ «أهل البيْت» محفُوظَة من قِبَل الخطَبَاء والذَّاكِرين منذُ سِنِينَ وسِنين، ولَا يُعرَف قَائِلُهَا! وقَصْدُه من ذلك هُو خِدْمَة «أهْل البيْتِ» عليهم السلام. جَزَاه اللهُ خَيْر الجزَاء وتَغَمَّده بِالرَّحمة. وقَدْ خَلَّفَ أربَعَة أوْلَادٍ أكبَرهُم «الدكتُور عَلي الحِلِّي» من الأطِبَّاء المعرُوفين في «الحِلَّة».[١]

ومن سُخْرِيَة القَدَر أنَّ محُقِّق الطَّبعَة الجدِيدَة للكِتَاب (١٩٩٥م ـ مكتبَة الطَّف ـ دِمَشْق) وإنْ أبقـىٰ على ٱسم المؤلِّف، إلَّا أنه عَمَـدَ إلـىٰ تَغيير ٱسم الكِتَـاب! فـأخـرَجَه بٱسم: (الشَّعَائـر الحسَينيَّة في الميزَان الفِقْهي). وفي تَقْدِيري أنه أخطأ في ذلك، بَل لَعَلَّه أسَاء، فَلَيْسَ لأحَـدٍ أن يتَصرَّف في كِتَـاب غَيره، ولَا سِيَّما في الأسم والعُنوَان (وهُو يُبقي علىٰ نِسبَته لِصَاحِبه الأوَّل)، فإذا وَقَع الخِلَاف بَين الفقهَاء في مَسْألة "حُقُوق الطَّبع والنَّشْر"، وهَل يَحِقُّ للمؤلِّف أن يحتَكِـر مَـا كَتَبَ، وللنَّـاسِ أن تَنْقل عَنه وتَقْتَبِسَ أم لَا؟ فَلا خِلَاف في حَظْر التَّصرُّف في أعمال ونَتَاجَات الآخَرين (مَع إبقَاء نِسبَتهَا إليهِم). ولكننا نَرجُو لمن فَعَلَ ذَلك العَفْوَ ونَلتَمِسُ لَه العُذْرَ مِن حُسْنِ نِيَّتِه وسَلَامة قَصْدِه وغَرَضِه، ثُم فَضْلِه في إعادَة طِباعَة ونَشْر وإحيَاءِ هـٰذا العَمَل الخَطِير.

لَسْتُ هُنَا بُنيَّ، وأنا أنقُل هـٰذه الترجمة المسْهَبة وأُطنِب في فَضَائِل المؤلِّف ﷺ، في وَارِد تَزكيته بَشَكْلٍ مُطْلَق، وتَبجِيلِه وتَعْظِيمِه إلىٰ دَرجَة لَيْسَت فِيه، فَتَقْدِيسُ العُلَماء ورَفْعِهِم فَوْقَ مَرتَبتهِم والمغَالَاة في أشْخَاصِهِم آفَة خَطِيرة أدعُوكَ للتَّنبُّه لَـهَا والحذَر مِن الوُقُوع فِيهَا... فَهُـو ـ بِبَسَاطَة ـ عَالم جَلِيل، مثْل غَيْره مِن سَائِر عُلَمائِنَا الأجِلَّاء وفُضَلَائنَا الكِرَام البَرَرَة، ومَا أقصِدُه هُنا أنه "عَالم"، ولَيْسَ مجُرَّد كَاتِب إسْلَاميٍّ، أو سِيَاسيٍّ مُنَاضِل، أو زَعِيم عَشَائِريٍّ أو مَنَاطِقي، أقْحَمَ نَفْسَه في الدِّين، وتَطَفَّلَ علىٰ الأسْتِنْبَاطِ والتَّشْرِيع، ورَاحَ يخبِطُ خَبطَ عَشْوَاء، ويُدَمِّر من الأحْكَام مَا يَشَاء!

---

(١) (الكِرَام البَرَرَة في القَرن الثَّالِث بعد العَشَرة) لـ «الشيخ آغَا بُزرك الطَّهْراني» ج٣ ص١٠٦٩.

ولكني سُقْتُ التَّرجمة المفَصَّلَة بعضَ الشَّيءِ لِسَاحَة «الشَّيخ» ﷺ، وأنا أُريدُ تَميِيزَه مِن جِهَتَين، الأُولىٰ فَضِيلَته وعِلْمَه وبَيَان الفَرْق بَينَه (كَشَخْص، وكَنَوْع المدَافِعين عَن الشَّعَائر) وبينَ خُصُومه علىٰ هٰذا الصَّعِيد، والثَّانية أنه من العُلَماء الذِينَ لَا تخفىٰ في خُطُوب الدِّين حميَّتهُم ولَا تُفتَقَد مَشَاهِدُهُم ومَواقعُهم، ولَا تخبُو في شَدَائِد المذْهَب غَيْرتهم ومَوَاقفُهُم، لِذَا لم يَسَعْهُ القُعُود علىٰ بِدَع أربَاب الضَّلَال وفتن المتغَرِّبين والمتَسَنِّنين، وقَد أَسْجَرَ «السيِّد محسِن الأمين» غَفَرَ اللهُ لَهُ في عَصْرِه إحْدَاها، فنَهَضَ «الشَّيخُ» بالجهَاد، وأنبَرىٰ للدِّفَاع، وتَصَدَّىٰ للذَّوْدِ عَن حِيَاضِ الدِّين، وتَنزِيه الوَلَاء لـ «أهْلِ بَيْتِ سَيِّد المرسَلِين»، ورَدِّ الخلْطِ والتَّشْوِيه عَن شَعَائِر العَزَاء، والأتجار والتَّدليس في أحْكَام الشَّرِيعَة الغَرَّاء!

والكِتَابُ رَدٌّ علىٰ (التَّنْزِيه)، والمردُود عَلَيْه هُو لـ «السيِّد محسِن الأمِين».

وقَد سَبَق لـ «الشَّيخ آغَا بزُرك» أن عرَّض بـ «السيِّد محسِن» حِين عَرَّف كِتَاب (النَّظْرَة الدَّامِعَة) فكَتَبَ: "في إثْبَاتِ جَوَازِ العَزَاءِ لـ «سيِّد الشُّهَدَاء» ﷺ وتمثِيل ذَلك وإظهَارِهَا للنَّاس، لـ «الشَّيخ مُرْتضىٰ بن عَبدالحسَين بن بَاقِر بن محمَّد حَسَن آلِ يَاسِين الكَاظِمِي» طَبَعَه في ١٣٤٥ رداً علىٰ بَعضِ المتَسَنِّنين المتجَدِّدين، الذِين يُنكِرُون علىٰ الشِّيعَة هٰذا الفَنِّ العَرِيق عِنْدَهُم مُنذُ قُرُون، مَع أنهُم يحَبِّذُونها في المسْرَحِيَّاتِ الجدِيدَة، كَما يَأتي بعُنْوَان "نَمايشنَامه" حَيث لَم يَكُن ضِدَّ «بني أُمية»". [1]

ولنَجْلِه المحَشِّي («الشَّيخ علي نَقي المنزَوي») تَعْلِيقَة في هَامِش تَعريفِه لـ (النَّقْدِ النَّزِيه) يَقُولُ فيهَا: "ومَرَّ هُنَاكَ (في تَصنِيفِ (النَّظرَة الدَّامِعَة)) أنَّ مُجَارَاة «السَّيِّد الأمِين» في كِتَابه هٰذا ((التَّنْزِيه)) لأهْل السُّنَّة المعَانِدِين لإقَامَة التَّعَازِي والذِّكْرَيَات، جَعَلَ أهْلَ النَّظَر (الفُقَهَاء والمجْتَهِدُون) يُعَارِضُونَه بمَقَالَاتٍ ورَسَائِل، فَإنَّ فَنَّ التَّمثِيل كَانَ ولَا يَزَال مِن أهَمِّ وَسَائِل التَّعلِيم عِندَ الأُمم المتَحَضِّرة." [2]

---

(١) (الذريعة) لـ «الشيخ آغا بزرك الطهراني» ج٢٤ ص١٩٦.

(٢) (الذريعة) لـ «الشيخ آغا بزرك الطهراني» ج٢٤ ص٢٧٩. «علي نقي المنزوي» هو «أبن آغا بزرك الطهراني»، كتبَ أنَّه وُلدَ في يوم ٢٥ ذي القعدة من عام ١٣٣٨هـ فسَّماه «عيسىٰ» بالمناسبة، وبعد أسبوع غيَّر أسمه فسَّماه بأسم «الإمام العاشر» ﷺ: «علي نقي»، لأنه وُلد في بلدَة «سامراء» مَدفَن «الإمام الهادي» ﷺ. والفُرْسُ يَختَار كلٌّ لَقَبه ولَا يتَقَيَّد بلَقَب العَائِلَة.

والكِتَابُ يَتَنَاوَل المَوَاضِيع دُونَ تحفُّظٍ وحَسَّاسيَّة، ويتَعرَّضُ إلىٰ القَضَايا بوُضُوح وصَرَاحَة، بما يضَعُ النُّقَاطَ علىٰ الحرُوف، واليَدَ علىٰ الجرُوح، ثُمَّ يَذْهَبُ في تَفنِيدِ مَزَاعِم التَّيَارِ التَّغرِيبِيِّ ودَعَاوَاه، ودَفْع اعْتِرَاضَاته وإشْكَالَاته علىٰ مُخْتلِف أنماطِ الشَّعَائر، التي مَا زَالَ ـ مِن عَجَبٍ ـ الشَّبَاب في السَّاحَة المتَأثِّرة بهٰذا التيَّار، والمحَازِبَة لهٰذا الفِكْر يُكَرِّرونَها ويَجتَرُّونَها بـ "إمَّعِيَّة" مَقِيتَة، بلَا طَائل مِن حَيَاء ولَا وَازِعَ من خَجَل، وكَأنها بِكْر لم تَطْرُق الآذان إلَّا السَّاعَة ولم يَسْمَع بهَا أحَدٌ إلَّا من يَومهَا! مَا كَأن عُلَماءَنَا أشْبَعُوهَا بَحْثاً وقَتَلُوهَا دَحْضاً، وهَا هِيَ الكُتُب تَطْفَح والمؤلَّفات تَشْهَد...

من هُنَا فَإنَّ الحَاجَة إلىٰ هٰذا الكِتَاب تَتَرسَّخ وتَتَأكَّد، وهُو المتَجَدِّد في مَادَّته ومَوْضوعه، الحيُّ في أسبَابه ورِسَالَتِه ومُنَاسَبتِه، التي مَا انفكَّت تَتَأكَّدُ من سُلُوك القَوْم وأدَائِهم، نَاهِيكَ بَأصْل وُجُوب التَّحَصُّن العِلْمِيِّ، وضَرُورَة المنَاعَة الفِكْرِيَّة، فَلَو لم يُجَدِّدُوا إثَاراتهم ويَجْتَرُّوا تُرَّهَاتهم لَوَجَبت المبَادَرة إلىٰ مطَالَعَته ولَحَسُنَت قِرَاءَته ومُذَاكَرته بين المؤمنِين الموَالِين، فكَيْفَ بِالأمرِ وهُم يُثِيرُونَ الشُّكُوكَ ويُهيِّجُونَ الأبَاطِيل والأكَاذِيب، ويَختَلِقُونَ الفِتَنَ ويُشِيعُونَ الفَاحِشَة بين المؤمنين؟!

(النَّقْدُ النَّزِيه) يَدْحَض شُبهَاتهم ويُفَنِّد إشْكَالَاتهم بِجَوْدة وإتْقَان الخَبِير الحَصِيف، وتمَكُّن واقتِدَار العَالِم الفَقِيه، حتىٰ تَظْهَر شُبُهَاتِهم أمَام استِدْلَالَاتِه واحْتِجَاجَاته كَفَرخ شَيْطَانٍ طَائر سَقَطَ من عُشِّه، فتَكَسَّرت أجنِحَتُه، ووَهَن عَزْمُه، فَلَا يَستَطِيع تَحلِيقاً، ولَا يُطيق ردّاً، إذ هُو أبكَمُ من قَبْلُ، وحَصِرٌ وعَيٌّ في الأصْل، لٰكنها الشَّيْطَنَة والأبلَسَة، تُزيِّن وتخلُط، فتُوحي من فَرَاغ وتُوهم من سَرَاب!

ومن العنَاوِين التي تَنَاوَلها: المنكَر والنَّهيُ عنه/ الكَذِب في المرَاثي/ الإرسَال في وَقَائع «الطَّف»/ الأخبَار المكْذُوبَة/ التَّغَنِّي بالمرَاثي/ العُسْرُ والحرَجُ في التَّطبِير والضَّربُ بالسَّلَاسِل/ الإيذَاء والإضْرَار/ قَاعِدَة نَفْي الضَّرَر وحُكْم التَّطبِير/ لَا ضَرَرَ في التَّطبِير/ نَماذج من إيذَاء «أهْلِ البَيْت» عليهم السلام أنفُسَهم/ استِعْمال آلاتِ اللَّهْو في الشَّعَائر الحسَينيَّة/ إقَامَة التَّمثِيلِيَّات والتَّشَابِيه التي تحكِي الوَاقِعَة/ الصِّيَاحُ ورَفْعُ الصَّوْتِ في النُّدْبَة/ الهتْكُ والشَّنِيعَة، أو الوَهْنُ ومَا يُوجِبُ النَّقِيصَة.

٧- (نُصرة المظلُوم)

لـ «الشَّيخ حَسَن بن الشَّيخ عَبدِالهادِي بن الشَّيخ إبراهِيم بن الشَّيخ نِعمَة بن جَعفَر بن عَبدَالله بن عَبدالحسَين بن مُظَفَّر» رحمهم الله وقدَّس أسرَارَهُم. كَانَ جَدُّه «الشَّيخ إبرَاهِيم» من أعَاظِم أعْلَام الأُسرة العِلْمِيَّة الجلِيلَة «آل المظَفَّر»، وكَانَ من تَلَامِيذِ «الشَّيخ محمَّد حسَين الكَاظِمي» المعَرُوف بـ «المقَدَّسِ البَغْدَادِي»، وهَاجَر من «النَّجَفِ الأشْرَف» إلىٰ «البَصْرة» لِـرِعَاية المؤمِنِين والقِيَام بالوَظَائف الشَّرعيَّة. ووَالدُه عَلَمٌ آخَر مِن أعْلَام هٰذه الأُسرَة العَرِيقَة، فَقَد خَلَفَ وَالِده - بعدَ وَفَاته عَام ١٣٣٣هـ - في «البَّصْرة» وقَام بَأعبَاءِ خِدْمَة النَّاس في مُختَلِف الشُّؤُون الدِّينِيَّة والاَجتِماعِيَّة، ولم يَخْلُ من دَوْرٍ سِيَاسِيٍّ وقِيَادِيٍّ علىٰ هٰذا الصَّعِيد. وبدَوْره خَلَفَ «الشَّيخ حَسَن» مَقَام وَالِدِه وجَدِّه، ونهَض برعَاية المؤمنين في «البَصْرَة». وكَان مجمَع العُلَماء فِيهَا، ومُنتَدىٰ الأُدباء، ومَأوَىٰ المحْتَاجِين، ومَلَاذ النَّاس في شتىٰ أُمورِهم الدِّينيَّة والدُّنيَوِيَّة.

قَال «الشَّيخ آغا بُزرك الطَّهْرَاني» عنه: "... وقَد قَام مَقَام أبيه، وخَلَفه في سِيرته الحمِيدَة ونَفْعِه للنَّاس، وهُو مَوْضع اَحْتِرَام أهْلِ العِلْم وبَاقِي الطَّبَقَات، وقَد تُوُفِّي في يَوْم «عَاشُورَاء» في مُستَشْفَى «المِينَاء» بـ «العَشَّار» سَنَة ١٣٣٣هـ ونُقِلَ إلىٰ «النَّجَفِ» ودُفِنَ بها رَحمَه الله." [1] وذَكَر في كِتَابه (الذَّرِيعَة) فَقَالَ: (نُصْرة المظْلُوم) للمُعَاصِر «إبرَاهيم حَسَن آل المظَفَّر النَّجَفِي»، وفيه رُجْحَان إقَامَة التَّعَازِي والتَّمثِيلِيَّات لِبَيَان مَا حَدَثَ بالأيْدِي الظَّالمة علىٰ «آلِ رَّسُول الله». طُبِعَ ١٣٤٥هـ، جَوَاباً علىٰ بَعضِ المتجَدِّدين الـمُتَسَنِّنِين، الذِين يحبِّذُون التَّمثِيلِيَّات الفَنيَّة الدُّنيَوِيَّة ويحرِّمُون الدِّينيَّة منهَا"! [2]

والكِتَابُ بُنيَّ يَتَميَّز بأُسْلُوبه اللَّاذع بَعضِ الشَّيءِ في رَدِّ ذَوِي البِدَع والأهْوَاء، وبَيَانه الصَّرِيح الممتَزِج بالاَستِخْفَافِ بحُجَج أربَابِ الضَّلَال، وبِجُرعَة مِن الغَضَبِ في ذَاتِ الله، والحمِيَّة المَمْدُوحَة عَقْلاً والمطْلُوبَة شَرْعاً، مما أرَىٰ أنَّا بحَاجَة إليهَا اليَوْم، وقَد غَلَبَت المَصَالحُ الشَّخْصِيَّة، ورَاجَت الصَّفَقَاتُ السِّيَاسِيَّة، واَدَّثَرَ كُلُّ ذلك بالدِّين!

(١) (نقباءُ البَشَر في القَرْن الرَّابع عَشَر) لـ «الشيخ آغَا بزُرك الطَّهراني» ج٣ ص١٢٤١.
(٢) (الذَّرِيعَة) لـ «الشَّيخ آغَا بزُرك الطَّهْراني» ج٢٤ ص١٧٨.

وقَد تَضمَّنَت مقدِّمَة الكِتَابِ بَيَاناً للْخَلَفيَّاتِ التي دَفَعَتْه للكِتَابة، وقَدْ ذكَرَهَا بِاْسْتِرسَالٍ وعَفْوِيَّـة، وعَرَضَهَا مِن مُنْطَلَقٍ لَا يَلحَظُ إلَّا الشَّرع وحُكْمَه، والتَّكْلِيف وتَشْخِيصه، مَا يُشَكِّل حُجَّة تَرُدُّ علىٰ تَسْوِيلَات المرتَابِين، وهَوَاجِس المتَردِّدِين والمحْتَاطِين، وأعْذَارِ الجبَنَاءِ المتَقَاعِسِين في كُلِّ عَصْر وزمَان... لِذَا سَأنقُلهَا لتَنْطَلِق منهَا:

"بينَا أنا وَاقفٌ مَوْقِفَ الأنْدِهَاشِ والحيرَة ـ أُسْوَة بكَثِيرٍ من أهْلِ الدِّين ـ لما وَقَعَ في الحرمَيْن الشَّرِيفَيْن ومَا وَالَاهُما مِن المنكَرَات، بِهَدْمِ المشَاهِدِ والمزَارَات، وذلك في أوَّل شَهْر المحَرَّم من هـٰذا العَام حَيث يُقَام التِّذْكَارُ الحسَينيُّ المحْزِن، وكفىٰ به جَالِباً لِلْوَجْد القَلْبِي ومُثِيراً للبُكَاءِ المقْرح، إذْ اْنتهىٰ إلـيَّ عَدَدٌ من جَرِيدَة «الأوقَات العِرَاقيَّـة» التي تَصْدُر في «البَصْرَة»، وفي مُفتَتَحِهَا مَقَالَـة يَنقُل صَاحِبُها عن رَجُل من فُضَلَاءِ أهْل العِلْم، قَطَنَ «البَصْرَة» مُنْذُ شُهُور، يُدْعىٰ «السيِّد مَهْدِي»، أنه مَنَعَ من تَمْثِيل تِلْكَ الفَادِحَة والمصِيبَة العظمىٰ، ومن خُروج مَوَاكِب الرِّجَال يَضْرِبُونَ صُدُورَهُم بَأيدِيهِم في الأزقَّة والجوَادِّ (جمع جَادَّة) العُمُوميَّـة، فقُلْتُ هـٰذه مُصِيبةٌ ثَالِثَة ومَا هي بَأهْوَن مِن الأُولِيين، ثُم تَـوَاتَرت الكُتُب والرُّسُل من «البَـصْرَة» إلىٰ مَرَاكِز العِلْـم في «النَّجَف»، وهي مَا بينَ عَاذِلٍ وعَاذِر، مُحَبِّذٍ لهـٰذا المنْع ومُسْتَاءٍ منه، فشَمَمْتُ من ذلك رُوحَ الأغْرَاضِ الشَّخْصِيَّة بَينَ فِئَتَيْن، فَأعْرَضْتُ، وقُلتُ: فَـوْرةٌ لَا مِسَاسَ لها بالمذْهَب سَوْفَ تَسْكُن، ثم مَا عَـتَّمْتُ إلَّا وقَد أُرسِلَت بَعدَ أيام من «البَصْرَة» مَقَالَةٌ مَطْبُوعَة من مُزَخْرَفَاتِ ذلك الرَّجُل الفَاضِل، مَزَجَ فيهَا بينَ الحقِّ والبَاطِل، ونَسَبَ الفِرقَة الجعْفَرِيَّة ـ في إقَـامَة التِّذْكَارَات الحسَينيَّة في بَعضِ مَظَاهِرِهَا ـ إلىٰ الأبدَاع والقِيَام بأفعَال وَحْشِيَّة همَجِيَّة.

وفي هـٰذا تَضْلِيلٌ للسَّلَفِ الصَّالح مِن العُلَماء الأعلَام والقُـوَّام علىٰ الحلَال والحرَام، ورفَعٌ لأعْظَم شِعَارٍ مَذهَبِيٍّ، مَا زَالَت تجتَنِي الشِّيعَةُ من فَوَائِـده مَا يَحفَظ كَـيَانَهُم ويُثَبِّتُ عَقَائِدَهُم، فَعَلِمْتُ من أينَ جَاءَت هـٰذه البَلِيَّة التي تَقْضِي ـ إنْ تمَّت ـ علىٰ حَيَاةِ الشِّيعَة، وتَيقَّنتُ أنَّ كَيْدَ المموِّهِين والمنَافِقِين، وخَاصَّة أفرَادِ "الجمْعِيَّة الأُمَوِيَّة"، ذَلك الكَيْد الذِي لَا يَنْطَلِي إلَّا علىٰ السُّذَّج والبُسَطَـاء، الذِي أوْقَعَ هـٰذا الرَّجُل فَأفتىٰ ومَنَعَ وقَذَفَ وضَلَّل، ولَفَّقَ أُمُوراً لَيسَ لها مَقِيلٌ في ظِلِّ الحقِيقَة، بَل هيَ كَسَرابٍ بِقِيعَة، يَحسَبه الظَّمْآنُ مَاءً.

كُنتُ أجِدُ لي فيها كَتَبَه وأفتىٰ به عُلَماؤُنَا الأعْلَام في هـٰذه الأيام، وطُبعَ مُلْحقاً بِرِسَالَة في هـٰذا الشَّأن لمعَاصِرنَا الفَاضِل «الشَّيخ محمَّد جَوَاد الحجَّامِيِّ النَّجَفِي» حَفِظَه الله المطْبُوعَة في «النَّجَف»، مَنْدُوحَة عَن الخوْضِ في هـٰذه المسْألَة التي عَزَّ وعَظُمَ علىٰ كُلِّ عَارِف من الشِّيعَة أنْ تَقَع مَوْقع سُؤَال وتَشْكِيكٍ. ولكنِّي الآن بَعدَ ٱنتِشَارِ تِلكَ المقَالَة التي هي قُرَّة عَيْن المنَاوِئين، لَا أجِدُ مَسَاغاً شَرْعِيّاً للسُّكُوتِ عَمَّا خفىٰ علىٰ ذَلك " السَّيِّد الصَّائِل " ومن يَطْرَبُ علىٰ تَصْدِيَتِه، عسىٰ أن يُنيبَ إلىٰ الحقِّ ويَتَنبَّه إلىٰ مَا أغْفَلَه به الأغْيَار المفَكِّرُون. ومن الله أرجُو أن تكُونَ رِسَالَتِي هـٰذه التي سَمَّيتُهَا: «نُصْرَة المظْلُوم»، سَبَباً لهدَاية إخْوَاننا المسْلِمِين إلىٰ اتِّبَاع الحقِّ بيَقِين، إنه وَليُّ ذلك والقَادِرُ عَلَيه.

وهَا أنا بعَوْن الله وتَوفيقِه ذَاكِرٌ في مُقَدِّمة هـٰذه العُجَالَة بَحْثاً فَلْسَفِيّاً تَارِيخيّاً ينتَهي بالمتَأمِّل فيه إلىٰ العِلْم بأنَّ التِّذْكَاراتِ الحُسَينيَّة بجَميع أنوَاعِهَا حَافِظَةٌ للمَذْهَب الجعْفَرِيِّ عن الأندرَاسِ والدُّثُور، وبهـٰذا الأعتِبَار لَا يُحتَاجُ في شَرعيَّة بَعضِهَا إلىٰ وُرُود دَليل خَاصٍّ به، وأنه لَا يعتنىٰ بسُخْرِيَة السَّاحِر... فإنه في الحقِيقَة مَاكِرٌ لَا سَاحِر، يُريدُ إطْفَاءَ أنوَار «الأئمَّة الأطهَار» بكَيْدِه ومَكْرِه ولَا يحِيقُ المكْرُ السَّيئُ إلَّا بأهْلِه " .

والكِتَابُ كَما عَلِمْتَ رَدٌّ علىٰ شَخْصٍ آخَرَ غَير «السيِّد مُحسِن الأمِين» جَاءَ هـٰذه المرَّة من «البَصْرة» في الشَّرق، متَزَامِناً ومُتَنَاغِماً مَع الآخَر الذِي خَرَجَ من «الشَّام» في الغَربِ! وكَأنهما علىٰ ميعَاد، أوْ أنَّ المحرِّكَ والمدَبِّر الذِي أوْعَزَ إلىٰ هـٰذا وذاكَ وَاحِد؟

ويَشْتَمِلُ الكِتَاب علىٰ عَنَاوِين: المآتِم/ التَّمْثِيل/ تمثِيل النِّسَاء/ رَأي «الشَّيخ محمَّد حَسَن» صَاحِب «الجوَاهِر»/ مجَامَع اللَّدْم (هَيئَات اللَّطْم)/ مَوكِبُ لَدْم (لَطْم) الصُّدُور/ رَأي «الشَّهيدِ الأوَّل»/ مَوكِب السَّلَاسِل/ مَوكِب القَامَات/ رَأي «شَيخ الشَّرِيعَة الأصفَهَاني»/ نَظْرَة في التَّاريخ/ رَأي «العَلَّامَة المجْلِسِي»/ «النَّجَف» وعَمَل الشَّبِيه/ رَأي «الشَّيخ البَلَاغِي»/ رَأي «الشَّيخ محمَّد تَقِي الشِّيرَازِي»/ رَأي «الشَّيخ محمَّد طه نَجَف»/ رَأي «السيِّد بَحْر العُلُوم»/ رَأي «السيِّد كَاظِم اليَزْدِي»/ رَأيْ «السيِّد أبوالحسَن الأصفَهَاني»/ رَأي «الميرزا النَّائيني»/ دَعْوا الموَالي يُعَبِّر عَمَّا فِيه/ الإشْكَالَات مُجرَّد حُجَج وأعْذَار!/ المعَازِف وآلات اللهْو كَالطَّبْل والبُوق والصَّنْج.

٨ - (مَن هُم قَتَلَة الحسَين)

إعْلَم بُنيَّ أنَّ الدَّسِيسَة والخُطَّة في حَرْبِ الشَّعَائر الحسَينيَّة تَتَحَرَّك على عِدَّة جبهَات وبأكثر من أدَاة، والمؤَامَرة في صَرْف المؤمنين عَن وَاجِب إحْيَاء ذِكْرَىٰ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام وتَحريضِهِم علىٰ تَرْكِ هـٰذا الخطِير، تَتَّخِذ أشْكَالاً وصُوَراً وتَجُولُ في نِطَاقَاتٍ مُخْتَلِفَة، فهُنَاكَ خِطَابٌ للعَوَام، وآخَر للمُثَقَّفِين، وثَالِث لأنصَافِ العُلَماء، ورَابع لأربَاع الفُقَهَاء!... تُدَغْدِغُ في جَماعَة مَكَامِن الغُرُور وأوْهَام الشُّهْرة حِينَ يَتَخَطَّفُهُم بَرِيقُ أضْوَاء المخَالَفَة (خَالِف تُعرَف)، وتُهيِّج في آخَرِينَ الغِيرَة الموَهُومَة والحمِيَّة والعَصَبِيَّة المزيَّفة فتَدْفَعهُم لمعَارِكَ وتَأخُذهُم إلىٰ جَبهَات لاَ نَاقَة لَهُم فيهَا ولاَ جمل، ولاَ نَفْع للمَذْهَب، بَل كُلَّ الضَّرَر، وتُزيِّن "التَّقْوَىٰ" و"الحِيطَة" و"الحذَر" في جَامِدِين قِشْرِيِّين ومُتَدَيِّنين أغبِيَاء، عَلِمُوا من هـٰذا الحقْل شَيئاً وغَابت عَنهُم أشْيَاء، فَصَاروا مِثْل «أبي الدَّرْداء»!

لَم يَنحَصِر الأمرُ يَوْماً بُنيَّ ولَم يَقِف عِند أنماطِ الشَّعَائر والتَّشْكِيكِ فيهَا، كَلَّا، ولَم يَكتَفِ أعدَاء «عَاشُورَاء» وأتبَاعُهُم، العَالِمُون العَامِدُون، والجهَلَة التَّابعُون، بِالطَّعْنِ في سُنَّة الإحْيَاءِ والسَّعْي لإخمادِ ذكْوَتها وإطْفَاءِ أنوَارَهَا، بِشَتَّى الحيَل والوَسَائل... بَل تَرَاهُم يَعمَدُونَ إلىٰ القَفْزِ علىٰ الأصْل ومُصَادَرة الجَذْر، عَبْر تَشْكِيكَاتٍ وشُبُهَاتٍ عِلْمِيَّة وإثَارَاتٍ تَارِيخيَّة تَنَالُ مِن أصْل القَضِيَّة وتَمَسُّ أسَاسَ الوَاقِعَة وجَذْرهَا، لتَتَهَاوَىٰ "الشَّعَائِر" ويَسْقُط مَنْطِق "إحْيَاء الذِّكْرَىٰ" ومُنطَلَقه، وتَتَفَنَّد حُجَّته من تِلقَاءِ نَفْسه، فَهُو فَرعٌ تَابع للأصْل الذِي بَتَرُوه، ونَتِيجَة مُتَرَتِّبَة علىٰ العِلَّة التي أبطَلُوهَا!

مِن هُنَا جَاءَ الغَمْزُ بالزَّعْم أنْ أصْلَ فَلسَفَة الإحْيَاء، وعِلَّة تِكْرار الرثَاء والبُكَاء، هُو رَدُّ فِعْل علىٰ الشُّعُور بالذَّنب، وإسْقَاطٌ لحَالَة الأسىٰ من تَبِعَة قَتل «سَيِّد الشُّهَدَاء»!

إنهَّم يُلْقُون هـٰذه الشُّبهَة فَيَغْرِسُون في تَفْكِير المؤْمن مَا تَأبَاهُ نَفْسُه وتَشْمَئِزُّ منه رُوحُه، عِندَمَا يُصَوِّرون البُكَاء والصِّيَاح والجَزَع واللَّطْم ومُخْتَلَف أنماطِ الشَّعَائِر، تكْفِيراً عَن الخَطِيئَة، وفَرْعاً عَن ثُبوت الجريمَة، وهي أن الشِّيعَة قَتَلُوا «الحسَين»، لِذَا فَهُم يَبْكُونَه! وهـٰذا مما يَأبَاهُ المؤمنُ لِنَفْسه ولأسْلاَفِه، مَا يَبْعَث فِيه التَّعَالي والتَّنَفُّر، فيَنْصَرِف عَنه، وكَأنه يَقُول: لَستُ مِن الذِين قَتَلُوه لأبكِي عَلَيه، ولاَ في أسْلاَفي مَن فَعَل ذلك!

وهـذا الكِتَابُ الـذِي أعْرِضُه هُنَا، مِن الكُتُب التي تَجبُر ثُلْمَـة وتَسُدُّ فَرَاغاً في ثَغْر الجهَادِ والحرْب الضَّارِيَة التي تُشَنُّ علىٰ العَقِيدَة الصَّحِيحَة والشَّعَائِر الحسَينيَّة الأصِيلَة... فَقَـد انبَرىٰ العَلَّامَة «السيِّد عَليّ الحسَيْنيّ الميلَاني» حَفِظَه اللهُ ورعَاه، لِدَفْع وَاحِدَة من الشُّبُهَات التي طَالما نَاوَرَ عَلَيهَا الخصْم وزَاوَر، وتَسَرَّبَت عَمْداً أحْيَاناً، ومن إسْقَاطَاتِ اللَّاشُعُور أحْيَاناً أُخْرىٰ، ولتَرفد خَطَّ الضَّلَال وتُعِين المضِلِّين علىٰ مَآربهم الخبِيثَة.

والكِتَابُ يُثْبِتُ أنَّ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام قُتِلَ بمُؤَامَرة مُدبَّرة وخِطَّة مُحكَمَة، نُفِّذَت بوَاسِطَة «يزِيدِ بن مُعَاوِيَة»، بَأمر مِنه وإشْرافٍ علىٰ التَّنفِيذ، الذِي تَمَّ علىٰ أيدِي أنصَارِ «بني أُميَّة» في «الكُوفَة»، وبمَعُونَة «الخوَارِج»، وأنَّ رِجَالَاتِ الشِّيعَة في «الكُوفَة»، الَّذِينَ كَاتبُوا «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، واسْتَعَدُّوا لِنُصرته، قَدْ شَتَّتَهُم الأيدِي الظَّالِمَة، بين قَتِيلٍ مَعَ «مُسْلِم بن عَقِيل» عليه السلام، أو سَجِين، أو مُطَارَد لَمْ يَتَمكَّن مِن الحضُور بـ «كَرْبَلَاء»، ومَن تمكَّن واستَطَاع، اسْتُشْهِد.

وهو يَشْتَمِل علىٰ ثَقَافَة حُسَينيَّة لَا يَسْتَغْنِي عَنهَا العَامِلُ في هـذا الحقْل، ومَعْلُومَاتٍ ثَمِينَة ومَبَاحِث وتَحقِيقَات مُتْقَنَة يَجبُ أن يَتَسَلَّح بها المؤمن الحسَيْني، ولَا سِيَّما أربَابُ المجَالِس وأصْحَابُ الحسَينيَّات وقَادَة مَوَاكب العَزَاء، حتىٰ لَا تَهجِمَ عَلَيهِم اللَّوَابِسُ وتَصْطَلِمهُم الأهْوَاء والفتن، ونَحْنُ نَرىٰ كَم فُتِحَ لها من بَاب في زَمانِنَا، فغَدَت تَعْصِف حتىٰ مِن دَاخِل البَيْتِ الشِّيعي، وتَأتي غَادِيَة رَائحَة مِن أدْعِيَاء نُصْرة المذْهَب وحُماة العَقِيدَة وحَرَسِهَا، الَّذِينَ يُهَاجمونَ الوَهَابيَّة في القَنَوَات الفَضَائيَّة ويَفَنِّدُونَ أفكَارهَا ويُبطِلُونَ عَقَائِدَهَا، لمآرِبَ سِيَاسِيَّة ومن مُنطَلَقات حُكُوميَّة، ثُم تَرَاهُم يَتبَنَّونَ عُمْق خِطَابِها، ويُرَوِّجُونَ لِكُنْهِ رِسَالَتِهَا وجَوْهَر دَعْوَتِها، ويُنَفِّذُونَ مَآرِبَها وهُم يَضْرِبُون أقصىٰ مَرامِيهَا ويستهدِفُون غاية آمالها، حين يحارِبُون الشعائر الحسينيَّة ويَنَالُونَ من الحوْزَات العِلميَّة والمرجعِيَّة الأصِيلَة! فانظُر أينَ بَلَغَ اللَّبْسُ والخلْط، وكَم تَعَمَّقَت الفِتْنَة وتَركَّبت، وزُخْرِفَت المحْنَة وازَّيـنَت، فكَأننا أمَام مَصَاحِفَ تُحمَل علىٰ الأسِنَّة، ومَشَايخ أُرسِلَت منهَا اللِّحَى وأُرخِيَت، وجَبَهَات تَثَفَّنَت واسْوَدَّت، تُنَادِي بالتَّقْوىٰ وتَتَبَاكىٰ علىٰ العَقِيدَة، ثم تُبَايع الوُلَاة المزيَّفِين، وتتخندَق في جبهة الضُّلَّال وتَنْصُر المنحَرِفين!

عَلَيكَ أن تَتَسَلَّح بالعِلْم وتَسْتَقِيه من مَعْدِنه، وتَتَبَصَّر في دِينكَ، وتَعِي أُمور زَمَانِك حتىٰ تُحكِمَ وَضعَك وبُنْيَتَك الدِّينِيَّة العَقَائديَّة، وتَنْجُو بنَفْسِكَ ومَن مَعكَ من هٰؤلَاء الأشرار، مَشَارِيع المخَابرَات ومُرتَزَقَة الطُّغَاة... والكِتَاب خُطْوَة في هٰذا الطَّرِيق، وهُو يَتَنَاوَل مَوَاضِيعه الحسَّاسَة والخطِيرة، التي تُمثِّل ثَرْوَة في المعْلُومَات الضَّرُورِيَّة، نَاهِيكَ بالتَّحلِيل والرَّبطِ الفَنِّي المتْقَن الذِي يَستَنْبِط مَا وَرَاء الخَبَر ويَرسم حَرَكَة التَّارِيخ في تِلك الحِقْبَة بوَعْي وبَصِيرة، يَتَنَاوَل ذلك وَفْقَ مَحاوِرَ ثَلَاثة:

الأوَّل: بَيَان المؤامَرة وجُذُور الخطَّة المعَدَّة عَبْر:

تَأسِيس «مُعَاوِيَة» الدَّوْلَة الأُمَوِيَّة/ بنُود الصُّلح بين مَوْلَانا «الإمَام الحسَن» عليه السلام و«مُعَاوِيَة»/ نَقْض العَهْد والإعْلَان عَن بَيعَة «يزيد»/ وُلَاة «الكُوفَة» في عَهْدِ «مُعَاوِية»: «المغيرة بن شُعْبَة»، «زيَاد بن أبيه»، «عَبدالله بن خَالِد بن أُسَيد»، «الضَّحَّاك بن قَيْس»، «عَبدالرَّحمن بن أُم الحكَم»، «النُّعْمان بن بَشِير الأنصَارِي»/ تَصفِية الشيعة في «الكوفة»/ دَوْر «زيَاد» في القَضَاءِ علىٰ رِجَالَاتِ الشِّيعَة: قَتْل «حُجْر بن عَدِيٍّ»، قَتْل «عَمْرو بن الحَمِق»، سَجْن زوجَة «عَمْرو» ونَفْيهَا إلىٰ «حِمْص»، قَتْل «رُشَيْد الهجَري»، قَتْل «جُوَيريَّة بن مسهِر العَبْدي»، قَتْل «الحضرميَّيْن»، تَسْيِير الآلَاف من «الكُوفَة» إلىٰ «خُرَاسَان»، آخِر مَا عَزَم «زِيَاد» علىٰ فِعْله/ الإجْرَاءَات في «الشَّام» و«الحجَاز»/ الاغتِيَالَات: سَمُّ «سَعْد بن أبي وَقَّاص» و«عَائشَة» و«عَبدالرَّحمن بن أبي بَكْر» و«عَبدالرَّحمن بن خَالِد»/ عَاقِبة «زِيَاد»/ شَهَادَة «الإمَام الحَسَن» عليه السلام بِسَمِّ «مُعَاوِيَة»/ كُتُب أهْل «العِرَاق» إلىٰ «الإمَام الحَسَن» عليه السلام في حَيَاةِ «مُعَاوِيَة»/ مَوْت «مَعَاوِيَة» وبدْء تَطْبِيق مُخَطَّطَاته ضِد «الإمَام الحسَين» عليه السلام.

ثُم يَشْرَع الكِتَاب في كَشْفِ مَا فَعَلَتْه المؤامَرة برِجَالَات الشِّيعَة وبَيَان:

مَوَاقِف الوُلَاةِ من «الإمَام»/ تَوْلِيَة «ابن زِيَاد» علىٰ «الكُوفَة»/ استِشْهَاد «مُسلِم» و«هَاني»/ كِتَاب بِالأمَان مِن «عَمْرو بن سَعِيد» لـ «الإمَام الحسَيْن»/ أمْر «يزِيد» بقَتْل «الحسَين» عليه السلام/ أمر «يزِيد» بحَمْل رَأس «الإمَام» ورُؤوس الشُّهَدَاء وسَبْي العِيَال إلىٰ «الشَّام»/ وَقَائع «الشَّام»/ دَوْر الحزْب الأُمويِّ و«الخوَارج» في «الكُوفَة».

الكُتُب والرُّسُل/ إرسَال «مُسْلِم بن عَقِيل» إلىٰ «الكُوفَة»/ إعلَان «الإمَام» عَزْمه علىٰ الخرُوج من «مَكَّة»/ مُجمَل الوَقَائع في الطَّريق/ طَبيعَة المجْتَمع الكُوفي في عَصَر «عَليٍّ» و«الحسَنَيْن» عليهما السلام/ هَل كَان الذِين كَتَبُوا إلىٰ «الإمَام» شِيعَة لَه؟/ إجْرَاءَات «ٱبنَ زِيَاد» في «الكُوفَة»/ قَادَة جَيْشِ «ٱبنَ زِيَاد»: «عُمَر بن سَعْد»، «الحُصَيْن بن نُمَيْر»، «شِبَث بن ربْعي»، «حَجَّار بن أبجُر»، «الحرُّ بن يَزِيد الرِّيَاحِي»، «شِمْر بن ذِي الجوْشَن»، «قَيْس» و«محمَّد» ٱبنَا «الأشْعَث بنَ قَيْس»، «يزيد بن الحَارِث»، «عَمْرو بن حُرَيْث»، «عَمْرو بن الحجَّاج»، «عَزْرَة بن قَيْس»/ أَهْل «الشَّام» في جَيْشَ «ٱبن زِيَاد»/ أَهْل «مِصْر» وأَهْل «اليَمَن» في جَيْش «ٱبن زِيَاد»/ «العُثْمانيُّون» في جَيْش «ٱبن زِيَاد».

ويَخْتِم الكِتَاب رِسَالَتَه مَع البَحْث في: دَوْر عُلَماءِ السُّوء ووُعَّاظِ السَّلَاطِين في الدِّفَاع عَن «معَاوِيَة» و«يَزِيد»/ حَدِيث أنَّ «الإمَام الحسَين» مَدَحَ «مُعَاوِيَة»!/ مَاذَا صَحَّ في فَضْل «مُعَاوِيَة»؟/ التَّحْرِيفَات والأكَاذِيب: نَدَم «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، هَمُّ «الإمَام» بالرُّجُوع وهُو في الطَّرِيق، قَوْل «الإمَام» لَيلَة «عَاشُورَاء»: "ٱختَارُوا منِّي خِصَالاً ثَلَاثاً"، عَدَد القتلىٰ في جَيْشِ «ٱبن زِيَاد»/ التَّنَاقُضَات في كَلِمات القَوْم: «ٱبن تَيمِيَة»، «ٱبن العَرَبي المالِكِي»، «عَبدالمغِيث البَغْدَادِي»، «الغَزَالي»، «عَبدِالقَادِر الجيلَاني»، «الذَّهَبي»، «ٱبن حَجَر العَسْقَلَاني»/ سرُّ الدِّفَاع عَن «يَزِيد» و«مُعَاوِية»/ قَوْل عُلَماء السُّنَّة بكُفرِ «يَزِيد» ولَعْنِه/ مَنْشُور الخَلِيفَة العَبَّاسي/ من القَائِلِين به: «القَاضِي أبي يَعْلى الفَرَّاء»، «الحافِظ أبي الفَرَج ٱبن الجوْزِي»، «الحَافِظ أبي الحسَن الهيْثَمِي»، «الشَّيخ سَعَد الدِّين التَفْتَازَاني»، «الحَافِظ جَلَال الدِّين السُّيُوطي»، «العَلَّامَة شِهَاب الدِّين الآلوسي»، «العَلَّامة شِهَاب الدِّين ٱبن حَجَر المكِّي»، «العَلَّامة البرزَنْجي»، «الشَّيخ محمَّد عَبده». ثُمَّ يَعرِضُ الكِتَاب للتَّغيُّرات السَّماوِيَّة والحوَادِث الكَوْنيَّة، ولأَصْل البُكَاءِ علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، والوَجْه في تِكْراره وٱستِمرَاره، وفي النِّيَاحَة والجزَع علىٰ «سيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام.

المؤلِّف فَضِيلَة «السيِّد عَلي الميلَاني» حَفِظَه الله، حَفيد المرجع الرَّاحِل «السيِّد هَادِي الميلَاني» قدس سره، من العُلَماء الأجِلَّاء، والمتَخَصِّصِين الغَيَارىٰ، ويَكَادُ يَكُون الأوَّل في حَقْل التَّحْقِيق في عَصْرِنَا، ولَه أعْمال وخَدَمَاتٌ جَلِيلَة، سَدَّت ثَغَرات في المكتَبَة الشِّيعِيَّة.

٩- ‹فاجعَة الطَّفِّ›

لـ «آيـة الله العظمىٰ السـيِّد محمَّد سَعِيد الحكِيم» دَامَ ظِلُّه، أحَد حُصُون الدِّين وحُماة العَقِيدَة، ومَراجِعنَا العِظَام...

أنتَ هُنَا بُنيَّ في رِحَاب مَرجع حَقِيقي، صَادِق مَع نَفْسه وسَاحَتِه الإيمانيَّة، لم يُزيِّف ولم يُدلِّس، فَلَم يَصْنَعه الإعْلَام والفَضَائيَّات، ولَا سُوَّقَته أجْهِزَة الأمن والمخَابرَات، فَتَحْصِيلُه العَلَميُّ ومَا تَلَقَّاه، بمَراحِلِه المخْتَلِفَة وتَنَامِيه الطَّبِيعِيِّ وتَطَوُّره التَّقْلِيدِي، مَشْهُودٌ ومُشَخَّصٌ بدِقَّة، ومَشَايخه الذِين أخَذَ عَنهُم وتَعَلَّمَ مِنهُم، مَعْرُوفُون وَاحِداً بَعدَ وَاحِد، وهكذا طُلَّابه ومَن أخَذَ عَنْه، ثُمَّ الكُتُب والدَّورَات التي أنجَزَهَا في تَدْرِيس السُّطُوح العُلْيَا، وكَيفَ شَرَعَ في عَام ١٣٨٨هـ بتَدْرِيس البَحْث الخَارج علىٰ ‹كِفَاية الأُصول›، حَيث أتمَّ الجزْء الأوَّل منه عَام ١٣٩٢هـ، ليَعْمَد إلىٰ مَنهَجيَّة مُستَقِلَّة عَن كِتاب ‹الكِفَاية› بَدَأ فيهَا "مَبَاحِث القَطْع" حتىٰ أتمَّ دَوْرته الأُصوليَّة الأُولىٰ عَام ١٣٩٩هـ، ثُم بَدَأ دَوْرة أُصُوليَّة ثَانية، وقَد وَاصَل التَّدرِيس والتَّأليف علىٰ الرُّغْم من ظُروف الاعْتِقَال القَاسِيَة التي مَرَّت به مُنْذ عَام ١٤٠٣هـ إلىٰ عَام ١٤١١هـ. وأمَّا الفِقْه فَقَد بَدَأ تَدْرِيس البَحْث الخَارج علىٰ كِتَاب ‹مكَاسِب› «الشَّيخ الأنصَارِي» ﷺ في عَام ١٣٩٠هـ، ثُم في سَنَة ١٣٩٢هـ بَدَأ بتَدْرِيس الفِقْه الاستدْلَالي علىٰ كِتَاب ‹منهَاج الصَّالحين› للمَرحُوم «السيِّد مُحسِن الحكِيم» ﷺ ومَا زالَ علىٰ تَدرِيسه حتىٰ اليوْم علىٰ الرُّغْم من الظُّروف العَصِيبَة التي يَمرُّ بهَا «العِرَاق»، وقَد تخَرَّجَ علىٰ يَدَيْه نُخْبَة من أفَاضِل الأعْلَام الأجِلَّاء وهُم اليَوْم من أعيَان الأسَاتِذَة في الحوْزَات العِلْميَّة في «النَّجَف الأشْرف» و«قُم المقَدَّسَة».

وإنَّما أعْرِض لكَ هذا لِتَقِفَ علىٰ شَاهَد حَيٍّ ونَمُوذَج مُعَاصِر للمَرْجِعيَّة الشِّيعِيَّة، فَالمدَّعُون الذِينَ تَطَفَّلُوا علىٰ الاجتِهَاد، وأقحَمُوا أنفسَهُم في المرجِعيَّة زُوراً، وانتَحَلُوهَا بهتَاناً وأخَذُوهَا غَصْباً، وفَرَضُوا أنفُسَهُم بسَطْوَة المال وصَنَعُوا "مجدَهُم" بِقُوَّة السُّلْطَة! هُم من جِيل «السيِّد الحكِيم» دَام ظِلُّه، ويُفْتَرض أن يَكُونُوا في طَبَقَته، لكنهم رَاحُوا في اللهْوِ والعَبَثَ وهَدْر الوَقت وإتلَافِه فيما لَا طَائل منه، أو انصَرَفُوا إلىٰ الشِّعْر والأدَب، أو خَاضُوا في الحزْبيَّة والنَّشَاط السِّيَاسِي، بَينَما انكَبَّ هُوَ علىٰ العِلْم والتَّحْصِيل الجاد.

وعلىٰ الرُّغْم مِن أنه مَرَّ في ظُروفٍ قَاهِرة، وعَانىٰ مِن الإرهَاب والملاحَقَة الأمنِيَّة في عَهْدِ البَعْثِ، وقَاسىٰ من الاعتِقَال وإعْدَام الأقربَاء والتَّنكِيل بأُسرته، مَا لم يَرَ أُولئك "السِّيَاسِيُّون" (من العُلَماء) عُشْره، إلَّا أنَّ ذلك كُلَّه لَم يُعفِه من أُسُسِ التَّقيِيم العِلْمِيِّ وقَواعِد الحكْم والتَّصنِيف، ولم يَسمَح لنَفْسِه، ولَا سَمحَت لَه الأُسس والضَّوابِط، أن يَقفزَ عَلَيهَا بذَريعَة النُّهُوضِ بالعَمَل السِّيَاسي والجِهَاد، ومقَاوَمة أنظِمَة الجَوْر! أو أي عُنْوَان آخر بَعيدٍ عَن صَميم النَّشَاطِ العِلْميِّ والحوْزَوِي....

عَلَيكَ بُنيَّ أن تَعِيَ آليَّة تمييز العُلَماء وتَقِفَ علىٰ كَيفيَّة تكَوُّن ونُهوضِ المَرْجعِيَّات، فكُلُّ مَقْطَع من حَياتِه العِلْمِيَّة والعَمَلِيَّة مُسَجَّلٌ ومُوثَّقٌ ومَعْروفٌ ومَشْهُود... فَتُميِّز الغَثَّ من السَّمِين، وتُقَارِن بين هذا وذاك الذِي تَخلَع عَلَيْه الفَضَائِيَّاتُ مَرْجعِيَّته، وتَزْعُم لَه وَسَائل الإعْلَام فَضِيلَته وتَشْهَد بأعلَمِيَّته! أو تخلُق لَه الأحْزَاب ودَوَائر المخَابَرات تَاريخه العِلْمِي، ويَضَع لَه المرتَزِقَةُ والعُمَلَاء، أو الجهَلَةُ المستَغْفَلون من الحمقىٰ والسُّفَهَاء، السِّيرة ويَسْطُرون لَه التَّرجمَة التي تخْدُم هذا النظَام وتلك الدَّولَة، ومَا يحقِّق تَطَلُّعات هذا الحزْب المرِيب ويُسْعِف خُطَّة تِلك الجماعَة المنْحَرِفة. فإذا أقعَدَهُم ٱفتِضَاحُ الأكَاذِيب، وعَسُر عَلَيْهِم فَتُّهَا وتَركيبهَا، فلَم يُسعِفهُم وَاقع حَالِه المشْهُود الذي لَا يُمْكِن إغْماضُه وإنكَاره والتَّنَصُّل منه، مِن فِسْقٍ ظَاهِر يُبدِيه، وظُلْم فَاحِش يُفْشِيه، وجَوْر يَفُوق عَسْف السَّلَاطِين، أعْجَزَهُم عَما يَدَّعُون لَه من عَدَالَة تُنَاهِز العِصْمَة! ولَا أعَانَهم - مَثَلاً - عُمْر الرَّجُل، لما يُلفِّقُونَ ويَختَرِعُون... زَعَمُوا لَه النُّبوغَ والعَبقَرِيَّة والمعجِزَة وخَرْق العَادَة، وطَيَّ المراحِل في لحظَات! مَا يُذكِّرك بأبيَات «ٱبن رُشيق القَيْرَوَاني»:

كَم ذَا التَّلَوُّنُ في الطِّبَاع ولَيسَ ذَا
يَعْدُوكَ فَالطَّاوُوس ذُو أَلْوانِ
يَا عَاذِلاً مُتَنَبِّئاً في عَذْلِه
أُوتيتَ مُعْجِزَةً من الهَذَيَانِ
أيَرُدُّ حَقّاً ظَاهِراً بُرْهَانُه
زُورٌ تُلَفِّقُه بِلاَ بُرهَانِ؟

وتَعرف بُنيَّ بَعدَ هذا وتَعلَم أنَّك لَن تَجِدَ في الأصَالَة والمرجعيَّة الحقِيقيَّة، غَير المزيَّفَة ولَا المكْذُوبَة الملفَّقَة والمدَّعَاة المفتَرَاة، مَن يُحارِبَ الشَّعَائر الحسَينيَّة ويُعادِيها، وأنَّ كُلَّ الدَّاء والبلَاء هُو من أُولئك المزيَّفين الأدْعِيَاء والتُّعَسَاء الأشقِياء.

وبَعدُ، فإنَّ مَرجعيَّة «آية الله العظمىٰ السيِّد محمَّد سَعِيدِ الحكِيم» دَام ظِلَّه، أو قُل شَخْصِيَّته الفَذَّة، هِي مِن النَّمَط العَصْرِيِّ المتجَدِّد، ولكن المنْطَلِق من الأصَالَة والمتمَسِّك بهَا، والمسْتَقي من رَوَافِدها التَّقْلِيدِيَّة العَرِيقَة، والسَّالِك في طَرِيقها القَوِيم ودَرْبها المحَصَّن بالْتِزَام سِيرة السَّلَفِ الصَّالِح والحفَاظِ علىٰ التُّراث الشِّيعِيِّ المقَدَّس... تَرَىٰ ذَلك في قَلَمِه السَّيَّال وبَيَانِه المتَدَفِّق، المفْعَم بجُهْدٍ عِلْميٍّ عَمِيق، والمطَعَّم بنَفْحَة اَستِدْلَالِيَّة مَتِينَة مُحكَمَة، يَجمَعُ فيهَا شَتَاتَ الأحْدَاثِ ويَستَقْرِئ الأدِلَّة ويُلَاحِقهَا، بتَتَبُّع البَاحِث النَّهِم والخبِير الضَّلِيع، ولكنه لَفَّ ذلك كُلِّه وجَمع إلَيه أُسْلُوبَ كُتَّابِ العَصْر ولُغَة هذا الزَّمَان، فجَاءَ الكِتَابُ سَهْلاً، وَاضِح التَّعْبِير، متَنَاسِق التَّبْوِيب، مُستَوْعباً لأطْرَاف الموضُوع، وجَامِعاً لِشَتَاتِ فَوَائده ومتَفَرِّق مَسَائِله وتَشَعُّب جُذُوره.

من هُنَا فإنَّ مَا سَطَرَه في كِتَابِه (فَاجِعَة الطَّف) وعَرَضَه في مَبَاحِثه القَيِّمَة، يُمَثِّل سَابقَة علىٰ هذا الصَّعِيد، سَوَاء في مَادَّته، أو في أُسلُوبه، فَهُوَ يَأتي مِن فَقِيهٍ مَرجع جَامع للشَّرائط، فَلِوَهلَة تحسَبه عَمَلاً عَصْرِيّاً لَا عِلَاقَة لَه بالحَوْزَة التَّقْلِيدِيَّة، فإذا سَرَّحتَ النَّظر فيه، واَستَغرَقْتَ في مُطَالَعَته ونهلْتَ من رَوافِده وسَوَاقيه، أخَذَكَ العُمْق العِلمِّيُّ والمقدرَة الفِكْرِية التَّنْظِيريَّة، مما لَا تَرَاه في أقلَام المعَاصِرين مهما أجَادُوا؟

ونَاهِيكَ بأنَّ الكِتَاب يُمثِّل دِراسَة تحلِيليَّة مُعمَّقة تَقرَأ الأحْدَاث وتَستَنْبط مِنْهَا. فَإنه يُوَجِّه لِقُرَّائه رَسَائل خَفِيَّة ويحمِل خِطَاباً غَير مبَاشِر يَغْرِسُ فيهِم الفِكْر والعَقِيدَة الصَّحِيحَة، فهُو حِين يَبدأ ـ علىٰ سَبيل المثَال ـ بتَنَاول "إلهيَّة" التَّخْطِيط لِوَاقِعَة «الطَّف»، فإنه يَبني في مُخَاطَبيه أصْلاً عَقَائِدِيّاً ويُرسِّخ نَمَطاً فِكْرِياً يَفتَقِده المعَاصِرُون، المسْكُونُون بهَاجِس نَبْذِ "رَجْعِيَّتِهِم" وهَوَس إثبَاتِ "حَدَاثَتِهِم" وإظْهَار "رُقِيِّهِم" ومَوَاكَبتهِم للعَصْر والتَّطَوُّر العِلْمِي، فيفْعَلُونَ ذلك علىٰ حِسَاب المعَارِفِ الإلهيَّة، والعُلُوم الدِّينيَّة التي تُريدُ نَشْأة المؤمن وبِنَاء شَخْصِيَّته علىٰ الإيمان بالغَيْب.

وهٰكذا حِين يَعْرِض عَظَمَة الحدَث ويُبيِّن فظَاعَة الخطْب، ويَرسُم مِن قَبلُ أهدَاف النَّهْضَة الحسَينيَّة ويَسْتَظْهِر خِطَّتَهَا... فَإنه يَخْلُص إلىٰ رُؤيَة فِكْريَّة ونَتَائج " حَركيَّة "، يُلَامِس فيهَا الوَاقع أو يَستَشْرِفه مِن أكـثر أبوَابه ٱحْتِدَاماً وإثَارة للجَدَل، أيْ قَضِيَّة القِيَام والقُعُود، النَّهْضَة والجهَاد، أم لزُوم السُّكُون والعَمَل بالتَّقِيَّة، فَيَضَع النُّقَاطَ علىٰ الحرُوف في مَسْأَلَة جَعْل النَّهْضَة الحسَينيَّة نَمُوذَجاً يُقْتَدَىٰ من «الأئمَّة الأطْهَار» عليهم السلام مِن ذُرِّيَّة «الحسَين» عليه السلام، نَاهِيكَ بعُمُوم الشِّيعَة من أتبَاعِهم. فَيَطْرَح ـ بِشَجَاعَة ـ فِكْرَة: " لَا مُوجِبَ للتَّضْحِيَة بَعدَ فَاجِعَة «الطَّف» "، وكَيفَ أنَّ الحركَة من بَعد «كَربَلَاء» تمحْوَرت حَوْل تَقوِيَة كَيَان الشِّيعَة عَبر مُهَادَنَة السُّلْطَة. وهُو بهٰذا يُؤسِّس للغَة ونهج جَدِيد في التَّعَاطِي مَعَ الوَاقِعَة، ويَقْتَحِم سَاحَةً غَاية في التَّعْقِيد والحسَاسيَّة، طَالما تجنَّبها غَيره حَذَراً، سَوَاء من جُرْح غَائر يَعِيشُه الشِّيعَة ويتَحَسَّسُونَه ثأراً يُؤجِّج فيهِم الغَيْرة ويَستَثِيرُ الحمِيَّة، مَا يجعَلهُم مشَارِيع ثَوْرة مُرشَّحَة للتَّفجُّر في أية لحظَة، أو مِن سَطوَة العَوَام الذِين تَستَثِيرهُم وتُحركهُم الأحْزَابُ السِّيَاسِيَّة، التي تُنَادِي بالثَّوْريَّة وتَدْعُو إلىٰ الجهَاد، وقَد ٱستَقَت من «الطَّفِّ» و«عَاشُورَاء» وٱستَلْهَمَت، ورَاحَت تُعَبِّئ وتحشِد، وتجمَع من حَوْلها النَّاس. ومن هُنَا ينعَطِف علىٰ الدَّوْرِ " الحركِيِّ " الصَّحِيح الذِي يجِب أن يَنهَض به المؤمنون الوَاعُون في عَصْرنَا، وهُو الإبقَاءُ علىٰ الوَاقِعَة حَيَّة نَابضَة في عَطَائهَا، وفي حَرارتها وحُرقَتهَا، وذلك بإحْيَاء الشَّعَائر الحسَينيَّة.

وهُو هُنَا أيضاً يتَنَاوَل الأمر بوُضُوح وصَرَاحَة، ويَتَتَبَّع مَوَاضِع الخِلَاف ويُلَاحِقهَا بالعِلَاج والرَّأي الحَاسِم والتَّوجيه السَّدِيد... فَيُؤكِّد علىٰ ضَرورة الممارَسَة الصَّارِخَة وأهمِيَّتهَا، ويَدْعُو إلىٰ المحَافَظَة علىٰ الطُّرُق التَّقْلِيدِيَّة في إحْيَاء الذِّكْرَىٰ، والتَّمَسُّك بأنماطِ الشَّعَائر المعْهُودَة، ويَتَحَفَّظ علىٰ تَطْوِيرهَا، أو هُو يَرفُض أن يَنْطَلِق التَّطْوِير من غُربَة هٰذه الشَّعَائِر في عَصْرنَا ووَحشَة " الآخَر " مِنهَا، ويَضَع يَدَه علىٰ الجرح ويتَلَمَّس حَقِيقَة تِلكَ الدَّعوَات ومَا وَرَاءَهَا، وأنه الشُّعُور بالضَّعْفِ تجاه الآخَر. كَما يُعَالج جملَة من الإشْكَالَاتِ التِي يُثِيرهَا بَعضُهُم، أو الموجُودَة فِعْلاً في سَاحَة الشَّعَائر والنَّشَاط الحسَيْني، كَالإجْبَارِ والإرغَام عِند ٱختِلَاف الرُّؤىٰ، وشُبُهَاتٍ أُخرَىٰ يُثِيرُهَا المخَالِفُونَ والمشَكِّكُون، أو التي تَبرز فِعْلاً أثنَاء أدَاءِ الشَّعَائِر، ومَا يَنبَغِي مُرَاعَاته من الآدَاب فيهَا.

١٠ـ (القُربان)

وأخِيراً، أنصَحُك بُنيَّ بكِتَابي، أو رِوَايتي (القُربَان)...

لَا لأنه في عِدَاد هذه الأعْمال العَظِيمَة الخَالدَة التي ذكَرتُها لَك، ولَا أنا مُنزِلُه مَنزِلتها ومُدْرِجُه في مَصَافِّها، بل طَمَعاً أن تَغْنَم منه فَائدَة تَزيدك مَعرِفَة بـ «سَيِّد الشُّهَدَاء» عليه السلام، وأمَلاً أن يُبصِّرك بعَاشُورَائه، أو تَقرأ فيه وتَقع علىٰ مَا يَستَدِرُّ منكَ دَمعَة علىٰ مُصَابِه، في مَوْقع أحْسَنْتُ فِيه الوَصْف والتَّصوِير، ووُفِّقْتُ في نَقْل القَارِئ إلىٰ آفَاقِ الوَاقِعَة وأجْوَاءِ الفَاجِعَة، ومَا يُحِيلُ أنفَاسَك زَفَراتٍ، وفكْركَ حَسَرات، ويُدْرِكُ فِيكَ النَّجَابة، فَتَرِقُّ وتُستَدَرُّ مِنكَ دَمعَة... فَأدْخُلُ في "مَن أبكىٰ"، فأحظىٰ!

❋ ❋ ❋

تمَّ بحَمْدِ الله وتوفيقه في غرَّة شهر رمضان المبارك ١٤٣٢هـ،

في رِحاب مَسجِد «أبي الفضل العباس» عليه السلام في «الكويت»

أسأل من قرأه وحظي منه بفائدة،

أن يترحَّم علىٰ «وَالِدَيَّ» ويهديهما الفاتحة

مَسبوقة بالصلاة علىٰ «محمد» و«آل محمد».

الخادم/ عباس بن نخي

الفهرست

صَدَرَ للمؤلِّف:

* الغَيْبَة والتَّغييب.
* ريح يُوسُف.
* التجدِيد الإسلَامي والعَوْلمة.
* نَحْو رُؤية وَاعِية.
* البروتستانتية الشيعية.
* القُربان (رواية).
* ثُلاثية الثَّمن (قصة).

ترجَمَ إلى العربية:

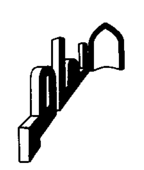
* مقتَطَفات وَلَائية، محاضرات للوحيد الخراساني.
* آية التطهير رؤية مبتكرة، للفاضل اللنكراني وشهاب الدين الإشراقي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اللهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وآلِ مُحَمَّد
وعَجِّل فَرَجَهُم والعَنْ أعْدَاءَهُم

الطبعة الأُولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

- «الوصايا العشر في إقامة وحضور مجالس العزاء»
- **تأليف**: عباس بن نخي
- **مراجعة وتصحيح**: السيد محمد علي الحكيم
- **التنضيد والإخراج الفني**: مؤسسة الإمام للنشر والتوزيع
- **الغلاف من تصميم**: حسين موسى
- **الحجم**: 20X25
- **عدد الصفحات**: 376
- **إصدار**: الإمام للنشر والتوزيع



يمكنكم التوَاصُل مع المؤلف ومرَاسلته على البريد الإكتروني:

a.bennakhi@live.co.uk

آداب الشعائر الحسينية

يتناول هذا الكتاب شأناً خطيراً على صعيد الممارسة العبادية الولائية للشيعة، هو إحياء ذكرى استشهاد «الإمام سيد الشهداء» عليه السلام وأهل بيته الأطهار وصحبه الأبرار في «كربلاء»، عبر ما يعرف بالشعائر الحسينية.

فيعرض للسنن والآداب والأُصول التي يجب أن يراعيها المؤمن عند إقامة وحضور المآتم الحسينية، وكيف عساه أن يفعل في البكاء والجزع، واللطم، والإدماء، والتشابيه، وزفاف القاسم، والإطعام، وما إلى ذلك من سائر الأنشطة التي تضطلع بها الحسينيات وتنهض المجالس والهيئات، كما يتناول الآفات والأخطار التي تتهددها.

وهو يعود في ذلك إلى الأُصول الشرعية والأخلاقية، والأعراف التقليدية التي نشأت عليها الطائفة ودرجت في حفظ هذه الشعائر، ومكنتها من الصمود أمام حرب شرسة ما انفك الأعداء يشنونها عليها، بل ازدهرت وتألقت.

